عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

انتقام الجغرافيا

ما الذي تُخبرنا به الخرائط عن الصراعات المقبلة وعن الحرب ضد المصير

تأليف: روبرت د. كابلان

ترجمة: د. إيهاب عبد الرحيم علي



عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

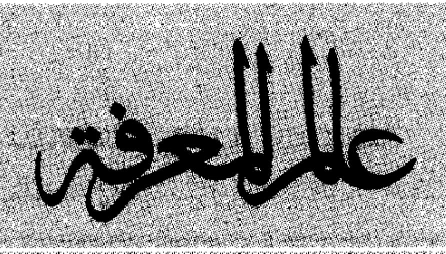
انتقام الجغرافيا

ما الذي تُخبرنا به الخرائط عن الصراعات المقبلة وعن الحرب ضد المصير

تأليف: روبرت د. كابلان
ترجمة: د. إيهاب عبد الرحيم علي



يناير 2015
420



سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون: 22929492 (965)
فاكس: 22929412 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 440 - 5

رقم الإيداع (2014/866)

العنوان الأصلي للكتاب

The Revenge of Geography

What the Map Tells Us About Coming Conflicts and the Battle Against Fate

By

Robert D. Kaplan

Random House, New York 2012

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

ربيع الأول 1436 هـ ـ يناير 2015

المحتوى

مقدمة

الحدود

«أقنعتني التقارير التي كتبتها على مدى أكثر من ثلاثة عقود بأننا جميعا في حاجة إلى استعادة إدراكنا للزمان والمكان، الذي ضاع في عصر الطائرة النفاثة وثورة المعلومات»

المؤلف

ثمة مكان جيد لفهم الحاضر، ولطرح الأسئلة حول المستقبل، وهو أديم الأرض، مع السفر فوقها بأبطأ ما يمكن.

عندما ظهرت في الأفق الثلة الأولى من التلال المقبّبة، والممتدة صعودا من الصحراء المستوية في شمال العراق، لتنتهي في سلاسل من القمم الجبلية التي يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم والمكسوة بأشجار البلوط والرماد الجبلي، ألقى سائقي الكردي نظرة إلى الوراء على السهل الفسيح المنبسط، وهو يمص لسانه بازدراء، وقال: «عربستان»، ثم غمغم - وهو ينظر باتجاه التلال - قائلا: «كردستان»، ومن ثم تهلّل وجهه. كان ذلك في العام 1986، في ذروة العهد الخانق لصدام حسين، ومع ذلك فبمجرد أن اخترقنا مزيدا من

الوديان الشـبيهة بالسـجون والصدوع المنيعة، اختفت فجـأة اللوحات الضخمة التي تحمـل صور صدام، والتي كانت معلقة في كل مكان، وكذلك اختفى الجنود العراقيون. أما من حل محلهم فهم البشمركة peshmergas الأكراد الذين يحملون أحزمة الكتف العريضة، ويعتمـرون العمائم ويرتدون السراويل الفضفاضة وأحزمة الخصر العريضة. ووفقا للخريطة السياسـية، فلم نكـن قد غادرنا دولة العراق قـط. لكن هذه الجبال كانت قد وضعت حدا لحكم صدام حسين، وهي حدود لم يُتغلب عليها إلا باتباع الأشد تطرفا من التدابير.

في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، وبسـبب غضبه من الحرية التي منحتها هذه الجبال للأكراد على مدى عقود وقرون، قرر صدام في النهاية شـن هجوم واسع النطاق على كردسـتان العراق، في حملة الأنفال الشـائنة التي أسفرت عن مقتل ما يقدّر بنحو 100 ألـف من المدنيـين. من الواضح أن الجبال لم تكن محـدّدة؛ لكنها عملت بالفعل بمنزلة سـتارة خلفيـة - أو الحقيقة الأصلية - لهذه الدراما المأسـاوية. وبسـبب هذه الجبال، انفصلت كردستان الآن فعليا عن الدولة العراقية إلى حد كبير.

تمثـل الجبال قوة واقية، فكثيرا مـا توفر الحماية ضمن ممراتهـا الضيقة لحضارات الشـعوب الأصلية ضد أيديولوجيات العصرنة الشرسـة التي كثيرا ما ابتُليت بها السهول، عـلى الرغم مـن أنها وفـرت في عصرنا الحـاضر مـلاذا للمقاتلين الماركسـيين وكارتلات (عصابـات) المخدرات[1]. في هذا السـياق، كتب عالم الأنثروبولوجيا بجامعة ييل، جيمس سي سـكوت Scott قائلا: «يمكننا فهم شـعوب التلال بأفضل صورة باعتبارها مجتمعات من الهاربين، المطاريد، الآبقين الذين ظلوا على مدى ألفي سنة يفرون من الاضطهاد الذي تمثله مشروعات صنع الدول في الوديان»[2]، لأن السـهول كانت هي المكان الذي أنشب فيه النظام الستاليني لنيكولاي تشاوشيسكو Ceausescu أنيابه في عموم السكان. وخلال صعودي جبـال الكاربات عدة مرات في ثمانينيات القـرن العشرين، رأيت علامات قليلة عـلى العمل الجماعي collectivization. تتحدد هذه الجبـال التي تمثل الباب الخلفي لوسـط أوروبا بالمساكن المصنوعة من الخشـب والحجر الطبيعي أكثر مما تتحدد بكتل الخرسانة والحديد الخردة، وهي العناصر المادية المفضلة للشيوعية الرومانية.

إن جبال الكاربات المحيطة برومانيا ليست أقل من جبال كردستان من حيث كونها حـدودا. وعند دخولي منطقة الكاربات من جهة الغرب، من سـهول بوسـطا Puszta

المجريـة الجرداء والخاوية على نحو مهيب، والتي تميزها تربة فاحمة السـواد وأمواج من العشب الأخضر الليموني، شرعتُ في مغادرة العالم الأوروبي للإمبراطورية النمساوية - المجرية السـابقة، حيث شـققت طريقـي تدريجيا إلى الأراضي الأفقـر اقتصاديا من الإمبراطورية التركية العثمانية السـابقة. وفي نهاية المطاف، ما مكّن الاسـتبداد الشرقي لتشاوشيسـكو، والذي كان أكثر قمعية بكثير من الشـيوعية العشـوائية في المجر، هو استحكامات جبال الكاربات.

ومـع ذلك، لم تكن جبال الكاربات منيعة على الاخـتراق، فقد ازدهر التجار طوال قـرون في ممراتها العديدة، حيث هم حملة السـلع والثقافة الرفيعة، بحيث يمكن أن يترسخ بعيدا عنها مظهر مؤثر لأوروبا الوسطى، في مدن وبلدات مثل بوخارست وروسه Ruse لكن الجبال كانت تشـكل تدرجا لا يمكن إنكاره، وهو الأول في سلسـلة ممتدة باتجاه الشرق، والتي تنتهي أخيرا في الصحراء العربية وصحراء كارا كوم Kara Kum.

وفي العـام 1999، ركبت سـفينة شـحن طـوال الليل مـن العاصمـة الأذربيجانية باكـو، الواقعة على الجانب الغربي من شـاطئ بحـر قزوين، إلى ميناء كراسنوفودسـك Krasnovodsk في تركمانسـتان، والذي يقع على الشـاطئ الشرقي، وهو بداية ما أطلق عليه الساسـانيون الفرس في القرن الثالث الميلادي اسم تركستان Turkestan. استيقظت لأجـد نفسي عند خط سـاحلي ضيق يضـم عددا من البيـوت الصغـيرة البيضاء مقابل منحدرات بلون الموت الطينـي. صدرت الأوامر لجميع الركاب بالاصطفاف في رتل واحد تحت درجة حرارة تقترب من 38 مئوية أمام بوابة تفتيش لا يوجد فيها سوى شرطي وحيد عمد إلى فحص جوازات سـفرنا. وبعد ذلك مررنا إلى سقيفة جرداء حارقة، حيث اتهمني شرطي آخر بتهريب المخدرات، عندما اكتشف أقراص بيبتو - بيسمول الذي أتناوله لعلاج الحموضة. أخذ الشرطي مصباحي اليدوي وأفرغ بطارياته التي تبلغ شـحنتها 1.5 فولت على الأرض الترابية. كانت تعبيرات وجهه قاتمة ووحشـية مثـل المنظر الطبيعي المحيط بنـا. كانت البلدة التي تلوح على مبعدة من السـقيفة عديمةَ الظل ومسـطحة بشـكل يبعث على الكآبة، مع القليل من التلميحات المعمارية على وجود ثقافة مادية. شـعرت فجأة بالحنين إلى باكو، بما تحتويه من الجدران الفارسـية التي تعود إلى القرن الثاني عشر وقصور الأحلام التي بناها بارونات النفط الأوائل، والتي تزينها الأفاريز وتماثيل الجرغول gargoyles، مـما يُعطي مظهرا خادعا للغرب، والـذي - على الرغم من جبال الكاربات،

والبحر الأسود، وجبال القوقاز الشاهقة - يرفض أن يموت تماما. وعندما ارتحلت شرقا، تبخرت أوروبا بالتدريج أمام عيني، حيث أشارت الحدود الطبيعية المتمثلة في بحر قزوين إلى المرحلة الأخيرة، التي تدل على بلوغنا صحراء كارا كوم.

وبطبيعة الحال، لا تُظهر الجغرافيا الحالة اليائسة لتركمانستان. وبدلا من ذلك، فهي لا تدل إلا على بداية الحكمة في البحث عن نمط تاريخي: ذاك المتعلق بالغزوات المتكررة من قبل البارثيين Parthians، والمغول، والفرس، والروس في أثناء الحقبة القيصرية، والسوفييت، ومجموعة كبيرة من القبائل التركية في مقابل طبيعة جرداء غير محمية. لم يكن هناك سوى الحد الأدنى من الوجود لأي حضارة، لأن أيا منها لم تُتح له فرصة غرس جذور عميقة على نحو دائم، وهو ما يساعد في تفسير انطباعاتي الأولى عن المكان.

ارتفع مستوى الأرض أثناء صعودنا إلى الأعلى، فما بدا قبل لحظات ككتلة واحدة من الحجر الرملي قد تفكّك إلى متاهة من قيعان الأنهار المجوّفة والمنعطفات التي تعكس ظلالا من اللونين الرمادي والكاكي. وعلى قمة كل تلة، كانت هناك أرض سبخة منخفضة تكتسب لونا أحمر أو مائلا إلى الأصفر عندما تسقط أشعة الشمس على المنحدرات العليا الشاهقة من زاوية مختلفة. اخترقت الحافلة نسمات من الجو البارد، وهي أول نفحات أتلقاها من هواء الجبال النقي بعد الغلاف الرقيق من الحرارة الذي يميز مقاطعة بيشاور Peshawar الحدودية في شمال غرب باكستان[3]. وفي حد ذاتها، فإن أبعاد ممر خيبر ليست بالمدهشة، إذ يقل ارتفاع أعلى قممه عن سبعة آلاف قدم، كما أن الارتفاع نادرا ما يكون حادا. ومع ذلك، فخلال أقل من ساعة في العام 1987، انتقلت عبر عالم بركاني سفلي محصور من الصخور والوديان المتعرجة؛ من الأرضية الاستوائية المورقة لشبه القارة الهندية إلى القفار الباردة الجرداء لوسط آسيا، من عالم من التربة السوداء، والأقمشة ذات الألوان الزاهية، والمطبخ الحار والغني، إلى عالم آخر من الرمال، والصوف الخشن، ولحم المعز.

ولكن مثل منطقة جبال الكاربات، التي اخترق التجار ممراتها، فإن جغرافية الحدود بين أفغانستان وباكستان تقدم لنا دروسا مختلفة: فما كان البريطانيون أول من أطلق عليه اسم «الحدود الشمالية الغربية» من الناحية التاريخية، ليس حدودا على الإطلاق وفقا للأستاذة في جامعة هارفارد سوجاتا بوس، لكنه يمثل القلب «من متصل» continuum

«هندو - إيراني» و«هندو - إسلامي»، وهو سبب كون أفغانستان وباكستان تمثلان كُلا عضويا واحدا، والذي يسهم في عدم تماسكهما الجغرافي كبلدين منفصلين[4].

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان هناك مزيد من الحدود المصطنعة: لقد عبرت جدار برلين إلى برلين الشرقية مرتين، في العامين 1973 و1981. كان الحاجز الخرساني الذي يبلغ ارتفاعه اثنتي عشرة قدما، والذي يعلوه أنبوب واسع، يقطع منظرا شبيها بأفلام الأسود والأبيض من أحياء المهاجرين التركية واليوغوسلافية الفقيرة على جانب ألمانيا الغربية، والمباني المهجورة التي لاتزال جدرانها تحمل آثار قذائف الحرب العالمية الثانية على جانب ألمانيا الشرقية. كان في وسعك تسلق الجدار ولمس أي جزء منه تقريبا على الجانب الغربي، حيث كانت الكتابة على الجدران graffiti، أما حقول الألغام وأبراج الحراسة فكانت جميعها تقع على الجانب الشرقي.

وبقدر السريالية التي بدا عليها في ذلك الوقت فناء السجن هذا، والمكون من تضاريس حضرية، فلا يسع المرء أن يتشكك فيه إلا من الناحية الأخلاقية؛ لأن الافتراض المهيمن على هذا العصر هو أن الحرب الباردة لم تنته بعد. وبصفة خاصة بالنسبة إلى أمثالي، الذين نشأوا خلال فترة الحرب الباردة لكنهم لا يمتلكون أي ذكريات على الإطلاق من الحرب العالمية الثانية، فإن السور - مهما كان وحشيا واعتباطيا - قد بدا سرمديا مثل سلسلة من الجبال. لم تظهر الحقيقة إلا من خلال الكتب والخرائط التاريخية لألمانيا التي شرعت - بالمصادفة المحضة - في الاطلاع عليها خلال الأشهر الأولى من العام 1989، عندما كنت في زيارة إلى بون لتغطية موضوع لإحدى المجلات. كانت لدى الكتب والخرائط قصة لترويها: في أثناء احتلالهم لقلب أوروبا بين بحر الشمال وبحر البلطيق وجبال الألب، فإن الألمان، وفقا للمؤرخ غولو مان Mann، كانوا دائما مثل قوة ديناميكية محبوسة ضمن «سجن كبير»، يرغبون في الخروج منه. ولكن بسبب انسداد جهتي الشمال والجنوب بفعل المياه والجبال، فإن الخروج يعني الاتجاه شرقا وغربا، حيث لا توجد عوائق جغرافية. «إن ما ميّز الطبيعة الألمانية طوال مائة عام هو افتقارها إلى الشكل، وعدم موثوقيتها»، هذا ما كتب مان، في إشارة إلى الفترة المضطربة بين ستينيات القرن التاسع عشر وستينيات القرن العشرين، التي تميزت أيضا بتوسع أوتو فون بسمارك Bismarck وبالحربين العالميتين[5]. لكن الأمر نفسه يمكن أن يقال على حجم ألمانيا وشكلها على الخريطة طوال تاريخها.

وفي الواقـع، كان الرايخ الأول، الذي أسسـه شـارلمان Charlemagne في العام 800، بمنزلـة فقاعـة متنقلة هائلة من الأراضي التي شـملت، في وقت أو آخر، النمسـا وأجزاء من سويسرا، وفرنسـا، وبلجيكا، وهولندا، وبولندا، وإيطاليا، ويوغسلافيا. بدا أن أوروبا في سـبيلها إلى أن تُحكم انطلاقا مما يتوافق الآن مـع ألمانيا. ولكن بعد ذلك جاء مارتن لوثر Martin Luther، الذي انشـق عن المسـيحية الغربية بحركة الإصـلاح، وهو الأمر الذي أشعل بدوره شرارة حرب الثلاثين عاما، التي دارت رحاها على التراب الألماني في المقام الأول؛ وبالتالي، جرى اغتصاب أوروبا الوسطى. وكلما تعمقت في القراءة - عن التزاوج الذي وقع في القرن الثامن عشر بين بروسيا والنمسا تحت حكم آل هابسبورغ، وعن الاتحاد الجمركي في القرن التاسع عشر بين العديد من الولايات الألمانية، وحركة التوحيد التي قادها بسمارك في أواخر القرن التاسع عشر انطلاقا من بروسيا - صار من الواضح أكثر أن جدار برلين كان مجرد مرحلة أخرى ضمن هذه العملية المستمرة من التحوّل الإقليمي.

إن الأنظمة التي انهارت بعد وقت قصير من سقوط جدار برلين في تشيكوسلوفاكيا، والمجـر، ورومانيـا، وبلغاريا، وفي بلدان أخرى - كانت بلدانا عرفتها من كثب من خلال العمل والسفر. للوهلة الأولى، كانت تبدو منيعة للغاية، ومثيرة لقدر هائل من الخوف، لـذا كان انهيارها المباغت بمنزلة درس مَعلَميّ بالنسـبة إليّ، ليس فقط بخصوص عدم الاستقرار الكامن في جميع الأنظمة الديكتاتورية، ولكن حول كيف أن الحاضر، مهما بدا سرمديا وسـاحقا، هو زائل لا محالة. أما الشيء الوحيد الثابت فهو موقع شعب ما على الخريطـة. وهكذا، ففي أوقات الاضطرابات، تـزداد أهمية الخرائط. ومع تغيّر الأرضية السياسـية تحت أقدامنا بسرعة، فإن الخريطة - على الرغم من أنها ليسـت محدّدة - فهي تمثل بداية استبصار أي منطق تاريخي حول ما يمكن أن يحدث لاحقا.

كان العنف هو الانطباع السائد عن المنطقة المنزوعة السلاح DMZ بين الكوريتين. وفي العام 2006، رأيت الجنود الكوريين الجنوبيين يقفون متجمدين في أوضاع الاستعداد لممارسـة التايكوندو، حيث كانت قبضتا وسـاعدا كل منهـم مضمومة وهم يحدقون في وجـوه نظرائهم من جنود كوريا الشـمالية. وللقيام بهـذه المهمة، انتقى كل جانب أطول جنوده وأكثرهم إثارة للرهبة. لكن الكراهية المعروضة رسـميا وسـط الأسـلاك الشائكة وحقول الألغام يُحتمل أن تُصبح تاريخا في المستقبل المنظور. فعندما ننظر إلى سيناريوهات تقسـيم البلدان الأخرى في القرن العشرين - مثل ألمانيا، وفيتنام، واليمن

- يتضح أنه مهما طال التقسيم، فإن قوى الوحدة الوطنية ستنتصر في نهاية المطاف، بطريقة غير مخطط لها وأحيانا عنيفة ومتسارعة الخطى. إن المنطقة المنزوعة السلاح، مثل جدار برلين، تمثل حدودا اعتباطية لا تستند إلى أي منطق جغرافي، والتي تقسم أمة عرقية عند نقطة اتُّفق أن يتوقف عن القتال عندها جيشان متحاربان. وبالطريقة نفسها التي جرت بها إعادة توحيد ألمانيا، يمكننا أن نتوقع، أو على الأقل ينبغي أن نخطط لقيام كوريا كبرى موحدة. ومرة أخرى، فمن المرجح أن تسود قوى الثقافة والجغرافيا عند نقطة ما. إن الحدود التي يصنعها البشر، والتي لا تتوافق مع منطقة من الحدود الطبيعية، تكون غير حصينة على نحو خاص.

عبرت أيضا الحدود البرية من الأردن إلى إسرائيل، ومن المكسيك إلى الولايات المتحدة: وسأتحدث أكثر عن هذه الحدود وغيرها في أجزاء لاحقة من الكتاب. أما الآن، فأود أن أصطحبكم في رحلة أخرى - من نوع مختلف جذريا - عبر صفحات مختارة من التاريخ والعلوم السياسية، والتي بقيت صامدة طوال عقود، بل قرون في بعض الحالات، والتي سيتيح لنا تركيزها على الجغرافيا قراءةَ خريطة التضاريس [الخريطة المجسّمة relief map] على نحو أفضل؛ ومن خلال ذلك، ستساعدنا على إلقاء لمحة خاطفة، على الرغم من كونها غير واضحة المعالم، على ملامح السياسة المستقبلية. إن الفعل نفسه - المتمثل في عبور عديد من الحدود - هو ما أثار فضولي العميق حول مصير الأماكن التي مررت عبرها.

أقنعتني التقارير التي كتبتها على مدى أكثر من ثلاثة عقود بأننا جميعا في حاجة إلى استعادة إدراكنا للزمان والمكان، الذي قد ضاع في عصر الطائرة النفاثة وثورة المعلومات، حيث تمكنت نخبة صنّاع الرأي العام من التنقل عبر المحيطات والقارات خلال ساعات، مما يسمح لهم بالتحدث بفصاحة عما وصفه الصحافي المتميز بصحيفة «نيويورك تايمز» توماس فريدمان Friedman باسم «العالم المسطّح». وبدلا من ذلك، فسأعرض على القراء مجموعة من المفكرين غير العصريين من دون ريب، والذين يناهضون بشدة فكرة أن الجغرافيا لم تعد مُهمة. وسأتناول أفكارهم بشيء من التعمق في النصف الأول من هذه الرحلة من أجل تطبيق حكمتهم في النصف الثاني منها، من حيث ما وقع وما يمكن أن يحدث في جميع أنحاء أوراسيا - من أوروبا إلى الصين، بما في ذلك الشرق الأوسط الكبير وشبه القارة الهندية. إن معرفة ما قد فُقِد بالتحديد من

رؤيتنا للواقع المادي، واكتشـاف كيف فقدناه، ومن ثم استعادته من خلال إبطاء وتيرة سـفرنا ومن خلال الملاحظة ذاتها - عن طريق الاسـتفادة من المعارف الواسعة للعلماء الذين صاروا الآن في رحاب الله: هذا هو الهدف من هذه الرحلة.

إن الجغرافيا، المشـتقة من كلمة يونانية تعني في الأسـاس «وصف الأرض»، ترتبط في كثير مـن الأحيان بالإيمـان بالجَبرية fatalism، وبالتالي فهي موصومـة: فالتفكير جغرافيـا يعني تقليص الخيـارات البشرية، كما يُقال. ولكن من خلال دراسـة أدوات مثل خرائط الإغاثة والدراسات السكانية، أود فقط أن أضيف طبقة أخرى من التعقيد على التحليلات التقليدية للسياسة الخارجية، وبالتالي إيجاد وسيلة أعمق وأقوى للنظر إلى العـالم. ليس عليـك أن تكون مؤمنـا بالحتمية الجغرافية لكي تـدرك أن الجغرافيا تمتلك أهمية حيوية. وكلما ازداد انشـغالنا بالأحداث الجاريـة، ازدادت أهمية الأفراد واختياراتهـم؛ ولكن كلـما ازداد تدبّرنا لما وقـع في القرون الغابـرة، ازداد اقتناعنا بأن الجغرافيا تؤدي دورا مُهما.

يُعـد الشرق الأوسـط مثالا حيا على ذلـك. في أثناء كتابتي لهذه السـطور، كانت المنطقة من المغرب إلى أفغانسـتان واقعة في خضم أزمة تتعلق بالسلطة المركزية. لقد صار النظام القديم المكوّن من الأنظمة الاستبدادية واهيا، على الرغم من كون الطريق نحو ديموقراطية مسـتقرة لايـزال ملتويا. تميـزت المرحلة الأولى من هـذا الاضطراب الشـديد بهزيمة الجغرافيا بفعل تقنيات الاتصالات الجديدة. عملت القنوات الفضائية والشـبكات الاجتماعية عبر الإنترنت على خلق مجتمع واحد من المتظاهرين في جميع أنحـاء العالم العربي: بحيث اسـتلهم دعاة الديموقراطية في أماكـن متباينة مثل مصر، واليمـن، والبحرين ما بـدأت شرارته في تونس. وبالتالي، كان هناك عدد من القواسـم المشتركة في الأوضاع السياسية في كل هذه البلدان. ولكن مع تواصل الثورة، بات واضحا أن كل بلد قد صاغ روايته الخاصة لها، والتي تتأثر بدورها بتاريخه العميق وبجغرافيته المتميزة. وكلما ازدادت معرفة المرء بتاريخ وجغرافية أي دولة بعينها في الشرق الأوسط، تناقص اندهاشه من مسار الأحداث هناك.

قـد يكون من قبيـل المصادفة جزئيا فقط أن بدأت الاضطرابـات في تونس. تُظهر خريطة العصور الكلاسـيكية القديمة تركّزا للمسـتوطنات في الموقع الذي تحتله تونس اليوم، جنبا إلى جنب مع الفراغ النسبي الذي يميز ما صار اليوم الجزائر وليبيا. ولكونها

تمثل لسـانا ناتئا في البحر الأبيض المتوسـط قريبا من صقليـة، كانت تونس هي المركز الديموغرافي لشـمال أفريقيا ليس فقط في ظل القرطاجيين والرومان، ولكن تحت حُكم الونـدال Vandals، والبيزنطيـين والعرب خلال العصور الوسـطى، والأتراك. وفي حين كانـت الجزائر الواقعة إلى الغرب منها وليبيا جارتها من الشرق مجرد تعبيرات جغرافية غامضـة، كانت تونس تمثل عنقودا من الحضارة القديمة العهد. (أما بالنسـبة إلى ليبيا، فقـد كانت منطقتها الغربية المتمثلـة في إقليم طرابلـس Tripolitania موجّهة نحو تونـس عبر التاريخ، بينما كانت منطقتها الشرقية المتمثلة في إقليم برقة Cyrenaica - أي بنغازي - موجهة دائما نحو مصر).

وطوال ألفي سـنة، كلـما ازداد القرب من قرطاج Carthage (وهـو الموقع التقريبي لتونس في العصر الحديث) زاد مستوى التطور. ولأن التمدن urbanization في تونس بدأ منذ ألفي سـنة، فإن الهوية القبلية المبنية على البداوة - والتي قال مؤرخ القرون الوسطى ابن خلدون إنها تعرقل الاستقرار السياسي - كانت ضعيفة وفقا لذلك. وفي الواقع، فبعد أن تمكن الجنرال الروماني سـكيبيو Scipio من هزيمـة هانيبال Hannibal في العام 202 قبل الميلاد على مشارف مدينة تونس، قام بحفر خندق لترسيم الحدود، أو ما عرف باسم الحفرة الملكية fossa regia، التي كانت تشـير إلى حـدود الإقليم المتحضر. ولاتزال الحفرة الملكية وثيقـة الصلة بالأزمة الراهنة في الشرق الأوسـط. ولكونها لاتـزال مرئية في بعض الأماكن، فهي تمر من طبرقة على السـاحل الشمالي الغربي التونسي جنوبا، أما من جهة الشرق، فهي تنعطف مباشرة إلى صفاقس، وهي ميناء آخر على البحر الأبيض المتوسـط. تتميز البلدات الواقعة وراء هذا الخط بعدد أقل من بقايا الآثار الرومانية، وتنزع اليوم إلى أن تكون أشد فقـرا وأقل تطورا، مع ارتفـاع تاريخي في معدلات البطالة. أما بلدة سـيدي بوزيد، حيث بدأت الثورة العربية في ديسـمبر 2010، عندما عمـد بائع للفاكهة والخضراوات إلى إضرام النار في نفسه كعمل من أعمال الاحتجاج، فتقع وراء خط سكيبيو بقليل.

ليسـت هذه قدرية، فمهمتي لا تتجاوز توفير سـياق جغـرافي وتاريخي للأحداث الجارية: بدأت الثـورة العربية من أجل الديموقراطية فيما كان، من الناحية التاريخية، المجتمع الأكثر تقدما في العالم العربي - وهو الأقرب جغرافيا إلى أوروبا - ومع ذلك فقد بـدأ أيضا على وجه التحديد في جزء من ذلك البلد جرى تجاهله منذ العصور القديمة، وبالتالي عانى التخلف.

من شــأن هذه المعرفــة أن تضيف عمقا إلى ما كان يحدث في أماكن أخرى: ســواء كان ذلــك في مــصر، وهي عنقود قديم آخر مــن الحضارة، والتي تمتلــك تاريخا طويلا كدولــة، مثلهــا في ذلك مثل تونــس؛ أو اليمن، وهي القلب الديموغرافي لشــبه الجزيرة العربية، والتي أفســدت محاولات الوحدة فيها تضاريســها الجبليــة المترامية الأطراف، والتــي عملت على إضعاف الحكومــة المركزية وبالتالي زيادة أهميــة الكيانات القبلية والجماعات الانفصالية؛ أو ســورية، التي يحمل شكلها المشذّب على الخريطة في داخله أقساما مبنية على العرق والهوية الطائفية. تشهد الجغرافيا بأن تونس ومصر متماسكتان من الناحية الطبيعية، في حين تتســم ليبيا، واليمن، وسورية بكونها أقل تماسكا. ويترتب على ذلك أن تونس ومصر اســتلزمتا أشكالا معتدلة نسبيا من الاستبداد للمحافظة على وحدة كل منهما، في حين أن ليبيا وســورية تطلبتا ضروبا أكثر تطرفا. وفي الوقت نفســه، جعلــت الجغرافيا اليمن دائما مكانا يصعب حُكمه عــلى الإطلاق. كانت اليمن تمثل ما أطلق عليه العالمان الأوروبيان اللذان عاشــا في القرن العشرين، إرنست غلنر Gellner، وروبير مونتاني Montagne، اســم المجتمع «الـمُجزّأ» segmentary، وهو ثمرة طبيعة شرق أوســطية تعصف بها الجبــال والصحاري. ولكونه يتأرجح بــين المركزية والفوضى، يتجســد هذا المجتمع وفقا لصياغة مونتاني في نظام «يســتنزف الحياة من منطقة ما»، على الرغم من أنه «بسبب الهشاشة المتأصلة فيه»، فقد فشل في إقامة مؤسسات دائمة. فهناك تتسم القبائل بقوتها والحكومة المركزية بضعفها [6]، وبالتالي فإن الصراع من أجل بناء أنظمة ليبرالية في مثل هذه الأماكن لا يمكن فصله عن مثل هذه الحقائق.

ومــع تراكم الاضطرابات السياســية، حيث يبدو العالم أكثر صعوبة في الســيطرة عليه، مع أســئلة لا تنتهي عن الكيفية المفترضة لاستجابة الولايات المتحدة وحلفائها، فإن الجغرافيا تقدم وسيلة لفهم جزء على الأقل مما يعنيه كل ذلك. ومن خلال دراسة الخرائــط القديمة، والتعاطــي مع الجغرافيين والمفكرين الجيوسياســيين من العصور الســابقة، أريد أن أرسّخ الحقائق العالمية في القرن الحادي والعشرين بقدر ما فعلت عند هذه الحدود بداية من أواخر القرن العشرين. وحتى إذا اســتطعنا إرسال أقمار صناعية إلى المجموعة الشمســية الخارجية - وحتى لو صارت الأسواق المالية والفضاء الإلكــتروني لا تعرف حدودا - فــإن جبال الهندوكوش Hindu Kush لاتزال تشــكل عائقا هائلا.

الجزء الأول

الحالمون

I

من البوسنة إلى بغداد

لاستعادة إحساسنا بقيمة الجغرافيا، علينا أولا أن نتعرف على تلك اللحظة في التاريخ الحديث، والتي فقدنا فيها هذا الإحساس على نحو أشد عمقا، وأن نفسر سبب خسارتنا هذه، ومن ثم توضيح كيف أثّر ذلك في افتراضاتنا عن العالم. وبطبيعة الحال فقد حصل هذا الفقدان بشكل تدريجي، لكن اللحظة التي استفردتها، والتي بدت فيها تلك الخسارة أكثر حدة، وقعت بعد سقوط سور برلين على الفور. وعلى الرغم من كونه حدودا اصطناعية كان ينبغي لانهيارها أن يحسّن احترامنا للجغرافيا ولخريطة التضاريس - وما يمكن أن تتنبأ بحدوثه هذه الخريطة في بلدان البلقان المجاورة، وفي الشرق الأوسط - فقد أعمتنا إزالة سور برلين عن العوائق الجغرافية الحقيقية التي لاتزال تقسمنا، والتي لاتزال تنتظرنا.

«أي حرب يمكن أن تكون أكثر عدلا من هذه؟»

المؤلف

لقد وجدنا أنفسنا فجأة في عالم أدى فيه تفكيك الحدود التي صنعها الإنسان في ألمانيا إلى افتراض أن كل الانقسامات البشرية يمكن التغلب عليها؛ وأن الديموقراطية ستنتصر في أفريقيا والشرق الأوسط بالسهولة نفسها التي فعلت بها ذلك في أوروبا الشرقية؛ وأن العولمة globalization - التي سرعان ما ستصير كلمة رائجة - لم تكن أقل من اتجاه أخلاقي للتاريخ ونظام للأمن الدولي، وليس ما كانت تمثله في الواقع، أي مجرد مرحلة اقتصادية وثقافية من مراحل التنمية. لنتدبر معا ما يلي: أيديولوجية دُحرت لفورها، حتى مع اعتبار الأمن الداخلي في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية أمرا مفروغا منه، كما ساد ما يُشبه السلام عموما. ولأنه التقط روح العصر ببصيرة ثاقبة، نشر نائب المدير السابق لموظفي تخطيط السياسات في وزارة الخارجية الأمريكية فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama مقالا قبل بضعة أشهر من سقوط سور برلين، حمل عنوان «نهاية التاريخ»، معلنا فيه أنه على الرغم من أن الحروب والثورات ستستمر فإن التاريخ بالمعنى الهيغلي Hegelian(*) قد انتهى الآن، لأن نجاح الديموقراطيات الليبرالية الرأسمالية قد أنهى الجدل حول ماهية نظام الحكم الأفضل للبشرية[1]. وبالتالي، كان الأمر مجرد مسألة صياغة للعالم بحيث يكون أقرب من صورتنا نحن، أحيانا عن طريق نشر القوات الأمريكية؛ مثل عمليات الانتشار التي نتجت عنها خسائر قليلة نسبيا في تسعينيات القرن العشرين. كانت هذه الدورة الفكرية الأولى لحقبة ما بعد الحرب الباردة، بمنزلة عصر للأوهام: كان ذلك وقتا اعتُبرت فيه كلمات مثل «واقعي» و«براغماتي» بمنزلة ازدراء، إذ كانت تدل على نفور صاحبها من التدخل الإنساني في الأماكن التي كانت المصلحة الوطنية، وفقا لتعريفها التقليدي والضيق، تبدو فيها بعيدة المنال. كان الأفضل في تلك الأيام أن تكون من المحافظين الجدد neoconservative أو من الأمميين الليبراليين، الذين كان ينظر إليهم على أنهم أناس أذكياء طيبون، والذين لا يريدون سوى وقف الإبادة الجماعية genocide في البلقان(**).

بيد أن هذه الفورة من المثالية idealism في الولايات المتحدة لم تكن غير مسبوقة، فالانتصار في الحرب العالمية الأولى أفضى إلى رفع راية «الولسونية» Wilsonianism،

(*) اعتبر هيغل التاريخ صيرورة معقولة تتحرك بإتجاه حالة محددة؛ وهي تحقق الحرية الإنسانية. [المحرر].

(**) تجدر الإشارة إلى التمييز بين الإبادة والمذبحة، إذ إن الثانية تكاد تكون مقصورة على القتل المتعمد لمجموعة من الناس، في حين أن الأولى قد تشتمل على التدمير العرقي والثقافي والديني لفئة من الناس بقصد طمس أثرها. [المحرر].

وهـــي مفهوم يرتبط بالرئيس وودرو ويلســـون، الذي - كما اتضح لاحقا - لم يضع في اعتبـــاره إلا القليل من الأهـــداف الحقيقية لحلفاء أمريكا في أوروبا، فضلا عن اعتبار أقـــل لواقع بلدان البلقان والـــشرق الأدنى، والتي - كما أظهرت الأحداث التي وقعت في عشرينيـــات القرن العشرين - كانت الديموقراطية والتحرر من هيمنة إمبراطورية الأتراك العثمانيين فيها تعني - في الأســـاس - زيادة ضيقة الأفق في الوعي العرقي في الأجزاء المنفردة من السلطنة القديمة. حدثت ظاهرة مماثلة لذلك بعد انتصار الغرب في الحرب الباردة التي اعتقد كثيرون أنها ستؤدي ببساطة إلى تحقّق الحرية والرخاء تحت راية «الديموقراطية» و«الأســـواق الحرة». أشـــار كثـــيرون إلى أنه حتى أفريقيا، وهي أفقر القارات وأقلها اســـتقرارا، والتي تعـــاني مزيدا من التكبيل المتمثل في أكثر حـــدود العالم افتعالا وأقلها منطقية، قد تكون بدورها على أعتاب ثورة ديموقراطية؛ كأن انهيار الإمبراطورية السوفييتية في قلب أوروبا كان يحمل معنى ساميا لأقل دول العالم تقدما، والتي يفصلها عنها بحر وصحراء وتبعد عنها آلاف الأميال، لكنها ترتبط عبر التلفاز[2]. ومع ذلك، وكما حدث تماما بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، فقد اســـتهل انتصارنا في الحـــرب الباردة قدرا من الديموقراطية والســـلام العالمي أقل من الصراع التالي من أجل البقاء، والذي سيرتدي فيه الشر أقنعة جديدة.

وفي الواقع أن الديموقراطية وحكومات أفضل ستبدأ في الظهور في كل أرجاء أفريقيا، لكن ذلك ســـيمثل صراعا طويلا وصعبا، مع تنامي الفوضى (في حالة العديد من بلدان غرب أفريقيا)، والعصيان المســـلح، والشر البواح (في حالة رواندا) لفترات طويلة خلال هذه الأثناء. ســـتقطع أفريقيا شـــوطا طويلا في تعريف العقـــد decade الطويل ما بين التاســـع من نوفمبر 1989، والحادي عشر من ســـبتمبر 2001، أو بين سقوط سور برلين وهجـــمات القاعدة على البنتاغون ومركز التجـــارة العالمي: وهي فترة الاثني عشر عاما التي شـــهدت موجات من القتل الجماعي والتدخلات الإنســـانية المتأخرة وهي تُحبط أحلام المثقفين المثاليين، حتى عندما أدى نجاح تلك التدخلات في نهاية المطاف إلى رفع شـــعور المثاليين بالتفوق إلى آفاق ســـيثبت لاحقا كونها كارثية في العقد الذي بدأ بعد الحادي عشر من سبتمبر.

وفي هذا العقد الجديد الذي بدأ بعد أحداث الحادي عشر من ســـبتمبر، سنرى أن الجغرافيا، التي مثّلت عاملا مُهما من دون شك في البلقان وأفريقيا في تسعينيات

القرن العشرين، ستعمل على تدمير النوايا الأمريكية الجيدة في الشرق الأدنى على نحو تام. إن الرحلة من البوسنة إلى بغداد، التي بدأت بحملة جوية وأرضية محدودة في الجزء الغربي الأكثر تقدما من الإمبراطورية التركية السابقة في البلقان، وانتهت بغزو شامل بقوات المشاة في الجزء الشرقي الأقل تقدما في بلاد ما بين النهرين، من شأنها أن تكشف حدود العالمية الليبرالية liberal universalism، وفي أثناء ذلك تُضيف بُعدا جديدا لخريطة التضاريس.

بدأت الحرب الباردة بالفعل في ثمانينيات القرن العشرين، قبل سقوط سور برلين، مع إحياء مصطلح «أوروبا الوسطى» Central Europe، الذي عُرِّف لاحقا من قبل الصحافي والباحث بجامعة أكسفورد، تيموثي غارتون آش Ash، على أنه «تمييز سياسي - ثقافي ضد الشرق السوفييتي»[3]. كانت أوروبا الوسطى، أو Mitteleuropa بالألمانية، فكرة مفاهيمية أكثر من كونها حقيقة جغرافية؛ فهي تمثل إعلانا للذكرى: أي تذكير بحضارة أوروبية قوية، فوضوية على نحو لذيذ، ورومانسية، والتي تذكّر المرء بالشوارع المرصوفة بالحصى والسقوف الجملونية، وبالمشروبات الغنية وبمقاهي فيينا، وبالموسيقى الكلاسيكية، وبتقليد إنساني متحضّر ولطيف، منغمس في الفنون الانفعالية المزعجة والفكر الحداثي. وهي تستحضر الإمبراطورية النمساوية المجرية وتذكّر بأسماء مثل غوستاف ماهلر Mahler، وغوستاف كليمت Klimt، وسيغموند فرويد Freud، كما تفيض بالتقدير العميق لأمثال إيمانويل كانط Kant، والفيلسوف الهولندي اليهودي باروخ سبينوزا Spinoza. وفي الواقع، فإن «أوروبا الوسطى»، كانت تعني - من بين أمور أخرى كثيرة - العالم الفكري المهدد بالانقراض لليهود قبل ويلات النازية والشيوعية؛ كما كانت تعني التنمية الاقتصادية، مع استحضار قوي لذكرى إقليم بوهيميا قبل الحرب العالمية الثانية، باعتبار أنه كان يتمتع بمستوى من التصنيع يتفوق على نظيره في بلجيكا. كان ذلك يعني، مع كل انحطاطاتها ومساوئها الأخلاقية، منطقة من التسامح النسبي بين الأعراق المتعددة تحت مظلة إمبراطورية آل هابسبورغ الحميدة على رغم كونها مختلة على نحو متزايد. وفي المرحلة الأخيرة من الحرب الباردة، وصف أوروبا الوسطى بإيجاز بليغ أستاذ جامعة برينستون البروفيسور كارل شورسكه Schorske في كتابه الكلاسيكي المقلق وذي الرؤية القاتمة «فيينا في نهاية القرن: السياسة والثقافة»، والكاتب

الإيطالي كلاوديو ماغريس Magris في كتاب أدب الرحلات الرائع الذي ألّفه بعنوان «الدانوب». وبالنسبة إلى ماغريس، فإن أوروبا الوسطى هي إحساس «يعني الدفاع عن برنامج بعينه ضد أي برنامج شمولي». أما بالنسبة إلى الكاتب المجري جيورجي كونراد Konrád والكاتب التشيكي ميلان كونديرا Kundera، فإن «أوروبا الوسطى» هي شيء «نبيل»، وهي «مفتاح عمومي» لتحرير الطموحات السياسية[4].

كان الحديث عن «أوروبا الوسطى» في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين يعني القول بأنها ثقافة تتألف - في حد ذاتها - من جغرافية راسية بقدر رسوخ سلسلة من الجبال، أو بقدر ما أحدثته فيها الدبابات السوفييتية. ولأن فكرة أوروبا الوسطى كانت بمنزلة انتقاد حاد لجغرافية الحرب الباردة، والتي كانت أفرزت مصطلح «أوروبا الشرقية» للدلالة على ذلك النصف من أوروبا الذي يدين بالشيوعية ويُدار من موسكو. وقد قيل بحق إن ألمانيا الشرقية، وتشيكوسلوفاكيا، وبولندا، والمجر كانت جميعها تمثل جزءا من أوروبا الوسطى، وبالتالي لم يكن ينبغي تسليمها إلى سجن الدول الشيوعية السابقة، ولا إلى حلف وارسو. وبعد بضع سنوات، ويا للسخرية! عندما اندلعت الحرب العرقية في يوغوسلافيا، فإن «أوروبا الوسطى» بدلا من أن تكون مصطلحا يعني التوحيد، سوف تمثل أيضا إشارة تدل على الانقسام؛ مع تفكّك وانفصال «دول البلقان» في أذهان الناس عن أوروبا الوسطى، والتي أصبحت، في الواقع، جزءا من الشرق الأدنى الجديد/ القديم.

كانت منطقة البلقان مرادفا للإمبراطوريتين التركية والبيزنطية القديمتين، مع سلاسل جامحة من الجبال التي عملت على إعاقة تنميتها، في ظل مستوى معيشي أدنى عموما، والذي يرجع إلى عقود وقرون بالمقارنة مع أراضي إمبراطوريتي هابسبورغ وبروسيا السابقتين في قلب أوروبا. وخلال العقود الأحادية اللون من الهيمنة الشيوعية، كانت دول البلقان مثل رومانيا وبلغاريا، في الواقع، تعاني درجة من الفقر والقمع غير معروفة في النصف الشمالي (الوسط أوروبي) من الإمبراطورية السوفييتية. كان الوضع معقدا، بطبيعة الحال. كانت ألمانيا الشرقية هي الأكثر احتلالا بالفعل من بين الدول التابعة، وبالتالي كان نظامها الشيوعي من بين الأكثر تشددا، وحتى يوغوسلافيا - التي لم تكن رسميا عضوا في حلف وارسو - كانت تسمح بدرجة من الحرية، وخاصة في مدنها، وهو أمر لم يكن معروفا في تشيكوسلوفاكيا،

على سبيل المثال. ومع ذلك، وبصفة عامة، فإن أمم الإمبراطوريات التركية والبيزنطية السابقة في جنوب شرق أوروبا لم تُعانِ بسبب أنظمتها الشيوعية قدرا من الاستبداد يقل عن مثيله في النسـخة الشرقية، كأنه غزو مغولي ثانٍ، في حين أن أمم أوروبا آل هابسـبورغ الكاثوليكية السـابقة كانت تُعاني في الأساس بسـبب حُكم أقل خباثة: مزيـج كئيب من درجات متفاوتة من الشـعبوية الاشـتراكية الراديكالية. وفي هذا السـياق، فإن السـفر من المجر الليبرالية نسبيا، وإن كانت شـيوعية، في ظل حكم يانوس كادار Kádár إلى رومانيا تحت الحكم الشـمولي لنيكولاي تشاوشيسكو كان مثـالا نموذجيا في هـذا الصدد. وقد قمت بهـذه الرحلة كثـيرا في ثمانينيات القرن العشريـن: في أثناء مـرور قطاري برومانيا آتيا من المجر، سـاءت جودة مواد البناء فجأة؛ ونهب المسؤولون حقائبي وأجبروني على دفع رشوة لإدخال آلتي الكاتبة؛ كما اختفـى ورق التواليت من المرحاض، وأظلمت الأضـواء الخافتة. صحيح أن منطقة البلقان كانت شديدة التأثر بوسط أوروبا، لكنها كانت متأثرة بالقدر نفسه بالشرق الأوسـط الذي يبعد عنها المسافة نفسها. كانت السـهوب المغبرة بساحاتها العامة القاتمة - والمسـتوردة من الأناضول - تمثل واحدة من سـمات الحياة في كوسـوفو ومقدونيـا، حيث كان من الصعب العثور على ملامـح الحياة الاجتماعية المتحضرة لبراغ وبودابست.

ومن ثم، لم يكن الأمر من قبيل المصادفة، أو ناتجا كليا عن أعمال أفراد أشرار، أن اندلع العنف وسـط الخليط العرقي في يوغوسلافيا وليس، مثلا، في دول وسط أوروبـا غير العرقية كالمجر وبولندا. وقـد كان للتاريخ والجغرافيا، بدورهما، دور في ذلك.

ولكـن من خـلال النظر إلى أوروبا الوسـطى باعتبارها قبلـة الأنظار الأخلاقية والسياسـية، بدلا من كونها قبلة جغرافية، طـرح المثقفون الليبراليون، مثل غارتون آش - وهـو أحـد الأصوات الأكثر بلاغة التي ظهرت خلال هـذا العَقد - رؤية ليس لأوروبـا فقط، ولكن للعالم؛ والتي اتسـمت بكونها اشـتمالية inclusive وليسـت تمييزية. وفي هذا المنظور، ليسـت بلدان البلقان وحدها التي يجب ألا تُترك فريسة للتخلف والهمجية، بل ولا أي مكان آخر: أفريقيا، على سبيل المثال. من شأن سقوط سـور برلـين أن يؤثر ليـس فقط في ألمانيا، لكنـه، بدلا من ذلـك، كان لا بد من أن

يطلق العنان لحلم أوروبا الوسطى بوضوح في كل أرجاء العالم. كانت هذه المقاربة الإنســانية humanist جوهر نظرة كونية تقول بأن الليبراليين الأمميين والمحافظين الجدد قد ساهموا - على حد سواء - في صياغة تسعينيات القرن العشرين. أذكر أنه قبــل أن يصبح معروفا بتأييده للحرب على العراق، كان بول وولفويتز Wolfowitz من دعاة التدخل العســكري في البوســنة وكوســوفو، وكان في الواقــع متحالفا مع ليبراليين مثل غارتون آش في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس New York Review of Books اليسارية التوجه. تعود جذور الطريق إلى بغداد إلى التدخلات في البلقان خلال تســعينيات القرن العشرين، التي عارضها الواقعيون والبراغماتيون، حتى بعد أن ثبت أن هذه الحملات العســكرية في يوغوســلافيا السابقة قد حققت نجاحا لا يمكن إنكاره.

لا يمكن فصل التوق إلى إنقاذ المســلمين في البوســنة وكوســوفو عن التوق إلى اســتعادة أوروبا الوسطى، ســواء باعتبارها مكانا حقيقيا أو متصورا بصورة مؤثرة، والذي سيُظهر كيف أن الأخلاق والإنسانية، في نهاية المطاف، هي ما يقدس الجمال (عــلى رغم أن غارتون آش نفســه كان متشــككا في الجهود المبذولــة لجعل أوروبا الوســطى مكانا مثاليا، فإنه أدرك الفائدة الأخلاقيــة الإيجابية التي يمكن أن يطبّق عليها مثل هذا الاســتمثال idealization). سجّلت الكتابات الإنسانية لأشعيا برلين Berlin الروح الفكرية لتسعينيات القرن العشرين. وفي مذكراته المؤرّخة للفترة التي قضاها في ألمانيا الشرقية[5]، كتب غارتون آش: «كنت أقول Ich bin ein Berliner، وتعني بالألمانية أنني أشــبه أشعيا برلين». أما الآن وقد اندحرت الشيوعية وتكشف زيف اليوتوبيا الماركســية، كان أشعيا برلين بمنزلة الترياق المثالي للنظريات الواحدية monistic العصريــة التــي اجتاحت الحيــاة الأكاديمية على مــدى العقود الأربعة الســابقة. أما برلين، الذي كان يدرس في جامعة أكسفورد، والذي تزامنت حياته مع القــرن العشرين، فقد دافع دائما عن البراغماتيــة البرجوازية و«التنازلات المماطلة» بشــأن التجريب الســياسي[6]. كان برلين مبغضا للجوانب الجغرافية والثقافية، وكل الأشــكال الأخرى للحتمية determinism، رافضا تسليم أي شخص وأي فرد لمصيره المحتــوم. تمثلت آراؤه، التي عرضها بالتفصيــل في العديد من المقالات والمحاضرات على مدى عمره، غالبا كصوت أكاديمي وحيد في البرية، في توليفة مثالية من المثالية

المعتدلة التي طبقها ضد الشيوعية، وفكرة أن الحرية والأمن متاحان لبعض الشعوب فقط وليس لغيرها. كانت فلسفته ومثال أوروبا الوسطى متوافقين تماما. ولكن وعلى رغم أن مفهوم أوروبا الوسطى كان واضحا، كما شرحه هؤلاء المثقفون المتسمون بالحكمة والبلاغة، فقد كانت في الواقع قضية نبيلة، والتي يجب أن تؤدي باستمرار دورا في السياسات الخارجية لجميع الدول الغربية، كما سأوضح لاحقا، لكنها تواجه عقبة أجد نفسي مجبرا أيضا على تناولها.

ولأنه لاتزال هناك مشكلة مع هذه الرؤية السامية، ثمة حقيقة قبيحة عملت في كثير من الأحيان على مر التاريخ على تحويل مفهوم أوروبا الوسطى إلى شيء مأسوي؛ فأوروبا الوسطى، وببساطة، ليس لها واقع على خريطة التضاريس. (استشعر غارتون آش هذا بحدسه في عنوان إحدى مقالاته «هل توجد أوروبا الوسطى بالفعل؟»[7]. وهنا يدخل إلى الصورة الحتميون الجغرافيون، الذين يتسمون بالفظاظة والتجهّم مقارنة بالصوت اللطيف لأشعيا برلين: خاصة الصوت الذي ينتمي إلى العصر الإدواردي للسير هالفورد ج. ماكيندر Mackinder وتلميذه جيمس فيرغريف Fairgrieve، اللذين اعتبرا أن فكرة أوروبا الوسطى تعاني «عيبا جغرافيا مميتا». يخبرنا ماكيندر وفيرغريف بأن أوروبا الوسطى تنتمي إلى «منطقة الحشود» crush zone التي تقع بجوار أوروبا البحرية، بكل «مصالحها المحيطية»، و«المنطقة المركزية لأوراسيا بمنظورها القاري». وباختصار، فمن الناحية الإستراتيجية، لم يكن هناك «أي متسع» لأوروبا الوسطى في نظر ماكيندر وفيرغريف[8]. أما الاحتفاء بأوروبا الوسطى، والتساهل الذي له ما يبرره تجاه ذلك من قبل المثقفين الليبراليين، كما أشارت إليه كتابات ماكيندر وفيرغريف، فيشير إلى وجود فترة إرجاء للجغرافيا السياسية - أو على الأقل الرغبة في الحصول على واحدة. ومع ذلك، فإن سقوط سور برلين لم يؤد إلى إنهاء الجغرافيا السياسية - وبالأحرى لم يستطع إنهاءها؛ فكل ما فعله هو الانتقال بها إلى مرحلة جديدة. لا يمكنك أن تتمنى ببساطة زوال صراعات الدول والإمبراطوريات عبر الخريطة.

سأقوم باستكشاف كتابات ماكيندر، لاسيما فرضيته عن »المنطقة المركزية« Heartland، وبالتفصيل في موضع لاحق. ويكفي أن أقول الآن إنها، على رغم طرحها منذ أكثر من مائة سنة، فقد أثبتت كونها وثيقة الصلة على نحو ملحوظ بديناميات

الحــرب العالمية الأول، والحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة. وعند تفكيكهما إلى أبســط منطق لهما، فقد دارت الحربان العالميتان حول ما إذا كانت ألمانيا ستهيمن أم لا على المنطقة المركزية لأوراسيا، والتي تقع إلى الشرق منها، في حين ركزت الحرب الباردة بهيمنة الاتحاد السوفييتي على شرق أوروبا - وهي الحدود الغربية للمنطقة المركزية التي وصفها ماكيندر. وبالمناسبة فإن أوروبا الشرقية السوفييتية هذه كانت تضم في نطاقها ألمانيا الشرقية، وهي بروسيا التاريخية، التي تمثلت دوافعها الإقليمية تقليديا في التوســع شرقا باتجاه المنطقة المركزية، في حين احتوى الجزء الداخلي من تحالــف الناتو NATO المحيطي ألمانيا الغربية، التــي كانت كاثوليكية من الناحية التاريخية، وذات فكر صناعي وتجاري، بتوجهها المنصب نحو بحر الشمال والمحيط الأطلسي. يجادل الجغرافي الأمريكي الذي اشتهر خلال فترة الحرب الباردة، شاول ب. كوهــين Cohen، بأن «المنطقة الحدودية التي تفصل بين ألمانيا الشرقية والغربية... هي واحدة من بين الأقدم في التاريخ»، فهي المنطقة التي كانت تفصل بين الفرنجة والقبائل الســلافية في العصور الوســطى. وبعبارة أخرى، فلم يكن هناك سوى قليل من الاصطناع فيما يتعلق بالحدود بين ألمانيا الشرقية والغربية. كانت ألمانيا الغربية، وفقا لكوهين، تمثل «انعكاســا بارزا لأوروبا البحرية»، في حين تنتمي ألمانيا الشرقية إلى «عالم القوة البرية القارّية».

دعم كوهين تقســيم ألمانيــا باعتباره أمرا «ســليما من الناحية الجيوسياســية وضروريــا من الناحية الإســتراتيجية»، لأنه يعمل على اســتقرار المعركة الدائمة بين المنطقتــين البحرية وتلك المركزية لأوروبا[9]. وفي العام 1919، كتب ماكيندر ببصيرة ثاقبة أن «الخط المار عبر ألمانيا... هو الخط نفســه الذي افترضنا، بناء على أســباب أخرى، أن يرســم الحدود الإستراتيجية بين المنطقة المركزية والأراضي الساحلية»[10]. وبالتالي، ففي حين أن تقســيم برلين نفســها كان مصطنعا، كان تقســيم ألمانيا أقل اصطناعــا. تحدث كوهين عن وســط أوروبا كونها «مجرد تعبــير جغرافي يفتقر إلى أي جوهر جيوســياسي»[11]. وبالتالي فإن توحيد ألمانيا، وفقا لهذا المنطق، لن يؤدي إلى انبعاث أوروبا الوســطى، بل سيؤدي ببســاطة إلى معركة متجددة حول أوروبا، وبالتالي حول المنطقة المركزية لأوراسيا: وبعبارة أخرى، ففي أي اتجاه ستتأرجح ألمانيا إلى الشرق باتجاه روســيا، مع عواقب وخيمــة على كل من بولندا، والمجر، والبلدان

الأخرى التي كانت تدور في فلك روسيا في السابق، أم إلى الغرب باتجاه المملكة المتحدة والولايات المتحدة، مما يمثل انتصارا للنطاق البحري؟ مازلنا نجهل الإجابة عن هذا السؤال، لأن فترة ما بعد الحرب الباردة لاتزال في مراحلها المبكرة. لم يكن بوسع كوهين ولا غيره أن يتوقع بدقة الطبيعة «المتجنّبة للحرب» debellicized لألمانيا الموحدة اليوم، والتي يوجد «نفورها من الحلول العسكرية» عند مستوى عميق من ثقافتها، الأمر الذي قد يساعد في المستقبل على استقرار أو زعزعة الاستقرار في القارة، وهو أمر يتوقف على الظروف[12]. وبالتحديد لأنهم احتلوا وسط أوروبا كقوة برية، فقد أظهر الألمان دائما وعيا حادا بالجغرافيا والإستراتيجية كآلية للبقاء؛ وهو أمر قد يستعيده الألمان مجددا، مما سيسمح لهم بالتحرك بعيدا عن السلمية الظاهرية quasi-pacifism التي ينتهجونها الآن. وفي الواقع، هل يمكن لألمانيا الموحدة والليبرالية أن تصبح قوة موازِنة في حد ذاتها - بين المحيط الأطلسي والمنطقة المركزية لأوراسيا – مما يسمح بترسيخ تفسير جديد وجريء لثقافة أوروبا الوسطى، وبالتالي يزود مفهوم أوروبا الوسطى بثقل جيوسياسي؟ ومن شأن ذلك أن يمنح المفكرين من أمثال غارتون آش مصداقية أكثر من ماكيندر وكوهين. وباختصار، فهل ستتمكن أوروبا الوسطى، كمثال على التسامح والحضارة الراقية، من البقاء على قيد الحياة في وجه الهجمات التي ينطوي عليها صراع القوى العظمى الجديدة ؟ فمن المؤكد أن مثل هذه النزاعات ستقع في هذا القلب الأوروبي. إن الثقافة النابضة بالحياة لوسط أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر، والتي بدت مُغرية للغاية من موقع المراقبة لأواخر القرن العشرين، كانت في حد ذاتها ثمرة لواقع إمبراطوري وجيوسياسي عديم العاطفة ومحدد الاتجاه، أي النمسا تحت حكم آل هابسبورغ. ترتكز الليبرالية في نهاية المطاف على السلطة: ربما كانت سلطة حميدة، ولكنها تظل سلطة على الرغم من ذلك.

لكن التدخلات الإنسانية في تسعينيات القرن العشرين لم تكن غافلة عن الصراعات حول السلطة، كما لم تكن أوروبا الوسطى تشكل رؤية خيالية في أعينها. وبدلا من ذلك، فإن استعادة أوروبا الوسطى عن طريق وقف القتل الجماعي في منطقة البلقان كانت بمنزلة صرخة هادئة ومستبصرة للتوظيف السليم للقوة العسكرية الغربية، من أجل الحفاظ على معنى الانتصار في الحرب الباردة. وبعد

كل شيء، فما كان السـبب الرئيسي للحرب الباردة في نهاية المطاف، باسـتثناء جعل العالم آمنا للحرية الفردية؟ وفي إشـارة إلى الحماسـة التي تنـاول بها المثقفون من أمثالـه حرب البلقان[13]، كتب مايـكل إيغناتييـف Ignatieff، وهو مؤرخ ومفكر وكاتب سيرة أشـعيا برلين: «بالنسبة إلى الأمميين الليبراليين، أصبحت البوسنة بمنزلة الحرب الأهلية الإسبانية لعصرنا الحالي».

كانت الدعوة إلى الفاعلية الإنسانية human agency – وإلى هزيمة الحتمية – تتسـم بالإلحاح في عقولهم. وفي هذا السياق، يتذكر المرء مقطعا من رواية جويس، عوليـس Ulysses، والذي يـرثي فيه ليوبولد بلوم «الظـروف الجينية التي يفرضها القانون الطبيعي»: «الأوبئة المهلكة»، و«النوازل الكارثية»، و«الاضطرابات الزلزالية»، والتي يستجيب لها سـتيفن ديدالوس Dedalus عن طريق التأكيد ببساطة مؤثرة على «أهميته كحيوان عقلاني واع»[14]. صحيح أن الفظائع تقع، فهكذا يسـير العالم؛ لكنها يجب ألا تكون مقبولة إلى هذا الحد. ولأن الإنسان كائن عقلاني، فهو يمتلك في نهاية المطاف القدرة على الكفاح ضد المعاناة والظلم.

وهكـذا، وفي وجود أوروبا الوسـطى كنجـم هاد، أفضى الطريـق إلى الجنوب الشرقي، ابتداء من البوسـنة، مرورا بكوسـوفو، ومنها إلى بغـداد. وبطبيعة الحال، فإن العديد من المثقفين الذين أيدوا التدخل في البوسنة قد عارضوه في العراق - أو تشـككوا في جدواه عـلى الأقل، لكن ذلك لم يكن ليثنـي المحافظين الجدد وغيرهم عن تصميمهم. ولأن منطقة البلقان، كما سـنرى، أظهرت لنا رؤية لسياسـة التدخل interventionism، عـلى رغم كونـه متأخرا، التي تكلف القليـل من حيث حياة الجنود، وتدع كثيرين مخدوعين بوهم أن النصر المؤلم يمثل الآن مستقبل الحرب. إن تسعينيات القرن العشرين، التي اتسمت بتداخلاتها المتأخرة، وكما كتب غارتون آش بصـدق مؤلم، تذكرنا بثلاثينيات القرن العشرين، والتي وصفها و. هـ. أودن Auden بأنهـا «عقد دنيء وغير شريف»[15]. كان هذا صحيحا، لكنهما كانا - من منظور آخر - متساهلين للغاية في هذا الوصف.

وفي ذلك الوقت، أي في تسـعينيات القرن العشرين، بـدا أن التاريخ والجغرافيا قد أطلا بالفعل برأسـيهما الحاقدتين. بعد أقل من عامين من سـقوط سـور برلين، وعـلى رغـم كل التحركات غـير التاريخيـة والأممية التـي أعقبت ذلـك الحدث،

وجدت وسائل الإعلام العالمية نفسها منغمسة فجأة في أطلال من الدخان وجبال من الركام، والمعادن المشوّهة لمدن يصعب نطق أسمائها، والواقعة في منطقتين حدوديتين من الإمبراطوريتين النمساوية والتركية السابقتين، وهما بالتحديد سلافونيا Slavonia وكرايينا Krajina، اللتين شهدتا لفورهما فظائع لم تشاهد في أوروبا منذ أيام النازيين. من التأملات الوهمية للوحدة العالمية، تحولت المناقشة بين النخب الآن إلى تواريخ محلية معقدة وغير مترابطة لا تبعد سوى بضع ساعات عن فيينا عبر سهل بانونيا، والواقع في القلب من أوروبا الوسطى. أظهرت خريطة تضاريس جنوب وشرق كرواتيا، على مقربة من نهر سافا، باعتبارهما الحد الجنوبي للأراضي الأوروبية المسطحة الواسعة، والتي تنبئ هنا، فيما وراء ضفتي نهر سافا، بظهور سلاسل متشابكة من الجبال التي تعرف باسم جبال البلقان: إن خريطة التضاريس، التي تشير إلى بقعة واسعة وخضراء مسطحة من الأراضي الممتدة من فرنسا وصولا إلى روسيا (من جبال البرانس إلى جبال الأورال)، تحول فجأة، وبالتحديد على الضفة الجنوبية لنهر سافا، إلى اللون الأصفر ثم إلى البني، مما يشير إلى تضاريس أكثر ارتفاعا وأشد وعورة، والتي ستستمر هكذا باتجاه الجنوب الشرقي وصولا إلى آسيا الصغرى. كانت هذه المنطقة، القريبة من حيث تبدأ الجبال، تمثل الحدود المتداخلة التي كانت تجوبها ذهابا وإيابا جيوش هابسبورغ النمساوية وتلك العثمانية التركية: هنا تنتهي المسيحية الغربية وعالم الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ويبدأ الإسلام؛ وهنا تحتشد كرواتيا ضد صربيا.

أما كرايينا، التي تعني «الحدود» باللغة الصربو - كرواتية، فكانت منطقة عسكرية أنشأها النمساويون في أواخر القرن السادس عشر لصد التوسع التركي، حيث استدرجوا - إلى جانبهم من الحدود - كلا من الكروات والصرب كلاجئين من استبداد السلطنة العثمانية. ونتيجة لذلك، أصبحت هذه المنطقة مختلطة الأعراق، وبمجرد اختفاء قبضة الإمبراطورية النمساوية عقب الحرب العالمية الأولى، شهدت نشوء مزيد من الهويات غير العرقية. وعلى رغم أن الصرب والكروات كانوا متحدين خلال سنوات ما بين الحربين العالميتين، في ظل حكم مملكة الصرب، والكروات، والسلوفينيين، فقد انقسموا وانقضوا على رقاب بعضهم البعض في أثناء الاحتلال النازي، عندما أقدمت الحكومة الكرواتية الفاشية الموالية للنازيين على قتل عشرات

الآلاف من الصرب في معسكرات الموت. وعلى رغم أنهم توحدوا مرة أخرى تحت مظلة الحكم الشيوعي الاستبدادي بقيادة تيتو، فإن انهيار يوغوسلافيا في العام 1991 شهد تدفق القوات الصربية عبر الحدود الصربية إلى سلافونيا وكرايينا، من أجل التطهير العرقي لمنطقة الكروات. وفي وقت لاحق، عندما استعاد الكروات المنطقة، اضطر الصرب من سكان المنطقة إلى العودة إلى صربيا. ومن حدود كرواتيا مع صربيا، ستنتشر الحرب لاحقا إلى البوسنة، حيث سيموت مئات الآلاف بصورة مروعة.

كان التاريخ والجغرافيا موجدين بكثرة هنا، لكن الصحافيين والمثقفين الملتزمين سيكون لهم نصيب ضئيل نسبيا منهما. من المؤكد أنهم كانوا يمتلكون وجهة نظر، بل وأكثر بكثير من مجرد وجهة نظر. أتى الرعب الهائل والتحوّل الفجائي أولا. ومرة أخرى كان غارتون آش هناك:

> ما الذي تعلمناه من هذا العقد الرهيب في يوغوسلافيا السابقة؟ لقد تعلمنا أن الطبيعة البشرية لم تتغير؛ وأن أوروبا في نهاية القرن العشرين يمكنها أن تأتي بأفعال همجية تماما كما فعلت في المحرقة Holocaust التي جرت في أواسط القرن... لقد تمثلت تعاويذنا السياسية الغربية في نهاية القرن العشرين في «التكامل»، و«التعددية الثقافية»، أو - إذا أردنا أن نكون أكثر تقليدية من ذلك بقليل - في «البوتقة». لكن يوغوسلافيا السابقة كانت نقيض ذلك؛ فقد كانت مثل نسخة عملاقة من جهاز يطلق عليه اسم «الفرّازة» separator: وهو نوع من أحواض الخضّ التي يجري فيها فصل القشدة عن الزبدة... كانت الشعوب هنا هي ما جرى فصله في أثناء الدوران المحموم للحوض العملاق للفرّازة... في حين تقاطر الدم بشكل مطرد من مرشّح موجود في القاع[16].

وانطلاقا من هذا التحوّل الفجائي جاءت أعباء «الاسترضاء» على الغرب، أي استرضاء سلوبودان ميلوسيفيتش Milosevic: وهو سياسي شيوعي شرير، والذي من أجل تأمين البقاء السياسي لنفسه وحزبه بعد سقوط سور برلين، والاحتفاظ بالفلل وأكواخ الصيد والمزايا الأخرى لمناصبهم، أعاد تسمية نفسه باعتباره زعيما قوميا صربيا متعصبا، مما أدى إلى إشعال ما يشبه المحرقة الثانية. سرعان ما أصبح استرضاء هتلر في ميونخ في العام 1938 هو التشبيه الأكثر انتشارا في تسعينيات القرن العشرين.

وفي الواقـع، فإن الخوف من ميونخ أخرى لم يكن جديدا تماما، فقد كان عنصرا مستبطنا لقرار تحرير دولة الكويت من عدوان صدام حسين عليها في العام 1991؛ فـإذا لم نكـن أوقفنا صدام في الكويت، لأقدم على غزو المملكة العربية السـعودية لاحقا، وبالتالي السـيطرة على أهـم الإمدادات النفطية في العـالم، مع أخذ حقوق الإنسـان في المنطقـة إلى مسـتوى لا يوصف من الظلام. لكـن الهجوم الصربي على كرواتيا ثم البوسنة، ما بين عامي 1991 و 1993 - وفشل الغرب في الاستجابة - هو ما أدى بالفعل إلى جعل ميونخ كلمة مشحونة في المفردات الدولية.

ينـزع القياس التشـبيهي لميونخ إلى الازدهار بعد فـترة طويلة ومزدهرة من السـلام، حيث كانت أعبـاء الحرب بعيدة بمـا يكفي لأن تظهر بصـورة مجردة: إن الحالـة في تسـعينيات القرن العشرين، وهو الوقت الـذي كانت فيه ذكريات أمريكا عن حرب الأراضي القذرة في آسـيا، التي كانت قد انقضت حينئذ قبل أكثر مـن عقدين من الزمان، قد خفتت بما فيه الكفايـة. يتعلق مثال ميونخ بالأممية universalism، وبالاعتنـاء بالعـالم وبحياة الآخرين؛ والذي كثيرا ما تسـمع عنه كرد فعل للفشـل في وقف مذابح الإبادة الجماعية في رواندا في العام .1994 لكن مثال ميونخ بلغ ذروته في الاستعدادات للتدخلات العسكرية المتأخرة لكنها فعالة لحلـف الناتو في البوسـنة في العام 1995، وفي كوسـوفو في العـام 1999 . حاول أولئك الذين عارضوا تدخلاتنا في البلقان طرح القياس التشـبيهي المنافس لڤيتنام، ولكن لأن هذه الورطة لم تقع من قبل مطلقا، كانت البلقان في تسـعينيات القرن العشرين هي المكان الذي طُرد فيه أشباح ڤيتنام إلى الأبد - أو هذا ما كان يُعتقد ويُكتب في ذلك الوقت[17].

إن القـوة العسـكرية، التـي كانت مكروهـة للغاية خلال سـنوات الحرب في ڤيتنام، صارت الآن مرادفا للإنسـانية نفسـها. وفي هذا السياق، كتب ليون ويسلتير Wieseltier، المحرر الأدبي لمجلة The New Republic:

> «إن حربـا ضد الإبادة الجماعية يجب أن يُخـاض غمارها بغضب، لأن الغضـب هو ما تحاربـه»، «فلغرض وقف الإبادة الجماعية، فإن اسـتخدام القـوة ليس حـلا أخيرا، بل إنـه الخيار الأول». واسـتطرد ويسـلتير ليلقي باللوم على الحاجة إلى إسـتراتيجيات للخروج في التدخلات الإنسـانية: ففي

العــام 1996، نجد أن أنتوني ليك Lake، المستشــار المعذّب والخجول للأمن القومــي [للرئيس بيل كلينتون] قد تمــادى في هذا وصولا إلى تقنين «عقيدة إســتراتيجيات للخــروج»: «قبل أن نرســل قواتنا إلى بلــد خارجي، يجب أن نعرف كيف ومتى ســنقوم بإخراجهم». كان ليك يُظهر معرفة غير محدودة بحالة اســتخدام القوة الأمريكية، بيد أن عقيدة »إستراتيجية الخروج« تُسيء عــلى نحو جذري فهم طبيعة الحرب، وبصورة أعم، طبيعة الفعل التاريخي. وباسم توخّي الحذر، فهي تُنكر الاحتمالات التي تصير إليها شؤون البشر، لأن معرفة النهاية لا تُمنح لنا في البداية[18].

وكمثال على ذلك، استشــهد ويســلتير برواندا، حيث لقي مليون من التوتسي حتفهــم في مجــزرة وقعت في العام 1994: كتب قائلا إن ورطة عســكرية غربية، لــو كنا قد تدخلنا لوقف القتل، كانت ســتكون أفضل مــما حدث بكل تأكيد. إن ويســلتير، الذي كان - مثل غارتون آش - واحدا مــن أكثر الأصوات إجلالا وإقناعا مــن الناحيــة الأخلاقية لذلــك العقد، كان يكتــب حول الإحباط الذي شــعر به بســبب الحرب الجوية المحدودة والمتأخرة التي شنها حلف الناتو لتحرير الألبان المسلمين في كوسوفو من سياسة الطرد والإبادة التي انتهجها ميلوسيفيتش بحقهم. اســتهدفت الحــرب الجوية البلدات والمدن الصربية، حيــث كان المطلوب - وفقا لمؤيدي مبدأ التدخل الإنســاني - هو تحرير مدن كوسوفو بواسطة القوات البرية. كانت طريقة كلينتون المترددة في شن الحرب شريكة في جريمة نتجت عنها معاناة واسعة النطاق. كتب ويسلتير قائلا: «لقد اختُزل عمل المثالية idealism إلى الإغاثة والإنقــاذ، إلى النتائج الحادثة في أعقاب الكارثة؛ ففي الموضع الذي كان ينبغي فيه أن نسارع بإطلاق الرصاص، نحن نسارع الآن في إرسال البطاطين. وقال إن كلينتون اكتشــف نوعا مــن الحرب «التي لا يمــوت فيها الأمريكان، وهــي... حرب جبانة تســتخدم فيها التكنولوجيا العالية الدقة، والتي تدع اســتطلاعات الرأي والضمائر مــن دون تغيير». وقد تنبــأ بأن «عصر الحصانة هذا لن يدوم إلى الأبد. فعاجلا أو آجلا ســيتعين على الولايات المتحدة أن ترســل جنودها إلى... مكان يتعرضون فيه للإصابــة أو الموت. والأمر المهم وقتهــا هو ما إذا كانت القضية عادلة، وليس كون القضية محفوفة بالمخاطر[19].

وبالفعـل، فقـد بدأ غـزو العراق يظهر باعتبـاره قضية في تسـعينيات القرن العشريـن، عندما كان يُنظـر إلى الجيش الأمريكي باعتبـاره لا يُقهر في مقابل قوى التاريخ والجغرافيا، لو تم فقط نشر قواته في الوقت المناسـب، وإلى أقصى قدراتها، مما يعني وجود القوات على الأرض. كان المثاليون هم من دعوا بصخب وحماس إلى اسـتخدام القوة العسكرية في الصومال، وهايتي، ورواندا، والبوسنة، وكوسوفو، على رغم أن الواقعيين - مثل برنت سكوكروفت Scowcroft وهنري كيسنغر Kissinger - الذين تم التشـنيع عليهم على نحو مزايد باعتبارهم عديمي الشـفقة قد دعوا إلى ضبط النفس.

ومـع ذلك، في الواقـع، فقد كانت تسـعينيات القـرن العشرين عقـدا للقوة العسـكرية الشـاملة أقل من كونه - على وجه التحديد - عقدا للقوة الجوية. أدت القوة الجوية دورا حاسـما في طـرد القوات العراقية من الكويـت في العام 1991: عـلى رغـم أن الجغرافيا، في هذه الحالة، جعلت من شـن الحـرب العالية التقنية مهمة سهلة، حيث جرت العمليات على صحراء عديمة الملامح، حيث نادرا ما تهطل الأمطار. وقد مثلت القوة الجوية أيضا عاملا مهما في إنهاء الحرب في البوسـنة بعد أربع سنوات، وعلى رغم كل نقائصها التي ظهرت، حققت النصر على ميلوسوفيتش في كوسـوفو بعد ذلك بأربع سنوات. عاد اللاجئون ذوو الأصول الألبانية إلى ديارهم في نهاية المطاف، مع بلوغ ميلوسـيفيتش من الضعف حدا سقط معه من السلطة في العام التالي، أي في العام 2000 . نحن لا نحارب في الجبال، كانت تلك هي العبارة التي تلخص المعارضة الأولية للجيش الأمريكي لإرسـال قوات إلى البوسنة وكوسوفو، لكنه اتضح لاحقا أنه مادمنا كنا نمتلك الجو، تمكن الجيش من الحرب في الجبال على نحـو جيد إلى حد مـا. أطلت الجغرافيا بكامل وجهها في البلقان، لكن القوة الجوية تغلبت عليها بسرعة. وبعد ذلك صارت قوات سـلاح الجو ومقاتلات البحرية تقوم بدوريات في مناطق حظر الطيران العراقية، مما أدى إلى تحجيم سلطة صدام طوال عقد التسـعينيات وما بعده. ونتيجة لذلك فـإن قطاعات من النخبة الذين ملأتهم الرهبة من القوة العسـكرية الأمريكية، صارت تُحس شعورا بالسخط الأخلاقي ضد جورج بوش الأب وكلينتون؛ لعدم اسـتخدام الجيش في الوقت المناسـب لإنقاذ ربع مليون شـخص من الإبادة الجماعية في البلقان (فضلا عن مليون إنسان في رواندا).

كانت تلك عقلية يمكن أن تؤدي، على الأقل بالنسبة إلى البعض، إلى روح المغامرة، وهو ما أفضت إليه بالفعل. وأدى هذا، بدوره، في العقد التالي، إلى تراجع جزئي عن قياس ميونخ التشبيهي، وإلى استعادة الجغرافيا بعض الاحترام الذي فقدته في تسعينيات القرن العشرين. شهدت تسعينيات القرن العشرين اختزال الخريطة إلى بُعدين اثنين بسبب القوة الجوية. ولكن بعد ذلك بفترة وجيزة، استُعيدت الخريطة الثلاثية الأبعاد: في جبال أفغانستان وفي أزقة العراق الغادرة.

وفي العام 1999، وفي معرض تعبيره عن المشاعر التي سادت وقتها بشكل متزايد بين المثقفين الليبراليين، كتب ويسلتير:

> إن الشيء المميز حقا، فيما يتعلق برفض كلينتون لأن يُدرج خلع هذا الشرير [سلوبودان ميلوسيفيتش] ضمن أهدافه الحربية، هو أنه هو نفسه ورث عواقب رفض سلفه لإدراج خلع شرير آخر ضمن أهدافه الحربية. ففي العام 1991، كان هناك نصف مليون جندي أمريكي على بُعد بضع مئات الكيلومترات من صدام حسين، لكن جورج بوش لم يأمر بزحفهم إلى بغداد.
>
> كان جنرالاته يخشون وقوع قتلى بين جنودهم، بعد أنهوا من فورهم حربا خاصة بهم من دون أي خسائر. وقد أشاروا أيضا إلى «الوحدة الإقليمية» للعراق، وكأن البؤس الذي سينجم عن انهيار الدولة سيتناسب مع البؤس الذي وقع بالفعل، على الأكراد في الشمال، وعلى الشيعة في الجنوب، بفعل بقاء الدولة[20].

كان الأمر كأن الحدود المتخيلة لأوروبا الوسطى لا تعرف حدودا، وتمتد حتى بلاد ما بين النهرين. سارت الأمور بشكل مختلف، بطبيعة الحال. ولكن في العام 2006، خلال أسوأ المذابح الطائفية التي شهدها العراق، عقب انهيار الدولة، التي قد تنافس العنف الذي أوقعه صدام بالبلاد، امتلك ويسلتير شجاعة الاعتراف بما أسماه «القلق على الغطرسة»، إذ اعترف بأنه لا يمتلك شيئا مفيدا يقوله على رغم دعمه للحرب، بيد أنه لم يكن من بين مؤيدي الغزو الذين كانوا يكدحون بشدة للدفاع عن أنفسهم في الصحافة المطبوعة[21].

كنت أنا أيضا من مؤيدي الحرب في العراق، سواء في الصحافة المطبوعة أو كجزء من المجموعة التي حثت إدارة بوش على شن الغزو[22]. كانت القوة

العسكرية الأمريكية في البلقان قد أثّرت فيّ كثيرا، وبالنظر إلى أن صدام قد قتل - سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة - عددا أكبر من الناس مما فعل ميلوسيفيتش، كـما كان يمثل خطرا إسـتراتيجيا يُعتقد أنه يمتلك أسـلحة للدمار الشـامل، فقد بدا لي في ذلك الوقت أن التدخل العسـكري له ما يـبرره. وكنت أيضا واحدا من الصحافيين الذين اقتربوا كثيرا من موضوع قصتي: كنت مراسلا صحافيا في العراق خلال الثمانينيات، حيث شـهدت كيف كان العراق في عهد صدام أشد قمعا من سورية في ظل حكم حافظ الأسد، ولذلك صرت عازما على التخلص من صدام. وقد ادّعى البعض لاحقا أن الخوف على مصالح لإسرائيل وتأييد توسيع نطاق الأراضي التـي تسـتحوذ عليها كانا هما الدافـع المحرّك لكثيرين من مؤيـدي الحرب[23]، لكـن تجربتي في التعامل خلال هذه الفـترة الزمنية مع المحافظين الجدد وبعض الليبراليين، أيضا، أوضحت أن البوسـنة وكوسـوفو كانتا أكـثر أهمية من إسرائيل في رأيهـم[24]. بـدا أن التدخلات في البلقـان، ولأنها حققت عددا من المكاسـب الإسـتراتيجية، تبرّر اتباع نهج المثاليين في السياسـة الخارجية. لقد غيّر التدخل في البوسـنة عام 1995 دفة المناقشـة من «هل ينبغي أن يبقـى حلف الناتو؟» إلى «هل يجب توسيع حلف الناتو؟».

أدت حرب العام 1999 في كوسـوفو، بقـدر ما فعلت أحداث الحادي عشر من سـبتمبر، إلى السماح بتوسيع حلف شمال الأطلسي (الناتو) إلى ضفاف البحر الأسود في نهاية المطاف.

وبالنسـبة إلى عـدد غير قليل مـن المثاليين، كان العراق اسـتمرارا للمشـاعر المحمومة التي سـادت في تسـعينيات القرن العشرين. وقد مثّـل الأمر، مهما كان ذلك لا شعوريا، إما هزيمة الجغرافيا وإما تجاهلها على نحو مطلق، بسبب انبهاري - مثل كثيرين - بقوة الجيش الأمريكي. كانت التسـعينيات فترة اعتُبرت فيها بعض بلـدان غـرب أفريقيا، مثـل ليبيريا وسـيراليون – على رغم عنفهـا، وعلى رغم أن مؤسسـاتها أقل تطـورا بكثير من مثيلاتها في العراق - دولا مرشـحة للديموقراطية على نحو معقول. لكن قوة الجيش، وبخاصة سلاح الجو، مارست دور اليد الخفية التي سـمحت لأفكار الأمميين باكتساب أهمية أكبر بكثير من الأرض ومن التجربة التاريخية التي تعيش عليها.

كان مثـال ميونـخ، بدوره، حاضرا في تناول معضلة صدام حسـين بعد أحداث الحادي عشر من سـبتمبر؛ فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة كانت قد تعرضت لفورها لهجوم على أراضيها يشبه هجوم بيرل هاربر، فإن تجربتها مع الحرب البرية، وطوال ربع قرن من الزمان، لا تكاد تُذكر، أو على الأقل ليسـت غير سـارة. وعلاوة عـلى ذلك، فلم يكـن صدام مجرد ديكتاتور آخر، بل طاغيـة يبدو أنه آت مباشرة مـن بلاد ما بين النهرين العتيقة، والذي يشـبه في أعين الكثيرين هتلر أو سـتالين، والذي يمتلك - كما كان يُعتقد - أسـلحة للدمار الشامل. وفي ضوء أحداث الحادي عشر من سبتمبر – بل وفي ضوء ميونخ - لم يكن التاريخ ليغفر لنا أبدا إذا لم نتخذ الإجراءات اللازمة.

عندما أدت ميونخ إلى المبالغة، كانت النتيجة هي المثال الآخر، الذي كان يُعتقد في السـابق أنه قـد اندحر بالفعل: ڤيتنام. وهكذا بدأت الـدورة الفكرية التالية لما بعد الحرب الباردة.

وفي هذه الدورة التالية، والتي تزامنت تقريبا مع العقد الأول من القرن الحادي والعشريـن والحربين الصعبتين في العراق وأفغانسـتان، صـار مصطلحا «الواقعية» و«البراغماتية» علامتين مرادفتين للاحترام، ويشيران إلى أولئك الذين كانوا متشككين منذ البداية في المغامرة الأمريكية في بلاد ما بين النهرين، في حين أن تعبير «المحافظين الجدد» صار موضع سـخرية. وفي حين أنه في تسعينيات القرن العشرين، كان يُنظر إلى الخلافـات الطائفية الإثنية الناشـبة في زوايا بعيدة مـن العالم باعتبارها عقبات ينبغي للرجال الأخيار أن يسـعوا جاهدين إلى التغلب عليها - أو التعرض لخطر أن يوصمـوا بأنهم «قدريون» أو «حتميون» - ففـي العقد التالي اعتُبِرت هذه الأحقاد عوامل ربما كانت قد حذرتنا للابتعاد عن القيام بعمل عسـكري، أو كان ينبغي لها أن تفعـل ذلك. وإذا كان على المرء أن يختار لحظة من الزمن لا يمكن عندها إنكار أن تشـبيه ڤيتنام قد حل محل تشـبيه ميونخ، فسأختار الثاني والعشرين من فبراير 2006، عندما فُجِّر مسـجد العسـكري الشيعي في سـامراء من قبل متطرفي تنظيم القاعدة، مما أطلق العنان لعاصفة من الفظائع الطائفية في العراق، والتي لم يتمكن الجيش الأمريكي من وقفها. فجأة، صار يُنظر إلى قواتنا البرية باعتبارها عاجزة وسط القـوى البدائية للكراهيـة والفوضى. إن خرافة القوة العسـكرية القاهرة الجديدة

للولايات المتحدة، والتي ولدت في بنما وحرب الخليج الأولى، والتي انتُهكت قليلا في الصومال، قبل أن يتم إصلاحها وتلميعها في هايتي، والبوسنة، وكوسوفو، كانت قد تحطمت إلى حين، جنبا إلى جنب مع المثالية التي ذهبت معها.

وفي حين يتعلق قياس ميونخ التشبيهي بالأممية، وبالاعتناء بالعالم وبحياة الآخرين الذين يعيشون بعيدا عنا، كان قياس ڤيتنام التشبيهي محليا بطبيعته؛ فهو يتعلق باعتناء المرء بنفسه، بعد سقوط 58 ألف قتيل في تلك الحرب. يشير علينا مثال ڤيتنام بأنه يمكن تجنب المأساة من خلال التفكير بشكل مأساوي. وهو يدين الحماسة المتواصلة، لأنه يشير إلى مدى الخطأ الذي يمكن أن تسير إليه الأمور. وفي الواقع، كان ثمة شعور مثالي بوجود مهمة جليلة هو ما ورّط الولايات المتحدة في هذا الصراع الدائر في جنوب شرقي آسيا في المقام الأول. كانت الأمة تعيش فترة من السلام، في ذروة ازدهارها بعد الحرب العالمية الثانية، حتى مع قيام الشيوعيين الڤيتناميين - وهم من أقسى من أنجب القرن العشرون من جماعات بشرية وأشدهم تصميما - بقتل أكثر من عشرة آلاف من مواطنيهم قبل وصول أول جندي أمريكي نظامي. أي حرب يمكن أن تكون أكثر عدلا من هذه؟ كانت الجغرافيا، وبُعد المسافة، وتجربتنا الرهيبة في أدغال الفلبين في حرب غير نظامية أخرى وقعت قبل ذلك بستة عقود، وبالتحديد في مطلع القرن العشرين، هي آخر ما تبادر إلى أذهان الناس عندما دخلنا ڤيتنام.

تمثل ڤيتنام تشبيها من النوع الذي يزدهر في أعقاب صدمة وطنية، فالواقعية لا تتسم بالإثارة. وهو تشبيه لا يُحترم إلا بعد أن يؤدي غيابه الظاهري إلى تفاقم الوضع على نحو واضح. وفي الواقع، وإذا نظرنا فقط إلى مثال العراق، حيث سقط ما يقرب من خمسة آلاف قتيل أمريكي (وتعرّض أكثر من ثلاثين ألف جندي لإصابات خطيرة)، وربما قتل مئات الآلاف من العراقيين، كما بلغت التكلفة أكثر من تريليون دولار.

حتى لو كان للعراق أن يتطور إلى ديموقراطية شبه مستقرة وحليف ضمني للولايات المتحدة، فقد كانت التكاليف من الضخامة بحيث، كما لاحظ كتّاب آخرون، يصعب بصراحة رؤية أي قيمة أخلاقية لهذا الإنجاز. قوّض العراق عنصرا رئيسيا في عقلية البعض: إن نشر القوة الأمريكية في الخارج كانت له دائما نتيجة أخلاقية. لكن

البعض الآخر يفهم أن الاستخدام الجامح للسلطة من قبل أي دولة، حتى لو كانت دولة ديموقراطية مُحبة للحرية مثل أمريكا، ليس بالضرورة أمرا فاضلا.

وبالتزامن مع الاحترام الجديدة لمبدأ الواقعية realism، تجدّد الاهتمام بفيلسوف القرن السابع عشر، توماس هوبز Hobbes، الذي يمجد المنافع المعنوية للخوف وينظر إلى الفوضى العنيفة باعتبارها الخطر الرئيسي الذي يتهدد المجتمع. وبالنسبة إلى هوبز، فإن الخوف من الموت العنيف هو حجر الزاوية في المصلحة الذاتية المستنيرة. وعن طريق بناء دولة، يستبدل الرجال الخوف من الموت العنيف - وهو خوف شامل ومشترك - بخوف لا يحتاج إلى أن يخشاه سوى أولئك الذين ينتهكون القانون. يصعب استيعاب مثل هذه المفاهيم على أفراد الطبقة الوسطى في المناطق الحضرية، الذين فقدوا منذ فترة طويلة أي اتصال مع الحالة الإنسانية الطبيعية[25]. لكن أعمال العنف المروعة التي شهدها تفكّك العراق، والتي، على عكس رواندا والبوسنة في بعض النواحي، لم تكن نتيجة لآلة منظمة ومنفردة للموت، ولكن لانهيار النظام ذاته، مما سمح لكثيرين منا بتخيّل الحالة الأصلية للإنسان. وهكذا صار هوبز فيلسوف هذه الدورة الثانية من حقبة ما بعد الحرب الباردة، مثلما كان برلين فيلسوف الأولى[26].

وبالتالي، كان هذا هو ما أوصلتنا إلينا فترة ما بعد الحرب الباردة: أي الاعتراف بأن نفس الشمولية totalitarianism التي قاتلنا ضدها خلال العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية قد تكون، في عدد قليل من الظروف، أفضل من الحالة التي لا يقود فيها أحد زمام الأمور. هناك أشياء أسوأ من الشيوعية، كما اتضح لاحقا، والتي جلبناها على أنفسنا في العراق. أقول هذا بصفتي شخصا كان مؤيدا لتغيير النظام.

في مارس 2004، وجدت نفسي في معسكر عُداري Udari في وسط صحراء الكويت(*). كنت مرافقا لكتيبة من مشاة البحرية الأمريكية التي كانت، جنبا إلى جنب مع بقية أفراد الكتيبة البحرية الأولى، على وشك أن تبدأ الرحلة البرية إلى بغداد وغرب العراق، لتحل محل كتيبة الجيش الثانية والثمانين المحمولة جوا، والتي كانت متمركزة هناك.

(*) الاسم الحالي للمعسكر هو Camp Buehring، نسبة إلى المقدم في الجيش الأمريكي Charles Buehring الذي قتل في العراق في العام 2003. [المحرر].

كان ذلك عالما من الخيام، والمنصات، وحاويات الشحن، وقاعات تناول الطعام. امتدت عبر الأفق أرتال هائلة من الشـاحنات ذات الحمولة البالغة سـبعة أطنان، وعربـات همفـي Humvees المصفحة، وكلها متوجهة صوب الشـمال. سرعان ما اتضـح الحجـم الهائل لتورط أمريـكا في العراق. وكانت عاصفـة رملية قد هبت، كما كانت هناك رياح شـديدة البرودة وتهديد بهطول المطر. تعرضت السـيارات للتعطّل باسـتمرار، في حـين لم نكن حتى بدأنا رحلتنا إلى بغـداد، التي تبعد عدة مئـات من الكيلومترات، والتي قبل سـنوات قليلة، اعتبر من اعتقدوا أن إسـقاط صدام حسـين كان مجرد امتداد لإسقاط سلوبودان ميلوسيفيتش، أنها بمنزلة نزهة خلوية. أشـارت المتاهات الهائلة المكسـوة بالحصى، والتي تفوح منها رائحة النفط والبنزين، إلى ظهور أول محطة للشـاحنات بناها المقاولون، وهي واحدة من عدة محطات شـيدت على طول الطريق لخدمة المئات العديدة من السيارات المتوجهة شمالا، وكذلك إطعام الآلاف من مشاة البحرية. كانت المحركات والمولدات تهدر في الظلام، واسـتغرق الأمر أياما من أكثر الخدمات اللوجستية تعقيدا، والتي تضمنت تخزيـن ونقل كل شيء مـن زجاجات المياه المعدنية إلى وجبـات الطعام الجاهزة إلى مجموعـات العدد والأدوات، مـن أجل عبور الصحراء القاسـية الممتدة حتى وصولنـا إلى الفلوجـة إلى الغرب من بغداد، وهو ما قالوا إنه مجرد بضع مئات من الكيلومترات»[27]. كان هذا هو الجزء السـهل وغير العنيف من الاحتلال العسكري الأمريـكي لـكل أرجاء البـلاد. كان من الخطأ بـكل تأكيد أن يشـير البعض إلى أن التضاريس الجغرافية لم تعد مهمة.

2

انتقام الجغرافيا

عــزّزت كارثة الســنوات الأولى من التدخل في العراق مقولة الواقعيين، والتي اسـتُخف بها من قبل المثاليين في تسعينيات القرن العشرين، بــأن موروثــات الجغرافيا، والتاريــخ، والثقافة تفــرض بالفعل حدودا لما يمكــن تحقيقه في أي مــكان بعينه. عــلى أي حال، ينبغــي على من كانــوا معارضين للتدخل في العــراق أن يحذروا من المغــالاة في اســتخدام تشــبيه ڤيتنام، لأن ذلــك القياس قــد يمثــل دعــوة إلى الانعزالية isolationism، بقدر دعوته إلى التهدئة نفسها، وإلى الإجحــاف الســهل الناتج عــن التوقعات المتدنية، على حد تعبير الباحث الشرق أوسطي فــؤاد عجمي. لنتذكر أن مؤتمر ميونخ وقع بعد عشريــن عاما فقط من أحداث الموت الجماعي التي شــهدتها الحرب العالمية الأولى، مما يجعل

«ما العمل إذن؟ كيف يمكننا شــطر الفــرق بين إدراك أهميــة الجغرافيا في صياغــة التاريخ وخطر المغالاة في تأكيد هذه الحقيقة ذاتها؟»

المؤلف

السياســيين الواقعيين مثل نيفيل تشــامبرلين Chamberlain شــديدي العزم، على نحو مفهوم، على تجنب نشــوب صراع آخر. وتتســم هذه الحالات بكونها مناسبة تمامــا لتنفيذ مكائد دولة اســتبدادية لا تعــرف مثل هذه المخــاوف: ألمانيا النازية والإمبراطورية اليابانية.

تتعلــق ڤيتنــام بالحدود؛ أما ميونــخ فتتعلق بالتغلب عليهــا. من الممكن أن يكون كل من القياســين خطرا في حد ذاته. فقط عندما يُمنح كلاهما القدر نفســه ســتمتلك السياســة الصحيحة أفضل فرصة للظهــور. وبالنســبة إلى الحكماء من واضعي السياســات، فعلى الرغم مــن علمهم بأوجه قصور أمتهــم، فهم يعلمون أن فن السياســة يتعلق بالعمل بقــرب الحافة بقدر الإمــكان، ولكن من دون أن نخطــو إلى حافة الهاوية[1]. بعبارة أخرى، فإن الواقعية الحقيقية هي فن أكثر منها علــما، والذي تؤدي فيه الحالة المزاجية لرجــل الدولة دورا لا يقل أهمية عن دور عقله. وفي حين أن جذور الواقعية تعود إلى 2400 ســنة، أي إلى رؤى ثوكوديديس Thucydides الخالية من الوهم بشــأن السلوك الإنساني في الحرب البيلوبونيسية، ربما ظهر التلخيص الأكثر شمولا للواقعية الحديثة في العام 1948، من قبل هانز ج. مورغنثاو Morgenthau في كتابه المعنون «السياسة بين الأمم: الصراع على السلطة والسلام». اسمحوا لي بأن أتوقف لحظة هنا عند هذا الكتاب، وهو ثمرة جهد لاجئ ألماني كان يدرِّس في جامعة شيكاغو، من أجل تمهيد الطريق لمناقشتي الأوسع حول الجغرافيــا: لأن الواقعية ضرورية للتقدير الســليم للخريطة، بل إنها في واقع الأمر تقودنا إلى ذلك مباشرة.

يبــدأ مورغنثاو حجته بالإشــارة إلى أن العــالم يمثل «نتيجة للقــوى الكامنة في الطبيعــة البشرية»، وإلى أن الطبيعة البشرية، كما أشــار إليها ثوكوديديس، تتحرك بدافــع من الخــوف phobos، والمصلحــة الذاتية kerdos، والــشرف doxa. كتب مورغنثاو قائلا: «من أجل تحســين العالم، يجب على المرء أن يعمل مع هذه القوى، وليــس ضدها». وهكــذا، فإن الواقعية تقبــل المواد البشرية المتاحــة، مهما كانت درجــة نقصان هذه المواد عن الكمال. «وهي تســتند إلى ســابقة تاريخية بدلا من مبادئ مجردة وتهدف إلى تحقيق الشر الأهون بدلا من الخير المطلق». وعلى سبيل المثــال، فإن الواقعي ينظر إلى تاريخ العراق نفســه، كما يتضح من خلال خرائطيته

cartography وكوكبات المجموعات العرقية المكوّنة له، وليس من منظور التعاليم الأخلاقية للديموقراطية الغربية، لمعرفة أي نوع من المستقبل سيكون العراق قادرا على تحقيقه بمجرد سقوط نظام شمولي. وفي نهاية المطاف، فالنوايا الحسنة ليس لها تأثير يُذكر في النتائج الإيجابية، كما يرى مورغنثاو. كان تشامبرلين، كما يشرح لنا، مدفوعا باعتبارات قوة الشخصية بصورة أقل من معظم السياسيين البريطانيين الآخرين، وسعى بصدق إلى ضمان تحقيق السلام والسعادة لجميع الأطراف المعنية. لكن سياساته جلبت معاناة لا توصف للملايين. أما ونستون تشرشل Churchill، من الناحية الأخرى، فقد كان - في الواقع - مدفوعا بالاعتبارات المجردة للقوة الشخصية والوطنية، لكن سياساته أحدثت تأثيرا معنويا منقطع النظير. (كان بول وولفويتز Wolfowitz، نائب وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، مدفوعا بأفضل النوايا في تأييده لغزو العراق، إذ كان يظن أنه سيؤدي إلى تحسين حالة حقوق الإنسان هناك بصورة غير محدودة، لكن تصرفاته أدت إلى عكس ما نوى). وعند تعميم هذه النقطة، فمجرد كون أمة ما ديموقراطية لا يعني أن سياستها الخارجية ستتضح بالضرورة كونها أفضل أو أكثر استنارة من نظيرتها في دولة دكتاتورية. يقول مورغنثاو إن «الحاجة إلى حشد العواطف الشعبية لا يسعها إلا إضعاف عقلانية السياسة الخارجية نفسها». إن الديموقراطية والأخلاق ليستا ببساطة مترادفتين. ويستطرد مورغنثاو قائلا: «تنساق جميع الأمم - كما كان عدد قليل منها على استعداد لمقاومة هذا الإغراء لفترة طويلة - لتغليف طموحاتها وأفعالها الخاصة بالأغراض الأخلاقية للكون. إن معرفة أن الأمم تخضع للقانون الأخلاقي هي شيء، أما ادعاء المعرفة على وجه اليقين بما هو الخير والشر في العلاقات بين الدول فهو شيء آخر تماما».

وبالإضافة إلى ذلك، يجب على الدول أن تعمل ضمن كون أخلاقي أكثر تقييدا بكثير مما يعمل خلاله الأفراد. وهنا كتب مورغنثاو «قد يقول الفرد لنفسه... لتتحقق العدالة، حتى لو هلك العالم، لكن الدولة لا تملك الحق في أن تقول ذلك باسم الذين هم تحت رعايتها»[2]. إن الفرد لديه مسؤولية تجاه أحبائه وحدهم، والذين سيغفرون له أخطاءه مادامت نواياه جيدة. لكن الدولة يجب أن تحمي رفاهية الملايين من الغرباء الموجودين ضمن حدودها، والذين لن يكونوا متفهمين كثيرا في حالة تطبيق سياسة فاشلة. وبالتالي، يجب أن تكون الدولة أكثر دهاء بكثير من الفرد.

إن الطبيعــة البشرية - من منظــور بانثيون pantheon ثوكوديدس المكون من الخــوف، والمصلحة الذاتية، والــشرف - تدعم عالما من الــصراع والإكراه المتواصل. ولأن الواقعيين مثل مورغنثاو يتوقعون نشوب الصراع ويدركون أنه لا يمكن تجنبه، فهم أقل عرضة من المثاليين لأن يبالغوا في الاســتجابة له، فهم يدركون أن الميل إلى الهيمنــة هو عنصر طبيعي من جميــع التعاملات البشرية، لاســيما التعاملات بين الــدول. وهنا يقتبــس مورغنثاو مقولة جون راندولــف أوف رونوك Roanoke أن «القوة وحدها يمكن أن تحد من القوة». وبالتالي، لا يعتقد الواقعيون أن المؤسسات الدولية في حد ذاتها تمتلك أهمية حاســمة بالنسبة إلى السلام، لأن هذه المؤسسات هــي مجرد انعكاس لتوازن القوى بين الدول الأعضاء المنفردة، والتي تقوم، في نهاية المطاف، باتخاذ القرار في القضايا المتعلقة بالســلم والحرب. ومع ذلك، فإن منظومة تــوازن القوى هي في حد ذاتها - وبحكم التعريف - غير مســتقرة، وفقا لمورغنثاو: فلأن كل أمة، كونها تخشى أن تخطئ في حسابات توازن القوى، يجب أن تسعى إلى تعويض أخطائها المُدركة بأن تهدف باســتمرار إلى تحقيق التفوق من حيث القوة. وهذا هو بالتحديد ما أشــعل الحرب العالمية الأولى، عندما ســعت كل من النمسا تحت حكم آل هابســبورغ، وألمانيا تحت حكم الإمبراطور فلهلم، وروسيا القيصرية إلى ترجيح كفة ميزان القوى لمصلحتها، وأخطأت في حســابات ذلك على نحو خطير. كتب مورغنثاو أنه، في نهاية المطاف، فإن وجود ضمير أخلاقي عالمي - والذي ينظر إلى الحرب باعتبارها «كارثة طبيعية» وليس امتدادا طبيعيا للسياسة الخارجية لبلد ما - هو وحده ما يقلل من فرص قوع الحرب[3].

عقــب أعمال العنــف في العراق ما بــين العامــين 2003 و2007 ادّعينا جميعا لبعض الوقت أننا صرنا واقعيين، أو هذا ما قلناه لأنفســنا. ولكن بالنظر إلى تعريف مورغنثاو إلى الواقعية realism، فهل هذا صحيح حقا؟ على ســبيل المثال، هل كان معظــم مَن عارضوا الحرب على العراق على أســس واقعية يرون أيضا أنه ليســت هنــاك بالضرورة علاقة بــين الديموقراطية والأخلاق؟ كما أن مورغنثــاو، لو تذكرنا، الذي عارض حرب فيتنام على أساس كل من الأخلاق والمصلحة الوطنية، هو المفكر الواقعي الذي نســتريح إليه جميعا أكثر من غــيره. وباعتباره أكاديميا ومفكرا طوال حياتــه، لم يكن أبدا متعطشــا للقوة والمكانــة كما أظهر غيره مــن الواقعيين، مثل

كيسنغر وسكوكروفت Scowcroft. وبالإضافة إلى ذلك، فإن أسلوبه المقيّد في الكتابة، والذي يتسم بأنه عديم النكهة تقريبا، يفتقر إلى حدة كيسنغر أو صامويل هنتنغتون Huntington. والحقيقة هي أن الواقعية، دونما إنكار، حتى على طريقة مورغنثاو، يفترض أن تصيب المرء بالضيق. يدرك الواقعيون أن العلاقات الدولية يحكمها واقع بائس وأكثر محدودية من ذلك التي ينظم الشؤون الداخلية. ولأنه في حين يتحدد نظام الحكم المحلي لدينا من قبل القوانين، وذلك لوجود حكومة شرعية تحتكر استخدام القوة، فإن العالم ككل لايزال في حالة الطبيعة، التي لا يوجد فيها طاغوت (لوياثان Leviathan) هوبز لمعاقبة الظالمين[4]. وفي الواقع، فتحت القشرة الخارجية للحضارة مباشرة تكمن أتعس قوى الشهوات البشرية، وبالتالي فإن السؤال المحوري في الشؤون الخارجية بالنسبة إلى الواقعيين هو: من يستطيع أن يفعل ماذا لمن؟[5].

قال لي ذات مرة أشلي ج. تيليس Tellis، وهو زميل بارز في مؤسسة كارنيغي في واشنطن: «إن الواقعية غريبة عن التقاليد الأمريكية، فهي غير أخلاقية عن عمد، حيث تركّز على المصالح وليس على القيم في عالم وضيع. لكن الواقعية لا تموت أبدا، لأنها تعكس بدقة كيف تتصرف الدول في الواقع، خلف واجهة خطابها المبني على القيم».

يخلع الواقعيون على النظام قيمة أعلى من الحرية: فبالنسبة إليهم لا تُصبح هذه الأخيرة مهمة إلا بعد أن يترسخ الأول. وفي العراق، اتضح أن النظام، حتى وفقا للأبعاد الشمولية، أكثر إنسانية من حالة عدم النظام التي أعقبت سقوطه. ولأن الحكومة العالمية ستبقى مراوغة إلى الأبد، فباعتبار أنه لن يكون هناك اتفاق جوهري على سبل تحسين الظروف الاجتماعية، فمن المقدّر على العالم أن تحكمه أنواع مختلفة من الأنظمة، وبواسطة النظم القبلية والعرقية في بعض الأماكن. اعتقد الواقعيون بداية من الإغريق والصينيين القدماء وحتى الفيلسوف الفرنسي الذي عاش في منتصف القرن العشرين، ريمون آرون Aron، ومعاصره الإسباني خوسيه أورتيغا إي غاسيت Gasset، أن الحرب متأصلة بشكل طبيعي في انقسام البشرية إلى دول وغيرها من التجمعات[6]. والحقيقة أن السيادة والتحالفات نادرا ما تحدث في خواء؛ بل تنشأ عن خلافات مع الآخرين. وفي حين يشدّد مؤيدو العولمة على ما يوحد الجنس البشري، يركز الواقعيون التقليديون على ما يفرقنا.

وهكذا نأتي إلى الخريطة، والتي هي التمثيل المكاني للتقسيمات البشرية - وهي موضوع كتابات الواقعيين في المقام الأول. إن الخرائط لا تقول الحقيقة دائما، فهي غالبا ما تكون شخصانية subjective بقدر أي قطعة من النثر. إن الأسماء الأوروبية لمساحات واسعة من أفريقيا تُظهر، على حسب تعبير الجغرافي البريطاني الراحل جون براين هارلي Harley، كيف يمكن للخرائطية أن تكون «خطابا للقوة»، في هذه الحالة تلك الخاصة بالإمبريالية الكامنة. تميل إسقاطات مركاتور Mercator projections إلى إظهار أوروبا أكبر مما هي عليه في الحقيقة، كما توحي الألوان الزاهية للغاية للبلدان المبينة على الخريطة بوجود سيطرة موحدة على المناطق النائية hinterlands، على الرغم من أن هذه ليست هي الحال دائما[7]. تتسم الخرائط بكونها مادية materialistic، وبالتالي فهي محايدة أخلاقيا. وهي تمثل تاريخيا جزءا من التعليم البروسي أكثر بكثير من نظيره البريطاني[8]. إن الخرائط، بعبارة أخرى، يمكن أن تكون أدوات خطرة، ومع ذلك فهي بالغة الأهمية من أجل التوصّل إلى أي فهم للسياسة العالمية. كتب مورغنثاو قائلا: «على الأساس المستقر نسبيا للجغرافيا، ينشأ هرم القوة الوطنية»[9]. لأن الواقعية، في جوهرها، تتعلق بالاعتراف بالحقائق الأشد حدة، وإزعاجا، وحتمية: تلك المتعلقة بالجغرافيا.

تمثل الجغرافيا ستارة خلفية لتاريخ البشرية نفسه. وعلى الرغم من التحريفات التي انطوى عليها رسم الخرائط، فمن الممكن أن تكون كاشفة عن النوايا بعيدة المدى لحكومة ما بنفس قدر مجالسها السرية[10]. إن موقع دولة ما على الخريطة هو أول ما يحدّدها، بصورة أكثر حتى من الفلسفة الحاكمة لها. إن الخريطة، كما يشرح هالفورد ماكيندر Mackinder، تنقل «في لمحة واحدة سلسلة كاملة من التعميمات». فالجغرافيا، كما أضاف، تجسّر الفجوة بين الفنون والعلوم، وتربط دراسة التاريخ والثقافة بالعوامل البيئية، وهو ما يهمله المتخصصون في العلوم الإنسانية في بعض الأحيان[11]. وفي حين أن دراسة الخريطة، أي خريطة، قد تمثل تجربة ممتعة ورائعة إلى ما لا نهاية في حد ذاتها، فإن الجغرافيا، مثل الواقعية نفسها، يصعب تقبّلها. تمثل الخرائط دحضا للمفاهيم نفسها المتعلقة بمساواة ووحدة الجنس البشري، لأنها تذكرنا بجميع البيئات المختلفة للأرض، والتي تجعل البشر غير متساوين ومفككين على نحو عميق وبكثير جدا من الطرق، مما يؤدي إلى الصراع، الذي تعيش عليه الواقعية على وجه الحصر تقريبا.

خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قبل وصول العلوم السياسية باعتبارها تخصصا أكاديميا، كانت الجغرافيا علما محترما، وإن لم يتخذ شكلا رسميا على الدوام، والذي كثيرا ما يتم خلاله التفكير في السياسة، والثقافة، والاقتصاد من حيث علاقتها بخريطة التضاريس. ووفقا لهذا المنطق المادي، تكتسب الجبال والقبائل أهمية أكبر من عالم الأفكار النظرية؛ أو، بالأحرى، فإن الجبال والرجال الذين يخرجون منها تمثل الدرجـة الأولى من الواقع؛ أما الأفكار، مهما كانت باعثة على السـمو ومُعزّزة، فهي تأتي في المرتبة الثانية.

تتمثل حجتي في أنه من خلال تبنّي الواقعية في خضم الحرب على العراق، مهما كانت صعوبة قيامنا بذلك - ومهما قَصُر وقت فعلنا لذلك - فما تبنيناه بالفعل من دون أن ندري كان الجغرافيا، إن لم يكن بصورة مُعلنة، بالمعنى الإمبريالي البروسي للكلمة، ثم بالمعنى الفيكتوري والإدواردي أقل قسوة. كان انتقام الجغرافيا هو ما مثّل تتويج الدورة الثانية من حقبة ما بعد الحرب الباردة، ليتبع هزيمة الجغرافيا من خلال القوة الجويـة وانتصار مبدأ «التدخلات الإنسـانية» humanitarian interventionism الـذي ميّز نهايـة الدورة الأولى. وبالتالي جرت إعادتنا إلى الأساسـيات الدنيا للوجود البشري، حيث كان ما تقبلناه، بدلا من التحسّن المطرد للعالم الذي تصورناه في وقت سـابق، هو الكفاح القادم مـن أجل البقاء، وبالقياس، القيود الشـديدة التي كبلتنا الجغرافيا بها في أماكن مثل بلاد ما بين النهرين وأفغانستان.

ومـع ذلك فبداخل هذا القبول الحزين، هناك بصيص من الأمل: فعندما نُصبح أكثر خبرة في قراءة الخرائط، يمكننا- بمساعدة التكنولوجيا، كما يشهد الربيع العربي- أن نوسّـع بعض الحدود التي تفرضها الخريطة. وهذا هو الهدف من دراسـتي- أن نمتلك تقديرا للخريطة بحيث لا نحتاج، على نحو مخالف للتوقعات البديهية، إلى أن نظل دائما خاضعين لحدودها. إن ضيق الأفق ليس وحده هو ما يؤدي إلى الانعزالية، لكن الإفراط في استخدام الموارد هو ما يسبب ردة فعل انعزالية.

لكننا نحتاج أولا إلى الاعتراف بالوضع المركزي ذاته للتخصص الجغرافي. «الطبيعة تفرض؛ والإنسـان ينفّذ»، كما كتـب الجغرافي الإنجليزي و. غوردون إيسـت East. من المؤكد أن أفعال الإنسـان تكون مقيّـدة بالبارامترات parameters التي تفرضها الجغرافيـا[12]. لكن هذه الملامح contours تتسـم بكونهـا فضفاضة للغاية، بحيث

تمتلـك الفاعليـة البشرية أكثر من مسـاحة كافية للمنـاورة. ولأن العرب، كما تبيّن، يمكنهم تنفيذ الممارسـات الديموقراطية مثل أي جماعة أخرى، فحتى الترتيب المكاني للقبائل الليبية ولسلاسـل الجبال اليمنية سيسـتمر في لعب دور حاسـم في التطور السياسي في تلك البلدان. يقتصر دور الجغرافيا على التنوير، وليس التحديد. وبالتالي، فإن الجغرافيا ليست مرادفا للقدرية. لكنها، مثل توزيع القوة الاقتصادية والعسكرية ذاتها، تشكل عائقا رئيسا أمام الأفعال التي تقوم بها الدول - ومحرّضا لها.

وفي العام 1942، كتب الأسـتاذ بجامعة ييل، نيكولاس ج. سبيكمان Spykman، وهو منظّر استراتيجي أمريكي - هولندي بارز من حقبة أوائل الحرب العالمية الثانية، أن «الجغرافيا لا تجادل. فهي ما هي عليه ببساطة»، ويستطرد قائلا:

> الجغرافيـا هـي العامل الأكثر أهمية في السياسـة الخارجية للدول، لأنها أكثرهـا ديمومة. يأتي الوزراء ويذهبون، وحتى الطغاة يموتون، لكن السلاسـل الجبليـة تظل راسـخة في مكانهـا. إن جورج واشـنطن Washington، الذي دافـع عن ثلاث عشرة ولاية بجيش غير نظامي، قد خلفه فرانكلين د. روزفلت Roosevelt الذي كانت تحت تصرفه موارد قارة بأسرها، لكن المحيط الأطلسي اسـتمر في فصل أوروبا عن الولايات المتحدة، كما أن موانئ نهر سانت لورنس مازالت تُغلق بسـبب الجليد في فصل الشتاء. أما ألكسندر الأول Alexander I، وهـو قيصر جميع الأراضي الروسـية، فقد أورث جوزيف سـتالين Stalin، والذي كان عضوا بسيطا في الحزب الشيوعي، ليس فقط سلطته ولكن كفاحه الـذي لا ينتهي للوصول إلى البحر، في حين ورث ماجينو Maginot وكليمنصو Clemenceau مـن قيصر روما والملك لويس الرابع عشر قلقهما على الحدود الألمانية المفتوحة[13].

ويمكن للمرء أن يضيف، أنه حتى على الرغم من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فلايـزال المحيـط الأطلسي مهما، وفي الواقـع أن المحيط الأطلسي هو ما يعلن سياسـة خارجية وعسكرية مختلفة للولايات المتحدة بالمقارنة مع تلك الموجودة في أوروبا. وفي السياق نفسه، يمكننا القول بأن روسيا، حتى يومنا هذا، لاتزال تمثل قوة برية غير آمنة ومتراميـة الأطـراف، والتي كانت ضحية لغزوات منذ ما قبل تلك التي شـنتها جحافل المغول في القرن الثالث عشر، والتي لا تمتلك من الحلفاء سـوى الزمن، وبُعد المسـافة،

والطقس، كما تتوق إلى وصول أكثر إلى البحر. وبسبب عدم وجود عوائق جغرافية خطيرة بين أوروبا ومنطقة الأورال Urals، فإن أوروبا الشرقية، وعلى الرغم من انهيار الحدود المصطنعة المتمثلة في جدار برلين، لاتزال تتعرض للتهديد من قبل روسيا، كما كانت كذلك منذ قرون. ومن الصحيح أيضا أن القلق على الحدود الألمانية كان يمثل مصدر إزعاج لفرنسا - كما كان كذلك في زمن لويس الرابع عشر - حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما عملت الولايات المتحدة أخيرا كضامن للسلام في أوروبا.

وفي الواقع أن الجغرافيا تمثل مقدمة لمسار الأحداث الإنسانية ذاتها. وليس من قبيل المصادفة أن الحضارة الأوروبية لها جذور مهمة في جزيرة كريت وجزر كيكلادس Cycladic islands اليونانية، فالأولى، باعتبارها «شدفة منفصلة عن أوروبا»، هي أقرب نقطة أوروبية إلى حضارة مصر، كما أن الأخيرة هي أقرب نقطة إلى حضارة آسيا الصغرى[14]. كان كلاهما، بسبب وضعهما كجزر، محميا طوال قرون ضد ويلات الغزاة، مما سمح لهما بالازدهار. تمثل الجغرافيا حقائق الشؤون الدولية ذاتها، والتي تبلغ من الأساسة قدرا يجعلنا نتعامل معها كأمر مفروغ منه.

ماذا عساه أن يمثل حقيقة أكثر محورية للتاريخ الأوروبي من كون ألمانيا قوة قارية وبريطانيا العظمى جزيرة؟ تواجه ألمانيا كلا من الشرق والغرب في غياب سلاسل جبلية تحميها، مما يصيبها بعديد من العلل: من السياسة العسكرية إلى النزعة الناشئة إلى السلم، من أجل أن تتكيف مع موقعها الخطير. أما بريطانيا، من الناحية الأخرى، فلكونها مؤمنة ضمن حدودها، مع توجّه محيطي oceanic orientation، فقد تمكنت من تطوير نظام ديموقراطي قبل جيرانها، وإقامة علاقة خاصة عبر الأطلسي مع الولايات المتحدة، التي تتشارك معها نفس اللغة. كتب ألكسندر هاملتون Hamilton أنه لو لم تكن بريطانيا جزيرة، لكانت مؤسستها العسكرية بنفس عجرفة مثيلاتها في القارة الأوروبية، وأن بريطانيا كانت «في جميع الاحتمالات» ستصبح «ضحية السلطة المطلقة لرجل واحد»[15]. ومع ذلك، فما بريطانيا إلا جزيرة قريبة من أوروبا القارية، وبالتالي ظلت تعاني خطر الغزو من خلال معظم تاريخها، مما منحها اهتماما استراتيجيا خاصا على مدى قرون بسياسة فرنسا والدول المنخفضة الواقعة على الشاطئ الآخر من القنال الإنجليزي وبحر الشمال[16].

لماذا اكتسبت الصين أهمية أكبر من البرازيل في نهاية المطاف؟ بسبب الموقع الجغرافي: فحتى لو افترضنا أنها تحظى بالمستوى نفسه من النمو الاقتصادي مثل

الصين وأن سكانها متساوون في العدد، فإن البرازيل لا تمتلك خطوط الاتصال البحرية الرئيسية التي تربط القارات والمحيطات مثلما تفعل الصين؛ كما أنها لا تقع أساسا في منطقة معتدلة المناخ مثل الصين، التي تمتلك طقسا منعشا وأكثر خلوا من الأمراض. تُطــل الصين على غرب المحيط الهادي وتمتلك عمقا بريا يصل إلى آســيا الوســطى الغنيــة بالنفط والغاز الطبيعي. أما البرازيل فتمتلك أفضلية نســبية أقل؛ فهي تقع معزولة في أمريكا الجنوبية، منبوذة جغرافيا عن مساحات اليابسة الأخرى[17].

ولمــاذا ظلــت أفريقيا بمثل هذا الفقــر؟ على الرغم مــن أن أفريقيا هي ثاني أكبر قارة من حيث الحجم، حيث تبلغ مساحتها خمسة أضعاف مساحة أوروبا، فإن طول سواحلها الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى يزيد قليلا على ربع طول السواحل الأوروبية. وبالإضافة إلى ذلك، يفتقر هذا الســاحل إلى وجود عديد من الموانئ الطبيعية الجيدة، باستثناء موانئ شرق أفريقيا التي تشهد حركة تجارية قوية مع بلدان الجزيرة العربية والهند. هناك عدد قليل من الأنهار الاستوائية في أفريقيا التي تصلح للملاحة من البحر، حيث تصب من الســهول الداخلية الواســعة إلى الســهول الســاحلية عبر سلسلة من الشلالات والمنحدرات النهرية، بحيث تظل أفريقيا الداخلية معزولة بصفة خاصة عن الســاحل[18]. بالإضافة إلى ذلك، فقد أعاقت الصحراء الكبرى الاتصال البشري من جهة الشــمال طوال قرون كثيرة للغاية، بحيث لم تتعــرض أفريقيا إلا قليلا لحضارات البحر المتوســط الكبرى في العصور القديمة، وما بعدها. ثم هناك الغابات الضخمة الكثيفة، المنتشرة على جانبي خط الاستواء، من خليج غينيا إلى حوض الكونغو، والواقعة تحت تأثير الأمطار الغزيرة والحرارة الحارقة[19]. ليســت هــذه الغابات بالصديقة للحضارة، كما أنها ليست مواتية للحدود الطبيعية، وبالتالي فإن الحدود التي أقامها المستعمرون الأوروبيون كانت، بالــضرورة، حدودا مصطنعة. لقد منح العالم الطبيعي أفريقيا كثيرا مما يتعين عليها أن تجابهه في طريقها إلى الحداثة.

إذا ألقيت نظرة فاحصة على قائمة أضعف الاقتصادات في العالم، فستلاحظ النسبة المرتفعة للبلدان غير الساحلية[20]. لاحظ كيف أن البلدان الاستوائية (تلك التي تقع بين خطي العرض 23.45 درجة شمالا وجنوبا) عادة ما تكون فقيرة. كما أن معظم البلدان ذات الدخل المرتفع تقع في مناطق خطوط العرض الوســطى والعليا. لاحظ أيضا كيف أن المناطق المعتدلة، الواقعة بين الشرق والغرب في أوراســيا هي أفضل حالا من بلدان

أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، والواقعة بين الشمال والجنوب، لأن انتشار التكنولوجيا يعمل على نحو أفضل بكثير عبر خطوط العرض المشتركة، حيث تكون الظروف المناخية متشابهة، مما يسـمح بالتالي للابتكارات المتحققة في مجال الاعتناء بالنباتات وتدجين الحيوانات بالانتشـار بسرعة. وليس من قبيل المصادفة أن أفقر المناطق في العالم تميل إلى أن توجد حيث تدعم الجغرافيا، عن طريق ملاءمة التربة، الكثافة السكانية العالية، ولكن ليس النمو الاقتصادي، بسبب بُعد المسافة عن الموانئ ورؤوس السكك الحديد. وتُعد وسط الهند وأفريقيا الداخلية من أفضل الأمثلة على ذلك[21].

وفي تلخيـص مذهل للحتميـة الجغرافية، أشـار الجغرافي الراحـل بول ويتلي Wheatley إلى أن «اللغة السنسـكريتية تعرضت للتجميد حتى اقتصر استخدامها على نطاق لا يزيد على خمسـمائة متر»، وبالتالي كانت الثقافة الهندية في جوهرها ظاهـرة متعلقة بالأراضي المنخفضة[22]. هناك عديد من الأمثلة الأخرى على الكيفية التي أثرت بها الجغرافيا على نحو ثري على مصير الشـعوب، بطرق خفية وواضحة على حد سواء، والتي سأعرض مزيدا منها في سياق هذه الدراسة.

ولكن قبل أن نستكمل مناقشتنا، اسمحوا لي بأن أتناول مثال الولايات المتحدة؛ لأن الجغرافيا هي ما ساعد على ديمومة الازدهار الأمريكي، والتي قد تكون مسؤولة في نهاية المطاف عن الإيثار الأمريكي الإنساني الجامع panhumanistic. وكما لاحظ جون آدامز Adams، «ليست هناك عناية إلهية خاصة للأمريكان، كما أن طبيعتهم مماثلة لطبيعـة غيرهم»[23]. ويوضح المؤرخ جون كيغـان Keegan الأمر بقوله إن أمريكا وبريطانيا لا يمكنهما امتلاك زمام الريادة في مجال الحريات سـوى لأن البحر حماهـما «من أعداء الحرية الملتصقين بالأرض». إن النزعة العسـكرية والبراغماتية لأوروبا القارية خلال منتصف القرن العشرين، والتي طالما شعر الأمريكان بتفوقهم عليها، كانت نتيجة للجغرافيا، وليس الملامح الطبيعية. ظلت الدول والإمبراطوريات المتنافسـة ملاصقة بعضهـا لبعض ضمن قـارة مزدحمة. ولم يكن في وسـع الدول الأوروبيـة مطلقا أن تنسـحب إلى ما وراء البحار في حالة وقوع خطأ في حسـاباتها العسـكرية. وبالتـالي، فلم يكن مـن الممكن أن ترتكـز سياسـاتها الخارجية على الأخلاقيات الأممية، كما أنها ظلت مسـلحة بشـكل جيد في مواجهة بعضها البعض حتى سقطت فريسة للهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية[24]. لم يكن وجود

المحيطين وحده هو ما منح الأمريكان ترف مذهبهم المثالي، بل إن هذين المحيطين منحـا أمريكا وصولا مباشرا إلى اثنين من الشرايين الرئيسـية للسياسـة والتجارة في العالم: أوروبا عبر المحيط الأطلسي وشرق آسيا عبر المحيط الهادي، تقع بينهما ثروات القـارة الأمريكية[25]. ومع ذلك فهذان المحيطان نفسـيهما، عن طريق عزل أمريكا عن القارات الأخرى بآلاف الأميال، هما ما منحا أمريكا سـلالة خبيثة من الانعزالية التـي اسـتمرت حتى يومنا هذا. وفي الواقع، فباسـتثناء ميـدان نفوذها الخاص في الأمريكتين، فقد قاومت الولايات المتحدة بحماس سياسات القوى العظمى لما يقرب من مائة سـنة: فحتى انهيار منظومة الدول الأوروبية في العام 1940 فشـل في جر أمريكا إلى الحرب العالمية الثانية، فقد احتاج الأمر إلى شن هجوم على بيرل هاربور في العام 1941 لكي يحدث ذلك. وفي أعقاب الحرب، انسحبت الولايات المتحدة مرة أخرى من العالم، حتى اضطرها عدوان الاتحاد السـوفييتي وهجوم كوريا الشمالية عـلى كوريا الجنوبية إلى إعـادة قواتها مرة أخرى إلى أوروبا وآسـيا[26]. ومنذ نهاية الحرب الباردة، تأرجحت نخب السياسة الخارجية الأمريكية بين شبه الانعزالية وبين سياسة التدخل من منظور المثاليين: والتي ترجع جذور كل منهما إلى المحيطين.كتب عـالم جامعة جونز هوبكنز ياكوب ج. غريجل Grygiel أن الجغرافيا «قد نُسـيت، لكنهـا لم تُهـزم»[27]. أما كولن س. غراي Gray، الذي عمل لفترة طويلة كمستشـار للحكومتين البريطانية والأمريكية عن الاستراتيجية العسكرية، فكتب قائلا إن «إلغاء التكنولوجيا للجغرافيا يتضمن ما يكفي تماما لأن يُطلق عليه اسم مغالطة معقولة». لا يقتصر الأمر على ذلك فحسب، فكما رأينا في العراق وأفغانستان، «يتطلب ممارسة النفوذ أو السيطرة المستمرة»، على حد تعبير غراي، «الوجود المادي لأفراد مسلحين في المنطقـة المعنيـة»، بمعنى أن أي شـخص يعتقد حقـا أن الجغرافيا قد تضاءلت أهميتهـا بصورة محورية هو شـديد الجهل بالخدمات اللوجيسـتية العسـكرية، وهـي العلم المعني بنقل كميات كبيرة مـن الرجال والعتاد من قارة إلى أخرى. وما شـهدته خلال أسفاري البرية مع الشـعبة الأولى من مشاة البحرية في أرجاء العراق لم يكن سـوى جزء صغير من تلك المهمة اللوجيسـتية، والتي تضمنت نقل الرجال والمعـدات عـبر آلاف الأميال عن طريق السـفن من أمريكا الشـمالية إلى الخليج العـربي. وفي تحليل مسـتبصر على نحـو لافت للنظر، والذي نـشر في العام 1999،

كتب المؤرخ العسكري الأمريكي ويليامسون موراي Murray أن القرن الجديد الذي يوشك على البدء من شأنه أن يجعل الولايات المتحدة تواجه مرة أخرى «الواقع الجغرافي القاسي» المفروض من قبل المحيطين، مما يقيّد ويزيد على نحو مذهل من تكلفة نشر قواتنا البرية في أماكن بعيدة. وفي حين يمكن إنهاء بعض الحروب ومهام الإنقاذ بسرعة عن طريق «الإغارة» المحمولة جوا (وهنا يتبادر إلى ذهن المرء الهجوم الإسرائيلي على مطار عنتيبي في أوغندا في العام 1976 لإنقاذ ركاب طائرة مخطوفة)، فحتى في تلك العمليات، تتسم التضاريس بأهميتها. تُحدد التضاريس وتيرة وطريقة القتال. نشبت حرب الفوكلاند في العام 1982 ببطء بسبب البيئة البحرية، في حين عملت الصحارى المسطحة للكويت والعراق في حرب الخليج في العام 1991 على تضخيم تأثير القوة الجوية، على الرغم من أن السيطرة على مساحات شاسعة وعالية الكثافة السكانية في العراق إبان حرب الخليج الثانية أظهرت حدود القوة الجوية، وبالتالي جعلت القوات الأمريكية ضحية للجغرافيا: يمكن للطائرات أن تقوم بالقصف، لكنها لا تستطيع نقل البضائع بكميات كبيرة، ولا ممارسة السيطرة على الأرض[28]. وبالإضافة إلى ذلك، وفي كثير من الحالات، تتطلب الطائرات وجود قواعد قريبة بشكل معقول. وحتى في عصر الصواريخ الباليستية العابرة للقارات والقنابل النووية، لاتزال الجغرافيا مُهمة. وكما أشار إليه مورغنثاو، فليس في وسع الدول الصغيرة والمتوسطة الحجم مثل إسرائيل، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، وإيران أن تتحمل نفس المستوى من العقاب الذي تتحمله الدول القارية الحجم مثل الولايات المتحدة، وروسيا، والصين، وبالتالي فهي تفتقر إلى المصداقية المطلوبة في تهديداتها النووية. وهذا يعني أنه يتعين على دولة صغيرة تقع في وسط خصوم لها، مثل إسرائيل، أن تكون سلبية بصفة خاصة، أو عدوانية على وجه الخصوص، من أجل أن تظل على قيد الحياة. وذلك في المقام الأول هو مسألة تتعلق بالجغرافيا[29].

لكن تبني خريطة التضاريس، جنبا إلى جنب مع الجبال والرجال، لا يعني رؤية العالم مدفوعا على نحو لا رجعة فيه من قبل الانتماءات العرقية والطائفية التي تقاوم العولمة، فالقصة أكثر تعقيدا من ذلك بكثير. أدت العولمة في حد ذاتها إلى تحفيز إحياء النزعات المحلية، المبنية في كثير من الحالات على الوعي العرقي

والديني، والتي ترتكز على مناطق جغرافية محددة، وبالتالي تُفسّر بأفضل صورة بالرجوع إلى خريطة التضاريس. ويرجع ذلك إلى أن قوى وسائل الاتصال الجماهيري والاندماج الاقتصادي قد أضعفت قوة العديد من الدول، بما في ذلك تلك التي قسمت على نحو مصطنع، والمتعارضة مع إملاءات الجغرافيا، مما يترك مكشوفا، في بعض المجالات الحيوية، عالما منقسما وغير مستقر. وبسبب تكنولوجيا الاتصالات، اكتسبت الحركات الإسلامية قوة عبر كامل القوس الأفرو - آسيوي للعالم الإسلامي، على الرغم من كون الدول المسلمة المنفردة نفسها واقعة تحت الحصار من الداخل.

ولنأخذ مثالي العراق وباكستان، واللتين يمكن القول من الناحية الجغرافية إنهما أكثر دولتين تم إنشاؤهما على نحو غير منطقي بين دول البحر الأبيض المتوسط وشبه القارة الهندية، حتى لو كانت خريطة التضاريس تحكم على أفغانستان باعتبارها دولة ضعيفة في أحسن الأحوال. صحيح أن العراق انهار لأن الولايات المتحدة قامت بغزوه، لكن طغيان صدام حسين (الذي عايشته عن كثب في ثمانينيات القرن العشرين، والذي كان الأسوأ في العالم العربي على الإطلاق)، كما يمكن للمرء أن يجادل، كان في حد ذاته محدّدا جغرافيا. كان كل ديكتاتور عراقي منذ أول انقلاب عسكري في العام 1958 يصير أكثر قمعا من سابقه من أجل الحفاظ على تماسك دولة تفتقر إلى حدود طبيعية وتتكون من الأكراد والعرب السنة والشيعة، والتي تغلي بفعل درجة واضحة المعالم من الوعي العرقي والطائفي.

إنني أدرك أهمية عدم المغالاة كثيرا في هذا الخط من النقاش. وفي الواقع أن الجبال التي تفصل كردستان عن بقية العراق، وكذلك سهل بلاد ما بين النهرين المقسّم بين السنّة في الوسط والشيعة في الجنوب، قد تكون أكثر محورية في تطور الأحداث من التوق إلى الديموقراطية. لكن أحدا لا يستطيع أن يعرف المستقبل، وبالتالي فوجود عراق مستقر وديموقراطي على نحو معقول هو بالتأكيد ليس أمرا غير وارد: فكما ساعدت جبال جنوب شرق أوروبا على فَصْل الإمبراطورية النمساوية - المجرية عن الإمبراطورية العثمانية التركية الأفقر والأقل تطوّرا، والتي ساعدت على فصل المجموعات العرقية والمذهبية بعضها عن بعض طوال قرون في منطقة البلقان، فمن المؤكد أنها لم تحكم بالفشل على تدخلاتنا هناك لوقف الحروب الطاحنة.

أنا لا أتحدث هنا عن قوة غاشمة يقف الجنس البشري عاجزا في مواجهتها، بل أود أن أدعو إلى قبول متواضع للمصير fate، المؤمّن جوهريا في حقائق الجغرافيا، من أجل كبح الحماس المفرط في السياسة الخارجية، وهو حماس كنت أنا شخصيا مذنبا بارتكابه.

وكلــما ازدادت قدرتنا على كبح هذا الحماس، ســيزداد نجــاح التدخلات التي نشارك فيها، وكلما ازداد نجاح هذه التدخلات، ستزداد مساحة المناورة المتاحة أمام صناع القرار لدينا، أمام محكمة الرأي العام، للتصرف بالطريقة نفسها في المستقبل.

إننــي أدرك أننــي أقف على أرضيــة خطرة من حيث وضــع الجغرافيا على قاعدة مرتفعة. ولذلك ســأحاول، في ســياق هذه الدراســة، أن أضع في اعتباري دائما التوبيخ الذي تلقاه أشعيا برلين على محاضرته الشهيرة التي ألقاها في العام 1953، والتي نشرت في العــام التــالي تحت عنوان «الحتمية التاريخية»، والتي شــجب فيها - باعتباره عملا غير أخلاقي وجبانا - الاعتقاد بأن القوى غير الشــخصية الهائلة مثل الجغرافيا، والبيئة، والخصائص العرقية تحدّد حياتنا واتجاه السياسة العالمية. أقدم برلين على توبيخ أرنولد توينبــي Toynbee وإدوارد غيبون Gibbon عــلى نظرتهما إلى «الأمم» و«الحضارات» باعتبارها «أكثر تماسكا» من الأفراد الذين يجسدونها، وعلى النظر إلى تعبيرات تجريدية مثل «التقاليد» و«التاريخ» باعتبارها «أكثر حكمة منا»[30]. ومن منظور برلين، يكتسب الفرد ومســؤوليته الأخلاقية أهمية قصوى، وبالتــالي لا يمكنه إلقاء اللوم في أفعاله - أو مصــيره - على الإطلاق، أو بدرجــة كبيرة، على عوامل مثل المشــهد الطبيعي والثقافة. كانت لدوافع البشر أهمية بالغة في التاريخ؛ فهي ليســت أوهاما يمكن تبريرها بعزوها إلى قوى أكبر. تمثل الخريطة بداية، وليست نهاية، لتفسير الماضي والحاضر.

وبطبيعــة الحال، فإن الجغرافيــا، والتاريخ، والخصائص العرقيــة تؤثر في الأحداث المســتقبلية، لكنها لا تحددها. وعلى الرغم من ذلك، فإن تحديات السياســة الخارجية اليوم لا يمكن ببساطة حلها، ولا يمكن اتخاذ الخيارات الحكيمة، من دون الرجوع بدرجة كبــيرة إلى هذه العوامل نفســها، والتي يبدو برلين للوهلــة الأولى رافضا لها، في معرض هجومه الكاسح على كل أشــكال الحتمية. إن الاعتماد على الجغرافيا والعوامل العرقية والطائفيــة قد خدمنا بشــكل جيد في توقع وقوع العنــف في كل من البلقان، في أعقاب نهاية الحرب الباردة، وفي العراق، بعد الغزو الأمريكي في العام 2003. على أي حال، فإن تحدي برلين الأخلاقي يعمل بشــكل جيد حتى الآن كإطار للنقاشــات التي دارت خلال العقدين الماضيين، حول أين ننشر القوات الأمريكية وأين لا ننشرها في الخارج.

مــا العمل، إذن؟ كيف يمكننا شَــطر الفرق بــين إدراك أهمية الجغرافيا في صياغة التاريــخ وخطر المغالاة في تأكيــد هذه الحقيقة ذاتها؟ يمكن أن نلوذ هنا، في اعتقادي،

بمفهوم ريمون آرون حول «الأخلاقيات الرصينة المتجذرة في حقيقة الحتمية الاحتمالية»، لأن «الاختيار الإنساني يعمل دائما ضمن حدود أو قيود بعينها مثل إرث الماضي»[31]. إن الكلمة المفتاحية هنا هي «الاحتماليــة» probabilistic؛ بمعنى أننا، في تركيزنا الحالي عــلى الجغرافيا، نتمســك بحتمية جزئية أو مترددة، والتي تُقــر بالاختلافات الواضحة بــين الجماعــات والأماكن، لكنهــا لا تُفرط في التبســيط، وتترك كثيرا مــن الاحتمالات مفتوحــة. وكما كتب المــؤرخ الإنجليزي نورمان ديفيز Davies مــا نصه: «لقد صرت أعتقد أن الســببية لا تتألف حصرا من عناصر حتميــة، أو فردانية individualist، أو عشــوائية، ولكن من مزيج من الثلاثة جميعها»[32]». أما الدوليون الليبراليون Liberal internationalists، الذيــن أيدوا عموما التدخــل في البلقان لكنهم اعترضوا على غزو العراق، فيعكسون هذه الروح من التمييز الدقيق. لقد استشعروا بحدسهم، مهما كان ذلك بصورة مُبهمة، إحدى الحقائق الرئيســية للجغرافيا: ففي حين كانت يوغوسلافيا الســابقة تقع عند الطرف الغربي الأكــثر تقدما من الإمبراطورية العثمانية الســابقة، كونها متاخمة لأوروبا الوســطى، تقع بلاد ما بين النهرين عند تخومها الشرقية، وهي أكثرها فوضوية. ولأن هذه الحقيقة قد أثّرت في التطوّر السياسي حتى عصرنا الحاضر، فسيثبت أن التدخل في العراق كان بمنزلة نزهة.

مــاذا إذن، يمكــن لهذا المصــير المتواضع، وتلــك اليد الخفيــة، أن يحمل لنا في الســنوات القادمة؟ ماذا عســانا أن نتعلمه من الخريطة، والذي يحذرنا مسبقا من الأخطار المحتملة؟ دعونا نســتعرض بعض آثار الجغرافيا على النمط الرئيسي لتاريخ العالم من منظور عديد من كبار علماء القرن العشرين، وبعد ذلك ســننظر تحديدا إلى الجغرافيــا والتدخل الإنســاني عبر عينــي أحد الرجال العظــام، والذي عاش في العصور القديمة. من شــأن هذا أن يُعدّنا لاســتقصاء أكثر النظريات الجيوسياســية المعاصرة صمودا أمام اختبار الزمن وأشــدها اســتفزازا، لنرى إلى أين تأخذنا في أثناء وصفنا للعالم الآتي.

3

هيرودوت وخلفاؤه

«تتسم الحضارات بكونها، في نواح كثيرة، استجابات شجاعة وقوية للبيئات الطبيعية»

المؤلف

خلال الفترة الممتدة من منتصف القرن العشرين إلى نهايته، عندما كان هانز مورغنثاو يدرّس في قسم العلوم السياسية بجامعة شيكاغو، كان هناك أستاذان آخران يصوغان أيضا مسارين أكاديميين باهرين في قسم التاريخ: وليام هـ ماكنيل McNeill ومارشال ج.س. هودجسون Hodgson. كانت الجامعة تتفجر بالصرامة والمواهب، ومن خلال التركيز على هؤلاء الأساتذة الثلاثة، لا أقصد التقليل من شأن الآخرين. وفي حين حدّد مورغنثاو معالم المعرفة الواقعية لعصرنا الحالي، فعل ماكنيل الشيء نفسه حرفيا بالنسبة إلى تاريخ العالم، وكذلك فعل هودجسون بالنسبة إلى تاريخ الإسلام، في كتب ضخمة شبيهة بحجم مجلدات هيرودوت، والتي نادرا ما كانت فيها

الجغرافيا بعيدة المنال. إن الجرأة ذاتها التي أظهرها ماكنيل وهودجسون في اختيار موضوعاتهما تظل مثيرة للإعجاب في هذه الحقبة الأكاديمية الحالية، بسبب التركيز على تخصص ضيق - وهو أمر، في الحقيقة، صار ضرورة في ظل تراكم الكمّ المعرفي بشكل مطرد. لكن قراءة ماكنيل وهودجسون تجعلك تشعر بما يشبه الحزن على فترة لم تنقضِ منذ مدة طويلة، والتي بدت فيها آفاق العلماء كأنها لا حدود لها.

جلب التخصص نمطه الفريد من الازدهار، لكن المجتمع الأكاديمي يمكنه الاستفادة على نحو أكثر مما يمثله هذان الأستاذان في جامعة شيكاغو. وقد أظهرا أن الجغرافيا تمثل في حد ذاتها وسيلة للتفكير على نطاق واسع.

كان وليام ماكنيل هاردي، المولود في مقاطعة كولومبيا البريطانية الكندية، في منتصف الأربعينيات من عمره عندما نشر، في العام 1963، كتابه المعنون «صعود الغرب: تأريخ للمجتمع البشري»، وهو كتاب يزيد حجمه على ثمانمائة صفحة. تمثّل الموضوع الرئيسي للكتاب في تحدي وجهة نظر المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي والمؤرخ الألماني أوزفالد شبنغلر Spengler، والقائلة بأن الحضارات المنفصلة قد حققت مصائرها على نحو مستقل. وبدلا من ذلك، يجادل ماكنيل بأن الثقافات والحضارات كانت في تفاعل مستمر، وأن هذا التفاعل هو ما شكّل الدراما الأساسية لتاريخ العالم. وإذا كان الكتاب متعلقا بأي شيء، فهو يتناول الحركات الكبرى للشعوب عبر أرجاء الخريطة قاطبة.

للتوضيح: جلبت حركة آتية من الشمال ما يسمى «فلاحو الدانوب» Danubian cultivators إلى وسط وغرب أوروبا ما بين عامي 4500 و4000 قبل الميلاد. وفي الوقت نفسه، فإن حركة جنوبية من الرعاة والمزارعين الرواد عبرت شمال أفريقيا حتى مضيق جبل طارق، «للالتقاء والاختلاط مع الفيضان الآتي من الدانوب». لكن جماعات الصيادين القديمة في أوروبا لم تتعرض للتدمير، كما كتب ماكنيل؛ فبدلا من ذلك، كان هناك اختلاط بين السكان والثقافات[1]. وهكذا يبدأ جوهر الكتاب.

نشأت كل هذه الهجرات البشرية، في شمال وجنوب البحر الأبيض المتوسط، من الهلال الخصيب وهضبة الأناضول Anatolia، حيث كان عدم الاستقرار السياسي ناتجا إلى حد كبير عن الجغرافيا. «في حين تقع مصر على جهة موازية ومسالمة لطرق مرور البشر، فقد كان العراق منذ قديم الأزل إقليما حدوديا، قائم الزاوية وبغيضا

بالنسبة إلى المسارات المقدّرة سلفا للبشر»، كما كتبت أديبة الرحلات البريطانية الراحلة فريا ستارك Stark[2]. وفي الواقع، كما ذكر ماكنيل، فإن بلاد ما بين النهرين تقع عبر واحد من أكثر مسارات الهجرة دموية في التاريخ. «بمجرد أن تبدأ المدن الواقعة في السهول في الازدهار»، كنتيجة للطبيعة المنحدرة بلطف في الجزء السفلي من وادي دجلة والفرات، والذي حمل مياه الري لأميال، «كانت تصير أهدافا مغرية للنهب من قبل الشعوب الهمجية التي تعيش في البلاد المحيطة».

وبالإضافة إلى ذلك، فعندما زُرعت معظم الأراضي القابلة للري من بلاد ما بين النهرين، واقتربت حقول مجتمع ما مع حقول مجتمع آخر، نشبت حروب مزمنة، كما لم تكن هناك سلطة مركزية لتسوية النزاعات الحدودية، أو لتقسيم المياه في أوقات النقص. وفي خضم هذه الحالة من شبه الفوضى، دخل فاتحون مثل سارغون Sargon (2400 قبل الميلاد) بلاد ما بين النهرين من حواف المنطقة المزروعة. وعلى الرغم من تمكنهم من إنشاء سُلطة مركزية، فإن العسكر المنتصرين، بعد بضعة أجيال، كما يخبرنا ماكنيل، تخلوا عن الحياة العسكرية من أجل «أنماط الحياة الأوثر والأفخم» التي تُرى في البلدات. وهكذا، بدأ التاريخ يُعيد نفسه مع وصول فاتحين جدد.

يذكرنا هذا كثيرا بالنمط الذي وصفه المؤرخ والجغرافي التونسي الذي عاش في القرن الرابع عشر، ابن خلدون Ibn Khaldun، والذي لاحظ أنه على الرغم من أن المعيشة الفاخرة تقوي الدولة في البداية عن طريق تعزيز شرعيتها، فهي تؤدي إلى الانحطاط في الأجيال التالية، حيث تُستهل عملية الانهيار بصعود قادة أقوياء في المقاطعات، والذين يقومون بالغزو وتوطيد سلالاتهم الحاكمة في نهاية المطاف[3]. أدى صعود الحضارة في العراق القديم إلى ظهور أشد الأنظمة الاستبدادية قسوة من أجل درء التفكك من الداخل: ولذلك نجد تغلث - فلاسر Tiglath - pileser في (القرنين الحادي عشر والثاني عشر قبل الميلاد)، وآشورناصربال الثاني Ashurnasirpal II (القرن التاسع قبل الميلاد)، وسنحاريب (في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد)، وغيرهم، والذين اشتهروا بالقسوة، وجنون العظمة، وعمليات الترحيل الجماعي التي ارتُكبت باسمهم[4]. وقد استمر هذا النمط حتى بلغ ذروته في عهد صدام حسين: وهو النمط الذي ساد في منطقة معرضة للغزو والتشرذم،

والتـي تطلبـت – طوال فترات طويلة من التاريخ - مسـتويات كبيرة من الطغيان. ولكن مرة أخرى، ينبغي على المرء أن يتجنب الوصول إلى مثل هذا الاستنتاج الضيّق: على سبيل المثال، فما بين عامي 1921 و1958، شهد العراق نظاما برلمانيا جيد الأداء على نحو متواضع، الأمر الذي كان من الممكن أن يسـتمر لو تغيّرت الظروف قليلا. تحدث ماكنيل، وابن خلدون، وسـتارك عن الاتجاهات التاريخية والجغرافية فقط، وبالتالي فقد تجنبوا الاتهام بالحتمية[5].

ومثلما شـكلت الجغرافيا أساسا لمستوى غير عادي من الاستبداد والبيروقراطية في بلاد ما بين النهرين، يشرح لنا ماكنيل كيف انتهت في مصر إلى حكم أقل استبدادا إلى حد ما.

«منحـت الصحارى أرض مصر حدودا واضحة ويمكن الدفاع عنها بسـهولة؛ في حين زودها النيل بعمود فقري وجهاز عصبي طبيعي»، وبالتالي فلم تكن مستويات القهـر المتبعة في بـلاد ما بين النهرين ضرورية بطول نهر النيل. واسـتطرد قائلا إن «الدفاعات الحدودية ضد الغزاة الخارجيين نادرا ما مثّلت مشـكلة خطيرة بالنسبة إلى ملـك مصر». وفي الواقع، وبسـبب موقع مصر المـواتي في مواجهة طرق الهجرة بالمقارنـة مع بلاد ما بين النهرين، كان تسـلل الليبيين من جهة الغرب والآسـيويين من الشرق يمثل مشكلة بسيطة نسبيا. كانت حدود مصر مغلقة من جهة الجنوب، حيـث لا يوجد شيء سـوى صحراء جرداء على جانبي النهـر؛ بينما تمثلت حدودها الشـمالية في البحر الأبيض المتوسط. ومن المحتمل أن المصريين، وطوال أربعة آلاف سـنة، «لم يروا قط مضيفا غازيا بين ظهرانيهـم»[6]. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت الملاحة في النيل سـهلة، كون جريان النهر يحمل القوارب شـمالا، وحتى على الرغم مـن كون الريـاح تهب عادة من الشـمال إلى الجنوب، فقد كانـت القوارب تُبحر جنوبا، بمسـاعدة الأشرعة. وهكذا تمكن فجر الحضارة من البزوغ في مصر. وفي هذا السياق، كتب ماكنيل: «على النقيض من ذلك، لم يكن يتوافر لدى حكام بلاد ما بين النهرين أي أدوات طبيعية جاهزة يمكنهم اسـتخدامها في تأمين سـلطتهم المركزية، لكنهم اضطـروا، على نحو بطيء ومؤلم إلى وضع قانون [قمعي] وإدارة بيروقراطية باعتبارهـما بديلا اصطناعيا عن التمفصل الطبيعي الـذي منحته الجغرافيا لمصر». كانت البيروقراطيـة الثقيلة الوطأة في بلاد ما بين النهرين مضطرة أيضا إلى التعامل

مـع المعدلات المتقلبـة لفيضانات نهري دجلة والفرات، عـلى عكس الحال مع نهر النيل، الأمر الـذي زاد من تعقيد تنظيم منظومة الري[7]. وحتى اليوم، فعلى الرغم مـن أن كلا من مصر والعـراق ظلتا تحت حكم أنظمـة ديكتاتورية لفترات زمنية طويلـة، لكن حقيقة كون النظام العراقي أسـوأ بكثير هي أمـر يمكننا، ولو بصورة جزئية، تتبّع جذوره إلى العصور القديمة، وإلى الجغرافيا.

وفيما وراء الشرق الأوسـط، كان هناك ما أسـماه ماكنيل الحضارات «الطرفية» في الهنـد، واليونان، والصـين، والواقعة «على هامش العـالم المتحضر قديما»، والتي اسـتمدت في حالة البلدين الأولين جزءا كبيرا من حيويتها من حضارتي نهر السـند وجزيرة كريت في ظل الحضارة المينوسـية Minoan Crete، على الترتيب. لكن كل الحضارات الثلاث اسـتفادت أيضا من تفاعلها مع الغـزاة البرابرة، حتى على الرغم من كونها محمية منهم جزئيا بحكم جغرافيتها. وبالنسبة إلى اليونان والهند، فبفضل جبالهما الشمالية، فقد كانتا على حد سواء «محميتين على نحو فعال من أي هجوم مباشر من فرسـان السهوب». كانت الصين حتى أكثر انعزالا منهما، بفعل الصحارى الوحشـية، وقمم الجبال العالية، والمسـافة المحضة، إذ كانـت آلاف الأميال تفصل وادي النهر الأصفر، حيث بدأت الحضارة الصينية، عن الشرق الأوسط وعن الأراضي المركزية الهندية.

تمثلت النتيجة في ثلاث حضارات أصلية تماما، وخصوصا حضارة الصينيين، والتي تمكنت من النمو بشكل منفصل عن الاتساق الثقافي المتزايد للشرق الأوسط المكون في معظمه من صحراء كبرى، والتي تمتد من شمال أفريقيا إلى تركستان[8].

يـشرح ماكنيل أنـه طوال العصور القديمـة، أدى المد والجز عـلى الحدود بين الحضارات الهيلينية، والشرق أوسطية، والهندية إلى توازن حضاري دقيق في أوراسيا، التي سـتتعرض للتدمير لاحقا في القرون الوسـطى بسـبب تدفق شعوب السهوب من الشمال، ولا سيما المغول[9]. ازدهر طريق الحرير Silk Route إلى حد كبير عن طريـق المغول، خصوصا في القرنـين الثالث عشر والرابع عشر، مما جعل الحضارات الأوروبيـة - الآسـيوية من المحيط الهـادي إلى البحر المتوسـط يتواصل بعضها مع بعـض على نحو محدود. ومع ذلك، فقد شـكلت الصين محيطهـا الخاص المنفصل جغرافيـا مقارنـة بالحضارات الواقعـة إلى الغرب منها، مع توجيـه كل من التبت،

ومنغوليا، واليابان، وكوريا أنظارها تجاه المملكة الوسـطى، حيث قامت كل منها - وبدرجـات متفاوتة - بتكوين حضارتها الخاصة. ومع ذلك، فالقيود الشـديدة التي فرضتها البيئة الصحراوية القاسية «جعلت أي شيء أكثر من حضارة بدائية مستحيلا في التبت ومنغوليا»، كما كتب ماكنيل. أما اللاميون Lamaists التبتيون، الذين كانوا «مدركين دائما للأصول البوذية الهندية لعقيدتهم»، فكانوا في الواقع معارضين لفرض الهويـة الصينية Sinification من خلال اتباع تقاليد الحضارة المنافسـة الواقعة في الجوار[10]. إن التاريخ، وفقا لماكنيل، هو دراسـة انسـيابية، والتي تبدو فيها الأمور آمنة ومرتّبة جغرافيا بكل دقة: والأهم أننا نظل دائما في حالة من التحولات الصغيرة والتبادلات الثقافية.

وفي حـين عارض شـبنغلر، وتوينبي، وفيما بعـد صامويل هنتنغتون، الأسـتاذ بجامعة هارفارد وصاحب نظرية «صدام الحضارات»، ففي معرض تأكيده التآثر بين الحضارات بدلا من تباعدها، فإن كتاب ماكنيل المعنون «صعود الغرب»، على الرغم من ذلك، يشـغل ذهن القارئ بكامل فكره كون الحضارات التي تشـكلت إلى حد كبير بفعل الجغرافيا، والتي صعدت من مناطق يمكن تحديدها بدقة، تحقّق هويتها الخاصة، ومن ثم تتفاعل مع الحضارات الأخرى، مشكّلة بدورها هجائن جديدة.

وبهـذه الطريقـة، يُحبك نسـيج التاريـخ[11]. وهنا يصف ماكنيـل العملية بتعبيرات مجازية:

> يمكن تشـبيه الحضارات بسلاسـل الجبال، التي ترتفـع عبر دهور من الزمـن الجيولوجـي، والتي تعمل قـوى التآكل ببطء ولكـن بصورة يتعذر اجتنابها على تسـويتها بمحيطها. وخلال الفـترة الزمنية الأقصر بكثير للتاريخ البشري، كانت الحضارات، بدورها، عرضة للتآكل مع انقضاء كوكبة الظروف الاستثنائية التي حفّزت صعودها، بينما تقوم الشعوب المجاورة برفع أنفسها إلى آفـاق ثقافية جديدة عن طريق الاقتراض مـن، أو التفاعل بصورة أخرى مع، المنجزات الحضارية[12].

بيـد أن هذا التآكل والاقتراض يرعب صفاء المفكـر الألماني الذي عاش في أوائل القرن العشرين، أوزفالد شـبنغلر، الذي كتب عن «الروابـط العميقة للتربة» التي تحـدد أفضل الثقافات الرفيعة: كيف يمكن للتطور الداخلي للممارسـات والعقائد

المقدسة أن يظل «مسحورا في مكان ولادتها»، إذ إن «أيا ما كان ما يفصلها عن الأرض سيصبح جامدا وصلبا». ويستطرد قائلا إن الثقافة الرفيعة تبدأ في «الريف قبل الحضر» وتصل إلى ذروتها مع «خاتمة من النزعات المادية» في «المدن العالمية» world cities. وبالنسبة إلى هذه الرومانتيكية الكئيبة، التي يمكن أن تكون في آن واحد طنّانة، ومنوّمة، وعميقة، وبصراحة، غير مفهومة في بعض الأحيان عند ترجمتها إلى الإنجليزية، فإن الكوسموبوليتية cosmopolitanism هي جوهر عدم الانتماء، لأنها ليست مرتبطة بالأرض[13].

يثير هذا مسألة الصعود والانهيار اللاحق للحضارة الغربية في المناطق الحضرية، والذي يتحول ونحن نتحدث إلى حضارة عالمية، والذي يتباعد عن التربة بشكل متزايد. وسأعرض لهذا التساؤل في موضع لاحق من الكتاب. وفي الوقت نفسه، أريد الاستمرار مع ماكنيل، الذي كان، في كل كتاباته، وحتى أكثر من شبنغلر نفسه، وبصورة أكثر وضوحا بكثير، مهتما بالمناخ والجغرافيا.

كتب ماكنيل، على سبيل المثال، أن الآريين Aryans في سهل نهر الغانج Gangetic plain في الهند قد طوّروا سمات ثقافية مختلفة وأقل ميلا إلى الحرب مما فعلوا في أوروبا المطلة على البحر المتوسط بسبب تأثير غابات شبه القارة ودورة الرياح الموسمية، وهو ما شجع التأمل والمعرفة الدينية.

وفي مثال آخر، كتب أن «النضج المبكر» لمنطقة آيونيا Ionia اليونانية كان بسبب القرب من، والاتصال الحميم مع آسيا الصغرى والمشرق. ومع ذلك فهنا، أيضا، ينسحب ماكنيل من الحتمية المحضة: فعلى الرغم من التضاريس الجبلية في اليونان، التي سهّلت إقامة وحدات سياسية صغيرة، أي الدول المدينية city - states، نجده حريصا على أن يذكر أنه في عدد من الحالات، «جرى تفتيت مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة المتجاورة» إلى دول مدينية مختلفة، بحيث لا يمكن أن تمثل الجغرافيا إلا جزءا من القصة. وفوق كل شيء، بالطبع، هناك تاريخ اليهود، والذي يتعارض مع كامل منطق الاستمرارية الجغرافية للديانات الكبرى (وخصوصا الهندوسية والبوذية)، والذي تحمّل ماكنيل مشقة تضمينه لهذا السبب: إن التدمير التام للمجتمع اليهودي في يهودا Judea، والذي كان نتيجة لسحق الثورات التي اندلعت خلال القرنين الأول والثاني للميلاد من قبل الرومان، لم يؤد إلى القضاء على

الديانــة اليهودية، والتي واصلــت طريقها بصورة غير متوقعــة لتتطور وتزدهر في مدن الشــتات الغربي المتناثرة، في قصة عمرها ألفا عــام، والتي تتعارض مع تعاليم الجغرافيا، مما يُظهر مرة أخرى كيف أن الأفكار والفاعلية الإنســانية تكتسب نفس أهمية البقاع المادية[14].

وعلى أي حال، هناك أيضا قصة من أوروبا، والتي تعود إلى فجر التاريخ البشري، وهــي قصة تتعلق كثيرا بصدارة الجغرافيا. وكما أشــار إليه ماكنيــل، تتمتع أوروبا الغربيــة بمزايا جغرافية متميزة، والتي عملت عــلى تفعيلها التطورات التكنولوجية خلال ما يســمى بالعصور المظلمة: ســهول واســعة وخصبة، وخط ساحلي مسنّن، والذي سمح بإنشــاء عديد من المرافئ الطبيعية الجيدة، والأنهار الصالحة للملاحة المتدفقة شــمالا عبر هذه الســهول مما عمل على توسيع نطاق التجارة إلى حد أكبر مما كانت عليه في منطقة البحر المتوســط، ووفرة من الأخشاب والمعادن[15]. كانت أوروبا تتميز أيضا بظروف مناخية قاســية، وباردة، ورطبــة، والتي دفعت توينبي، الذي لم يكن قدريا، عند مســتوى حاســم، مثله في ذلك مثل ماكنيل، إلى أن يكتب على الرغم من ذلك قائلا: «تتسم السهولة بمعاداتها للحضارة... فكلما زادت سهولة البيئة، ضعف الحافز تجاه الحضارة[16]». وبالتالي فقد تطورت أوروبا بسبب ظروفها الجغرافية التي كان من الصعب العيش فيها، لكنها كانت تمتلك العديد من النقاط العقدية الطبيعية للنقل والتجارة. تتسم الحضارات بكونها، في نواح كثيرة، استجابات شجاعة وقوية للبيئات الطبيعية.

وكمثال على ذلك، لنأخذ قُرب المنطقة الإســكندنافية Scandinavia والضغوط العســكرية التي فرضها ذلك على شواطئ أوروبا الغربية، الأمر الذي أدى إلى تشكّل إنجلترا وفرنســا بوصفهــما كيانين وطنيين. أما إنجلترا، وبالإضافــة إلى ذلك، ولكونها أصغــر حجما من الممالك الإقطاعيــة في القارة الأوروبية، وكــما كتب توينبي، فقد «امتلكــت حدودا أفضل تحديدا [فقد كانت جزيــرة، على أي حال]»، فقد حققت وجودا وطنيا، مقابل ذلك الإقطاعي، قبل جيرانها بكثير[17].

وبطبيعــة الحال، فإن بعض المناطق الطبيعية، كالقطب الشــمالي، على ســبيل المثــال، تكون من الوعورة بحيث يمكن أن تــؤدي إلى انهيار حضاري، أو إلى حضارة مقيّدة. أما ما سبق ذلك، وفقا لتوينبي، فهو عمل ثقافي بارع - مثل قدرة الإسكيمو

على البقاء الفعلي على الجليد في الشـــتاء وعلى صيد كلاب البحر. ولكن على الرغم مـــن تمكنهم من إنجـــاز هذا العمل الفذ من البقاء على قيـــد الحياة، فقد ظلوا غير قادرين على التحكم في البيئة إلى مدى بناء حضارة كاملة. لقد قام توينبي، فضلا على الجغـــرافي المعاصر بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلـــوس جارِد دياموند Diamond، بكتابة مجلدات حول الصعوبات والانهيارات الحضارية بين ثقافات القرون الوسطى من الفايكنغ الذين عاشـــوا في غرينلانـــد، والبولينيزيين من ســـكان جزيرة الفصح، وشـــعب الأنسازي Anasazi في جنوب غرب أمريكا، وقبائل المايا في مجاهل أمريكا الوســـطى، والتي كانت ترتبط جميعها بوجود مشـــكلات مع البيئـــة[18]. أما أوروبا، عـــلى ما يبدو، فقـــد أظهرت الدرجة المثـــلى من الصعوبات البيئيـــة، مما جعل من الصعب على ســـكانها الارتقاء إلى مســـتويات حضارية أعلى، حتـــى على الرغم من أنهـــا لاتزال تقع في المنطقة المعتدلة الشـــمالية، على مقربـــة إلى حد ما من أفريقيا، والشرق الأوســـط، والســـهوب الأوراسية، وأمريكا الشـــمالية، وبالتالي كانت شعوبها قادرة على الاســـتفادة بصورة كاملة من أنماط التجارة التي ازدهرت في سياق قرون من التقدم التكنولوجي في الملاحة وغيرها من المجالات[19]. لننظر إلى إتقان فاســـكو دا غاما da Gama للإبحار عبر الرياح الموســـمية في المحيط الهندي، والذي ســـمح للتخـــوم الخارجية من أوراســـيا بأن تصبح محور الممـــرات البحرية العالمية الواقعة تحت الهيمنة الأوروبية. ولكن في رواية ماكنيل، فليس التقدم المادي لأوروبا وحده، في ظل المادية الصعبة البيئة، هو ما أدى إلى صعود الغرب، ولكن إغلاق المســـاحات «البربرية»، على حد تعبيره[20].

> تحـــدث ماكنيل عن «تعـــدٍّ لا هوادة فيه، إن لم يكـــن متواصلا من دون انقطاع، للحضارات على الهمجية: كان هذا التعدي هو ما أدى إلى تراكم مادة والتنـــوع الداخلي للحضارات المنفصلة في العـــالم، وزاد من وتيرة الاتصال فيما بينها، مما مهّد الطريق أمام التوحيد المذهل للعالم، والذي حدث خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الماضية[21]».

إن هذا الإغلاق الحضاري للمســـاحات الفارغة نســـبيا مـــن الأرض، والتي تقع في معظمها في المنطقة المعتدلة المناخ، بدأ أساســـا مع الرحلات الاستكشافية: والتي قـــام بها كل من دا غاما، وكولومبوس، وماجلان، وغيرهم. واســـتمرت خلال المراحل

المعروفـة من الثورات في مجالات الصناعة، والنقل، والاتصالات وحتى عصر العولمة الذي نعيشـه اليوم. وفيما بين المرحلتين، جاء انهيار شـعوب السـهوب، مع تقاسم روسيا، والصين، وإمبراطورية هابسبورغ لسهول ونجود وسط أوراسيا الفارغة نسبيا. وكان هنـاك، أيضا، انهيار جماعات السـكان الأصليين مع التأمـين العنيف للحدود الغربية لقارة أمريكا الشمالية، وزحف الاستعمار الأوروبي على بلدان أفريقيا جنوبي الصحـراء الكـبرى[22]. إن العالم، كما يصفه ماكنيل، قد اتحـد الآن في نهاية المطاف تحت ثقافة غربية إلى حد كبير، وحضرية على نحو متزايد. تذكر أن الشيوعية، على الرغم من كونها امتدادا للنزعات الاستبدادية داخل المسيحية الأرثوذكسية الشرقية، وبالتـالي إهانـة لليبرالية، فإنها كانت تمثـل أيديولوجية خاصة بالغـرب الصناعي. أمـا النازية، أيضا، فقد برزت بوصفها آفة أصابـت الغرب الذي كان يعاني التضخم والتحول السريع إلى العصرنة. لا يتحدث ماكنيل عن الوحدة السياسـية، ولكن عن النزعات الثقافية والجغرافية والديموغرافية الأوسع.

وعـلى الرغم مـن أن الموضـوع الرئيسي لكتـاب «صعود الغـرب» هو إغلاق المسـاحات الفارغة على الخريطة، فمن الواضـح أن هذا لم يكن صحيحا إلا بصورة نسبية فقط. إن حقيقة أن خطين للسكك الحديد، والقادمين من اتجاهين معاكسين، قد التقيا ولامس أحدهما الآخر لا تعني أنه لم تعد هناك مسـاحات فارغة أو قليلة السـكان فيما بينهما. قد تُغلق الحدود بالمعنى الرسـمي، لكن كثافة السـكان من البـشر والتواصل الإلكتروني بينهم يتزايدان بوتيرة حادة. ومعدل الزيادة هذا هو ما يساعد على صياغة الدراما السياسية للعالم الذي نعيش فيه اليوم. قد يعتبر ماكنيل أن العـالم المتحد هو ذلك الذي لا يبعد فيه أي جـزء من الأرض المتحضرة أكثر من بضعة أسابيع عن جزء آخر[23].

ولكن كيف يمكن أن تتغير الجغرافيا السياسية عندما لا يفصل بين أبعد الأماكن سـوى بضعة أيام، أو سـاعات، كما هي الحال في عصرنا الحالي؟ كان العالم موحدا، بمعنـى ما، خـلال القرنين الثامن عشر والتاسـع عشر، لكن هذا العالم لا يشـبه في كثـير - مـن حيث الديموغرافيـا والتكنولوجيا – ذلك الذي نعيشـه في أوائل القرن الحادي والعشرين. إن الدراما الأساسية لعصرنا هذا، كما سنرى، هي الامتلاء المطرد للمسـاحة، مما يمهد الطريق أمـام جغرافيا مغلقة بالفعل؛ حيـث لا تمتلك الدول

والجيوش ســوى مســاحة متضائلة على نحو متزايد للاختباء. وعلى الرغم من كونها ممكننة mechanized، فإن أوائل الجيوش الحديثة في القرن الماضي كانت تحتاج إلى عبور أميال عديــدة لملاقاة بعضها البعض، أما الآن فهناك مجال متداخل للصواريخ بعيدة المدى. لا تختفي الجغرافيا في هذا الســيناريو، بل إنها تصبح، كما سنرى، أكثر أهمية من ذي قبل.

ولتناول هذه المناقشــة بطريقة أخرى، اسمحوا لي بأن أعود إلى مورغنثاو. كتب مورغنثــاو أن التوســع الإمبريالي نفســه في القرنين الثامن عشر والتاســع عشر إلى مســاحات جغرافية فارغة نسبيا في أفريقيا وأوراسيا وأمريكا الشمالية الغربية، أدى إلى انعطاف سياسات القوة العظمى إلى أطراف الأرض، وبالتالي تقليل الصراع. وعلى سبيل المثال، فكلما ازداد الاهتمام الذي منحته روسيا، وفرنسا، والولايات المتحدة إلى التوســع في الأراضي النائية بطريقة إمبريالية، قل الاهتمام الذي توجهه إحداها إلى الأخرى، وازداد العالم ســلاما، بصورة ما[24]. ولكن بحلول أواخر القرن التاســع عشر، كان اندمــاج الدول والإمبراطوريات القومية الكــبرى في الغرب قد انتهى، بحيث لم يعد في إمكانها تحقيق المكاســب الإقليمية إلا على حســاب بعضها البعض[25]. وقد لخص مورغنثاو الموقف بقوله:

> عندما صار ميزان القــوى عالميا - مع توزّع ثقله الرئيسي في ثلاث قارات، فإن الانقســام بــين دائرة القوة العظمى ووســطها، من جهــة، وبين محيطها والمســاحات الفارغة فيما وراءه، من جهــة أخرى، يجب أن يختفي بالضرورة. يتزامن محيط ميزان القوى الآن مع تخوم الأرض[26].

وعــلى الرغم من أن رؤية مورغنثاو، التي كتبها خلال الســنوات المتوترة لأوائل حقبــة الحرب البــاردة، تُنذر بالخطر، فإن رؤية زميله في الجامعة نفســها، ماكنيل، والتي كتبها في مرحلة لاحقة وأكثر استقرارا من الحرب الباردة، توحي بالأمل:

> قامت ســلالة هــان Han في الصين القديم.. بتوجيــه ضربة قاضية إلى الدويــلات المتحاربــة عن طريق إنشــاء هيكل إمبراطــوري بيروقراطي ظل صامدا حتى يومنا هذا تقريبــا، مع انهيارات وتعديلات متواضعة بين الحين والآخــر. أما الدول المتحاربة في القرن العشرين فبدت كأنها متجهة نحو حل مماثل لصراعاتها[27].

يبدو من المؤكد أن سقوط جدار برلين في العام 1989 قد عزّز تفاؤل ماكنيل.

ومـع ذلك، يجادل البعض بأن العالم اليوم لايزال خطيرا بالقدر نفسـه كما كان خلال الحرب الباردة، لأن الخريطة تستمر في الانغلاق بعدد وافر من الطرق. ولنأخذ الصـين كمثال: قام ماو تسي تونغ Mao Zedong، بتكلفة باهظة بالتأكيد، بتوحيد الصين كدولة حديثة، كما تصعد الصين حاليا من الناحية الاقتصادية (وإن كان بوتيرة أبطأ) والعسـكرية إلى مصـاف القوى العظمى، بحيث صارت تملأ رقعة الشـطرنج الأوراسـية حتى أكثر مما كان بوسـع مورغنثاو أن يتخيل. وفي الوقت نفسه، فحتى أبعد مناطق العالم صارت أكثر تمدّنا urbanized، وفي حين كان بوسـع شـبنغلر أن يرى انحسار الحضارة في هجر التربة والحياة الزراعية، فإن التوسع العشوائي للمدن والتجمعات الحضرية المزدحمة، كما حدس ماكنيل، يؤدي الآن إلى تحولات في الدين والهوية بطرق قوية، وإن كانت مثيرة للقلق[28]: فالإسـلام، على سبيل المثال، يتحول مـن دين تقليدي قائم على الزراعة إلى دين أكثر تزمتا، والذي يتسـم بأيديولوجيته في بعض الحالات، من أجل تنظيم السـلوك في الأحياء الفقيرة الواسعة، واللاشخصية حيث تكون الأسرة الممتدة والأقرباء أقل وضوحا وتأثيرا؛ وهذا يؤدي إلى شرق أوسط مكون مـن مدن كبرى وغيرها مـن التجمعات الحضرية التي أنشـئت في الأرياف السابقة التي تتسـم، على الرغم من كونها فقيرة، بوجود معدلات منخفضة عموما من الجرائم، حتى لو كانت ثمرة ذلك هي أحيانا الإرهاب العالمي المزعزع للاستقرار. وكذلك فإن المسـيحية، ونتيجة لضغوط المعيشـة في الضواحي في الجنوب والغرب الأمريكي، تصبح أكثر أيديولوجية، حتى مع تجذر شـكل فضفاض من الوثنية البيئية في مدن أوروبـا، ليحل محل النزعات القومية التقليدية، نظرا إلى أن الدولة الفائقة المتمثلة في الاتحاد الأوروبي ليس لديها سوى معنى مجرد للجميع، باستثناء النخبة. وفي الوقت نفسـه، لم تعد الحرب - كما كانت الحـال في أوروبا خلال القرن الثامن عشر - «رياضة الملوك»، ولكن أداة للتعصب القومي والديني، سـواء كان ذلك على نطاق واسـع كما هـي الحال في ألمانيا النازية، أو على نطـاق أصغر كما هي الحال مع تنظيم القاعدة[29]. ويضاف إلى ذلك الشـبح المرعب المتمثل في الأسلحة النووية الموجودة لدى النخب المتطرفة على مستوى الدولة وعلى المستوى المحلي. وفي خضم كل هذه التحولات الـمُربكة والمضطربة، نجد أن الجغرافيا الكلاسـيكية تدير رأسها

مرة أخرى، وتشـكّل التوترات بين الغرب وروسـيا، وإيران، والهند، والصين، وكوريا، واليابان، وهلم جرا، والتي سنحتاج إلى استكشاف كل منها بالتفصيل. لم تكن فرضية ماكنيل حول التفاعلات عبر الحضارات أكثر صدقا مما هي عليه اليوم، لكنه سيكون من الخطأ أن نسـاوي بين ثقافة عالمية ناشئة وبين الاستقرار السياسي: لأن المساحة space - وبالتحديـد لأنهـا أكثر ازدحاما، وبالتالي أثمن مـن أي وقت مضى - لاتزال مهمة، بـل عظيمة الأهمية.وفي حـين قامت عين ماكنيـل الأكاديمية بفحص كامل الأرض، فإن منظور مارشـال هودجسـون، بالنسـبة إلى أغراضنا هنا، كان أضيق، إذ اقتصر على منطقة الشرق الأوسط الكبير. ومع ذلك، فإن هودجسون، بصفته عضوا متحمسـا في طائفة الكويكرز Quaker، والذي توفي في سن السادسة والأربعين، قد أظهـر طموحا هائـلا في كتابه المكون من ثلاثة مجلدات بعنوان «مغامرة الإسـلام: الضمـير والتاريـخ في حضارة عالمية»، والمنشـور بكامله في العام 1974، بعد سـت سـنوات من وفاته. وبالنسبة إلى مؤرخ جامعة شـيكاغو هذا، والذي ظلت أعماله منسـية إلى حد كبير، والأقل شـهرة بكثير بين الصحافيـين المعاصرين من غيره من الباحثين المرموقين في شـؤون الشرق الأوسط، مثل برنارد لويس Lewis من جامعة برينسـتون أو جـون إسـبوزيتو Esposito من جامعة جورج تـاون، فقد وضع في مؤلفه الضخم «الإسلام جغرافيا وثقافيا»، وفقا لماكنيل، في سياق التيارات الأكبر التي شـكّلت تاريخ العالم. من الممكن أن ينحرف أسـلوب هودجسون باتجاه الأكاديمية والإبهام، ولكن إذا ثابر القارئ معه، فسـوف يُكافأ بتفسـير للكيفية التي تمكن بها الإسـلام من الظهور، والترسخ، والانتشـار بالطريقة الرائعة، والسريعة في معظمها، التي فعل بها ذلك، ليس فقط في جميع أنحاء جزيرة العرب وشـمال أفريقيا، ولكن في جميـع أرجاء المناطق السـاحلية من المحيط الهنـدي، وعبر الأراضي الممتدة من جبال البرانس إلى جبال تيان شان Tien Shan في الصين[30].

من المهم أن نلاحظ أن هودجسون كتب معظم مادة كتاب «مغامرة الإسلام» في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، عندما كان تركيز وسائل الإعلام منصبّا عموما على تغطية الحرب الباردة في أوروبا. ومع ذلك، فقد أظهر موضوع بحثه في المجلـد الأول من كتابه، بفكـرة أن هذه الرؤية الأوروبيـة المرتكز للعالم قد كانت خاطئة دائما، مع تأصل إجحافها في تخطيط المعاهدات[31]. كان «السخف

مستترا بفعل الاستخدام الواسع النطاق على نحو متزايد لخريطة للعالم تتسم بكونها مشوهة بصريا إلى حد كبير، والمرسومة بطريقة إسقاط مركاتور، والذي تمكن - عن طريق المغالاة شمالا- من جعل «أوروبا» ذات الحدود المصطنعة تبدو أكبر حجما من «أفريقيا» بأسرها، وأن يقزّم تماما شبه الجزيرة الأوراسية الأخرى، أي الهند».

ينتقل هودجسون بعد ذلك إلى تحويل التركيز الجغرافي للقارئ جنوبا وشرقا، إلى ما أسماه «الويكومين» Oikoumene، وهو مصطلح يوناني قديم بمعنى «الربع المأهول» من العالم، أي المنطقة المعتدلة من اليابسة الأفرو - آسيوية الممتدة من شمال أفريقيا إلى حدود الصين الغربية، وهي حزام الأراضي الذي أطلق عليه أيضا اسم «النيل إلى جيحون»[32]. هناك ثمة إبهام في هذه التعريفات، والتي يتعارض بعضها مع بعض أحيانا. وعلى سبيل المثال، فإن «النيل إلى جيحون» تشير ضمنا إلى منطقة توجد مصر عند نهايتها الغربية، في حين أن ويكومين قد تعني منطقة تبدأ أبعد منها بكثير غربا، على طول السواحل الأفريقية للبحر المتوسط. والمقصود هنا هو أن الفروق الجامدة بين التجربة المستمدة من منطقة الحرب الباردة، التي كانت في أوجها عندما كتب مؤلفه، وكون الشرق الأوسط متباينا بشكل حاد عن كل من الأناضول وشبه القارة الهندية، تتداعى عندما يبين لنا هودجسون جغرافية أكثر تناسقا، والمحددة بفعل التضاريس الطبيعية والثقافة: أي تلك الرقعة الشاسعة والقاحلة عموما من الأراضي الواقعة بين حضارتي أوروبا والصين، وهو العالم الذي عاش فيه هيرودوت Herodotus في الواقع، والذي يلمّح هودجسون إلى أنه يحمل مفتاح تاريخ العالم.

وبالنظر إلى مدى قيام العولمة اليوم بمحو الحدود، والأقاليم، والفروق الثقافية، فإن منظومة هودجسون الجغرافية التي تتسم بالضخامة والمرونة عن عمد هي في الواقع مفيدة للغاية، لأنها تشير إلى مدى القسوة التي يمكن أن تكون عليها خريطة التضاريس بالنسبة إلى الخطوط الثابتة والزاهية. وبهذه الطريقة، فإن هودجسون يساعد القارئ على تصور العالم المناسب الذي ساد في أواخر العصور القديمة والذي ظهر فيه الإسلام، فضلا على عالم اليوم، مع تعزيز الصين والهند لوجودهما الاقتصادي في الشرق الأوسط الكبير (ويكومين الماضي Oikoumene of Yore)، حتى مع قيام

مشـيخات sheikhdoms الخليـج العربي بعمل ذلك على نحـو مماثل في أفريقيا، وبالتالي إلغاء التقسيمات الاصطناعية التي اعتدنا عليها.

وكـما يوضح هودجسـون، فإن «المنطقـة التي كانت ستنشـأ فيها الحضارة الإسـلامية يمكن تعريفها بصورة شبه سلبية، على أنها تلك المجموعة المتبقية من الأراضي التي لم يكن للتقاليد اليونانية والسنسكريتية جذور فيها، والتي انفصلت المناطـق الأوروبية والهندية عنها في نهاية المطاف ... وبهذا المعنى، فإن منطقتنا، خـلال العـصر المحـوري Axial Age [800 - 200 ق.م.]، كانت تتألف من تلك الأراضي الواقعة بين البحر المتوسـط وهندو - كوش [أفغانسـتان]، والتي لم يكن للحضارتين اليونانية والسنسـكريتية فيها سـوى ازدهارات محليـة أو مؤقتة في أحسن الأحوال».

ضمن هذا الحزام الواسع من الشرق الأوسط الكبير، والممتد لما يقرب من ثلاثة آلاف ميل أو أكثر في المنطقة المعتدلة السـفلية، عملت خصيصتان جغرافيتان على تشـجيع ظهور الثقافة الرفيعـة: الموقع التجاري المحـوري، وخاصة لجزيرة العرب والهلال الخصيب، من حيث طـرق التجارة التي تصل بين أحد طرفي الويكومين إلى الآخر، والجفاف الشديد الذي يميّز المنطقة.

وهـذه النقطة الأخيرة بحاجة إلى توضيح. يخبرنا هودجسـون بأن النقص العام في الميـاه عمل على تقليص الـثروة التي يمكن امتلاكها عن طريـق الزراعة، وجعل المقتنيـات المركزة للأراضي المنتجة سـلعة نـادرة، وبالتالي اتسـمت الحياة الريفية بانعـدام الأمن، مما جعلها أقل منزلة من الحياة الحضريـة في الواحات. تركّز المال والسلطة في أيدي التجار عند «نقاط الاتصال» juncture points الواقعة عبر طرق التجـارة في الشرق الأوسـط، والتي تمتد لمسـافات طويلة، وخصوصـا عندما تلتف تلـك الطرق على مقربة من حركة الملاحة البحريـة في البحر الأحمر، وبحر العرب، والخليج العربي، مما منح التجار العرب وصولا حاسما للتدفقات الهائلة من التجارة عـبر المحيط الهندي. ولأن هـذا كان عالما من التجارة والعقود، فقد كان السـلوك الأخلاقي و«التعامل الـمُنصف» في غاية الأهمية من أجل حياة اقتصادية مسـتقرة. وهكذا، فمع تداعي الإمبراطوريتين الشـماليتين، البيزنطية والساسـانية، في كل من الأناضول وبلاد فارس، مُهدت السـاحة في الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب

لظهور دين شدّد على أهمية الأخلاق الحميدة وليس مجرد ضمان «دورات المواسم الزراعية». وهكذا، فقد نشـأ الإسلام كعقيدة ملائمة للتجار بقدر كونه ملائما للحياة في الصحراء[33].

كان المركـز التجـاري الأكثر أهمية في غرب ووسـط الجزيـرة العربية هو مكة المكرمـة الواقعة في أرض الحجاز، وهي منطقة قريبـة من البحر الأحمر. تقع مكة المكرمة عند تقاطع طريقين رئيسيين، يسير أحدهما من الجنوب إلى الشمال، والذي تقـع مكة المكرمة عنـد منتصفه تماما، ويربط اليمن وموانـئ المحيط الهندي بكل من سـورية والبحر المتوسط. أما الطريق الآخر فيسير من الغرب إلى الشرق، ويربط منطقة القرن الأفريقي الواقعة مقابل سـاحل البحر الأحمر القريب من مكة ببلاد مـا بين النهرين وإيران على الخليج العربي. كانت مكة المكرمة تقع بعيدا عن مركز السلطة الساسانية في إيران بما فيه الكفاية لأن تكون مستقلة عنها، حتى على الرغم من تعرضها للتأثيرات الدينية والفلسـفية الرفيعة - الزرادشتية Zoroastrianism، والمانويـة Manichaeism، والهيلينية Hellenism، واليهودية، وما إليها - والواردة من بلاد فارس، والعراق، وآسيا الصغرى.

وعلى الرغم من عدم امتلاك مكة المكرمة لواحة كبرى، فقد كان لديها ما يكفي مـن المياه لري الإبل، كما كانت محمية بتلالها من قراصنة البحر الأحمر، كما كانت تضم مـزارا دينيا، هو الكعبة المشرفة، حيث كان يجري جمع الرموز المقدسـة من قبائـل المنطقـة، والتي كان الحجيج يفدون إليها مـن كل حدب وصوب. كان هذا في معظمه هو السـياق الجغرافي الذي ظهر فيـه النبي محمد (ص)، باعتباره تاجرا محليا محترما في العقد الرابع من عمره، حين انشـغل بكيفية عيش حياة مستقيمة وطاهـرة. وبدلا من أن تكون مجرد مخيم راكد في الصحراء، كانت مكة مركزا عالميا نابضا بالحياة[34].

وبطبيعة الحال، فإن الجغرافيا - في نسيج هودجسون المعقد - لا يمكنها تفسير الإسـلام في نهايـة المطاف، لأن الديـن – وفقا لتعريفه المحـض - مبني على قاعدة ميتافيزيقيـة أكثر منها مادية. لكنه يُظهر كيف أسـهمت الجغرافيا في صعود الدين الإسـلامي وانتشـاره، كونها ملتصقة، كما كان الإسـلام، بأنماط حياة التجار والبدو، والتي كانت، بدورها، نتاجا لطبيعة قاحلة تتقاطع عبرها طرق التجارة.

كانت جزيرة العرب البدوية محاطة بثلاثة أراض زراعية: سـورية من الشمال والعـراق من الشـمال الشرقي، واليمن من الجنوب. كانـت كل من هذه المناطق الثلاث مرتبطة بدورها بوجود «منطقة سياسـية نائية»، وهي منطقة جبلية كانت تهيمن عليها خلال القرنين السـادس والسابع للميلاد. وبالنسبة إلى سورية، تمثلت هـذه المنطقة في هضبة الأناضول؛ أما في العراق، فكانت مرتفعات إيران؛ وفي حالة اليمـن، كانت هنـاك علاقات متبادلة أضعـف إلى حد ما مع مرتفعات الحبشـة (إثيوبيا المعاصرة). غزا الإسلام معظم هذه المناطق، لكن الجغرافيا قضت جزئيا أن تتمكن تجمعات الحضارات الزراعية هذه، وخاصة في سورية والعراق، وهما رافدا الهلال الخصيب، من الاحتفاظ بهويتها الطائفية وأن تصير بالتالي مراكز متنافسـة للسلطة الإسلامية[35].

إن وصـف هودجسـون التاريخي لأخريـات العصور القديمـة وحقبة القرون الوسـطى في أول مجلدين من ملحمته يخبرنـا بالكثير عن كيفية ظهور دول الشرق الأوسـط الحديثة بالفعل، والتي بدت بوضوح وكأنها نواتج الاستعمار الغربي، وعن سـبب كونها أقل اصطناعا مما زَعم البعض. وكما رأينا، فإن مصر، واليمن، وسورية، والعـراق، ناهيك عن المغـرب، التي تطوقها البحار وجبال أطلـس، وتونس، وريثة قرطاج القديمـة، كانت كلها معاقل قديمة للحضارات، والتي تمثل أسـلافا مشروعة لتلـك الدول الحديثة، على الرغم من أن الحدود المرسـومة لهذه الدول في وسـط الصحراء المسطحة كثيرا ما تكون اعتباطية.

أما توينبي، المتباكي على تقسـيمات العالم العـربي، فيدعي أن التغريب «كانت لـه اليد الطولى قبل أن تظهر في الأفق أي دولة إسـلامية عالميـة[36]». لكن حقيقة أن الإسـلام يشـكل حضارة عالمية لا تعني أنه كان مُصرا على أن يكون كيانا سياسيا واحـدا، فكما أشـار إليه هودجسـون، فقد كان لهـذه الحضارة عديـد من العقد السـكانية المختلفة، ذات التراث الجاهـلي الثري، والتي ظهر دورها في عصر ما بعد الاسـتعمار. كانت المرتفعات الإيرانية، كما كتب هودجسـون، مرتبطة دائما بصورة وثيقة بسياسـة وثقافة بلاد ما بين النهرين، وهو ما اتضح كثيرا منذ الغزو الأمريكي للعـراق في العـام 2003، الذي فتح الباب أمـام عودة إيـران إلى المنطقة. والواقع أن الحـدود بين بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين، التي خضعت لتحولات مسـتمرة،

قـد تمثلت لفترات طويلة في نهر الفرات نفسـه، والذي يقـع الآن في قلب العراق. غزا العرب الإمبراطورية الساسـانية، التي تقع في قلب النجد الإيراني، في العام 644 للميـلاد، بعد اثنين وعشرين عاما من رحلة النبي محمد (ص)، أو الهجرة، من مكة المكرمـة إلى المدينـة المنورة، وهو الحـدث الذي يمثل بداية الحقبة الإسـلامية من تاريخ العالم. لكن مرتفعات الأناضول كانت أكثر بُعدا واتساعا، وبالتالي - الأمر الذي يرجع إلى الجغرافيا جزئيا - فلم يحدث إلا بعد أكثر من أربعمائة سنة، أي في العام 1071 للميلاد، أن اسـتولى السلاجقة الأتراك - وليس العرب - على الأراضي المركزية الأناضولية وضمها إلى العالم الإسـلامي، وذلك في معركـة ملاذكرد Manzikert ضد الإمبراطورية البيزنطية[37].

كان السـلاجقة Seljuks من شعوب السـهوب الذين أتوا من العمق الداخلي لأوراسـيا، ومن ثـم فقد غزوا الأناضول مـن الشرق (كانت ملاذكـرد تقع في شرق الأناضـول). ولكـن مثلما لم ينجـح العرب قط في الاسـتيلاء على المعاقـل الجبلية للأناضـول، فـإن السـلاجقة، الآتين من عمق تلـك المعاقل نفسـها، لم ينجحوا قط بدورهم، في الحفاظ على حكم مسـتقر لقلب مملكة الإسلام - أي الهلال الخصيب والنجود الإيرانية، ناهيك عن الحجاز وبقية الأجزاء الصحراوية من الجزيرة العربية إلى الجنـوب. كان هذا ناتجا، مرة أخرى، عن أعـمال الجغرافيا. (على الرغم من أن الأتراك العثمانيين، وهم ورثة السـلاجقة، قد غـزوا الصحارى العربية، فإن حكمهم كان ضعيفـا في كثير من الأحيان). وصلت الفتوحـات التركية شرقا حتى البنغال، في أقصى بقاع شـبه القارة الهندية، لكن هذا كان جزءا من حركة السـكان جنوبا عبر كامل المنطقـة المعتدلة المترامية الأطراف، والواقعة بين شرق وغرب أوراسـيا. وقد شـكل أولئك البـدو ذوو الأصول التركية الجزء الأكبر مـن القبائل التي انضمت إلى جيوش المغول الشـهيرة (لم يكن المغول Mongols أنفسـهم، على أي حال، سـوى نخبة صغيرة نسبيا).

سـنتناول جحافـل المغول وأهميتها الجيوسياسـية في موضـع لاحق، لكن من المشوّق هنا أن نذكر مشاهدة هودجسون بأن البداوة المعتمدة على الخيل للمغول والشـعوب التركية كانت في نهاية المطاف أكثر أهميـة في التاريخ من بداوة العرب القائمـة على الإبل. ولأن الخيـول لا يمكنها أن تتحمل الجفاف السـائد في صحارى

الشرق الأوسـط، ولأن الأغنام التي كثيرا ما يرتحل البدو معها تتطلب كميات كبيرة نسـبيا من العلـف، عمدت الجيوش التي يقودها المغـول إلى تجنب أقاصي جزيرة العـرب، وبدلا مـن ذلك اجتاحت بلدانـا أقرب وذات بيئة أكـثر ملاءمة في أوروبا الشرقية والأناضول، وشـمال بلاد ما بين النهرين، وإيران، وآسـيا الوسـطى، والهند، والصين: وهي الأراضي التي، عند أخذها مجتمعة، سـتكون ذات أهمية استراتيجية سـاحقة على خريطة أوراسيا قبيل ظهور الحروب التي يستخدم فيها البارود. يمكن القول بأن غزوات المغول - التركيين Turkic كانت أهم حدث في تاريخ العالم خلال الألفية الثانية بعد الميلاد، الأمر الذي يرجع أساسـا إلى اسـتخدام بعض الحيوانات المتعلقة بالجغرافيا[38].

تبين مناقشـة هودجسون للمغول كيف أن كتابه «مغامرة الإسلام» كان أكثر بكثـير من مجرد بحث كتبه خبير في المنطقة، وبالتالي فإن تعريف هودجسـون باعتباره مسـتعربا Arabist أو متخصصا في الدراسات الإسلامية Islamicist هو تقليل غير دقيق من شـأنه. وبالنسـبة إليه، كان الإسلام وسيلة لاكتشاف أعمق الاتجاهـات الفكريـة، والثقافيـة، والجغرافية المؤثرة عـلى المجتمعات الأفرو - أوراسية، بل على العالم القديم كله، في الواقع، في وجود ويكومين العصور القديمة في القلب منها. وبالتالي، فلم يكن هذا عملا متعلقا بالجغرافيا في حد ذاتها. أنفق هودجسـون من الوقت في تعريف المذهب الباطنـي للمتصوفة بقدر ما أنفقه في وصف المناطق الطبيعية، ناهيك عن التقاليد الفكرية والطائفية الأخرى التي كشف النقاب عنها. ومع ذلك، فمن خلال إدخال الجغرافيا في المناقشة بالطريقة التـي فعلها، فقد أوضح الكيفيـة التي تتفاعل بها مع السياسـة والأيديولوجية لصنع نسـيج التاريخ ذاته. لنأخذ مثال الأتـراك العثمانيين، الذين حلوا في نهاية المطـاف محل بني جلدتهم الأتراك، أي السـلاجقة، في الأناضول في أواخر القرن الثالث عشر. أدى «نظام الطبقية العسـكرية الموحدة» الذي وضعه العثمانيون إلى فـرض «حدود جغرافية متأصلـة» على المنطقة الخاضعة لسـيطرتهم، على عكس تلك الخاضعة لروسـيا، مثلا، أو حتى للمغـول البدائيين. كان العثمانيون معتادين على وجود جيش كبير واحد، والذي يجب أن يكون العاهل padishah، أو الإمبراطور، موجودا على رأسه دوما.

وفي الوقــت نفســه، كان عليهــم أن يعملــوا انطلاقــا مــن حاضرة واحــدة، هي القسطنطينية Constantinople، الواقعة إلى الشمال الشرقي من البحر المتوسط وعلى البحر الأســود، حيث يقع المقر الرئيسي للهيكل البيروقراطي للسلطنة. «ونتيجة لذلك، فلم يكن بالإمكان تســيير حملة كبيرة إلى أبعد مما يســمح به زحف الجيوش لموســم واحد»: وبالتالي، فإن فيينا إلى الشــمال الغربي والموصل إلى الجنوب الشرقي كانت تمثل الحدود الجغرافية للتوسع العثماني المستقر على الأرض. كان في وسع الجيش قضاء فصل الشــتاء في بعض السنوات في صوفيا أو حلب، موسّعا نطاق تحركاته، على الرغم من أن ذلــك كان يوقعه في صعوبات لوجســتية كبيرة. وعلى أي حال، وبشــكل عام، فإن هذا النظام المطلق الذي تتركز فيه كل أوجه الســلطة في القســطنطينية، سواء على الصعيد الشــخصي أو البيروقراطــي، كان له تأثير تمثل في أخذ أهم المعــالم الجغرافية للعاصمة وجعلهــا العامل الفَصل. وكان هــذا، بطريقة أو بأخرى، معكوس الفاعلية الإنســانية؛ كما كان له تأثير أفضى إلى اضمحلال هذه الدولة العســكرية، لأنه بمجرد بلوغ الحدود الجغرافية العســكرية للجيش العثماني، فإن الروح المعنوية، فضلا عن المكافآت المادية، قد انخفضت في صفوف العسكر. ربما كانت إدارة الدولة بصورة أقل مركزية ستؤدي إلى إمبراطورية أكثر أمنا، بدلا من تلك التي كانت واقعة تحت رحمة الجغرافيا. وفي المجال البحــري، أيضا، أدى الحكم المطلــق absolutism إلى تفاقم طغيان الدولة، حيث تركز معظم القوة البحرية العثمانية في البحر الأسود والبحر المتوسط على مقربة من الوطن، مع تحقيق نجاح «عابر» فحسب ضد البرتغاليين في المحيط الهندي[39].

كان هودجسون، مثل زميله في قسم التاريخ بجامعة شيكاغو ماكنيل، أقل أكاديمية بالمعنى المعاصر من مثقف قديم الطراز يســتعين في عمله بجدية الاســتقصاء العلمي التوجه الذي لا يعرف الكلل، والذي ربما كان ثمرة شدة إيمانه الشخصي بمبادئ الكويكرز. ويعني ذلك أنه حتى في أعماق استكشــافه للتفصيلات الدقيقة، فقد كان يرى الصورة الكبيرة. كان ميدانه الرئيسي هو الويكومين اليوناني القديم، والذي كان أيضا، كما اتُفق، يشــكل معظم المادة التي اســتخدمها ماكنيل في دراســة تاريخ العالم؛ وكما ذكرنا آنفا، معظم المعلومات الأساســية لكتاب هيرودوت المعنــون «التواريخ» Histories، والذي ألفــه في القرن الخامس قبل الميلاد. قد لا يكون مــن قبيل المصادفة أن يكون هذا هو عــلى وجه التحديد العالم الذي يحتل عناوين الأخبــار الحالية: أي المنطقة الواقعة بين

شرق البحر المتوسط والنجد الإيراني - الأفغاني. إن الويكومين هو المكان الذي تتلاقى فيه اليابستين الأوراسية والأفريقية، مع عديد من المنافذ إلى المحيط الهندي عبر البحر الأحمر والخليج العربي، مما يجعله فائق الاستراتيجية، فضلا عن وجود مزيج من أنماط الهجرة، وبالتالي الجماعات العرقية والطائفية المتنازعة. وقد اكتشف هيرودوت، في كتابه «التواريخ»، وجود هذا الاضطراب المتواصل.

يقع هيرودوت في قلب حجتي الداعمة لأهمية ماكنيل وهودجسون في القرن الحادي والعشرين. لأن هذا اليوناني، الذي ولد كأحد الرعايا الفارسيين في وقت ما بين عامي 490 و484 قبل الميلاد في بلدة هاليكارناسوس Halicarnassus الواقعة في جنوب غرب آسيا الصغرى، يحافظ في روايته حول أصول وطرق شن الحرب بين الإغريق والفرس على توازن مثالي بين العوامل الجغرافية وقرارات البشر. وهو يشجّع الحتمية الجزئية التي نحتاج إليها جميعا؛ فهو يبين لنا عالما تحوم خريطة التضاريس في خلفيته - اليونان وبلاد فارس وغياب المجد البربري لكل منهما في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا - على الرغم من أن الأهواء الفردية قد جرى تنفيذها بنتائج سياسية مدمرة. يدعم هيرودوت الوعي الذي نحتاج إليه للتعافي، بحيث نُفاجأ بصورة أقل بالعالم الذي نحن مقبلون عليه.

«العُرف هو مَلِك الجميع»: هذا ما ذكره هيرودوت، نقلا عن بندار Pindar. يتحدث هيرودوت عن المصريين، الذين يحلقون شعر الحاجبين حدادا على قطة محبوبة، وعن رجال القبائل الليبيين الذين كانوا يتركون شعورهم طويلة على أحد الجانبين، ويحلقونها من الجهة الأخرى، ويلطخون أجسادهم باللون القرمزي. وهناك المساغيتيون Massagetae، وهم شعب كان يعيش في شرقي بحر قزوين، في ما يعرف الآن باسم تركمانستان، والذين عندما يتقدم رجل منهم في العمر، «يتجمّع أقاربه معا لقتله، جنبا إلى جنب مع عدد من الأغنام والماعز، ومن ثم طبخ كافة اللحوم معا وعمل مأدبة منها». أولا، لم تكن هناك سوى الأرض، والتجربة التاريخية للشعب الذي يعيش فوقها، والآداب والأفكار التي تنشأ عن تلك التجربة. كان هيرودوت بمنزلة الحافظ لذاكرة الحضارات ومناطقها الجغرافية، وكذلك للأساطير، والخرافات، وحتى الأكاذيب التي عاشت بينهم. وقد كان يعلم أنه كلما زادت براعة الزعيم السياسي في فهم «ما يوجد هناك فحسب»، قل احتمال أن يرتكب أخطاء

مأساوية. عاش السكيثيون Scythians على الجانب القاصي من مضيق كيرتش، حيث يكون الجو من البرودة بحيث يحتاجون إلى إشعال النار من أجل أن يتمكنوا من صنع الطين في فصل الشتاء. وكما حذّر أرتابانوس Artabanus الملك الفارسي داريوس Darius، ولكن من دون جدوى: لا تشن الحرب ضد السكيثيين - فهم شعب سريع التنقل من البدو الرحل الذين لا يمتلكون مدنا أو أراضي مزروعة، والذين لا يمكن لجيش كبير حسن التجهيز أن يجد نقطة محورية للهجوم عليهم[40].

تتمثل قوة إشارة هيرودوت في استحضارها بقوة لما يمكن للبشر بالتحديد أن يؤمنوا به، وهو اعتقاد يتجسد في حقيقة أن القدماء، الذين عاشوا من دون علم أو تكنولوجيا، كانوا يرون ويسمعون بشكل مختلف - بل بصورة أكثر وضوحا مما نفعل. كانت التضاريس والجغرافيا بالنسبة إليهم واقعية بطرق لا يمكننا أن نتخيلها.

ولنأخذ قصة فيديبيدس Phidippides، وهو عداء محترف أرسل من أثينا إلى إسبرطة كنذير يلتمس المساعدة ضد الفرس. أخبر فيديبيدس الأثينيين الذين التقاهم على جبل البارثينيوم Mount Parthenium، في الطريق إلى إسبرطة، أنه رأى الإله بان Pan، الذي أمره أن يسأل مواطنيه: «لماذا لا تهتمون بالإله بان، الذي هو صديق جيد لشعب أثينا، والذي ساعدكم في مرات عديدة، وسيقدم لكم يد المساعدة مرة أخرى؟» اقتنع الأثينيون بأن فيديبيدس كان يقول الحقيقة، وعندما تحسنت أحوالهم، أقاموا مزارا لبان تحت الأكروبوليس.

يمثل هذا أكثر من مجرد قصة ساحرة؛ بل قد يكون الحقيقة كما رواها الأثينيون لهيرودوت. ربما اعتقد العداء أنه رأى بان، بل إنه رأى بان بالفعل. من الممكن تصديق مثل هذه الرؤية، بالنظر إلى التعب الذي كان يستشعره، والبانثيون pantheon المتأصل في منظومة اعتقاده، والخوف الممزوج بالتعجب من العناصر المادية التي فقدها البشر منذ ذلك الحين. كان العالم القديم «يشهد استيطانا من الضآلة بحيث لم تكن الطبيعة قد حُجبت حتى الآن بفعل البشر»، كما كتب بوريس باسترناك Pasternak في روايته «الدكتور زيفاجو». «لقد ضربتكم الطبيعة في عيونكم بكل وضوح، وأمسكتكم بكل بشدة وبشكل ملموس من مؤخرة الرقبة لدرجة أنها ربما كانت لاتزال مفعمة بالآلهة حقا[41]». إذا كانت العقلانية والعلمانية قد استحوذتا علينا لدرجة أنه لم يعد في إمكاننا تصور ما رأى فيديبيدس، فلن نتمكن إذن من

فهم - وبالتالي الدفاع عن أنفسنا ضد - الحركات الدينية التي تقلب التنوير وتؤثر في الجغرافيا السياسية المعاصرة. وفي حين امتلأ الفضاء في جميع أنحاء المعمورة، ولم يعُد العالم الطبيعي كما كان عليه، فإن الجغرافيا الجديدة للأحياء الفقيرة ومدن الصفيح، والتضاريس التي لا تمثل هذه ولا تلك، تُظهر بالمثل تأثيرا نفسيا بالشدة نفسها في البشر، بطريقة مختلفة بطبيعة الحال.

ولفهم هذه الجغرافيا الجديدة، والقيمة التي تخلعها على المساحة، وأثرها النفسي التالي، فمن المفيد أولا أن نتفهم الساحة العتيقة كما وصفها هيرودوت.

يتمثل جوهر «تواريخ» هيرودوت في إغراء الأراضي الأرخبيلية اليونانية التي تفور بالثقافة، والقابعة إلى الغرب مباشرة فيما وراء النجود الجبلية لبلاد فارس وآسيا الصغرى. وهنا تتضح الحتمية الجغرافية بأوضح صورة، على ما يبدو، لأن الشعوب الآسيوية إلى الشرق واليونانية إلى الغرب قد حارب بعضها بعضا على مدى آلاف السنين، وبلغت خلافاتها ذروتها في عصرنا الحاضر مع توتر العلاقات بين اليونان وتركيا: وهو توتر لم يؤد إلى حرب معلنة منذ عشرينيات القرن العشرين، وهو أمر يرجع أساسا إلى التهجير الجماعي للسكان الذي حدث في ذلك العقد، ونتجت عنه دولتان خالصتان موحدتا التركيبة العِرقية uniethnic. وبعبارة أخرى، فلم يترسخ السلام إلا بعد التطهير العرقي الذي سار وفقا لإملاءات الجغرافيا. ومع ذلك، فلم يكن هذا، في نهاية المطاف، هو ذلك الخط من التفكير الذي نقله هيرودوت.

يُظهر هيرودوت تقبّلا واضحا لأحكام القلب وما يصاحبها من بروز المكائد البشرية، وهو يوضح كيفية حساب المصلحة الذاتية داخل زوبعة بشعة من الأهواء. إن أتوسا Atossa، زوجة داريوس ملك الفرس، تستغل خيلاء زوجها في الفراش لتسوّل له غزو اليونان. وهي تفعل ذلك كخدمة للطبيب اليوناني الذي عالج ورما على صدرها، والذي كان يريد العودة لزيارة وطنه. كان الأمر برمته متعلقا بالجغرافيا، حتى صار كله متعلقا بشكسبير.

إن كتاب «التواريخ» لهيرودوت، عند أعمق مستوى له، يتعلق بفهم تعقيدات المصير fate: أو moira باللغة اليونانية، أو «موزّع الأنصبة». ولأن الأبطال هم الذين يتغلبون على المصير، فهم يشكلون البنية الفوقية superstructure لرواية هيرودوت. وحده هودجسون الذي كتب في مقدمة كتابه «مغامرة الإسلام»:

> كتب هيرودوت تاريخه، كما قال، لحفظ ذكرى الأعمال الجليلة التي قام بها الإغريق والفرس: وهي أفعال لن تتكرر، والتي تستوجب احترامنا الدائم. ليس في الإمكان محاكاة تلك الأفعال، على الرغم من أنه قد يمكن تقليدها، وربما تجاوزها بمعنى ما. لكننا نجرؤ، حتى في يومنا هذا، على أن نصف رجلا بأنه عظيم، والذي لا يمكن أن تضاهي أفعاله مآثرهم[42].

كتب هودجسون هذا في أوائل ملحمته ليوضح أن البشر يمكنهم التحكم في مصيرهم في نهاية المطاف، على الرغم من أنه كثيرا ما ينهمك - عبر ثلاثة مجلدات - في وصف الاتجاهات التاريخية والبيئية الكبرى التي، كما قد يبدو، لا يمتلك الأفراد سوى قليل من السيطرة عليها. ومن دون التسليم بالكفاح الفردي، فليست هناك نزعة إنسانية في دراسة التاريخ، كما يقول هودجسون. وبالتالي، فهو يحبك نسيج رؤيته للإسلام كالتالي: «مركّب من التقاليد الوثيقة الصلة أخلاقيا وإنسانيا»، والتي تنتحل طبيعة قوة عالمية، لكنها بدأت بأفعال أفراد في مكة المكرمة.

وبالتالي، نعود مرة أخرى إلى المعركة ضد المصير، ومن المستحسن أننا فعلنا ذلك؛ لأننا نحتاج الآن إلى أن نتحصن بصفة خاصة بأمثال هيرودوت، وهودجسون، وماكنيل، بما أننا على وشك ولوج طرق وعرة للغاية: تلك المتعلقة بالجغرافيا السياسية والنظريات شبه الحتمية المستمدة منها. وفي الواقع أنه جرى توقّع الخطوط العريضة للتاريخ بالفعل، وربما لايزال في الإمكان فعل ذلك مرة أخرى. يُعد هذا، على أقل تقدير، أمرا مقلقا بالنظر إلى الكيفية التي يمكن بها للأفراد أن يغيروا التاريخ. لكنه صحيح، كما سنرى. من شأن الرجال الذين أوشك على تقديمهم أن يصيبوا الإنسانيين الليبراليين بارتباك شديد. كان هؤلاء الرجال بالكاد فلاسفة؛ فقد كانوا جغرافيين ومؤرخين وخبراء استراتيجيين افترضوا أن الخريطة تحدّد كل شيء تقريبا، مما يترك مجالا ضيقا نسبيا للفاعلية الإنسانية. أما الفاعلية الإنسانية، وإلى الدرجة التي كانت تهمهم بها، فهي مهمة أساسا فيما يتعلق بالهيمنة العسكرية والتجارية. ومع ذلك، فهؤلاء هم الرجال الذين يتعين علينا الآن دراستهم، من أجل وضع إطار لما نوشك أن نصير إليه في جميع أنحاء العالم، ولما يمكن تحقيقه في ذلك السياق.

4

خريطة أوراسيا

«إن الحتمية تعني التفكير المتحجر، أي الميل إلى الانسحاق بفعل القوى والاتجاهات الكاسحة، وبالتالي عدم التأثر بمفارقات التاريخ وهي تتكشف في الواقع»

المؤلف

إن أوقات الاضطراب العالمي، التي تختبر افتراضاتنا حول ديمومة الخريطة السياسية، تؤدي إلى نهضة في التفكير حول الجغرافيا. ويكون هذا صحيحا بشكل خاص لأن الجغرافيا هي الأساس الحقيقي للاستراتيجية والجغرافيا السياسية. إن الاستراتيجية، كما عرّفها نابليون، هي فن استخدام الزمان والمكان بطريقة عسكرية وديبلوماسية؛ أما الجغرافيا السياسية فتمثل دراسة البيئة الخارجية التي تواجهها كل دولة عند تحديد استراتيجيتها الخاصة: على اعتبار أن هذه البيئة هي وجود دول أخرى تكافح أيضا من أجل البقاء والأفضلية[1]. وباختصار، فإن الجغرافيا السياسية هي تأثير الجغرافيا على الانقسامات البشرية[2]. وكما قال نابليون، فإن معرفة الخصائص الجغرافية لأمة ما تعني معرفة سياستها الخارجية[3].

وينعــت مورغنثاو الجغرافيا السياســية بأنها «علم زائــف» pseudoscience لأنهــا تنصّب «عامل الجغرافيــا باعتباره ثابتا مطلقا»، لأنــه كان يكتب بعد انتهاء الحــرب العالمية الثانية مباشرة، فقد كان الجغرافي البريطاني الكبير هالفورد ماكيندر Mackinder حــاضرا في ذهنــه، والذي أعيد إحيــاء نظرياته التــي وضعها مطلع القرن العشرين في خضم الحرب العالمية الثانية، ومن ثم أسيء اســتخدامها من قبل النازيين لتبرير فكرتهم عن المجال الحيوي Lebensraum، أو «فضاء العيش» باللغة الألمانية[4]. وباعتبار أن الهدف من الجغرافيا السياســية هو تحقيق توازن في القوى، وأن النازيــين لم يحاولوا تحقيق أقل من الإطاحة بميزان القوى، فقد كان اســتخدام النازيين لنظريات ماكيندر بمنزلة تحريف لأفكار ماكيندر نفسها.

إن ميــزان القــوى، وفقا لماكينــدر، ولأنه يمنح كل أمة أمنها، يشــكل الأســاس الحقيقي للحرية[5]. ربما كان مورغنثاو شديد التحامل على ماكيندر. وعلى أي حال، فــإن بُغض مورغنثاو لماكيندر، وكذلك تلخيصه الدقيــق لنظريات ماكيندر، يمثل في حد ذاته مؤشرا على تأثير ماكيندر القوي على الفكر الجيوســياسي الغربي على مدى عقــود عديدة. لايزال ماكيندر يتعرض إلى الشــجب، ومع ذلك تبقــى آراؤه وثيقة الصلــة بجميع الأحداث، خصوصا في عصور مثل عصرنــا الحالي، حيث لاتزال هناك أعداد كبيرة من القوات الأمريكية على الأرض في الشرق الأوسط الكبير وشمال شرق آســيا. من الواضح أن هناك حقيقة مقلقة كامنة وراء كتاباته، وإن كان هناك أيضا خطــر في الإفراط في تقديرها. من الواضــح أن ماكيندر كان موهوبا، وكانت خلاصة الأعــمال التي كتبها طــوال حياته هي أن الجغرافيا تمثل مدخــل الباحث العام إلى التخصص الأكاديمي[6]. وفي العام 1890 طرح مثالا فريدا على الكيفية التي تُثري بها المعرفة بالجغرافيا تفكير المرء حول الشؤون العالمية:

> افترض أنه قيل لي أن ثمة عينة من القمح ستأتي من لاهور، وأنني لا أعرف أين تقع لاهور هذه. ســأقوم بالبحث عنها في المعجم والتأكد من أنها عاصمة ولايــة البنجاب... فلو لم أكن أعرف شــيئا عن الجغرافيا، فســتتولد لديّ فكرة مفادها أن لاهور تقع في الهند، وسيكون هذا هو كل شيء تقريبا. أما إذا كنت قــد تلقيت تدريبا ملائمــا في الجغرافيا، فربما كانت كلمة البنجاب... ســتعني بالنســبة إلي ضمنا أمورا عديدة؛ فســأعرف أن لاهور تقع في الزاوية الشمالية

> من الهند، وسأتخيل صورتها وهي واقعة وسط سهل عظيم، عند سفح سلسلة من الجبال المغطاة قممها بالثلوج، وسط منظومة أنهار السند. سأفكر أيضا في الرياح الموسمية وفي الصحراء، وفي المياه المجلوبة من الجبال عبر قنوات الري. ستكون لديّ فكرة عن مناخ المنطقة، وعن توقيت زرع البذور وحصادها. وستلتمع في خريطتي الذهنية كل من كراتشي Kurrachee وقناة السويس. سأتمكن أيضا من حساب في أي وقت من السنة ستسلم الشحنات في إنجلترا. وفضلا على ذلك، فإن البنجاب ستكون بالنسبة إلي مساوية في الحجم وعدد السكان لدولة أوروبية كبيرة، مثل إسبانيا أو إيطاليا، كما سأدرك أهمية السوق التي توفرها للصادرات الإنجليزية[7].

تتسم أفكار ماكيندر وطريقته في عرض الأمور، كما سنرى في الفقرات اللاحقة، بكونها مشوّقة.

إن السير هالفورد. ج. ماكيندر وهو والد الجغرافيا السياسية في العصر الحديث، والذي كثيرا ما حاول مورغنثاو التقليل من شأنه، لا يشتهر بتأليفه أحد الكتب، بل ترجع شهرته إلى مقالة واحدة بعنوان «المحور الجغرافي للتاريخ»، والتي نشرت في عدد أبريل 1904 من المجلة الجغرافية الصادرة في لندن. تمثلت فرضية ماكيندر في أن آسيا الوسطى، من حيث مساعدتها على تشكيل المنطقة المركزية لأوراسيا Eurasian Heartland، هي المحور الذي يعتمد عليه مصير الإمبراطوريات العالمية الكبرى: لأن تصميما للأرض من حيث الشرايين الطبيعية الواقعة بين سلاسل الجبال وبطول وديان الأنهار يشجّع صعود الإمبراطوريات، سواء كانت تلك معلنة أو غير معلنة، وليس الدول. وقبل استكشاف كيف يمكن لهذا المفهوم، بعد إعادة تعريفه قليلا، أن يساعد على إلقاء الضوء على جغرافيتنا السياسية الخاصة، حريّ بنا أن نصف الكيفية التي توصّل بها ماكيندر إلى استنتاجه هذا. إن مقالته المذكورة، التي أخذت في اعتبارها مجمل التاريخ وكل أنماط الاستيطان البشري، هي النموذج الأصلي للجغرافيا كتخصص علمي، والتي تذكرنا بأعمال هيرودوت وابن خلدون، والتي بشّرت من حيث الأسلوب بكتابات ماكنيل، وهودجسون، والمؤرخ والجغرافي الفرنسي فرنان بروديل Braudel. وكما كتب ماكيندر، بطريقة بروديل: «يقوم الإنسان وليس الطبيعة ببدء العمل، لكن

الطبيعة تكون هي المتحكمة إلى حد كبير»[8]. تشير جملة ماكيندر الافتتاحية إلى الأهمية الملحمية لمقالته:

> عندما ينظر المؤرخون في المستقبل البعيد إلى الوراء إلى مجموعة القرون التي نمر عبرها الآن، ويرونها بصورة موجزة، كما ننظر اليوم إلى الأسرات الحاكمة المصرية القديمة، فمن المرجح تماما أنهم سيصفون القرون الأربعة الماضية باعتبارها العهد الكولومبسي Columbian epoch، وسيقولون إنها انتهت بعد العام 1900 بقليل[9].

وهو يفسر ذلك بالقول إنه في حين كان العالم المسيحي Christendom في القرون الوسطى «محبوسا في منطقة ضيقة ومهددا من قبل الهمجية الخارجية»، فقد شهد العهد الكولومبوسي - وهو عصر الاستكشاف - توسّع أوروبا عبر المحيطات إلى القارات الأخرى في مواجهة «مقاومة لا تُذكر». غير أنه اعتبارا من الوقت الحاضر، أي في عصر ما بعد كولومبوس (تذكّر أنه كان يكتب من موقع المراقبة للعام 1904) «يتعين علينا أن نعود إلى التعامل مرة أخرى مع نظام سياسي مغلق»، وهو في هذه المرة نظام «يشمل نطاقه جميع أنحاء العالم» . وفي معرض تفسيره، قال:

> إن كل انفجار للقوى الاجتماعية، وبدلا من أن يتبدد في دائرة محيطة من الفضاء المجهول والفوضى الهمجية، فإن صداه [من الآن فصاعدا] سيتردد بحدة من الجانب الآخر من الكرة الأرضية، ونتيجة لذلك ستتحطم العناصر الضعيفة في البنية السياسية والاقتصادية للعالم[10].

ومن خلال إدراك أنه لم يعد هناك مزيد من المساحة على هذا الكوكب لتوسّع الإمبراطوريات الأوروبية، فقد فهم أيضا أن الحروب الأوروبية سيتعين خوضها على نطاق عالمي، وهو الأمر الذي تحقق في الحربين العالميتين الأولى والثانية. ومع ذلك، وكما علمت قبل سنوات في ندوة عُقدت في كلية القيادة والأركان العامة للجيش الأمريكي في فورت ليفنوورث، فإن استنزاف الشيء نفسه يتراكم حتى يتحول إلى تغيّر كبير. وبعبارة أخرى، ففي حين أن عصر الاستكشاف قد انتهى بصورة أو بأخرى بحلول العام 1900، فطوال القرن العشرين حتى يومنا هذا - وخصوصا عند استشراف العقود القادمة - فإن تلك الخريطة المغلقة والمزدحمة أو رقعة الشطرنج بتعبير لماكيندر، كما سبق بيانه، قد امتلأت أكثر وأكثر: ليس فقط من

حيث عدد السكان، ولكن من حيث مدى الأسلحة. وعلى سبيل المثال، فإن الشرق الأوسط خلال السنوات الخمسين الماضية وحدها قد تحوّل من مجتمع ريفي إلى مجتمع من المدن الكبرى الهائلة الحجم. أما العالم، وكما تعلمت كمراسل أجنبي طوال العقود الثلاثة الماضية، حتى في بعض أبعد أصقاع، فقد تحوّل بقوة إلى حياة المدن. سنعود لاحقا، وبتعمق أكثر، إلى جميع الآثار المترتبة على هذه الخريطة المكتظة حديثا، ولكن للقيام بذلك يجب أن نعود إلى الأول ماكيندر ونظريته حول المحور الأوراسي.

يطالبنا ماكيندر بأن ننظر إلى التاريخ الأوروبي على أنه «تابع» لذلك الآسيوي، لأنه يعتقد أن الحضارة الأوروبية مجرد نتيجة للكفاح ضد الغزو الآسيوي. كونه جاء قبل ماكنيل بعشرات السنين، أشار ماكيندر إلى أن أوروبا تحولت إلى الظاهرة الثقافية التي هي عليها بسبب جغرافيتها في المقام الأول: مجموعة معقدة من الجبال والوديان، وأشباه الجزر - والتي بزغت منها الدول المنفردة لاحقا - المقابلة للأراضي الروسية المسطحة الشاسعة والمهدّدة من جهة الشرق. كانت الأراضي الروسية المسطحة مقسّمة بين الغابات الواقعة إلى الشمال والسهوب Steppe إلى الجنوب. وكما يوضح ماكيندر، فقد أنشئت أوائل التجسيدات في بولندا وروسيا بأكملها في الأحضان الواقية للغابة الشمالية؛ إذ جاءت من السهوب الجنوبية الجرداء بين القرنين الخامس والسادس عشر جحافل متوالية من الغزاة الرحّل: الهون Huns، والأفراز Avers، والبلغار، والمجريون Magyars، والكالموك Kalmuks، والكومين Cummins، والباتزيناك Patzinaks، والمغول وغيرهم. وفي سهوب المنطقة المركزية تتميز الأرض بكونها مسطحة من دون انقطاع، ويتسم المناخ بقسوته، ويقتصر الإنتاج النباتي على العشب، الذي يتعرض بدوره إلى التدمير بفعل الرمال، المدفوعة بالرياح العاتية. أفرزت مثل هذه الظروف أجناسا عنيفة وقاسية من الرجال الذين يهاجمون على الفور لتدمير أي خصوم يصادفونهم وإلا تعرضوا إلى الدمار هم أنفسهم، إذ لم تكن هناك وسيلة للدفاع في بقعة ما أفضل من الأخرى. وكان اتحاد مقاطعات الفرنجة Franks، والقوط Goths، والرومان ضد أولئك الآسيويين هو ما شكّل أساسا لفرنسا الحديثة. وبالمثل، فإن البندقية، والنظام البابوي، وألمانيا، والنمسا، وهنغاريا، وغيرها من القوى الأوروبية المزدهرة قد نشأت، أو على الأقل

نضجت، عـن طريق مواجهاتهـا الـمُهدِّدة مـع البدو الرحل الآتين من السـهوب الآسيوية. وكما كتب ماكيندر:

> عندما نتأمل في أنه خلال القرون العديدة للعصور المظلمة، كان الوثنيون الإسـكندنافيون Norse pagans يسـتخدمون سـفنهم لممارسـة القرصنة في البحار الشـمالية، وكذلك فعل المسلمون Saracen والمغاربيون Moorish في منطقة البحر المتوسـط، وأن راكبي الخيول الأتراك القادمين من آسـيا أغاروا بالتالي على قلب شـبه الجزيرة المسـيحي عندما كان محـاصرا من قبل قوى بحرية معادية، ستتكون لدينا فكرة عن الضرب الساحق، كما لو كان بين مدقة وهاون، الذي أسـهم في صنع أوروبا الحديثة. كانت المدقة pestle هي القوة الأرضية الآتية من الأراضي المركزية[11].

وفي الوقت نفسه، فإن روسيا، التي حمتها ممرات الغابات ضد عديد من الغزاة الهائجين، سقطت على الرغم من ذلك في القرن الثالث عشر فريسة للقبيلة الذهبية من المغول. وبالتالي حُرمت روسـيا من الوصول إلى عصر النهضة الأوروبية، وستظل توصف إلى الأبد بألد مشـاعر الدونية وعـدم الثقة. وكونها صارت إمبراطورية برية في نهايـة المطـاف، والتي تفتقر إلى أي عوائق طبيعية ضد الغزو باسـتثناء الغابات نفسـها، ستعرف روسـيا إلى الأبد ما يعنيه أن يجري غزوها بوحشية، ونتيجة لذلك سـيكون لديها هاجس دائم للتوسع وامتلاك الأراضي، أو على الأقل لأن تهيمن على مناطق الظل المجاورة لها.

وفي حين أن غزوات المغول الآتين من آسـيا الوسـطى أهلكت وبالتالي غيّرت ليس روسيا فقط، بل تركيا، وإيران، والهند، والصين، والمناطق الشمالية من الشرق الأوسـط العربي، فإن أجزاء كثيرة من أوروبا لم تشـهد هذا المسـتوى من الدمار، وبالتالي تمكنت من البزوغ باعتبارها قمرة القيادة السياسية للعالم[12]. وفي الواقع، وبالنظـر إلى أن الصحراء الكبرى حجبت أوروبا عـن جميع أجزاء أفريقيا تقريبا، فـإن المصير الـكلي macro - destiny لأوروبا في القرون الوسـطى وحتى العهد الكولومبـسي، وفقـا لماكيندر، قد تشـكّل بوجه عام وفقا لما حدث في السـهوب الآسـيوية. لم يكن المغول وحدهـم مَن نتحدث عنهم هنا؛ فالأتراك السـلاجقة، الذين انطلقوا من سـهوب المنطقة المركزية خلال القرنين العاشر والحادي عشر،

قـد اجتاحوا معظـم أجزاء الشرق الأوسـط، وكانت معاملتهم السـيئة للحجاج المسـيحيين في القدس هي التي أدت على ما يبدو إلى نشـوب الحروب الصليبية، التي يعتبرها ماكيندر بداية التاريخ الجماعي الحديث في أوروبا.

يستطرد ماكيندر في هذا السياق، ليبين للقارئ أن أوراسيا يحدها الجليد من الشمال والمحيط الاستوائي في الجنوب، وأنها تضم أربع مناطق هامشية في أطرافها، تقع جميعها في ظل الرقعة الشاسـعة والمحورية لآسـيا الوسطى وجحافلها من المغول والأتراك. وكما يخبرنا، فإن هذه المناطق الهامشية الأربع تتوافق، ليس من قبيل المصادفة، مـع الأديان الأربعة ذات العدد الأكبر من الأتباع: فالدين، أيضا، في تقدير ماكيندر، يمثل إحدى دلالات الجغرافيا. هناك «أراضي الرياح الموسمية» monsoon lands، توجـد إحداها إلى الـشرق في مواجهة المحيط الهادي، وهي موطـن البوذية، والأخرى في الجنوب في مواجهـة المحيط الهندي، وتمثل موطن الهندوسـية. أما المنطقة الهامشية الثالثة فهي أوروبا نفسها، والتي تحدها مياه المحيط الأطلسي إلى الغرب، وتعد مركز الديانة المسيحية. لكن الأكثر هشاشة من بين المناطق الهامشـية الأربعة الشرق الأوسـط، موطن الإسلام، «المحروم بفعل القرب من أفريقيا»، و«القليل السكان... إلا في الواحات» (كما كانت الحال عليه في العام 1904). وبالنظر إلى كونه خاليا من الغابات، وتسوده الصحراء، وبالتالي مفتوحـا على مصراعيه أمام غزوات القبائل البدوية وأمام الاضطرابات والثورات اللاحقة، كان الشرق الأوسـط، بالإضافة إلى ما سـبق - بسـبب تجاور الخلجان والبحـار والمحيطات - غير حصين بصفة خاصة في مواجهة القوى البحرية (حتى على الرغم من اسـتفادته منها). وعلى وجه الدقة، فإن الشرق الأوسط الكبير، في منظور ماكيندر المعتمد كليا على الجغرافيا، يمثل في نهاية المطاف منطقة انتقالية غير مسـتقرة، ومحطة على الطريق الممتد بين عالم البحر المتوسـط والحضارتين الهندية والصينية، والذي يُظهر جميع التحولات الكبرى في سياسـة القوة. ويمثل هذا نذيرا متسـقا تماما مع تصوير هودجسـون للشرق الأوسـط الكبير باعتباره ويكومين عالم العصور القديمة، والذي أنجب ثلاثة من الأديان السماوية الرئيسية (اليهودية، والمسيحية، والإسلام)، واسـتمر دوره المحوري في الجغرافيا السياسية حتى العصر الحديث.

وعلى أي حال، بالنسبة إلى ماكيندر، الذي كتب مؤلفاته في عصر ما قبل شركات النفط الكبرى وخطوط الأنابيب والصواريخ البالستية، المحور الجغرافي للعالم، وعلى الرغم من ذلك، يقع أبعد من ذلك قليلا. وفي فرضيته، نجده يستبعد الشرق الأوسط ويشـق طريقه متجاوزا إياه. وكـما كتب، فإن العهد الكولومبوسي تميز باكتشـاف الطريـق البحري إلى الهند حول رأس الرجـاء الصالح، وبالتالي تجاوز منطقة الشرق الأوسـط. وفي حين أنه في العصور الوسـطى كانت أوروبا «محصورة بين صحراء غير سـالكة إلى الجنـوب، وبين محيط مجهول إلى الغرب ... وقفار مكسـوة بالجليد أو الغابات إلى الشـمال والشـمال الشرقي»، و«الفرسـان وراكبي الجمال» إلى الشرق والجنـوب الشرقي، فقد امتلكت الآن على حين فجأة وصولا عبر المحيط الهندي إلى كامل المنطقة المحيطة rimland بجنوبي آسـيا، فضلا على اكتشـافاتها الاستراتيجية في العـالم الجديد. غير أنه في حين أن شـعوب أوروبا الغربية قد «غطت المحيطات بأساطيلها»، كانت روسيا تتوسّع على الأرض بصورة باهرة بالقدر نفسه، «بازغة من غاباتها الشـمالية» لمراقبة السهوب بواسـطة قوات القوزاق Cossacks التابعة لها ضد المغول الرحّل.

لذلك، مثلـما تمكن البحـارة البرتغاليـون والهولنديون والإنجليز مـن الدوران منتصريـن حول رأس الرجاء الصالح، اندفعت روسـيا بقوة إلى سـيبيريا، وأرسـلت الفلاحين لزرع السهوب الجنوبية الغربية بحقول القمح، والتفت حول العالم الإسلامي الإيـراني. توصّل توينبي وغيره إلى هذه الملاحظة بعد ذلك بعقود، لكن ماكيندر كان من أوائل مَن لاحظوها[13]. كانت تلك قصة قديمة، أوروبا مقابل روسـيا: قوة بحرية ليبرالية - كما كانت أثينا والبندقية - مقابل قوة أرضية رجعية - كما كانت إسـبرطة وبروسـيا. وبالنسـبة إلى البحر، بالإضافة إلى التأثيرات العالميـة التي يضفيها بحكم الوصول إلى المرافئ البعيدة، فإنه يوفر ذلك النوع من الأمن الحدودي الذي لا يمكن انتهاكه، واللازم لترسيخ الليبرالية والديموقراطية. (تتسم الولايات المتحدة بكونها دولة شـبه جزيرية يحدها محيطان والقطب الشمالي الكندي القليل السكان إلى الشمال؛ ولا تتهدد إلا من جهة الجنوب بفعل القوى الديموغرافية المكسيكية).

لاحظ ماكيندر أنه في القرن التاسع عشر أدت المحركات البخارية وقناة السويس إلى زيادة تنقّلية القوى البحرية في جميع أنحاء المنطقة المحيطة الجنوبية لأوراسيا،

حتى على الرغم من أن ظهور السـكك الحديدية بدأ يعمل «كمغذيات للتجارة عبر المحيطات». غير أنه لاحظ أيضا أن السكك الحديدية بدأت الآن تفعل الشيء نفسه للقوة الأرضية ما كانت تقدمه بالفعل للقوة البحرية، والذي تمثل على أفضل صورة في المنطقة المركزية لأوراسـيا، التي تعرقلت في السـابق بسبب عدم وجود الأحجار والأخشاب اللازمة لشق الطرق.

وفي النهاية، وصل إلى استنتاجه الرئيسي:

> ونحـن نتدبّر هـذه المراجعـة السريعة للتيـارات التاريخية الأوسع، ألم يتضح وجود استمرارية معينة في العلاقات الجغرافية؟ أليست المنطقة المحورية للسياسة في العالم هي المنطقة الشاسعة المتمثلة في أوروبا وآسـيا، والتي لا يمكن الوصول إليها عبر السفن، غير أنهـا ظلت في العصور القديمة مفتوحـة للقبائل الرحّالة من راكبـي الخيل، والتي توشـك اليـوم على أن تغطيها شـبكة من السكك الحديدية؟

ومن وجهة نظر ماكيندر، حلت مركزية روسيا المتوسعة في بداية القرن العشرين محل مركزية جحافل المغول، والتي قد يجادل البعض بأنها أحدثت أعظم تأثير على تاريـخ العالم خلال الألفية الثانية. ومثلما هاجم المغول - وكثيرا ما حطّموا - بوابات المناطق الهامشـية من أوراسـيا (فنلندا، وبولندا، وتركيا، وسـورية، والعراق، وبلاد فارس، والهند، والصين)، فكذلك، أيضا، يمكن أن تفعل روسـيا، التي يقويها تماسـك أراضيها، الأمر الذي تحقق بفعل التطورات الأخيرة في سككها الحديدية.

وكما كتب ماكيندر، فإن «الكميات الجغرافية في العملية الحسـابية أكثر قابلية للقياس وأكثر ثباتا تقريبا من تلك البشرية». انسـوا القياصرة والمفوضين الصاعدين في العام 1904، فهم من سفاسف الأمور مقارنة بالقوى التكتونية الأعمق للجغرافيا والتكنولوجيـا. ولا يعنـي هذا أن ماكينـدر كان مدعوما بالأحـداث الجارية؛ ففي غضون أسـبوعين من محاضرته الشـهيرة هاجمت البحرية اليابانية بورت آرثر عند المدخل الجنوبي لمنشـوري، فيما مثّل المعركة الأولى من الحرب الروسـية - اليابانية. انتهـت الحـرب بعد عام واحد، في معركة مضيق تسوشـيما، حيث أحرز اليابانيون انتصارا كبيرا في البحر. وبعبارة أخرى، ففي حين نادى ماكيندر بأهمية القوة البرية،

تمكنت القوة البحرية من إلحاق الهزيمة بأكثر القوى البرية توسعا على وجه الأرض في هذا الصراع الذي دارت رُحاه في أوائل القرن العشرين[14].

ومع ذلك، فإن حتمية ماكيندر الظاهرية أعدتنا جيدا لصعود الاتحاد السوفييتي ومنطقة نفوذه الهائلة خــلال النصف الثاني من القرن العشرين، فضلا عن الحربين العالميتين خلال النصف الأول من القرن نفســه، اللتين كانتا، كما أشــار المؤرخ بول كينيــدي Kennedy، صراعا على «الأراضي المحيطية» لماكيندر، والتي تمتد من شرق أوروبــا إلى جبال الهملايا وما وراءهــا[15]. وبداية من الثورة الروســية حتى تفكك الاتحاد السوفييتي، توسعت الســكك الحديدية في آسيا الوسطى وسيبيريا عبر نحو 45 ألــف كيلومــتر، ما يثبت صحــة وجهة نظر ماكيندر[16]. وفضــلا على ذلك، فإن استراتيجية الاحتواء خلال الحرب الباردة ستعتمد بشكل أساسي على قواعد الأراضي المحيطية الواقعة عبر الشرق الأوســط الكبير والمحيط الهندي. وفي الواقع إن توسيع قوة الولايات المتحدة إلى الأراضي المحيطة لأفغانستان والعراق، والتوتر الذي نشب بين أمريكا وروسيا حول المصير السياسي لآسيا الوسطى والقوقاز - والتي تمثل المحور الجغرافي نفســه - قد خلعتا مصداقية أكبر على فرضية ماكيندر. وفي فقرته الأخيرة، يثير ماكيندر شــبح الغزوات الصينية للأراضي الروسية، والتي من شأنها – من وجهة نظره - أن تجعل من الصين قوة جيوسياســية مهيمنة. وإذا نظرنا إلى الكيفية التي يطالب بها الآن المهاجرون الصينيون ديموغرافيا بانتزاع أجزاء من سيبيريا من روسيا، حتى مع إظهار الســيطرة السياســية لروســيا على تخومها الشرقية لبعض الضعف، يمكن للمرء تصوّر أن ماكيندر كان على حق مرة أخرى.

تعرّض ماكيندر للهجوم باعتباره حتميــا متعصبا وإمبرياليا، لكن التهمتين كانتا غــير منصفتين إلى حد كبير. ولكونه عمل بالتدريس طوال حياته، فلم يكن بطبيعته متطرفا أو أيديولوجيا. لم يكن ماكيندر إمبرياليا، غير أن بريطانيا العظمى كانت تدير في ذلــك الوقت إمبراطورية ممتدة في جميــع أنحاء العالم، وأنه كان وطنيا بريطانيا مســتنيرا، والذي رأى أن احتمالات تحقيــق التنمية البشرية - وخاصة الديموقراطية - أقــرب احتمالا تحت النفوذ البريطاني منها تحت ذلك الروسي أو الألماني. وقد كان عرضة للأحكام المســبقة نفســها التي تعــرّض لها معاصروه؛ كــما كان حتميا فقط بقدر كون الجغرافيا موضوع اهتمامه، فالجغرافيا يمكنها بطبيعتها المحضة أن تكون

حتمية. وبصفة خاصة، حاول ماكيندر أن يدافع عن الإمبريالية البريطانية في أعقاب حرب البوير Boer War المنهكة (1899 - 1902)[17] . لكن الموضوع الرئيس لكتابه المعنون «المثل الديموقراطية والواقع: دراسة في سياسة إعادة البناء» هو أن الفاعلية الإنسـانية يمكن أن تتغلب على إملاءات الجغرافيا. وكما روى كاتب السـير الذاتية و.هـ. باركر Parker، معيدا صياغة آراء ماكيندر: «وعلى أي حال، على المدى الطويل، سـينتصر الذيـن يعملون في وئام مع التأثـيرات البيئية على أولئك الذين يسـعون جاهديـن ضدها»[18]. وهـذا هو الجوهـر الحقيقي لمبدأ «الحتميـة الاحتمالية» probabilistic determinism الـذي وضعـه رايمونـد آرون Aron، والذي يمكن لمعظمنا قبوله[19]. وفي الواقع أن آرون يدافع عن ماكيندر، إذ كان يؤمن عن اقتناع بأنه عالم اجتماعي وليس عالما بالطبيعة، إذ إن ماكيندر، برأي آرون، يؤمن بإمكانية هزيمـة الجغرافيا عن طريق الابتكار التكنولوجي[20]. ولإزالة أي شـك حول طريقة تناول ماكيندر للموضوع، ففي بداية كتاب «المثل الديموقراطية والواقع: دراسـة في سياسة إعادة البناء»، كتب ما يلي:

> في القـرن الماضي، وتحت تأثير نظرية داروين، اعتقد البشر بضرورة بقاء تلك الأشـكال مـن التنظيم التي سـاعدتهم على التكيّف بصـورة أفضل مع بيئتهـم الطبيعية. أما اليـوم فنحن ندرك، ونحن نخرج مـن التجربة النارية [للحـرب العالمية الأولى]، أن الانتصار الإنسـاني يكمن في تسـامينا على هذه القدرية المحضة[21].

وقد عارض ماكيندر الرضا الذاتي complacency بجميع أشـكاله. ومرة أخرى، سأورد مثالا توضيحيا من بدايات كتابه «المثل الديموقراطية والواقع»:

> تُغرينـا اللحظة الحالية [في العام 1919] لأن نؤمن بأن السـلام المتواصل سـيحل لمجـرد أن الرجـال المتعبين عازمون عـلى ألا يكون هنـاك مزيد من الحـروب. لكن التوترات الدولية سـتتراكم مرة أخرى، ولو ببـطء في البداية؛ لقـد كان هناك جيل من السـلام بعد معركة ووترلو، لكـن مَن توقع من بين الديبلوماسيين المجتمعين حول مائدة المؤتمر في ڤيينا في العام 1814 أن بروسيا سـوف تصبح خطرا على العالم؟ وهل يمكننا نحن أن نقيّم مسـار تيار التاريخ المستقبلي بحيث لا يكون هناك مزيد مما يحول دون رؤيته بوضوح. إن هذه،

> وليس أقل منها، هي المهمة الماثلة أمامنا إذا أردنا ألا تستخف الأجيال القادمة بحكمتنا قدر استخفافنا بتقديرات الديبلوماسيين الذين اجتمعوا في ڤيينا[22].

لم يكن ماكيندر قدريا صرفا؛ فقد اعتقد بأنه يمكن التغلب على كل من الجغرافيا والبيئة، لكن فقط إذا تعاملنا مع هذين الموضوعين بأكبر قدر من المعرفة والاحترام. ومما لا شك فيه أن كتاب «الأمير» لمكيافيللي Machiavelli قد صمد جزئيا لأنه يمثل دليـلا تعليميا لأولئك الذين لا يتقبلون أحـكام القدر ويتطلب أقصى درجات المكر لهزيمة القوى الأشـد قوة. وينطبق الأمر نفسـه، أيضا، عـلى نظريات ماكيندر. فهو يضـع رؤية مثبّطة للهمم، والتي تبدو مُربكة بسـبب قوة حجته وتعبيراته النثرية، وبالتالي يتولد الإحساس بالاندفاع إلى واقع محدد سلفا بينما هو في الحقيقة يتحدانا لأن نسمو فوقه. كان يمثل أفضل نوع من الحتميين المترددين، إذ أدرك الجهد المحدّد المطلوب منا بذله لتجنب وقوع مأساة.

إن الحتميـة تعنـي التفكير المتحجـر، أي الميل إلى الانسـحاق بفعـل القوى والاتجاهـات الكاسـحة، وبالتالي عدم التأثـر بمفارقات التاريخ وهي تتكشـف في الواقع. لكن ماكيندر كان نقيض ذلك. وكأنما كان رجلا ممسوسا، ظل يقوم بمراجعة وتنقيـح فرضيـة «المحور» التي وضعهـا في العام 1904، بإضافـة مزيد من العمق والرؤيـة إليها، آخـذا بعين الاعتبار الأحداث الأخيرة وكيـف تؤثر عليها. إن الألمعية الحقيقيـة لمقالة «المحـور الجغرافي للتاريخ» تكمن في توقعهـا لوجود نظام عالمي global في الوقت الـذي كانت فيه العقول التي تنتمي إلى العصر الإدواردي لاتزال تبـذل قصارى جهدها للتوصل إلى منظومة قاريـة continental أوروبية[23]. تعود جـذور هذا النظـام القاري إلى مؤتمر ڤيينـا الذي انعقد بعد هزيمـة نابليون قبل ذلك بما يقرب من مائة سـنة، والذي كان يعيـش أيامه الأخيرة - على الرغم من أن قليلين، باسـتثناء ماكيندر وبعض الآخرين، قد استشـعروا وجوده بحدسـهم. أدت كارثة الحرب العالمية الأولى، التي اندلعت بعد عقد من نشر كتاب «المحور الجغرافي للتاريـخ» إلى تحريض ألمانيا - بروسـيا وروسـيا القيصرية ضـد بعضها البعض على الجبهة الشرقية، والقوات البرية الألمانية ضد القوات البحرية البريطانية والفرنسـية على الجبهة الغربية، وبالتالي دعمت على نحو مبهم فكرة ماكيندر حول الصراع على المناطق المركزية، مضيفة عليها في الوقت نفسـه عددا من التعقيدات والتعديلات.

كان «المثـل الديموقراطيـة والواقع» تنقيحه الـذي بلغ حجمه كتابـا كاملا لمقالة «المحور الجغرافي للتاريخ»، والذي ظهر في نفس سـنة انعقاد مؤتمر فرساي للسلام. حذّر ماكيندر صانعي السـلام من «أن المشـكلة بين القوة البحرية والقوة البرية لم تحل بصورة نهائية، وأن النزال بين الجرمان Teuton والسـلاف لم يجر خوض غماره حتى الآن»، على الرغم من الحرب التي أزهقت فيها أرواح الملايين[24]. كانت مقالة «المحـور الجغرافي للتاريـخ» عبارة عن نظرية فقط؛ أما كتـاب «المثل الديمقراطية والواقع»، ومن الناحية الأخرى، فكان أطروحة منقحة وموسـعة، والتي كانت أيضا بمنزلة تحذير بعيد النظر.

إن أسـلوب الكتابة في كتـاب «المثـل الديموقراطية» يغلي بالوصف، وسـعة الاطلاع، وإلقـاء الضوء على الظلال التي تكتنف المشـاهد المعاصرة والقديمة على حد سـواء، إذ كان ماكينـدر يعرض العالم من منظور البحّار وسـاكن البر على حد سـواء. إن حضـارة وادي النيل، كـما يخبرنا، وهو يفكّر كبحّـار، كانت محمية من جهتي الشرق والغرب بواسـطة الصحارى، ولم تتعرض أبدا للقرصنة من جهة البحر المتوسـط بفضل المستنقعات السـائدة في منطقة الدلتا الواقعة إلى الشمال: ساعد هذا على تزويد الممالك المصرية بمسـتويات غير عادية من الاستقرار. وإلى الشمال من مصر، وفي شرق البحر المتوسـط، تقع جزيرة كريت، وهي أكبر الجزر اليونانية وأكثرها خصوبة، والتي مثّلت بالتالي «أول قاعدة للقوات البحرية» في العالم الغربي، لأن «القـوى البشريـة العاملة على البحر يجب أن تغـذى عن طريق خصوبة البر في مكان ما». وانطلاقا من جزيرة كريت، ربما اسـتقر البحارة في «الغرفة البحرية» الواقعة في بحر إيجة، التي شـكلت الأسـاس الحقيقي للحضارة اليونانية: ازدهرت القوة البحرية اليونانية حتى تحدتها القوة البرية الفارسية، كما أضاف ماكيندر. غير أن الغزو الفارسي باء بالفشـل. كان المقدونيون Macedonians أنصاف اليونانيين الآتين من الشمال، «من أصل شبه الجزيرة اليونانية نفسه»، هم من غزوا في النهاية منطقـة بحر إيجه بأكملها. أما مقدونيـا، ولكونها أكثر بُعدا عن البحر من اليونان، فقد أفرزت جنسا من «رجال البر وسكان الجبال»، الذين كانوا أكثر طاعة لحكامهم على الرغم من أنهم كانوا محاربين أشداء، ومع ذلك كانت قريبة من البحر بما فيه الكفاية لإدراك أهمية العالم الأوسع. كان هذا الغزو المقدوني، الذي جعل بحر إيجة

«بحرا مغلقا» - وبالتالي حرم الإغريق والفينيقيين من قواعدهم هناك - هو ما أتاح للإسكندر الأكبر، وهو مقدوني، ترف محاولة الغزو البري للشرق الأدنى الكبير. يشرح ماكيندر بعد ذلك الأصول الجغرافية للإمبراطورية الرومانية وما تلاها، حتى على الرغم من اعترافه بأن الجغرافيا لا تمثل دائما تفسيرا للتاريخ: وعلى سبيل المثال، فقد غزا المسلمون القادمون من الصحراء الكبرى في جنوب البحر المتوسط إسبانيا شمال البحر المتوسط، في حين أن الرومان الآتين من شمال البحر المتوسط غزوا قرطاج في جنوب المتوسط، الأمر الذي تحقق في كلتا الحالتين بسبب إرادة الرجال المتمثلة في شكل قوة بحرية استثنائية.

ومع ذلك، وكما أشار إليه ماكيندر، فمهما كانت درامية إنجازات الأفراد، فإن القوى الجغرافية، من خلال تأثيرها على الثقافات الإنسانية، تميل إلى الانتصار في النهاية. وعلى سبيل المثال، هناك مثال مدينة بطرسبرغ، التي جعلها بطرس الأكبر Peter the Great عاصمة لروسيا بين «أنياب ظروف جغرافية غير مواتية»، حتى على الرغم من أن الثقافة والأفراد الشديدي الحماسة جعلوا بقاءها أمرا ممكنا من الناحية التقنية. وبالتالي فقد انتصر بطرس على المدى القصير، وطوال قرنين من الزمان «كانت الإمبراطورية الروسية تُدار من هذه «الحماقة»». غير أن موسكو المرتبطة بالأرض - ومن ثم الجغرافيا – انتصرت مجددا في نهاية المطاف. للإرادة البشرية حدود لا يمكن تجاوزها[25].

تمثلت نقطة انطلاق ماكيندر إلى حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى في إدراكه البارز لمفهوم «المحور» لأننا نواجه للمرة الأولى في التاريخ «نظاما مغلقا»، والذي يتسم بأن «الملكية السياسية لجميع الأراضي الجافة» جرى «ترسيمها» بالفعل. وفي هذه الجغرافيا العالمية الجديدة، تشكل مساحة الأراضي الجافة «رأسا شاسعا» vast cape، أو «نتوءا [رَعْن: Promontory] عالميا»، على حد تعبيره، يمتد من الجزر البريطانية وشبه جزيرة أيبيريا جنوبا بطول الطريق حول نتوء غرب أفريقيا وطريق رأس الرجاء الصالح، ومن ثم عبر المحيط الهندي وصولا إلى شبه القارة الهندية وشرق آسيا. وبالتالي، فإن أوراسيا وأفريقيا تشكلان معا «جزيرة عالمية»، التي ستتحول بمرور العقود إلى وحدة متماسكة على نحو متزايد[26]:

> هنـاك محيط واحد يغطي تسـعة مـن 12 جزءا من العـالم؛ وثمة قارة واحدة – هي الجزيرة العالمية - تغطي جزأين من 12 جزءا من العالم؛ وهناك العديد من الجزر الأصغر حجما، التي من بينها تُعتبر أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبيـة، لأغراض فعالة، قارتين اثنتين، واللتين تغطيان معا الجزء المتبقي من 12 جزءا من العالم[27].

وبالإضافة إلى ذلك، يمكن للمرء أن يقول إن 75 في المائة من السـكان البشريين يعيشون في أوراسيا (فضلا عن أفريقيا)، التي تحتوي على معظم ثروة العالم، وستين في المائة من الناتج المحلي الإجمالي، وثلاثة أرباع احتياجاتها من مصادر الطاقة[28].

تمثّل الافتراض الضمني في أطروحة ماكيندر في أن أوراسـيا سوف تهيمن على الحسابات الجيوسياسية، حتى مع تحوّل أوروبا شيئا فشيئا إلى كيان منفصل عن بقية أوراسـيا وأفريقيا. «لقد صار العالم قديم جزيريا insular، أو بعبارة أخرى تحـوّل إلى وحدة، وهي أكبر وحدة جغرافية في عالمنا على الإطلاق». واعتبارا من نهاية الحروب النابليونية، وباسـتثناء موزمبيق البرتغالية، وشرق أفريقيا الألماني، وجـزر الهنـد الشرقية الهولندية، فقـد أحاطت القوة البحريـة البريطانية بهذا «النتـوء العالمي». يقارن ماكيندر بين السـيطرة الرومانية على البحر المتوسـط، مـع انتشـار فيالق روما على طول الحدود المتمثلة في نهـر الراين، وبين الهيمنة البريطانية على المحيط الهندي(وهو البحر الرئيسي للنتوء العالمي)، حيث كانت دوريـات الجيش البريطاني تحرس الحدود الشـمالية الغربية للهند ضد روسـيا القيصرية الـمُعادية[29].

إن متضمنـات «النظـام المغلق» الذي تصوّره ماكينـدر، والذي يمكن فيه أن نتصـور كامل عرض أوروبا وآسـيا وأفريقيـا كوحدة عضوية واحـدة، والانغلاق الإضـافي لهذا النظام طوال القرن العشرين وما بعده، تشـكل النقطة الأساسـية لدراستي الخاصة، التي ستنبع منها نقاط أخرى. ولكن بالقدر نفسه من الأهمية، يجـب أن نعترف بأنه حتى النظام المغلـق، الذي يكون فيه المحيط الهندي، على سبيل المثال، هو المركز الحيوي للاقتصاد العالمي، حيث تقوم الناقلات في المستقبل بجمع النفط والغاز الطبيعي من الصومال لتخزينه في الصين، لايزال منقسـما من الداخـل بفعـل الجغرافيا. إن الجغرافيا، في الواقع، تصبـح أكثر أهمية ضمن نظام

مغلق، بسـبب نزوع هذا النظام لجعل تأثير التضاريس القاسية في أفغانستان، على سبيل المثال، تتسق سياسيا من إحدى نهايتي الجزيرة العالمية إلى الأخرى.

أمـا الآن، فلنعُد إلى استكشـاف ما قصده ماكيندر بالضبـط باصطلاح المنطقة المركزيــة Heartland، التي تؤثــر كثيرا على مصير الجزيرة العالميــة. يبدأ ماكيندر ويختتم فكرته بقوله المأثور الرائع والمفرط في التبسـيط، الذي كثيرا ما استشـهد به الباحثون:

> مـن يحكـم أوروبا الشرقية يسـيطر على المنطقة المركزيـة: ومن يحكم المنطقة المركزية يسـيطر على الجزيرة العالمية: ومـن يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم[30].

إن أول شيء يجـب إدراكـه هنا هو أن ماكيندر، بدلا من أن يكون حتميا كليا، يسـتجيب بالقدر نفسـه للأحداث الناتجة عن الفاعلية الإنسـانية في أثناء تنبؤه بهـا. وما بين نشره لمقال «المحور الجغرافي للتاريـخ» في العام 1904 وكتاب «المثل الديموقراطيـة والواقع» في العام 1919، جـاءت مذبحة الحرب العالمية الأولى، وفي أعقـاب تلك الحرب جـاء مؤتمر باريس للسـلام، الذي عقد في أثنـاء مثول كتاب ماكينــدر إلى الطبع. ومع انهيـار الإمبراطوريتين النمسـاوية - المجرية والعثمانية نتيجة للحرب، كان من بين الأغراض المحورية للدبلوماسـيين المجتمعين في فرساي إعادة ترتيب خريطة أوروبا الشرقيـة. وبالتالي، فقد تناول ماكيندر في كتابه قضية تجاهلهـا في مقالـة «المحور الجغرافي للتاريخ» التي كتبها قبل خمسـة عشر عاما: ألا وهي «الضرورة الحيوية لوجود طبقة من الدول المسـتقلة بين ألمانيا وروسيا». وعـلى حد تعبيره، فقد «كنا معارضين لحكم القيـاصرة الروس Czardom أنصْاف الألمان لأن روسـيا كانـت القوة المهيمنة التي ظلت تهـدد كلا من أوروبا الشرقية والمنطقـة المركزية لمدة نصف قرن؛ كما كنا معارضـين كليا لحكم القياصرة الألمان Kaiserdom، لأن ألمانيا أخذت زمام المبادرة في أوروبا الشرقية من روسيا القيصرية، وستتمكن حينئذ من سحق السلاف المتردين، ومن ثم السيطرة على كل من أوروبا الشرقية والمنطقة المركزية». وهكذا، فإن أوروبا الشرقية من السـلاڤيين من منظور ماكينـدر في العام 1919 تصبح مفتاح المنطقة المركزية، والتي تسـتمد قوتها البرية من ألمانيا، وخصوصا من روسيا.

ولأن روسيا كانت «تطرق البوابات البرية لجزر الهند»، ما يضعها في مواجهة مــع القــوة البحرية البريطانية، التــي، بدورها، كانت «تطــرق الأبواب البحرية للصــين» حول رأس الرجاء الصالح وعبر قناة الســويس لاحقا. ومن خلال اقتراح إنشــاء حصــن واقٍ مؤلف من دول شرق أوروبا المســتقلة من إســتونيا باتجاه الجنــوب إلى بلغاريا - أي «بوهيميا العظمى»، «وصربيــا العظمى»، و«رومانيا العظمــى»، وهلم جــرا - فإن ماكيندر يقــوم، في الواقع، بطرح تعديل بســيط على فكرته وفكرة فيرغريف Fairgrieve حول «منطقة الحشــود» التي وصفها فيرغريــف على وجه التحديد في كتاباته المنشــورة في العــام 1915، والتي تعني المنطقــة المعرضة للاجتياح من قبل القوة البرية الآتيــة من المنطقة المركزية أو القوة البحريــة القادمة من أوروبا[31]. وإذا أمكن لهذه الدول المســتقلة حديثا أن تبقى على قيد الحياة، فســتكون هناك فرصة لظهور أوروبا الوسطى، بالمعنى الروحي والجيوسياسي على حد سواء، على الرغم من كل شيء. وقد توسّع ماكيندر في طرحه، فاقترح إقامة سلســلة من الدول الواقعــة إلى الشرق، إذا جاز التعبير، من أوروبا الشرقية: روســيا البيضاء (بيلاروســيا)، وأوكرانيــا، وجورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان، وداغستان، من أجل إحباط مخططات روسيا البلشفية، التي وصفها باسم «دولة القياصرة الدومينيكيين» Jacobin Czardom. وفي الواقع، مع زوال الاتحاد الســوفييتي في العام 1991، ستبزغ مجموعة من الدول المستقلة حديثا، والمماثلة بشكل لافت للنظر لما طرحه ماكيندر[32].

غير أن ماكيندر، في البداية على الأقل، قد ثبت خطؤه في هذه المسألة؛ فلا يبدو أنــه أدرك، كما فعل توينبــي، أن أوروبا التي جرى ترســيم حدودها بناء على مبدأ حق تقرير المصير الوطني كانت عرضة لأن تكون أوروبا تهيمن عليها ألمانيا - كونها أكــبر حجما وذات وضــع أفضل من الناحية الجغرافية، وأقــوى من أي دولة أخرى ذات أســس عِرقية. وبالفعل، ســتقهر ألمانيا أوروبا الشرقيــة في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن العشرين، وســتقوم روسيا، كرد فعل لذلك، بغزو هذه الدول المســتقلة حديثا في المنطقة العازلة التي اقترحها ماكيندر، ومن ثم حبسها في سجن للأمم ما بين عامي 1945 و1989. وخلال الجيل الأخير وحده بزغ الأمل في أنه يمكن لأوروبا الوســطى الروحية أن تعيش بين القوتين البريتين لروسيا وألمانيا. فلماذا نجد

ماكينــدر، باعتباره واقعيا متعصبا، قد صار رخــوا فجأة، إذا جاز التعبير، في دعم ما كان يمثل، في الواقع، المبادئ «الويلسونية» لحق تقرير المصير الوطني؟

وكما أشــار أحد الباحثين، وهــو آرثر بتلر دوغــان Dugan، كان ماكيندر، على الرغم من نظرياته الجريئة والحتمية، ابن عصره، أو «ثمرة» لمناخ الرأي السائد «أكثر مما كان يُدرك»[33].

كان ماكيندر في أعماقه ليبراليا، أو على الأقل صار واحدا. لقد تصوّر الكومنولث البريطاني وقد تحوّل إلى رابطة للثقافات والشــعوب المختلفة لكنها متســاوية؛ كما آمن بأن عصبة من الديموقراطيات ســتمثل أفضل دفــاع ضد قوة إمبريالية عظمى في قلب أوراسيا (ما يتنبأ، بالتالي، بكفاح حلف الناتو ضد الاتحاد السوفييتي)[34].

إن انجــراف ماكينــدر تجــاه مبادئ ويلســون، الــذي بدأ في مقالــة «المثل الديموقراطية والواقع»، يشــكل حجــر الزاوية في مراجعتــه للنظرية التي وضعها حــول «المنطقة المركزية». كان قد شرح تلك النظريــة لأول مرة في مقالة «المحور الجغرافي»، من دون استخدام مصطلح «المنطقة المركزية». صيغ المصطلح في الواقع من قبل فيرغريف في كتابه المعنون «الجغرافيا والطاقة العالمية»، المنشــور في العام 1915. وفي العام 1919، أضاف ماكيندر إلى المناطق المحورية لآســيا الوسطى التي حددها في العام 1904، ما أســماه «المســارات النجدية التبتيــة والمنغولية للأنهار الكــبرى في الهند والصــين»، وكامل الحزام العريــض المكون من البلــدان الواقعة من الشــمال إلى الجنوب من شــبه جزيرة اســكندنافيا إلى الأناضول، وبما في ذلك أوروبا الشرقية والوســطى: بحيث تصبح المنطقة المركزية الجديدة مساوية تقريبا للإمبراطورية الســوفييتية في أوج قوتها خلال الحرب الباردة[35]. أو ينبغي أن أقول: الإمبراطورية الســوفييتية بالإضافة إلى النرويج، وشمال تركيا، وإيران، وغرب الصين. ولأن الجزء الأكبر من سكان الصين لا يعيشون في الغرب ولكن في الأراضي الساحلية التي تهب عليها الرياح الموســمية، فإن المنطقة المركزية لماكيندر تمثل الجزء الأكبر من الجزء الداخلي لأوراســيا الذي يتســم بأنه قليل السكان نســبيا، مع الضخامة الديموغرافيــة للصــين، والهند، والنصف الغربي من أوروبا عــلى جانبيه. أما الشرق الأوســط (وبالتحديد شــبه الجزيرة العربية والهلال الخصيــب) فلم يكن مكتظا بالســكان ولا جزءا من المنطقة المركزية، ولكن كــما كتب ماكيندر في العام 1919،

فقــد صارت له الآن أهمية محورية بالنســبة إلى مصير الجزيرة العالمية، لأنها تمثل «الممــر البري» من أوروبا إلى جزر الهند ومن الجزء الشــمالي من المنطقة المركزية إلى الجزء الجنوبي، فضلا عن كونه يمكن الوصول إليها عبر العديد من المســطحات المائية المنتشرة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية[36].

لكن مصير شبه الجزيرة العربية، وكذلك مصير أوروبا، يتأثر تأثرا كبيرا بالمنطقة المركزية؛ كما أن الجزء الأكثر قربا من المنطقة المركزية إلى شبه الجزيرة العربية هو إيران، وهو درس ينبغي أن نضعه في أذهاننا لاستخدامه في عصرنا الحالي. وفي الواقع أن الهضبة الإيرانية تتسم بأهميتها البالغة، لذلك سأتناولها في موضع لاحق.

وهناك استثناء مشــوّق هنا هو اليونان، التي تمثل من الناحية الجغرافية جزءا من الطبقة المستقلة من الدول العازلة بين ألمانيا وروسيا، غير أن ماكيندر استبعدها من منطقته المركزية الموســعة للعام 1919؛ لأن حدود اليونان، كما يقول، تتكون في معظمهــا من المياه وبالتالي يمكن للقوة البحرية أن تصــل إليها. كانت اليونان أول مــن تحرر من بين هذه الدول من الســيطرة الألمانية خــلال الحرب العالمية الأولى. وهنــا، أيضا، أظهــر ماكيندر بُعد نظــره الثاقب؛ فكتب قائلا: «إن الاســتحواذ على اليونــان مــن قبل قوة مركزية كــبرى يرجّح أن يحمل معه الســيطرة على الجزيرة العالمية»[37]. والواقع أن هذا ما حدث تقريبا؛ فبعد قتال عنيف في حرب أهلية بين الميليشــيات الموالية للغرب وتلك الشــيوعية، صارت اليونان هي الوحيدة بين هذه الأراضي العازلة التي لم تســقط ضمن المدار السوفييتي بعد الحرب العالمية الثانية، وشــكلت لاحقا - مع تركيا - خــط القمة ridgeline الجنوبي الاســتراتيجي لحلف شــمال الأطلسي (الناتو). أما السوفييت، فكما حدث، فســيخسرون الحرب الباردة لاحقــا. ووفقا لماكيندر، فإن أوروبا والشرق الأوســط هي أكــثر تأثرا بكثير بالمنطقة المركزية من الهند والصين، اللتين يتسم مئات الملايين من سكانهما باكتفائهم الذاتي، وبالتالي يمكنهما التطوّر سلميا. أدى به هذا الاستنتاج إلى التنبؤ بأن المستقبل يكمن إلى حد كبير في «أراضي الرياح الموسمية في الهند والصين»[38].

لكــن لماذا تتســم المنطقة المركزية بمثــل هذه الأهمية في المقــام الأول؟ وهل السيطرة على الأراضي المنخفضة الواسعة والنجود الداخلية لأوراسيا أمر محوري حقا لأي قوة عالمية؟ نعم، فهي غنية بالنفط والمعادن والفلزات الاســتراتيجية، لكن هل

هذا يكفي حتى؟ تتسـم فكرة ماكينـدر بميكانيكيتها في حدها الأقصى. وعلى الرغم مـن ذلك، كنتيجة جزئية لذلك، فهي توفر وسـيلة لشرح الكثير عن الترتيب المكاني للدول والشـعوب في جميع أنحاء النصف الشرقي من العالم؛ فمن الأسـهل تفسـير العلاقـات بين إحدى نهايتي أوراسـيا والنهاية الأخرى باعتبـار أن النقطة المرجعية للقياس هي المركز، وليس أي حافة ساحلية. يمكن النظر إلى المنطقة المركزية بأفضل صورة باعتبارها سـجلا للقوة عبر الجزيرة العالمية، وليـس مُحدّدا لها. وقرب نهاية كتاب «المثل الديموقراطية والواقع»، افترض ماكيندر أنه إذا خرج الاتحاد السوفييتي مـن الحرب العالمية الأولى متفوقا على ألمانيا، «فلا بد من تصنيفه كأعظم قوة برية في العالم»، وذلك بسبب قدرته على حماية المنطقة المركزية[39].

وقد فعل الاتحاد السـوفييتي ذلـك في نهاية المطاف، وفعلهـا مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية. وبالتالي، فقد صار في مواجهة مباشرة، كما أشـار ماكيندر إلى أنه سيفعل، ضد القوة البحرية المتفوقة في العالم، أي الولايات المتحدة. كان الاتحاد السوفييتي يسعى إلى القوة البحرية - من خلال البحث عن منفذ إلى المياه الدافئة للمحيط الهندي - لدرجة أن السوفييت أقدموا في نهاية المطاف على غزو أفغانستان، وهـي جزء صغير من المنطقة المركزية التي اسـتعصى عليهم إحكام قبضتهم عليها. ومن خلال الوقوع في شرك الميليشـيات المتمردة في أفغانستان، انهارت إمبراطورية الكرملين بأسرها. أما الآن، فإن روسيا، التي تقلص حجمها كثيرا، تحاول إعادة توحيد هذه المنطقة المركزية نفسـها - روسيا البيضاء، وأوكرانيا ، والقوقاز، وآسيا الوسطى. ويشـكل هذا، في حد ذاته، بعد قرن كامل من طـرح ماكيندر لنظرياته، واحدا من أهم الأعمال الدرامية الجيوسياسية في عصرنا الحالي.

5

تشويه النازية

«حتى بعد الحرب، سيكون هناك القليل من الراحة من مأساة الوضع البشري»

المؤلف

باعتبارهم ورثة القوة البرية، كان الألمان والروس على مر القرون يفكرون من منظور الجغرافيا أكثر مما يفعل الأمريكان والبريطانيون، وهم ورثة القوة البحرية. وبالنسبة إلى الروس، الذين لم يغب عن أذهانهم الدمار الذي أحدثته القبيلة الذهبية Golden Horde من المغول، فإن الجغرافيا تعني ببساطة أنه من دون التوسع هناك خطر التعرض للغزو؛ فالأراضي الكافية غير كافية أبدا. إن حاجة روسيا إلى إمبراطورية من الدول التابعة في أوروبا الشرقية خلال الحرب الباردة، واستخدامها القوة العسكرية، وقلب أنظمة الحكم، وبنية طرق خطوط أنابيب الطاقة الخاصة بها كانت كلها مصممة لاستعادة جوارها القريب، وبالتالي فإن إعادة تشكيل الاتحاد السوفييتي السابق عمليا، هي عواقب انعدام

الأمن المتجذر. غير أن الألمان، على الأقل حتى منتصف القرن العشرين، كانوا أكثر وعيا منهم بالجغرافيا. لقد تغيّر شكل الأراضي الناطقة بالألمانية على خريطة أوروبا باستمرار منــذ العصور المظلمــة حتى العصر الحديــث، في حين لم توحد الدولــة الألمانية إلا في ستينيات القرن التاسع عشر تحت حكم أوتو فون بسمارك Bismarck.

تقــع ألمانيــا في القلب من أوروبــا، باعتبارها قــوة برية وبحرية على حد ســواء، وبالتالي تدرك تماما علاقاتها مع أوروبا الغربية البحرية والمنطقة المركزية لروسيا وشرق أوروبــا. وفي نهاية المطــاف كانت انتصارات ألمانيا على الدنمارك، والنمســا تحت حكم آل هابســبورغ، وفرنســا نتيجة لألمعية بســمارك الإســتراتيجية، والمترسخة في إحساسه الحاد بأهمية الجغرافيا، والذي تمثل في الواقع في الاعتراف بالحدود: وهي تلك المناطق الســلافية الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي والتي لا تجرؤ ألمانيا على الذهاب إليها. أدى تخلي ألمانيا عن حذر بسمارك إلى خسارتها في الحرب العالمية الأولى، ما منح الألمان شعورا أكثر حدة بأوجه ضعفهم – واحتمالاتهم - من الناحية الجغرافية.

باعتبار بلادهم متغيّرة تاريخيا على الخريطة، وواقعة بين البحر إلى الشــمال وجبال الألــب في الجنوب، ومع كون الســهول الواقعة إلى الغرب والــشرق مفتوحة أمام الغزو والتوسع على حد سواء، عاش الألمان الجغرافيا بالمعنى الحرفي للكلمة؛ فهم الذين وضعوا وطوّروا علــم الجغرافيا السياســية، أو Geopolitik باللغة الألمانيــة، الذي هو مفهوم المســاحة المحكومة سياســيا وعســكريا. وكانت هذه النظريات الجغرافية، التي تدين بالكثــير لماكيندر خلال النصف الأول من القرن العشرين، هي التي أدت إلى قيام الألمان بإبطال وتشويه ســمعة الجغرافيا والجغرافيا السياســية لأجيال من الألمان منذ الحرب العالمية الثانية. بدأ صعود وسقوط الجغرافيا السياسية، وهي عملية قام فيها مُنظِّر بعد الآخر بالاســتفادة من كتابات سلفه وإساءة اســتخدامها على حد سواء، التي بدأها عن قصد فريدريش راتزل Ratzel، وهو جغرافي وإثنوغرافي ألماني عاش في أواخر القرن التاسع عــشر، والذي صاغ فكرة المجال الحيــوي Lebensraum(*). وفي الحقيقة يدين المفهوم بأصلــه إلى مهاجر ألماني إلى أمريكا في أوائل القرن التاســع عشر، هو فريدريش ليســت List، وهو صحافي وأستاذ في العلوم السياسية، ومُضارب في مجال الأعمال، وصديق لهنري

(*) «المجــال الحيــوي» هو الترجمــة الحرفية للكلمة الألمانية، التي تعني التوســع الجغــرافي للإمبراطورية الألمانية وشعبها بدوافع أيديولوجية. [المحرر].

كلاي Clay، الذي استلهم مبدأ مونرو Monroe Doctrine بفكرته المتمثلة في منطقة جغرافية واسعة وذات سيادة من الناحية العملية. أما بالنسبة إلى راتزِل، فقد تأثر كثيرا بدوره بكتابات تشارلز داروين Darwin، وبالتالي وضع مفهوما للجغرافيا يتسم بكونه عضويا وبيولوجيا إلى حد ما، والذي تتطور فيه الحدود باستمرار وفقا لحجم وتركيبة المجموعات البشرية في المناطق المجاورة. وفي حين ننظر إلى الحدود باعتبارها ساكنة، أو كتمثيل متجسد للديمومة، والشرعية، والاستقرار، فلم يرَ راتزِل سوى التوسّع والانكماش التدريجي، وعدم الثبات في شؤون الأمم. وبالنسبة إليه كانت الخريطة تتنفس كأنها كائن حي، ومن هنا جاءت فكرة الحالة العضوية - البيولوجية التي تمت صياغة توسيع نطاقها كقانون طبيعي.

وصاغ أحد طلاب راتزِل، وهو السويدي رودولف كيلين Kjellén، الذي عمل باحثا في العلوم السياسية في جامعتي أوبسالا وغوتبورغ، مصطلح «الجغرافيا السياسية». كان كيلين، باعتباره قوميا سويديا متحمسا، يخشى سياسة التوسع الروسية سعيا منها إلى الوصول إلى المياه الدافئة نسبيا إلى بحر البلطيق؛ ومن ثم فقد رغب في انتهاج السويد وفنلندا سياسة توسعية لمواجهة المكائد الروسية. وفي حين وجد كيلين دعما لآرائه بين أفراد الطبقتين الأرستقراطية والوسطى العليا، الذين استشعروا الحنين إلى عظمة السويد الماضية تحت حكم ملوك مثل غوستافوس أدولفوس Gustavus Adolfus وتشارلز الثاني عشر Charles XII، ففي نهاية المطاف لم تلق آراؤه سوى دعم ضئيل من عموم الجمهور.

إن الشهية لاستعادة الحيازات السابقة للقوى العظمى في شبه جزيرة إسكندنافيا، حتى بحلول أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كانت بمنزلة ماض بعيد. نقل كيلين كل آماله إلى «ألمانيا كبرى» والتي تقف في مواجهة روسيا وإنجلترا اللتين كان يكرههما على وجه الخصوص.

إن إمبراطورية كيلين الألمانية المستقبلية، كما صنّفها كذلك، شملت كامل أراضي أوروبا الوسطى والشرقية، وكذلك موانئ القنال بطول الساحل الفرنسي، ومقاطعات البلطيق الروسية، وأوكرانيا، وآسيا الصغرى، وبلاد ما بين النهرين (والتي سيجري ربطها ببرلين بواسطة خطوط هائلة للسكك الحديد). ومن خلال تطبيق أفكار راتزِل صنف كيلين المجتمعات البشرية من الناحيتين العرقية والبيولوجية، كما تصور الدولة من

حيث «شعبها» Volk، الذي - إذا كان نشيطا وديناميكيا بما فيه الكفاية - فسيحتاج إلى مقدار كبير بصفة خاصة من المجال الحيوي. إن الفصاحة والتبجّح أنفسهما الساكنين فكر راتزِل وكيلين هما ما استخدم جيلا من القتلة اللاحقين لتبرير أفعالهم. تتسم الأفكار بأهميتها، سواء كانت خيّرة أو شريرة، كما أن الأفكار الضبابية قد تكون خطيرة بصفة خاصة. وفي حين أن الجغرافيا القويمة تبين لنا ما سنؤول إليه في مواجهة التحديات التي تحتنكنا في جميع أنحاء العالم، فإن آراء راتزِل وكيلين تمثل جغرافيا غير منطقية تقضي على الفرد وتستبدل به حشدا عنصريا هائلا.

لا يمثل هذا كله أكثر من مقدمة لحياة كارل هاوسهوفر Haushofer، وهو منظّر الجغرافيا السياسية الرئيسي للنازية والمعجب المخلص بماكيندر. إن التحريف المأساوي لأكار ماكيندر من قبل هاوسهوفر، وكذلك الخطر الذي شكلته الجغرافيا السياسية النازية، مذكوران بفصاحة في كتاب ظل منسيا إلى حد كبير لكنه يعد من الأعمال الكلاسيكية في العلوم السياسية، وهو بعنوان «الجغرافيا السياسية: الكفاح من أجل المساحة والقوة» لمؤلفه روبرت شتراوس-هوبي Strausz-Hupé، والمنشور في العام 1942.

كان شتراوس - هوبي، وهو مهاجر نمساوي إلى الولايات المتحدة، عضوا في هيئة التدريس بجامعة بنسلفانيا، وسفيرا للولايات المتحدة في أربعة بلدان (بما فيها تركيا) خلال سنوات الحرب الباردة. وفي العام 1955 في فيلادلفيا أسس معهد أبحاث السياسة الخارجية، الذي عملت معه على نحو غير متفرغ طوال عقدين من الزمن. إن كتاب شتراوس - هوبي، الذي ألّفه قبل أن يتحول المد لمصلحة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، كان محاولة واضحة ليس فقط لشرح خطر الجغرافيا السياسية النازية لمواطني البلد الذي صار وطنا له، ولكن لشرح ماهية الجغرافيا السياسية وسبب أهميتها، بحيث يمكن لقوى الخير أن تستفيد منها بطريقة تختلف كثيرا عما كان يفعل النازيون. وبالتالي، فقد عمل شتراوس - هوبي على إنقاذ سمعة ماكيندر وسمعة التخصص العلمي في حد ذاته، في أثناء تأدية عمل من أعمال الفاعلية الفردية individual agency من خلال القيام بواجبه الفكري لكسب الحرب.

ولد اللواء الأستاذ الدكتور كارل هاوسهوفر في ميونخ في العام 1869. كان كل من جده، وعمه، ووالده من الكتّاب الذين تناولوا رسم الخرائط والسفر، وبالتالي كان خط حياته مرسوما. التحق هاوسهوفر بالجيش الباڤاري، وفي العام 1909 عُيّن مدربا

للمدفعيــة في الجيــش الياباني. صار الرجل مفتونا بالنهضة العســكرية في اليابان، التي دعــا إلى تحالفها مع ألمانيا. حارب هاوســهوفر في الحرب العالميــة الأولى باعتباره قائد لــواء، وكان مســاعده هو الضابط النــازي رودولف هيس Hess، الذي ســيقوم لاحقا بإفــراد العديد من الكتب له. وبعد الحرب، عُيِّن هاوســهوفر رئيســا لقســم الجغرافيا والعلوم العســكرية في جامعــة ميونخ، حيث تبعه هيس كتلميــذ. وعن طريق هيس التقى هاوســهوفر بـ «المهيِّج الصاعد» أدولف هتلر Hitler، الذي ســيزوره هاوسهوفر لتزويده ببعض الملخصات الأكاديمية حول الجغرافيا السياســية عندما كان هتلر سجينا في قلعة لاندسبرغ، في أعقاب فشل انقلاب قاعة الجعة في العام 1923. ألف هتلر كتابه المعنــون «كفاحي» Mein Kampf في ذلك الوقت، وباعتبار أنه لم يُكمل تعليمه، فقد احتاج، على الرغم من بديهيته، إلى معرفة مزيد عن العالم الحقيقي. وهنا جاء دور هذا الأســتاذ الجامعي الذي يمكن أن يملأ بعض الثغــرات في معارفه. من المحتمل أن يكون الفصل الرابع من كتاب «كفاحي»، الذي يحدد السياسة الخارجية للحزب النازي، والمثال النازي للمجال الحيوي، قد تأثر بأفكار هاوسهوفر، الذي تأثر بدوره، من بين آخرين، بكل من راتزِل، وكيلين، وماكيندر على وجه الخصوص. كتب ماكيندر أن تاريخ العالم قد تشكّل دائمــا بفعل الاندفاعات الكبرى نحو الخارج من قبل الشــعوب غير الســاحلية الموجودة بالقرب من أوروبا الشرقية والأراضي المركزية لأوراسيا[1].

يصطحبنا شــتراوس - هوبي في رحلــة بطول الخط الفكري الذي صار هاوســهوفر عبره مفتونا بأفكار معاصره ماكيندر. وعلى الرغم من كونه مهووســا بالقوة البرية، فإن ماكيندر لم يســتخف أبدا في الواقع بأهمية القوة البحرية. لكنه كان متشــائما بشــأن مقدرة القوة البحرية البريطانية على منع القوة البرية الألمانية من الإغارة على المنطقة المركزية. وأنه بمجرد اســتيلائها على الأراضي المركزية، فإن ألمانيا ســتتمكن من بناء قوة بحرية كبيرة لكي تســاعدها في احتلال الجزيرة العالمية. أوضح ماكيندر أنه خلال القرن العشريــن، أكثر من أي وقت مضى، ســتحتاج القوة البحرية إلى وصول أوســع وأعمق إلى اليابســة للاســتفادة من عــصر التصنيع. يعني عــصر التصنيع عالمــا خاصا بالدول الكبرى، حيث القوي يأكل الضعيف. اعتمد هاوســهوفر نظرية ماكيندر هذه «لعَكْس وجهــة النظر الألمانية»، كما كتب شــتراوس - هوبي، «وخلص إلى أن المســار الألماني إلى مصاف القوى العالمية يقع بطول الخطوط التي ظلت تُرعب الإنجليز دوما، أي توحيد

«المناطق الكبرى» الألمانية والروسية. بيد أن هاوسهوفر، على حد تعبير شتراوس - هوبي، يصبح مبهما على نحو إيجابي، وباطنيا mystical، وغامضا عندما يصف الأراضي المركزية لماكيندر؛ فهي «مهد فاتحي العالم» و«قلعة عملاقة تمتد من نهر إلبه إلى نهر آمور»، أي من وسط ألمانيا إلى منشوريا والشرق الأقصى الروسي، حيث يمكن لألمانيا أن تسحب الصناعات الحربية الحيوية إلى أعماقه، في حين تستطيع جيوشها وبحريتها أن تضرب إلى الخارج في جميع الاتجاهات[2].

وفي حين أن ماكيندر، كونه متأثرا بالولسونية وبالحاجة إلى الحفاظ على توازن القوى في أوراسيا، أوصى في العام 1919 بإنشاء حزام من الدول المستقلة في أوروبا الشرقية، فإن هاوسهوفر، وعن طريق قَلْب فرضية ماكيندر، قد دعا بعد بضع سنوات إلى «انقراض تلك الدول». ذكر شتراوس - هوبي أن هاوسهوفر قد وصفها بأنها «كسرات من الدول... شظايا»، والتي لا يفكر سكانها إلا بمفهوم «الحيز الضيق»، الأمر الذي يعني بالنسبة إلى هاوسهوفر، وكما أوضح شتراوس - هوبي «علامة لا لبس فيها على الاضمحلال».

ويستطرد شتراوس - هوبي، فيشرح« المنطق الأنيق» لهاوسهوفر حول انحلال الإمبراطورية البريطانية والحاجة إلى تفتيت الاتحاد السوفييتي إلى الأجزاء العرقية المكوّنة له، التي ستعتمد جميعها على ألمانيا الكبرى، التي يرى هاوسهوفر أنها الدولة الوحيدة التي يحق لها تقرير مصيرها الوطني.

ووفق تعبير هاوسهوفر نفسه، فإن «ثلث الشعب الألماني يعيش [بالفعل] تحت حكم أجنبي خارج حدود الرايخ Reich الألماني». ويحذرنا شتراوس - هوبي من أن الجغرافيا السياسية - وفق المنظور الألماني - هي عالم من «الحركات البهلوانية على أرجوحة الأيديولوجية»، والتي لها استنتاجات «صارخة البساطة». يفترض النظام العالمي الجديد الألماني وجود شرق آسيا الكبرى تحت الهيمنة اليابانية، و«عموم أمريكا« التي تهيمن عليها الولايات المتحدة، والأراضي المركزية لأوراسيا التي يهيمن عليها الألمان، مع إقليم فرعي يضم «البحر المتوسط وشمال أفريقيا والذي يقع تحت السيادة الخفية لإيطاليا». لكن بالنسبة إلى هاوسهوفر ليست هذه سوى خطوة وسيطة: فوفقا لماكيندر فإن المنطقة المركزية تسيطر على الجزيرة العالمية، وبالتالي على العالم[3].

يخبرنا شتراوس - هوبي بأن مفهوم ماكيندر عن المنطقة المركزية «متأثر بوجهة النظر الشخصية المحضة لرجل إنجليزي من العصر الإدواردي». وطوال الجيل الذي

عـاش فيه ماكيندر كانت روسـيا خصما لبريطانيا العظمى طوال قـرن تقريبا، وبالتالي فقـد عـاش السياسـيون البريطانيون مـع الخوف من روسـيا التي قد تسـيطر على مضيـق الدردنيل، وتلتهم الإمبراطورية العثمانية، ومـن ثم تهاجم الهند. وبالتالي، فقد ركّـز ماكينـدر اهتمامه على بناء طبقة عازلة من الدول المسـتقلة بين روسـيا وأوروبا البحرية، حتى برغم تعريفه الأراضي المركزية داخل روسـيا نفسها على أنها أداة بصرية للإسـتراتيجية. وفي هذا السـياق كتب شـتراوس - هوبي أن «رؤية ماكينـدر لم تتوافق جيدا إلا مع الفلسـفة المريضة لقوة عالمية أو انهيار مفاجئ، وهو ما يفسر الكثير عن الباثولوجيا الوطنية الألمانية. يوجد في مبادئ ماكيندر النوع نفسه من الغائية finality التـي تتوق إليها العقلية الفاغنرية». وبرغم ذلك، فإن شـتراوس - هوبي يقوم في نهاية المطاف بإنقاذ سمعة ماكيندر بقوله:

> إن كتـاب ماكيندر - الذي ألّفـه في وقت لم تكن فيه الجيوش قد عادت بعد من سـاحات المعارك - يستحق التبجيل بسـبب انعزاليته الباردة، ولكون وجهات النظر الأوسـع للتاريخ لم تغب عن ناظريه قط. إن إيمانه بالفرد هو ما كان يفتقر إليه معجبه الألماني على نحو يرثى له. وعلى رغم أن هاوسـهوفر يحب التأكيد على الجزء الخاص بالبطولة في صياغة التاريخ، فإن التضحية الجماعية في ساحة المعركة، وليس الكفاحات المجهولة للرجال والنساء العاديين... هو ما كان يدور في ذهنه[4].

آمن شـتراوس - هوبي وماكيندر - على حد سـواء - بالفعالية الإنسـانية، وبحرمة الفـرد، كما يقولان، في حـين لم يكن رواد الجغرافيا السياسـية Geopolitikers الألمان يؤمنون بذلك.

وفي حين أن الأراضي المركزية، من منظور ماكيندر، هي وسيلة لافتة لشرح الجغرافيا السياسـية، فهي تصبح بين يدي هاوسهوفر أيديولوجية مخبول وحاملة على حد سواء. ومع ذلك، فإن شتراوس - هوبي يأخذها على محمل الجد تماما، وينصح زملاءه الأمريكيين بأن يحذوا حذوه: كتب شـتراوس - هوبي أن هاوسهوفر «نقل إلى النازيين شيئا فشلت في توفيره التأملات الضبابية لأدولف هتلر – وهو المذهب المتماسك للإمبراطورية». وفي حين رأى ماكيندر المسـتقبل من حيث توازن القوى من شـأنه أن يصون الحرية، كان هاوسـهوفر عازما على الإطاحة بميزان القوى تماما: وبالتالي حرَّف الجغرافيا السياسـية. ويعني ذلك أنه كما حرَّف هاوسـهوفر أفكار ماكيندر تمامـا، حرَّف كذلك أفكار اللورد

جورج ناثانيــل كورزون Curzon. كان كورزون قد ألقى محاضرة في العام 1907 حول «الحدود». قام هاوسهوفر، مســتلهما كورزون، بتأليف كتاب بعنوان «الحدود»، الذي كان يتعلق، في الواقع، بكيفية تحطيمها. ووفقا لهاوســهوفر، فإن الأمم الآفلة فقط هي التي تســعى إلى امتلاك حدود مســتقرة، وأن تلك المتدهورة وحدها تسعى إلى حماية حدودها بتحصينات دائمة: فالحدود هي كائنات حية. أما الأمم القوية، فهي تقوم ببناء الطرق بدلا من ذلك. لا تمثل الحدود إلا عوائق مؤقتة للأمم السائدة. ومن دون ريب، فما الجغرافيا السياسية الألمانية إلا حرب أبدية على «المساحة»، وبالتالي فهي أقرب إلى العدمية. وهنا يضيف شتراوس - هوبي ما يلي:

> وعــلى أي حــال، ينبغــي ألا نفــترض أن هذا الاســتخدام المنحــرف، برغم كونه مدمرا للســلام في العــالم، يُبطل بالضرورة جميع النظريات الجيوسياســية؛ فالأنثروبولوجيــا anthropology لا تقــل باعتبارهــا علــما عــن كونها وســيلة استُخدمت لدعم العنصرية[5].

لكــن هاوســهوفر، حتى ضمن منظــوره العنيف للعالم، كان لديــه عدد قليل من المبادئ الثابتة. وفي عيد ميلاد هتلر الخمسين، في العام 1939، وصف الفوهرر Führer بأنه «رجل دولة» يجمع في شــخصه بين «دم كلاوزفيتز، ومســاحة وتــراب راتزِل»[6]. اســتقبل هاوسهوفر المعاهدة الروسية - الألمانية لعام 1939 بحماس في مقالة افتتاحية له، مشددا على ضرورة قيام ألمانيا بضم قواتها القوة البرية إلى تلك الروسية. ومع ذلك، بعد غزو هتلر لروسيا في العام1941، كتب افتتاحية أخرى، احتفى فيها بالغزو باعتباره وسيلة للاستيلاء على الأراضي المركزية. وبطبيعة الحال لم يكن أحد يجرؤ على انتقاد قرار هتلر. هناك حجة قوية لإثبات أن الروابط المحددة بين هاوسهوفر وهتلر كانت مبالغا فيها، حتى برغم أن هاوســهوفر - مع ذلك - صار ممثلا نموذجيا للرؤية الإســتراتيجية النازية[7]. وعلى أي حال، فعندما تغير ســير الحرب إلى الأســوأ، فقد هاوسهوفر حظوته لدى الفوهرر، فسُــجن في معسكر داخاو Dachau للاعتقال في العام 1944. وفي العام نفســه، فإن نجل هاوسهوفر، ألبرخت، وهو متخصص بدوره في الجغرافيا السياسية، قد أعدم لمشاركته في مؤامرة عسكرية ضد هتلر. وقد حدث هذا بعد أن سُجن هاوسهوفر وأسرتــه. ثم إن هناك حقيقة كون زوجة هاوســهوفر نصف يهوديــة: حظي الزوجان بالحماية من القوانين العنصرية النازية بفضل هيس، الذي كان قد ســجن في بريطانيا

في العام 1941، بعد أن سافر بمفرده جوا إلى هناك للتفاوض على سلام منفصل. لا بد أن التناقضات في حياة هاوسهوفر صارت أكثر من أن تُحتمل، إذ صار تدريجيا على وعي بالمذابح والدمار الهائل الذي تسببه حرب عالمية أدى دورا في إشعالها. تمثل حياة هاوسهوفر درسا إرشاديا حول الأخطار المتأصلة لدى المفكرين الذين يسعون باستماتة إلى الحصول على الحظوة لدى من هم في السلطة. وبعد فترة قصيرة من هزيمة ألمانيا وتحقيق الحلفاء معه بتهمة ارتكاب جرائم حرب، انتحر كل من هاوسهوفر وزوجته.

لم تكن أعمال شتراوس - هوبي مصمّمة لمجرد تشويه سمعة هاوسهوفر وإنقاذ سمعة ماكيندر، لكن لمناشدة الأميركيين أن يأخذوا الجغرافيا السياسية على محمل الجد، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فسيفعل ذلك البعض الآخر بدافع من سوء النية، وسيتمكنون خلال تلك العملية من قَهر الولايات المتحدة. وكما يكتب في نهاية كتابه:

> إن آلة الحرب النازية هي أداة الغزو؛ أما الجغرافيا السياسية فهي الخطة الرئيسية المصممة لتوجيه أولئك الذين يستخدمون الأداة إلى غزو مَن وكيف. لقد تأخر الوقت، لكن الأوان لم يفت بعد للاستفادة من دروس الجغرافيا السياسية[8].

ولأن شتراوس - هوبي كان واقعيا قلبا وقالبا، فإن فضح بعض الأسس الفكرية لبرنامج الغزو الخاص بدولة استبدادية لم يكن كافيا بالنسبة إليه، إضافة إلى كونه عملا غاية في السهولة. كان يعرف الحقيقة المزعجة المتمثلة في أنه مثلما كان منطق ماكيندر معيبا في العديد من النقاط الحاسمة، فإن منطق هاوسهوفر، برغم كونه منحرفا، يمتلك أساسا من الواقع. لذلك تمثّل هدف شتراوس - هوبي من ذلك في تشبيع الأمريكيين - الذين يعيشون في عزلة رائعة بحكم كون بلادهم محدودة بمحيطين اثنين - بمزيد من التقدير للتخصص الجغرافي، بحيث يمكن للولايات المتحدة أن تضطلع بدورها ما بعد الحرب بصفتها عامل استقرار وحافظة لتوازن القوى بين أوروبا وآسيا، والذي حاول النازيون قَلبَه، بمساعدة هاوسهوفر.

أما بالنسبة إلى فرضية الأراضي المركزية نفسها، فإن شتراوس - هوبي، الذي كان متشككا فيها للغاية بادئ ذي بدء، يقول إن القوة الجوية - مثلها مثل تلك التجارية والعسكرية - قد تجعلها بلا معنى. ومع ذلك فهو يعتقد أن تكنولوجيا عصر التصنيع قد زوّدت الدول الكبرى بأفضلية؛ فقد تمت الاستفادة من المصانع الكبيرة، وخطوط السكك الحديد، والدبابات وحاملات الطائرات، من قبل الدول التي تمتلك عمقا من

حيث المسافة والأرض. «يبدو أن التاريخ في عصرنا هذا يعكس، بشؤم خبيث، التوجه نحو الإمبراطوريات والدول العظمى التي تنبأ بها أتباع راتزل، وشبنغلر، وماكندر»[9]. وبطبيعة الحال، فإن عصر ما بعد التصنيع، بتركيزه على صغر الحجم - الرقائق المكروية microchips، والهواتف النقالة، والمتفجرات البلاستيكية - قد مكّن ليس الدول الكبرى وحدها، لكن الأفراد والجماعات عديمي الجنسية، أيضا، ما أضاف مزيدا من التعقيد والتوتر إلى الجغرافيا السياسية. لكن شتراوس - هوبي قد استشعر بحدسه بعض هذا في مناقشته للحدود، الأمر الذي تقبّله باعتباره ناتجا عن إساءة هاوسهوفر لاستخدام أفكار كورزون حول هذا الموضوع.

وبرغم عدمية هاوسهوفر، فإن شتراوس - هوبي لم يصب بالتهديد لدرجة أن يفضحه بغير تحفّظ. إن الحقيقة المحضة للحدود تُظهر عالما يُعاني من الانقسامات السياسية والعسكرية. وكما كتب شتراوس - هوبي، فإن «الدولة ذات السيادة هي، على الأقل من حيث جذورها، قوة منظمة. يبدأ تاريخها في غمار الحرب، وبالتالي فإن حدودها - سواء كانت »جيدة« أو»سيئة« - هي حدود إستراتيجية».

وهو يختار عن قصد اقتباسا من كورزون، الذي لاحظ فيه الأخير أن الحروب الحدودية ستزداد في العدد والكثافة في حين «ينكمش العالم الصالح للسكنى» في الوقت الذي «تتصادم فيه طموحات دولة مع مصالح دولة أخرى على نحو حاد ولا يقبل المصالحة»[10]. وبعبارة أخرى، لم يكن هاوسهوفر مخطئا تماما في افتراضه وقوع صراع سرمدي. حتى بعد الحرب، سيكون هناك القليل من الراحة من مأساة الوضع البشري. إن اكتظاظ كوكب الأرض بسكانه خلال العقود الأخيرة، مقرونا بتطور التكنولوجيا العسكرية، الذي انهار فيه الوقت والمسافة، يعني أنه ستكون هناك أزمة في «المساحة» على خريطة العالم[11]. وتنبع أزمة المساحة هذه من فكرة ماكيندر عن «نظام مغلق». أما الآن، فدعونا نلاحظ أنه مما يضيف إلحاحا إلى دعوة شتراوس - هوبي إلى أن أمريكا، التي تمثل بالنسبة إليه في نهاية المطاف مصدرا للخير في عالم القوى الكبرى، لا يمكنها أن تتحمل أبدا عواقب الانسحاب من الجغرافيا السياسية. ولأن الجغرافيا السياسية والتنافس على «المساحة» سرمديان، لذا يجب على الدول الليبرالية أن تُعد أنفسها للقيام بهذه المهمة خشية أن تترك الساحة نهبا لأمثال هاوسهوفر.

6

فرضية الأرض المحيطة

لم يكن روبرت شــتراوس - هوبي الأمريكي المتجنــس الوحيد الذي حــذّر مواطنيه خلال الحرب بشأن ضرورة إنقاذ الجغرافيا السياسية من براثن النازية، ومن ثم اســتعادة سمعتها، وتوظيفهــا لمصلحــة الولايات المتحــدة. ولد نيكــولاس ج. ســبيكمان Spykman في العام 1893 في أمســتردام. وخلال الحــرب العالمية الأولى، عندمــا كانت هولندا محايدة، ســافر على نطاق واســع كمراســل أجنبي في الشرق الأدنى (1913-1919) والــشرق الأقــصى (1919-1920). وبعــد الحــرب، حصــل على درجــة البكالوريــوس والدراســات العليا من جامعــة كاليفورنيا في بيركلي، حيث كان يقوم بالتدريــس أيضا، وبعد ذلك انتقل إلى جامعة ييل، حيث أســس معهدا للدراســات الدولية

«رأى ســبيكمان أن الأرض المحيطة تمثل مفتاح القــوة العالمية، وليس المنطقة المركزية لماكيندر»

المؤلف

في العـام 1935[1]. عمل على تشريب طلابه بالوعي الجغرافيا بوصفه الوسـيلة الرئيسـية لتقييم المخاطر والفـرص التي يواجهها وطنه الجديـد في العالم. توفي سبيكمان بمرض السرطان في العام 1943 عن عمر يناهز التاسعة والأربعين، لكن ليس قبل أن يقوم في السـنة السـابقة لوفاته بنشر كتابه المعنون «اسـتراتيجية أمريكا في السياسة العالمية: الولايات المتحدة وميزان القوى»، وهو الكتاب الذي يزودنا - حتى أكثر من كتابات ماكيندر - بإطار لفهم عالم ما بعد الحرب الباردة. كانت كتابات سـبيكمان، الذي عـاش في وقت لاحق لماكينـدر، تمثل تحديثات لأفكار هذا الأخير بصورة ما.

في أسـلوب شـتراوس - هـوبي، ومورغنثاو، وهـنري كيسـنغر، وغيرهم من المهاجريـن الأوروبيين في عقود منتصف القـرن العشرين، الذين جلبوا الواقعية إلى البلد الذي منحهم ملجأ لكن الذي شـعروا بأنه يتسـم بالسـذاجة على نحو خطير، فإن سـبيكمان لم يكن يمتلك أيا من المثالية والعاطفية التي كانت مميزة لأغلبية المفكرين الأمريكيين. وبالنسـبة إليه، فإن الجغرافيا هي كل شيء. كانت الولايات المتحدة قوة عظمى ليس بسـبب أفكارهـا، بل لأن وصولها المباشر إلى المحيطـين الأطلسي والهـادي جعلها «الدولة الأكثر تفضيـلا في العالم من منظور الموقع الجغرافي»[2]. ومع سـبيكمان، لا توجد راحة من قسوة الخريطة والصراع المترتب على ذلك من أجل المسـاحة. وقد كتب قائلا: «إن المجتمع الدولي هو... مجتمع من دون سـلطة مركزية للحفاظ على القانون والنظام». بل إنه في حالة مـن الفوضى، بعبارة أخرى. وبالتالي، يجب على جميع الدول أن تكافح من أجل الحفـاظ على ذاتها. يمكـن لرجال الدولة أن يسـعوا جاهدين مـن أجل القيم العالميـة للعدالة والإنصاف، والتسـامح، لكن فقط إلى الحد الذي لا يتداخل مع السـعي مـن أجل القوة، الذي له هو مرادف للبقاء عـلى قيد الحياة. «لا يكون السعي إلى القوة من أجل تحقيق القيم الأخلاقية، لكن القيم الأخلاقية تستخدم لتسـهيل امتـلاك القوة». من الممكـن تقريبا أن تصدر هذه العبـارة عن كارل هاوسهوفر، كما أن هناك الكثير من المآسي في سبيل تحقيقها. لكن هذا يجب ألا يعمينا عن الفرق الجوهري بين الرجلين. كان سـبيكمان، مثل ماكيندر وشتراوس - هـوبي، يؤمن بـ «الأمان» الذي تمثله «القـوة المتوازنة»، وليس بالهيمنة. ومن

هــذا الاختلاف، تنبــع كل الاختلافات الأخرى. وفيما يتعلق بـــ «توازن القوى»، كان ســبيكمان حريصا على القول بأنــه يتوافق مع «قانــون الطبيعة والأخلاق المسيحية» لأنه يحافظ على السلام[3].

وفي حين يضيق شــتراوس - هوبي تركيزه على النظرية الجيوسياســية النازية وعلى الدفاع عن ماكيندر في أثناء ذلك، فإن سبيكمان يوسع نطاق تركيزه ليشمل خريطة العالم من أجل تقييم احتمالات الهيمنة النازية، وكذلك تحديد الخطوط العريضــة لترتيبات القوة التي تميز عالم ما بعد الحرب الذي لن يعيش ليراه. وفي ســبيل ذلك، بدأ بشرح جغرافي لكيف أصبحت الولايات المتحدة قوة عظمى. إن «التاريخ»، كما يقول سبيكمان، «يُصنع في خطوط العرض المعتدلة»، حيث يسود مناخ معتدل، «ولأن القليل جدا من مســاحة اليابســة في نصــف الكرة الأرضي الجنوبي يقع في هذه المنطقة، فإن صناعة التاريخ تجري في خطوط العرض المعتدلة من نصف الكرة الأرضية الشــمالي». ليس الأمر أن بلدان أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى والمخروط الجنوبي لأمريكا الجنوبية لا تتســم بالأهمية، لأنها صارت أكثر أهميــة بكثير في أيامنا هذه مما كانت عليه في الماضي بســبب تكنولوجيا النقل والاتصالات التي أتاحت لكل مكان فرصة التأثير في الآخر؛ وبدلا من ذلك، يتمثل الأمــر في أن تأثيرها لايــزال أقل في جميع أنحاء العالم مــن تأثير الأماكن الواقعة في النصف الشــمالي من الكرة الأرضية، خاصة في المنطقة المعتدلة الشــمالية. في هذا الســياق، يشرح جيمس فيرغريف Fairgrieve، وهو شبه معاصر لماكيندر، أنه نظــرا إلى افتقارهم إلى الطاقة الشمســية بالمقارنة بالمناطــق المدارية، فقد تســتوجب على البشر في المناطق المعتدلة أن يعملــوا بجد للتعامل مع تباينات مناخيــة أكبر، ومع الاختلافات في المواســم التي تــؤدي إلى أوقات محددة للبَذْر والحصــاد: وهكذا، ففي المناطق المعتدلة تمكــن البشر «من التقدم من قوة إلى قــوة». وفي حين أن القطب الجنوبي يتضمن قارة كبيرة تحيط بها حلقة متواصلة من المحيط، فحول القطب الشــمالي يوجد محيط تحيط به حلقة شبه متواصلة من الأرض - وهي الأرض التي كان البشر فيها أكثر إنتاجية. كان شتراوس - هوبي أكــثر تحديدا في هذا الصــدد، فيخبرنا بأن التاريخ يُصنــع «ما بين دائرتي العرض عشرين وســتين درجة شــمالا». وتشــمل هذه المنطقة أمريكا الشمالية وأوروبا

والشرق الأوسط الكبير وشمال أفريقيا، ومعظم روسيا، والصين، والجزء الأكبر من الهند. ويلاحظ أن «زنار البرية» wilderness girdle الذي اقترحه ماكيندر يتوافق معه تقريبا، لأنه يتضمن المنطقة المركزية والمناطق التخومية المجاورة لها في أوراسيا. وتتمثل الحقيقة المحورية حول الولايات المتحدة، وفقا لهذا الخط من التفكير، في أنه - كونها تقع تحت القطب الشمالي الكندي - فهي تحتل آخر قطعة أرض كبيرة وخالية نسبيا من المنطقة المعتدلة، والتي لم تستوطنها الحضارة المدنية حتى عصر التنوير الأوروبي. فضلا عن ذلك، فقد ازدهرت أمريكا في البداية، كما كتب سبيكمان، لأن الساحل الشرقي، بما يحتويه من مصبات الأنهار والتضاريس المسننة، قد وفر «مواقع مواتية لا تُعد ولا تحصى لإنشاء الموانئ»[4]. وفي نهاية المطاف، ومن هذا المنظور، كانت الجغرافيا هي الداعم المبكر للحرية الأمريكية.

تحتل أمريكا مكانتها كقوة عظمى لأنها القطب المهيمن في نصف الكرة الأرضية الغربي، والتي تمتلك، كما يقول سبيكمان، «من القوة ما يكفي لادخاره للأنشطة التي تجري خارج العالم الجديد»، بحيث يمكنها أن تؤثر في توازن القوى في نصف العالم الشرقي[5]. ليس هذا عملا عاديا، كما أن الولايات المتحدة يجب ألا تنظر إليه باعتباره أمرا مفروغا منه، لأنه متجذر في خصوصيات جغرافية أمريكا اللاتينية. لا توجد دولة أخرى في العالم، حتى الصين أو روسيا، تتسم بأنها قوة مهيمنة بحجم نصف الكرة الأرضية. وفي معرض تفسير كيفية حدوث هذا، يجلب سبيكمان إلى مناقشة الجغرافيا السياسية أمريكا الجنوبية - التي تجاهلها ماكيندر إلى حد كبير. وبسبب تركيز ماكيندر على أوراسيا، خصوصا المنطقة المركزية منها، تتسم كتابات ماكيندر بأهميتها المحورية لفهم جغرافية الحرب الباردة؛ في حين يمتلك سبيكمان تصورا أكثر تكاملا للعالم بأسره، وبالتالي فهو أكثر أهمية من ماكيندر في عصر يمكن فيه لكل مكان أن يؤثر في كل مكان آخر.

يتمثل القلب الاستراتيجي والجغرافي للعالم الجديد فيما يسميه سبيكمان «البحر المتوسط الأمريكي»، أي منطقة الكاريبي الكبرى، بما في ذلك خليج المكسيك. ومثلما اكتسبت أثينا سيطرة فعالة على الأرخبيل اليوناني بسيطرتها على بحر إيجة، بينما سادت روما العالم الغربي عن طريق الهيمنة على البحر

المتوسط الأوروبي؛ فإن أمريكا، كما يوضح سبيكمان، قد صارت قوة عالمية عندما تمكنت، أخيرا، في الحرب الإسبانية - الأمريكية للعام 1898، أن تنتزع السيطرة من دون منازع على البحر المتوسط، أو منطقة البحر الكاريبي، من الدول الاستعمارية الأوروبية، مما سمح بإنشاء قناة بنما بعد فترة وجيزة. وكما يقول سبيكمان عن حوض البحر الكاريبي، فإنه «لا يمكن أن ينشأ تهديد خطير لمكانة الولايات المتحدة في المنطقة نفسها؛ فالجزر محدودة الحجم، كما أن تضاريس أمريكا الوسطى، المقاربة لتضاريس شبه جزيرة البلقان، تناسب وجود وحدات سياسية صغيرة. حتى البلدان الكبيرة الحجم، مثل المكسيك وكولومبيا وفنزويلا، فتحرمها التضاريس، والمناخ، وعدم توافر المواد الخام الاستراتيجية من أن تصبح قوى بحرية كبيرة». تستطيع بحرية الولايات المتحدة أن تفرض حصارا على الحدود الشرقية لمنطقة البحر الكاريبي ومن ثم عَزْل هذه الدول عن الأسواق العالمية، وبالتالي فهي في التحليل النهائي تعتمد على الولايات المتحدة. تتمثل قوة منطق سبيكمان، إضافة إلى غيره من المفكرين الذين أتناولهم في هذا الكتاب، في القدرة على الرؤية عبر صخب الأحداث الجارية، ومن ثم اكتشاف عن الحقائق الأساسية. وكما يقول، فإن الحقيقة الجغرافية الأساسية لنصف الكرة الأرضية الغربي هي أن التقسيم بداخلها ليس بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، بل بين المنطقة الشمالية من الغابة الاستوائية التي تهيمن عليها الأمازون والمنطقة الواقعة إلى الجنوب منها. ويترتب على ذلك أن كولومبيا وفنزويلا، وكذلك غيانا (Guianas)، على الرغم من أنها تقع على الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، فهي وظيفيا تشكل جزءا من أمريكا الشمالية والبحر المتوسط الأمريكي. يتمثل عالمها الجيوسياسي في منطقة الكاريبي، كما أنها لا ترتبط إلا قليلا نسبيا بالدول الواقعة جنوبي الغابة الأمازونية، على الرغم من أنها تتشارك القارة نفسها: فمثل البحر المتوسط الأوروبي، فإن البحر المتوسط الأمريكي لا يفرق بل يوحد. كما أن شمال أفريقيا تمثل جزءا من عالم البحر المتوسط، لكن الصحراء الكبرى تمنعها من أن تكون جزءا من أفريقيا الأصلية، فإن الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية جزء من العالم الكاريبي، والذي انفصل بسبب الجغرافيا عن أمريكا الجنوبية الأصلية. وكما يوضح سبيكمان:

> إن سلاسـل الجبـال التي تنحني شرقـا من جبال الإنديـز تفصل حوض الأمـازون عن واديي ماغدالينا وأورينوكو وتشـكل الحـدود الجنوبية لغيانا. وفيما وراء ذلك، تقع الغابة الهائلة التي لا يمكن اختراقها والغابات الاسـتوائية لـوادي الأمازون. يوفر النهـر وروافده نظاما ممتازا للاتصـال من الغرب إلى الشرق، لكنها لا توفر وسيلة انتقال للتحركات إلى الشمال والجنوب[6].

أمـا النصف الجنوبي مـن أمريكا الجنوبيـة، فتعمل الجغرافيـا على تهميش أهميته الجيوسياسية، كما يوضح سـبيكمان. إن الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية محشـور بـين المحيط الهادي وجبـال الإنديز، وهي أعلى سلسـلة جبال في العالم باستثناء سلسـلة جبال الهملايا، وكاراكورام Karakoram، والبامير Pamirs، التي تفصل الصين عن شـبه القارة الهندية. تتسـم الوديان التي تتخلل جبال الإنديز، عند مقارنتها بتلك التي تتخلل جبال الأبلاش Appalachians التي تمنح السـاحل الشرقي لأمريـكا وصولا إلى الغرب، بكونها ضيقة وقليلـة العدد. لا تصلح الأنهار للملاحـة، وبالتالي فإن بلدانا مثل شـيلي وبيرو، التي تبعد عن شرق آسـيا ثمانية آلاف ميل عبر المحيط الهادي، وعدة آلاف من الأميال عن أي من ساحلي الولايات المتحدة، تظل بعيدة عن القنوات العالمية الرئيسية للتواصل والهجرات التاريخية، وبالتالي لا يمكنها دعم قوات بحرية كبرى. فقط وسـط وجنوب شـيلي يقعان في المنطقة المعتدلة، وكما ورد عن هنري كيسـنغر أنه قال سـاخرا، فإن شـيلي تمثل ضربة خنجر في القارة القطبية الجنوبية. أما بالنسـبة إلى الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبيـة، فهـو، أيضا، ناءٍ ومعـزول. ولأن أمريكا الجنوبيـة لا تقع تحت أمريكا الشـمالية مبـاشرة، بل إلى الشرق منها، فـإن الأجزاء المأهولة من سـاحل أمريكا الجنوبية المطل عـلى المحيط الأطلسي، من ريو دي جانيرو إلى بوينس آيرس - إلى أقصى الجنوب، تحت منطقة الأمازون الكثيفة الأشجار - ليست أقرب إلى نيويورك منها إلى لشـبونة. وبسبب هيمنتها على البحر المتوسـط الأمريكي، وانفصالها عن قلب أمريكا الجنوبية بفعل مسـافة شاسعة وحزام واسع من الغابات الاستوائية، فليس أمام الولايات المتحدة سوى عدد قليل من المنافسين في نصف الكرة الأرضية الخاص بها. إن المخروط الجنوبي لأمريكا الجنوبية، كما كتب سـبيكمان، هو «جار قاري» أقل من كونه «إقليما خارجيا»[7].

لكن هناك جانبا سلبيا لجزء كبير من هذا الوضع: صحيح أن حوض الكاريبي يوحــد ولا يفرق، لذلــك فإن طريق تهريب الكوكايــين والماريغوانا من كولومبيا عبر أمريكا الوسطى والمكسيك إلى الولايات المتحدة يوضح هذا على نحو عملي. إن ما يســمى حروب المخدرات يمثل درســا بارزا في الجغرافيا، والذي يهدد الآن الولايــات المتحــدة في حديقتها الخلفيــة في النصف الغربي مــن الكرة الأرضية. وينطبق الشيء نفســه مع الراديكالية الشــعبوية المعادية لأمريكا لرجل فنزويلا القوي، هوغو شافيز Chávez، الذي ظل يمثل إهانة للمصالح الأمريكية في العالم ؛ ليس لمجرد أنه تحالف مع روســيا وإيران، بل لأنه تحالف مع روســيا وإيران مــن موقعه على حوض الكاريبي: فلو كان يوجــد تحت غابات الأمازون المطيرة في المخروط الجنوبي، لكان أقل تهديدا. أدت العولمة Globalization - أي عصر المعلومــات، وانهيار المســافة، وانفجار هجرة الأيدي العاملة من الدول الشــابة ديموغرافيــا إلى البلدان الشــائخة ديموغرافيا - إلى دفــع الولايات المتحدة لإقامة علاقة وثيقة بشــكل غير مريح مع أمريكا اللاتينية غير المســتقرة في جميع أنحاء منطقة الكاريبي. وفي حين كانت منطقة البحر الكاريبي سابقا مكانا تهيمن عليه البحرية الأمريكية، لكن المتصل من جميع الأوجه الأخرى عن التيارات الرئيسية في المجتمع الأمريكي، فهي الآن جزء لا يتجزأ من نســيج الحياة الأمريكية. تنبأت أفــكار ســبيكمان بهذه التطورات، عــلى الرغم من أنه، بطبيعــة الحال، لم يكن ليتوقع تفاصيلها.

ولأنــه كان يكتب في خضم الحرب العالمية الثانية مثل شــتراوس - هوبي، قبل تحول حظــوظ الحرب لمصلحة الحلفاء، كان التهديد الذي يشــكله النازيون على جميــع أنحاء العالم حاضرا في ذهن ســبيكمان بالدرجة الأولى. ونتيجة لذلك، فقد نظــر إلى انفصال الولايات المتحدة عن الجزء الجنوبي من أمريكا الجنوبية على أن لــه أهمية جغرافية كبيرة: فقد كان يمثل ميزة اســتراتيجية من حيث إن الولايات المتحدة لم تكن مضطرة إلى الهيمنة على المنطقة، بالطريقة نفســها التي اضطرت بهــا إلى الســيطرة على حوض البحــر الكاريبي؛ لكنــه كان يمثــل قابلية للتعرض للهجــوم vulnerability مــن حيث أن الولايات المتحــدة لا تمتلك ميزة جغرافية خاصــة في حــال تعرض المنطقة للتهديــد من قبل عدو من أوروبــا. أما المخروط

الجنوبي، من ريو دي جانيرو وإلى الجنوب- ما أسماه سبيكمان «المنطقة المتساوية البُعد» - فيضم مناطق القارة الزراعية الأكثر إنتاجية، وثلاثة أرباع سكان أمريكا الجنوبية، والمدن الرئيسية لاثنتين من أكثر جمهوريات أمريكا الجنوبية أهمية في ذلك الوقت، وهما البرازيل والأرجنتين. ومما يضيف حتى إلى عدم أهميتها الجغرافية مقارنة بأوراسيا، كان سبيكمان قلقا من تحول المخروط الجنوبي إلى جزء من استراتيجية التطويق لقوة معادية. وكما أن جغرافية الأمريكتين سمحت بظهور الولايات المتحدة كقوة مهيمنة في النصف الغربي من الكرة الأرضية، فإن تفكك الأمريكتين إلى شمال حر وجنوب يهيمن عليه محور ما ربما يكتب نهاية ذلك التفوق. وفي هذا السياق، كتب سبيكمان: «إن كثيرا من الانعزاليين قد قبلوا بسياسة الدفاع عن نصف الكرة الأرضية **hemisphere defense** لأنها تبدو وسيلة لتجنب الصراع مع ألمانيا، لكنهم أغفلوا حقيقة أنه حتى لو استطاعت الولايات المتحدة تجنب الحرب مع ألمانيا على أوروبا، فلم يكن في وسعها تجنب الصراع مع ألمانيا من أجل الهيمنة على أمريكا الجنوبية»[8].

وعلى الرغم من أن دول المحور قد انهزمت في نهاية المطاف، فإن إنذار سبيكمان مازال صالحا، بطريقة ما. حققت أوروبا، واليابان، والصين نجاحات عميقة للغاية في التجارة مع المنطقة التي أسماها سبيكمان بالمنطقة المتساوية البُعد، كما لم يكن هناك ما يضمن أن الولايات المتحدة ستظل القوة الخارجية المهيمنة في منطقة يقل حجم تبادلها التجاري مع الولايات المتحدة عن عشرين في المائة، وزمن الطيران من نيويورك إلى بوينس آيرس هو إحدى عشرة ساعة، وهو الوقت نفسه الذي يستغرقه الطيران من الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن هاجسه كان يتمثل في الانتصار في الحرب، فمن خلال تركيزه المحدد على الجغرافيا، سيتمكن سبيكمان من أن يرينا العالم الذي نعيش فيه حاليا.

كان سبيكمان يصغر ماكيندر بجيل واحد، فاستمد إطاره المرجعي وإلهامه من ذلك الجغرافي الإنجليزي. تمثل أمريكا اللاتينية انحرافا طويلا عن اهتمام سبيكمان المحوري بأوراسيا، والذي تشاركه مع ماكيندر. تشير كتابات ماكيندر إلى صراع القوة البرية التي تهيمن عليها المنطقة المركزية ضد القوة البحرية، حيث تكون القوة البرية للمنطقة المركزية في وضع أفضل. وهنا يُقر سبيكمان جوهريا بالتأثير الروحي

لماكيندر - على الرغم من أن كلا منهما قيّم الأهمية النسبية للقوة البحرية والبرية بشكل مختلف.

> طوال مائتي سنة، أي منذ عهد بطرس الأكبر، حاولت روسيا اختراق الحلقة التي تطوقها من الدول الحدودية من أجل الوصول إلى المحيط. بيد أن الجغرافيا والقوة البحرية عملتا على إحباط هذه المحاولات باستمرار[9].

يصف سبيكمان الأرض المركزية باعتبارها شبه مرادف للإمبراطورية السوفييتية، والتي تحدها من الشمال بحار القطب الشمالي التي يعوقها الجليد، بين النرويج والشرق الأقصى الروسي، وتحيط بها الجبال إلى الجنوب، من جبال الكاربات في رومانيا إلى هضاب الأناضول وإيران، وأفغانستان، ثم تنحرف إلى الشمال الشرقي إلى عقدة بامير، وجبال ألتاي، وهضبة منغوليا، قبل أن تنتهي أخيرا في منشوريا وكوريا. كان هذا بالنسبة إليه هو الجغرافيا الرئيسية للعالم، التي سيتم خوض الحروب حولها بشكل دائم. أما إلى الشمال وإلى الداخل من هذا الحزام المؤلف من الجبال والنجود، فتقع المنطقة المركزية؛ وإلى الجنوب وإلى الخارج من هذا الحزام تقع عمالقة الديموغرافيا في أوروبا، وجنوب آسيا، وجنوب شرق آسيا، والصين، واليابان، فضلا عن منطقة الشرق الأوسط الغنية بالنفط. كانت هذه المناطق الهامشية لأوراسيا، خاصة المناطق الساحلية منها، هي ما أطلق عليه سبيكمان اسم الأرض المحيطة Rimland. رأى سبيكمان أن الأرض المحيطة تمثل مفتاح القوة العالمية؛ وليس المنطقة المركزية لماكيندر، لأنه بالإضافة إلى الهيمنة على أوراسيا، فإن الأرض المحيطة ذات التوجه البحري تمتلك أهمية محورية من حيث الاتصال مع العالم الخارجي[10].

وبطبيعة الحال، كان الرجلان يتحدثان في الواقع عن الشيء نفسه؛ إذ يقول ماكيندر إن من يسيطر على المنطقة المركزية يكون في أفضل وضع للاستحواذ على الأرض المحيطة، التي توفر حينئذ - من خلال القوة البحرية - مفتاح السيطرة على العالم. وكما كتب ماكيندر، «فإذا اعتمدنا النظرة الطويلة، فهل يتعين ذلك علينا أن نتوقف عن أن نضع في اعتبارنا احتمال أن جزءا كبيرا من القارة العظمى قد يتوحد في يوم ما تحت حكم واحد، وأن ثمة قوة بحرية لا تُقهر قد تنبع منها؟». كان هذا، بطبيعة الحال، هو حلم الاتحاد السوفييتي، أي الزحف إلى المياه الدافئة للمحيط

الهندي عن طريق غزو أفغانستان ومحاولة زعزعة استقرار باكستان في ثمانينيات القرن العشرين، وبالتالي الجمع بين القوتين البحرية والبرية[11].

ومع ذلك، فإن سبيكمان يمتلك أفضلية طفيفة هنا، والمتمثلة في تركيزه على الأرض المحيطة. وبالنظر إلى الحالة الراهنة في العالم، مع الاضطرابات التي تعصف بالأرض المحيطة في الشرق الأوسط الكبير والتوترات الجارية في جميع أنحاء جنوب آسيا، فضلا عن شبه الجزيرة الكورية، فإن سبيكمان - بتركيزه على الأرض المحيطة ومنظوره الأشد تعقيدا للجغرافيا السياسية - يبدو كأنه يعيش في عصرنا الحاضر. ينبع الجزء الأكبر من نظريات ماكيندر من العالم في مطلع القرن العشرين وخلال الحرب العالمية الأولى؛ في حين يجادل سبيكمان من منظور وقائع الحياة خلال حرب لاحقة، والتي كانت فيها المنطقة المركزية واقعة تحت سيطرة حليف هو روسيا السوفييتية، وبالتالي لا تمثل مشكلة؛ في حين كانت الأرض المحيطة مهددة من قبل دول المحور.

وفي حين خسرت دول المحور الحرب، استمر التنافس على الأرض المحيطة حتى حقبة الحرب الباردة. شكل الاتحاد السوفييتي القوة العظمى للمنطقة المركزية، والتي مثلت تهديدا للأرض المحيطة في أوروبا، والشرق الأوسط، وشبه الجزيرة الكورية، وأماكن أخرى، التي عارضتها القوة البحرية الغربية. ونتيجة لذلك، كان «الاحتواء» containment، وهو سياسة الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي التي أعلنها في العام 1946 الديبلوماسي والخبير في الشؤون الروسية جورج كينان Kennan في برقيته الطويلة، يحمل في طياته بعضا من أفكار سبيكمان وماكيندر على حد سواء. كان الاحتواء هو الاسم الذي أطلقته القوة البحرية الطرفية على ما تدعوه قوة المنطقة المركزية «التطويق» encirclement[12]. إن الدفاع عن أوروبا الغربية، وإسرائيل، والدول العربية المعتدلة، وإيران تحت حكم الشاه، والحروب في أفغانستان و ڤيتنام حملت جميعها فكرة منع الإمبراطورية الشيوعية من توسيع سيطرتها من المنطقة المركزية إلى الأرض المحيطة. وفي كتابه المعلمي، «الأسلحة النووية والسياسة الخارجية»، المنشور في العام 1957، كتب هنري كيسنغر الشاب أن «الحرب المحدودة تمثل الوسيلة الوحيدة للوقاية من الكتلة السوفييتية، بتكلفة مقبولة، من اجتياح المناطق المحيطية لأوراسيا»، ويرجع ذلك على وجه الخصوص،

يستطرد كيسنغر، إلى أن الاتحاد السوفييتي - باعتباره القوة العظمى للمنطقة المركزية - يمتلك «الخطوط الداخلية للاتصالات» التي تمكنه من تجميع قوة معتبرة «في أي لحظة بعينها على طول محيطه»[13]. بولندا، وإيران، وأفغانستان، وڤيتنام - التي مثلت جميعها ساحات للقتال خلال تاريخ الحرب الباردة، والتي تقع جميعها على أطراف الشيوعية السوفييتية والصينية. كان هذا هو عالم ماكيندر، لكن بإحساس سبيكمان.

ومن خلال استشراف سبيكمان لما وراء الحرب العالمية الثانية من موقع المراقبة الذي امتلكه في العام 1942، يمكننا أن نرى البصيرة المتلهفة التي يمكن للتخصص الجغرافي أن يصل إليها. فحتى مع تعرض الحلفاء للهزيمة وكون التدمير التام لآلة هتلر الحربية من الأولويات، صرح سبيكمان بمخاوفه بشأن الآثار المترتبة على ترك ألمانيا منزوعة السلاح، فيفسر الأمر قائلا: «إن وجود دولة روسية تمتد من جبال الأورال إلى بحر الشمال لن يكون أحسن بكثير من دولة ألمانية تمتد من بحر الشمال إلى جبال الأورال». ستكون المطارات الروسية على القنال الإنجليزي بمثل خطورة المطارات الألمانية على أمن بريطانيا العظمى. لذلك، من الضروري أن تظل ألمانيا قوية بعد هتلر. وبالمثل، فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة كان أمامها ثلاث سنوات أخرى من القتال الوحشي في الجزر ضد الجيش الياباني، أوصى سبيكمان بإنشاء تحالف بعد الحرب مع اليابان ضد القوى القارية لروسيا، وبخاصة في مواجهة الصين الصاعدة. تتسم اليابان بكونها مستوردا صِرفا للغذاء، كما تعاني عدم كفاية إنتاج الفحم النفط، لكنها تمتلك تقاليد بحرية عظيمة، ما يجعلها عرضة للهجوم ومفيدة على حد سواء. وباعتبارها أمة جزيرية كبيرة وبحرية تقع في شرق آسيا، ففي وسعها أن تؤدي لمصلحة الولايات المتحدة في الشرق الأقصى الدور نفسه الذي تلعبه بريطانيا في أوروبا. يؤكد سبيكمان ضرورة وجود حليف ياباني ضد الصين القوية، على الرغم من أن الصين في أوائل أربعينيات القرن العشرين كانت ضعيفة وتترنح تحت وطأة التدمير العسكري الياباني:

> إن الصين الحديثة، والمفعمة بالنشاط، التي تمتلك القوة العسكرية، ستمثل تهديدا ليس لليابان فقط، بل لمكانة القوى الغربية في البحر المتوسط الآسيوي أيضا. ستكون الصين قوة قارية ذات أبعاد هائلة، التي تسيطر على

قســم كبير من سواحل ذلك البحر المتوســط. سيكون موقعها الجغرافي مماثلا لموقع الولايــات المتحدة فيما يتعلق بالبحر المتوســط الأمريكي. عندما تصبح الصــين قوية، فإن تغلغلهــا الاقتصادي الحالي في تلك المنطقة ســيتخذ مدلولا سياســيا من دون شك. ومن الممكن تماما أن نتصور اليوم الذي يجري التحكم فيــه على هذه المياه ليــس من قبل القوة البحريــة البريطانية والأمريكية، أو اليابانية، لكن من قبل القوة الجوية الصينية[14].

ربما كانت ملاحظة ســبيكمان الأكثر تعبيرا تتعلق بأوروبا، فكما أنه عارض كلا من الهيمنة الألمانية والروســية على أوروبا، فقد عارض أيضا وجود أوروبا موحدة تحت أي ظرف من الظروف؛ فهو يفضل توازنا للقوى بين الدول الأوروبية باعتباره أكــثر فائــدة للمصالح الأمريكية من اتحــاد أوروبي، حتى لو كان ذلك ســيتحقق سلميا وديموقراطيا. وقد كتب في هذا السياق أنه «من شأن وجود أوروبا اتحادية أن يشــكل تكتلا للقوة من شــأنه أن يغير تماما من أهمية موقعنا كقوة أطلســية ويضعف مكانتنا بشكل كبير في نصف الكرة الأرضية الغربي». ولأن الاتحاد الأوروبي لايزال في مرحلة متوســطة من التطور، في وجود زعماء وطنيين أقوياء يسعون إلى صياغة سياسات خارجية منسقة لكنها تبقى على الرغم من ذلك مستقلة في نهاية المطاف، وعلى الرغم من إنشاء منطقة موحدة العملة، فمن السابق لأوانه إصدار حكــم على تنبؤ ســبيكمان. ومع ذلك، ففي وســع المرء أن يــرى بالفعل أنه كلما ازدادت أوروبا اتحادا، ازداد توترها مع الولايات المتحدة. ومن شأن دولة أوروبية، فائقــة حقيقية تمتلك تحــت تصرفها قوات مســلحة وسياســة خارجية موحدة، أن تكون منافســا قويــا للولايات المتحدة، وربما قوة خارجيــة مهيمنة في المنطقة الموحــدة البُعد من جنوب أمريكا الجنوبية[15] (وبطبيعة الحال، فإن الأزمة المالية الحالية التي تعصف بأوروبا تجعل هذا الاحتمال مشــكوكا فيه).هذه هي النقطة التي يختلف فيها ســبيكمان بشــكل ملحوظ عن ماكيندر وعن سياســة الاحتواء التي اتُّبعت في الحرب الباردة[16]. إن سياســة الاحتواء، التي شــجعت على ظهور أوروبا موحدة باعتبارها حصنا ضد الشــيوعية السوفييتية، كانت متجذرة في المثل الليبرالية للمجتمع الحر، وكذلك في الجغرافيا السياسية. وعندما كتب جورج كينان برقيته الطويلة، وضع كامل ثقته في النمط الغربي للحياة، والذي اعتقد أنه سيبقى

بعد زوال قيود الشمولية التي فرضتها الشيوعية السوفييتية. ونتج عن ذلك إذن أن تشجعت الدول الأوروبية الديموقراطية المتشابهة التفكير على المضي قدما في جهودها نحو اتحاد سياسي واقتصادي مشترك. بيد أن سبيكمان، على الرغم من ذلك، كان أكثر وحشية من كينان - والذي كان هو نفسه واقعيا متشددا. لم يكن سبيكمان ببساطة ليدع أي عناصر غير تلك الجغرافية تدخل في تحليله. وعلى عكس هاوسهوفر، لم يكن الأمر أنه لا يؤمن بالديموقراطية والمجتمع الحر: فكل ما هناك أنه لا يشعر بأن لهما دورا كبيرا في التحليل الجيوسياسي. كان سبيكمان يرى أن مهمته لا تتمثل في تحسين العالم، لكن في وصف ما يعتقد أنه يجري فيه. كانت حساسيته الشديدة البرودة هذه هي التي سمحت له بأن يرى فيما وراء كينان والحرب الباردة. وهكذا، ففي العام 1942، كان لايزال يستطيع الكتابة عن يومنا هذا:

> لا يمكن إلا لرجال الدولة الذين يستطيعون إجراء تحليلاتهم السياسية والاستراتيجية من حيث وجود أرض مستديرة وحرب ثلاثية الأبعاد أن ينقذوا بلدانهم من الهزيمة على الأجنحة البعيدة. ومع دعم القوة الجوية لتلك البحرية وكون سهولة التحرك هي جوهر الحرب، فلا توجد منطقة في العالم أبعد من أن تكون غير ذات أهمية استراتيجية، أو أبعد من أن يجري إغفالها في الحسابات السياسية للقوة[17].

وبعبارة أخرى، فبسبب القوة الجوية وقدرة الجيش الأمريكي على القيام بالحملات، على وجه الخصوص، للانتشار السريع في أي مكان، فإن ساحة اللعب تشمل الأرض بأسرها. لكنها لن تلعب لمصلحتنا وحدنا، بل لمصلحة جميع اللاعبين ضمن «النظام المغلق» الذي تصوره ماكيندر، وذلك بفضل تكنولوجيا الاتصالات، التي ترتبط بها القوة الجوية. ومع ذلك، فإن كوكبنا الأرضي يمثل نظاما أكبر بكثير من أن تسوده دولة مهيمنة واحدة. لذلك، كما كتب سبيكمان، ستكون هناك «لا مركزية إقليمية للقوة»، حيث تؤثر كل منطقة كبيرة في الأخرى. لقد توقع سبيكمان عالما من القوى المهيمنة المتعددة: على غرار تعدد الأقطاب الذي نتحدث اليوم جميعا عنه، والموجود بالفعل من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، لكن ليس تماما حتى الآن في الجوانب العسكرية، بسبب المسافة الهائلة التي

لاتزال تفصـــل بين جيش الولايات المتحدة والجيوش الوطنية الأخرى. لكن العالم الناشئ للكيانات الإقليمية العملاقة: الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، والصين، والهند، وروســيا - مع قوى متوســطة مثل تركيا، وإيران، وإندونيســيا، وڤيتنام، والبرازيل - سيُعزز صحة ملاحظاته(18).

كيف ستكون ديناميات مثل هذا العالم؟ يمارس سبيكمان هنا علم المستقبليات بأفضــل طريقة ممكنة، مــن خلال التحديق في الخرائط مــن زوايا مختلفة. تأتي أكثر اكتشــافاته إثارة من خريطة القطب الشمالي. «تبرز سمتان مهمتان بوضوح هنا: تركز كتل اليابســة في نصف الكرة الأرضية الشمالي، وتوزعها على هيئة نجم البحــر انطلاقا من القطب الشــمالي كمركز لهــا، وباتجاه أفريقيــا ورأس الرجاء الصالح، وأمريكا الجنوبية وكيب هورن، وأســتراليا». وعند النظر إلى هذا المسقط (projection)، تبــدو الأرض كأنها موجــودة في كل مكان تقريبا، في حين أنك إذا حدّقت من المســقط القطبي الجنوبي، فســيبدو الماء كأنــه في كل مكان تقريبا. تبين خريطة القطب الشــمالي كيف أن القارات الشمالية تتسم بأنها قريبة نسبيا بعضهــا من بعض، في حين تتباعد القارات الجنوبيــة بعضها عن بعض. وبطبيعة الحال، ففي هذا الإســقاط تتسم المســافات بين القارات الجنوبية بكونها مبالغا فيها، لكن الخريطة لاتزال ممثلة لمدى بُعد أستراليا عن أمريكا الجنوبية، وأمريكا الجنوبية عن أفريقيا. وهكذا، فإن العلاقة الوثيقة جغرافيا بين أمريكا الشــمالية وأوراسيا تتسم بكونها دينامية، كما أنها تشكل «خطوط أساس السياسة العالمية»، في حين تتســم تلك الموجودة بين القــارات الجنوبية بأنها أقل أهمية بكثير. ومرة أخــرى، فهــو لا يقول بأن أمريكا الجنوبية وأفريقيا ليســت لهــما أهمية في حد ذاتهــما، لكن علاقاتهما معا هي كذلك؛ إذ لا تكتســب أمريكا الجنوبية وأفريقيا أهمية في الجغرافيا السياســية إلا من حيث علاقاتهما مع القارات الشمالية. لكن الرســالة الحقيقية بشــأن هذه الخريطة القطبية تتمثل في العلاقة الأساسية بين أمريكا الشــمالية وأوراســيا. نحن ننظر إلى المحيط الهادئ الشاســع باعتبار أنه يفصل الساحل الغربي لأمريكا الشمالية عن شرق آسيا؛ لكن الطريق القطبي يدل على أنه لا يعدو كونه مجرد الســفر بالطائرة شــمالا إلى ألاسكا ثم جنوبا، وصولا إلى الــشرق الأقصى الروسي، ثم إلى المنطقة المعتدلــة من اليابان، وكوريا، والصين.

إن القطب الشـمالي، لاسـيما إذا ارتفعت درجة حرارته، سـيضفي معنى جديدا على القوة البحرية، وعلى القوة الجوية بصفة خاصة خلال العقود المقبلة. بوسع وسـائل النقل الأسرع من الصوت تقليص المسـافة بين السـاحل الغربي للولايات المتحدة والمدن الآسـيوية بنسـبة الثلثين؛ كما أن زيادة استخدام الطرق القطبية ستحبس الولايات المتحدة، وروسيا، والصين في عناق أشد قوة من أي وقت مضى. أما الجغرافيا، ولأنها سـتكون أكثر سهولة، فسوف تصبح، على عكس المتوقع، أكثر أهمية[19]. وكذلك فإن العولمة، التي تُفهم على أنها تحطيم للجدران، ستؤدي إلى زيـادة في عدد وكثافة الاتصالات، الأمر الذي يحمل في طياته الاحتمال الأقرب إلى كل من الصراعات وأوجه التعاون السياسية.

يجادل ماكيندر بأنه بمجرد أن يصبح العالم «نظاما سياسيا مغلقا، فإن الحقيقة الجغرافية النهائية ستُظهر نفسها بنفسها»[20]. وهو يعني بذلك الاعتراف بالجزيرة العالمية كوحدة منفردة في الجغرافيا السياسـية، والتي تكون فيها أمريكا الشمالية أكـثر السـواتل القارية أهمية في البحـار المحيطة بها. يتحـدث ماكيندر هنا عن النصف الشـمالي من الكرة الأرضية، إذ يقع بداخله كل من البر الرئيسي لأوراسـيا وجـزء كبير مـن أفريقيا - وهي مكونات الجزيرة العالميـة. تتوافق فرضية الأرض المحيطة لسبيكمان مع هذا السيناريو، حيث المناطق الهامشية من أوروبا والشرق الأوسـط وشبه القارة الهندية، والشرق الأقصى تسـيطر معا على المتصل الساحلي حول أوراسـيا في المحيطـين الهندي والهـادي، مدعوما بأعداد السـكان الكبيرة، والتنميـة الاقتصادية، والمـوارد الهيدروكربونية: وعند تعاونها معا، ففي وسـعها كبح جماح قوة المنطقة المركزية لروسـيا، حتى لو كسبت روسيا المياه التي تزداد دفئا للساحل الشمالي للقطب الشمالي[21]. وكما أن القطب الشمالي سيصبح مركزا للطائرات والسفن التي تربط أمريكا الشمالية بالتخوم الشمالية للجزيرة العالمية، فـإن المحيط الهندي الأكبر سيشـكل مركز الحركة التجارية والعسـكرية للجزيرة العالمية، من خلال ربط أفريقيا والشرق الأوسط بشرق آسيا.

ومـع ذلك، فإن الأرض المحيطة لأوراسـيا لن تكون موحدة بأي معنى سـياسي محـض. وفي عـالم الكيانـات المهيمنة الإقليميـة المتعددة، فإن الخطر الذي شـعر ماكيندر وسـبيكمان بالقلق تجاهه، وهو وجود قوة برية واحدة تهيمن على أراضي

أوراســيا، أو قوة بحرية واحدة تهيمن على الأرض المحيطة لأوراســيا، لا تلوح له أي بوادر في الأفق. لا يبدو أنه حتى الصينيون، مع صعود قوتهم البحرية، في وســعهم تحقيــق هذا الإنجاز، إذ ســيكبح جماح مســاعيهم كل من البحريــات الأمريكية، والهندية، واليابانية، والأســترالية، والقوات البحرية الأخرى. ومع ذلك، وكما ســنرى، فــإن عالما تحركه ترتيبات القوة الخفية، حيث ســتؤدي التجارة والاقتصاد إلى تآكل القوة العســكرية المحضة، ســيظل عالما تسوده الجغرافيا السياســية التي تحكمها الجغرافيا، خاصة في محيطات العالم، التي ســتصبح أكثر ازدحاما من أي وقت مضى. ولرؤيــة هذا العالم البحري على نحو أفضل، ســننتقل بعــد ذلك إلى مفكر آخر من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

7

جاذبية القوة البحرية

«توفر الجغرافيا خلفية لما تدبره الخيارات البشرية»

المؤلف

في حين انصب تأكيد ماكيندر على القوة البرية بسبب التطورات التقنية الناشئة في السكك الحديد والنقل البري، فإن الثورة الصناعية نفسها هي التي جعلت الكابتن البحري الأمريكي ألفريد ثاير ماهان Mahan، وهو معاصر ماكيندر يكبره قليلا في العمر، من دعاة القوة البحرية. اعتقد ماهان أن القوة البحرية ليست أكثر أهمية من القوة البرية فقط في الكفاح من أجل الهيمنة، لكنها أيضا أقل تهديدا للاستقرار الدولي. وقد أشار ماهان إلى أن «القدرة المحدودة للقوات البحرية على تمديد القوة القسرية إلى الأجزاء الداخلية من البلاد» هي التي تجعلها لا تمثل أي خطر على الحرية. اعتقد ماهان أنه بدلا من أخذ الأراضي المركزية لأوراسيا باعتبارها المحور

الجغرافي للإمبراطوريات، على العكس من ذلك، ما يشـــكل مفصلتي hinges المصير الجيوســـياسي هو المحيطان الهندي والهادي؛ فمن شـــأن هذين المحيطين الســـماح لدولـــة بحريـــة بإبراز قوتها في جميـــع أنحاء الأرض المحيطة لأوراســـيا، مما يؤثر في التطورات السياســـية الداخلية - بفضل نفس الســـكك الحديدية وشـــبكات الطرق المغذية لها - وصولا إلى عمق آســـيا الوســـطى. أما نيكولاس ســـبيكمان، ولكونه هو نفســـه يركز على الأرض المحيطة بالمحيطين الهندي والهادي، فقد تأثر عميقا بأفكار ماهان كما تأثر بماكيندر.

وعـــلى الرغم من أن ماكيندر كان متهيبا من قوة روســـيا، بالنظر إلى ســـيطرتها على الأرض المركزية، فإن ماهان، الذي ســـبق كتابه المعنون «مشـــكلة آســـيا» نشر مقالة «المحور الجغرافي للتاريخ» لماكيندر بأربع ســـنوات، قد ألمح إلى قابلية روســـيا للتعـــرض للخطر، بالنظـــر إلى بُعدها عن المياه الدافئة للمحيـــط الهندي. وقد ذكر ماهان أن «بُعد روسيا الذي يتعذر إصلاحه عن البحر المفتوح قد ساعد على وضعها في موقـــف ضعيف من حيث القدرة على تكديـــس الثروات». وبناء على ذلك، فمن الطبيعي والســـليم أنهـــا ينبغي أن تكون غـــير راضية، وعدم الرضا يأخذ بســـهولة شـــكل العدوان». وبالتالي فإن ماهان يكشـــف أعمق أغوار التيارات النفسية - التي تستند، في الواقع، على الجغرافيا- للطبيعة الوطنية الروسية. أطلق ماهان على الأمم الواقعة إلى الجنوب من روسيا وشمال المحيط الهندي اسم «الأراضي المتنازع عليها» لآســـيا، فقد وصفها بأنهـــا «منطقة النزاع بين القوة البرية الروســـية والقوة البحرية البريطانية». (أما ســـبيكمان، وبعد أربعة عقود، فقد أطلق على هذه المنطقة اســـم الأرض المحيطة). ومن بين هـــذه الأراضي المتنازع عليها، يؤكد ماهان أهمية الصين، وأفغانســـتان، وإيران، وتركيا. وليس من قبيل المصادفة أنه تمكن في العام 1900 من تحديد الدول المحورية ذات الأهمية الجيوسياســـية في عصرنا الحالي: فالجغرافيا غير قابلة للتغيير.

ســـاعدت الجغرافيا على فرض إســـتراتيجية الاحتواء ضد الاتحاد السوفييتي من الصف الجنوبي للدول الأوراســـية خلال الحرب الباردة التي اكتنفت كل هذه الدول الواقعـــة في الأرض المحيطة؛ وكذلك فإن الجغرافيا تســـاعد على التعرف على أهمية الصـــين، كدولة وحضارة ممتـــدة من الأراضي المركزية لأوراســـيا إلى الميـــاه الدافئة

للمحيـط الهادي، حتى إن الجغرافيا تسـاعد على التعرف على أفغانسـتان وإيران باعتبارهـما اثنتين من دول الأرض المركزية، اللتين تكتسـبان أهمية بالغة بالنسـبة إلى مصير منطقة الشرق الأوسـط. كان ماهان، في العام 1902، هو أول من استخدم مصطلح «الشرق الأوسـط» للدلالة على المنطقة الواقعة بين شـبه الجزيرة العربية والهند والتي تمتلك أهمية خاصة بالنسـبة إلى الإسـتراتيجية البحرية. وقد أشار إلى أن الهنـد، كونها تقع في وسـط الشريط السـاحلي للمحيط الهنـدي، والتي تحمي جناحيها الخلفيين سلسـلة جبال الهيمالايا، تمتلـك أهمية محورية لاختراق كل من الشرق الأوسط والصين من ناحية البحر. وقد اتضح أن القوة البحرية، توفر الوسيلة الماهانية Mahanian التي يمكن بها للولايات المتحدة البعيدة أن تؤثر في أوراسيا في ظل «النظام المغلق» الذي تصوّره ماكيندر[1].

بيـد أن رؤية ماهان المرتكزة عـلى المحيطات لها عيوبهـا. وكما يشرح روبرت شتراوس- هوبي في كتابه «الجغرافيا السياسية»:«ففيما يتعلق بحقيقة تمسك بريطانيا والولايات المتحدة بمذهب ماهان، فإن [هاوسهوفر وغيره من الجغرافيين السياسيين الألمان الآخرين] قد رأوا فرصة سـانحة لألمانيا. ومادام أن القوى الأنغلوساكسـونية جعلت هذا المذهب [الماهاني] - الذي يتسـم بجاذبيته الشـديدة لأنه يعد بالأمن والعمل كالمعتاد - أساسـا لدفاعها، فقد ضمنـت ألمانيا وجود المتنفس الذي تحتاج إليه تماما لتنظيم حرب شـاملة»[2]. وبعبـارة أخرى، فإن مذهـب ماهان حول القوة البحرية، مع تركيزه على الأمن الكلي لأوراسـيا، لم يأخذ في اعتباره بشكل كافٍ، على الرغـم من عنفه، قدرة القـوة البرية على فرض حصار سريع على أوروبا من شـبه جزيرة أيبيريا إلى جبال الأورال.

ومع ذلك قام ماهان بتغطية تحركاته، إذ كتب أن «الاستخدام والتحكم الجيد في البحر ليس إلا حلقة واحدة في سلسلة التبادلات التي تتراكم من خلالها الثروات»[3]. ومع ذلك، كان تفكيره أكثر ملاءمة لتوسيع القوة البحرية للولايات المتحدة في جميع أنحاء العالم مـما كان عليه للمحافظة على توازن القوى داخل أوروبا. كانت هناك، على حد تعبير شـتراوس- هوبي، «إمبريالية مفعمة بالحيوية» في أفكار ماهان، الذي رأى أن الهدف النهائي للقوة الأمريكية هو أكثر من مجرد «البحر إلى البحر المتلألئ» للمصـير الظاهر Manifest Destiny، لكن أن يشـمل أيضـا الهيمنة على منطقة

الكاريبـي والمحيط الهادي، الذي من شـأنه أن يجعل الولايـات المتحدة هي القوة المتفوقة الغالبة على مسـتوى العالم. اعتقد ماهان أن الأمة يجب أن تتوسـع أو أن تضمحل- لأنه يستحيل على أي دولة أن تحافظ على كيانها وهي جامدة في مكانها. وعلى الرغم من كونه خبيرا تكتيكيا، فكثيرا ما كان محايدا أيضا، إذ كان يؤمن بتركيز القوة البحرية من خلال التفوق في الأساطيل المقاتلة: أو «أسطول السفن المحتشدة على خط المعركة»[4].

لكـن ماهان، الذي نشر تسـعة عشر كتابا خلال فترة عشريـن عاما، ابتداء من العـام 1883، يصعب تحديـد توجهاته: كانت الإمبريالية المفعمـة بالحيوية مجرد جانـب واحد من جوانبه؛ فقـد كان أيضا ديموقراطيا، والـذي - برغم ملاحظته أن الدول الديموقراطية لا تُحبذ الإنفاق العسكري، كان يعلن تفضيله للديموقراطية على الحكم الملكي. لم يكن ماهان يشـعر بالضرورة بأن وجود أسطول ضخم كان ضروريا للغايـة بالنسـبة إلى الولايات المتحـدة، التي كان يعتقد أنها يجـب أن تتعاون مع بريطانيـا العظمى، باعتبـار أن التفوق البحري لم يكن ليتحقق إلا من خلال ائتلاف ما coalition.

وقـد اعتبر أن الحرب تُعد حالـة غير طبيعية للأمم، التي، على الرغم من ذلك، يتعين عليها أن تستعد لها على نحو مأساوي. وقد تنبأ بظهور نظام متعدد الجنسيات من التحالفات الملاحية لحراسـة المشـاعات commons العالمية. لذلك فمن المهم عدم تشويهه على نحو مبالغ فيه[5].

وضع ماهان رؤيته الشاملة في كتاب «تأثير القوة البحرية في التاريخ بين العامين 1660و1783». والمنشور في العام 1890، والذي أثّر في تفكير الرئيسين وليام ماكينلي McKinley وثيـودور روزفلت Roosevelt - فضلا عن تفكير القيصر الألماني فلهلم الثـاني Wilhelm II - وسـاعد في تحفيز بناء القوات البحريـة قبل الحرب العالمية الأولى. أظهر ماهان أنه لكون البحر يمثل «الطريق العظيم» أو «المشـاع الواسـع» للحضارة، فـإن القوة البحرية - أي القدرة على حماية الأسـاطيل التجارية - كانت دائما هي العامل المحدّد في الصراعات السياسية العالمية، خاصة أن « كلا من السفر وحركة المرور عبر المياه كانت دائما أسهل وأرخص من تلك البرية». تكمن قوة حجته في أصالتها بقدر ما تعتمد على شموليتها[6].

يبدأ ماهان ملحمته بتأكيد أن «الدولة السلمية المحبة للربح ليست بعيدة النظر، لكن هناك حاجة إلى بُعد النظر من أجل الاستعداد العسكري الكافي، خصوصا في هذه الأيام». لم يكن ماهان داعية حرب ولا نصيرا للاستبداد. وفي الواقع، وكما أشار فبسبب الاستبداد و«الجشع الضاري» لم تصل إسبانيا ولا البرتغال، برغم كونهما قوتين بحريتين كبيرتين، إلى مصاف الأمم الكبرى في التحليل النهائي. ومع ذلك، «فإذا كانت ثمة حكومة ديموقراطية فستمتلك البصيرة والحساسية الذكية لتحقيق المكانة الوطنية» اللازمة لردع الخصوم يبقى «سؤالا مفتوحا»؛ لأن المرافئ الأجنبية الصديقة التي توجد في جميع أنحاء العالم لا تستمر على الدوام، كما يقول لنا. ليس فقط أن الأمم في حالة السلم تكون غافلة بشكل عام عن المأساة الناتجة عن عدم تنشئة وعي تراجيدي، بل إن مؤرخيها يغفلون عن البحر على وجه التحديد، ويجهلون تلك المساحات الشاسعة من الأراضي التي تمارس نفوذا كبيرا على المناطق المكونة من أراض جافة، والتي تساهم في أمنها وازدهارها. وبالتالي، فثمة حاجة ملحة، كما يحذر، إلى الكتابة عن تاريخ الحرب البحرية: خاصة بسبب ثبات مبادئ هذه الحروب، على الرغم من التطورات التقنية من السفن التي تعمل بالمجاذيف إلى السفن البخارية (وإلى حاملات الطائرات والغواصات التي تعمل بالطاقة النووية في أيامنا هذه). يوضح ماهان هذه النقطة بإجراء قياس تمثيلي مع أحد الجيوش البرية:

> عندما جرى استبدال الزحف على القدمين بحمل القوات في العربات، وعندما أفسح هذا الأخير بدوره مجالا لخطوط السكك الحديد، ازداد حجم المسافات، أو، إذا صح التعبير، تضاءل حجم الزمن، لكن المبادئ التي تفرض النقطة التي ينبغي أن يُحشد الجيش عندها، والاتجاه الذي يجب أن يتحرك فيه، وذلك الجزء من موقع العدو الذي يجب أن يُهاجم، وحماية سبل الاتصالات، ظلت على حالها من دون تغيير[7].

اهتم ماهان بصفة خاصة بالفترة منذ العام 1660، التي «بدأ فيها بوضوح» عصر السفن الشراعية، حتى العام 1783، الذي شهد نهاية الثورة الأمريكية. وأشار إلى أن جورج واشنطن Washington قد عزا انتصار أمريكا في حربها من أجل الاستقلال - بصورة جزئية - إلى سيطرة فرنسا على البحار- على الرغم من أن

فرنسا خسرت قبل ذلك بعقود حرب السنوات السبع، جزئيا، بسبب إهمالها للقوة البحرية. ومع ذلك فإن تعليق ماهان البانورامي على التكتيكات البحرية وكذلك شروحه حول مدى أهمية البحر في تاريخ البشرية يشملان فترات زمنية أبعد من ذلك بكثير. وكانت سيطرة الرومان على المياه هي التي أجبرت هانيبال Hannibal على خوض «تلك المسيرة الطويلة، المحفوفة بالمخاطر عبر بلاد الغال، والتي فقد فيها أكثر من نصف قواته من المحاربين المخضرمين. طوال فترة الحرب كانت فيالق [الرومان] تُنقل عبر المياه، من دون إزعاج ومن دون إنهاك، ما بين إسبانيا التي كانت قاعدة هانيبال، وإيطاليا». وقد أشار ماهان إلى أن عدم وقوع معارك بحرية كبرى خلال الحرب البونيقية الثانية Second Punic War، بسبب هيمنة روما على البحر الأبيض المتوسط كان عاملا حاسما في هزيمة قرطاج. ولو كان البحر الأبيض المتوسط مجرد صحراء مسطحة، كما كتب ماهان، وكانت الأرض هي الجبال الناتئة من الأرض الصحراوية، لكانت البحرية السائدة هي القوة القادرة على السفر ذهابا وإيابا عبر الصحراء من سلسلة جبال إلى أخرى وفق الرغبة. كانت هذه هي الحال مع روما. ولكن لأن الماء عنصر غريب، ولأن البحارة «يمثلون منذ زمن سحيق جنسا غريبا متميزا»، لم نضع القوات البحرية في المكانة الرفيعة التي تستحقها. وهنا يستطرد ماهان قائلا: «ما» البحرية في جوهرها إلا قوات خفيفة، فهي تحافظ على اتصالات مفتوحة بين موانئها؛ وتعترض سبيل اتصالات العدو؛ لكنها تجتاح البحر لخدمة البر، كما تسيطر على الصحراء حتى يمكن للبشر أن يعيشوا ويزدهروا على العالم الصالح للسكنى[8].

وهكذا، وكما تغنّى به ماهان، «ليس أخذ السفن أو القوافل المنفردة» هو الأمر المهم، بل إن «امتلاك تلك القوة الطاغية في البحر، التي تطرد منه أعلام العدو، أو لا تسمح لها بالظهور إلا وهي هاربة» هو الذي يهم حقا. «وإذا قدّر لأمة ما أن تمتلك موقعا يجعلها غير مضطرة للدفاع عن نفسها من ناحية البر ولا مدفوعة إلى السعي إلى توسيع أراضيها من ناحية البر، فستمتلك أفضلية، بفعل وحدة هدفها الموجّه إلى البحر، بالمقارنة بشعب لا يمتلك إلا حدودا قارية»[9].

تمتلك هذا الموقع كل من إنجلترا وأمريكا، وكلتاهما شهدت فترات طويلة من القوة العالمية عبر مسار التاريخ. لكن موقع أمريكا الجغرافي، كما أشار إليه ماهان،

له مساوئه الحقيقية أيضا. صحيح أن أمريكا هي جزيرة افتراضية ضخمة وغنية بالموارد، والتي تقع في المنطقة المعتدلة، بعيدة عن صراعات القوى المنهكة في أوراسيا، غير أنها في الوقت نفسه تفصلها مسافات شاسعة عن الموانئ الأوراسية، وبخاصة في منطقة المحيط الهادي، ما يعيق قدرتها على بسط نفوذها عليها. وبالتالي، فإن بناء قناة بنما في أمريكا الوسطى، الأمر الذي توقعه في كتابه، سيزيد من اتصال الأساطيل التجارية والحربية الأمريكية مع كل من طرفي أوراسيا. غير أن المسافة سوف تظل شاسعة، الأمر الذي «سيسبب نفقات هائلة». وعلى الرغم من أن الأثر الحقيقي لقناة بنما سيتمثل في تحويل منطقة الكاريبي من «محطة نهائية» terminus و«مكان لحركة المرور المحلية» إلى «واحد من الطرق السريعة الكبرى في العالم»، إذ ستعبر القناة ليس فقط سفن الولايات المتحدة، بل سفن الدول الأوروبية، في طريقها إلى المحيط الهادي. وفي ضوء ذلك، على حد تعبيره، «فلن يعود الأمر بالسهولة نفسها» على الولايات المتحدة «أن تقف بمعزل عن التعقيدات الدولية»[10].

إن الجغرافيا، التي تجعل إنشاء هذه القناة البرزخية ممكنا في المقام الأول، تتطلب أيضا وجود علاقات أوثق بين الولايات المتحدة وجيرانها في أمريكا الوسطى ومنطقة البحر الكاريبي من أجل حماية القناة والسيطرة على البحار القريبة منها. وعن طريق جعل أمريكا أقرب فعليا إلى آسيا، وأكثر اكتنافا في الشؤون الأوروبية من خلال عمليات الشحن التجاري، ستساعد القناة في نهاية المطاف على إضعاف النزعة الانعزالية وما يترتب على ذلك من صعود نزعة دولية internationalism ليبرالية قوية في أروقة السلطة في واشنطن.

غير أنه من المؤكد أن ذلك لم يكن قدرا محتوما، على الرغم من الدور القيادي للجغرافيا. كانت قناة بنما نتيجة لعديد من الظواهر التي تنطوي كل منها على الفاعلية الإنسانية: الحرب الإسبانية - الأمريكية، وسياسات القوة العظمى التي حرمت في نهاية المطاف أي دولة أوروبية من أن يكون لها دور في المشروع، أو في إبرام الصفقات خلف الكواليس التي أسفرت عن اختيار بنما بدلا من نيكاراغوا، وقهر الأمراض المنتشرة في المناطق المدارية من أمريكا الوسطى، وقبل كل شيء العمل الهائل والبراعة. ومرة أخرى، توفر الجغرافيا خلفية لما تدبره الخيارات البشرية،

سعى ماهان بوضوح إلى التأثير في الخيارات البشرية. وفي كتابه الضخم، الذي نُشر على نحو ملائم في العام نفسه الذي وحّد فيه الجيش الأمريكي القارة الأمريكية بفعل انتصار ظاهري نهائي (على الرغم من بشاعته) في الحروب الهندية، وقبل بضع سنوات فقط من تمكّن الولايات المتحدة، نتيجة للحرب، من الاستيلاء على الإمبراطورية الإسبانية في غرب المحيط الهادي، وكذلك الهيمنة على منطقة البحر الكاريبي، دعا ماهان إلى حمل السلاح من خلال القوة البحرية العالمية. لم يكن ماهان جغرافيا بقدر كونه مؤرخا وخبيرا في التكتيك الحربي، كما أنه يمثل حسا إمبرياليا يحمل في طياته تضمينات جغرافية واضحة. وهذا هو التفسير القاطع لاحترام سبيكمان الشديد له. ليس الأمر أن سبيكمان كان أحد المتحمسين للغزو؛ لكنه أدرك بحدسه، كما فعل ماهان، أن أمريكا لن يكون أمامها أي خيار سوى الدخول في صراعات القوة في جميع أنحاء العالم ؛لأن موقعها المتميز جغرافيا في النصف الغربي من الكرة الأرضية هو ما منحها نفوذا في النصف الشرقي.

وكما هو متوقع، فقد كان لماهان أعداؤه، ومنهم السير نورمان أنجيل Angell، والذي- في معرض دفاعه الجذاب والحماسي عن مبدأ السلامية pacifism، وهو كتابه المعنون «الوهم الأعظم»، المنشور في العام 1909- شجب كتابات ماهان باعتبار أنها «هراء مؤذ للغاية». كان هذا الصحافي والسياسي البريطاني، الذي يحسب له أنه كان يكره هاوسهوفر، يستنكر تأكيد ماهان أن «بسط السلطة الوطنية على المجتمعات الأجنبية» يمكن أن يمثل مبادرة جليلة: لأنه «على غرار الأفراد، فإن الأمم والإمبراطوريات تمتلك أرواحا كما تمتلك أجسادا». وبالتالي فإن ماهان، في رأي أنجيل، كان يرفض بكل سخف الواقع الملموس تماما للفرد ويستبدله بالواقع غير الملموس نسبيا للدولة. وكما يقول أنجيل: «هل يفكر أي شخص في توقير الفلاحين الروس moujik لمجرد أنهم ينتمون إلى واحدة من أكبر الإمبراطوريات مساحة؟ هل يفكر أحد في احتقار إبسن Ibsen ... أو أي مواطن إسكندنافي أو بلجيكي أو هولندي مثقف، لمجرد انتمائه إلى أصغر دولة في أوروبا؟»[11]. وبعبارة أخرى، فإن ماهان، وبالاستدلال سبيكمان، وماكيندر، وغيرهم من المتخصصين في الجغرافيا - الجغرافيا السياسية، هم جميعا حتميون

وجوهريـــون essentialists. تنبع توجهاتهم المولعـــة بالحرب عن نظرتهم، كما اشـــتكى أشـــعيا برلين، للدول والإمبراطوريات باعتبارها أكـــثر واقعية من الأفراد الذين تحتويهم. ومرة أخرى، فلا يمكننا سوى أن نعرض دفاع هاوسهوفر: فإذا لم ينخرط ماهان والآخرون في ذلك النوع من الحتمية الذي يدينه أنجيل، فسيتركوا ساحة الإســـتراتيجية الكبرى لأولئك الذين هم أشرار حقا. وللأسف، نحن بحاجة إلى النقائص الأخلاقية لأمثال ماهان.

وفي الواقع أن كتاب أنجيل حول سبب كون الحروب وتناحر القوى العظمى أمورا غير منطقية عانى من سوء الحظ المتمثل في كونه قد نُشر قبل بضع سنوات فقط من اندلاع الحرب العالمية الأولى، التي استهلت قرنا من الحروب والصراعات التي لم يسبق لها مثيل في أوروبا. أما أنجيل فقد صار، ظلما، أضحوكة في كثير من الأوســـاط. وأقول ظلما لأن كتابه، في حد ذاته، يمثل قراءة ممتعة تســـتحوذ على اهتمام القارئ، بالإضافة إلى براعة حجته؛ كما أن كتابه ربما أثبت كونه مستبصرا لو كانت الطبيعة البشرية أقل دناءة بقليل مما هي عليه. وبسبب وجود نقائص في الطبيعة البشرية، التي تضخمها الانقسامات التي تفرضها الجغرافيا، فإن كاتبا مثـــل ماهان تظل أفكاره باقية بصورة أفضـــل بكثير على مدى العقود من واحد مثل أنجيل.

وفي علامـــة عـــلى كيفيـــة تغيـــير ديناميات القـــوة في العـــالم، فـــإن الخبراء الإستراتيجيين الهنود والصينيين يقرأون كتابات ماهان بشغف، بل إنهم هم أتباع ماهان Mahanians اليوم أكثر بكثير من الأمريكان: فهم يبنون أساطيل مصممة لخوض النزاعات المســـلحة في البحر، في حين تنظر القوات البحرية الأوروبية إلى القوة البحرية من حيث وظيفتها الشرطية فقط. وعلى ســـبيل المثال، ففي ندوة عقـــدت في بكين في العام 2004، فإن «عالما بعد عالم كان يقتبس مقولات ماهان ... مـــا يدل عـــلى تأثيره القوي. ومن دون اســـتثناء تقريبا، فقد كانوا يقتبســـون الأكثر دعوة إلى الحرب من بين تعاليم ماهان، التي تســـاوي بين الســـيطرة على البحر وامتلاك قوة طاغية تُغلق الممرات البحرية المشتركة أمام سفن العدو»[12]، كما كتب الأســـتاذان في كلية الحرب البحرية جيمس ر. هولمز Holmes وتوشي يوشيهارا Yoshihara.

ومنــذ ذلك الحين، ومــع تزايد حجم البحرية الصينية واتســاع نطاق عملياتها، فــإن الميــل إلى ماهان لم يزدد إلا قــوة في بكين، خصوصا مع تنامــي القوة البحرية الهندية، التي يخشــاها الصينيون؛ أما الهنود ومــن جانبهم، فينظرون إلى الصينيين بطرق ماهانية مماثلة. وفي الوقت نفسه، يبدو أن الأسطول الأمريكي قد تبنى نظرية أخرى، فاسمحوا لي أن أوضح الأمر.

لم يختلف جوليان كوربيت Corbett، وهو مؤرخ بريطاني من الحقبة نفسها، كثيرا مع ماهان، بيد أنه طرح نهجا أكثر دهاء للإستراتيجية البحرية، والذي يركز بدرجــة أكبر على تحقيق نتائج أكبر في البحر باســتخدام عدد أقل من الســفن. ويؤكد كوربيت أن مجرد فقدان أمة ما للسيادة على البحر لا يعني بالضرورة أن أمــة أخرى قد امتلكت هذه الهيمنــة (كما كان يعتقد ماهان). إن تحالفا بحريا قد يبدو ضعيفا ومشــتتا يمكنه، إذا جرى تشــكيله كما ينبغي، أن يمتلك «واقعا من القوة». وأطلق كوربيت على هذا اســم «الأسطول المتاح» - أي مجموعة من الســفن التي يمكن أن تُجمع بسرعة لتشــكيل أسطول موحد عند الضرورة. ولن يحتاج هذا الأسطول المتاح للهيمنة على الأساطيل الأخرى أو إغراقها؛ بل يمكن أن يكتسب فعاليته عن طريق الاســتيلاء على القواعد ومراقبة نقاط الاختناق. بيد أن هذا الأســطول القادر بصورة مضللة، كما جادل كوربيت، يجب أن يسعى إلى «حياة نشــطة وقوية» من خلال تسيير دفاعات محدودة[13]. وبمحض المصادفة، فقد نُشر كتاب كوربيت بعــد أن قلّصت البحرية الملكية البريطانية وجودها في جميع أنحاء العالم من خلال الاســتفادة من القــوة البحرية المتنامية لحليفتيها، اليابان والولايات المتحدة.

أمــا الآن، فإن الولايات المتحــدة تحظى بمكانة مماثلة لتلــك التي امتلكتها بريطانيا منذ مائة سنة، ومع ذلك فإن عدد قطع البحرية الأمريكية ظل يتناقص: من نحو 600 ســفينة خــلال الحرب البــاردة إلى 350 خلال تســعينيات القرن العشريــن، إلى 280 الآن، مع إمكانية التراجع إلى 250 خلال الســنوات والعقود القادمة - بســبب تخفيضات الميزانية وتجاوزات التكلفة. وعلى هذا النحو، فهي تعمل على ضم حلفاء بحريين مثل الهند، واليابان، وأســتراليا، وســنغافورة. وفي أكتوبر 2007 نشرت البحرية الأمريكية وثيقة بعنوان «إستراتيجية تعاونية للقوة

البحرية في القرن الحادي والعشرين»، والتي تتسم بأنها أقرب إلى روح كوربيت، التي تؤكد على التعاون، منها إلى روح ماهان التي تؤكد على الهيمنة. وتستطرد الوثيقة قائلة «إن مصالح أمتنا ستتحقق بأفضل صورة من خلال رعاية نظام عالمي سلمي يتألف من شبكات مترابطة للتجارة، والتمويل، والمعلومات، والقانون، والشعوب، والحوكمة». وكما تراه البحرية الأمريكية، فقد صار عالمنا مترابطا على نحو متزايد مع تجمع سكان العالم في عُقد ديموغرافية نابضة بالقرب من البحار التي ستكون عرضة لاضطرابات كبيرة، مثل الهجمات عديمة التناسق والكوارث الطبيعية. حتى الصراعات الكبرى على السلطة، كما تقول الوثيقة، صارت عرضة لأن تكون خفية وغير متناسقة. هناك قليل من الحديث هنا عن المعارك البحرية والبرية التقليدية، كما أنه لم يُشر حتى إلى تنامي القوة البحرية للصين، في حين أن روح «الأمن الجماعي» في كل مكان. «ليست هناك أمة واحدة تمتلك الموارد اللازمة لتوفير السلامة... عبر النطاق البحري بأكمله». وفي هذا النطاق البحري، تشير الوثيقة إلى أن غرب المحيط الهادي والمحيط الهندي سيكونان أولى المناطق المتساوية في الأهمية الإستراتيجية[14].

وبالتالي، فإن الأرض المحيطة لأوراسيا والرعن promontory العالمي الأكبر حجما (ساحل الجزيرة العالمية)، إذا أردنا استخدام تعبيرات سبيكمان وماكيندر، ستواجهان اثنتين من الحقائق العسكرية، على ما يبدو. فمن ناحية، سيكون هناك سلاح البحرية الأمريكي، بأسطوله الذي لايزال مهيمنا على الرغم من تراجعه، والذي يقوم بدورياته، استلهاما لأفكار كوربيت، بالتنسيق مع الحلفاء المحليين من أفريقيا إلى شمال شرق آسيا، من أجل الحفاظ على كون البحار آمنة أمام حركة التجارة. ومن الناحية الأخرى، سيكون هناك تأكيد على القوة المتنامية من قبل الصين في المقام الأول، والهند في المقام الثاني، وكل منهما مسلحة بميولها الماهانية. وبالتحديد بسبب ترحيب الصينيين بهذه الأيقونة الأمريكية للطموح الإمبريالي، فإن البحرية الأمريكية لن تتمكن من الإفلات تماما من روحه؛ حيث سيستمر الصراع الأبدي على سياسات القوة، بقدر رغبتنا في الهروب منه. وكما كتب أستاذ العلوم السياسية بجامعة شيكاغو، جون ميرشايمر Mearsheimer، فإن «القول بأن التوسع مضلِّل بطبيعته يعني أن كل القوى العظمى على مدى السنوات

الثلاثمائة والخمســين الماضية قد فشــلت في فهــم الكيفية التي يعمــل بها النظام الدولي، وهي حجة لا يمكن تصديقها كما هي». ويســتطرد ميرشــايمر قائلا: «بالنظر إلى الفوائــد الهائلة للهيمنة»، ففي ظل نظــام فوضوي لا توجد فيه قوة مهيمنة في العالم، «ستكون هناك رغبة دائمة لدى الدول القوية لمنافسة الولايات المتحدة، ومن ثــم محاولة الهيمنة على المنطقة التي تقع فيها مــن العالم»[15]. وحتى الآن، وفيما يتعلق بسمعته، فإن أفضل أيام ماهان لم تأتِ بعد.

ومع اكتظاظ المنطقة الســاحلية لأوراسيا على نحو متزايد بالسفن الحربية من أجل تلبية طموحات الصينيين، والهنود، وغيرهم إلى جانب تلك الأمريكية،على الرغم من أن ثمة مســارا قطبيا أكثر فعالية يقلص المســافات بين أوراسيا وأمريكا الشمالية عــلى نحــو متزايد، فإن صراعــات الهيمنة في جميع أنحاء العالم لــن تزيد إلا سرعة وحدّة. وبالتالي، فنحن الآن بحاجة إلى استكشاف ملامح أي نظام جغرافي مغلق.

8

«أزمة المتسّع»

«أدى العبء المتمثل في حكم التجمعات الحضرية الفقيرة والشاسعة إلى جعل إدارة الدول أكثر إرهاقا مما كانت عليه في أي وقت مضى عبر التاريخ»

المؤلف

باعتباري أستاذا زائرا في الأكاديمية البحرية الأميركية في أنابوليس قبل سنوات، قمت بتدريس دورة حول التحديات المستقبلية في مجال الأمن الوطني. بدأت الفصل الدراسي بجعل ضباط الصف البحريين يقرأون كتاب «نار في الشرق: صعود القوة العسكرية الآسيوية والعصر النووي الثاني» من تأليف أستاذ العلوم السياسية بجامعة ييل، بول براكِن Bracken. ولكونه عملا ألمعيا وجيزا ومستبصرا لم يحقق مبيعات جيدة عندما نشر في العام 1999، فإن كتاب براكِن يُظهر روح ماكيندر وسبيكمان بدرجة كبيرة، على الرغم من أنه لا توجد إشارات إليهما في نصه. أما براكِن، الذي عمل مستشارا في الأغلبية العظمى من مشروعات إعادة التقييم التي أجرتها الحكومة الأمريكية

خلال فترة ما بعد الحرب الباردة، فيرسم خريطة مفاهيمية لأوراسيا تتحدّد بالانهيار المســتمر لكل من الزمن والمسافة، وبملء المســاحات الفارغة - وهو أمر نبهنا إليه أولا وليام ماكنيل McNeill في الفصول الأخيرة من تاريخه الأكبر للبشرية. ولكن لأن براكِــن كتب مؤلفه خلال مرحلة أكثر دراماتيكية من هذا التطور، فقد أدى به هذا إلى الإعلان عن أن ثمة «أزمة في المتسّــع». يشير براكِن هنا إلى فكرة عالم الرياضيات الهنغــاري - الأمريكي الكبير جون فــون نيومــان von Neumann، الذي اعتبر أن الجغرافيا القليلة السكان التي تميّز بها الماضي قد عملت كآلية وقائية ضد التطورات العسكرية والتقنية. ومع ذلك، فقد شعر فون نيومان بالقلق من أن تكون الجغرافيا الآن في سبيلها إلى خسارة المعركة. ومما لا يمكن إنكاره أن «الحجم المحدود للأرض» سيعمل على نحو متزايد كقوة مُسببة لعدم الاستقرار، مع قيام الأجهزة hardware والبرامجيات العســكرية باختزال المســافات على الخريطة الجيوسياســية. ويحذرنا براكِن من أن «هذا التغيير يسهل تفويته، لأنه تدريجي»[1].

اســمحوا لي الآن بأن أوجز شرح فرضية براكِن في بضع صفحات، لأن لها أهمية كبيرة في طرح فرضيتي.

وفي حين يركّز الأمريكيون والأوروبيون على العولمة، فإن جاذبية القومية والقوة العســكرية تتنامى في أوراســيا. إن اختبــارات الصواريخ والقنابــل، وبرامج الحرب البيولوجية، وتطوير الأســلحة الكيميائية هي «منتجات آســيا المزدهرة والمتحررة»، كما أشــار إليه براكِن. أما ما «فشل الغرب في تقديره» فهو أن تقنيات الحرب وبناء الــثروات كانت دائما وثيقة الارتباط: فمن النهضة الاقتصادية في آســيا أتى صعودها العسكري. وخلال السنوات الأولى للحرب الباردة، كانت القوات العسكرية الآسيوية في المقام الأول عبارة عن جيوش متثاقلة الحركة من نوع تلك التي شاركت في الحرب العالمية الثانية، والتي تمثّل الغرض الأساسي منها – على الرغم من أنه غير معلن على الإطلاق - في التوحيد الوطني. «كان الجيش أداة للتلقين الجماعي، ومدرسة عملاقة تتمثل مناهجها الأساسية في السيادة القومية». وقد ساعد الجنود في جني المحاصيل أكــثر بكثير مــما عملوا على شــحذ مهاراتهم القتاليــة. وهكذا، فقــد انصب تركيز الجيوش على الداخل، حتى على الرغم من وجود مســاحات شاسعة تفصل العديد من الجيوش القومية عن الجيوش القومية الأخرى. ولكن مع تراكم الثروات الوطنية

وترسّخ ثورة الحاسوب، عملت الجيوش الآسيوية - من الشرق الأوسط الغني بالنفط إلى اقتصاديات النمور في منطقة المحيط الهادئ - على تطوير مجمّعات عسكرية/ مدنية متطورة من حقبة ما بعد التصنيع، والمزودة بالصواريخ والألياف البصرية والهواتف الخليوية. وفي الوقت نفسه، فقد صارت الدول الآسيوية أكثر تماسكا من الناحية البيروقراطية، مما سمح لجيوشها وقادتها بالتركيز على الخارج وبعيدا عن السياسة المحلية، نحو دول أخرى، وبالتالي صارت أشد فتكا واحترافية خلال هذه العملية. وبدلا من التراجع إلى الريف في مواجهة الخطر، وهو الخيار المتبّع في العهود الماضية، تقوم الآن أجهزة الاستشعار الإلكترونية بمراقبة الحدود الدولية، في حين تظل أسلحة الدمار الشامل على أهبة الاستعداد. أما الجغرافيا، فبدلا من أن تكون متكأ، فقد صارت سجنا لا مهرب منه[2].

«إن حزاما متصلا من البلدان، من إسرائيل إلى كوريا الشمالية» (بما في ذلك سورية، وإيران، وباكستان، والهند، والصين) «قد كدّس إما ترسانات نووية أو كيماوية كما يعمل على تطوير الصواريخ الباليستية. يمتد ثمة توازن متعدد الأقطاب من الترهيب على شكل قوس يبلغ قطره 6 آلاف ميل»، والذي يتقاطع عبر الساحتين العسكرية والسياسية وإدارات «الدراسات الإقليمية» التي يقسّم فيها الغرب آسيا. وبالتالي، فإن «موت المسافة» يجثم علينا، كما يحذّر براكِن. ولنأخذ اليابان مثالا على ذلك، والتي منذ أن أطلقت كوريا الشمالية صاروخا عبرها في العام 1998، والذي سقط في المحيط الهادئ، لم تعد منطقة محمية، ولكن جزءا لا يتجزأ من المساحة العسكرية للبر الرئيس للقارة الآسيوية، على الرغم من جغرافيتها الأرخبيلية. وعلى مر القرون، تشكّل مفهوم آسيا بفعل القوة البحرية الغربية، بداية من البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر؛ قبل أن تُفكك إلى مناطق منفصلة بسبب الحرب الباردة. ولكن في سبعينيات القرن العشرين، مع اجتياح الطفرة الاقتصادية لشرق آسيا، وهي منطقة كبيرة وجديدة، تشكّل «حوض المحيط الهادئ»، والذي يمثل أساسا للعودة إلى خريطة شاملة لآسيا. ولم يكن لقصة النجاح الاقتصادي هذه أن تتحقق، إلا لأن التهديد بالقوة كان أمرا غير وارد: وهذا بدوره كان راجعا إلى وجود قوة مهيمنة عسكريا، وهي الولايات المتحدة، والتي عملت ضامنا للسلام. أما الآن، ومع عودة آسيا لتكون وحدة عضوية واحدة، فإن قوة الولايات المتحدة تنحسر

ببطء، في حين أن القوة العسكرية للصين والهند، وغيرهما من الدول القومية، آخذة في الارتفاع. تتزايد آسيا في الحجم مع انهيار الوحدات الفرعية subunits الإقليمية؛ كما يتزايد خوفها من الانغلاق بسبب تزايد كل من عدد السكان ومدى الصواريخ؛ كما أنها صارت أكثر تقلبا، بسبب تكديس الأسلحة من دون أن يترافق ذلك مع تحالفات منظمة[3].

وكما يشرح براكِن، فبسبب مساحتها الهائلة، طوال معظم الفترات التاريخية، فلم تكتسب التحالفات أهمية كبيرة في آسيا على الإطلاق، إذ كانت الجيوش بعيدة للغاية بعضها عن بعض بحيث لا يمكنها أن تقدم يد المساعدة بعضها إلى بعض. كان هذا نقيضا للوضع في أوروبا، حيث تتزاحم عديد من الدول القوية بعضها ضد بعض في شبه جزيرة ضيقة. لكن هذا الوضع يتغير الآن؛ ففي أرجاء أوراسيا، تُنشأ قواعد الصواريخ وأسلحة الدمار الشامل، وليس قوات المشاة. أما الدوريات البحرية والبحرية من مختلف الدول، والتي تنبض بالتكنولوجيا الحديثة، فتجوب المياه البعيدة عن الموانئ الرئيسية في المحيط الهندي وغرب المحيط الهادي. وتعمل الصين، واليابان، والهند، وإسرائيل، وغيرها من الدول على تطوير شبكات الاتصالات باستخدام الأقمار الاصطناعية وأجهزة التنصت التي تعمل تحت الماء. أما الهند، التي كانت طوال معظم الفترات التاريخية تنظر إلى الصين على أنها غير ذات صلة بمخاوفها الأمنية، لأن البلدين يفصلهما أعلى الجبال في العالم، فتمتلك الآن أقمارا اصطناعية وطائرات استطلاع تزودها بتفاصيل تحركات القوات الصينية في التبت. وفي الوقت نفسه، فقد أنشأت البحرية الهندية مركزا للقيادة في الشرق الأقصى في جزر أندامان Andaman Islands، التي تقع على بعد 750 كيلومترا إلى الشرق من البر الهندي، لمواجهة الوجود البحري الصيني الذي يعمل بدوره على مبعدة من شواطئ بلاده. وكما كتب براكِن، فمع «تحالف القوة الصناعية الآسيوية مع القوة العسكرية الآسيوية»، فإن القارة صارت تفتقر حرفيا إلى أي مجال للخطأ وسوء التقدير، كما أصبحت، في الواقع، «رقعة الشطرنج الأوراسية المتقلصة»[4].

وبالنسبة إلى رقعة الشطرنج المتقلصة هذه، يضيف براكِن عاملا مزعزعا للاستقرار، هو «التقنيات الهدامة»: أي التقنيات التي، بدلا من أن تساعد في

تعزيـز الهيكل الحالي للقيـادة والقوة العالمية، فهي «تعمـل على تقويضها عن طريق عرقلة الوضع الراهن». تشمل هذه التقنيات فيروسات الحاسوب وأسلحة الدمار الشـامل، خصوصا الأسلحة النووية والقنابل البيولوجية. وفي هذا السياق، كتب براكِن:

> تعمل التقنيات الهدامة على تغيير قواعد اللعبة. وعن طريق قَلب المزايا القائمـة، فهي ترعى مهـارات جديدة وتعزز اسـتراتيجيات مختلفة. أما حالة عدم اليقين الناجمة فسـتهز أسـس النظام الراسـخ وتغيّر المعايير التي تُقاس بها القيادة[5].

وبالفعل، فقد قامت التقنيات الهدامة، بتحريض من التعصب الديني، بجلب الهضبة الإيرانية إلى أعتاب فلسـطين الجغرافية، على الرغم من أن إيران وإسرائيل يفصلهـما أكثر من ثمانمائة كيلومتر. كما أن إيران ليسـت سـوى جـزء من توجّه كامل. وكما أشرت إليه سـابقا، فبدلا من أن تكتفي بشراء أحدث الأسلحة الغربية، فإن الصين، وكوريا الشـمالية، والهند، وباكسـتان، وغيرها من البلدان تعكف على تطويـر تقنيـات هدامة. وفي عصر تعمـل فيه بلدان العالم الثالث السـابقة على حيازة أسلحة نووية تكتيكية، فإن القواعد الأمامية الكبيرة من النوع الذي احتفظ بـه الجيش الأمريكي في المملكة العربية السـعودية والكويـت قبل حرب الخليج الثانية، قد تكون من الآن فصاعدا عرضة لهجوم الأعداء. تعدُ مثل هذه التطورات بإعاقة اسـتعراض أمريكا للقوة في جميع أرجاء الأرض المحيطة لأوراسـيا، وبالتالي تمهـد الطريق نحو ترتيب للقوى يتسـم بأنه متعدد الأقطاب وأقل اسـتقرارا. إن حرية تكديس المعدات العسـكرية في المواقع الرئيسـة في جميع أنحاء العالم هي التي حافظت على القوة العسـكرية الأمريكية، لكن الأسلحة النووية والكيميائية - البيولوجية يمكن أن تدمر هذه المواقع الأمامية، أو على الأقل جعلها غير صالحة للاسـتعمال لبعض الوقت. وفي هذا السياق، كتب براكِن أن «الحفاظ على الوضع اللا متناظر، الذي تكون فيه أعظم قوة عسكرية في آسيا غير آسيوية [بل أمريكية] يعتمد على الحد من التسـلح» - وهو أمر صار متزايد الصعوبة مع اكتساب دول العـالم الثالث السـابق قدرات عسـكرية هدامة. وعلى مدى عقود، اسـتخدمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي الأسلحة النووية، من دون تفجيرها في الواقع،

من أجل «المناورات السياسـية، والتهديدات الضمنية، والردع، وإرسـال الإشارات signaling، ورسم الخطوط في الرمال، وغيرها من أشكال الأفضلية السيكولوجية». أمـا الآن، فهنـاك مزيد من البلـدان التي ترغب في أن تحـذو حذوهما، حتى إن بعضها يتحـرك بدافع من الغضب الناتج عن الفقر، عـلى الرغم من افتقارها إلى آليات المراقبة البيروقراطية اللازمة للتحكم في اسـتخدام هذه الأسـلحة على نحو مسـؤول. وخلال الحرب الباردة، تناولت كل من القوتين العظميين الحرب النووية بمنطق «الاسـتقلالية والعقلانية». لكن الأمر قد لا يكون كذلك في ما أسماه براكِن «العصر النووي الثاني»، والذي تشكّل فيه أوراسيا مساحة صغيرة مكتظة بالبلدان الفقيرة، وبعضها من بين القوى النووية[6].

وكما يقول براكِن، فإن «انتشـار الصواريخ وأسلحة الدمار الشامل في آسيا يشبه انتشار المسدس في الغرب الأمريكي القديم». ولكونه رخيصا ومميتا في الوقت نفسه، كان المسـدس بمنزلة عامل مُعـادِل equalizer، لأنه جعل الحجـم والقوة البدنية للرجال أقل أهمية بكثير. ومثلما غير المسدس من ميزان القوى بين الرجال في الغرب القديـم، فإن القنابل النووية والتقنيات المدمـرة الأخرى التي تمتلكها الأمم الفقيرة تغيّر التوازن العالمي للقوى[7].

إن انتشـار الأسـلحة النووية في آسـيا «يجعل العـالم أقل توجها نحـو أوروبا Eurocentric»، وبالتـالي يـسرّع عملية العولمة إلى حد كبير[8]. سـتصبح جغرافية أوراسيا بمثل حميمية جغرافية أوروبا، حيث يوجد عدد لا يحصى من الدول القوية، والمحصـورة على نحو غـير مريح داخل مسـاحة صغيرة، والتـي خاضت الحروب باسـتمرار، مع حلول السلام بينها بالوتيرة نفسها عن طريق ممارسة سياسات توازن القـوى. لن يكون هنـاك تكديس لأكوام من الـرؤوس الحربية النوويـة الحرارية كمثل الذي شـهدناه خلال الحرب الباردة، وبالتالي فإن السلام والاستقرار الناجمين عـن القدرة على التدمير المتبـادل لن يتحققا بالضرورة، على رغـم أن الضرر الذي سـتتمكن دولة ما من إلحاقه بأخرى سـيكون هائلا - وفي عالم يعج بالمدن الكبرى المزدحمة - يقترب من كونه مسـتعصيا على الفهـم. وبالتالي، فإن الجغرافيا المغلقة ستحتاج إلى أقدر ممارسي فن الحكم المتمثل في موازنة القوى على طريقة ميترنيش Metternichian من أجل منع وقوع العنف الجماعي.

ومن دون ريب، فقد ندلف إلى عالم من سياسة حافة الهاوية brinkmanship المتعددة الأبعاد. إن تقلص الخريطة لا يطمس المناطق الاصطناعية التي اخترعتها الدراســات التي تناولت مجال الحرب الباردة فحســب، لكنه أيضا يجعل تصوّر ماكيندر وســبيكمان لوجود محور محدّد تجــاوره أراض محيطة أقل وضوحا، إذ تمت إعادة تشكيل أوراسيا بفعل التكنولوجيا إلى كلّ عضوي. وعلى سبيل المثال، يمكن للمســاعدات العســكرية المقدمة من الصين وكوريا الشمالية إلى إيران أن تجعل إسرائيل، الواقعة في الطرف الآخر من الكتلة القارية الأوراســية، إلى اتخاذ إجراءات عســكرية محدّدة. وبسبب الصور المثيرة للمشــاعر التي يبثها التلفاز، فإن القنابل التي تســقط على غزة يمكنها الآن تحريك الحشــود في إندونيســيا. وفي وســع القوات الجويــة الأمريكية مهاجمة أفغانســتان المحاطة بالأرض من كل جانب انطلاقا من جزيرة دييغو غارســيا في وســط المحيط الهندي. وفي حين اعتادت الجيوش المحلية أن تظل محصورة في مناطقها، فســتزداد اســتعراضات القــوة من قبل القــوات البحرية الصينية والهندية مــن خليج عدن وحتى بحر الصــين الجنوبي وبحــر اليابان - أي عــلى طول كامــل الأرض المحيطة الصالحة للملاحــة. وهناك عديد من هذه الأمثلة على التأثير المتبادل للأوضاع السياســية في أحد أجزاء أوراســيا على الأجزاء الأخرى. لكن هذا لا يلغي دور الجغرافيا، بل يعنــي فقط أنه ينبغي علينا إضافة عوامــل أخرى إليها، فهي لم تعد مهيمنة إلى الدرجة التي كانت عليها.

ليس فقط أن مخاوف ماكيندر وسبيكمان ستشتد بفعل التقنيات الهدامة التي يركز عليها براكِن، ولكن بفعل الزيادة الهائلة في ســكان المناطق الحضرية أنفسهم، مــما لن يزيد خريطة أوراســيا إلا انغلاقا. وفي تســعينيات القــرن العشرين، خلال الدورة الفكرية الأولى لمرحلة ما بعد الحرب الباردة، عندما جرى التقليل من شــأن مصطلحي «الواقعية» و«الحتمية» خلال الفترة المتهورة التالية للإطاحة بالشيوعية، كما تمت السخرية من أفكار الفيلسوف الإنجليزي توماس روبرت مالثوس Malthus الــذي عاش في أواخر القرن الثامن عشر من قبل كثــير من المثقفين باعتبارها قاتمة للغاية وقدرية: لقد تعامل مالثوس مع البشرية كنوع من الأحياء يســتجيب لبيئته المادية، وليس كمجموعة من الأفراد ذوي الإرادة المستقلة، والذين يتحركون بدافع

مــن أفكارهم. بيد أن نظريــة مالثوس المحددة - والقائلة بأن عدد الســكان يزداد هندســيا في حين لا تزيد الإمدادات الغذائية إلا حســابيا - كانت خاطئة. ومع ذلك فبمرور السنين، وفي ظل التقلبات الكبيرة في أسعار المواد الغذائية والطاقة في العالم، والجموع المحتشدة الغاضبة من الدهماء المخلصين – ومعظمهم من الذكور الشبان - المعزولين في أماكن مثل كراتشي وغزة (وهي ســويتو Soweto الشرق الأوســط)، فإن مالثوس، باعتباره أول فيلسوف يركّز على الديموغرافيا وعلى التأثيرات السياسية لنوعيــة الحياة بين الفقراء، يحظى بقدر أكبر من الاحترام. إن نصف ســكان الضفة الغربية وقطاع غزة هم دون ســن الخامســة عشرة. وفي الواقع، ففي حين أن عدد سكان الشرق الأوسط الكبير سيزداد من 854 مليونا إلى أكثر من 1.2 مليار على مدى الســنوات العشرين المقبلة، مع تضاعف ســكان العالم العربي تقريبا، فإن إمدادات المياه الجوفية ستقل إلى حد كبير، وخاصة في أماكن مثل اليمن، مما سيؤدي إلى آثار جانبية ناســفة على السياسة، فسوف نسمع كلمة «مالثوسي» Malthusian بصورة أكثر تواترا.

وعــلى الرغــم من أن إثبات صحــة نظرية مالثوس قد يكون ممارســة لا طائل منهــا، فإن رؤيته الكونية العامة تتناســب بشــكل جيد مع مفهــوم براكِن لفقدان المتسّــع في أوراسيا. إن المدن العملاقة المزدحمة، التي تعاني سوء الأحوال المعيشية، وتتعرض لارتفاع في أســعار السلع الأساســية بصفة دورية، ونقص المياه، والخدمات البلدية غير المستجيبة، ستعمل بمنزلة أطباق بتري petri dishes خصبة لانتشار كل من الديموقراطية والتطرف، حتى مع تســلّح الأنظمة عــلى نحو متزايد بالصواريخ والجيوش الحديثة ذات التوجه الخارجي.

ســوف تكون المدينة العملاقة megacity في القلب من جغرافية القرن الحادي والعشرين. هناك بالفعل خمس وعشرون مدينة في العالم يبلغ عدد سكانها أكثر من عشرة ملايين نسمة، وســيرتفع هذا العدد إلى أربعين بحلول العام 2015، وجميعها باستثناء اثنتين في العالم الثالث السابق. تتقدم القائمة مدينة طوكيو الكبرى بسكانها البالغ عددهم 35 مليونا؛ فيما تتذيلها لاغوس بما يقرب من 12 مليون نسمة، في حين تقع ثلاث عشرة مدينة من الخمس والعشرين في جنوب أو شرق آســيا. إن كراتشي، وطهران، وإسطنبول، والقاهرة هي المدن العملاقة الواقعة في الشرق الأوسط الكبير.

وتتمثل الحقيقة الأساسية في أن هناك العديد من المدن في العالم الثالث السابق والتي غابت بفارق طفيف عن تلك القائمة، وأن أكثر من نصف البشرية تعيش الآن تحت ظروف مدينية، وهي حقيقة إحصائية سترتفع إلى الثلثين بحلول العام 2025. هناك 468 مدينة في العالم يتجاوز عدد سكانها المليون، وسيكون كل النمو الحضري المستقبلي تقريبا في البلدان النامية، وبالتحديد في آسيا وأفريقيا. نحن نعيش في عصر تعيش فيه نسبة كبيرة من الناس في ظل ظروف بالغة السوء؛ أما في زمن ماكيندر، في مطلع القرن العشرين، فلم يكن سوى 14 في المائة من البشر يقطنون المدن.

وكما أشرت إليه، فقد كتب ابن خلدون في مقدمته، أو «مقدمة» تاريخ العالم، أن بدو الصحراء، في سبيل تطلعهم إلى وسائل الراحة المادية للحياة المستقرة، صنعوا الدينامية الأصلية للتمدّن، والتي التقطها الحكام والأسرات الحاكمة القوية، الأمر الذي سمح بدوره، من خلال توفير الأمن، للمدن بأن تزدهر. ولكن لأن السلطة تتطلب الرفاهية، فإن الفساد يحل في نهاية المطاف، مع تقويض التكافل الجماعي، في حين يعمل الأفراد - من خلال تكديس الثروة والنفوذ - على إضعاف السلطة التنفيذية. وهكذا، تصبح الأنظمة هشة، ومن ثم تتفتّت وتحل محلها تشكيلات أخرى[9]. وللمرة الأولى في التاريخ، فإن هذه العملية تعمل الآن على نطاق عالمي. لقد نشأ عديد من المدن الواسعة والمدن العملاقة مع هجرة سكان الريف في جميع أنحاء أوراسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية باتجاه المراكز الحضرية مبتعدين عن الأرياف المتخلفة. ونتيجة لذلك، فإن قدرة رؤساء بلديات وحكام هذه التجمعات السكانية على حُكمها بشكل فعال من نقطة تحكم مركزية قد تضاءلت أكثر فأكثر: وبالتالي فإن هذه التجمعات المترامية الأطراف تتفتت بصورة غير رسمية إلى عديد من الضواحي ووحدات المساعدة الذاتية للأحياء، والتي غالبا ما يتحرك قادتها المحليون بدافع من المثل والأيديولوجيات التي تنشأ من بعيد، عن طريق تقنيات الاتصالات الإلكترونية. إن الإسلام المتطرف يمثل، في جزء منه، قصة التمدّن على مدى نصف القرن الماضي عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط الكبير. إن التمدّن مسؤول أيضا عن إفراز المتظاهرين التقدميين من أجل الديموقراطية الذين أطاحوا بعديد من الأنظمة العربية في العام 2011. لننس

صورة العرب كبدو رحّل أو من سكان الواحات الواقعة في السهوب الصحراوية، فمعظمهم من سكان المدن، بل والمدن المزدحمة والمتهالكة في الأغلب، كما يحس بالارتياح ضمن الحشود الهائلة. إن الخاصية اللاشخصية للغاية التي تميّز الحياة الحضرية، التي تُعاش بين الغرباء، هي السبب في تزايد حدة الشعور الديني. في القرية القديمة، كان الدين امتدادا طبيعيا للتقاليد اليومية ولروتين الحياة بين أفراد الأسرة الممتدة؛ لكن الهجرات إلى المدينة واجهت المسلمين بضياع الهوية المتأصل في العيش في الأحياء الفقيرة، وللحفاظ على تماسك الأسرة ووقاية الشباب من الانجراف إلى الجريمة، كان لا بد أن تُعاد صياغة الدين في شكل أشد وضوحا وأكثر أيديولوجية. وبهذه الطريقة تصبح الدول أضعف أمام، أو على الأقل تضطر إلى إفساح المجال إلى حد ما، لأنواع جديدة ومتطرفة في بعض الأحيان من القومية والتدين التي يعززها التمدّن. وهكذا، تترسخ مجتمعات جديدة تتجاوز الجغرافيا التقليدية، حتى إنها تشكّل أنماطا مكانية خاصة بها. كثيرا ما تحدث التغيرات الكبرى في التاريخ على نحو غير ملحوظ[10].

إن أوراسيا وشمال أفريقيا التي تضم كثيرا من التجمعات الحضرية الشاسعة، ونطاقات الصواريخ المتداخلة، ووسائل الإعلام العالمية المثيرة ستكون باستمرار موطنا للحشود الغاضبة، والتي تغذيها الإشاعات وأنصاف الحقائق التي تنقل بسرعة الضوء عبر القنوات الفضائية في جميع أرجاء الأراضي المحيطة وفسحة المنطقة المركزية، من إحدى مدن العالم الثالث إلى الأخرى. وعلى العكس من ذلك، فإن الحشود، المسلّحة بوسائل الإعلام الاجتماعية مثل تويتر والفيسبوك، ستتغذى على الحقيقة نفسها التي أنكرها الحكام المستبدون. ستمثل هذه الحشود عنصرا رئيسا في حقبة جديدة تُظلم فيها خريطة التضاريس بفعل المدن الكبرى المكتظة بسكانها - وأعني بالحشود هنا مجموعة كبيرة من الناس الذين يتخلون عن فرديتهم لمصلحة رمز جماعي مُفقد للصواب. ومن جانبه، فقد كان إلياس كانيتي Canetti، اليهودي البلغاري الإسباني المولد والحائز جائزة نوبل في الأدب، مذهولا ومفزوعا من عنف الغوغاء بسبب التضخم، والذي انتشر في مدينتي فرانكفورت وفيينا ما بين الحربين العالميتين، لدرجة أنه كرس جزءا كبيرا من حياته لدراسة «القطيع البشري» human herd في جميع مظاهره. كانت الفكرة الـمُلهمة لكتابه المعنون «الحشود

والقوة»، والمنشـــور في العام 1960، هي أننا جميعــا نتوق إلى أن نوجد ضمن نوع ما من الحشـــود، لأنه داخل الحشـــد - أو مجموعة من الغوغـــاء، من وجهة النظر هـــذه - هناك ملجأ من الخطر، وعن طريق الاســـتدلال، من الشـــعور بالوحدة. إن القومية والتطرف، والتوق إلى الديموقراطية كلها نواتج لتشـّكل الحشـــود، وبالتالي تمثل مظاهر للســـعي إلى الهروب من الوحدة Loneliness. إن الشـــعور بالوحدة، الذي تخفف حدته عن طريق تويتر والفيســـبوك، هو ما يؤدي في النهاية إلى انهيار السلطة التقليدية وإقامة أنواع جديدة من السلطة.

يمثل الشـــعور بالوحدة ســـمة خاصة بالعيش في المناطق الحضرية، التي تتسم بكثرة الغرباء وبالندرة النســـبية للأهل والأصدقاء الحقيقيين. وبالتالي فإن الجغرافيا الحضرية الجديدة في العالم الثالث الســـابق في القرن الحادي والعشرين ستشـــكل خريطـــة من الشـــوق الشـــخصي الانفعالي. وفي الواقـــع أن تصوير جـــورج أورويل Orwell للطغيـــان يعتمـــد إلى حد كبير على النزعة الإنســـانية، مهما حاولوا إنكار ذلـــك، لمبادلة الحريـــة الفردية بالحمايـــة المطوّقة والاتصال الحميـــم الذي توفره المجموعة. وكما قالت إحدى شـــخصيات رواية أورويل، التي تحمل اسم «1984»: «عليـــك أن تصيـــح دائما مع الجماهير، هذا مـــا أقوله. إنها الطريقـــة الوحيدة لأن تكون آمنا»[11]. وبالفعل، فإن شـــبكة الإنترنت، كما يوضح الروائي توماس بينشـــون Pynchon، توفر الحماية التي يمثلها الحشـــد الافتراضي، وبالتالي فهي «تَعِدُ بفرض الرقابـــة الاجتماعية على نطاق لم يكن في وســـع الطغـــاة العتيقي الطراز من القرن العشرين مع شـــواربهم الخرقاء سوى أن يحلموا به»[12]. وفي الوقت نفسه، تضخم وسائل الإعلام الوجود، والغضب، والنشوة، والفضيلة - حسب مقتضى الحال- الذي تحتويه اللحظة الحالية، ســـواء كان ذلك خيرا أم شرا. وبعبارة أخرى، فإن السياسة في عصر وســـائل الإعلام الجماهيرية ستكون أشـــد حدة من أي شيء شهدناه، لأنها ستعمل على طمس الماضي والمستقبل معا.

كان علم نفس الحشـــود crowd psychology، كما حلت محله التكنولوجيا، فاعـــلا في انتخـــاب باراك أوبامـــا Obama وفي حركة البيع المذعورة لأســـهم وول ســـتريت في العام 2008؛ كـــما كان فاعلا في المذابح المعادية للمســـلمين في ولاية غوجارات الهندية في العام 2002، وفي المظاهرات الجماهيرية الحاشـــدة في أوروبا

ضـد الغـزو الأمريكي للعـراق في العـام 2003، وفي كل من المظاهـرات المؤيدة والمناهضـة للنظام في إيـران في العام 2009 و2010، وفي المسـيرات الشـعبوية الضخمة ضد الحكومة التايلندية في بانكوك خلال الفترة الزمنية نفسـها، وكذلك بصـورة متوطنة في المظاهرات المعادية لإسرائيل في الضفـة الغربية وقطاع غزة؛ وبطبيعـة الحال، في سـنة الثورة في الشرق الأوسـط - أي في العـام 2011، على الرغـم من أن ثورات الربيع العربي قد نادت بحرمة الفرد في أثناء مهاجمة قوات الحكام المسـتبدين الذين سلبوا من الأفراد كرامتهم.وسيُظهر علم نفس الحشود أعظم آثاره الجيوسياسـية في المدن الكبرى لآسـيا وأوروبا بالدرجة الأولى. وتتسم الأفكار بأهميتها، كما ينادي به الإنسـانيون الليبراليون والمعادون لمبدأ الحتمية، كما أن انضغاط الجغرافيا نفسه هو ما يوفر الظروف المثلى لظهور أيديولوجيات جديدة وخطيرة - وكذلك لانتشار أفكار الدمقرطة democratizing السليمة. أما التعليم الجماهيري، ولأنه ينتج أفواجا من الأشـخاص السيئي التعليم والمتحررين من الجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر)، فسـوف يُسـهم في زيادة عدم الاسـتقرار. وسـيكون نقص المتسع هو العامل الرئيسي في ذلك. يتحول المأوى النفسي للهوية القومية بشكل متزايد إلى المدينة وليس إلى الطبيعة الريفية المثالية، كما كان عليه في الماضي، على الرغم من أن الحشود في المناطق الحضرية ستطالب حكوماتهم في بعض الأحيان بانتهاج سياسـات خارجية اشتراكية متطرفة maximalist بناء على تلك التضاريس المثالية نفسها.

وستؤدي وسائل الإعلام دورا حاسما في هذه العملية؛ فكما كتب أوزوالد شبنغلر في كتابـه «تراجع الغـرب» The Decline of the West، «لم يتمكن أي مروّض من التحكم في حيواناته» بأكثر منها (أي وسائل الإعلام)، ويضيف قائلا:

> أطلـق العنان للشـعب كقطيع من القراء، وسـيندفعون عبر الشـوارع وسـيلقون بأنفسـهم على الهدف المحدد... لا يمكن تصوّر مبالغة كاريكاتيرية لحريـة الفكر أكثر ترويعا من هذه. ففي السـابق، لم يكن رجل ما يجرؤ على التفكير بحرّية؛ أما الآن فهو يجرؤ على ذلك، لكنه لا يستطيع؛ فإرادته للتفكير ليسـت سوى اسـتعداد للتفكير وفقا لما يمليه النظام، وهذا هو ما يشعر بأنه يمثل حريته[13].

كان شـبنغلر مفرطا في التشاؤم والسـخرية. ومع ذلك، لنذكر أن الكراهية التي كان السوفييت والأمريكيون يكنونها بعضهم لبعض كانت باردة ومجردة، ومن دون أساس عنصري، لكونه يفصل بينهم محيطان وسهول التوندرا في القطب الشمالي، وفي وقت كانت فيه تكنولوجيا الاتصالات في سـن مبكرة. لكن شاشـات التلفاز الرقمية المسـطحة الكبيرة في الحاضر والمسـتقبل (والتي، مثل التـي تعرض قناة CNN في المطارات، لا يمكنك إيقافها!) تجعل كل شيء قريبا وشـخصيا على نحو متزايد. هنا، مرة أخرى، تظهر روح براكِن:

> إن ما يجده الغربيون صعوبة في فهمه هو شـدة المشـاعر التي يضفيها الآسـيويون [والشرق أوسـطيون] على تلـك النزاعات الدينيـة والعرقية. من الممكن أن تنتشر الاضطرابات الداخلية بسرعة عبر أقاليم بأكملها، تُذكي أوارَها وسـائل الإعلام التي تصل إلى ما وراء الحدود والمنطق السـياسي الذي يبحث عن كبش فداء خارجي للمشـاكل المحلية. وبعد ذلك، فمن الممكن أن ينحشر القـادة الوطنيون في زاوية خطابية – وهي مكان خطر بالنسـبة إلى شـعوب تمتلك قنابل ذرية تحت تصرفها[14].

يحذر براكِن من تعرّض النزعات القومية «لاسـتخفاف خطير» من قبل المراقبين الغربيـين، الذيـن يـرون أنها جزء مـن ماض منحـسر يجعلنا التقـدمُ الاقتصادي والاجتماعـي نتجـاوزه. «إن أهم قضايـا القرن الحادي والعشريـن هي فهم كيف تندمج النزعات القومية مع التقنيات الهدامة الحديثة الظهور في آسيا». وكما قلت، فإن القوى النووية الجديدة، مثل باكسـتان، والهند، والصين، سـيكون لديها سكان من الطبقتين الفقيرة والمتوسطة الدُنيا، وسيحرّض هذا نزعة قومية مستاءة وسريعة الاهتياج في عصر ليسـت الرموز العسـكرية الجديدة فيه جيوشـاً، ولكن صواريخ وأسلحة نووية - وهي أحدث الأهداف المعتقدية للحشود[15].

وعـلى رغم أن امتـلاك الصورايخ كمقتنيـات تدعو إلى الفخر سـيعزز النزعة القوميـة، ومـن ثم القـوة في بعض الدول، مما يجعـل النزعة الوطنية أشـد قوة، فإن السـيكولوجيات الجماعية التي تقوم - بمسـاعدة من وسائل الإعلام - بتوحيد مختلف الجماعات العرقية والدينية، والطائفية، وكذلك الجماعات المكرسة للأممية الديموقراطية، ستقلّص قوة الدول الأخرى. وفي الوقت نفسه، فإن بعض الدول ستفقد

المعركة ضد العولمة ببطء، ولكن من دون هوادة، مع تآكل قدراتها البيروقراطية بفعل الحروب المستمرة منذ فترة طويلة، وتحركات اللاجئين المصاحبة لها، والمهمة الشاقة المتمثلة في إدارة المدن الكبرى ذات الخدمات الحضرية الرديئة. وخلاصة القول أنه مع تقلّص خريطة أوراسيا بفضل التكنولوجيا والنمو السكاني، فإن الحدود الجغرافية المصطنعة ستبدأ في التهاوي بداخلها.

إن فهم خريطة القرن الحادي والعشرين يعني قبول بعض التناقضات الخطيرة؛ ففي حين صارت بعض الدول أقوى عسكريا، كونها تمتلك أسلحة الدمار الشامل، فإن البعض الآخر، خاصة في منطقة الشرق الأوسط الكبير، يعتريها الضعف: فهي تفرخ جيوشاً لا نظامية مقيّدة بمناطق جغرافية محددة، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من تقاليد ثقافية ودينية، وبالتالي فهي تقاتل على نحو أفضل مما يمكن للجيوش النظامية أن تفعل في المنطقة نفسها. إن حزب الله في جنوب لبنان، ونمور التاميل السابقين في شمال سريلانكا، والناكساليين Naxalites الماويين في شرق ووسط الهند، ومختلف التجمعات القبلية من الباشتون الموالين لطالبان وغيرهم في شمال غرب باكستان، وطالبان نفسها في أفغانستان، وذلك الكم الكبير من الميليشيات العراقية، وخصوصا خلال الحرب الأهلية التي دارت رحاها ما بين عامي 2006-2007، تعد جميعها أمثلة على القوات البرية اللانظامية التي تعمل ضمن أراض محددة. وفي زمن يمكن فيه للصواريخ الدقيقة التوجيه أن تدمر منزلا محددا على بُعد مئات الأميال، مع ترك المنزل المجاور سليما على نحو متعمد، في وسع مجموعات صغيرة من الجنود غير النظاميين الذين يرتدون العمائم استخدام الطرق المتعرجة لمنطقة جبلية معقدة لإرباك قوة عظمى. في الحالة الأخيرة، يبدو انتقام الجغرافيا واضحا؛ ولكن في الحالة الأولى، أيضا، لا بد أن هذه الصواريخ قد أطلقت من مكان ما، الأمر الذي يتطلب قاعدة برية أو بحرية، مما يعود بنا إلى الجغرافيا، ولو إلى نوع أقل حميمية وتقليدية منها. بالنسبة إلى سبيكمان، تمتلك الأرض المحيطة المطلة على المحيط الهندي أهمية حاسمة بالنسبة إلى موضعة السفن الحربية الأمريكية، بصواريخها الموجّهة إلى أعماق إيران وأفغانستان، وهما اثنتان من دول المنطقة المركزية، في حين أن الأخيرة منهما تمزقها الصراعات القبلية، كما كانت الحال في زمن الإسكندر الأكبر.

تتعايش مفاهيم سبيكمان وماكيندر التي تعود إلى أوائل القرن العشرين مع تلك التي سادت في العصور القديمة، وجميعها وثيقة الصلة بعصرنا الحالي.

أدى العبء المتمثل في حكم التجمعات الحضرية الفقيرة والشاسعة إلى جعل إدارة الدول أكثر إرهاقا مما كانت عليه في أي وقت مضى عبر التاريخ؛ فكان سببا في انهيار الديكتاتوريات المتصلبة، فضلا عن إضعاف الديموقراطيات الفتية. تمتلك دولة مثل باكستان أسلحة للدمار الشامل، على الرغم من أنها لا تستطيع إلا بصعوبة توفير الخدمات البلدية وحماية سكانها من المفجرين الانتحاريين؛ كما أن هناك دولا مثل نيجيريا واليمن والصومال، على سبيل المثال لا الحصر، تتسم بكونها بالكاد تعمل، إضافة إلى كونها محاصرة بالميليشيات اللانظامية. وقد انخرط الفلسطينيون، خصوصا في قطاع غزة، في أعمال العنف كوسيلة للاحتجاج على حالتهم، على الرغم من أنهم تجنبوا تقديم التنازلات المطلوبة لإقامة دولة فلسطينية. وينطبق الشيء نفسه على حزب الله في لبنان، الذي كان في وسعه الإطاحة بالحكومة في بيروت وقتما شاء، لكنه اختار عدم القيام بذلك. يتعين على أي دولة أن تلتزم بقواعد معينة، وبالتالي تُصبح هدفا أسهل. وبالتالي فنحن أمام ظاهرة جديدة في هذا العصر الذي تميّزه المدن العملاقة ووسائل الإعلام: وهي سلطة انعدام الجنسية statelessness. وكما كتب جاكوب غريجل Grygiel، وهو أستاذ مشارك في جامعة جونز هوبكنز «إن الدولة تمثل عبئا»، وبالتالي فإن هذه الجماعات اللانظامية «تسعى إلى السلطة من دون تولي مسؤولية الحكم». تسمح وسائل الاتصالات والتقنيات العسكرية الحديثة لهذه الجماعات بأن تنظّم صفوفها، وبأن تطلب المساعدة من الخارج، وتسليح نفسها بالأسلحة الفتاكة بحيث لم تعد الدولة تمتلك احتكارا للعنف. وكما ذكرت في موضع سابق، ففي حين أن الثورة الصناعية كانت تتعلق بضخامة الحجم (الطائرات، والدبابات، وحاملات الطائرات، والسكك الحديد والمصانع، وهلم جرا) فإن حقبة ما بعد الثورة الصناعية تتعلق بصغر الحجم - كالقنابل المصغرة والمتفجرات البلاستيكية، والتي لا يتطلب نشرها مساحة كبيرة من الأرض كتلك التي تمتلكها الدولة. أما المجموعات عديمة الجنسية الصغيرة فهي المستفيدة من هذا العصر التكنولوجي الجديد. وفي الواقع، هناك مزيد ومزيد من الأسباب لعدم الانتماء إلى دولة ما. وكما كتب غريجل:

> فكلما ازدادت قدرة الدول على تدمير بعضها البعض، وخصوصا القوى العظمى، زادت خطورة امتلاك دولة، خصوصا بالنسبة إلى الجماعات التي يتمثل هدفها في تحدي القوى القائمة[16].

ويستطرد قائلا إن الدولة تمثل خيارا غير ملائم، بالنسبة إلى أولئك الذين يمتلكون أهدافا مُطلقية absolutist مستوحاة من الحماسة الدينية أو التطرف الأيديولوجي الذي لا يمكن أبدا أن يتحقق في وجود دولة رسمية. إن الهجرة الجماعية إلى الأحياء الفقيرة في عصرنا الحالي، ومن خلال قطع الصلة مع الريف التقليدي، قد ساعدت في عملية التحول إلى التطرف هذه عبر رقعة واسعة من الأرض المحيطة الجنوبية لأوراسيا. أما وسائل الإعلام، التي تمتلك هذه الجماعات وصولا ميسورا إليها، فتقوم بالترويج الإعلامي لمطالبها وفي أثناء ذلك تعزيز هوياتها أكثر فأكثر، مما يؤدي إلى تشكيل قطعان من الحشود المؤلفة من زملائهم المفكرين الذين لا تتحدد هوياتهم بالضرورة بولاءاتهم لدولة ما. وخلاصة القول أننا إذا تراجعنا لحظة لتدبّر الوضع الحالي، فسنجد أمامنا خريطة لأوراسيا المؤلفة من منطقة واحدة ضخمة بدلا من تلك التقسيمات الصغيرة لأقاليم الحرب الباردة التي اعتدناها. بيد أن هذه الخريطة محمّلة فوق طاقتها بعقد التواصل والاتصالات التي لم تكن قائمة أبدا أو كانت موجودة بالكاد من قبل: فبالإضافة إلى المدن الممتدة، ونطاقات الصواريخ المتداخلة، والأيديولوجيات التي يتردد صداها عبر وسائل الإعلام، ستكون لدينا طرق وموانئ جديدة وخطوط لأنابيب الطاقة، والتي تربط الشرق الأوسط وآسيا الوسطى ببقية أوراسيا من روسيا إلى المحيط الهندي إلى الصين. ومع تكدس الحضارات بصورة مكتظة واحدة مقابل الأخرى، وكون وسائل الإعلام أداة للانتهاكات اللفظية المستمرة، إضافة إلى الضغط الشعبي من قبل الجماعات المضطهدة، فإن الحاجة إلى ديبلوماسية هادئة تعمل من وراء الستار ستزداد يوما بعد يوم. ستفضي الأزمة إلى تلك التي تليها، وستكون هناك حاجة دائمة إلى أن يهدأ الجميع. وبسبب تماسك الخريطة وانكماشها، فإن مفاهيم مثل «المنطقة المركزية» و«الأرض المحيطة» والمناطق «الهامشية»، والتي تشير ضمنا إلى تقسيم أفقي يفصلها إلى أجزاء مكونة كبيرة، ستكون أقل أهمية من ناحية ما، ولكن من الجانب الآخر ستكون مفعمة بالنتائج بسبب التفاعلات الدائمة بين هذه المجالات: إن ساعة يد، أو رقاقة حاسوبية

من وجهة النظر هذه، ليست أقل تعقيدا بسبب حجمها، ولكي نفهم كيف تعمل الساعة أو الرقاقة الحاسوبية لايزال ينبغي على المرء تفكيكها إلى مكوناتها ليرى كيف يؤثر أحد أجزائها في الأجزاء الأخرى. إن الطائرة، وشبكة الإنترنت، وتركّز السياسة في المدن الشاسعة التي تبدو أكثر وأكثر شبيهة بعضها ببعض ستعمل، من دون ريب، على تقليص أهمية خريطة التضاريس. وبالفعل، فإن لسانية orality الإنترنت نفسها تمتلك طريقة لتحويل المعارك الإقليمية إلى معارك فكرية (وهو من أسباب أن النزعة الإنسانية لأشعيا برلين أمر سنكون في حاجة ماسة إلى التمسك به). ولكن مع ازدياد ضعف الدول أنفسها، بغض النظر عن مدى جودة تسليحها، وبالتحديد بسبب الكيفية التي صارت بها الديموقراطية والفضاء الإلكتروني مواتية للقوات من دون الوطنية subnational وفوق الوطنية supranational، فإن الأقاليم الأصغر حجما ستظهر بصورة أكثر جرأة، كما فعلت خلال العصور الوسطى بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية.

ومع ذلك فنحن نعيش الآن في «النظام السياسي المغلق» الذي تصوره ماكيندر والذي، كما أشار إليه براكِن، قد ازداد انغلاقا بكثير خلال القرن العشرين، كما أن الخريطة تخضع بدورها لقانون الإنتروبيا (الاعتلاج entropy)، والذي يعني أن حالة من التوازن ستسود في نهاية المطاف، في حين أن جميع الموائل البشرية الموجودة على خريطة التضاريس - وليس المدن العملاقة فحسب - ستبدو شبيهة بعضها ببعض على نحو متزايد، كما ستخضع لأهواء مماثلة. أما النتيجة، وفقا لأستاذ العلوم السياسية بجامعة ولاية أوهايو، راندال ل. شويللر Schweller، فهي أن «نوعا من الملل العالمي سينتج، من جراء فرط الاستثارة»، والمختلط بجرعة كبيرة على نحو مقلق من التطرف الفردي والمواقف العقائدية التي تتخذها الدول[17]. وبعبارة أخرى، فإن العالم سيكون مملا، وفي الوقت نفسه أكثر خطورة من أي وقت مضى. ولكن قبل أن يحل الضجر بالكامل، ستكون هناك اضطرابات وتحولات في القوى وتطورات جيوسياسية طبيعية، والتي يمكن وصفها عمليا بالرجوع إلى خريطة التضاريس.

وقد حان الوقت الآن لأن نستكشف بتعمق عدة مناطق مختلفة من العالم، مع التركيز بشكل خاص على القارة الفائقة لأوراسيا، واضعين في اعتبارنا كل ما تعلمناه

من هؤلاء المؤرخين، وخبراء الجغرافيا السياسية، وغيرهم من المفكرين. وفي الفصول التالية، سأحاول أن ألتزم بمدركاتهم وكذلك بنظرياتهم. سأكتب عن أوروبا، التي تقع بالقرب من المنطقة المركزية لماكيندر وتتأثر بها؛ وعن روسيا، وهي المنطقة المركزية ذاتهـا لماكيندر؛ وعن الصين، التي قد تهيمن في العقود المقبلة على جزء من المنطقة المركزية وجزء من الأرض المحيطة التي تصورها سبيكمان؛ وعن شبه القارة الهندية، التي تشكل المنطقة الرئيسية للأرض المحيطة؛ وإيران، حيث تلتقي المنطقة المركزية والأرض المحيطة بالفعل؛ وعن الشرق الأوسـط التركي والعربي، والذي يمثل ويكومين هودجسـون تقريبا؛ وأخيرا عن أمريكا الشمالية، وهي الأكبر من بين التوابع القارّية continental satellites التي تصورها ماكيندر، والتي سـتتحدى أوراسيا والجزيرة العالمية. سـأحاول ألا أضع التنبؤات، وإنمـا أن أصف الجغرافيا من حيث تأثيرها في التاريخ، من أجل تكوين فكرة عما قد يحمله المستقبل.

الجزء الثاني

خريطة أوائل القرن الحادي والعشرين

9

جغرافية التقسيمات الأوروبية

«تعيش أوروبا بالتأكيد في طور التقلص ديموغرافيا بفعل بقية بلدان آسيا وأفريقيا، وحتى الشعوب الأوروبية أنفسها أصبحت تضم أعدادا أكبر من مواطني أفريقيا والشرق الأوسط»

المؤلف

عندما يتعلق الأمر بالجغرافيا السياسية المعاصرة، بكل اضطراباتها وتطوراتها المتكررة، ينصبُّ التركيز بطبيعة الحال على أفرو - آسيا، من الشرق الأوسط إلى الصين. يميل التوجه إلى استبعاد أوروبا من المعادلة، وذلك باختزالها - كما يحدث في كثير من الأحيان - إلى أي قصة مالية. لكن هذا خطأ؛ فعدد سكان الاتحاد الأوروبي يبلغ 500 مليون نسمة، وبالتالي فهو ثالث أكبر عدد سكان في العالم بعد الصين والهند. كما يزيد حجم اقتصاد الاتحاد الأوروبي بنحو 16 تريليون دولار عن نظيره في الولايات المتحدة. ومن طرفها الغربي، تواجه أوروبا قلب أمريكا الشمالية، كما تبعُد عن المخروط الجنوبي لأمريكا الجنوبية بُعد الولايات المتحدة نفسه. أما من طرفها الشرقي، فتطل أوروبا على أفرو - أوراسيا. تقع أوروبا في

القلـب من نصف الكرة الأرضيـة الشرقي أو «البري»، على مسـافة واحدة بين الشرق الأقصى الروسي وجنوب أفريقيا[1]. وفي الواقع، فإن تفسـيرنا الجغرافي للسياسة العالمية ينبغي أن يبدأ بأوروبا. إن وجهة نظر كل من ماكيندر، وسـبيكمان، ومورغنثاو، وبعض المفكرين الآخرين الذين تناولناهم، هي في جزء كبير منها أوروبية.

وبالتـالي، لـكي نتعرف على الكيفية التـي تطوّر بها العالم منـذ أيامهم، من المفيد أن نبـدأ مـن حيث بـدأوا. وعلى الرغم من أنه من الواضح أن مارشـال هودجسـون Hodgson كان مُحقا من حيث منح الأولوية لويكومين الشرق الأدنى، فستشـكل هذه المنطقـة واحدة من المحطات النهائيـة لرحلتنا، وبالتالي فليس بنـا حاجة إلى أن نبدأ بها. لا داعي للقلق، فسـوف تقودنا أوروبا بطبيعة الحال إلى التدبر الجغرافي لروسـيا والصين وشـبه القارة الهندية، والشرق الأوسـط الكبير. ولفهم الجغرافيا السياسـية في القرن الحادي والعشرين، يجب أن نبدأ بالقرن العشرين، وهذا يعني أن نبدأ بأوروبا.

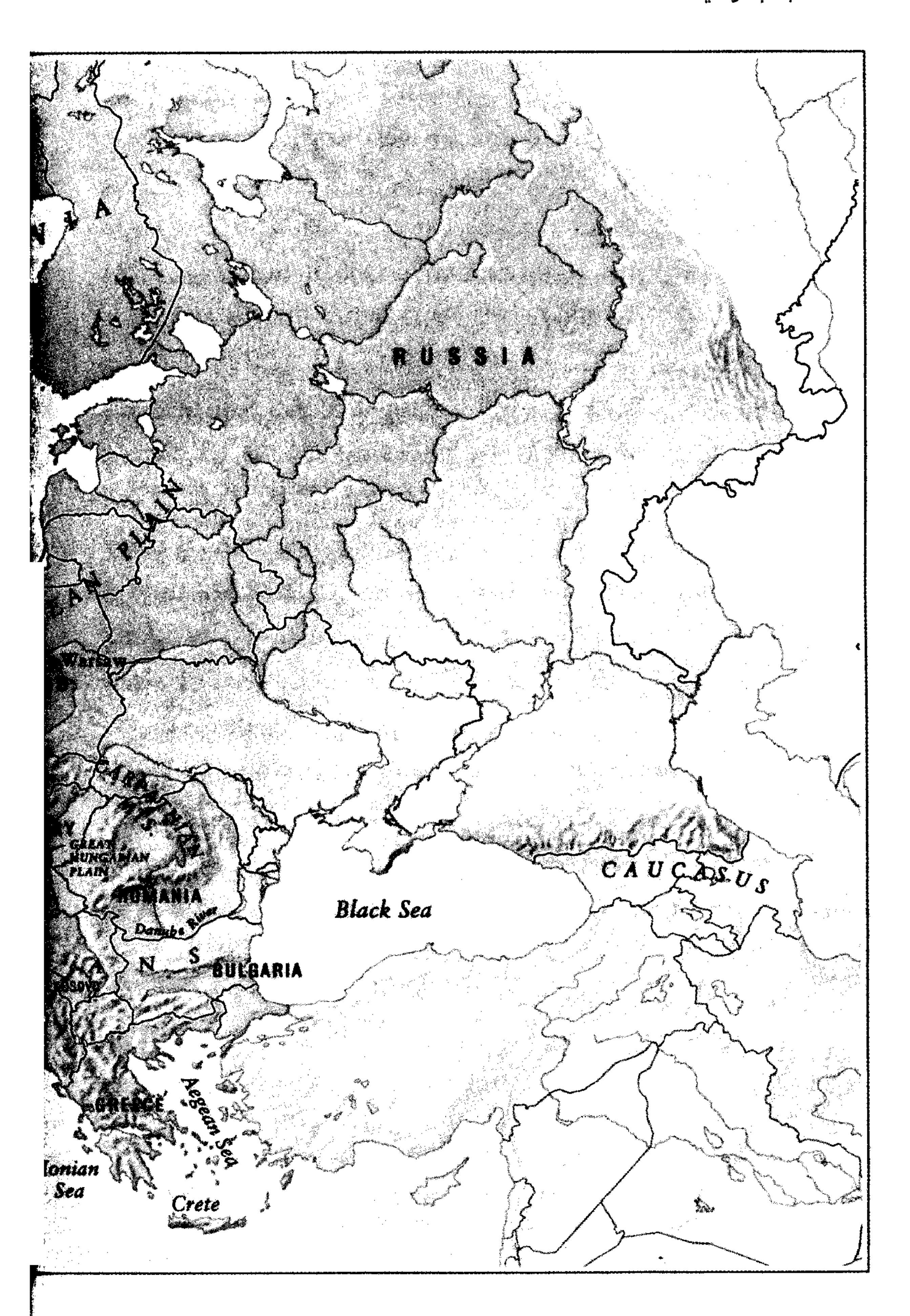
إن أوروبـا، كما أخبرنا ماكيندر، قد تَشـكّل مصيرها بفعل تدفـق القبائل الرحالة hordes الآسـيوية. وبالفعـل، فحتى في القرن الحادي والعشرين، ستسـتمر أوروبا في التأثـر عـلى نحو محـوري بعلاقاتها مع الـشرق، وخاصة مع روسـيا. إن الدرجة التي يمكن بها لأوروبا الوسـطى والشرقية أن تشـكّل حزاما من الدول المزدهرة والمسـتقرة المنبعثة من رماد الشـيوعية سـيكون لها تأثير كبير في حماية أوروبا من روسـيا، وأثناء هذه العملية، المتمثلة في تحويل حلم إحياء أوروبا الوسـطى Mitteleuropa إلى واقع ملموس: وهو حلم يتشاركه المثقفون الليبراليون بالفعل مع ماكيندر.

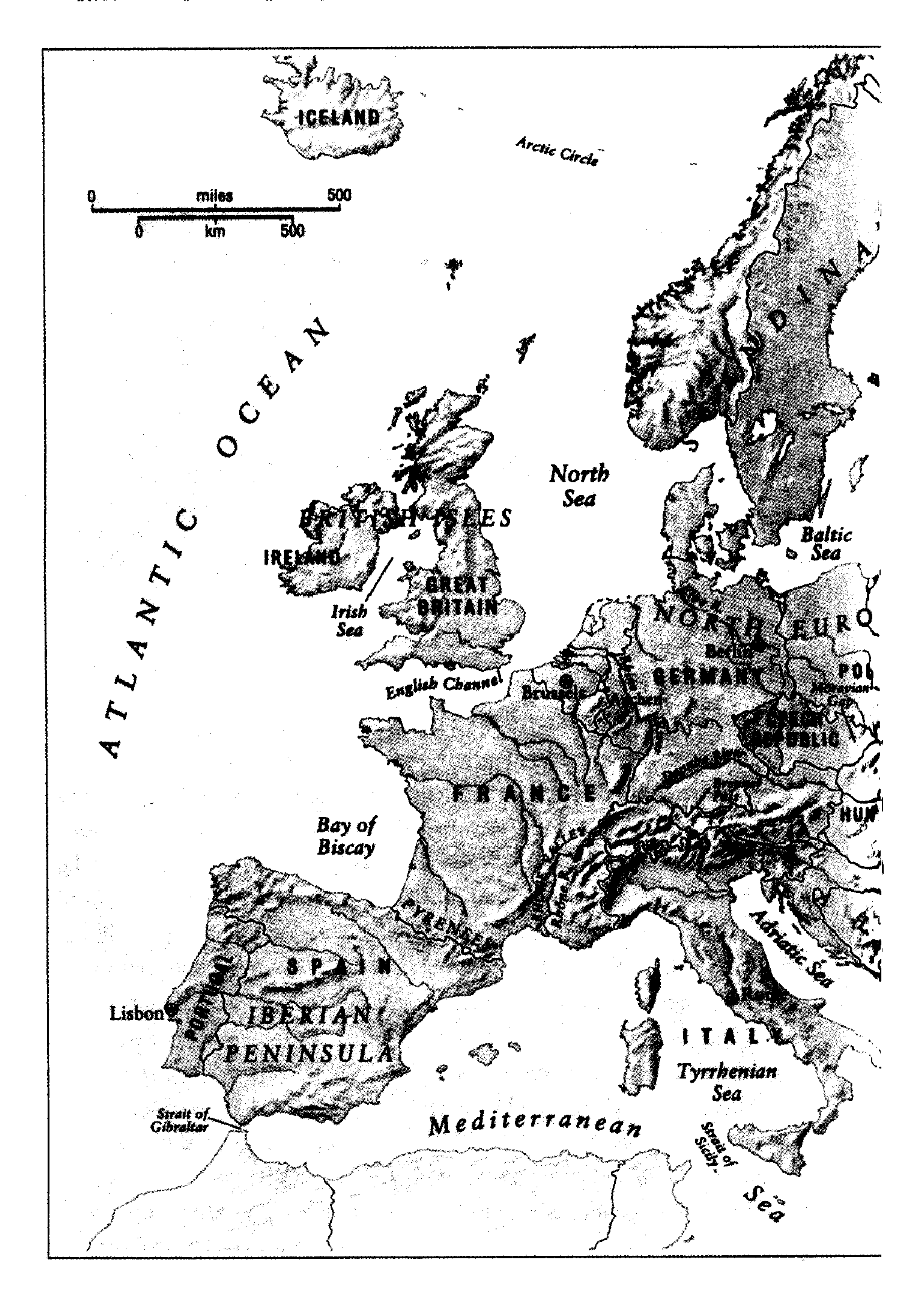
ومع ذلك، فإن أوروبا، وبالتحديد بسـبب سـعيها إلى تحقيق وحدة أوسع وأعمق، ستسـتمر أيضا في المعانـاة من انقسـاماتها الداخلية الخاصة، والتـي، على الرغم من الشـكل الاقتصادي الذي تُظهره هذه الانشـقاقات حاليا على السطح - كما هي الحال مـع الغضب الألماني بسـبب أزمة الديـون اليونانية - هي في الحقيقـة تمثل التعبيرات الخالدة للجغرافيا: بمعنى أنها أنماط التنمية المختلفة بين ألمانيا في شمال أوروبا واليونان في أوروبا البحر المتوسـط والبلقان. من المؤكد أن أوروبا سترى أن تاريخها يتشابك على نحـو متزايد مع أفريقيا إلى الجنوب وآسـيا إلى الشرق، الأمر الذي يعود في معظمه إلى الطريقة التي تسـهّل بها التكنولوجيا حركة الشـعوب. ولكن، وفي الوقت نفسـه، فلن تُحـرم أوروبـا من تنوعها الداخلي. وبعبـارة أخرى، فإن حقيقة كـون أوروبا لا تواجه في الوقت الراهن أي تهديد عسـكري تقليدي قد يتركها فريسـة لنرجسـية الاختلافات

الصغـيرة. وهذا الأمر، بدوره، يمكن أن يجعل مخاوف سـبيكمان حـول تحدي أوروبا الموحدة للولايات المتحدة أمرا سابقا لأوانه.

إن التعقيـد المبهج لجغرافيـة أوروبا، مع ثرائها في كل من البحار، وأشـباه الجزر، ووديان الأنهار، وسلاسـل الجبال، والتي ساعدت في تشكيل مجموعات لغوية مختلفة ودول قومية منفصلة، والتي سـتواصل المساهمة في الانقسامات السياسية والاقتصادية خلال السنوات المقبلة، على الرغم من المؤسسات المتعلقة بعموم أوروبا. إن أوروبا، كما تشير إليه الخريطة، سيكون لها مستقبل كبير في عناوين الصحف.

كذلـك فإن أوروبا، عـلى حد تعبير عالم الآثـار بجامعة أكسـفورد، باري كونليف Cunliffe، هي «الزائدة الغربية» لقارة آسـيا، باعتبارها شـبه جزيرة واسـعة النطاق تمكنت من الهيمنة على السياسـة العالمية في أثنـاء الألفية الثانية للميلاد. وقد فرضت الجغرافيـا هذا، كما أخبرنا ماكنيل، كما أسـهب كونليـف في شرح فرضية ماكنيل. تقع أوروبـا في منطقـة بيئية ecozone «متجانسـة» بـين الصحاري الأفريقيـة والصفائح الجليديـة للقطب الشـمالي، مع مناخ يلطفه تيار الخليج. كانـت أوروبا غنية بالموارد، كالخشب والأحجار والمعادن، والفراء. والأمر الأكثر أهمية هو أن الخط الساحلي لأوروبا يتسم بكونه منحرفا ومتكسرا، تمتلئ نتوءاته بالعديد من الموانئ الطبيعية الجيدة، كما تكتظ بحارها بالجزر وأشـباه الجزر. ويبلغ طول هذا الخط الساحلي 23 ألف كيلومتر - وهـو طول ملحمي يسـاوي محيط كوكـب الأرض. وفي الواقع، تمتلك أوروبا نسـبة للخطوط السـاحلية إلى المسـاحة تزيد على مثيلاتها في أي قارة أو شـبه قارة أخرى[2]. وكذلك فإن حدود أوروبا تقع على ما لا يقل عن أربعة من البحار المغلقة وشبه المغلقة التي تعتصر شـبه القارة، إذا جاز التعبير، إلى شـبه جزيرة ضيقة نسـبيا: البحر الأبيض المتوسـط والبحر الأسـود، وبحر البلطيق، والبحار الشـمالية، على الرغم من أن أوروبا تمتلـك تضاريـس نهرية مواتية تتميـز بعديد من الطرق العابرة لشـبه الجزيرة - نهر الراين، ونهر إلبه، وقبل كل شيء نهر الدانوب Danube. إن نهر الدانوب، كما تغنى به الإيطالي المتحمس لأوروبا الوسطى، كلاوديو ماغريس Magris، «يقرّب الثقافة الألمانية، بحلمها المتمثل في ملحمة شـعرية للروح، من الشرق، مما يمزجها مع الثقافات الأخرى في تحـولات هجينة لا تُعد ولا تحصى»[3]. وهناك، أيضـا، الفجوة المورافية Moravian Gap، وممر برينر، والسـهل العريض الذي يمر عبر فرنسا إلى وادي الرون، والتي تعمل كممرات من أحد أجزاء أوروبا إلى الآخر.


RUSSIA
Warsaw
GREAT HUNGARIAN PLAIN
ROMANIA
Danube River
BULGARIA
KOSOVO
GREECE
Aegean Sea
Ionian Sea
Crete
Black Sea
CAUCASUS


ICELAND
Arctic Circle
0 miles 500
0 km 500
ATLANTIC OCEAN
North Sea
BRITISH ISLES
IRELAND
GREAT BRITAIN
Irish Sea
English Channel
Baltic Sea
NORTH EURO
Berlin
GERMANY
Brussels
POL
Moravian Gap
CZECH REPUBLIC
FRANCE
HUN
Bay of Biscay
PYRENEES
SPAIN
PORTUGAL
Lisbon
IBERIAN PENINSULA
Adriatic Sea
Rome
ITALY
Tyrrhenian Sea
Strait of Gibraltar
Mediterranean Sea
Strait of Sicily

مفتاح الخريطة:

Iceland	أيسلندا
Miles	أميال
Km	كلم
Atlantic ocean	المحيط الأطلسي
British isles	الجزر البريطانية
Ireland	أيرلندا
Irish Sea	البحر الأيرلندي
Great Britain	بريطانيا العظمى
English Channel	القنال الإنجليزي
North Sea	الشمال بحر
Elbe r.	نهر إلبه
Brussels	بروكسل
Aachen	آخن
Rhine river	نهر الراين
Germany	ألمانيا
Berlin	برلين
Danube river	نهر الدانوب
North European Plain	الشمالي السهل الأوروبي
Baltic Sea	بحر البلطيق
Scandinavia	إسكندنافيا
Russia	روسيا
Czech republic	جمهورية التشيك
France	فرنسا
Bay of Biscay	خليج بسكاي
Pyrenees	جبال البيرينيه
Rhone valley	وادي الرون
Rhone r.	نهر الرون
Alps	جبال الألب
Brenner pass	ممر برينر
Poland	بولندا
Moravian gap	الفجوة المورافية
Arctic circle	الدائرة القطبية الشمالية

Hungary	المجر (هنغاريا)
Balkans	البلقان
Adriatic sea	البحر الأدرياتيكي
Rome	روما
Spain	إسبانيا
Iberian peninsula	شبه جزيرة أيبيريا
Portugal	البرتغال
Lisbon	لشبونة
Strait of Gibraltar	مضيق جبل طارق
Italy	إيطاليا
Tyrrhenian sea	البحر التيراني
Warsaw	وارسو
Kosovo	كوسوفو
Strait of Sicily	مضيق صقلية
Mediterranean Sea	البحر الأبيض المتوسط
Ionian sea	البحر الأيوني
Greece	اليونان
Crete	كريت
Aegean sea	بحر إيجه
Caucasus	القوقاز
Black sea	الأسود البحر
Bulgaria	بلغاريا
Romania	رومانيا
Great Hungarian plain	السهل الهنغاري العظيم
Carpathian mts.	جبال الكاربات

إن هذا السطح البيني البالغ التعقيد بين الأرض والمياه، وحقيقة كون أوروبا محمية من محيط شاسع - ومع ذلك يمكنها الوصول إليه بسهولة - أدت إلى دينامية وسهولة التنقل عبر البحر بين شعوب أوروبا، كما ساهمت في إيجاد مجموعة مكثفة من المشاهد الطبيعية داخل أوروبا نفسها. وقد أدى هذا، بدوره، إلى ظهور مجتمعات بشرية مختلفة على نحو لافت للنظر، وفي نهاية المطاف إلى اندلاع سياسة القوة: من الأثينيين، والإسبرطيين، والرومان، والإيبيريين، والفينيقيين، والسكيثيين المتحاربين وغيرهم

مــن أفــراد القبائل البربرية الأخــرى في العصور القديمة، إلى الصراعات بين الفرنســيين والألمان، والروس - وبين البروســيين، وآل هابســبورغ، والعثمانيين - في العصر الحديث. لكــن على الرغم من هذه الانقســامات، فإن ممرا مــن الأراضي المنخفضة من المحيط الأطلسي إلى البحر الأســود، على سبيل المثال، سمح للمسافرين طوال قرون عدة بقطع المسافة عبر أوروبا في راحة نسبية، مما ساهم في تماسك أوروبا وشعورها بالتفوق الذاتي، كما يتضح باقتدار من نثر ماغريس[4]. وبالإضافة إلى ذلك، فإن حقيقة كون المســافات قصيرة داخل أوروبا كان عامل توحيد آخر: فالمســافة من لشــبونة إلى وارســو، أي من إحدى نهايتي أوروبا إلى الأخرى، لا تزيد على 1500 ميل.

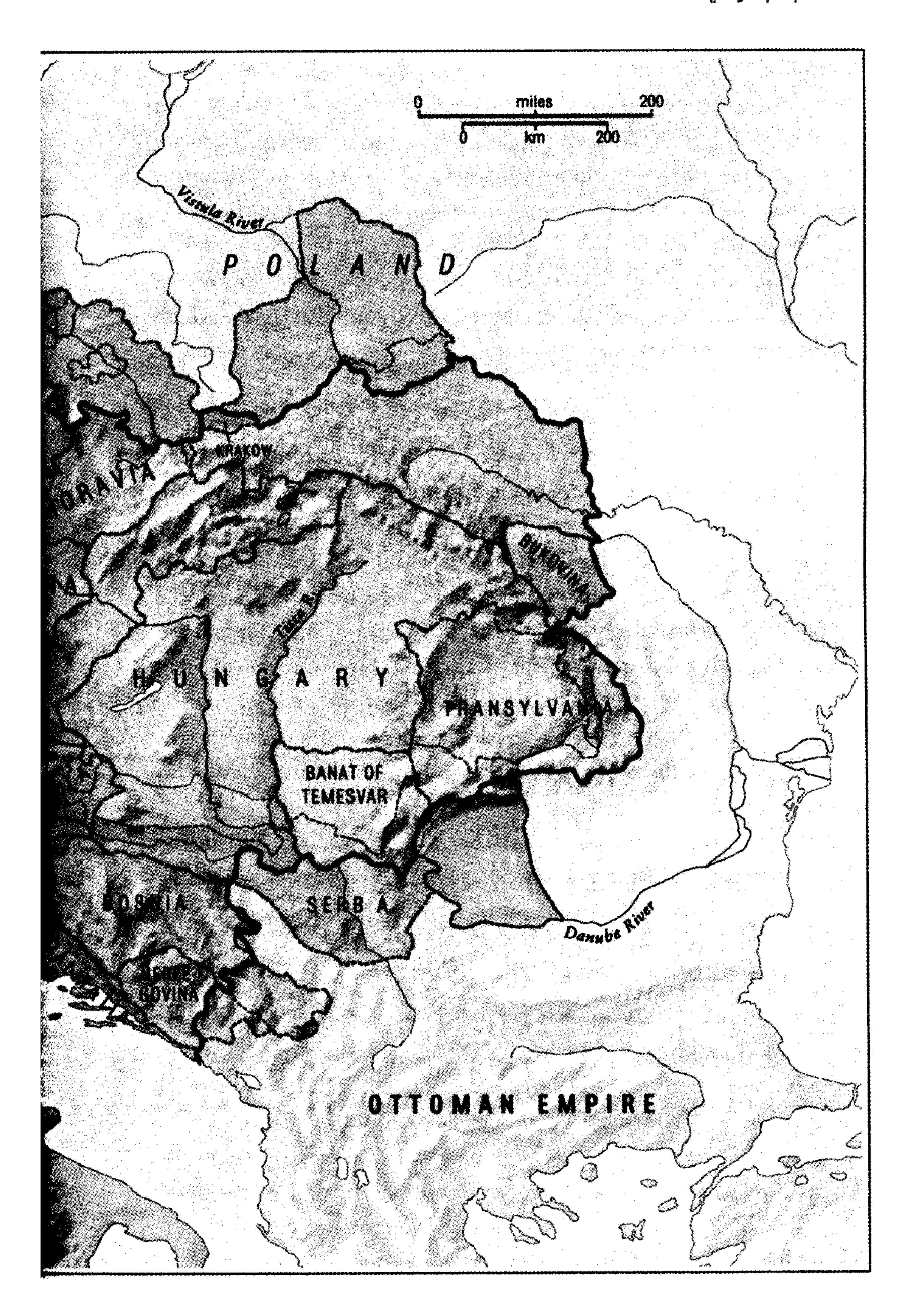
وبعبارة أخرى، فقد ساعدت الجغرافيا على التعرف على وجود فكرة تُدعى أوروبا، وهي التعبير الجغرافي عن الإنســانية الليبرالية عن طريق اندماج السيادة خلال فترة ما بعــد الحرب العالمية الثانية. بيد أن هذا الاتجاه المهدئ، فضلا عن كونه رد فعل لصراع عسكري مدمر طوال جميع العصور التاريخية، يمثل أيضا نتاجا لعدة قرون من النهضة المادية والفكرية. ومع ذلك فهناك، أيضا، عدة قارات أوروبية، والتي تقع أحيانا في صراع بعضها مع بعض. إن الانقســامات الاقتصادية التي نراها اليوم على شكل أزمة متعلقة بالعملة تمتلك، في الواقع، أساسا من العوامل التاريخية والجغرافية.

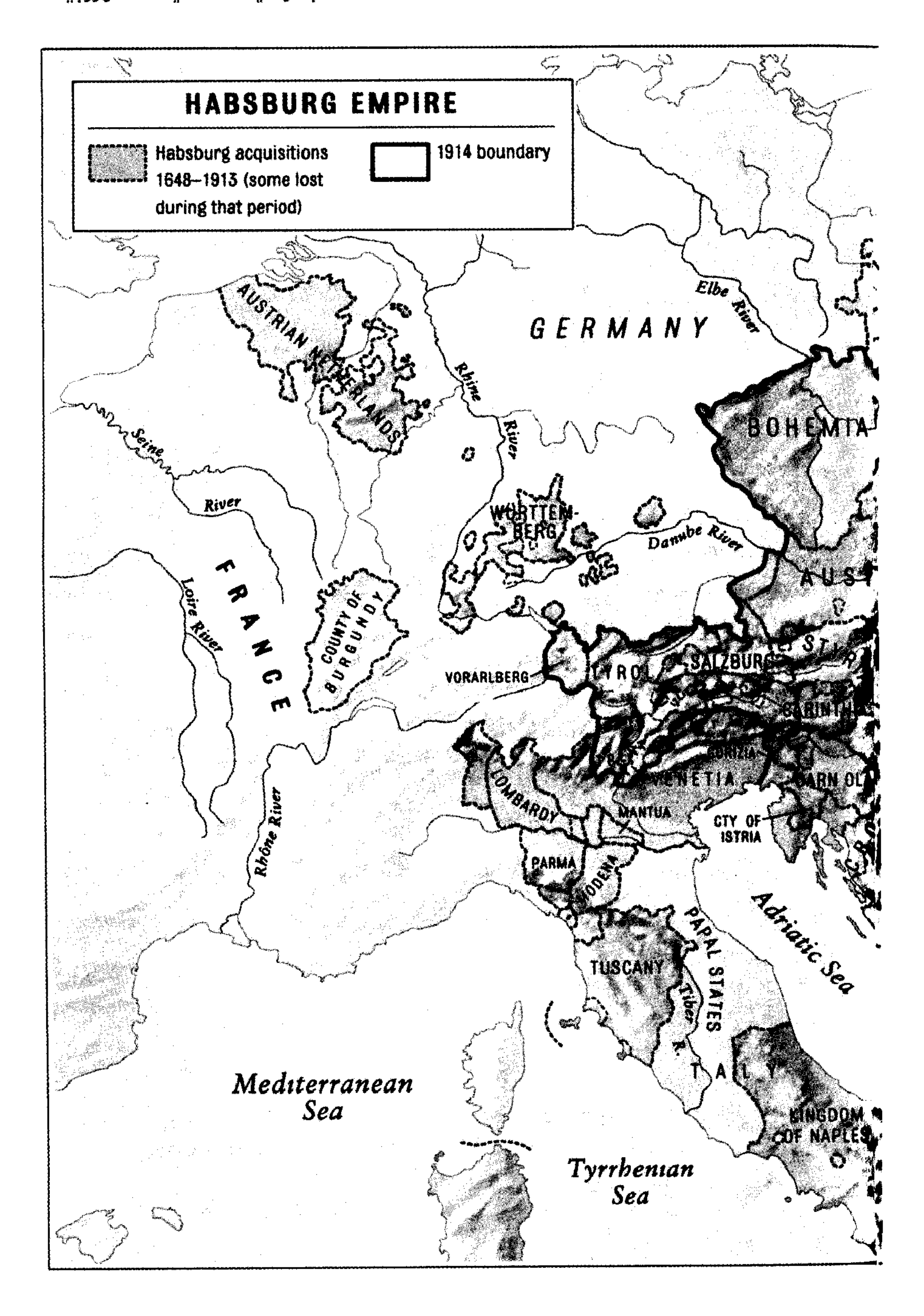
خلال الســنوات الســابقة والتالية مبــاشرة لانهيار جدار برلين، كــما رأينا في فصل ســابق، احتفى المثقفون بمفهوم أوروبا الوســطى - أو بوســط أوروبا - باعتبارها منارة للتســامح المتعدد الأعراق ولليبراليــة التاريخية، والتي يمكن - بــل ينبغي - أن تطمح لمحاكاتهــا بلــدان البلقان المجاورة ومناطــق العالم الثالث البعيــدة عنها. لكن حقيقة الأمــر هي أن القلب الســياسي لأوروبا في القــرن الحادي والعشرين يقع إلى الشــمال الغــربي قليلا من أوروبا الوســطى: فيبدأ من دول البنلوكــس Benelux، ثم يتعرج إلى الجنوب بطول الحدود الفرنســية - الألمانية إلى تخوم جبال الألب. وتضم هذه المنطقة المفوضية الأوروبية وخدماتها المدنية في بروكسل، والمحكمة الأوروبية في لاهاي، وبلدة معاهدة ماســتريخت، والبرلمان الأوروبي في ستراسبورغ، وهلم جرا. وفي الواقع، تقع كل هذه الأماكن عبر خط يمتد جنوبا من بحر الشــمال «الذي شكل واسطة العقد والمسار الرئيسي لاتصالات المملكة الكارولنجية Carolingian monarchy في القرن التاســع»، كما أشار إليه الباحث الراحل توني جودت Judt، هو حجة في شؤون أوروبا الحديثة[5]. وليــس من قبيل المصادفة حقيقة أن الدولة الأوروبية العظمى النامية في عصرنا الحالي تتركز في قلب أوروبا القرون الوســطى، حيث لاتزال عاصمة شــارلمان Charlemagne

في آخـــن (إيكس لا شـــابيل) تقع في مركزها تماما. ليس هنـــاك أي مكان آخر في القارة، وخصوصـــا بطول هذا العمود الفقري لحضارة العالم القديـــم، والذي يلتقي فيه البحر بالأرض في أوروبا بمثل هذا الثراء والعمق. وفي البلدان الواطئة، هناك انفتاح على المحيط العظيم، على الرغم من أن مدخل القنال الإنجليزي وسلســـلة الجزر الهولندية تشـــكّل حاجزا وقائيا مفيدا، بالنظر إلى أن هذه الدول الصغيرة تستفيد بدرجة غير متناسبة مع حجمها. وعند نهاية ســـاحل بحر الشمال هذا مباشرة، توجد ثروة من الأنهار والمجاري المائية المحمية، وكلها تعد بتســـهيل التجارة، والحركة، وما يترتب على ذلك من التنمية السياسية. تتسم التربة الطفالية (اللوس: loess) الموجودة في شمال غرب أوروبا بكونها داكنـــة ومنتجة، حتى في الوقت الذي توفر فيه الغابـــات دفاعات طبيعية. وأخيرا، فإن المناخ البارد بين بحر الشمال وجبال الألب، أكثر بكثير مما فعل المناخ الدافئ في جنوبي جبـــال الألب، قد مثّل تحديا كافيا لتحفيز التصميم البشري اعتبارا من العصر البرونزي المتأخر فصاعدا، حيث اســـتقر الفرنجة Franks، والألامان Alamanni، والساكســـون، والفريزلنديون Frisians في أواخر العصور القديمة في بلاد الغال، ولســـان جبال الألب، والســـهول الســـاحلية. وهنا، أيضا، ســـيكون مكانا لاختبار قوة كل من مملكة الفرنجة Francia والإمبراطوريـــة الرومانية المقدســـة في القرن التاســـع، وبورغوندي، واللورين، وبرابانت، وفريزلاند، أيضا، والدول المدينية مثل ترير Trier وليبغ Liege، والتي حلت جميعهـــا على نحو جماعي محـــل روما، وتطورت إلى الدول التـــي تقود اليوم منظومة الاتحاد الأوروبي.

وبطبيعة الحال، فقبل كل ما ســـبق جاءت رومـــا، وقبل روما اليونان القديمة، وكل منهـــما، وفق التعبـــيرات التي اختارها وليام ماكنيل، تشـــكلان أروقـــة العالم «المتحضر قديمـــا» الذي بـــدأ في مصر وبلاد ما بين النهرين، وانتشر مـــن هناك، عن طريق جزيرة كريت المينوسية والأناضول، إلى الشـــاطئ الشمالي للبحر المتوسط. إن جذور الحضارة، كما نعلم، قد ترســـخت في وديان الأنهار الدافئـــة والمحمية مثل النيل ودجلة والفرات، وتواصلت هجرتها إلى المناخات المعتدلة نســـبيا لبلاد الشـــام وشـــمال أفريقيا، وشـــبه الجزيرتين اليونانية والإيطالية، حيث كان العيش ميسورا على الرغم من وجود تقنيات بدائية فقط.

ولكـــن على الرغـــم من أن ازدهـــار الحضارة الأوروبيـــة قد بـــدأ أولا بطول البحر المتوســـط، فقد واصلت تطورها، خلال عصور تزايدت فيها التكنولوجيا وسهولة التنقل، إلى الشمال حيث المناخ أبرد.


0 miles 200
0 km 200
Vistula River
POLAND
KRAKOW
MORAVIA
Tisza R.
BUKOVINA
HUNGARY
TRANSYLVANIA
BANAT OF
TEMESVAR
BOSNIA
SERBIA
Danube River
OTTOMAN EMPIRE


HABSBURG EMPIRE
Habsburg acquisitions 1648–1913 (some lost during that period)
1914 boundary
GERMANY
Elbe River
Rhine River
Seine River
Loire River
Rhône River
FRANCE
AUSTRIAN NETHERLANDS
COUNTY OF BURGUNDY
WÜRTTEM-BERG
Danube River
BOHEMIA
VORARLBERG
TYROL
SALZBURG
LOMBARDY
MANTUA
VENETIA
GORIZIA
CTY OF ISTRIA
PARMA
MODENA
TUSCANY
PAPAL STATES
Tiber R.
ITALY
KINGDOM OF NAPLES
Adriatic Sea
Mediterranean Sea
Tyrrhenian Sea

مفتاح الخريطة:

Habsburg empire	إمبراطورية هابسبورغ
1914 boundary	حدود العام 1914
Habsburg acquisitions 1648 - 1913 (some lost during that period)	مكتسبات هابسبورغ ما بين العامين 1648 - 1913 (والتي خسرت بعضها خلال الفترة نفسها)
Austrian Netherlands	الأراضي الواطئة النمساوية
Seine river	نهر السين
France	فرنسا
Loire river	نهر اللوار
Country of Burgundy	دولة بورغوندي
Rhine river	نهر الراين
Germany	ألمانيا
Wurttemberg	فورتمبيرغ
Rhone river	نهر الرون
Vorarlberg	فورارلبرغ
Danube river	نهر الدانوب
Elbe river	نهر إلبه
Mediterranean sea	البحر الأبيض المتوسط
Tyrrhenian sea	البحر التيراني
Kingdom of Naples	مملكة نابولي
Italy	إيطاليا
Tiber r.	نهر التيبر
Tuscany	توسكانا
Papal states	الدول البابوية
Adriatic sea	البحر الأدرياتيكي
Cty. Of Istria	إستريا مدينة
Modena	مودينا
Parma	بارما
Lombardy	لومباردي

Mantua	مانتوا
Venetia	فينيسيا
Gorizia	غوريزيا
Tyrol	التيرول
Trent	ترينت
Salzburg	سالزبورغ
Carinthia	كارينثيا
Carniola	كارنيولا
Croatia	كرواتيا
Styria	ستيريا
Bohemia	بوهيميا
Austria	النمسا
Moravia	مورافيا
Dalmatia	دالماتيا
Herzegovina	الهرسك
Bosnia	البوسنة
Krakow	كراكوف
Poland	بولندا
Vistula river	نهر الفيستولا
Miles	أميال
Km	كلم
Hungary	المجر (هنغاريا)
Tisza r.	نهر تيسا
Bukovina	بوكوفينا
Transylvania	ترانسلفانيا
Banat of Temesvar	بنات تيمسفار
Serbia	صربيا
Ottoman empire	الإمبراطورية العثمانية
Danube river	نهر الدانوب
Vistula river	نهر فيستولا

هنا توسعت روما في العقود التي سبقت بداية الحقبة المشتركة، موفرة لأول مرة نظاما سياسيا وأمنا داخليا من جبال الكاربات في الجنوب الشرقي إلى المحيط الأطلسي في الشمال الغربي: أي في معظم أنحاء كثيرة من أوروبا الوسطى والمنطقة المتاخمة لبحر الشمال والقنال الإنجليزي. المجمعات الاستيطانية الكبيرة، التي أطلق عليها يوليوس قيصر Caesar اسم المستوطنات oppida، فقد ظهرت في جميع أنحاء هذه المنطقة المركزية الأوروبية ذات التربة السوداء والمترامية الأطراف، والمكسوة بالغابات، والمروية جيدا، والتي عملت كأساس بدائي لظهور مدن العصور الوسطى وتلك الحديثة[6].

ومثلما منح التوسع الروماني مستوى معينا من الاستقرار لما أطلق عليه القبائل البربرية في شمال أوروبا، فقد أدى انهيار روما على مر القرون إلى تشكّل الشعوب والدول القومية المألوفة لنا الآن، والتي أضفت عليها الطابع الرسمي معاهدة وستفاليا في العام 1648، بعد حرب الثلاثين عاما. وكما كتب الباحث وليام أنتوني هاي Hay، فإن «الضغط الذي مارسته القبائل الرحالة على السهوب والمحيط الأوروبي قد استهل تأثيرا متسلسلا أدى إلى دفع الجماعات الأخرى التي كانت تعيش ضمن حضارات مستقرة إلى حد ما، إلى الخواء الناجم عن انهيار السلطة الرومانية[7]». ويعني ذلك أن سقوط روما، إلى جانب الهجمات الضارية من جهة الغرب، والتي شنتها شعوب السهوب، قد ساعد على تشكيل الجماعات الوطنية في وسط وشمال غرب أوروبا.

لقد تحددت العصور القديمة، قبل كل شيء، بالمعقل الجغرافي الذي مثّله للبحر الأبيض المتوسط، ومع «تراخي» هذا المعقل، من خلال خسارة روما لمناطقها النائية في شمال أوروبا والشرق الأدنى، فقد ولد عالم العصور الوسطى[8]. وقد تعرضت وحدة البحر المتوسط لمزيد من التحطيم بفعل الاجتياح العربي لشمال أفريقيا[9]. وبحلول القرن الحادي عشر، بدأت خريطة أوروبا تكتسب مظهرا عصريا، حيث اكتسبت فرنسا وبولندا شكلهما الحالي تقريبا، فيما تخفّت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وراء ستار ألمانيا الموحدة، أما بوهيميا - التي تقع براغ في القلب منها - فكانت نذيرا لجمهورية التشيك. وبالتالي، فقد تحرك التاريخ شمالا.

أما مجتمعات البحر المتوسط، على الرغم من ابتكاراتهم في مجال السياسة - كالديموقراطية الأثينية والجمهورية الرومانية - فقد تحدّدت بدرجة كبيرة، وعلى حد قول المؤرخ والجغرافي الفرنسي فرنان بروديل Braudel، بفعل «التقليدية والتصلّب».

شجعت رداءة نوعية تربة البحر المتوسط على امتلاك حيازات كبيرة، والتي كانت - بالضرورة - واقعة تحت سيطرة الأثرياء. وهذا، بدوره، ساهم في خلق نظام اجتماعي يفتقر إلى المرونة. وفي الوقت نفسه، ففي الغابات الحرجية في شمال أوروبا، بتربتها الأغنى، نشأت حضارة أكثر حرية، ترسّخها علاقات السلطة غير الرسمية للإقطاع، والتي ستكون أكثر قدرة على الاستفادة من اختراع الحروف الطباعية المتحركة وغيرها من التقنيات التي ستظهر لاحقا[10].

وعلى الرغم من أن تفسير بروديل قد يبدو حتميا deterministic، فهو يعمل بالفعل على شرح التيارات العريضة للماضي الأوروبي. من الواضح أن الفاعلية الإنسانية متمثلة في أشخاص رجال مثل يان هوس Hus، ومارتن لوثر Luther، وجون كالفن Calvin قد مارست دورا محوريا في حركة الإصلاح البروتستانتية، وبالتالي في عصر التنوير، مما سمح بالنشوء الديناميكي لأوروبا الشمالية باعتبارها واحدة من أهم مسارح المعارك التاريخية في العصر الحديث. ومع ذلك، فلم يكن لأن يتحقق أي من ذلك دون الوصول الهائل إلى الأنهار والمحيط، وتربة اللوس، الغنية بالفحم ورواسب الحديد الخام، والتي شكلت خلفية لكل من الديناميات الفردية وعصر التصنيع. من المؤكد أنه كانت هناك إمبراطوريات عظيمة، وغنية بالتنوع، ومتألقة على ضفاف البحر المتوسط في العصور الوسطى، لاسيما تلك التي بناها الملك النورمندي روجر الثاني Roger II في صقلية في القرن الثاني عشر؛ وحتى لا ننسى، فقد ازدهر عصر النهضة أولا في فلورنسا في أخريات العصور الوسطى، بما تضمنه من فن مايكل أنجلو Michelangelo والواقعية العلمانية لمكيافيللي Machiavelli؛ لكن المشقة الناتجة عن برودة الأطلسي هي ما فتح طرق الملاحة العالمية التي انتصرت في نهاية المطاف على البحر المتوسط المغلق. وفي حين كانت البرتغال وإسبانيا أول المستفيدين من هذه التجارة الأطلسية - بالنظر إلى موقع شبه جزيرتهم الناتئ - فإن مجتمعات البلدين خلال عصر ما قبل التنوير، والتي

عانت من انتهاكات مزمنة بسبب قربها من (واحتلالها من قبل) مسلمي شمال أفريقيا، فقد تخلفت في نهاية المطاف عن تلك الهولندية، والفرنسية، والإنجليزية في التنافس على المحيطات. ولذلك فمثلما تمكنت الإمبراطورية الرومانية المقدسة بقيادة شارلمان من خلافة روما، ففي الأزمنة الحديثة تمكن شمال أوروبا الآن من خلافة جنوب أوروبا، مع انتصار المنطقة المركزية الكارولنجية الغنية بالمعادن على هيئة الاتحاد الأوروبي: وذلك راجع في معظمه إلى الجغرافيا.

كانت منطقة البحر المتوسط نفسها منقسمة في العصور الوسطى بين الغرب الفرنجي والشرق البيزنطي. ولأن الانقسامات بين الشمال والجنوب ليست وحدها هي ما تحدّد وتُزعج أوروبا اليوم، بل تلك الموجودة بين الغرب والشرق، كما سنرى، وبين الشمال الغربي والوسط. لنتدبر طريق الهجرة من وادي الدانوب، والذي يتواصل شرقا إلى ما بعد السهل الهنغاري العظيم، وبلدان البلقان، والبحر الأسود، بطول الطريق عبر سهوب البحر الأسود وتلك الكازاخستانية وصولا إلى منغوليا والصين[11]. إن هذه الحقيقة الجغرافية، جنبا إلى جنب مع الوصول المسطح والذي لا يحول دونه عائق إلى روسيا شمالا، تشكل أساس موجات الغزو التي شنتها الشعوب السلافية والتركية في معظمها من جهة الشرق، والتي ذكر تفاصيلها ماكيندر في مقالته «المحور الجغرافي للتاريخ»، والتي عملت، كما نعرف، على تشكيل المصير السياسي لأوروبا إلى حد كبير. وبالتالي، فمثلما توجد أوروبا الكارولنجية وأوروبا المتوسطية، فهناك، أيضا، الأمر الناتج في كثير من الأحيان عن تلك الغزوات الآتية من الشرق، أوروبا البيزنطية - العثمانية، وأوروبا البروسية، وأوروبا هابسبورغ، وجميعها متميزة جغرافيا، والتي تعيش اليوم أنماطا مختلفة إلى حد ما من التنمية الاقتصادية: وهي أنماط من الاختلاف بحيث لا يمكن محوها ببساطة عن طريق إنشاء عملة موحدة.

وعلى سبيل المثال، فخلال القرن الرابع الميلادي، انقسمت الإمبراطورية الرومانية نفسها إلى نصفين غربي وشرقي. ظلت روما عاصمة الإمبراطورية الغربية، في حين أصبحت القسطنطينية عاصمة تلك الشرقية. استسلمت إمبراطورية روما الغربية لمملكة شارلمان الواقعة إلى الشمال وإلى الفاتيكان: إلى أوروبا الغربية، بعبارة أخرى. كان سكان الإمبراطورية الشرقية - أي بيزنطة Byzantium – في معظمهم من المسيحيين الأرثوذكس الناطقين باليونانية، ومن المسلمين لاحقا، عندما تمكن الأتراك

العثمانيــون، المهاجــرون من الشرق، من فتح القســطنطينية في العام 1453. كانت الحدود الفاصلة بين هاتين الإمبراطوريتين الشرقية والغربية تمر عبر منتصف ما أصبح، بعد الحرب العالمية الأولى، دولة يوغوسلافيا المتعددة الأعراق. وعندما تفككت تلك الدولــة على نحــو عنيف في العام 1991، عكس تقســيمها - في البداية على الأقل - الانقسامات التي تعرّضت لها روما قبل ستة عشر قرنا. كان السلوفينيون والكروات الكاثوليك، وهم ورثة التقليد الذي استمر من النمسا والمجر إلى روما في الغرب: أما الــصرب فكانوا من الأرثوذكس الشرقيين وورثة التركة العثمانية - البيزنطية لروما في الشرق. أما منطقة جبال الكاربات، التي تمتد إلى الشــمال الشرقي من يوغوســلافيا الســابقة وتقسم رومانيا إلى قســمين اثنين، فعملت جزئيا على تعزيز هذه الحدود الفاصلة بين روما وبيزنطة، وفيما بعد بين أباطرة آل هابســبورغ في فيينا والسلاطين الأتــراك في القســطنطينية[12]. كانت الممرات، وبالتالي طــرق التجارة، موجودة عبر هذه الجبال الهائلة، جالبة المستودع الثقافي لأوروبا الوسطى إلى عمق بلدان البلقان البيزنطيــة والعثمانيــة. ولكن حتى لو لم تكن جبــال الكاربات تمثل حدودا يصعب اختراقهــا، مثل جبال الألب، فكانت تمثل ما يشــبه التدرج، أو تحول في التوازن بين إحدى قارات أوروبا وبين الأخرى. ستصبح أوروبا الجنوبية الشرقية فقيرة ليس فقط بالمقارنة بأوروبا الشــمالية الغربية، ولكن أيضا بالمقارنة بأوروبا الشــمالية الشرقية، مع تقاليدها البروســية. ويعني هذا أن بلدان البلقــان لم تكن فقيرة فقط بالمقارنة بدول البنلوكس، ولكن بالمقارنة مع بولندا وهنغاريا أيضا.

أدى ســقوط سور برلين إلى إنعاش هذه الانقســامات بصورة حادة. مثّل حلف وارســو إمبراطورية شرقية كاملة، تُحكم انطلاقا من موسكو، وتنطوي على الاحتلال العســكري والقــسري، وفقر متواصــل بفعل الاقتصــادات الموجّهــة command economies. وخــلال أربع وأربعين ســنة مــن حكم الكرملين، كان القســم الأكبر من أوروبا البروســية، والهابســبورغية، والبيزنطية، والعثمانية محبوســا في السجن السوفييتي للأمم، والذي كان يعرف إجمالا باسم أوروبا الشرقية. وفي الوقت نفسه، كان الاتحــاد الأوروبي يتشــكل في أوروبا الغربية، فاتخذ أولا شــكل مجتمع الفحم والصلب الفرنسي - الألماني، ثم الســوق الأوروبية المشتركة، وأخيرا على هيئة الاتحاد الأوروبي، متوسعا من قاعدته الكارولنجية المتمثلة في فرنسا، وألمانيا، ودول البنلوكس

ليشـــمل إيطاليا، وبريطانيا العظمى، واليونان ثم الدولتين الأيبيريتين لاحقا. وبسبب بدايتها الاقتصادية المبكرة خلال ســنوات الحرب الباردة، برزت أوروبا الكارولنجية داخل منظمة حلف شـــمال الأطلسي، باعتبارها أقوى، في الوقت الحاضر، من أوروبا البروسية الشمالية الشرقية وأوروبا الوسطى الدانوبية، والتي كانت تاريخيا مزدهرة بالقدر نفسه، لكنها ظلت داخل حلف وارسو فترة طويلة.

أدى الاختراق الســوفييتي لأوروبا الوســطى خلال المراحــل الأخيرة من الحرب العالميــة الثانية إلى إحداث هـــذا التحول في الأحداث برمته، مع إثباته صحة فرضية ماكيندر القائلة إن الغزوات الآسيوية هي ما شكّل المصير الأوروبي. وبطبيعة الحال، فــلا ينبغي لنــا أن نغالي كثيرا في تقدير هذه النزعة الحتمية، لأنه من دون تصرفات رجــل واحد، هو أدولف هتلر Hitler، لم تكن الحرب العالمية الثانية لتقع، ولما كان هناك أي غزو سوفييتي في المقام الأول.

لكــن هتلــر كان موجودا بالفعل، وهكــذا لم يبق لدينا ســوى الوضع كما نراه اليوم: أوروبا شــارلمان هي المتفوقة، ولكن بسبب عودة ظهور ألمانيا الموحدة، فقد يتحول ميزان القوى داخل أوروبا إلى الشرق قليلا إلى التقاء بروسيا بأوروبا الوسطى، مــع قيام القوة الاقتصادية الألمانية بتنشــيط بولندا، ودول البلطيق، والجزء العلوي من نهر الدانوب؛ أما منطقة ســاحل البحر المتوســط ومنطقــة البلقان البيزنطية - العثمانية فتتخلف وراءها. يلتقي عالما البحر المتوســط والبلقان في اليونان الجبلية وشــبه الجزيريــة، التي عــلى الرغم مــن إنقاذها مــن براثن الشــيوعية في أواخر أربعينيــات القرن العشرين، تظل من بــين أكثر أعضاء الاتحاد الأوروبي اضطرابا من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. إن اليونان، التي تقع في الحافة الشمالية الغربية من ويكومين الشرق الأدنى وفقا لهودجســون، كانت المســتفيد الأكبر من الجغرافيا في العصــور القديمة - لكونها المكان الذي جرى فيه ترقيق وأنســنة الأنظمة التي لا تعرف الرحمة التي ســادت مــصر وبلاد فارس - بلاد ما بــين النهرين، مما أدى إلى اخــتراع الغــرب، إذا جاز التعبير. ولكن في أوروبا اليوم، التي يهيمن عليها الشــمال، تجد اليونان نفســها عنــد النهاية الخطأ، وذات التوجه الشرقــي، من الأمور؛ والتي على الرغم من كونها أكثر استقرارا وازدهارا بكثير من أماكن مثل بلغاريا وكوسوفو، فقــد تأتى ذلك فقط لأنها نجت من ويلات الشــيوعية. إن ما يقرب من ثلاثة أرباع

الـشركات اليونانية مملوكـة الأسر وتعتمد على العمالة العائليـة، بحيث لا تنطبق قوانين الحد الأدنى للأجور، على الرغم من أنه لا يمكن ترقية أولئك الذين لا يمتلكون صـلات عائلية[13]. وتمثل هذه ظاهـرة ذات جذور ثقافية عميقـة، وبالتالي تمتلك جذورا تاريخية وجغرافية.

وفي الواقـع أن الجغرافيـا تفـسر الكثـير. وكـما أشرت إليه في فصل سـابق، فعندما انهار حلف وارسـو، تقدمت البلدان التي كانت أسيرة سابقا من الناحيتين الاقتصادية والسياسية وفقا لمواقعها على الخريطة بالضبط تقريبا: كان أداء بولندا ودول البلطيق، جنبا إلى جنب مع هنغاريا والنهاية البوهيمية من تشيكوسلوفاكيا أفضل، فيما عانت دول البلقان الواقعة إلى الجنوب الفقر الشـديد والاضطرابات. وعلى الرغم من جميع تقلبات القرن العشرين - بما في ذلك الأثر الساحق للنازية والشـيوعية - فـإن إرث أنظمة الحكـم البروسـية، والهابسـبورغية، والبيزنطية والعثمانيـة لايـزال وثيق الصلـة. كانت هـذه الإمبراطوريات هـي أهم صنائع الجغرافيا، والتي تأثرت جميعهـا بأنماط الهجرة التي وصفها ماكيندر، والآتية من الشرق الآسيوي.

وبالتـالي، لننظـر مرة أخرى إلى خريطة أوروبا في القرن الحادي عشر، فسـنجد في وسـطها الإمبراطورية الرومانية المقدسـة التي تشـبه ألمانيا الموحدة. وفي جميع الأنحاء، هناك دول إقليمية: بورغوندي، وبوهيميا، وبومرانيا، وإستونيا؛ مع أراغون، وقشتالة، ونافار، والبرتغال إلى جنوب غرب البلاد. فكّر الآن في قصص النجاح الإقليمية في القرن الحادي والعشرين، لاسيما في أوروبا الكارولنجية: بادن - فورتمبيرغ، والرون - الألـب، ولومبارديا، وكاتالونيـا. وهذه، كما يذكرنا توني جوت، تقع في معظمها إلى الشـمال، كما تُطل إلى الوراء على ما يسـمى الجنوب المتوسطي الكسول والمدعوم، حتى أنها تبدو في حالة رعب من احتمال انضمام دول البلقان، مثل رومانيا وبلغاريا، إلى الاتحـاد الأوروبي[14]. يتمثل الوضع في مقارنة المركز مقابل المحيط، حيث يوجد الخاسرون في المحيط، عموما - ولكن ليس على وجه الحصر - في تلك المناطق القريبة جغرافيا إلى الشرق الأوسـط وشـمال أفريقيا. ولكن بالتحديد لأن الدولة الأوروبية الفائقـة التي تتخذ من بروكسـل مقرا لها قد عملت بشـكل جيد بمـا فيه الكفاية لمصلحة المناطق الفرعية الشمالية مثل بادن - فورتمبيرغ وكاتالونيا، فقد تحررت من

حكوماتها الوطنية ذات الحجم الواحد المناسب للجميع، كأنها سلسلة من متاجر التجزئة، وبالتالي فقد ازدهرت باحتلالها بيئات اقتصادية وسياسية وثقافية ملائمة ذات مرتكز تاريخي.

وفيما وراء عدم رضاها عن الخاسرين الأوروبيين في المنطقة المحيطية Periphary، فبين دول الشمال الأوروبي المزدهرة هناك قلق حول تفكك المجتمع نفسه. تبقى المجموعات السكانية والقوى العاملة الوطنية في أوروبا في حالة ركود ديموغرافي، وبالتالي تتقدم في العمر. سوف تفقد أوروبا 24 في المائة من سكانها ذوي الصحة الجيدة ممن هم في سن العمل بحلول العام 2050، فيما سيرتفع عدد سكانها الذين تزيد أعمارهم على ستين عاما بنسبة 47 في المائة خلال هذه الفترة الزمنية. ومن المرجح أن يؤدي هذا إلى زيادة هجرة الشبان من بلدان العالم الثالث لدعم دول الرفاه الشائخة في أوروبا. وفي حين بولغ في التقارير المتعلقة بهيمنة المسلمين على أوروبا، فإن نسبة المسلمين في الدول الأوروبية الكبرى، في الواقع، ستزيد بأكثر من ثلاثة أضعاف بحلول منتصف القرن، من 3 في المائة في الوقت الحالي إلى نحو 10 في المائة من السكان. وفي حين كان سكان أوروبا في العام 1913 أكثر من سكان الصين، فبحلول العام 2050، فلن يزيد مجموع سكان أوروبا والولايات المتحدة، وكندا على 12 في المائة من الإجمالي العالمي، انخفاضا من 33 في المائة بعد الحرب العالمية الأولى[15]. تعيش أوروبا بالتأكيد في طور التقلص ديموغرافيا بفعل بقية بلدان آسيا وأفريقيا، وحتى الشعوب الأوروبية أنفسها أصبحت تضم أعدادا أكبر من مواطني أفريقيا والشرق الأوسط.

وبالفعل، فإن خريطة أوروبا على وشك التحرك جنوبا، مرة أخرى لتشمل عالم البحر المتوسط بأكمله، كما فعلت ليس فقط تحت حكم روما، ولكن في ظل البيزنطيين والأتراك العثمانيين أيضا. طوال عقود من الزمن، وبسبب الأنظمة الاستبدادية التي خنقت التنمية الاقتصادية والاجتماعية - في حين عملت على دعم السياسات المتطرفة - فقد انقطع شمال أفريقيا عمليا عن الحافة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط. زود شمال أفريقيا أوروبا بالمهاجرين لأسباب اقتصادية، وبالقليل فيما عدا ذلك. ولكن مع تطور دول شمال أفريقيا إلى ديموقراطيات فوضوية، فإن درجة التفاعلات السياسية والاقتصادية مع أوروبا القريبة، على الأقل بمرور الزمن،

سوف تتزايد (وقد يعود بعض أولئك المهاجرين العرب إلى ديارهم مع إنشاء فرص جديدة في أوطانهم بفعل السياسات الإصلاحية). وحينئذ، ستعمل منطقة البحر المتوسط كموصّل، بدلا من عملها كمفرّق كما كانت خلال معظم حقبة ما بعد الاستعمار.

ومثلما تحركت أوروبا شرقا لتشمل الدول التابعة سابقا للاتحاد السوفييتي عند اندلاع الثورات الديموقراطية في العام 1989، فإن أوروبا تتوسع الآن إلى الجنوب لتشمل الثورات العربية. لا توشك تونس أو مصر على الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، لكنهما على وشك أن تصبحا منطقتين شبحيتين تتعمق فيهما مشاركة الاتحاد الأوروبي. وبالتالي، فإن الاتحاد الأوروبي نفسه سيصبح مشروعا أكثر طموحا وجموحا من أي وقت مضى. ويتوافق هذا مع رأي ماكيندر، الذي جادل بأن الصحراء الكبرى تمثل الحدود الجنوبية الحقيقية لأوروبا، لأنها تعزل أفريقيا الاستوائية من جهة الشمال[16].

ومع ذلك، فإن الاتحاد الأوروبي، على الرغم من أنه يعاني بسبب الانقسامات، والمخاوف، وآلام النمو المبرحة، سيظل واحدا من المحاور الكبرى في العالم خلال حقبة ما بعد التصنيع. وهكذا، فإن تحولات القوى الجارية بداخله، إلى الشرق من بروكسل - ستراسبورغ إلى برلين - أي من الاتحاد الأوروبي إلى ألمانيا – ستؤدي دورا محوريا في السياسة العالمية. وكما سأناقش، فإن ألمانيا، وروسيا، وكذلك اليونان، نعم، التي لا يزيد عدد سكانها على أحد عشر مليون نسمة، هي الدول التي تكشف مصير أوروبا بأوضح صورة.

إن حقيقة كون ألمانيا الموحدة يجب أن تعني تأثيرا أقل نسبيا للاتحاد الأوروبي مما كان عليه في أيام ألمانيا المنقسمة، بالنظر إلى التفوق الجغرافي والديموغرافي، والاقتصادي لألمانيا الموحدة في قلب أوروبا. يبلغ عدد سكان ألمانيا الآن 82 مليون نسمة، مقارنة بنحو 62 مليون في فرنسا، ونحو 60 مليونا في إيطاليا. ويبلغ الناتج الإجمالي المحلي في ألمانيا 3.65 تريليون دولار، مقارنة بنحو 2.85 تريليون دولار في فرنسا، و2.29 تريليون دولار في إيطاليا. والأكثر أهمية هنا هو حقيقة أنه في حين أن النفوذ الاقتصادي لفرنسا يقتصر أساسا على بلدان أوروبا الغربية خلال الحرب الباردة، فإن النفوذ الاقتصادي الألماني يشمل كلا من أوروبا الغربية ودول حلف

وارسو السابقة، وهو تقدير لموقعها الجغرافي الأكثر مركزية ولروابطها التجارية مع كل من الشرق والغرب[17].

وإلى جانب موقع بلادهم الجغرافي على مفترق الطريق بين كل من أوروبا البحرية وأوروبا الوسطى، يمتلك الألمان توجها ثقافيا فطريا نحو التجارة. كما قال لي منذ فترة طويلة نوربرت فالتر Walter، الذي كان وقتها كبير الخبراء الاقتصاديين لدى دويتشه بنك: «يفضل الألمان الهيمنة على الأنشطة الاقتصادية الحقيقية بدلا من الأنشطة المالية الصرفة. نحن نحافظ على عملائنا، ونعرف ما يحتاجون إليه، وبالتالي نبني بيئة ملائمة وعلاقات متينة على مدى عقود». وتدعم هذه القدرة دينامية ألمانية خاصة؛ فكما شرح لي الفيلسوف السياسي بيتر كوسلوفسكي Koslowski ذات مرة: «لأن كثيرا من الألمان بدأوا من الصفر بعد الحرب العالمية الثانية، فهم حداثيون modernist متعصبون. لقد ارتفعت الحداثة وثقافة الطبقة المتوسطة إلى مصاف الأيديولوجيات هنا». كذلك، فإن ألمانيا الموحدة منظّمة مكانيا بحيث تستفيد من عصر ازدهار المناطق الشمالية الأوروبية. وبسبب التقليد المتمثل في وجود دول مستقلة صغيرة، والتي ظهرت إلى الوجود بعد حرب الثلاثين عاما في القرن السابع عشر - والتي لاتزال توجّه النظام الاتحادي في ألمانيا - ليست هناك طنجرة ضغط واحدة تمثل عاصمة كبرى، بل سلسلة من الوحدات الأصغر التي نجحت في البقاء على قيد الحياة حتى العصر الذي ولدت فيه برلين من جديد. تمثل هامبورغ مركزا لوسائل الإعلام، ويقع مركز الأزياء في ميونيخ، أما مركز الصناعة المصرفي فهو فرانكفورت، وهلم جرا، مع منظومة للسكك الحديد تنتشر في جميع الاتجاهات من دون تمييز. ولأن توحيد ألمانيا قد تأخر حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد حافظت على نكهتها الإقليمية التي تمثل أفضلية كبرى في أوروبا اليوم. وأخيرا، فإن سقوط جدار برلين، والذي - من المنظور التاريخي - حدث منذ فترة قصيرة، والذي ينطوي على توجهات سيستغرق ظهورها بشكل كامل عقودا من الزمن، أدى إلى إعادة توصيل ألمانيا بأوروبا الوسطى، مما يعيد - بطرق خفية وغير رسمية للغاية – تشكيل كل من الرايخ الأول والثاني اللذين ظهرا في القرنين الثاني عشر والتاسع عشر: والمقابلين تقريبا للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وإلى جانب انهيار جدار برلين، فإن العامل الآخر الذي دعم القوة الجيوسياسية

الألمانيــة كان المصالحة الألمانية - البولندية التاريخيــة التي حدثت خلال منتصف تسـعينيات القــرن العشرين. وكما كتب مستشــار الأمن القومي الســابق زبيغنيو بريجنسكي Brzezinski، «عبر بولندا، يمكن للنفوذ الألماني أن يشع شمالا - إلى دول البلطيق - وشرقا - إلى أوكرانيا وروســيا البيضاء». وبعبارة أخرى، فإن القوة الألمانية تتعزز بكل من توسّــع أوروبا، وكذلك بفعل أوروبا التي تعاود فيها أوروبا الوسطى الظهور باعتبارها كيانا منفصلا[18].

سيتمثل أحد العوامل الحاسمة في هذا التطور في درجة قوة استمرار الحالة شبه السلامية الأوروبية، وخاصة تلك الألمانية، في المستقبل. وكما كتب الخبير الإستراتيجي الــذي يعيش في بريطانيا، كولِن غراي Gray، «وكــما عضتها الثعابين... على ضفاف نهر السوم، وفي فردان، ولدى سقوط النظام الألماني Götterdämmerung في العام 1945، فــإن قوى أوروبا الغربية - الوســطى قد صارت تنفــر من الحرب على نحو مقنــع[19]». عــلى الرغــم من أن إرث الحــرب والدمار لم يكن وحــده هو ما جعل الأوروبيين مبغضين للحلول العسكرية (باستثناء حفظ السلام والتدخلات الإنسانية)، فقد كانت هنــاك أيضا حقيقة كون أوروبا حصلت خلال عقود الحرب الباردة على أمنهــا من قبل القوة العظمى الأمريكية، في حين أنهــا لا تواجه اليوم أي تهديدات تقليدية ملموســة. «لا يأتي الخطر على أوروبا مرتديا بزات عســكرية، بل يتمثل في الملابــس الممزقة للاجئين»، كما يقول الأكاديمي والصحافي الألماني - الأمريكي جوزيف جــوفي Joffe[20]. ولكــن ماذا لو كان مصــير أوروبا، كما رأى ماكينــدر، لايزال تابعا للتاريخ الآســيوي، المتمثل في روســيا الناهضة؟[21] وفي هذه الحالة، قد يكون هناك تهديد بالفعل. إن ما دفع الاتحاد السوفييتي لإقامة إمبراطورية في شرق أوروبا عند نهايــة الحــرب العالمية الثانية لايزال قائما حتى اليوم: ثمة إرث من غزوات الســلب والنهب ضد روســيا من قبــل الليتوانيين، والبولنديين، والســويديين، والفرنســيين، والألمان، مما أدى إلى الحاجة إلى بناء حاجز وقائي من الأنظمة الموالية في المســاحة الواقعة بين روسيا التاريخية وأوروبا الوسطى.

لا شــك في أن الروس لن يقوموا بنشر قوات برية لإعادة احتلال أوروبا الشرقية مــن أجل بنــاء حاجز وقائي جديد، ولكن من خلال توليفة من الضغوط السياســية والاقتصاديــة، الأمر الذي يرجع جزئيــا إلى حاجة أوروبا إلى الغــاز الطبيعي الوارد

من روسـيا، يمكن للروس ممارسـة نفوذ مفرط على الدول التابعة لهم سابقا خلال السـنوات المقبلة: تزود روسـيا نحو 25 في المائة من الغاز الطبيعي الذي تستهلكه أوروبا، و40 في المائة من اسـتهلاك ألمانيا، وما يقرب من 100 في المائة من استهلاك فنلندا ودول البلطيق[22]. وبالإضافة إلى ذلك، فقد نسـتيقظ جميعا من أزمة أوروبا الملحميـة حول الاقتصاد والعملة على عالم يتسـم بنفوذ روسي أكـبر في القارة. إن الأنشـطة الاستثمارية الروسـية، فضلا عن دورها الحاسم كمورد للطاقة، ستكتسب أهمية أكبر في أوروبا الضعيفة والمنقسمة حديثا.

وبالتـالي، فهل ستستسـلم ألمانيا النافرة من الحرب جزئيـا للنفوذ الروسي، مما يـؤدي إلى جعل أوروبا الشرقية شـبيهة بالحالة الفنلنديـة Finlandized إلى حد ما، ويجعل حلف شـمال الأطلسي أكثر خواء مما هو عليه؟ أم سـتقف ألمانيا بدهاء أمام روسـيا باستخدام مختلف الوسائل السياسـية والاقتصادية، على الرغم من أن مجتمعها لايزال منغمسا في حالة شبه سلامية بعد ملحمية؟ يهدد السيناريو السابق بإثبـات صحة مخاوف ماكيندر وغـيره من الجغرافيين: أي أنـه، بالمعنى الجغرافي، ليس هناك وسـط أوروبـا أو أوروبا الوسـطى Mitteleuropa، فكل ما هنالك هو أوروبـا البحرية وتلـك القارية، مع وجود منطقة من الحشـود بينهما. ومن ناحية أخرى، فسـيطرح السـيناريو الأخير مصيرا أوروبيا معقدا على نحو ثري: وهو مصير سـتعود فيه أوروبا الوسـطى إلى الظهور بشـكل كامل، ومن ثم ستزدهر لأول مرة منـذ ما قبل الحرب الأولى؛ كما سـتزدهر أيضـا فئة من الدول الواقعـة بين ألمانيا وروسـيا، كما كان ماكيندر يأمل، مما يدع أوروبا في سـلام، حتى لو كان نفورها من التحركات العسـكرية هو من الناحية الجيوسياسية غير مريح للولايات المتحدة. وفي هذا السـيناريو، سـتعمل روسـيا على تحقيق التوافق مع بلدان بعيدة إلى الشرق منهـا، مع انضـمام كل من أوكرانيا وجورجيا إلى أوروبـا. وبالتالي، فإن فكرة أوروبا، باعتبارها تعبيرا جغرافيا عن الليبرالية التاريخية، ستتحقق أخيرا. مرت أوروبا بقرون من عمليات إعادة الترتيب السياسـية في العصور الوسـطى بعـد انهيار روما. وفي معرض بحثها عن هذه الفكرة، فقد اسـتمرت أوروبا في إعادة ترتيب نفسـها بعد الحـرب الأوروبية الطويلة التي دارت رحاها بـين العامين 1914 و1989. وبالفعل، فقد كانت أوروبا - من الناحية الجغرافية - أمورا كثيرة طوال تاريخها.

وبعد عصر الاستكشـاف، انتقلت أوروبا أفقيا إلى الغرب مع تحول التجارة عبر الأطلـسي، مما جعل مدنا مثل كيبيك، وفيلادلفيا، وهافانا أقرب اقتصاديا إلى أوروبا الغربيـة من مدن مثـل كراكوف ولفوف Lvov في أوروبـا الشرقية؛ على الرغم من أن تقدم الجيوش العثمانية إلى الشـمال الغربي حتى فيينا في أواخر القرن السـابع عشر قـد عزل منطقة البلقان عن معظم الجزء المتبقي من شـبه القارة الأوروبية. وبطبيعـة الحال، ففي وقتنا الحاضر، فإن أوروبا آخذة في التحول إلى الشرق بضمها إلى البلدان الشـيوعية السـابقة إلى الاتحاد الأوروبي، وإلى الجنوب حيث تكافح من أجل تحقيق الاستقرار السياسي والاقتصادي للشاطئ الجنوبي من البحر المتوسط في شمال أفريقيا.

وفي جميـع عمليات إعـادة ترتيب هذه، فإن اليونان، مـن بين جميع الأماكن، ستوفر سجلا متبصرا لصحة المشروع الأوروبي؛ فاليونان هي الجزء الوحيد من منطقة البلقان الذي يمكن الوصول إليه من عدة سواحل مطلة على البحر المتوسط، وبالتالي فهو الموحّد للعالمين الأوروبيين. تقع اليونان على مسافة واحدة جغرافيا بين بروكسل وموسـكو، كما أنها على القرب الثقافي نفسـه من روسيا كما هي من أوروبا، بحكم مسـيحيتها الأرثوذكسـية الشرقية، والتي ورثتها بدورها من بيزنطة. ظلت اليونان طـوال فترات التاريخ الحديث مثقلة بالتخلف السـياسي. وفي حين أن الثورات التي اندلعـت في أوروبا في منتصف القرن التاسـع عشر كانـت في كثير من الأحيان ذات أصول تعود إلى الطبقة الوسطى وأهداف متمثلة في الحريات السياسية، كانت حركة الاستقلال اليونانية حركة عرقية بالدرجة الأولى، مع أسس دينية. وقد انحاز الشعب اليوناني بأغلبية ساحقة إلى روسيا لمصلحة الصرب وضد أوروبا خلال حرب كوسوفو في العـام 1999، عـلى الرغم من أن موقف الحكومة اليونانية كان أشـد التباسـا. واليونـان هـي الدولة الأوروبية الأشـد اضطرابا اقتصاديا، والتـي لم تكن جزءا من الكتلة الشـيوعية خلال الحرب الباردة. إن اليونـان، التي تعود إلى العصور القديمة - هي المكان الذي تنتهي وتبدأ فيه أوروبا - وكذلك الغرب، عن طريق الاسـتدلال. أدت الحرب التي أرّخ لها هيرودوت Herodotus بين اليونان وبلاد فارس إلى ترسيخ «انقسـام» للغرب ضد الشرق، والذي استمر لآلاف السنين[23]. ظلت اليونان بالكاد ضمن المعسـكر الغربي في بدايـة الحرب الباردة، وذلك بسـبب حربها الأهلية بين

اليمينيين والشيوعيين، وكذلك المفاوضات المصيرية بين ونستون تشرشل Churchill وجوزيف ستالين Stalin، والتي أدت في نهاية المطاف إلى جعل اليونان جزءا من حلف شمال الأطلسي. إن اليونان، كما كتب ماكيندر، تقع إلى الخارج قليلا من المنطقة المركزية لأوراسيا، وبالتالي يمكن الوصول إليها من قبل القوات البحرية. لكن الاستحواذ على اليونان بصورة ما من قبل إحدى قوى المنطقة المركزية (أي روسيا) «قد يحمل في طياته السيطرة على الجزيرة العالمية»[24].

وبطبيعة الحال، فإن روسيا لن تتمكن من السيطرة على اليونان في أي وقت قريب. ومع ذلك، فمن المثير للاهتمام أن نتأمل ما كان سيحدث خلال الحرب الباردة لو سارت المفاوضات بين تشرشل وستالين على نحو مختلف: تخيّل كم كان الموقف الإستراتيجي للكرملين سيصير أقوى لو كانت اليونان ضمن الكتلة الشيوعية، بتهديدها لإيطاليا عبر البحر الأدرياتيكي، فضلا على كامل منطقة شرق البحر المتوسط والشرق الأوسط. إن الأزمة المالية اليونانية، والمعبرة كثيرا عن التخلف السياسي والاقتصادي لليونان، هزت نظام العملة الموحدة للاتحاد الأوروبي بداية من العام 2010، وبسبب التوترات التي أحدثها ذلك بين دول الشمال والجنوب الأوروبي، فقد مثلت أهم التحديات التي واجهت المشروع الأوروبي منذ حروب الانفصال اليوغوسلافية. وكما تُظهر اليونان بكل وضوح، فلاتزال أوروبا تمثل عملا طموحا لايزال في طور التنفيذ: والذي سيتأثر بالاتجاهات والاضطرابات من الجنوب والشرق في عالم يترنح بفعل أزمة المتسّع.

10

روسيا والمنطقة المركزية المستقلة

يفتتح ألكسندر سولجينيتسين Solzhenitsyn روايته الملحمية عن الحرب العالمية الأولى، أغسطس 1914، بقصيدة حماسية عن سلسلة جبال القوقاز، والتي «بكل ثلمة منفردة منها... ذات البياض الساطع والتجاويف الزرقاء العميقة... تسمو على نحو شاهق فوق المخلوقات البشرية التافهة، بحيث صارت أساسية elemental، في عالم من صنع الإنسان، إلى درجة أنه حتى لو فتح كل الرجال الذين عاشوا في كل السنين الماضية أذرعهم بأقصى ما في وسعهم وحملوا كل الأشياء التي صنعوها منذ بدء الخليقة، وكدسوها جميعا في أكوام ضخمة، فلن يكون في وسعهم أبدا إنشاء سلسلة من التلال الجبلية بمثل روعة جبال القوقاز». ويستطرد سولجينيتسين في هذا السياق، فيكتب عن «المساحات الثلجية»،

«أدت جاذبية فراء الحيوانات إلى جلب أوائل المستكشفين إلى هذا الجانب الجليدي الآخر من العالم، والذين سيحضرون لاحقا من أجل الموارد الطبيعية»

المؤلف

و«الجــروف المنحدرة الجرداء»، و«الشــجوج والروافد»، و«الشــدف الضبابية التي لا يمكن تمييزها عن السحب الحقيقية»[1].

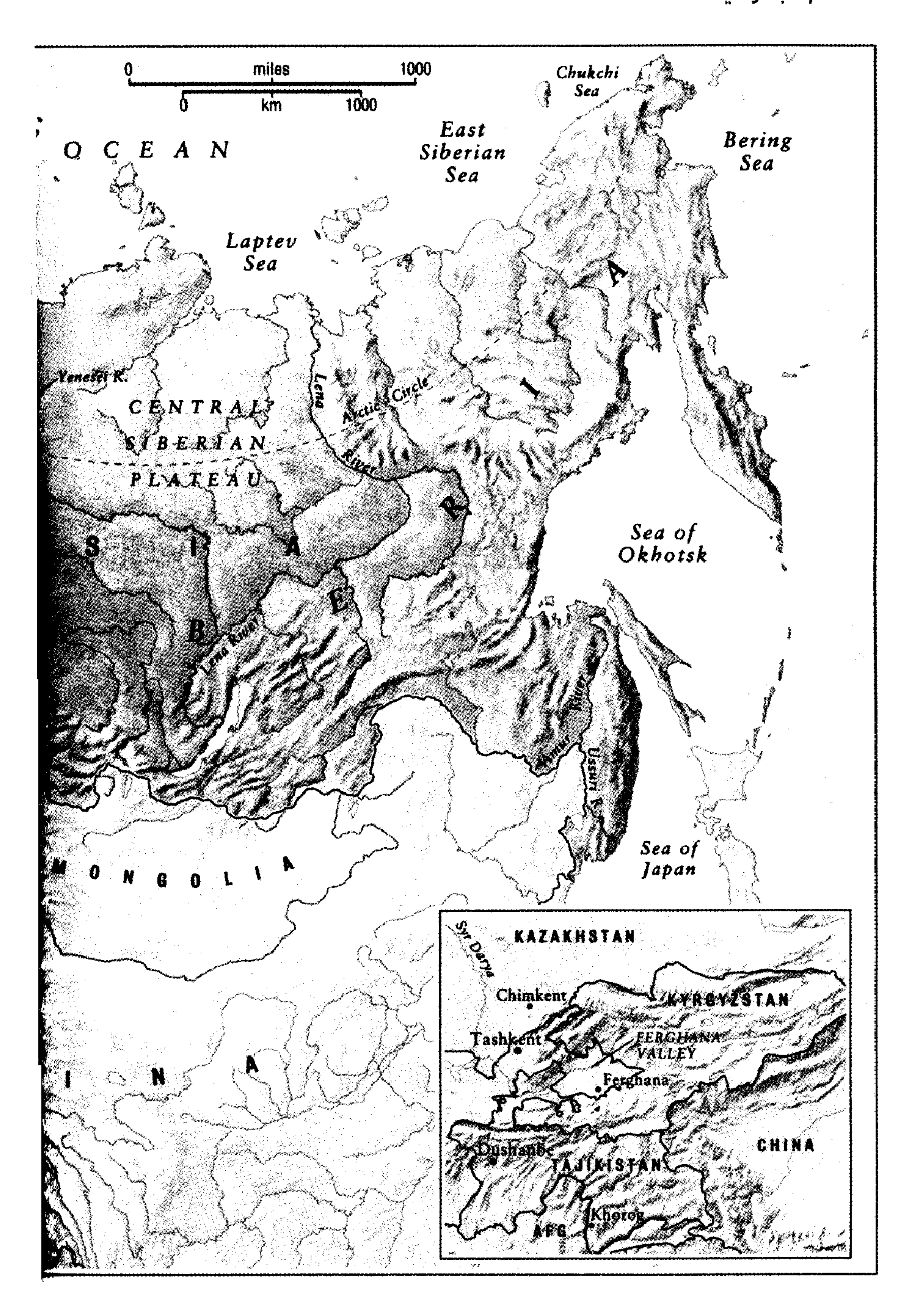
وعلى مر التاريخ، أخذت جبال القوقاز الروس، وهم من أشد القوميين تطرفا مثل سولجينيتسين، بكل من الخوف والرهبة. وفي هذا المكان، الواقع بين البحر الأسود وبحر قزوين، يوجد الجسر البري الذي تختفي عبره أوروبا تدريجيا وسط سلسلة من الجبال التي تمتد على مســافة ســتمائة ميل، فيما يبلغ ارتفاعها ثمانية عشر ألف قدم- والتي تخلب الألباب بجمالها اللّماع، خصوصا بعد المســاحة الشاســعة والمســطحة لأراضي الســهوب الواقعة إلى الشمال. تمثل هذه منطقة الغرب البري لروسيا، على الرغم من أن الجبال تقع إلى الجنوب من موسكو وسانت بطرسبرغ. وفي هذا المكان، واعتبارا من القرن الســابع عشر، حاول المســتعمرون الروس إخضاع تشكيلة من الشعوب الأبية: الشيشــان، والإنغوش، والأوسيتيين Ossetes، والداغستانيين Daghestanis، والأبخاز، والجورجيــين Kartvelians، والكاخيتيــين Kakhetians، والأرمــن والأذربيجانيــين، وغيرهم. وهنا، واجه الروس الإسلام بكل من شكليه المعتدل والمتشدد. إن ردة الفعل العاطفية المعقدة للروس تجاه حقيقة جبال القوقاز ذاتها، التي تُعذبهم وتهددهم في الوقت نفسه، تفتح لنا نافذة على القصة الروسية بأكملها.

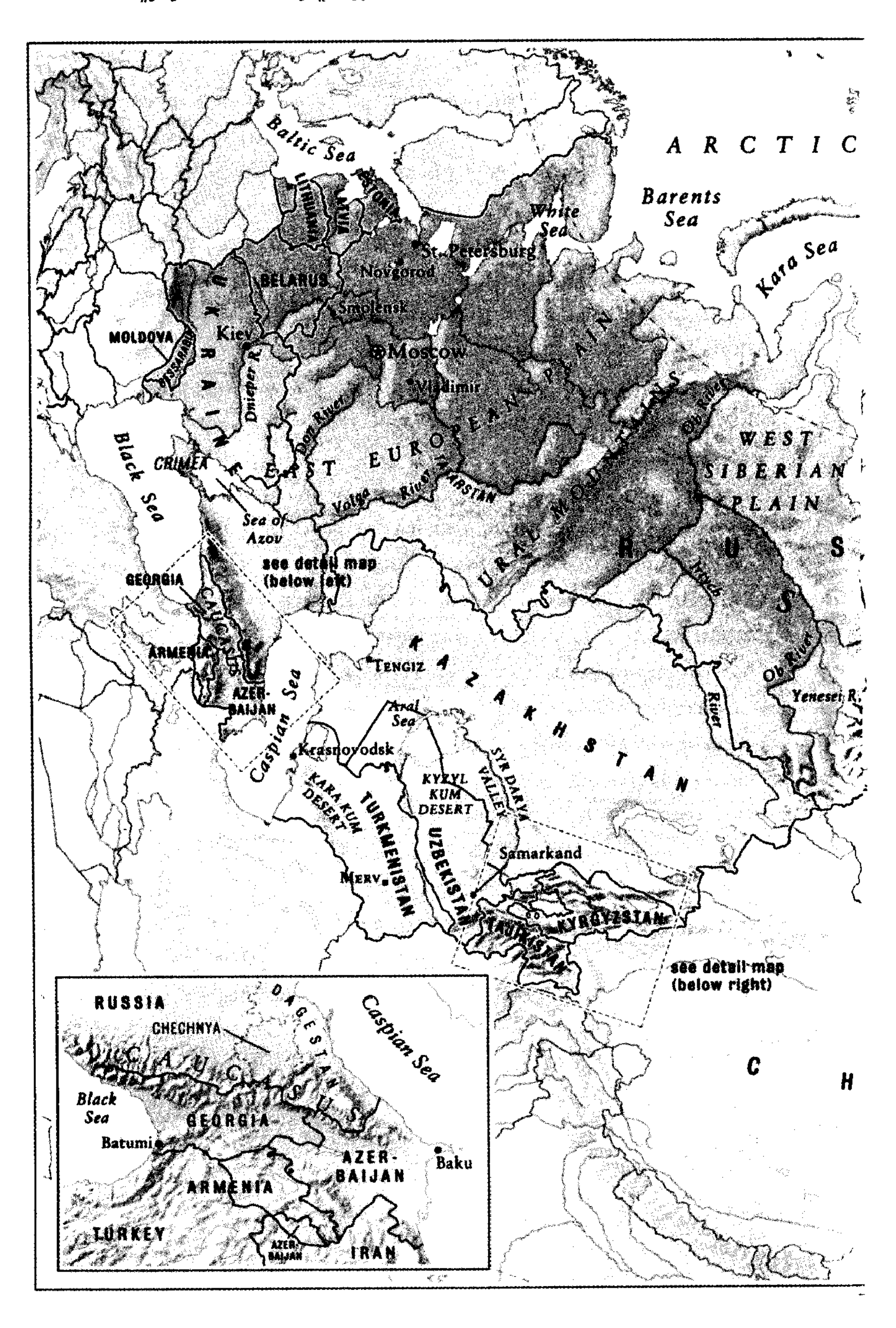
تمثل روســيا القوة البرية المتفوقة في العالم، كونها تمتد عبر 170 درجة من خطوط الطــول، وهو ما يبلغ نصف قطــر العالم بأسره تقريبا. يقع منفذ روســيا الرئيسي على البحر إلى الشــمال، لكنه يتعرض للانســداد بواسطة جليد القطب الشمالي طوال شهور عديدة من السنة. وتتسم القوى البرية بأنها غير آمنة على الدوام، كما ألمح إليه ماهان. ومــن دون بحار تحميهم، فســيظلون غير راضين على الــدوام ومضطرين إلى مواصلة التوسّــع أو التعرض للغزو هم أنفســهم. ويتســم هذا بصحته بالنسبة إلى الروس على وجه الخصوص، الذين تتســم أرضهم الشاســعة المسطحة بأنها شبه خالية من الحدود الطبيعيــة، مــما يوفر القليل من الحماية. يمثل خوف روســيا من الأعــداء البريين أحد الموضوعات الرئيســية لماكيندر. لقد اندفع الروس إلى أوروبا الوســطى والشرقية لصد هجمات فرنســا في القرن التاســع عــشر وألمانيا في القرن العشرين؛ كــما اندفعوا تجاه أفغانســتان لاعتراض ســبيل البريطانيين في الهند والســعي إلى الحصول على منفذ على الميــاه الدافئة للمحيط الهندي، واندفعوا إلى الشرق الأقصى لاعتراض ســبيل الصين. أما بالنسبة إلى جبال القوقاز، فقد شكلت تلك الجبال حاجزا ينبغي أن يهيمن عليه الروس لكي يكونوا في مأمن من الثورات السياسية والدينية في الشرق الأوسط الكبير.

وثمة حقيقة جغرافية أخرى بشـأن روسـيا، ألا وهي برودتها القارسـة. يقع الجزء الشـمالي من الولايات المتحدة عند الخط الموازي 49 لخط العرض الشمالي، حيث تبدأ كندا. لكن القسم الأعظم من روسيا يقع إلى الشمال من خط العرض 50، بحيث يقطن السكان الروس منطقة ذات مناخ أشد برودة من حيث يعيش الكنديون، الذين يعيش معظمهم في طول الحدود مع الولايات المتحدة. «وبسـبب خطوط العرض، والبُعد عن البحـار المفتوحة، والتأثيرات الحاجزة للجبال، والطبيعة القارية continentality»، كما كتب الجغرافي شـاؤول كوهـين Cohen، وبالتالي فإن مناخ روسـيا يترك معظمها أبرد بكثير وأكثر جفافا بكثير مما يسمح بالاستيطان المستديم والواسع النطاق[2].

لكـن جبال القوقاز، جنبا إلى جنب مع أجزاء الشرق الأقصى الروسي القريبة من الحدود الكورية الشـمالية، تمثل اسـتثناءات لهذا المبـدأ: وبالتالي، فمن بين عوامل الجـذب الأخرى لجبـال القوقاز، نجد حرارتها المعتدلة نسـبيا عند خط العرض 43 درجة[3]. صحيح أن المناخ والمناظر الطبيعية الروسـية تتسـم بوعورتها الشـديدة، وبالتالي تحمل مفاتيح شخصية character الروس وتاريخهم.

يبـدو أن البرد القارس قد طوّر لدى الـروس «قدرة على تحمّل المعاناة، ودرجة معينة من الطائفية communalism، وحتى الاسـتعداد للتضحية بالفرد من أجل المصلحـة العامة»، كما كتب المؤرخ المتخصص في الشـأن الروسي، فيليب لونغويرث Longworth، الذي أوضح أن موسـم الحصاد القصير في خطوط العرض الشـمالية العليا تطلّب وجود «علاقات متبادلة بين المزارعين»، فضلا عن «بذل جهود محمومة ومضنية، وقضاء ساعات طويلة في الحقل، وحشد الأطفال»، لأنه يستوجب القيام بكل مـن عمليتي البذر والحصاد على عجل. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفوائض المنخفضة بسـبب البرد قد شجعت أفراد النخبة في الدولة الروسية الناشئة على السيطرة على مناطـق شاسـعة، ما أدى إلى وأد حافـز المزارعين للعمل بجد مـن دون إكراه، كما أسهم في خلق «نزعة عنيفة» في الحياة اليومية[4]. إن الشيوعية الروسية، إضافة إلى إظهارها لاحتقار معين للحريات الشخصية حتى وقت قريب، قد استمدت جذورها من المشـهد المتجمـد. إن إزالة الغابـات، وبناء الكنائس والتحصينات في السـهول الجليدية، وترديد الصلوات الأرثوذكسـية كلها تُشـير إلى طائفية Communalism تقشعر لها الأبدان.


0 miles 1000
0 km 1000
OCEAN
East Siberian Sea
Chukchi Sea
Bering Sea
Laptev Sea
Yenesei R.
CENTRAL SIBERIAN PLATEAU
Lena River
Arctic Circle
SIBERIA
Sea of Okhotsk
Lena River
Amur River
Ussuri R.
Sea of Japan
MONGOLIA
CHINA
KAZAKHSTAN
Syr Darya
Chimkent
KYRGYZSTAN
Tashkent
FERGHANA VALLEY
Ferghana
Dushanbe
TAJIKISTAN
CHINA
Khorog
AFG.


ARCTIC
Barents Sea
Kara Sea
Baltic Sea
White Sea
ESTONIA
LATVIA
LITHUANIA
BELARUS
St. Petersburg
Novgorod
Smolensk
Moscow
Vladimir
UKRAINE
MOLDOVA
BESSARABIA
Kiev
Dnieper R.
Don River
EAST EUROPEAN PLAIN
Volga River
TATARSTAN
URAL MOUNTAINS
Ob River
WEST SIBERIAN PLAIN
RUSSIA
Irtysh
Ob River
Yenesei R.
Black Sea
CRIMEA
Sea of Azov
see detail map (below left)
GEORGIA
CAUCASUS
ARMENIA
AZER-BAIJAN
Caspian Sea
TENGIZ
KAZAKHSTAN
Aral Sea
Krasnovodsk
KARA KUM DESERT
TURKMENISTAN
KYZYL KUM DESERT
SYR DARYA VALLEY
UZBEKISTAN
Samarkand
MERV
TAJIKISTAN
KYRGYZSTAN
see detail map (below right)
CH
RUSSIA
CHECHNYA
DAGESTAN
Caspian Sea
CAUCASUS
Black Sea
GEORGIA
Batumi
AZER-BAIJAN
Baku
ARMENIA
TURKEY
AZER-BAIJAN
IRAN

مفتاح الخريطة:

Moldova	مولدوفا
Black sea	البحر الأسود
Crimea	شبه جزيرة القرم
Baltic sea	بحر البلطيق
Lithuania	ليتوانيا
Latvia	لاتفيا
Estonia	إستونيا
Belarus	روسيا البيضاء
Ukraine	أوكرانيا
Kiev	كييف
Sea of Azov	بحر آزوف
Georgia	جورجيا
Caucasus	القوقاز
Armenia	أرمينيا
Azerbaijan	أذربيجان
Caspian sea	بحر قزوين
See detail map (below left)	انظر خريطة التفاصيل (أسفل، إلى اليسار)
Volga river	نهر الفولغا
East European plain	سهل أوروبا الشرقية
Don river	نهر الدون
Dnieper r.	نهر الدنيبر
White sea	البحر الأبيض
St. Petersburg	سانت بطرسبرغ
Tatarstan	تتارستان
Smolensk	سمولينسك
Novgorod	نوفغورود
Moscow	موسكو
Vladimir	فلاديمير
Tengiz	تنجيز
Hrasnovodsk	هراسنوفودسك
Karakum desert	صحراء كاراكوم
Merv	ميرف
Aral sea	بحر آرال
Kyzylkum desert	صحراء كيزيلكوم

Kazakhstan	كازاخستان
Tengiz	تنجيز
Syr Darya valley	وادي سير داريا
Uzbekistan	أوزبكستان
Samarkand	سمرقند
Tajikistan	طاجيكستان
Kyrgyzstan	قيرغيزستان
Arctic ocean	المحيط المتجمد الشمالي
Barents sea	بحر بارنتس
Kara sea	بحر كارا
Ob river	نهر أوب
Ural mountain	جبال الأورال
Tatarstan	تتارستان
Russia	روسيا
Siberia	سيبيريا
Lena river	نهر لينا
Irtych river	نهر إرتيش
Yenesei r.	نهر ينيسي
China	الصين
West Siberian plain	سهل سيبيريا الغربي
Sea of Okhotsk	بحر أوخوتسك
Amur river	نهر آمور
Usuri r.	نهر أوسوري
Sea of Japan	بحر اليابان
Mongolia	منغوليا
Central Siberian plateau	هضبة سيبيريا الوسطى
Miles	أميال
Km	كلم
East Siberian sea	بحر سيبيريا الشرقي
Lapeu sea	بحر لابيو
Lena river	نهر لينا
Arctic circle	الدائرة القطبية الشمالية
Chukchi sea	بحر تشوكشي
Bering sea	بحر بيرينغ
Russia	روسيا

Chechnya	الشيشان
Caucasus	القوقاز
Black sea	البحر الأسود
Batumi	باتومي
Turkey	تركيا
Armenia	أرمينيا
Azerbaijan	أذربيجان
Iran	إيران
Baku	باكو
Azerbaijan	أذربيجان
Caspian sea	بحر قزوين
Dagestan	داغستان
See detail map (below right)	انظر خريطة التفاصيل (أسفل، إلى اليمين)
Syr Darya	سير داريا
Chimkent	شمكنت
Tashkent	طشقند
Kazakhstan	كازاخستان
Kyrgyzstan	قيرغيزستان
Ferghana valley	وادي فرغانة
Ferghana	فرغانة
China	الصين
Dushanbe	دوشنبه
Tajikistan	طاجيكستان
Khorog	خوروغ
AFG	أفغانستان

يتألف الحزام الشمالي لروسيا بين الدائرة القطبية الشمالية والمحيط المتجمد الشمالي من سهول التندرة المتجمدة والعديمة الشجر، والتي تغطيها الأشنات والحزاز lichen. وعندما يذوب الجليد في الصيف، يغطي الوحل الأرض التي تعج بقطعان البعوض العملاق. وإلى الجنوب من التُندرة، تكمن التايغا taiga، وهي أكبر الغابات الصنوبرية في العالم، والتي تمتد من بحر البلطيق إلى المحيط الهادي؛ كما أن نحو 40 في المائة من مساحة سيبيريا والشرق الأقصى الروسي مغطاة بالأراضي الدائمة التجمد. وأخيرا، ففي جنوب روسيا، وبطول الطريق من السهل الهنغاري في الغرب، وعبر

أوكرانيا، وشمال القوقاز، وآسيا الوسطى إلى أقاصي منشوريا، تقع السهوب، وهي أوسع الأراضي العشـبية في العالم، أو «الطريق العشـبي العظيم»، على حد تعبير الباحث في الشؤون الروسية، دبليو بروس لينكولن Lincoln[5]. كما كتب ماكيندر، فقد كان الروس في الأصل شعبا محتشدا في التطويق المستتر للغابة؛ والذين، من أجل أمنهم، كان عليهم تتبع وقهر البدو الآسـيويين القادمين من السـهوب إلى الجنوب والشرق - وذلك اعتبارا مـن منتصف العصور الوسـطى إلى أوائل العصر الحديـث. وعلى وجه الخصوص، فإن الوجـود المطوّل والمهين للمغـول - القبيلة الذهبية بالقرب من مُسـكوفيا Muscovy القرون الوسـطى والقبيلة الزرقاء في آسيا الوسطى - قد أدى دورا في حرمان روسيا من تجربة عصر النهضة، ومنح ضحاياه من السلاف الأرثوذكس الشرقيين عددا من القواسم المشـتركة، والطاقة، والشـعور بالهدف، وهي أمور كان لها أثر بالغ الأهمية في تمكينهم في نهاية المطاف من الخروج من نير عبودية التتار وضم مسـاحات شاسعة من الأراضي خلال القـرون الأخيرة[6]. إن عبودية التتار، وفقا للمؤرخ ج. باتريك مارش March، قد غرسـت في الروس «قدرة أكبر على تحمّل الاسـتبداد»، وفي الوقت نفسه عوّدتهم على الحرمان وأصابتهم «بخوف زوراني paranoid من الغزو»[7].

إن انعـدام الأمن هو العاطفة الوطنية الروسـية الجوهريـة؛ أي أن «الرغبة في إيجاد كل من الأسـباب والمبررات في التاريخ قد نبعت من انعدام الأمن في السهول الشرقية»، كما كتب أمين مكتبة الكونغرس جيمس بيلينغتون Billington في مجلده الضخم عن الثقافة الروسية، «الأيقونة والفأس». إن «الجغرافيا، وليس التاريخ»، كما يقول، قد سيطرت على التفكير الروسي:

> تسـيطر على حياة الفلاحين العاديين دورات موسمية قاسية، وعدد قليل مـن الأنهـار المتباعدة، وأنماط متفرقـة من الأمطار وخصوبـة التربة؛ كما أن انحسار وتدفق الغزاة من البدو الرحّل كثيرا ما بدا بأنه أكثر قليلا من حركة لا معنى لها لكائنات سطحية على بحر ثابت وغير موات[8].

وبعبارة أخرى، فإن انبسـاط التضاريس الروسـية نفسـه، كونها تمتـد من أوروبا إلى الـشرق الأقـصى، مع قليل من الحـدود الطبيعية في أي مـكان، وميلها إلى أن تضم مسـتوطنات متناثرة في مقابل التجمعات الحضرية، أدى خلال فترات طويلة إلى ظهور مشهد من الفوضى، والتي كانت كل مجموعة فيها تعاني انعدام الأمن على نحو مستديم.

وبالنظـر إلى تجمّعهم في الغابات في حين يتربص بهم أعداؤهم في السـهوب، التجأ الـروس إلى كل مـن الروحانية animism والدين. وكما كتـب بيلينغتون، فإن مهرجان

عيد الفصح الأرثوذكسي الذي يحل في فصل الربيع قد «اكتسب حدة خاصة في الشمال الروسي». إن تحية عيد الفصح التقليدية لم تكن «عيد فصح سعيد» اللطيفة المنتشرة في الغرب الحديث، بل كانت تأكيدا مباشرا على الحقيقة المحورية للتاريخ المقدس، فكانت «لقد قام المسيح!»، وكان الرد: «لقد قام بالفعل!» ولا يشير هذا إلى «قيامة» المسيح فقط، بل إلى الطبيعة كذلك؛ باعتبار أن فصل الشتاء الطويل والمظلم كان على وشك الانتهاء، مع تساقط الثلج عن الأشجار التي تطرح أوراقها. تحتوي المسيحية الأرثوذكسية الشرقية على أكثر من تلميح إلى الوثنية، في حين كانت الشيوعية الروسية، بتركيزها البلشفي على الشمولية تمثل شكلا آخر من أشكال الدين الروسي - وهو المقابل العلماني للأرثوذكسية، وفقا للمفكر الروسي الذي عاش في أوائل القرن العشرين، نيكولاس برداييف Berdyaev. وكما يُظهر عنوان كتاب بيلينغتون، فقد كانت الأيقونة بمنزلة تذكرة حية لسكان الحدود المنهكين بقوة عقيدتهم الأرثوذكسية، وبالأمن والهدف الأسمى الذي تحمله في طياتها، في حين أن الفأس «كانت الأداة الأساسية لروسيا العظمى: أي الوسيلة التي لا غنى عنها من أجل إخضاع الغابة»[9] لأغراضهم الخاصة.

وبعبارة أخرى، فإن الشمولية الدينية والشيوعية لروسيا قد عادت إلى هذا الشعور بانعدام الحماية في الغابة بالقرب من السهوب، والذي غرس في أذهان الروس، نتيجة لذلك، الحاجة إلى الغزو. ولكن لأن الأرض كانت مسطحة، ولأنها ترتبط عضويا في اتساعها بآسيا والشرق الأوسط الكبير، فقد تعرضت روسيا نفسها للغزو. وفي حين تعرضت الإمبراطوريات الأخرى للصعود، والتوسع، والانهيار - بحيث لم يعد يسمع أحد عنها، فقد توسّعت الإمبراطورية الروسية، وانهارت، وأعيد إحياؤها مرات عديدة[10]. تظهر الجغرافيا والتاريخ أننا لا نستطيع أبدا أن نستبعد روسيا من حساباتنا، وبالتالي فإن انبعاث روسيا من جديد في عصرنا الحالي بعد تفكك الإمبراطورية السوفييتية ليس إلا جزءا من قصة قديمة.

إن أول إمبراطورية روسية كبرى، وهي بالفعل أول دولة عظمى في أوروبا الشرقية، كانت كيفان روس Rus Kievan، والتي ظهرت في منتصف القرن التاسع في كييف، والواقعة في أقصى جنوب المدن التاريخية على ضفاف نهر الدنيبر. وقد سمح هذا لكيفان روس بأن تكون على اتصال دائم مع الإمبراطورية البيزنطية إلى الجنوب، مما سهّل عملية تحوّل الروس إلى المسيحية الأرثوذكسية، والتي، كما نعلم، ستتعزز بالحدة الخاصة التي منحها لها الروس، بناء على تجربتهم الخاصة مع الطبيعة الشتوية القاسية.

لقــد فرضــت الجغرافيا أيضا أن تشــكّل كيفان روس توحيدا ديموغرافيــا بين الفايكنغ الإســكندنافيين (القادمين عبر الأنهار من الشــمال) وبين الســلاف الشرقيين من سكان البلاد. وقد عنت التربة الفقيرة في المنطقة وجوب غزو مســاحات كبيرة من الأراضي في سبيل توفير الإمدادات الغذائية، وبالتالي بدأت الإمبراطورية في التشكّل، والتي جمعت بين قوتــين إقليميتين ديناميتين، هما الفايكنغ والبيزنطيين. أما النتيجة فكانت روســيا، بوصفها مفهوما جغرافيا وثقافيا.

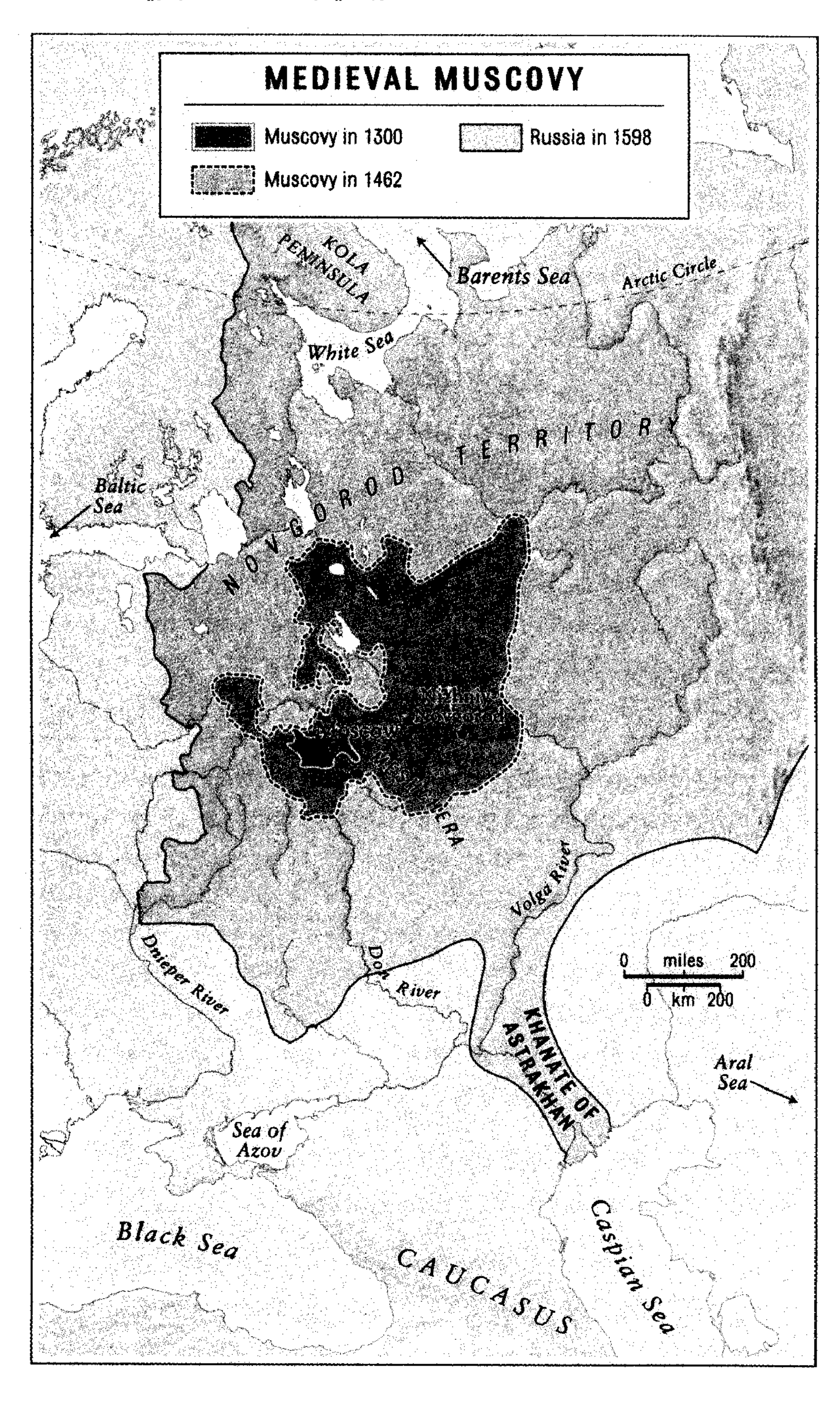
كافحــت كيفــان روس على الدوام ضــد البدو الرحل الآتين من الســهوب. وفي منتصف القرن الثالث عشر، دُمرت في نهاية المطاف على يد المغول بقيادة باتو خان Batu Khan، وهو حفيد جنكيز خان. أدت السنوات المتتالية من الجفاف في أراضي الرعــي التقليدية إلى دفع المغــول باتجاه الغرب بحثا عن مــراعٍ جديدة لخيولهم، والتي كانت مصدرا لكل من طعامهم وقدرتهم على التنقل. وهكذا، تم ســحق أول محاولة كبرى للتوسع الإمبراطوري الروسي إلى المنطقة المركزية لأوراسيا.

وكانــت النتيجــة أنه، من خــلال تحركات وتحــركات مضادة لا تعــد ولا تحصى، وإضافة إلى الأحداث الدرامية السياســية التي مثلت مادة الفاعلية الإنســانية، تحوّل التاريخ الروسي إلى الشمال تدريجيا - إلى مدن مثل سمولينسك، ونوفغورود، وفلاديمير، وموســكو، حيث بلغت موســكو ذروة قوتها في القرون الوسطى اللاحقة: وقد تميزت هذه القرون الوسطى بدورها، كما رأينا، بالاستبداد وجنون العظمة، والتي كانت ناتجة جزئيا عن ضغوط المغول. وقد ساعد في صعود موسكو إلى مكانة بارزة موقعها المواتي للتجــارة، كونها تقــع على طرق نقل البضائع بين الأنهار الواقعة في الحوض المتوســط والعلوي لنهر الفولغا. وكما كتب بروس لينكولن: «تقع موســكو في وســط المرتفعات التــي تنبع فيها الأنهــار الكبرى لروســيا الأوروبية... كانت مركزا تتحــرك انطلاقا منه الطرق النهرية السريعة الروســية على نحو متعــرج إلى الخارج، مثل البرامق spokes غير منتظمة الشــكل لعجلة غير متوازنة»[11]. ومع ذلك، فلأن الروس في هذه المرحلة مــن تاريخهم كانوا يتجنبون الســهوب التي يجوبها التتار، فقــد ركزوا جهودهم على مواصلــة تطوير أراضي الغابات التي لا يمكن اختراقهــا، حيث يمكن للدولة أن تتلاحم على نحو أفضل[12]. كانت مســكوفيا في القرون الوسطى محاطة وغير ساحلية تقريبا. وإلى الشرق منها، لم يكن هناك سوى التايغا، والسهوب، والمغول. أما إلى الجنوب، فقد حرم الأتراك والمغول الذين يعيشــون على الســهوب مســكوفيا من الوصول إلى البحر الأسود. وإلى الغرب والشمال الغربي، حرمها السويديون والبولنديون، والليتوانيون من

الوصول إلى بحر البلطيق. ولم يكن إيفان الرابع Ivan IV «الرهيب» (1553 - 1584)، يمتلك إلا وصولا إلى ســاحل واحد فقط، والذي كان بالكاد صالحا للاستعمال، في أقصى الشمال: وهو البحر الأبيض، والذي يمثل مدخلا إلى المحيط المتجمد الشمالي. ولكونهم مهددين على كل من الجانبين بسهل لا نهاية له، فلم يكن أمام الروس من خيار سوى محاولة الخروج، وهو ما فعلوه تحت حكم إيفان الرابع.

كان إيفان الرهيب شــخصية تاريخية مثيرة للجدل، ســواء بوصفه وحشــا أو بطلا شــعبيا، والذي يمثل لقبه ترجمة مضللة للفظة «غــروزني» Groznyi، بمعنى المرعب، والذي خلعه عليه أنصاره بفعل عقابه للمذنبين. وقد أثبت إيفان أنه في زمانه ومكانه، كان الترياق الوحيــد للفوضى هو الاســتبداد المطلــق. كان إيفان هــو الأول بين كبار الإمبرياليــين الروس، وهو دور ألقي عليه جزئيا بفعل العوامــل التاريخية والجغرافية. ففي العــام 1453، هُزمــت بيزنطة اليونانية عــلى أيدي الأتــراك العثمانيين، وتسرب اللاجئون اليونانيون شمالا من القسطنطينية إلى موسكو، حاملين معهم الخبرة السياسية والعســكرية والإدارية البالغة الأهمية في بنــاء الإمبراطوريات. تمكن إيفان، بعدما صار القيــصر، من هزيمــة تتار قازان، مما منحه وصولا إلى جبال الأورال؛ وفي فترة لاحقة من حكمه، أقدم على خطوة كبرى في ســبيله لغزو ســيبيريا بانتصاره على خانية khanate ســيبير المغولية بالقرب من نهر إرتيش، إلى الشــمال الغربي من منغوليا الحالية. تلخّص قســوة إيفان ودهاؤه ما تعلمه شــعبه من أجيال من «التعاملات الصبورة والمطواعة» مع الآسيويين[13]. كانت سرعة الاقتحام الروسي لهذا المشهد الواسع هائلة إلى درجة أنه بعد أقل من ستة عقود، أي في أوائل القرن السابع عشر، كان الروس قد وصلوا إلى بحر أوخوتسك Okhotsk، على حافة المحيط الهادي.

سعى إيفان أيضا إلى غزو الجنوب والجنوب الشرقي، وبالتحديد خانية استراخان المســلمة، وهي شــعبة من القبيلة الذهبيــة كانت تشرف على مصــب نهر الفولغا والطــرق المؤدية إلى منطقة القوقاز، وبلاد فارس، وآســيا الوســطى. كانت هذه أرض قبيلــة النوغاي Nogai، وهي قبيلة من الأتــراك الرحل الذين كانوا يتحدثون بإحدى لهجات لغة الكبشــاق Kypchak. وعلى الرغم من أن النوغاي كانوا أعداء سياســيين لمســكوفيا، فقد كانوا يمارسون التجارة مع تلك الإمارة، كما رحبوا بقيام جيوش إيفان بالمحافظة على أمن الطرق الرئيســية. كان بحــر أرض المراعي ضخما بصورة معقدة، والذي شــن فيه المغول والتتار، بجيوشــهم المتداخلة أحيانا، الحروب - كما مارســوا التجارة أيضا - مع الروس.


MEDIEVAL MUSCOVY
Muscovy in 1300
Russia in 1598
Muscovy in 1462
KOLA PENINSULA
Barents Sea
Arctic Circle
White Sea
NOVGOROD TERRITORY
Baltic Sea
Volga River
Dnieper River
Don River
0 miles 200
0 km 200
KHANATE OF ASTRAKHAN
Aral Sea
Sea of Azov
Black Sea
CAUCASUS
Caspian Sea

مفتاح الخريطة:

مسكوفيا في القرون الوسطى	Medieval Muscovy
مسكوفيا في العام 1300	Muscovy in 1300
مسكوفيا في العام 1462	Muscovy in 1462
روسيا في العام 1598	Russia in 1598
شبه جزيرة كولا	Kola peninsula
بحر بارنتس	Barents sea
الدائرة القطبية الشمالية	Arctic circle
البحر الأبيض	White sea
بحر البلطيق	Baltic sea
إقليم نوفغورود	Novgorod territory
نيجنيونوفغورود	Nizhniynnovgorod
موسكو	Moscow
مشكيرا	Meshchera
نهر الفولغا	Volga river
نهر الدون	Don river
نهر الدنيبر	Dnieper river
بحر آزوف	Sea of Azov
البحر الأسود	Black sea
القوقاز	Caucasus
بحر قزوين	Caspian sea
بحر آرال	Aral sea
خانية أستراخان	Khanate of Astrakhan
أميال	Miles
كلم	km

ولنتذكر أنه بمثل وعورة وتعقيد الأرض المستوية، كانت سلسلة جبال القوقاز أكثر منها في ذلك، وبالتالي أشد غرابة في أعين الروس، من حيث كونها تمثّل الهاجس الروسي معهم.

كان إيفـان لا يعـرف الكلل، ففي أعقـاب انتصاره في الجنوب، شـن الحرب على المنطقة التي تمثلها إسـتونيا ولاتفيا في الوقت الحاضر من أجل تأمين مجثم perch له على بحر البلطيق، لكنه هزم من قبل تحالف من الرابطة الهانزية Hanseatic League وجماعة ليفونيا الألمانية Order of Livonia. أدى هذا إلى عزل روسيا عن الغرب على

نحو حاسم، حتى على الرغم من تأثرها بنزع أراضيها حديثا في الشرق الأوسط وآسيا.

أدت الحركة الروسية الأولى لتشكيل إمبراطورية قارية في أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر إلى ترسيخ سمعة القوزاق Cossacks، الذين استخدمتهم الدولة الروسية لتدعيم موقفها في القوقاز. على الرغم من أن كلمة «القوزاق»، أو القازاق kazak، كانت تشير في الأصل إلى المحاربين المرتزقة من التتار، فقد صارت لفظة القوزاق تشير إلى الأفراد الروس، والليتوانيين، والبولنديين، الذين شعروا بالإحباط من الظروف القاسية في الضياع التي ينتمون إليها، ومن ثم هاجروا إلى السهوب الأوكرانية. وهناك، في ظل الظروف التي تسودها الفوضى على الحدود المنغولية السابقة، كانوا يعيشون كلصوص، وتجار، ومستعمرين، ومرتزقة، متحولين تدريجيا إلى وحدات غير نظامية في جيش إيفان لأنهم كانوا محاربين أشداء على الرغم من أجورهم الزهيدة. وقد ظهرت مستوطنات القوزاق في وديان الأنهار، خصوصا واديي نهري الدون والدنيبر[14]. وكما اتُّفق، فإن رواية نيكولاي غوغول Gogol الكلاسيكية «تاراس بولبا» Taras Bulba، التي نشرت لأول مرة في العام 1835، قبل أن تصدر بنسختها النهائية بعد عقد من الزمن، هي قصة عن قوزاق نهر الدنيبر. كان غوغول قوميا روسيا، لكنه رأى روسيا الأصلية الحقيقية في أوكرانيا (وهي كلمة تعني «الأرض الحدودية»)، والتي أدت سهوبها المتواصلة من دون عوائق - والتي تفتقر إلى الحدود الطبيعية ويغذيها عدد قليل نسبيا من الأنهار الصالحة للملاحة - إلى جعل شعوبها المتناحرة ميالة إلى الحرب. وعلى الرغم من أن غوغول استخدم عبارات «الروس»، و«الأوكرانيين»، و«القوزاق» للإشارة إلى هويات محددة، فقد أدرك أيضا أن هذه الهويات تتداخل فيما بينها (كما لاتزال تفعل الهويات المحلية)[15]. تتسم رواية غوغول بكآبتها بفعل العنف الذي لا يتوقف. وفي حين أن الغياب الكامل للبشرية الذي صُور في هذه الصفحات هو عمل أفراد يتخذون خياراتهم الفظيعة الخاصة، فمن الصحيح أيضا أن العنف الذي تحتويه رواية تاراس بولبا يمثل، ولو جزئيا على الأقل، تعبيرا عن جغرافية السهوب الروسية والأوكرانية، حيث أدى التسطّح، والقارية، وطرق الهجرة إلى وقوع النزاعات وإلى تغيرات سريعة في الحظوظ.

استمرت إمبراطورية إيفان الرابع في التوسّع تحت حكم بوريس غودونوف (1598 - 1605)، لا سيما في اتجاه الجنوب الشرقي إلى ستالينغراد، وجبال الأورال، والسهوب الكازاخستانية. ولكن بعد ذلك، انهارت مسكوفيا القرون الوسطى، كما فعلت كيفان

روس قبـل ذلـك، هذه المرة مـع قيام كل من السـويديين، والبولنديـين، والليتوانيين، والقوزاق بتقطيع أوصال الذبيحة. صاغت مسـكوفيا القرون الوسطى نفسها على أنها «روما الثالثة»، أي الوريث الشرعي لكل من روما والقسـطنطينية نفسها. وبالتالي فإن تراجع مسكوفيا، والمعروف باسم زمن الاضطرابات - وهو نتيجة التحزّبات في العاصمة - جعل الأمر يبدو كأن عالما كاملا وحضارة بأسرها كانت في سبيلها إلى الزوال. ومع ذلك، فلم تنته روسـيا، على الرغم مما كانت تبدو عليه في ذلك الوقت. وفي غضون سـنوات قليلة، وفي العام 1613، جرى تعيين ميخائيل رومانوف Romanov قيصرا، ومن ثم فقد ظهرت أسرة حاكمة جديدة وكذلك بدأ فصل جديد في التاريخ الروسي.

كانت سـلالة رومانوف التي حدّدت ملامح روسـيا الحديثة، بإضفاء الميكنة ومزيدا من التنظيم الإداري على الإمبريالية الروسـية، فيما يمثل تحسـنا عن غزوات مسـكوفيا القرون الوسطى التي اتسمت بكونها رومانسية إلى حد ما، وذات هدف محدد. وخلال حكم آل رومانوف الذي اسـتمر لثلاثة قرون، تمكنت روسيا من هزيمة وإخضاع بولندا، وليتوانيا، ودمرت السـويد، وأذلت فرنسـا النابليونية، واسـتعادت أوكرانيا، وتوسـعت إلى شـبه جزيرة القرم والبلقان على حسـاب الأتراك العثمانيين، كما وسّـعت وأضفت الطابع الرسـمي في الوقت نفسـه على سـيطرتها على منطقة القوقاز، وآسيا الوسطى، وسـيبيريا وصولا إلى الصين والمحيط الهادي. وكذلك فقد تعافت روسـيا من الانتكاسات التـي تعرضت لها في حرب القرم (1853 - 1856) والحرب الروسـية- اليابانية (1904 - 1905). وفيما يتماشى مع الموضوع الرئيسي للتاريخ الروسي، والمتعلق بالتوسعات الهائلة والتراجعات التي لا تقل أهمية على خلفية جغرافية هائلة الاتساع وخالية من العوائق، خـسر جيش آل رومانوف كلا من بولندا وغرب روسـيا أمام جيـش نابليون العظيم في العام 1812، بيد أنه تعافى في غضون أسـابيع قليلة، مما عجّل بانسـحاب الفرنسيين مرة أخرى إلى وسط أوروبا، الأمر الذي أدى إلى تدمير قوات نابليون على نحو كامل.

كان بطرس الأكبر Peter the Great، الذي حكم روسيا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، بالنسـبة إلى سـلالة رومانوف ما كانه إيفان الرابع لمسكوفيا في القرون الوسـطى: شـخصا غير عادي تثبت تصرفاته أن الجغرافيا ليست سوى جزء واحد من القصة.

بالتأكيد، فإن أشـهر مآثر بطرس في التاريخ هي بناؤه مدينة سـانت بطرسبرغ على شـواطئ بحر البلطيق، الذي بدأ في العام 1703، والذي انطوى على حرب ضروس ضد

الإمبراطورية السويدية: قامت السويد بالغزو عبر أهوار ماسوريا في المنطقة التي تمثلها بيلاروسيا، فيما حرق الروس المحاصيل كجزء من سياسة الأرض المحروقة في المناطق الجافة، وهو تكتيك سيستخدمونه لاحقا ضد كل من نابليون وهتلر. وعلى الرغم من الإنجاز العظيم لبطرس، والمتمثل في توحيد ساحل البلطيق الروسي بإنشاء عاصمة جديدة هناك، والتي بُنيت باتجاه أوروبا، في محاولة منه لتغيير الهوية السياسية والثقافية لروسيا، فسوف يفشل في نهاية المطاف. فمع غزواتها التي تواصلت في كل اتجاه آخر، أيضا، ظلت روسيا أقرب ما تكون إلى بلد أوراسي، بل يمكن القول إنها كانت من النوع النمطي archetypal، وهي الوحيدة من هذا النوع في الواقع، والذي يجاهد لأن يصير أوروبيا على الرغم من أن جغرافية وتاريخ الغزوات التي جسدها المغول قد حرمته من هذه المكانة. وكما أشار إليه ألكسندر هيرزن Herzen، وهو مفكر أدبي روسي كبير عاش في القرن التاسع عشر:

> حتى يومنا هذا، فنحن ننظر إلى الأوروبيين وإلى أوروبا بالطريقة نفسها التي ينظر بها سكان الأرياف إلى من يعيشون في العاصمة، أي باحترام وشعور بالنقص من جانبنا، والإذعان لهم والتشبه بهم، مع اعتبار أن كل ما نحن فيه مختلفون ما هو إلا نقص فينا[16].

وعلى الرغم من أن الروس لم يكن ينبغي لهم أن يشعروا بأي خجل من حالتهم، لأنه لم يكن في وسعهم أن يكونوا إلا ما كانوا عليه: شعب انتزع إمبراطورية من طبيعة قارية مستحيلة، وبالتالي وصل إلى أبواب المشرق Levant والهند، ما شكل تهديدا لإمبراطوريتي فرنسا وبريطانيا. وقرب الوقت نفسه الذي سطر فيه هيرزن تلك الكلمات أعلاه، استولت القوات الروسية على طشقند وسمرقند على طريق الحرير القديم الموصّل إلى الصين، على مقربة من حدود شبه القارة الهندية.

وفي حين واجهت الإمبراطوريتان البحريتان لفرنسا وبريطانيا أعداء ألداء فيما وراء البحار، فقد واجههم الروس على أراضيهم، وبالتالي فقد تعلّم الروس منذ وقت مبكر من تاريخهم أن يتسموا بالحرص واليقظة؛ فقد كانوا أمة تعيش دائما في حالة حرب، بشكل أو بآخر.

ومرة أخرى، فإن جبال القوقاز تزودنا بمثال معبّر، وهو الشيشانيون المسلمون من شمال القوقاز، الذين حاربت ضدهم جيوش كاترين العظمى في أواخر القرن الثامن عشر، واستمر القتال تحت حكم القياصرة الذين خلفوها طوال القرن التاسع

عـــشر، فضلا عن الصراعــات التي وقعت بينهم في عصرنا الحــالي. وقد حدث هذا بعد فترة طويلــة من كون المناطق الأكثر تكيّفا في القوقاز جنوبا، مثل جورجيا، قد خضعت بالفعل لحكم القياصرة. نبعت شراســة الشيشــان من صعوبة كسب لقمة العيش من التربــة الجبليــة الصخرية، ومن الحاجة إلى حمل الســلاح لحماية الأغنــام والماعز من الحيوانــات البريــة. ولأن طرق التجارة تمر عبر منطقة القوقاز، فقد عمل الشيشــان في الماضي كأدلة ولصوص[17]. وعلى الرغم من اعتناقهم الإســلام الصوفي - وهو أقل تعصبا في كثير من الأحيان من الفروع الأخرى للدين الإسلامي - فقد كانوا متحمسين في الدفاع عن وطنهم من الروس الذين يعتنقون الديانة المسيحية الأرثوذكسية. وفي القوقاز، كما كتب الجغرافي دينيس ج. ب. شو Shaw، فإن «التسوية بين الروس والأوكرانيين والقوزاق حول إمبراطورية المستوطنين قد اصطدمت بالمقاومة الباسلة لشعوب الجبال. ومعظم هذه الشعوب، باستثناء أغلبية الأوسيتيين، تتبع ثقافة إسلامية، مما عزز تصميمها على محاربة الدخيل الروسي». وبســبب خوفهم من الروح المستقلة لشعب شمال القوقاز، رفض البلاشــفة دمج بلادهم في جمهورية واحدة وعمدوا إلى تقسيمها، ومن ثم إعادة ضمها لتشكيل وحدات مصطنعة لا تتناسب مع أنماطهم اللغوية والعرقية. وهكذا، كما يستطرد شو، فقد «جرى تجميع الكاربادينيين Karbardians مع البلكار Balkars، على الرغم من حقيقة أن الشــعب الأول لديه عدد أكبر من القواسم المشتركة مع الشراكسة Cherkessians، في حين يقترب البلكار من القراشــاي Karachay». بالإضافة إلى ذلك، نفى ســتالين الشيشــان، والإنغوش، والكالميك Kalmyks، وغيرهم إلى آسيا الوسطى في العام 1944، بسبب تعاونهم المزعوم مع الألمان[18].

لقد أســهمت منطقة القوقاز بقوة في جعل وجه الإمبريالية الروسية قاسيا. وهذا، كــما قلنا، غالبا ما يكون مصير القوى البرية، التي تكون مضطرة في كثير من الأحيان إلى الإقدام على الغزو. ولذلك اندفع الروس، مما ألهم ماكيندر لصياغة نظريته بشأن المحور بســبب تزايد وتيرة بناء الســكك الحديد الروسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عــشر؛ والتي بلغت خمســة عشر ألف ميل بين العامــين 1857 و1882، بحيث كانت موســكو على اتصال مع الحدود البروسية إلى الغرب ومع نيجني نوفغورود إلى الشرق، وكذلك مع شبه جزيرة القرم على شاطئ البحر الأسود في الجنوب.

وبالإضافــة إلى ذلك، فــما بين العامين 1879 و1886، بنى المهندســون الروس خط السكك الحديد من كراسنوفودسك Krasnovodsk، على الشاطئ الشرقي لبحر قزوين،

إلى مرو (Merv)، التي تبعد أكثر من خمسمائة ميل إلى الشرق، على مقربة من حدود بلاد فارس وأفغانستان، وبحلول العام 1888 كان هذا الخط قد امتد 300 ميل أخرى باتجاه الشمال الشرقي إلى سمرقند (كما بُني فرع منه، من مرو جنوبا إلى قرب الحدود الأفغانية). اتبعت هذه الشرايين الجديدة للإمبراطورية التقدم العسكري الروسي في صحراء كارا كوم (Kara Kum) (الرمال السوداء) وكيزيل كوم Kyzyl Kum (الرمال الحمراء) الواقعة جنوبي سهوب آسيا الوسطى، في المنطقة التي تحتلها في الوقت الحاضر تركمانستان وأوزبكستان. وبسبب قربها من شبه القارة الهندية، حيث كانت القوة البريطانية حينئذ في أوجها، انضمت هذه الفورة من النشاط الإمبريالي الروسي إلى «اللعبة الكبرى» بين روسيا وبريطانيا للسيطرة على آسيا. وفي الوقت نفسه، بُني خط للسكك الحديد لربط باكو، الواقعة على الشاطئ الغربي لبحر قزوين، مع باتومي على البحر الأسود، وذلك لتوسيع منطقة القوقاز. وفي العام 1891، بدأ الروس بناء خط للسكك الحديد من جبال الأورال إلى المحيط الهادي، على بُعد أربعة آلاف ميل، عبر سيبيريا والشرق الأقصى، وجميع الغابات، والجبال، والمستنقعات، والأراضي الدائمة التجمد الواقعة بينها. وبحلول العام 1904، كان هناك 38 ألف ميل من السكك الحديد في روسيا، وهي حقيقة منحت سانت بطرسبرغ وصولا إلى إحدى عشرة منطقة زمنية مختلفة، وصولا إلى مضيق بيرينغ بين ألاسكا وروسيا. أما ما حفّز هذه النسخة الروسية الأخيرة من «القَدَر الواضح»، مرة أخرى، فهو انعدام الأمن: انعدام الأمن لدى قوة برية كان عليها أن تستمر في الهجوم والاستكشاف في كل الاتجاهات وإلا تعرضت هي نفسها للغزو.

وعلى خارطة التضاريس الأوراسية، ثمة حقيقة كبرى تبدو واضحة للعيان - والتي تشرح قصة روسيا. من جبال الكاربات في الغرب إلى هضبة سيبيريا الوسطى في الشرق، ليس هناك شيء سوى أراضٍ سهلية منخفضة، توجد بينها جبال الأورال كمجرد نتوءات صغيرة على هذا المشهد المسطّح الذي تبلغ مساحته قارة كاملة. وهذا السهل المنبسط، الذي يتضمن المنطقة المركزية التي تصورها ماكيندر، يمتد من مدخلي المحيط المتجمد الشمالي للبحر الأبيض وبحر كارا إلى القوقاز، وإلى جبال هندو كوش وزاغروس في أفغانستان وإيران، وبالتالي فما كان يحرك الإمبريالية الروسية دائما هو أمل غامض في امتلاك منفذ على المياه الدافئة للمحيط الهندي القريب. لكن حالتي القوقاز وأفغانستان لم تكونا الوحيدتين اللتين توغل فيهما الروس فيما وراء المنطقة الأساسية لهذا السهل

العظيــم وإلى عمق الجبال. واعتبارا من أوائل القرن الســابع عشر إلى القرن العشرين، فإن الروس - أي القوزاق، وصيادي الفراء، والتجار - قد وصلوا بشجاعة إلى ما وراء نهر الينيسي Yenesei، من غرب إلى شرق ســيبيريا والــشرق الأقصى، وهي منطقة متجمدة مترامية الأطراف تضم ســبع سلاسل جبلية، الرئيسية يبلغ عرضها 2500 كيلومتر، والتي يمكن فيها للصقيع أن يســتمر طوال تســعة أشهر في الســنة. وفي حين كان غزو روسيا البيضاء وأوكرانيا أمرا طبيعيا بســبب التقارب الوثيق والتاريخ المشترك والمتشابك لهذه الأراضي مع روســيا، ففي سيبيريا أنشــأ الروس «إمبراطورية نهرية شمالية»[19] جديدة تمامــا. وكما كتب جورج بروس لينكولن في كتابه التاريخي الوقور «غزو قارة: ســيبيريا والروس»، «إن الغزو الذي حدّد عظمتها [الروســية] كان في آسيا»، وليس في أوروبا[20]. إن الدرامــا التي وقعت أحداثها في شرق ســيبيريا وما وراءها تلخص التجربة التاريخية الروسية في شكلها الأشد حدة. من جانبه، كتب فيليب لونغويرث:

> أدت قســوة المناخ إلى جعلهم يتســمون بالجرأة وقوة التحمل؛ إن ضخامة طبيعتهم وانخفاض كثافتها الاســتيطانية، فضلا عن قصر مدة موسم الحصاد، قد شــجعت كلا من التعاون والإكراه في العلاقات الاجتماعية، فقد احتاج الروس إلى قدر أكبر من التنظيم مقارنة بأغلبية الشــعوب من أجل البقاء على قيد الحياة... أدت هــذه الحاجة في الماضي إلى تســهيل ظهــور الأنماط المركزية والاســتبدادية للحكومة، كما شجعت تلك الأنماط التي تنطوي على قدر أكبر من المشاركة[21].

يتضخم نهر الينيسي إلى فيضان يبلغ عرضه ثلاثة أميال، إضافة إلى كونه سادس أطول نهر في العالم، والذي يتدفق شــمالا لمسافة 3400 ميل من منغوليا إلى القطب الشمالي. وباعتبــاره أكثر في ذلك بكثير من جبال الأورال، فهــو يمثل الخط الفاصل الحقيقي بين الروســيتين - بين غرب وشرق سيبيريا، مع آلاف الأميال من الأراضي المنخفضة المنبسطة التي تشــير إلى ضفته الغربية، وآلاف الأميال مــن الهضاب والجبال الثلجية على الضفة الشرقيــة. كتب الرحالــة البريطاني كولن ثوبــورن Thubron أن «تدفق هذا النهر من فراغ، كأنه شيء متجسّــد، حامل للزمن، سلمي ورهيب في آن معا، هو ما يسبب تقلص معدتي». وعند نقطة أخرى، تقع للشمال أكثر على طول النهر، فيما وراء الدائرة القطبية الشــمالية، كما يستطرد، فإن «الأرض تتســطّح على محورها، فيما يختفي خط الساحل shoreline عــلى البُعد. لا شيء، على ما يبدو، قد حــدث هنا منذ الأزل. ولذلك... فإن التاريخ يصبح هو الجيولوجيا»[22].

أدت جاذبية فراء الحيوانات إلى جلب أوائل المستكشفين إلى هذا الجانب الجليدي الآخر من العالم، والذين سيحضرون لاحقا من أجل الموارد الطبيعية: النفط، والغاز الطبيعي، والفحم، والحديد، والذهب، والنحاس، والغرافيت، والألومنيوم، والنيكل، ومجموعة كبيرة من المعادن والفلزات الأخرى، وكذلك الطاقة الكهربائية المولّدة بواسطة أنهار سيبيريا: فكما يفصل نهر الينيسي بين غرب وشرق سيبيريا، فإن نهر لينا الذي لا يقل عنه مهابة يفصل شرق سيبيريا عن الشرق الأقصى الروسي. وبالفعل، ففي حين تتدفق الأنهار الكبرى لسيبيريا من الجنوب إلى الشمال، فإن روافدها تمتد شرقا وغربا، «مثل الفروع المتشابكة... للأشجار العملاقة»، ما يشكّل منظومة كبرى لنقل البضائع[23].

كانت المناجم المنتشرة عبر هذا المشهد هي ما سيشكل قلب الأنظمة العقابية القيصرية والسوفييتية. وفي الواقع، كانت جغرافية سيبيريا مرادفا للقسوة والثروة الإستراتيجية، مما جعل روسيا على مدى عقود قوة مظلمة أخلاقيا وغنية بالطاقة في الوقت نفسه. وقد ارتبط الظهور المفاجئ لروسيا بين القوى العظمى في أوروبا في أوائل القرن الثامن عشر بالإمدادات الوفيرة من خام الحديد الذي اكتُشف في غابات الأورال، والذي يصلح لصنع المدافع والبنادق، وهي من المعدات الضرورية للغاية لشن الحرب الحديثة. وبالمثل، ففي منتصف ستينيات القرن العشرين، أدى اكتشاف حقول هائلة من النفط والغاز الطبيعي في شمال غرب سيبيريا إلى جعل روسيا إحدى القوى العظمى في مجال الطاقة في مطلع القرن الحادي والعشرين[24]. وقد أدى غزو سيبيريا أيضا إلى تحقيق شيء آخر: فقد جلب روسيا إلى عالم الجغرافيا السياسية للمحيط الهادي، ومن ثم إلى الصراع مع كل من اليابان والصين. لقد كان الصراع الروسي مع الصين في قلب ديناميات الحرب الباردة، على الرغم من محورية هذا الصراع في إستراتيجية أمريكا الخاصة، والمتعلقة بالتعامل مع كل من هاتين القوتين في القرن الحادي والعشرين[25].

وخلافا لأنهار إرتيش Irtych، وأوب Ob، والينيسي، ولينا، فإن نهر آمور Amur لا يتدفق من الجنوب إلى الشمال، بل من الغرب إلى الشرق، حيث يتحد مع نهر أوسوري Ussuri لتشكيل الحدود الحالية بين الشرق الأقصى الروسي ومنشوريا الصينية. إن هذه المنطقة الحدودية، والمعروفة باسم أموريا Amuria، والواقعة إلى الشمال من الحدود الصينية، والتي تقع أوسوريا Ussuria إلى الشرق منها، قد نشبت الحروب من أجلها بين روسيا القيصرية والصين في عهد أسرة تشينغ Qing (مانشو) منذ منتصف القرن

السابع عشر، عندما دخل قطاع الطرق الروس إلى المنطقة، وبعدهم جنود مسكوفيا، الذين تبعهم الديبلوماسيون لاحقا، في وقت كان المانشو مشتتين فيه بفعل غزواتهم لتايوان وأجزاء من البر الرئيسي للصين. بلغت هذه العملية ذروتها في العام 1860، عندما أجبرت الصين الضعيفة تحت قيادة سلالة حاكمة مضمحلة على قبول نقل 350 ألف ميل مربع من الأراضي من السيادة الصينية إلى تلك الروسية، مما شكّل الحدود الحالية بين البلدين[26]. أما الآن وقد صارت الصين قوية وروسيا ضعيفة نسبيا، تتعرض هذه الحدود مرة أخرى لضغوط من المستوطنين والشركات الصينية التي تسعى إلى التحرك شمالا، من أجل الاستفادة من النفط والغاز الطبيعي والأخشاب، وغيرها من الموارد التي تضمها هذه المنطقة. تفرض الجغرافيا علاقة متوترة على الدوام بين روسيا والصين، يخفيها تحالفهما التكتيكي الحالي، والذي يتسم بكونه مناهضا إلى حد ما للولايات المتحدة. وفي يوليو 2009، قدّم رئيس الأركان العامة الروسية نيكولاي ماكاروف Makarov عرضا بالشرائح ذُكر أنه قال فيه إن «حلف شمال الأطلسي والصين... هم أخطر منافسينا الجيوسياسيين»[27].

وما تُلقي الضوء عليه هذه الجغرافيا هو شيء كثيرا ما يُنسى؛ وهو أن روسيا مثّلت، تاريخيا، جزءا مُهما من ديناميات السلطة في شرق آسيا. نشبت الحرب الروسية - اليابانية خلال عامي 1904 و1905 جزئيا بسبب مطالبة اليابان أن تعترف روسيا بالسيادة الصينية على منشوريا (وكذلك بحرية اليابان في التدخل في كوريا)، وهو ما رفضه الروس. إن نهاية تلك الحرب، بالإضافة إلى إذلال النظام القيصري، قد شكلت إهانة أكبر منها للصين تحت حكم أسرة تشينغ، إذ وقعت الحرب بسبب أراضٍ يعتبرها المانشو جزءا من تراثهم. ويعني ذلك أن هزيمة الروس أبقت على سيطرتهم على إقليمي أموريا وأوسوريا، اللذين كان المانشو يطمعون فيهما.

وبقدر أكثر مما فعلته الحرب الروسية - اليابانية، التي فقدت فيها روسيا النصف الجنوبي من جزيرة سخالين Sakhalin وأجزاء من جنوب منشوريا (التي ينبغي، وفقا لمنطق الجغرافيا، أن تكون جزءا من الصين على أي حال)، فقد كانت الثورة الروسية في العام 1917 وما أعقبها من الفوضى هي ما زعزع سيطرة روسيا على شرقها الأقصى. سيطرت الصين، واليابان، والولايات المتحدة (وهي قوة صاعدة في الشرق الأقصى في حد ذاتها) على أجزاء من السكك الحديد العابرة لسيبيريا بين بحيرة بايكال في الغرب وميناء فلاديفوستوك في الشرق، في حين وقعت فلاديفوستوك

نفســها تحت الاحتلال الياباني بين العامين 1918 و1922، إذ احتل 80 ألف جندي ياباني منطقة آمور خلال تلك الفترة.

وعــلى أي حال، فقد حوّل جيــش لينين الأحمر تدريجيا تيــار الحرب الأهلية ضد الــروس البيض من مناهضي الثورة. ونتيجة لذلك، تمكنت الدولة الســوفييتية الجديدة من اســتعادة السيطرة على الأراضي الواقعة على أطرافها، وخصوصا في المناطق العرقية التركية من صحارى آســيا الوســطى، حيث خشي البلاشفة أن يكونوا عرضة للهجوم من قبل البريطانيين في الهند، الذين يعملون عبر أفغانســتان. كان البلاشفة، على الرغم من أيديولوجيتهــم المعلنة حول وحــدة جميع العمال في العالم، واقعيــين عندما واجهتهم «المشــكلة القديمة قــدم الأزل»، والمتعلقة بقوة الأرض المتراميــة الأطراف: أي التهديد بالهجوم على أطرافها. وأيا كان من يحكم روســيا، فينبغي عليه مواجهة حقيقة وجود مســاحات شاســعة من الأراضي المســطحة على نحو مأســاوي، والتي تُفضي إلى الدول المتجــاورة في عدة اتجاهات. ولتعويض ذلك، أصبح البلاشــفة هــم الإمبرياليين الروس مثل القياصرة الذين ســبقوهم؛ فأخضعوا لســيطرتهم كلا من المولدوفيين، والشيشان، والجورجيــين، والأذربيجانيــين، والتركمان، والأوزبــك، والكازاخ، والطاجيــك والقرغيز، والبوريات - المغول، والتتار، وغيرهم. برر البلاشــفة فتوحاتهم هذه بسهولة: فبعد كل شيء، فهم قد منحوا نعمة الشــيوعية لهذه الشــعوب، حتــى في الوقت الذي أعلنوها جمهوريــات ســوفييتية تابعة لهــم[28]. وباتباع مــا فرضته الجغرافيــا، مهما كان ذلك لاشــعوريا، فقد أعاد البلاشــفة نقل العاصمة شرقا إلى موســكو، بعد أن كانت ســانت بطرسبرغ الواقعة على بحر البلطيق، مما عمل على استعادة الواقع الآسيوي في معظمه، والــذي كانــت له على الدوام أهمية محورية بالنســبة إلى الوجــود الروسي. وبدلا من النظام شــبه العصري الذي منحــه بطرس الأكبر، الذي حكم روســيا من «نافذتها على الغــرب» الواقعة على بحر البلطيق، نشــأت الآن دولة تُحكم من أروقة الكرملين، وهو المقر التاريخي شبه الآسيوي لمسكوفيا في العصور الوسطى[29]. تألف الاتحاد السوفييتي الجديد من ثلاث جمهوريات اتحادية - هي روسيا، وأوكرانيا، وروسيا البيضاء - وإحدى عشرة جمهورية ذاتية الحكم ومنطقة فرعية. ولكن لأن كثيرا من هذه الجمهوريات لم تكن متراكبة بدقة على الحدود العرقية - فعلى سبيل المثال، كانت هناك أقلية طاجيكية كبيرة في أوزبكســتان وأقلية أوزبكية أكبر في طاجيكســتان - فقد كان الانفصال بينهما مستحيلا من دون حرب أهلية، وبالتالي أصبح الاتحاد السوفييتي سجنا للأمم.

كان سـجن الأمم هـذا عدوانيا بالقدر نفسـه خلال القرن العشريـن، على الرغم مـن كون هـذه الفترة أكثر مدعاة لانعدام الأمن من أي وقـت مضى. وفي العام 1929، هاجمت أسـلحة المشاة، والفرسان، والطيران السـوفييتية الحافة الغربية من منشوريا من أجل انتزاع السـيطرة على السـكك الحديد التي تمر عبر الأراضي الصينية. وفي العام 1935، ضم الاتحاد السوفييتي دولا تابعة افتراضية تمثلت في مقاطعة شينجيانغ الواقعة غـربي الصين، في حين أصبح الجـزء الخارجي من منغوليا جمهورية منغوليا الشـعبية، المنحازة بقوة للاتحاد السـوفييتي. وفي الوقت نفسه، ففي روسيا الأوروبية، أدى توقيع المعاهـدة الروسـية - الألمانية في العام 1939 إلى السـماح لسـتالين بضم شرق بولندا، وفنلنـدا الشرقيـة، وبيسـارابيا Bessarabia، ودول البلطيق الثـلاث؛ ليتوانيا، ولاتفيا، وإسـتونيا. كانت روسـيا، تحت ستار الاتحاد السـوفييتي، قد توسعت الآن من أوروبا الوسـطى إلى شبه الجزيرة الكورية. ومع ذلك، وكما أثبتت الأحداث، فقد ظلت روسيا غير آمنة؛ فقد أصرت الجغرافيا على أن يكون لها رأي في هذه المسألة. أوصل غزو هتلر في العام 1941 باتجاه الشرق عبر سـهول روسـيا الأوروبية القوات الألمانية إلى ضواحي موسـكو، كما صار في متناولها الوصول إلى بحر قزويـن، إلى أن جرى إيقاف تقدمها في سـتالينغراد في أوائل العام 1943. وعند نهاية الحرب، صبّ السـوفييت جام انتقامهم، بإعطاء متنفس لقرون من انعدام الأمن الجغرافي منذ أيام نهب المغول لكيفان روس.

بعد انهيار ألمانيا النازية واليابان الفاشـية، اسـتحوذ الاتحاد السـوفييتي بفعالية على كامل النصف الشرقي لأوروبا عن طريق إقامة نظام من الدول الشيوعية التابعة، والتي ضمن السوفييت ولاءها في معظم الحالات بفعل وجود القوات السوفييتية، التي كانت قد تدفقت مرة أخرى عبر السهول المنبسطة غربا - عبر أنهار الدنيبر، وفيستولا، والدانوب - مع فشـل الخطط اللوجسـتية لآلة هتلر الحربية وسـط الاتساع الهائل لروسـيا الأوروبية، وهو ما يشـبه كثيرا ما حدث لجيوش نابليـون قبل ذلك بقرن من الزمان. وبحلول ذلك الوقت، كانت هذه الإمبراطورية الأوروبية السوفييتية الشرقية قد امتدت في قلب أوروبا الوسطى بأعمق مما فعلت إمبراطورية آل رومانوف بين العامين 1613 و1917، بحيث شـملت جميع الأراضي التي وعدت بها روسـيا في المعاهدة بين النازيين والسوفييت[30]. وفي الطرف المقابل من الاتحاد السوفييتي، استحوذت موسكو على جزيرتي سـخالين والكوريل الواقعتين إلى شمال اليابان، والمتاخمتين لمنطقة الشرق الأقـصى الروسي. سـمحت دولة الصين التي كانت تعاني الفـوضى والضعف في أعقاب

الاحتلال الياباني والصراع على السلطة بين الشيوعيين بقيادة ماو تسي تونغ Mao Zedong والقوميين بزعامة تشيانغ كاي تشيك Chiang Kaishek بوجود قوات روسية كبيرة في منشوريا، وتوطيد دعائم منغوليا الخارجية الموالية للاتحاد السوفييتي، إضافة إلى نظام شيوعي موال في النصف الشمالي من شبه الجزيرة الكورية. وفي شبه الجزيرة الكورية، فإن القوات البرية الهائلة للاتحاد السوفييتي - وتلك الخاصة بالصين التي توشك على التحول إلى الشيوعية - ستواجه القوات البحرية للولايات المتحدة، ما ساعد على تسهيل نشوب الحرب الكورية بعد خمس سنوات من انتهاء الحرب العالمية الثانية. تمثلت نتيجة الحرب العالمية الثانية في إنشاء قوة المنطقة المركزية التي وصفها ماكيندر على هيئة روسيا السوفييتية، جنبا إلى جنب مع القوة البحرية العظمى التي تصورها ماهان وسبيكمان، متمثلة في الولايات المتحدة. ستتأثر مصائر دول أوروبا والصين على حد سواء بالانتشار نفسه للقوات السوفييتية عبر المنطقة المركزية، على الرغم من أن الشرق الأوسط الكبير وجنوب شرق آسيا في الأرض المحيطة الأوراسية ستستشعر ضغط القوات البحرية والجوية الأمريكية. كانت هذه هي الحقيقة الجغرافية النهائية للحرب الباردة، التي حجبتها الأيديولوجية الشيوعية القادمة من موسكو والمثال الديموقراطي الآتي من واشنطن.

لكن الحرب الباردة، والتي بدا أنه لا نهاية لها بالنسبة إلى أمثالي ممن نشأوا خلال هذه الفترة، قد ثبت أنها مجرد مرحلة أخرى من التاريخ الروسي، والتي انتهت وفقا لما تفرضه الجغرافيا الروسية المألوفة. أدت محاولة ميخائيل غورباتشوف Gorbachev لإصلاح الشيوعية السوفييتية في ثمانينيات القرن العشرين إلى كشف صورة النظام كما كانت عليه في الواقع: إمبراطورية جامدة من الشعوب الخاضعة، التي تقطن في كثير من الحالات السهوب البرية والأطراف الجبلية للغابات والسهول الروسية. وفي الواقع، فبمجرد أن أعلن غورباتشوف نفسه أن المبادئ الأيديولوجية التي قامت عليها الإمبراطورية كانت معيبة للغاية، بدأ النظام بأكمله ينهار مع انفصال الأجزاء الهامشية عن المركز الروسي بقدر ما فعلت بعد فشل كيفان روس في منتصف القرن الثالث عشر، ومسكوفيا القرون الوسطى عند بداية القرن السابع عشر، وإمبراطورية آل رومانوف في أوائل القرن العشرين. ولهذا السبب، أشار المؤرخ فيليب لونغويرث إلى أن أحداث التوسع والانهيار المتكررة عبر تضاريس مسطحة عموما كانت سمة رئيسية للتاريخ الروسي. وفي واقع الأمر، كما يشرح الجغرافي والمتخصص في الشأن الروسي دينيس شو

Shaw، ففـي حين أدت الحدود المفتوحة والعبء العسـكري الناتج عنها، إلى «تعزيز مركزيـة الدولـة الروسـية» - فبالفعل، كانت قـوة القياصرة أسـطورية - فقد كانت روسـيا، مع ذلك، دولة ضعيفة، لأن القياصرة لم يقوموا ببناء مؤسسات إدارية قوية في المقاطعات النائية. أدى هذا إلى جعل روسيا حتى أكثر عُرضة للغزو[31].

وفي العام 1991، عندما انحلّ الاتحاد السـوفييتي رسميا، تقلّصت روسيا إلى أصغر حجـم لها منذ قبل عهد كاتريـن العظمى؛ فقد خسرت حتـى أوكرانيا، وهي المنطقة المركزيـة الأصلية لكيفان روس. ولكن على الرغم من خسـارة أوكرانيا، ودول البلطيق، ومنطقة القوقاز، وآسـيا الوسـطى، وعلى الرغم من الشكوك العسـكرية في الشيشان وداغستان، وتتارستان، وعلى الرغم من ظهور منغوليا الخارجية كدولة مستقلة متحررة من وصاية موسكو، فلاتزال أراضي روسيا تزيد على تلك التي تمتلكها أي أمة أخرى على وجـه الأرض، إذ تغطي أكثر من ثلث قارة آسـيا، مع حدود برية لاتزال تمتد على مدى نحـو نصف المناطق الزمنية في العالم من خليج فنلندا إلى بحر بيرينغ. وعلى الرغم من هذه المسـاحة الهائلة والجرداء - التي لم يعد تحرسـها الجبال والسهوب من أطرافها - فلا بد لها الآن من أن تحظى بحماية السـكان الذين لا يزيد عددهم سوى بقليل على نصف عدد سكان الجمهوريات السوفييتية السابقة[32] (كان عدد سكان روسيا يقل عن سكان بنغلاديش، في الواقع).

ربما لم يحدث من قبل أن كانت روسيا عرضة للهجوم جغرافيا في وقت السلم، ففي جميع أرجاء سـيبيريا والشرق الأقصى الروسي، لم يكن هناك سوى 27 مليون نسمة[33]. لم يضع قادة روسـيا أي وقت في تقييم الوضع المزري، فبعد أقل من شـهر من تفكك الاتحاد السـوفييتي، صرّح وزير الخارجية الروسي أندريه كوزيريف Kozyrev لجريدة روسيسـكايا غازيتـا Rossiyskaya Gazeta قائـلا «لقد أدركنا بسرعـة أن الجغرافيا السياسية تحل محل الأيديولوجية»[34]. وكما كتب الأستاذ الفخري بجامعة إدنبرة، جون إريكسـون Erickson: «إن الجغرافيا السياسية، التي تعرضت لشيطنة مستمرة خلال أيام الاتحاد السوفييتي، قد عادت بغضب لتلاحق روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي». كانت إدانات الجغرافيا السياسـية بوصفها أداة للعسكرة الرأسمالية قد اختفت: ليس فقط أنه قد أُعيد تأهيل الجغرافيا السياسية في روسيا بوصفها تخصصا علميا، بل وحتى تحسنت سمعة ماكيندر، وماهان، وكارل هاوسهوفر. وفي «نمط ماكندري جديد لا يعرف الخجل»، أعلن الزعيم الشيوعي من الحرس القديم جينادي زيوغانوف Zyuganov أنه

ينبغي على روسيا أن تستعيد السيطرة على «المنطقة المركزية»[35]. وبالنظر إلى سعود الحياة ونحوسها التي شهدها التاريخ الروسي، بالإضافة إلى أوجه الضعف الجغرافية الجديدة، فلم يكن لدى روسيا أي خيار سوى أن تصبح قوة تعديلية revisionist، عازمة - بصورة خفية أو غير خفية حتى - على استعادة جوارها القريب في روسيا البيضاء، وأوكرانيا، ومولدوفا، والقوقاز، وآسيا الوسطى، حيث لايزال يعيش نحو 26 مليون روسيا. وخلال عقد التسعينيات الضائع، عندما كانت روسيا على حافة الانهيار الاقتصادي، وكانت بالتالي ضعيفة ذليلة، كانت هناك دورة جديدة من التوسع في طور التكوّن. أشار الزعيم القومي الروسي المتطرف فلاديمير جيرينوفسكي Zhirinovsky إلى أن جنوب القوقاز، وكذلك تركيا وإيران، وأفغانستان، يجب أن تخضع الآن جميعها إلى السيادة الروسية. وعلى الرغم من أن تطرف جيرينوفسكي لا تشاركه فيه الأغلبية العظمى من الروس، فقد مس على الرغم من ذلك توجها خفيا حيويا في التفكير الروسي. وفي الواقع أن ضعف روسيا الحالي في أوراسيا قد جعل الجغرافيا نفسها تمثل هاجسا روسيا في مطلع القرن الحادي والعشرين.

وبطبيعة الحال، فلن يُعاد تشكيل الاتحاد السوفييتي مطلقا. ومع ذلك، فإن شكلا أكثر مرونة من الاتحاد الذي يصل إلى حدود الشرق الأوسط وشبه القارة الهندية قد يكون أمرا قابلا للتحقيق. ولكن ما الذي يمكن أن يمثّل النداء الأسمى وراء ذلك؟ ماذا عساها أن تكون الفكرة التي يمكن أن يبرر بها الروس أخلاقيا تلك الموجة المقبلة من التوسع؟ كتب زبيغنيو بريجنسكي في كتابه المعنون «رقعة الشطرنج الكبرى: التفوق الأمريكي وضروراته الجيوستراتيجية» أن الروس بدأوا، في تسعينيات القرن العشرين، إحياء مذهب الأوراسية Eurasianism الذي يعود إلى القرن التاسع عشر بديلا للشيوعية، من أجل إغراء الشعوب غير الروسية بالعودة إلى الاتحاد السوفييتي السابق[36]. تتناسب الأوراسية جيدا مع شخصية روسيا التاريخية والجغرافية. ولكونها تمتد عبر مساحة شاسعة من أوروبا إلى الشرق الأقصى، على الرغم من عدم ارتباطها بأيهما، فإن روسيا، بطريقة لا تشبه أي بلد آخر، تجسد أوراسيا. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الجغرافيا المغلقة التي تتسم بوجود أزمة للمتسع في القرن الحادي والعشرين - والتي تعمل على تحطيم التقسيمات التي وضعها الخبراء خلال فترة الحرب الباردة - يجعل فكرة أوراسيا أكثر وضوحا باعتبارها كُلا whole قاريا متناسقا. ولكن في حين أن أوراسيا قد تصبح مفهوما أكثر فائدة من أي وقت مضى بالنسبة إلى الجغرافيين وخبراء

الجغرافيا السياسـية خلال السنوات المقبلة، فهذا لا يعني أن الجورجيين، أو الأرمن، أو الأوزبك، مـع جميع الأحمال التاريخية والعاطفية المتوافقة مع هذه الهويات العرقية، سـيبدأون التفكير في أنفسهم باعتبارهم «أوراسيين» Eurasians. صارت القوقاز قوقازا عـلى وجه التحديد لأنها مرجل للهويـات والصراعات العرقية: وهي الهويات التي، مع انهيار تكتلات القوى التي شـهدتها الحرب الباردة، صارت تمتلك القدرة على أن تصبح أكثر تطورا على نحو ثري. ويصدق الشيء نفسه على جزء كبير من آسيا الوسطى. فحتى لو استطاع الروس، والكازاخ مثلا، قمع التنافس العرقي عن طريق نوع ما من «الاتحاد الأوراسي»، فلا يبدو أن الأوراسية تمثل قضية يمكن أن يموت الناس لأجلها؛ أو شيء يمكن أن يبعث القشـعريرة في أوصالهم؛ خصوصـا أن الأوكرانيين، والمولدوفيين، والجورجيين، وغيرهـم يتوقون إلى أن يصبحوا أوروبيين. ولكن إذا أمكن للأوراسـية قمع الاختلافات مهما كانت طفيفة في بعض أوسـاط الاتحاد السوفييتي السـابق، وبالتالي تساعد على الاستقرار، ألن تكون جديرة بالاهتمام في حد ذاتها؟

وكما أن الجغرافيا ليسـت تفسـيرا لكل شيء، فإنها كذلك ليست حلا. إن الجغرافيا هي مجرد خلفية ثابتة يمكن لمعركة الأفكار أن تستمر أمامها حتى النهاية. وحتى عندما تكون الجغرافيا موحِّدة - كما في حالة أمريكا أو بريطانيا العظمى، أو الهند أو إسرائيل - فـإن المثل العليا للديموقراطية، والحريـة، والصهيونية (بعنصرها الروحي) قد ظلت، على الرغم من ذلك، تمثل عناصر أساسـية للهوية القومية. وعندما لا يكون لدى شعب ما أي شيء آخر يوحدهم سوى الجغرافيا، كما في حالة مصر تحت حكم الرئيس السابق حسـني مبارك أو اليابان تحت الحزب الليبرالي الديموقراطي الحاكم سـابقا، سـتُصاب الدولة حينئذ بوهن لا يقاوم: قد تكون مسـتقرة، بفضـل الجغرافيا، لكن هذا هو كل شيء. وبالتالي فإن روسـيا، بعد حرمانها من الحكم القيصري، والشيوعية، تتطلب مثالا سـاميا وموحّدا يتجـاوز الجغرافيـا إذا كان لها أن تنجح في إعادة اجتذاب الشـعوب التي كانت خاضعة لها في السـابق، لا سـيما أن سـكانها القليلين آخـذون في التناقص بسرعـة. وفي الواقع، وبسـبب انخفاض معـدلات المواليد وارتفاع معـدلات الوفيات، وزيادة معدلات الإجهاض، وانخفاض وتيرة الهجرة، فإن سـكان روسـيا البالغ عددهم 141 مليونا قد ينخفض إلى 111 مليونا بحلول العام 2050 (ومما يسرّع هذه المعدلات، نجد المستويات السـامة لتلوث المياه والتربة، كجزء من تدهور بيئي عام). وفي الوقت نفسـه، فإن المجتمع الإسـلامي الاسمي في روسـيا آخذ في الازدياد، بحيث قد يشكلون

مـا يصل إلى عشرين في المائة من سـكان البلاد خلال عقد مـن الزمن، على الرغم من أنهم يعيشـون في شـمال القوقاز ومنطقة الفولغا - الأورال، وكذلك في موسكو وسانت بطرسبرغ، بحيث تميل نحو الانفصالية الإقليمية، بينما تمتلك أيضا القدرة على الانخراط في عمليات إرهابية في المناطق الحضرية. وكذلك فإن عدد أطفال النسـوة الشيشانيات يزيد بأكثر من الثلث عما تلده نظيراتهن الروسيات. ومن دون ريب أن مجرد الاحتكام إلى الجغرافيـا - وهـو في الحقيقة ما تعنيه الأوراسـية وما يصاحبهـا من رابطة الدول المستقلة - قد لا يسـمح لإعادة بعث الإمبراطورية الروسية بالتنافس مع كيفان روس، أو مسكوفيا القرون الوسطى، أو سلالة رومانوف، والاتحاد السوفييتي.

في هذا السـياق، يجادل دميتري ترينين Trenin، مدير مركز كارنيغي في موسـكو، بأنـه في القرن الحادي والعشرين، فإن «قوة الجذب تتغلب على قوة الإكراه»، وبالتالي «يجب أن تكون القوة الناعمة محورية في سياسة روسيا الخارجية». وبعبارة أخرى، فإن روسـيا التي جرى إصلاحها حقا ستكون في وضع أفضل لبسط نفوذها إلى جميع أنحاء أطرافها الواقعة في أوراسـيا. ولكون اللغة الروسـية هي اللغة المشتركة من البلطيق إلى آسيا الوسطى، فإن الثقافة الروسية، «من بوشكين إلى موسيقى البوب»، لاتزال مطلوبة. وبالتـالي، فإن محطة تلفازية تبث برامجها باللغة الروسـية سـيمكنها، في حال وجود روسـيا متجددة فكريا، «سـتصبح مثل قناة الجزيرة بالنسـبة إلى الناطقين بالروسية». ووفقـا لطريقة التفكير هذه، فإن الديموقراطية الليبرالية هي المثال الوحيد الذي يمكن أن يسمح لروسيا بإعادة تحقيق ما ترى أنه مصيرها الجغرافي[37]. وتتوافق هذه الفكرة مع ملاحظة سولجينيتسـين في العام 1991 بأن «الوقت قد حان للقيام باختيار عسـير بين إمبراطورية كنا نحن أنفسـنا ضحاياها الرئيسيين، وبين الخلاص الروحي والجسدي لشعبنا»[38].

وفي الحقيقة أن هناك جانبا جغرافيا في تحليل ترينين، فهو يجادل بأن روسيا يجب أن تركّـز عـلى أطرافها - أي أوروبـا والمحيط الهادي - أكثر مـن تركيزها على منطقتها المركزية الأوراسية. ومن شأن التشديد على التعاون مع أوروبا أن يحرك سلوكيات روسيا غربا. وتُظهر الخريطة السكانية لروسيا أنه على الرغم من مساحة بلادهم الممتدة عبر إحدى عشرة منطقة زمنية، فإن الأغلبية السـاحقة من الروس يعيشون في أقصى الغرب المجـاور لأوروبا. وبالتالي، فمن الممكن للإصلاح السـياسي والاقتصـادي الحقيقي، عند اندماجه مع العوامل الديموغرافية، أن يجعل من روسـيا دولـة أوروبية أصيلة. وفيما

يتعلق بالمحيط الهادي، فإنه «يجدر بروسـيا أن تفكّر في جعل فلاديفوستوك عاصمتها في القرن الحادي والعشرين»، كما كتب ترينين. تتسم فلاديفوستوك بكونها ميناء بحريا عالميا، على مقربة من بكين، وهونغ كونغ، وسـيول، وشـنغهاي وطوكيو، وهي المنطقة الاقتصاديـة الأكـثر ديناميكية في العـالم[39]. وبالفعل، لأن الاتحاد السـوفييتي القديم كان ينظر إلى شرقه الأقصى كمنطقة لاسـتغلال المواد الخام بدلا من اعتبارها بوابة إلى الدول المطلة على المحيط الهادي، فإن النهضة الاقتصادية التي بدأت في شرق آسـيا في سـبعينيات القرن العشرين، واستمرت حتى وقتنا الحاضر، قد تجاوزت روسيا تماما[40]. يجادل ترينين بأن الوقت قد فات لتصحيح ذلك - وبالتالي فإن روسيا تعاني نتيجة لذلك. أما الصين، والتي - بدلا من روسيا - اتبعت خطى جيرانها من الدول المطلة على المحيط الهادي، أي اليابان وكوريا الجنوبية، في تبني رأسمالية السوق، فتبرز الآن بوصفها القوة العظمى في أوراسيا. وقد منحت بكين آسيا الوسطى 10 مليارات دولار في شكل قروض، كما سـاعدت روسـيا البيضاء من خلال عملية لتبادل العمـلات، وقدمت مليار دولار كمسـاعدات لمولدوفـا الواقعة على الطـرف الآخر من القارة، كـما تعمل على تطوير مساحة لنفوذها في الشرق الأقصى الروسي. وبالنسبة إلى روسيا، فإن الإستراتيجية المقابلة سـتتمثل في ربط نفسها سياسيا بأوروبا، واقتصاديا بشرق آسـيا. وهكذا، يمكن لروسيا أن تحل مشـاكلها في القوقاز ووسـط آسـيا - بأن تصبح جذابة حقا لتلك الجمهوريات السـوفييتية السابقة، التي ترغب شعوبها أنفسها في الحصول على الحريات ومستويات المعيشة المتوافرة في الحواف الغربية والشرقية من أوراسيا.

تمتلك روسـيا في الواقع فرصة للحصول على مصير مماثل لما شـهدته قبل قرن من الزمان، فلو لم تكن السـلطة في روسـيا قد انتزعت في العام 1917 من قبل البلاشفة في لحظة هشة على وجه الخصوص، لكان من الممكن تماما، وحتى من المحتمل، أن تتطور روسـيا خلال القرن العشرين إلى نسخة أشد فقرا وأكثر فسادا وأقل استقرارا بقليل من فرنسـا وألمانيـا، والمرتكزة على الرغـم من ذلك إلى أوروبا، بدلا مـن أن تصبح الوحش السـتاليني الذي صارت إليه. ففي نهاية المطاف، كان النظام القديم، الذي يشبه بشدة النظـام القيصري الألماني، بنبلائه الناطقين بالفرنسـية، وبرلمانـه البرجوازي في العاصمة الأوروبية سـانت بطرسـبرغ، ذا توجه غربي، حتى لو لم تكن طبقة الفلاحين كذلك[41]. ولذلك، مرة أخرى، ففي حين أن خريطة التضاريس الروسية تنتشر في جميع أنحاء آسيا، فإن الخريطة السكانية لروسيا تفضّل أوروبا.

كانت الثورة البلشفية بمنزلة رفض تام لهذا التوجه شبه الغربي. وبالمثل، فإن الجرعة المنخفضة من الفاشستية authoritarianism تحت حكم فلاديمير بوتين Putin منذ العام 2000، وسواء كرئيس أو كرئيس للوزراء في وقت لاحق، تمثل رفضا لتجربة الانسحاب المفاجئ من الديموقراطية الغربية ورأسمالية السوق التي جعلت روسيا التي تعمها الفوضى تجثو على ركبتيها في تسعينيات القرن العشرين، في أعقاب انهيار الشيوعية. وخلال السنوات الأخيرة، لم يعمل بوتين والرئيس الروسي ديمتري ميدفيديف Medvedev على توجيه روسيا تماما نحو أوروبا والمحيط الهادي، وبالتالي لم يقوما بإصلاح روسيا من أجل جعلها قوة أكثر جاذبية للشعوب التي كانت خاضعة لها في السابق (وفي الواقع، فإن مجالات التجارة، والاستثمار الأجنبي، والتكنولوجيا، والبنية التحتية، والتحصيل العلمي، «قد غطتها الغيوم المظلمة» بالنسبة إلى روسيا تحت حكم بوتين)[42]. وعلى الرغم من أن بوتين ليس إمبرياليا بالمعنى الدقيق للكلمة، فإن آخر إمبراطورية روسية قيد التشكّل يجري بناؤها على ثروة الموارد الطبيعية الهائلة لدى روسيا، والتي تجد حاجة ماسة إليها في المحيط الأوروبي والصين، مع كل الأرباح والإكراه التي ينطوي عليها ذلك. لم يكن لدى بوتين وميدفيديف أي أفكار نهضوية لطرحها، ولا أيديولوجية من أي نوع، في الواقع: فالعامل الوحيد الذي يعمل لمصلحتهما هو الجغرافيا وحدها، وهذا لا يكفي.

تفخر روسيا بامتلاك أكبر احتياطيات العالم من الغاز الطبيعي، وثاني أكبر احتياطيات الفحم، وثامن أكبر احتياطيات النفط، والتي يوجد معظمها في غرب سيبيريا بين جبال الأورال والهضبة الوسطى لسيبيريا. وهذا بالإضافة إلى احتياطيات هائلة من الطاقة الكهرومائية المستمدة من جبال، وأنهار، وبحيرات شرق سيبيريا، والمتوافرة في هذه المرحلة التاريخية التي يمثل فيها نقص المياه مشكلة بالغة الأهمية للعديد من الدول، خصوصا الصين. وقد استخدم بوتين عائدات الطاقة لزيادة الميزانية العسكرية بأربعة أضعاف، وخصوصا القوات الجوية، خلال أول سبع سنوات له في منصبه؛ كما استمرت الميزانية العسكرية في الارتفاع منذ ذلك الحين. وبسبب الجغرافيا - فإن روسيا، كما ذكرت، ليست لها حدود طبوغرافية واضحة المعالم باستثناء المحيط المتجمد الشمالي والمحيط الهادي - يبدو أن الروس يقبلون بـ «العسكرة العميقة الجذور» لمجتمعهم و«بسعي لا ينتهي عن الأمن من خلال إنشاء إمبراطورية برية»، وهو ما منحه لهم بوتين من خلال خلافته caliphate لعالم الطاقة[43]. وبدلا من

تحرير روسيا وإطلاق العنان لإمكاناتها الخاصة بالقوة الناعمة في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي السابق والأرض المحيطة للمنطقة الأوراسية المجاورة، اختار بوتين التوسعية القيصريـــة الجديدة، والتي تجعلها الموارد الطبيعية الوفيرة لبلاده ممكنة التحقّق على المدى القصير.

ومع ذلك، فلم يتخل بوتين تماما عن البعد الأوروبي من الجغرافيا الروســية. وعلى العكــس من ذلك، فــإن تركيزه على أوكرانيا كجزء من جهد أكبر لإعادة إنشــاء منطقة نفوذ في الجوار القريب يمثل دليلا على رغبته في توطيد علاقة روســيا بأوروبا، وإن كان ذلك بشروط غير ديموقراطية. إن أوكرانيا هي الدولة المحورية التي تعمل في حد ذاتها على تحويل روســيا. ولكونها متاخمة للبحر الأســود في الجنوب ومجاورة لبلدان أوروبا الشرقية الســوفييتية السابقة إلى الغرب، فإن استقلال أوكرانيا ذاته يبقي روسيا إلى حد كبــير بعيدة عن أوروبا. وفي وجود الكاثوليك اليونانيين والرومانيين في الجزء الغربي من أوكرانيــا والأرثوذكس الشرقيين في الشرق، فإن غــرب أوكرانيا تمثل أرضا خصبة للقومية الأوكرانيــة في حين يفضــل الشرق بناء علاقات أوثق مع روســيا. وبعبــارة أخرى، فإن الجغرافيا الدينية الخاصة لأوكرانيا توضح دور البلاد باعتبارها دولة حدودية بين أوروبا الوسطى والشرقية. وقد كتب زبيغنيو بريجنسكي أنه من دون أوكرانيا، فلايزال في وسع روســيا أن تكون إمبراطورية، لكنها واحدة «آسيوية بصورة غالبة»، والتي ستنساق إلى مزيد من الصراعات مع القوقاز ودول آسيا الوسطى.

ولكن عند وقوع أوكرانيا مرة أخرى تحت الســيطرة الروسية، فستضيف روسيا 46 مليون نســمة إلى تركيبتها الديموغرافية الموجّهة إلى الغــرب، ويمكنها فجأة أن تتحدى أوروبا، حتــى على الرغم من اندماجها فيها. وفي هذه الحالة، ووفقا لبريجنســكي، فإن بولندا، والتي تطمع فيها روســيا أيضا، ستصبح «محورا جيوسياسيا» يحدد مصير أوروبا الوســطى والشرقيــة، وبالتالي مصير الاتحاد الأوروبي نفســه[44]. إن الصراع بين روســيا وأوروبا، خصوصا بين روســيا وألمانيا وفرنسا، سيســتمر، كما كانت الحال منذ الحروب النابليونية، حيث ســيظل مصير دول مثل بولندا ورومانيا بانتظار الحســم. لقد انهارت الشــيوعية، لكن الأوروبيين لايزالون في حاجة إلى الغاز الطبيعي من روسيا، والذي يأتي 80 في المائة منه عن طريق أوكرانيا[45]. أدى الانتصار في الحرب الباردة إلى تغيير الكثير، من دون شــك، لكنه لم يخفف تماما من حقائق الجغرافيا. كما أن روســيا الناهضة، كما كتب المحلل الاستخباراتي الأسترالي بول ديب Dibb، قد تكون على استعداد لأن «تفكر

في التمزق من أجل خلق مســاحة إستراتيجية»[46]. وكما أظهر غزوها لجورجيا في العام 2008، فإن روسيا بوتين ليست قوة يفرضها الوضع الراهن.

وافقــت أوكرانيا، تحت ضغط شــديد من روســيا، على تمديد عقــد إيجار قاعدة الأســطول الروسي على البحر الأســود في مقابل خفض أسعار الغاز الطبيعي، على الرغم من محاولــة الكرملين وضع الشــبكة الأوكرانية لخطوط أنابيب الغاز تحت ســيطرته (تعتمد أوكرانيا على روسيا أيضا في الكثير من تجارتها). ومع ذلك، فليست كل جغرافية خطوط الأنابيب في أوراســيا تعمل لمصلحة روســيا؛ فهناك خطوط أنابيب تنقل النفط والغاز من آسيا الوسطى إلى الصين. تنقل خطوط الأنابيب نفط بحر قزوين الأذربيجاني عبر جورجيا إلى البحر الأســود وعبر تركيا إلى البحر المتوســط، وبالتالي تتجنب روســيا. وهناك أيضا خطة لبناء خط لأنابيب الغاز الطبيعي من بحر قزوين عبر جنوب القوقاز وتركيــا، عبر منطقة البلقان، وصولا إلى أوروبا الوســطى، والذي يتجنب بدوره روســيا. وفي الوقت نفســه، على الرغم من ذلك، تخطط روســيا لبناء خط أنابيب الغاز الخاص بها تحت البحر الأسود جنوبا إلى تركيا، وخط آخر تحت البحر الأسود غربا إلى بلغاريا. وكذلــك فإن تركمانســتان، الواقعة عــلى الجانب الآخر من بحر قزويــن، تصدّر غازها الطبيعــي عبر روســيا. وهكذا، فعلى الرغم مــن إمداداتها المتنوعة مــن الطاقة - فإن أوروبا، وخصوصا أوروبا الشرقية والبلقان - ستظل معتمدة على روسيا بدرجة كبيرة. إن مســتقبل أوروبا، كما كان في الماضي، يتوقف إلى حد كبير - من وجهة النظر الماكندرية - على التطورات الحادثة في الشرق.

تمتلك روســيا روافــع levers أخرى أيضا: قاعــدة بحرية قوية توجــد بين ليتوانيا وبولنــدا عــلى بحر البلطيق؛ ووجــود أقليات كبيرة ناطقة بالروســية في دول البلطيق، ومنطقة القوقاز، وآســيا الوســطى؛ وأرمينيا الموالية لروســيا؛ وجورجيــا، التي تهددها المقاطعــات الانفصالية الموالية لروســيا في أبخازيا وأوســيتيا الجنوبية؛ ومواقع لاختبار الصواريخ وقاعدة جوية في كازاخســتان؛ وقاعدة جوية في قرغيزســتان يصل مداها إلى أفغانستان، والصين، وشــبه القارة الهندية؛ وطاجيكستان التي تسمح للقوات الروسية بــأن تقوم بدوريات على حدودها مع أفغانســتان. وبالإضافــة إلى ذلك، كانت الحملة الإعلامية التي أطلقتها روسيا والضغوط الاقتصادية التي ساعدت على الإطاحة بالرئيس القرغيزي كرمان بك باكييف Bakiyev من السلطة في العام 2010، عقابا له على جريمة استضافة قاعدة جوية أمريكية.

وفي كثير من هذه الأماكن، من الشيشان الواقعة في شمال القوقاز إلى طاجيكستان المجاورة للصين، يتعين على روسيا التعامل مع الإسلام الناهض على حدودها الجنوبية الشاسعة التي تُعد تاريخيا جزءا من نطاق ثقافي ولغوي فارسي أكبر. ولذلك، فإن استعادة روسيا لجمهورياتها المفقودة، عن طريق إنشاء منطقة للنفوذ عليها، يتطلب بالتأكيد إيران صديقة لا تتنافس مع روسيا في هذه المناطق، ولا تصدّر التطرف الإسلامي. إن روسيا، ولأسباب متجذرة في الجغرافيا، لا يمكنها أن تقدم سوى مساعدة ضئيلة في الحملة الأمريكية ضد النظام الإيراني.

مع ذلك، فعلى الرغم من كل هذه المزايا، فليس من المرجح أن يعيد التاريخ نفسه من حيث ظهور إمبراطورية روسية أخرى في مطلع القرن الحادي والعشرين. ويرجع هذا إلى ظروف تاريخية وجغرافية خاصة ملتصقة بآسيا الوسطى.

بدأت روسيا ترسّخ سيطرتها على آسيا الوسطى في أوائل القرن التاسع عشر، عندما ازدادت التجارة الروسية في المنطقة، على الرغم من أنه على السهوب الكازاخستانية، على سبيل المثال، سادت حالة من الفوضى في غياب نقاط الهيمنة السياسية التي تتجاوز تلك الخاصة بالعشائر المحلية[47]. وفي أوائل القرن العشرين، أنشأ السوفييت عددا من الدول الفردية من السهوب والنجود الشاسعة في آسيا الوسطى، والتي لم تكن متوافقة مع الحدود العرقية، بحيث إذا حاولت أي منها الانفصال عن الاتحاد السوفييتي لكان ذلك أمرا مستحيلا - إذ سيؤدي ذلك إلى حرب بين الأعراق. كان السوفييت يخشون النزعة القومية التركية، والنزعة القومية الفارسية، والوحدة الإسلامية، والتي مثّل تقسيم المجموعات العرقية حلا سحريا جزئيا بالنسبة إليها. أدى ذلك إلى إيجاد عدد كبير من الحالات الشاذة. يبدأ وادي سير داريا Syr Darya في الجزء الذي يسكنه الأوزبكيون من قيرغيزستان ويمر عبر أوزبكستان، ثم عبر طاجيكستان، قبل أن يعود إلى أوزبكستان وينتهي في كازاخستان. أما الطريق الذي يربط بين العاصمة الأوزبكية طشقند وبين مقاطعة فرغانة الأوزبكية، فلا بد أن يمر عبر طاجيكستان. وللوصول من دوشانبي عاصمة طاجيكستان، إلى المنطقتين العرقيتين الطاجيكيتين - خوجنت وخوروغ - يجب أن يمر المرء عبر أوزبكستان وقيرغيزستان. إن بلدة شيمكنت، التي تقع على مقربة من أوزبكستان، تضم أغلبية أوزبكية، لكنها «مُلحقة» بكازاخستان. وكذلك فإن مدينة سمرقند ذات الأغلبية الطاجيكية تقع في أوزبكستان، وهكذا دواليك. ولذلك، فما ظهر في آسيا الوسطى

كان قدرا من القومية العرقية أقل من «السوفييتية» Sovietism كأسلوب للسيطرة والقوة. ولكن في حين ظلت النزعة السوفييتية على قيد الحياة، حتى بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، فقد هُمِّش الروس العرقيون في المنطقة، كما يوجد عداء قوي ضدهم في بعض الأماكن. ومع ذلك، فإن النزعة القومية التركية والنزعة القومية الفارسية تظل ضعيفة نسبيا. ظلت إيران شيعية منذ القرن السادس عشر، في حين أن أغلبية الطاجيك وغيرهم من المسلمين الناطقين بالفارسية في آسيا الوسطى هم من السنّة. أما بالنسبة إلى الأتراك، فلم تسعَ تركيا الحديثة سوى أخيرا إلى أن تصبح نقطة محورية في العالم الإسلامي[48].

وقد أدت النزعة السوفييتية وعدم وجود هوية كاملة لكل دولة من حيث وجود مجموعة عرقية واحدة، يا للسخرية، إلى مستوى متواضع من الاستقرار في آسيا الوسطى، وإلى وقوع اضطرابات من آن إلى آخر في وادي فرغانة وغيره من الأماكن، على الرغم من ذلك.

(وعلى الرغم من ذلك، يجب أن أقول: لاتزال المنطقة تمثل برميل بارود يوشك على الانفجار). إن هذه الدينامية، التي تدعمها ثروة مفرطة في الموارد الطبيعية، قد منحت بعض هذه الدول قوة تفاوضية كبيرة أمام الدولتين الأوراسيتين الرئيسيتين - موسكو وبكين - وهو الدور الذي يمكن أن تؤديه قبالة بعضها البعض (تحتاج روسيا إلى غاز آسيا الوسطى لنقله إلى الأسواق الأوروبية، وهو الأمر الذي يمنح روسيا القدرة على التأثير في أوروبا، لكن موقف روسيا مهدد بفعل شراء الصين نفسها الغاز الطبيعي من آسيا الوسطى)[49]. يتميز ناتج آسيا الوسطى بأنه هائل، فمن المعتقد أن حقول تنجيز النفطية في كازاخستان وحدها تحتوي على أكثر من ضعفي المخزون النفطي للمنحدر الشمالي في ألاسكا[50]. وكذلك فإن الإنتاج السنوي لتركمانستان من الغاز الطبيعي هو ثالث أعلى إنتاج في العالم، في حين كانت قيرغيزستان أكبر منتج للزئبق والأنتيمون في الاتحاد السوفييتي، وتمتلك احتياطيات كبيرة من الذهب، والبلاتين، والبالاديوم، والفضة[51]. بيد أن هذه الثروة في الموارد الطبيعية، إضافة إلى الامتعاض المتبقي من الاحتلال السوفييتي، قد دفعت أوزبكستان، على سبيل المثال، إلى فتح جسرها للسكك الحديد الموصل إلى أفغانستان أمام عربات منظمة حلف شمال الأطلسي من دون استشارة روسيا في البداية على الأقل؛ كما دفعت تركمانستان إلى تنويع خطوط الطاقة لديها، بدلا من الاعتماد كليا على روسيا، كما دفعت بكازاخستان إلى الاستعانة

بالمهندسين الأوروبيين بدلا من نظرائهم الروس لاستغلال احتياطياتها النفطية «الصعبة» جيولوجيا في جرف بحر قزوين[52].

وهكذا، فسيكون من الصعب المحافظة على نفوذ روسيا، كما ستظل رهينة لدرجة ما لتقلب أسعار الطاقة العالمية، بالنظر إلى الطريقة التي يُدار بها اقتصاد روسيا نفسها، والمعتمد أساسا على الموارد الطبيعية، تماما مثل نظيره في آسيا الوسطى. ومن المرجح أن تكون الإمبراطورية الروسية الجديدة، إذا قُدّر لها أن تظهر، مجرد نسخة باهتة من سابقاتها، والمقيّدة ليس فقط من قبل الدول المتشددة في آسيا الوسطى ولكن بفعل تزايد نفوذ الصين في آسيا الوسطى، وإلى حد أقل نفوذ كل من الهند وإيران. لقد استثمرت الصين أكثر من 25 مليار دولار في آسيا الوسطى، كما تدفع تكلفة شق طريق سريع طوله ألف ميل عبر كازاخستان. وهناك رحلات جوية يومية بين مدينة ألماتي Almaty الكازاخستانية ومدينة أورومكي Urumqui الواقعة في غرب الصين، فيما تملأ البضائع الصينية أسواق آسيا الوسطى[53].

قد تمثل كازاخستان المستودع الأهم للثروات الروسية في أوراسيا. كازاخستان هي دولة متوسطة الدخل، وتتسم بأنها مزدهرة بمقاييس آسيا الوسطى، أما من الناحية الجغرافية فهي تبلغ حجم أوروبا الغربية، مع ناتج محلي إجمالي يزيد على مثيله في جميع دول آسيا الوسطى الأخرى مجتمعة. تقع عاصمة كازاخستان الجديدة، أستانا Astana، في الشمال الروسي العرقي للبلاد، والذي أراد القوميون الروس المتطرفون ضمّه إلى بلادهم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي: وفي ذلك الوقت، ومن بين تسعة أقاليم تقع على طول الحدود الشمالية لكازاخستان مع روسيا، والبالغ طولها ثلاثة آلاف ميل؛ ففي ثمانية منها، كان ما يقرب من 90 في المائة من سكان الأجزاء الشمالية غير كازاخستانيين[54]. أما المباني الرسمية في أستانا، والتي صممها السير نورمان فوستر Foster، فتشكل رفضا كازاخستانيا للطموحات الروسية بشأن بلدهم. ستكلف إعادة تصميم أستانا 10 مليارات دولار، كما رُبطت بجنوب البلاد بواسطة قطارات عالية السرعة[55]. تتحول كازاخستان حقا إلى قوة مستقلة في حد ذاتها، فهي تعكف على تطوير ثلاثة حقول عملاقة بحجم «الفيل» للنفط والغاز ونواتج حقول التكثيف، يقع اثنان منها على بحر قزوين، والتي ضُخت فيها استثمارات كبيرة من قبل الشركات الغربية المتعددة الجنسيات. وسيجري قريبا الانتهاء من خط جديد لأنابيب النفط، والذي يمتد من بحر قزوين إلى غرب الصين. وتوشك كازاخستان على أن تصبح أكبر

منتج لليورانيوم في العالم، وتمتلك ثاني أكبر الاحتياطيات العالمية من الكروم، والرصاص، والزنك، وثالث أكبر احتياطيات المنغنيز، وخامس أكبر احتياطيات النحاس، كما أنها من بين الدول العشر الأولى في احتياطيات الفحم، والحديد، والذهب.

إن كازاخستان هي المنطقة المركزية التي وصفها ماكيندر! فهي غنية بجميع الموارد الطبيعية الإستراتيجية في العالم، كما أنها منطقة متميزة في وسط أوراسيا- والتي تتراكب، كما هي الحال، فوق غرب سيبيريا وآسيا الوسطى - وتمتد على مسافة 1800 ميل من بحر قزوين في الغرب إلى منغوليا الخارجية في الشرق. تختفي جبال الأورال في شمال غرب كازاخستان؛ في حين تبدأ سفوح تيان شان في جنوب شرق كازاخستان. يتسم مناخ كازاخستان بأنه قاري عند أطرافها لدرجة أن درجة حرارة أستانا قبل الفجر في فصل الشتاء قد تصل إلى ناقص 40 درجة فهرنهايت. وقد اعتقد ماكيندر أن بعض القوى العظمى أو القوى الفائقة ستتمكن من السيطرة على المنطقة المركزية. لكن في عصرنا الحالي، فإن المنطقة المركزية توجد في حوزة السكان الأصليين، حتى على الرغم من اقتتال القوى العظمى مثل روسيا والصين على مواردها من الطاقة. من الممكن أن تؤثر روسيا في كازاخستان، بل وتضغط عليها بشدة بكثير من الطرق. وفي التحليل النهائي، يتسم الاقتصادان الروسي والكازاخستاني بتشابكهما، في حين لا يمكن لكازاخستان أن تدافع عن نفسها ضد الجيش الروسي. لكن كازاخستان ستمتلك دائمًا خيار التحوّل نحو الصين إذا صار أمثال بوتين أو من يأتون خلفه شديدي الجور لدرجة لا تُطاق؛ وعلى أي حال، فإن احتمالات أن تكون روسيا مستعدة لأن تُعاني الاستنكار الدولي والعزلة الدبلوماسية الناتجين عن إقدامها على غزو كازاخستان تبدو ضئيلة. وفي العام 2008، فإن جورجيا، وهي بلد أصغر بأربعين مرة من كازاخستان، مع ثلث سكانها وموارد طبيعية شحيحة، ربما كشفت حدود المغامرة العسكرية الروسية في القارة الفائقة. وفي الواقع، عندما وجهت قيرغيزستان نداء خفيا للقوات الروسية للتدخل ضد أعمال الشغب العرقية في العام 2010، لم تُقدم روسيا على تدخل كبير، لخوفها من التورط في دولة جبلية من بلدان آسيا الوسطى تقع على الجانب الآخر من كازاخستان.

وثمة عامل مقيّد آخر ضد التدخل العسكري الروسي في آسيا الوسطى، ألا وهو الصين، التي تزايد نفوذها في المنطقة على حساب روسيا، والتي تشترك معها روسيا في حدود طويلة في الشرق الأقصى. تتسم العلاقات الروسية - الصينية بأنها جيدة إلى حد معقول، مما يوفر الزخم لمنظمة شانغهاي للتعاون: وهي مجموعة تضم

في عضويتها كازاخستان، والتي تسعى إلى توحيد القوى الأوراسية، الاستبدادية في معظمها، في محاولة لمواجهة نفوذ الولايات المتحدة. تتسم تكلفة العداء الروسي-الصيني في تزايد نفوذ الولايات المتحدة وأوروبا في أوراسيا. وبالتالي، فإن روسيا ستهذب سلوكها في آسيا الوسطى، كما يرجح أن تنبذ أي محاولة لاستعادة أجزاء من المنطقة المركزية لماكيندر بالقوة.

ثمة تحذير واجب بشأن هذا التحليل: ربما ضعف نفوذ روسيا في آسيا الوسطى بسبب صعود الصين ورغبة بلدان آسيا الوسطى في إجراء مزيد من الأعمال مع البلدان التي لا تمثل تهديدا، والعالية التكنولوجيا مثل كوريا الجنوبية واليابان. ولكن في حين تتسم الخيارات العسكرية الروسية بأنها مقيدة إلى حد ما، فلايزال في وسع روسيا أن تحرّك قواتها عبر جميع أنحاء آسيا الوسطى بطريقة لا تستطيعها أي قوة أخرى، كما أن بلدان آسيا الوسطى لاتزال تحمل بعض الحنين، في هذه الأزمنة المضطربة سياسيا، للسلام والأمن الذي كان سائدا في أيام الاتحاد السوفييتي القديم.

ومع ذلك، فإن ديمتري ترينين من مركز كارنيغي في موسكو قد يكون على حق: إن أفضل أمل حقيقي لروسيا على المدى الطويل هو تحرير اقتصادها وسياساتها، من أجل جعل روسيا جذابة للكازاخستانيين وغيرهم من الشعوب التي كانت خاضعة لهم في السابق. أما المنطقة المركزية، فمع انهيار الشيوعية وظهور العولمة، فقد صارت قوة في حد ذاتها. أما كازاخستان، التي تبلغ مساحتها أكثر من ضعف مساحة دول آسيا الوسطى الأخرى مجتمعة، فتوضح ذلك. إن ماكيندر، الذي كان يخشى التقسيم الأفقي للعالم إلى طبقات وأيديولوجيات، كان يعتقد أنه جنبا إلى جنب مع توازن القوى، فإن الإقليمية provincialism - أو التقسيم الرأسي للعالم إلى مجموعات ودول صغيرة - هو ما يساعد على ضمان الحرية[56].

11

جغرافية القوة الصينية

«هل يمكن للجغرافيا أن تؤدي مرة أخرى إلى التباعد بين روسيا والصين، اللتين يقتصر تحالفهما الحالي أساسا على الجوانب التكتيلية؟»

المؤلف

في نهاية مقالته الشهيرة «المحور الجغرافي للتاريخ»، ذكر ماكيندر ملاحظة مقلقة بخصوص الصين؛ فبعد توضيح سبب كون الجزء الداخلي من أوراسيا يشكل نقطة ارتكاز القوة الجيوستراتيجية للعالم، افترض أن الصينيين «قد يشكلون الخطر الأصفر على الحرية في العالم، لمجرد أنهم سيضيفون واجهة محيطية إلى موارد القارة العظيمة، وهي ميزة لايزال المحتل الروسي للمنطقة المحورية محروما منها[1]». وبغض النظر عن المشاعر العنصرية المتأصلة للعصر الذي عاش فيه، فضلا على الهستيريا التي يُستقبل بها صعود أي قوة غير غربية، سنركز بدلا من ذلك على تحليل ماكيندر للموقف: في حين أن روسيا تمثل قوة برية تتعرض واجهتها المحيطية الوحيدة للانسداد بفعل الجليد في القطب الشمالي، فالصين هي أيضا قوة قارية الحجم، لكنها قوة لا تمتد

فقط إلى القلب الاستراتيجي للاتحاد السوفييتي السابق في آسيا الوسطى، مع كل ثرواته المعدنية والهيدروكربونية، ولكن أيضا إلى ممرات الشحن الرئيسية في منطقة المحيط الهادي على بُعد ثلاثة آلاف ميل، حيث تتمتع الصين بسواحل يبلغ طولها تسعة آلاف ميل، مع العديد من الموانئ الطبيعية الجيدة، والتي هي في معظمها خالية من الجليد.

(كان ماكيندر، في الواقع، يخشى أن تتمكن الصين في يوم ما من قهر روسيا). وبالإضافة إلى ذلك، كما كتب ماكيندر في العام 1919، في كتابه المعنون «المثل الديموقراطية والواقع»، فإذا كانت أوراسيا المتحدة مع أفريقيا تشكلان «الجزيرة العالمية» - أي قلب الأراضي الجافة لكوكب الأرض، والتي تبلغ أربعة أضعاف حجم أمريكا الشمالية، مع ثمانية أضعاف عدد سكانها - فإن الصين، باعتبارها أكبر دولة قارية في أوراسيا مع خط ساحلي يمتد عبر كل من المناطق الاستوائية وتلك المعتدلة، تحتل الموقع الأكثر أفضلية في العالم. ويتوقع ماكيندر في ختام كتاب «المثل الديموقراطية والواقع» أن الصين، جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، ستقود العالم في نهاية المطاف من خلال «بناء حضارة جديدة لربع الجنس البشري، لا هي شرقية تماما ولا غربية تماما»[2]. وباعتباره وطنيا إمبرياليا حتى الرمق الأخير، فقد كان من الطبيعي أن يضم ماكيندر بريطانيا العظمى إلى هذه الفئة المتعالية. ومع ذلك، فباستخدام معايير الجغرافيا والديموغرافيا وحدها، فقد ثبتت صحة توقعاته حول الصين حتى الآن على الأقل.

إن حقيقة كون الصين متميّزة جغرافيا هي أمر أساسي وواضح لدرجة أن البعض يميل إلى تجاهلها في جميع المناقشات الدائرة حول الديناميـة الاقتصادية وتأكيد الذات الوطنية طوال العقود الأخيرة. وبالتالي، فمن المفيد هنا أن نلقي نظرة على الخريطة من خلال منظور التاريخ الصيني.

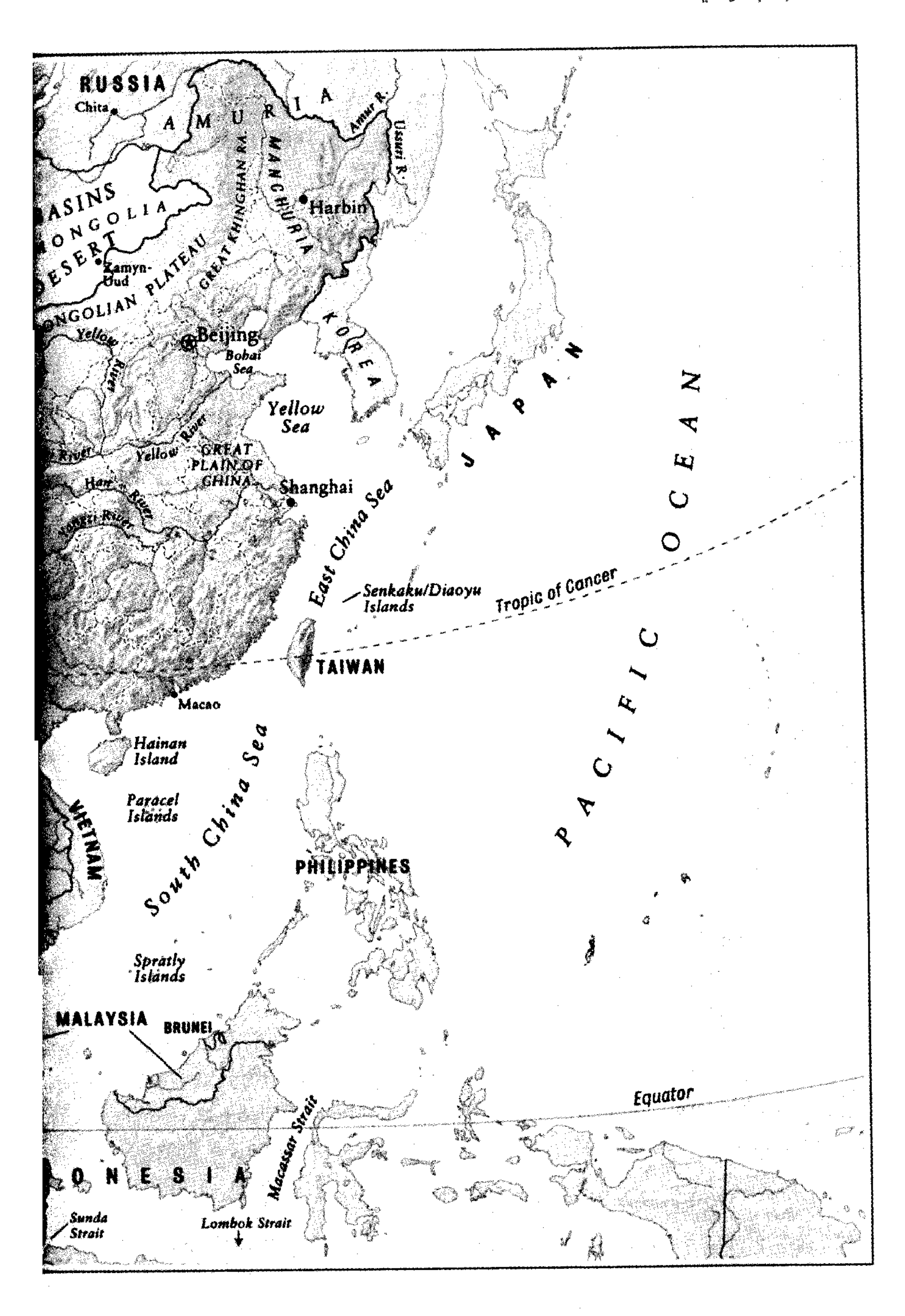
في حين تقع روسيا إلى الشمال من خط العرض 50 درجة شمالا، فإن الصين تقع إلى الجنوب منه، ضمن النطاق نفسه تقريبا لخطوط العرض المعتدلة التي تقع فيها الولايات المتحدة، مع كل التغيرات المناخية والفوائد التي ينطوي عليها ذلك[3]. وتقع هاربين Harbin، وهي المدينة الرئيسية في منشوريا، عند 45 درجة شمالا، وهو مستوى ولاية مين Maine نفسه. وتقع بكين بالقرب من خط العرض 40 درجة شمالا، وهو مستوى مدينة نيويورك نفسه. أما شنغهاي، الواقعة عند مصب نهر اليانغتسي، فتقع عند 30 درجة شمالا، وهو مستوى نيو أورليانز نفسه. يمر مدار السرطان عبر الطرف الجنوبي من الصين، كما يمر إلى الأسفل بقليل من سلسلة جزر فلوريدا كيس Florida Keys.

لا تمثل الصين قارة في حد ذاتها سوى أقل بقليل من الولايات المتحدة. أما

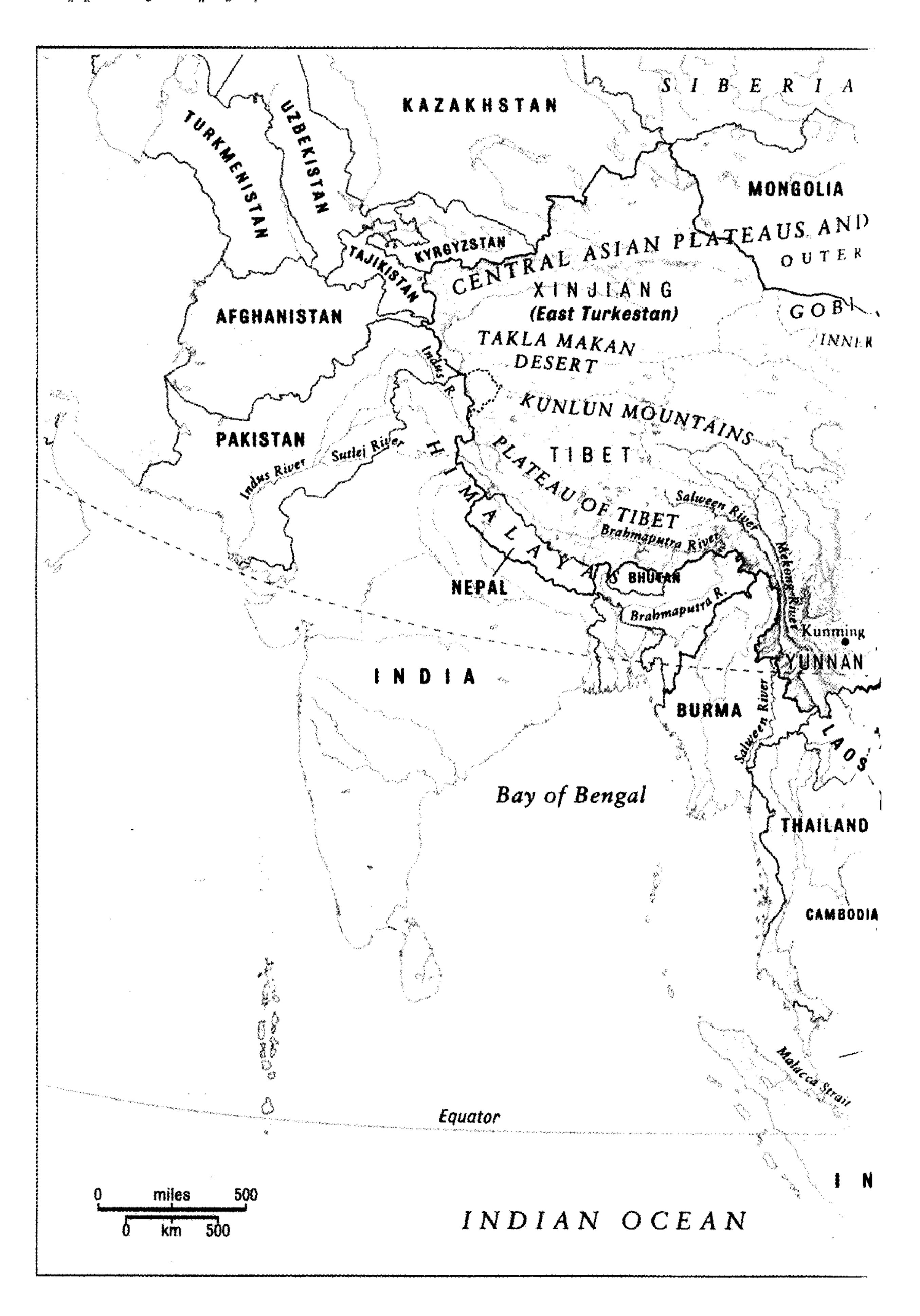
الولايات المتحدة، التي يحدها محيطان والقطب الشمالي الكندي، فلا يهددها سوى شبح التركيبة الديموغرافية المكسيكية إلى جنوبها.

وعلى مدى آلاف السنين، جاء التهديد إلى الصين بشكل رئيسي من سهوب أوراسيا البرية إلى الشمال والشمال الغربي، وهي السهوب البرية نفسها التي هددت روسيا من الاتجاه المعاكس: وبالتالي، فإن التفاعل بين الصينيين الأصليين، والمنشوريين، والمغول، والشعوب ذات الأصول التركية في الصحراء العليا شكّل واحدا من الموضوعات الرئيسية في التاريخ الصيني. ولهذا السبب، ففي كثير من الأحيان بُنيت عواصم دول الأسرات الحاكمة الصينية المبكرة على ضفاف نهر الوي، لأعلى النهر من التقائه مع النهر الأصفر، حيث كان هناك ما يكفي من الأمطار للزراعة المستقرة، وفي الوقت نفسه كانت في مأمن من القبائل الرحالة في هضبة منغوليا الداخلية، والواقعة إلى الشمال مباشرة منها.

وفي حين تتحدّد الجغرافيا الأمريكية بالتسلسل «المُحكم» للغابات، والبراري، والصحارى العليا، والجبل، والساحل - والتي يعبر منتصفها نهرا الميسيسيبي والميزوري اللذان يتدفقان من الشمال إلى الجنوب؛ ففي الصين، يُلاحظ أن الأنهار العظيمة - الوي، والهان، الأصفر، واليانغتسي - تتدفق من الغرب إلى الشرق، من المرتفعات العالية والجافة في الداخل الأوراسي إلى الأراضي الزراعية الأكثر رطوبة بالقرب من سواحل المحيط الهادي[4]. وتنقسم هذه الأراضي الزراعية، بدورها، بين منطقة زراعة الدُخْن الجافة نسبيا في شمال الصين، ذات الموسم الزراعي القصير، والتي تشبه شمال الغرب الأوسط الأمريكي، وبين ثقافة الأرز الرطبة، المزدوجة المحاصيل في جنوب الصين الخصيب. وهكذا، فإن بناء القناة الكبرى ما بين العامين 605 و611، والتي تربط النهرين الأصفر واليانغتسي - وبين منطقة شمال الصين المعرضة للمجاعات مع جنوبها المنتج اقتصاديا، حيث يفيض إنتاج الأرز عن احتياجاتها، ووفقا للمؤرخ البريطاني جون كاي Keay، «كان له تأثير يشبه تأثير بناء أول خطوط السكك الحديد العابرة للقارات في أمريكا الشمالية»[5]. مثّلت القناة الكبرى مفتاح الوحدة الصينية، لأنها خففت من حدة غزو المناطق الشمالية للجنوب خلال القرون الوسطى حيث حكمت سلالتا تانغ وسونغ، مما ساعد على توطيد الجغرافيا الأساسية للصين الزراعية. ومرة أخرى، نرى هنا كيف أن الأفعال الفردية للرجال - والمتمثلة في بناء قناة - تُثبت كونها أكثر أهمية تاريخيا من الحقائق البسيطة للجغرافيا. ونظرا إلى الاختلافات الصارخة بين شمال الصين وجنوبها الصين، في أوائل حقبة القرون الوسطى، فإن الانقسام بين دولتي الصين - والذي استمر لقرنين من الزمان - ربما كان سيصير دائما، مثل ما حدث بين الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية والغربية[6].



RUSSIA
Chita
AMURIA
Amur R.
Ussuri R.
BASINS
MONGOLIA
DESERT
Zamyn-Uud
MONGOLIAN PLATEAU
GREAT KHINGHAN RA.
MANCHURIA
Harbin
KOREA
Beijing
Bohai Sea
Yellow River
Yellow Sea
Yellow River
GREAT PLAIN OF CHINA
Han River
Yangzi River
Shanghai
East China Sea
JAPAN
PACIFIC OCEAN
Senkaku/Diaoyu Islands
Tropic of Cancer
TAIWAN
Macao
Hainan Island
Paracel Islands
VIETNAM
South China Sea
PHILIPPINES
Spratly Islands
MALAYSIA
BRUNEI
Equator
Macassar Strait
INDONESIA
Sunda Strait
Lombok Strait


SIBERIA
KAZAKHSTAN
TURKMENISTAN
UZBEKISTAN
MONGOLIA
KYRGYZSTAN
TAJIKISTAN
CENTRAL ASIAN PLATEAUS AND
OUTER
XINJIANG
(East Turkestan)
GOBI
INNER
AFGHANISTAN
TAKLA MAKAN
DESERT
Indus R.
KUNLUN MOUNTAINS
PAKISTAN
Sutlej River
Indus River
HIMALAYAS
TIBET
PLATEAU OF TIBET
Salween River
Brahmaputra River
Mekong River
NEPAL
BHUTAN
Brahmaputra R.
Kunming
YUNNAN
INDIA
BURMA
Salween River
LAOS
Bay of Bengal
THAILAND
CAMBODIA
Malacca Strait
Equator
0 miles 500
0 km 500
INDIAN OCEAN
IN

مفتاح الخريطة:

Kazakhstan	كازاخستان
Uzbekistan	أوزبكستان
Turkmenistan	تركمانستان
Afghanistan	أفغانستان
Tajikistan	طاجيكستان
Kyrgyzstan	قيرغيزستان
Pakistan	باكستان
Indus River	نهر السند
Sutlej River	نهر سوتليج
Indus R.	نهر السند
Nepal	نيبال
India	الهند
Central Asian Plateaus And Basins	هضاب وأحواض آسيا الوسطى
Xinjiang	شينجيانغ
(Eastern Turkestan)	(تركستان الشرقية)
Himalaya	جبال الهيمالايا
Bhutan	بوتان
Takla Makan Desert	صحراء تاكلا ماكان
Bay Of Bengal	خليج البنغال
Brahmaputra River	نهر براهمابوترا
Gobi	غوبي
Siberia	سيبيريا
Burma	بورما
Kunlun Mountains	جبال كونلون
Plateau Of Tibet	هضبة التبت
Salween River	نهر سالوين
Mekong River	نهر الميكونغ
Kunming	كونمينغ
Inner Mongolia Plateau	هضبة منغوليا الداخلية
Yunnan	يونان
Laos	لاوس
Thailand	تايلاند
Cambodia	كمبوديا

Miles	أميال
Km	كلم
Equator	خط الاستواء
Indian Ocean	المحيط الهندي
Indonesia	إندونيسيا
Malacca Strait	مضيق ملاكا
Sunda Strait	مضيق سوندا
Russia	روسيا
Chita	تشيتا
Amuria	أموريا
Outer Mongolia	منغوليا الخارجية
Zamynuud	زاميوند
Yellow River	النهر الأصفر
Great Khinghan Ra.	سلسلة جبال خينغان الكبرى
Amur R.	نهر آمور
Ussuri R.	نهر أوسوري
Harbin	هاربين
Beijing	بكين
Wei River	نهر الوي
Bohai Sea	بحر بوهاي
Yellow Sea	البحر الأصفر
Han River	نهر هان
Yangzi River	نهر اليانغتسي
Great Plain Of China	سهل الصين العظيم
Shanghai	شنغهاي
East China Sea	بحر الصين الشرقي
Korea	كوريا
Japan	اليابان
Senkaku/Diaoyu Islands	جزر سينكاكو / دياويو
Tropic Of Cancer	مدار السرطان
Taiwan	تايوان
Macao	ماكاو
Hainan Island	جزيرة هاينان
Paracel Islands	جزر باراسيل
Vietnam	فيتنام

South China Sea	بحر الصين الجنوبي
Pacific Ocean	المحيط الهادي
Philippines	الفلبين
Spratly Islands	جزر سبراتلي
Miles	أميال
Km	كلم
Equator	خط الاستواء
Malaysia	ماليزيا
Brunei	بروناي
Lombok Strait	مضيق لومبوك
Macassar Strait	مضيق ماكاسار

ولكـن كـما كتب الراحل الأسـتاذ في جامعـة هارفارد جون كينـغ فيربانك Fairbank، «تتسـم التناقضات بين شـمال الصين وجنوبها بأنها سطحية مقارنة بتلك الموجودة بين البداوة الرعوية في الهضاب الداخلية لآسـيا والقرى المستقرة على أسـاس الزراعة الصينية المكثفة». ويعني فيربانك بآسيا الداخلية شيئا شاملا تماما: «ذاك القوس الواسـع الممتد من منشـوريا، مرورا بمنغوليا وتركسـتان، إلى التبـت». ويسـتطرد قائلا إن إحسـاس الصين بذاتها يسـتند إلى الفـرق الثقافي الموجود بين هذا الحزام المحيط من الصحراء ومنطقة بر الصين المزروعة، أي بين الحياة الرعوية والزراعية[7]. تعكس الجغرافية الإثنية للصين هذه «البنية المكونة مـن منطقة مركزية وأخرى محيطية»، مع كون المنطقة المركزية تمثل «السـهل الأوسـط» الصالح للزراعة زونغ يوان *zhongyuan* أو «الصين الداخلية» نايدي (*neidi*)، وكـون المنطقة المحيطية تمثل «الحدود» الرعوية بيانج يانغ *bianjiang* أو «الصين الخارجية»[8]. وايدي *waidi*.

كان هـذا هـو الغرض الأسـاسي من بناء سـور الصين العظيـم. وكما كتب اختصاصي العلوم السياسـية ياكوب غريجل Grygiel، فإن سـور الصين العظيم «قـد عمل على تعزيز التميّز الإيكولوجي الذي تُرجم إلى خلافات سياسـية»[9]. وفي الواقع، فبالنسـبة إلى الصينيين الأوائل، كانت الزراعة تعني الحضارة نفسها: فالمملكة الوسطى أو المتوسطة، تشونغهوا Zhongguo، لم تكن مدينة بأي شيء

للشـعوب الرعوية المحيطة بهـا. ومن هذه المملكة نبع هـذا النوع من اليقين الثقافي الذي ستتشـاركه الصين مع العالم المسيحي الغربي[10]. واعتبارا من أواخر عهد أسرة تشو Zhou في القرن الثالث قبل الميلاد، بدأت الصين الصالحة للزراعة في استيعاب العناصر البربرية وشبه البربرية[11]. وفي وقت لاحق، ومع بداية عهد أسرة هـان Han في القـرن الثاني قبل الميلاد، بـدأ الصينيون يلتقون بغيرهم من الحضارات - الرومانية، والبيزنطية، والفارسـية، والعربية - وبالتالي اكتسبوا حسا إقليميا مشابها بالمساحة[12]. إن حقيقة كون الدولة الصينية اليوم تشمل كلا من المناطق الصحراوية والزراعية، على نطاق قاري على الأقل، تعكس تتويجا لعملية تاريخية طويلة ومظفّرة حتى الآن، والتي، بدورها، توفر الأسـاس الجغرافي للقوة الصينية - في الوقت الراهن على الأقل.

وقد انطلقت عملية التوسـع هذه من منطقة «المهـد» حول نهري الوي والأصفـر الأدنى في الجزء الشـمالي من المنطقـة القابلة للزراعـة إلى الجنوب مباشرة من منشـوريا ومنغوليا الداخلية، والتي ازدهرت خلال عهد أسرة تشو الغربيـة قبل ثلاثة آلاف سـنة[13]. لأن آسـيا الداخلية الرعويـة لم تكن تزرع المحاصيل، مع سـكان متناثرين، وحجم يبلغ نحو جزء من ستة عشر جزءا من حجم منطقة المهد، فلم يكن في وسعها البقاء على قيد الحياة بشكل جيد من دون الوصول إليها[14].

وهكـذا نمت الصين إلى الخارج انطلاقـا من نهري الوي والأصفر الأدنى، على الرغـم مـن أن الحفريات الأثرية الأخيرة لا تشـير إلى وجـود تطوّر حضاري في جنـوب شرق الصين وشـمال فيتنام خلال هذا الوقـت[15]. وخلال حقبة الدول المتحاربة (403 - 221 قبل الميلاد)، والتي شهدت تقلّص عدد الأنظمة السياسية الحاكمة مـن 170 إلى 7، انتقلت الحضارة الصينية إلى الجنوب أكثر، وصولا إلى مناطق زراعة الأرز والشاي، لتشمل المنطقة التي تضم شنغهاي الحالية. وحتى مع ذلك، فقد ظلت السـلطة السياسية في الشمال، التي احتضنت المنطقة التي تضـم بكـين في الوقت الحاضر[16]. كانت أسرة تشـين Qin هـي التي خرجت منتصرة من فترة الـدول المتحاربة - وهي الأسرة التي، وفقا لبعض خبراء أصول الكلام، منحت الصين اسمها. وبحلول القرن الأول قبل الميلاد، وفي عهد أسرة هان

(التي حلت محل أسرة تشين)، شملت الصين كل الأرض المركزية القابلة للزراعة من منابع النهر الأصفر واليانغتسي إلى ساحل المحيط الهادي، ومن بحر بوهاي قرب شبه الجزيرة الكورية إلى بحر الصين الجنوبي. وقد سمحت توليفة من المبادرات الديبلوماسية والغزوات العسكرية لأباطرة أسرة هان بإنشاء اتحادات إقطاعية بين كيونغنو Xiongnu، أي قبائل الهون البدوية، في منغوليا الخارجية وتركستان الشرقية شينجيانغ Xinjiang، وكذلك في جنوب منشوريا والجزء الشمالي من كوريا.

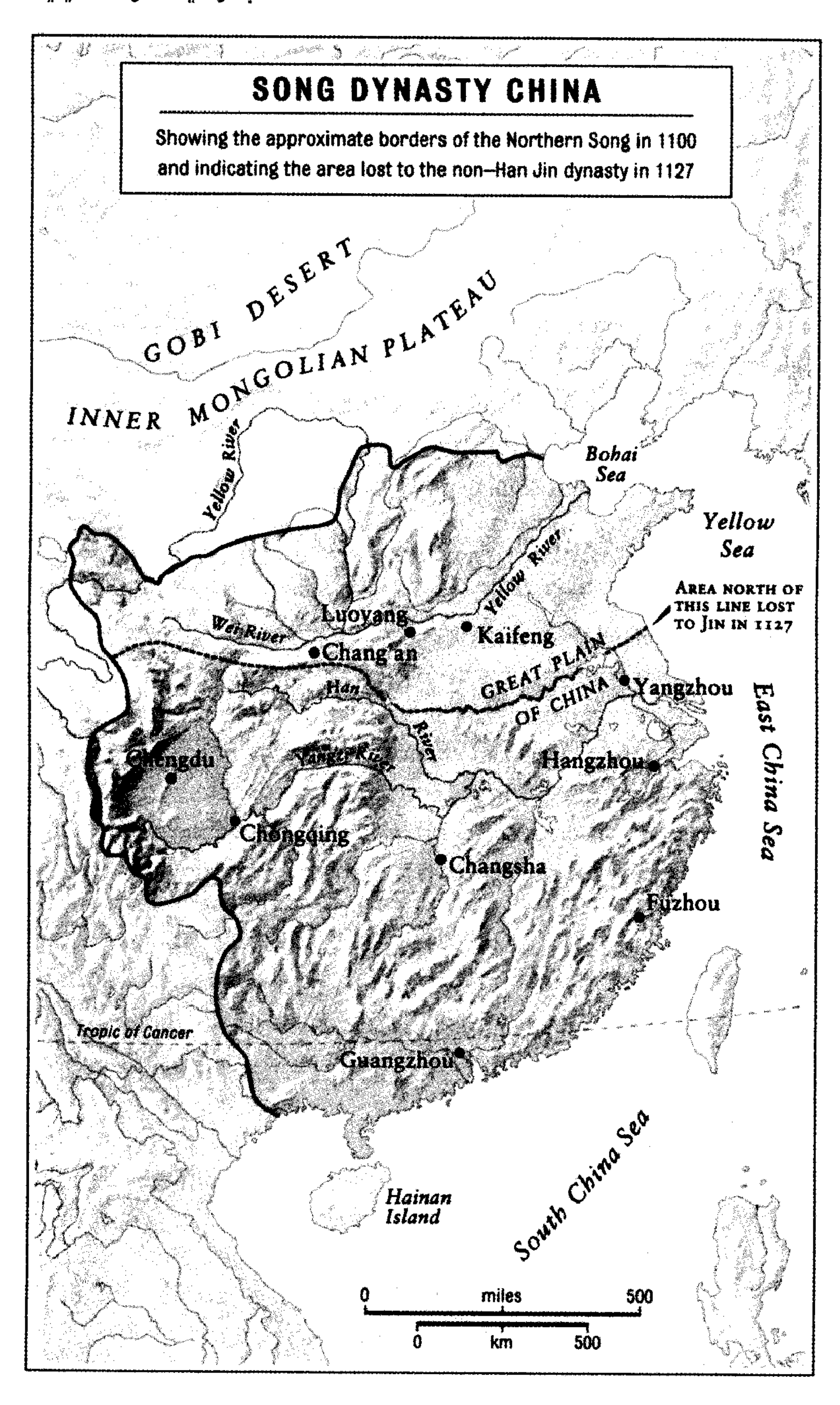
لقد تطوّر نمط محدد هنا: كان على الحضارة الزراعية الصينية المستقرة أن تسعى باستمرار إلى خلق منطقة عازلة ضد الشعوب الرحالة الآتية من المرتفعات المتاخمة الجافة التي تحيط بها من ثلاث جهات، من منشوريا بعكس اتجاه عقارب الساعة وحتى التبت[17]. كانت هذه المعضلة التاريخية تشبه بنيويا تلك التي واجهها الروس، الذين احتاجوا بدورهم إلى منطقة عازلة. ولكن في حين انتشر الروس عبر إحدى عشرة منطقة زمنية ضئيلة السكان، كانت الصين أكثر تماسكا وذات كثافة سكانية عالية نسبيا منذ العصور القديمة. مع قدر أقل نسبيا مما يمكنها أن تخشاه، أصبح المجتمع الصيني أقل عسكرة. ومع ذلك، فقد أنتجت الصين أسرات حاكمة ذات طاقة وعدوانية مميزة. وتحت حكم أباطرة أسرة تانغ Tang في القرن الثامن، ازدهرت البراعة العسكرية جنبا إلى جنب مع الآداب والفنون. شقت جيوش أسرة تانغ طريقها عبر المساحة الفاصلة بين منغوليا والتبت لإقامة محميات في جميع أنحاء آسيا الوسطى، والتي وصلت إلى خراسان في شمال شرق إيران، ما مكّن طريق الحرير أكثر فأكثر. وفي الوقت نفسه، فقد خاض أباطرة تانغ حروبا ضد التبتيين في الجنوب الغربي بمساعدة من الويغور Uighurs الأتراك في الشمال الغربي. كان الأمر دائما متعلقا بالمناورة وسط الشعوب التي تعيش في أراضي السهوب، بدلا من محاربتهم جميعا في الوقت نفسه. وفي الواقع، فقد شكلت الجندية واحدة فقط من أدوات دولة تانغ. وكما كتب المؤرخ البريطاني جون كاي، فإن «العقيدة الكونفوشيوسية التي تشكلت خلال عصر «الدول المتحاربة» ونتجت عنها جزئيا، كانت متعنتة فيما يتعلق بسيطرة المدنيين على الشؤون العسكرية»[18]. ومن

بين «أمجاد الصين القديمة»، كما كتب فيربانك، كانت هناك «مسـالمة مسـّببة»، لأن واحدة من الخرافات الكونفوشيوسـية للدولة كانت «حكومة الفضيلة»[19]. ووفقا للمؤرخين، فهذه السـلامية pacifism هـي الملومة في بعض الأحيان على حقيقـة أنه مثلما غـزت الصين مناطق المراعي والهضاب، قـام الرعاة الرحل في المقابـل بغزو الصين. وفي العام 763 للميـلاد، تمكنت القوات التبتية بالفعل من غزو وتدمير تشـانغآن Chang'an، وهي عاصمـة إمبراطورية تانغ. والأهم من ذلـك، فإن أسرات جين Jin، ولياو Liao، ويوان Yuan.- والتي ازدهرت جميعها في الأراضي المعشوشبة الشمالية - قد شنت اعتداءات عسكرية من آسيا الداخلية ضد الصين طوال العصور الوسـطى. وقد سـارت هذه جنبا إلى جنب مع فشـل أسرتي سـونغ ومينغ الأصليتين، عـلى الرغم من تقنياتها العسـكرية الثورية، في اسـتعادة أراضي السهوب. أما آسيا الداخلية، من التبت وتركستان الشرقية مرورا بمنغوليا ووصولا إلى الشرق الأقصى الحدودي مع روسـيا، فقد جرت اسـتعادتها مرة أخرى من قبل أسرة مانشـو كينغ Manchu Qing في القرنين السـابع عشر والثامـن عشر. (وخلال تلك الفترة، جرت «المراهنة» على الإقليم المتعدد الأعراق الذي تسـيطر عليه الدولة الصينية اليوم وكذلك تصـوّره: فقد ضُمت تايوان في العام 1683)[20]. وباختصار، فقد أصبحت الصين قارة شاسعة في حد ذاتها بحكم تفاعلاتها المسـتمرة إلى الخلف والأمام مع أراضي السـهوب في آسـيا الداخلية، والتي امتـدت حتى المنطقة المركزية التي وصفها ماكينـدر، وهذا هو ما يوجّه دفة الواقع السياسي في الصين اليوم.

وفي الواقع، فإن السـؤال يصبح الآن ما إذا كان أفراد الهان المهيمنون، الذين يشـكلون أكثر مـن 90 في المائة من سـكان الصين ويعيـش معظمهم في أراضي المهـد الصينية الصالحة للزراعة، قادرين على جعل التبتيين، والأتراك الويغوريين، والمغول الداخليين الذين يعيشون في المناطق الطرفية تحت السيطرة بشكل دائم، مع إحداث الحد الأدنى من الاضطرابات. إن المصير النهائي للدولة الصينية يتوقف على هذه الحقيقة، خاصة أن الصين تتعرض لاضطرابات اقتصادية واجتماعية.

في الوقـت الحاضر، بلغت الصـين ذروة قوتها القارية، عـلى الرغم من أن جراح اغتصاب أراضيها من قبل دول أوروبا، وروسـيا، واليابان لاتزال، حسـب

المعايير التاريخية الخاصة في الصين، نازفة بشدة. وفي القرن التاسع عشر، عندما أصبحت أسرة كينغ رجل شرق آسيا المريض، خسرت الصين الكثير من أراضيها - إذ فقـدت روافدها الجنوبية في نيبال وبورما لبريطانيا العظمى؛ والهند الصينية لفرنسـا؛ وتايوان وروافد كوريا وسـخالين لمصلحة اليابـان؛ ومنغوليا، وأموريا، وأوسـوريا لمصلحة روسـيا[21]. وفي القرن العشرين، جاء الاحتلال الياباني لشبه جزيرة شـاندونغ ومنشـوريا في قلب الصين. وقد حدث كل هـذا بالإضافة إلى الإذلال القـسري الذي فُـرض على الصينيين بموجب اتفاقيـات الولاية القضائية الخارجية في القرنين التاسـع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث حصلت الدول الغربية على حق السـيطرة على أجزاء مـن المدن الصينية. لنعُد الآن سريعا إلى خمسـينيات القرن العشرين، عندما بدأت تظهر في المـدارس الثانوية الصينية خرائط للصين الكبرى التي تشـمل كلا من هذه المناطق المفقودة، وكذلك شرق كازاخسـتان وقيرغيزسـتان. إن ماو تسي تونغ، الذي وحّـد الصين القارية للمرة الأولى منذ العصر الذهبي لأسرة تشينغ High Qing، كان وحدويا بكل وضوح، كما اسـتبطن جروح دولة كانت فيما مضى إمبراطورية واسعة تمكنت من البقاء عـلى مر القرون، لكنها تعرضت للإذلال في الآونـة الأخيرة[22]. وبالنظر إلى هذه التقلبـات التي مـرت بتاريخ الصين، فقد يكون هذا عيبـا في تفكير ماو، والذي يمكننـا بالفعل أن نغفـره له. وفي حين أن حكام الصين في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين قد لا يكونون بنفس قسـوة مـاو في نظرتهم إلى الأمور، فإن تاريـخ الصين، عـلى أي حال، لم يغب عـن أذهانهم قط. وعـلى الرغم من أن حدود الصين الحالية تشـمل منشـوريا، ومنغوليا الداخلية، وتركستان الشرقية، والتبت - أي جميع الهضاب والأراضي المعشوشـبة المحيطة - فإن الاستراتيجيات الاقتصادية والدبلوماسـية نفسها لحكام الصين الحاليين تُثبت فكرة الصين التي تتجـاوز حتـى المدى الإقليمي الـذي بلغته الصين في عهـد أسرة تانغ في القرن الثامـن وخلال العصر الذهبي لأسرة تشـينغ في القـرن الثامن عشر. إن الصين، بكيانهـا الديموغرافي الهائل واقتصادها الأكثر نشـاطا في العالم على مدى العقود الثلاثة الماضية، توسّـع، على عكس روسـيا، نطاق نفوذها الإقليمي عن طريق التجارة أكثر مما تفعل بالإكراه بكثير.


SONG DYNASTY CHINA
Showing the approximate borders of the Northern Song in 1100 and indicating the area lost to the non–Han Jin dynasty in 1127
GOBI DESERT
INNER MONGOLIAN PLATEAU
Yellow River
Bohai Sea
Yellow Sea
Yellow River
AREA NORTH OF THIS LINE LOST TO JIN IN 1127
Luoyang
Kaifeng
Wei River
Chang'an
GREAT PLAIN OF CHINA
Han River
Yangzhou
East China Sea
Chengdu
Yangzi River
Hangzhou
Chongqing
Changsha
Fuzhou
Tropic of Cancer
Guangzhou
Hainan Island
South China Sea
0 miles 500
0 km 500

مفتاح الخريطة:

Song dynasty china	الصين تحت حكم أسرة سونغ
Showing the appropriate borders of the Northern Song in 1100 and indicating the area lost to the no - Han Jin dynasty in 1127	تبين حدود إمبراطورية سونغ الشمالية في العام 1100، كما تحدد المنطقة التي خسرتها لأسرة جين التي لا تنتمي إلى الهان في العام 1127
Gobi Desert	صحراء غوبي
Inner Mongolian Plateau	هضبة منغوليا الداخلية
Yellow River	النهر الأصفر
Bohai Sea	بحر بوهاي
Yellow Sea	البحر الأصفر
Area north of this line lost to Jin in 1127	تمت خسارة المنطقة الواقعة شمال هذا الخط لمصلحة أسرة جين في العام 1127
Yellow River	النهر الأصفر
Wei River	نهر الوي
Luoyang	لويانغ
Chang' an	تشانغآن
Kaifeng	كايفنغ
Great Plain Of China	سهل الصين العظيم
Han River	نهر الهان
Yangzhou	يانغتشو
East China Sea	بحر الصين الشرقي
Hangzhou	هانغتشو
Yangzi river	نهر اليانغتسي
Chengdu	تشنغدو
Chongqing	تشونغتشينغ
Changsha	تشانغشا
Fuzhou	فوتشو
Guangzhou	قوانغتشو
Tropic of Cancer	مدار السرطان
Hainan Island	جزيرة هاينان
South China Sea	بحر الصين الجنوبي
Miles	أميال
km	كلم

تشير الجغرافيا إلى أنه في حين أن مسار الصين نحو مزيد من القوة العالمية المتزايدة قد لا يكون خطيا - فالمعدلات السنوية لنمو ناتجها المحلي الإجمالي التي زادت على 10 في المائة على مدى السنوات الثلاثين الماضية ببساطة لا يمكن أن تستمر - والصين، حتى لـو كانت في حالة مـن الفوضى الاقتصادية والاجتماعية، سـتقف عند محور الجغرافيا السياسية. ليس من المرجح أن تقع الصين فريسة لحالة من الفوضى الكاملة. إن الصين، لـو أردنا الاسترشـاد بآراء ماكيندر، تجمع بـين حداثة متطرفة غربيـة الطراز وحضارة هيدروليكيـة من النوع الذي شـاع في الشرق القديم والـشرق الأدنى: ويعني ذلك أنها تتميز بسـيطرة مركزية، مع نظام يبني مشـاريع المياه الكبرى وغيرها من المشروعات الهندسية التي تتطلب عمالة تقدّر بالملايين[23]. وهذا يجعل الصين متشدّدة وديناميكية بطرق مختلفة عن الديموقراطيات الغربية. ولأن الحكام الشـيوعيين الاسـميين للصين يمثلون السـلالة الأخيرة مـن نحو خمس وعشرين أسرة حاكمـة صينية تعود جذورها إلى نحو أربعة آلاف سـنة، فإن استيعاب التقنيات والممارسات الغربية يجري في الإطار المنضبـط لنظـام ثقافي مفصّل: وهو نظـام يمتلك تجربة فريدة من نوعها في تشـكيل العلاقات الرافدية، من بين أمور أخرى. وكما قال لي مسؤول سنغافوري، فإن «الصينيين سيسـحرونك عندما يريدون أن يسحروك، وسـيعتصرونك عندما يريدون أن يعصروك، وهم يفعلون ذلك بشكل ممنهج للغاية».

إن الدينامية الداخلية للصين، عـلى الرغم من كل اضطراباتها وأوجه عدم كفاءتها المدنية، ناهيك عن التباطؤ الاقتصادي، تخلق طموحات خارجية. وفي كثير من الأحيان، لا يجري السـعي إلى بناء الإمبراطوريات بصورة واعيـة. وبدلا من ذلك، فكلما ازدادت الدول قوة، تتولد لديها احتياجات - وبصورة مناقضة للحدس - مجموعة جديدة كاملة من المخاوف التي تؤدي بها إلى التوسّـع بطريقة متناسـقة. لنتدبر التجربة الأمريكية؛ فتحت إشراف بعض أكثر الرؤساء نسيانا - روثرفورد ب. هايز Hayes، وجيمس غارفيلد Garfield، وتشيسـتر ألان آرثر Arthur، وبنيامين هاريسـون Harrison، وهلم جرا - سار الاقتصاد الأمريكي بهدوء جنبا إلى جنب مع تحقيق معدلات نمو سنوية عالية ما بين نهاية الحرب الأهلية والحرب الإسبانية - الأمريكية في العام 1898. ونتيجة لذلك، فمع زيـادة معدلات التبادل التجاري الأمريكي مـع العالم الخارجي، طورت أمريكا لأول مرة مصالح اقتصادية واسـتراتيجية معقدة في أماكـن بعيدة؛ وهو الأمر الذي أدى، من بين إجراءات عسـكرية أخرى، إلى إنزال جنود البحرية ومشاة البحرية (المارينز) في أمريكا

الجنوبية والمحيط الهادي. وقد حدث هذا على الرغم من جميع العلل الاجتماعية التي عانتها أمريكا في ذلك الوقت، والتي كانت، بدورها، نواتج لهذه الدينامية نفسها. وثمة عامل آخر تسبب في جعل أمريكا تركز على الخارج، وهو توحيدها للقارة الداخلية، إذ جرى خوض المعركة الكبرى الأخيرة ضمن الحروب الهندية في العام 1890.

تعزز الصين أيضا حدودها البرية، ومن ثم البدء في التركيز على الخارج. وعلى عكس أمريكا، فإن الصين لا تأتي مسلحة بمقاربة تبشيرية missionary للشؤون العالمية، فليست لديها أيديولوجية أو نظام للحكم تسعى إلى نشره. يمثل التقدم الأخلاقي في السياسة الدولية هدفا أمريكيا، لكنه ليس هدفا صينيا. ومع ذلك، فليست الصين قوة الوضع الراهن لأنها تتوسع إلى الخارج بسبب حاجتها إلى تأمين الطاقة، والمعادن، والفلزات الاستراتيجية من أجل دعم رفع مستوى معيشة ما يقرب من خُمس البشرية. وبالفعل، فإن الصين قادرة على إطعام 23 في المائة من سكان العالم من 7 في المائة من الأراضي الصالحة للزراعة - «عن طريق تكديس نحو ألفي نسمة في كل ميل مربع من الأراضي المزروعة في الوديان والسهول الفيضية»، كما أشار إليه فيربانك[24]. وهي واقعة الآن تحت ضغط شعبي لأن تحقّق شيئا من هذا القبيل - أي توفير أسلوب حياة أفراد الطبقة المتوسطة لمعظم السكان في مناطقها الحضرية.

ولإنجاز هذه المهمة، بنت الصين علاقات مواتية للقوة، سواء في الأراضي المتاخمة لها أو في المناطق البعيدة الغنية بتلك الموارد التي تحتاج إليها لتغذية نموها. ولأن ما يدفع الصين إلى خارج حدودها الرسمية يتعلق بمصلحة وطنية أساسية - وهي البقاء والنمو الاقتصادي - فمن الممكن تعريف الصين على أنها قوة فوق واقعية - über realist. وهي تسعى إلى تطوير وجود غريب، وشبه استعماري، في جميع أنحاء أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، وهي منطقة تحظى بكميات وفيرة من النفط والمعادن، كما ترغب في تأمين الوصول إلى الموانئ في جميع أنحاء بحر الصين الجنوبي والمحيط الهندي المجاور، والتي تربط العالم العربي - الفارسي الغني بالهيدروكربونات(*) بالساحل الصيني. وبالنظر إلى امتلاكها عددا قليلا من الخيارات بشأن هذه المسألة، لا تهتم بكين إلا قليلا بنوع النظام الذي تتعامل معه؛ فهي تتطلب الاستقرار، وليس الفضيلة كما يتصورها الغرب. ولأن بعض هذه الأنظمة - مثل تلك التي تحكم إيران، والسودان،

(*) Hydrocarbons: مركب كيميائي عضوي يشكل في حالته السائلة النفط الخام، وفي حالته الغازية الغاز الطبيعي. [المحرر].

وزيمبابوي - هي إما جاهلة وإما سلطوية، وإما كلتاهما، فإن سعي الصين إلى الموارد في جميع أرجاء العالم يضعها في صراع مع المنحى التبشـيري للولايات المتحدة، وكذلك مع دول مثل الهند وروسـيا، والتي يقترب النفوذ الصيني من مناطق نفوذها الخاصة. أما ما يُغفل في كثير من الأحيان فهو أن هذه البلدان، وغيرها من بلدان جنوب شرق آسيا، وآسـيا الوسطى، والشرق الأوسـط، هي مناطق وقعت تحت سيطرة واحدة أو الأخرى من الأسر الصينية الحاكمة في الماضي.

وحتى السـودان ليسـت بعيدة عن منطقة البحر الأحمر التي زارها أدميرال أسرة مينغ، تشنغ خه Zheng He، في أوائل القرن الخامس عشر. وبالتالي فما تقوم به الصين هو مجرد إعادة توطيد مجالها الاستعماري، بالكاد.

لا تشكل الصين تهديدا وجوديا، كما أن احتمال نشوب حرب بين الولايات المتحدة والصين يتسم بأنه بعيد للغاية. هناك تهديد عسكري من الصين، ولكن كما سنرى، فهو غير مباشر. إن التحدي الذي تمثله الصين هو تهديد جغرافي عند أبسط مستوياته، على الرغـم من القضايـا الحرجة مثل الديون والتجارة، والتغير المناخي. إن المجال الناشـئ لنفـوذ الصين في أوروبا وآسـيا وأفريقيا - أي في «الجزيـرة العالمية» لماكيندر - يتنامى، ليس بالمعنى الإمبريالي للقرن التاسع عشر، ولكن بطريقة أشد دهاء وأكثر ملاءمة لعصر العولمة. وعن طريق تأمين احتياجاتها الاقتصادية فحسب، تحوّل الصين ميزان القوى في النصـف الشرقي من العالم، وهو أمر سـيمثل مصدر قلق عميق للولايات المتحدة. وفي البر والبحر، بدعم من الموقع المواتي للصين على الخريطة، ينطلق نفوذ بكين من وسـط آسيا إلى الشرق الأقصى الروسي، ومن بحر الصين الجنوبي إلى المحيط الهندي. تمثّل الصين قـوة قارية صاعدة، وكما ذكر نابليون في قولته المشـهورة، فإن سياسـات هذه الدول متأصلة في جغرافيتها.

وكـما أشرت إليه، يتسـم موقع الصين على خريطة آسـيا الوسـطى وشرق آسـيا بأفضليتـه. لكن الصـين في القرن الحادي والعشرين، وبطرق أخرى، تتسـم بكونها غير مكتملـة على نحو خطـير. هناك مثال منغوليـا (أو «منغوليا الخارجيـة» من الناحية الجغرافية) إلى الشـمال: وهي فقاعة عملاقة من الأراضي التي تبدو كأنها اقتُطعت من الصين، والتي تحدّ منغوليا من الجنوب والغرب، والشرق. أما منغوليا، التي تمتلك واحدة من أقل الكثافات السـكانية في العالم، فتتعرض للتهديد بفعل آخر الهجرات التاريخية الكـبرى في أوراسـيا - وهي نزوع الحضـارة الصينية في المناطق الحضريـة إلى التحرك

شمالا. لقد أغرقت الصين بالفعل منغوليا الداخلية التي تقع ضمن حدودها بمهاجري الهان الصينيين، في حين يشعر المنغوليون الخارجيون بالقلق من أن يحل عليهم الدور في الغزو الديموغرافي. وبعد أن غزت منغوليا الخارجية بالفعل عن طريق تحريك خط الزراعة شمالا، فقد استعدت الصين لغزو منغوليا عن طريق العولمة.

تتطلع الصين إلى النفط والفحم، واليورانيوم، والمعادن الاستراتيجية الأخرى والأراضي المعشوشبة الغنية والخالية التي تحتويها منطقة تشينغ - مانشو التي كانت تحت سيطرتها في السابق[25]. ويجب أن ينظر إلى بناء الصين لطرق الوصول إلى منغوليا في ضوء تلك الحقيقة. وفي ظل حركتي التصنيع والتوسع الحضري من دون رادع، فإن الصين هي المستهلك الرائد في العالم لكل من الألومنيوم، والنحاس، والفحم، والرصاص، والنيكل، والزنك والقصدير، وخام الحديد، وكلها موجودة في منغوليا بكميات وفيرة. وقد قفزت حصة الصين من استهلاك المعادن في العالم من 10 في المائة إلى 25 في المائة منذ أواخر تسعينيات القرن العشرين. ونتيجة لذلك، فقد سعت شركات التعدين الصينية إلى الاستحواذ على حصص كبيرة من أصول منغوليا الموجودة في باطن الأرض. وبالنظر إلى أن الصين قد ضمت التبت، وماكاو، وهونغ كونغ إلى برها الرئيسي، فقد تمثل منغوليا بالون اختبار للحكم على النوايا الصينية المستقبلية. وفي الواقع، فإن الحدود المنغولية - الصينية، عندما زرتها في العام 2003 بالقرب من بلدة زامين - أود، لم تكن سوى حدود مصطنعة على صحراء غوبي المسطحة والمنحدرة تدريجيا. كانت النقطة الحدودية الصينية عبارة عن قوس مضاء على نحو ساطع، وذي تصميم هندسي جيد يشير إلى الوحدة الصناعية المتراصة والمزدحمة الواقعة إلى الجنوب، والتي تزحف على أراضي السهوب المنغولية القليلة السكان، والتي تضم أعدادا من الخيام المصنوعة من الشعر والأكواخ المصنوعة من خردة الحديد. ومع ذلك، لنأخذ في اعتبارنا أن مثل هذه المزايا الديموغرافية والاقتصادية قد تكون سيفا ذا حدين في حال وقوع اضطرابات عرقية في منغوليا الداخلية الصينية. إن مدى النفوذ الصيني نفسه، من خلال ضم مساحات شاسعة من الأراضي المحيطية الرعوية، يمكن أن يكشف نقاط الضعف التي تتسم بها الدول المتعددة الأعراق. وبالإضافة إلى ذلك، ثمة عامل آخر يمكنه أن يقلب خطط الصين رأسا على عقب، وهو التنمية الاقتصادية السريعة التي انتهجتها منغوليا في الآونة الأخيرة، والتي تجتذب أعدادا كبيرة من مستثمري قطاع الأعمال من جميع أنحاء العالم، مما يحد من نفوذ بكين.

وإلى شمال منغوليا، وكذلك إلى الشمال من مقاطعات منشوريا الصينية الثلاث، يقع الشرق الأقصى الروسي، وهو امتداد لا نهائي من غابات البتولا الواقعة بين بحيرة بايكال وفلاديفوستوك. بيد أن هذا الاتساع المذهل، الذي يبلغ ضعف حجم أوروبا تقريبا، لا يضم سوى عدد ضئيل من السكان الذين لا يزيدون على 6.7 مليون نسمة، والذين سينخفض عددهم إلى 4.5 مليون. بيد أن روسيا، كما رأينا، قد توسعت إلى هذه المنطقة خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، خلال نوبة من الإمبريالية القومية وفي وقت كانت الصين فيه ضعيفة، وهو الآن ماضٍ بعيد. وفي عدد قليل من المناطق الأخرى، تتسم الدولة الروسية بمثل الضعف الذي يتضح في ثلثها الشرقي، وبخاصة ذلك الجزء منها القريب من الصين. ومع ذلك، فعلى الجانب الآخر من الحدود، وفي داخل منشوريا، يعيش مائة مليون صيني، وبالتالي فإن الكثافة السكانية هناك تزيد باثنين وستين ضعف مثيلتها في شرق سيبيريا. ظل المهاجرون الصينيون يتسربون عبر هذه الحدود. وعلى سبيل المثال، ففي مدينة تشيتا Chita السيبيرية الواقعة إلى الشمال من منغوليا، هناك جالية كبيرة ومتزايدة من العرقية الصينية. يمثل اكتساب الموارد الهدف الرئيسي للسياسة الخارجية الصينية، في حين أن الشرق الأقصى لروسيا بديموغرافيته الجرداء يمتلئ باحتياطيات كبيرة من الغاز الطبيعي، والنفط، والأخشاب، والماس، والذهب. وكما كتب ديفيد بلير Blair، وهو مراسل لصحيفة الديلي تلغراف الصادرة في لندن، فإن «روسيا والصين قد تبرمان تحالفا تكتيكيا، لكن هناك بالفعل توترات بينهما بشأن الشرق الأقصى: تشعر موسكو بالقلق من تحرك أعداد كبيرة من المستوطنين الصينيين إلى هذه المنطقة، جالبين في أعقابهم شركات الأخشاب والتعدين»[26]. وهنا، كما هي الحال في منغوليا، ليس الأمر مسألة جيش يقوم بالغزو أو ضم رسمي، لكنه يتعلق بزحف السيطرة الصينية عبر العوامل الديموغرافية والشركات على المنطقة التي كانت أجزاء كبيرة منها تابعة للصين خلال عهد كل من أسرتي مينغ وتشينغ.

وخلال الحرب الباردة، اشتعلت النزاعات الحدودية بين الاتحاد السوفييتي والصين مؤدية إلى اشتباكات عسكرية جرى خلالها حشد مئات الآلاف من القوات في هذه المنطقة الخلفية من سيبيريا - والتي بلغت ثلاثا وخمسين فرقة من الجيش السوفييتي بحلول العام 1969 على الجانب الروسي من نهري آمور وأوسوري. وقد ردت الصين بزعامة ماو عن طريق نشر مليون جندي على جانبها من الحدود،

وكذلـك بناء الملاجئ في المدن الكبرى. وللمسـاعدة في تخفيف الضغط على جبهته الغربيـة، بحيث يمكنه التركيز على الشرق الأقصى، أطلق الزعيم السـوفييتي ليونيد بريجنيف Brezhnev سياسـة الوفاق مع الولايات المتحـدة. ومن جانبها، وجدت الصين نفسـها محاطة تقريبا بالاتحاد السـوفييتي، ودولة منغوليـا التابعة للاتحاد السوفييتي، وفيتنام الشمالية الموالية للاتحاد السوفييتي وعميلتها في لاوس، وكذلك الهنـد الموالية للاتحاد السـوفييتي. أدت كل هذه التوتـرات إلى قطيعة بين الصين والاتحاد السوفييتي، والتي تمكنت إدارة نيكسون Nixon من استغلالها في الانفتاح على الصين خلال العامين 1971 - 1972.

هـل يمكن للجغرافيا أن تؤدي مرة أخرى إلى التباعد بين روسـيا والصين، اللتين يقتـصر تحالفهـما الحالي أساسـا على الجوانـب التكتيكية؟ وهل يمكــن أن يكون المسـتفيد مـن ذلك، كما حدث في المـاضي، هو الولايات المتحـدة؟ على الرغم من أنـه من المنطقـي أن تبني الولايات المتحدة في هذه المـرة، بالنظر إلى تنامي القوة الصينية، شراكة مع روسـيا ضمن تحالف اسـتراتيجي لتحقيق التوازن ضد المملكة الوسـطى، وذلـك لتحويل اهتمام الصين بعيدا عن سلسـلة الجزر الأولى في منطقة المحيـط الهادي والاقتصار على حماية حدودها البريـة. وفي الواقع فإن القدرة على إعاقـة تنامي الوجـود البحري الصيني عـلى مقربة من اليابـان، وكوريا الجنوبية، وتايوان تتطلب ضغوطا أمريكية من قواعدها في آسـيا الوسطى القريبة من الصين، وكذلك امتلاك علاقة ودية بصفة خاصة مع روسيا. يمكن للضغوط البرية أن تساعد الولايات المتحدة على إحباط طموحات الصين في البحر.

وعلى أي حال، فقد يتكشـف الواقع عن سـيناريو آخر، والذي يتسم بأنه أكثر تفاؤلا بكثير، كما إنه مفيد لسـكان شمال منشوريا والشرق الأقصى الروسي أنفسهم. وفي هذا السـيناريو، والذي تعود جذوره إلى فترة ما قبل العام 1917، تؤدي التجارة الصينية والتسـلل الديموغرافي إلى أموريا وأوسـوريا إلى نهضـة اقتصادية في الشرق الأقصى الروسي، والذي تتبناه حكومة أكثر ليبرالية في موسـكو، والتي تستخدم هذه التنمية في تحسين مكانة ميناء فلاديفوستوك باعتباره مركزا عالميا لشمال شرق آسيا. وإذا أردنا استكشـاف هذا السـيناريو أكثر، فسـأفترض ظهور نظام أفضل في كوريا الشـمالية، مما يؤدي إلى خلق منطقة ديناميكية في شـمال شرق آسيا والتي تتسم بحدود مفتوحة وتتمحور حول بحر اليابان.

ليســت الجبهة الصينية مع الجمهوريات السوفييتية السابقة في آسيا الوسطى غير مكتملــة بقدر كونها اعتباطية، وبالتالي فهي غير تاريخية إلى حد ما. تمتد الصين عميقا للغاية في قلب أوراســيا، لكنها لا تمتد بعيدا بما فيه الكفاية. إن شينجيانغ، وهو الإقليم الغربي للصين، يعني «الدومينيون الجديد»، أما ما يهيمن عليه الصينيون فهو تركســتان الشرقية، وهي مساحة جُعلت حتى أكثر بعدا عن المنطقة المركزية الديموغرافية للصين بفعــل وجود صحــراء غوبي بينهما. وعــلى الرغم من أن الصين كانــت دولة بصورة أو بأخرى طوال ثلاثة آلاف ســنة، فلم تُصبح شــينجيانغ جزءا مــن الصين إلا في منتصف القرن الثامن عشر، عندما قام إمبراطور أسرة تشينغ (المانشو)، تشيان لونغ Qianlong، بغزو مســاحات شاســعة من الأراضي الغربية، وبالتالي مضاعفــة حجم الصين وتثبيت «حدود غربية ثابتة» مع روســيا[27]. ومنذ ذلك الحين، كــما كتب الدبلوماسي وكاتب الرحــلات البريطاني الراحل، الســير فيتزروي ماكلين Maclean، فقد اتســم تاريخ تلك المقاطعة بوجود اضطرابات مســتمرة[28]. كانت هناك ثورات، وفترات من الحكم التركي المســتقل حتى أربعينيات القرن العشرين. وفي العام 1949، زحف الشــيوعيون بقيادة مــاو تــسي تونغ إلى شــينجيانغ ودمجوها قسرا مــع بقية أجزاء الصــين. ولكن في فترة لاحقــة، وبالتحديــد في العام 1990، ومــرة أخرى في العــام 2009، كانت هناك أعمال للشــغب وســفك الدماء ضد الحكم الصيني مــن قبل الويغــور ذوي العرقية التركية، والذيــن ينتمون إلى القبائــل التركية التي حكمت منغوليا ما بــين العامين 745 - 840 للميلاد، عندما طردتها قيرغيزســتان إلى تركســتان الشرقية. لا يمثل الويغور، الذين يبلغ عددهــم نحو ثمانية ملايين نســمة، ســوى أقل مــن واحد في المائة من ســكان الصين، لكنهم يشكلون 45 في المائة من سكان شينجيانغ، والتي هي كبرى المقاطعات الصينية، بحجمها الذي يبلغ ضعف حجم ولاية تكســاس. وفي الواقع، يتركز سكان الصين بكثافة في المناطق الساحلية القريبة من المحيط الهادي وفي السهول النهرية والوديان الرسوبية في وســط البــلاد؛ أما الهضاب الجافــة، والتي كثيرا ما تقع على ارتفــاع اثني عشر ألف قدم، في منطقتي الغرب والجنوب الغربي الشاســعتين، فهي خاوية نســبيا، على الرغم من أنهــا تمثل موطن الأقليتــين الويغوريــة والتبتية المناهضتين للصــين. برزت الصين الأصليــة، كما لاحظنا، انطلاقا مــن وديان النهر الأصفر، ونهر الوي على وجه الخصوص، حيث يحتمــل أن الجنس البشري كان موجودا منذ عصور ما قبل التاريخ. ومن هناك، بدأت الصين كمفهوم حضاري في الانتشــار بصورة متناغمة بطول الأنهار الكبرى، والتي

حققت للصينيين الغرض الذي حققته الطرق للرومان. وهنا، في هذه البوتقة التي نشأت فيها الحضارة الصينية، تتقاطع الأرض بفعل «أعداد هائلة من الأنهار، والقنوات، وجداول الري التي تغذي الحدائق المورقة والحقول السوقية»؛ وفي هذا المكان «كانت الفيضانات الموسمية... تُعيد العناصر الغذائية اللازمة للتربة»[29]. وفي أيامنا هذه، فإن الأراضي الصينية تتداخل ببساطة، ليس فقط في هذه المنطقة المركزية النهرية، ولكن في منطقتي آسيا الوسطى التركية والتبت التاريخية بالإضافة إليها، وهذا هو التحدي الخرائطي cartographic الرئيسي الذي تواجهه بكين، حتى على الرغم من اتفاقه بشكل جيد مع التاريخ الإمبريالي للصين. ومن وجهة نظر بكين، ليس هناك بديل للسيطرة الصينية على النجود المجاورة لها. وكما يذكرنا المبعوث الأمريكي إلى الصين في منتصف القرن العشرين أوين لاتيمور Lattimore: «يستمد النهر الأصفر مياهه من ثلوج التبت»، كما «يتدفق في جزء من مساره بالقرب من السهوب المنغولية»[30]. أما التبت، ولكونها تضم منابع النهر الأصفر، وأنهار اليانغتسي، والميكونج، والسالوين، وبراهمابوترا، والسند، وسوتليج، فيمكن اعتبارها أكبر مستودع في العالم للمياه العذبة، على الرغم من أنه من المتوقع أن تعاني الصين نقصا في احتياجاتها من المياه بمقدار 25 في المائة بحلول العام 2030[31]. أما تأمين هذه المناطق، التي تكمن تحت تربتها أيضا مليارات الأطنان من النفط، والغاز الطبيعي، والنحاس، كان يعني توطينها على مر العقود بمهاجري الهان الصينيين من المنطقة المركزية الديموغرافية للبلاد. ويعني ذلك أيضا، في حالة شينجيانغ، مغازلة عدوانية للجمهوريات العرقية التركية المستقلة في آسيا الوسطى، بحيث لا يمتلك الويغور مطلقا قاعدة سياسية وجغرافية خلفية يمكنها منافسة حكم بكين.

في آسيا الوسطى، كما هي الحال في شرق سيبيريا، تتنافس الصين بشراسة مع روسيا على امتلاك منطقة للنفوذ. وقد ازداد حجم التجارة بين الصين وبلدان آسيا الوسطى السوفييتية السابقة من 527 مليون دولار في العام 1992 إلى 259 مليار دولار في العام 2009[32]. لكن وسائل نفوذ بكين الحالية تشمل خطين رئيسيين للأنابيب؛ يحمل أحدهما النفط من بحر قزوين عبر كازاخستان إلى شينجيانغ، وينقل الآخر الغاز الطبيعي من الحدود بين تركمانستان وأوزبكستان، عبر أوزبكستان وكازاخستان، إلى شينجيانغ. ومرة أخرى، فلن يكون من الضروري استخدام أي قوات مع توسّع الصين الكبرى إلى المنطقة المركزية لأوراسيا التي وصفها ماكيندر،

والــذي هو نتيجة الطلب النهم عــلى الطاقة والخطر الداخــلي المتمثل في أقلياتها العرقية الخاصة.

وفي كل هــذا، لا تتجنــب الصين المجازفة. وفي حين تتطلع إلى اســتغلال بعض آخر الاحتياطيــات غير المســتغلة في العالم من النحــاس، والحديد، والذهــب، واليورانيوم، والأحجــار الكريمة، تقــوم الصين بالفعل بتعديــن النحاس في أفغانســتان التي مزقتها الحــرب، إلى الجنــوب مباشرة مــن كابول. وتنظر الصين إلى أفغانســتان (وباكســتان) كقناة آمنة للطرق وخطوط أنابيب الطاقة التي من شــأنها جلب الموارد الطبيعية من موانئ المحيط الهندي، ومن ثم ربط الدول الأعضاء في ما يشــبه اتحاد آســيا الوسطى الذي تســيطر عليه بكين. كانت الصين «نشطة بشكل اســتثنائي» في مجال بناء الطرق التي سترتبط شــينجيانغ بكل من قيرغيزستان، وطاجيكســتان، وأفغانستان. وفي داخل أفغانســتان نفســها، ثمة شركة صينية، وهي مجموعــة شيتســيجو Shistiju الصينية للســكك الحديد، والتي «تتحدى انعدام الأمن» هناك من خلال بناء طريق في مقاطعة وارداك. كما تعمل الصين على تحســين البنى التحتية للســكك الحديد التي تقترب من أفغانســتان من عدة اتجاهات[33]. وهكذا، فمع تحرك الولايات المتحدة لهزيمة تنظيم القاعدة وعناصر حركة طالبان غير المســالمين، فإن موقف الصين الجيوسياسي هو الذي سيتعزز. يتسم الانتشار العســكري بأنه مؤقت؛ في حين يمكن للطرق وخطوط السكك الحديد، وخطوط الأنابيب، أن تبقى إلى الأبد تقريبا.

ومثــل صحراء تكلماكان Taklamakan في مقاطعة شــينجيانغ، فإن هضبة التبت الجبليــة المترامية الأطراف، والغنية بالنحاس وخــام الحديد، تمثل جزءا كبيرا من أراضي الصين، وبالتالي توضّح الرعب الذي تنظر به بكين إلى مسألة الحكم الذاتي للتبت، ناهيك عن اســتقلالها. ومن دون التبت، ســتُصبح الصين أصغر حجما بكثير، كما ستتوسع شبه القــارة الهندية عمليا: ويفسر هذا الوتيرة المتســارعة للمشروعات الصينية لبناء الطرق والسكك الحديد في جميع أنحاء المناطق الجبلية التبتية.

وإذا تقبلنــا باكســتان، بطرقها الصينيــة الصنع ومشروع موانــئ المحيط الهندي، كمنطقة مستقبلية للصين الكبرى، ومن ثم وضع الدول الضعيفة نسبيا في جنوب شرق آسيا ضمن الفئة نفسها، فإن الهند، التي يزيد سكانها على مليار نسمة، ستمثل إسفينا جغرافيا حادا يخترق هذا المجال الكبير من النفوذ الصيني. وتشرح هذه النقطة بوضوح شــديد خريطة الصين الكبرى في كتاب زبيغنيو بريجنســكي المعنون «رقعة الشــطرنج

الكبرى»[34]. وفي الواقع أن الهند والصين - بعدد سكانهما الهائل؛ وتجربتيهما الثقافيتين الغنيتـين، والجليلتين، والشـديدتي الاختلاف؛ وقربهما الجغـرافي، والنزاعات الحدودية غير المحكومـة بينهما - وعلى الرغم مـن علاقتهما التجارية التكامليـة، محتم عليهما بفعل الجغرافيا أن تكونا متنافستين بدرجة معينة. وتعمل قضية التبت على إذكاء هذا التنافس، على الرغم من كونها دالة أساسـية عليه. تستضيف الهند حكومة الدالاي لاما في المنفـى في دارامسـالا، مما يمكنه من إبقاء قضية التبـت على قيد الحياة في محكمة الرأي العام العالمي. وقد كتب دان توينينغ Twining، وهو زميل بارز للشؤون الآسيوية في صنـدوق مارشـال الألماني في واشـنطن، أن التوترات الأخيرة على الحـدود الهندية - الصينية «قد تكون متعلقة بالمخاوف الدائرة في بكين حول خلافة الدالاي لاما»، بالنظر إلى احتمال تسمية الدالاي لاما المقبل خارج الصين - في الحزام الثقافي التبتي الذي يمتد عبر شمال الهند، ونيبال، وبوتان[35]. يشمل هذا الحزام ولاية أروناشال براديش الهندية، التـي تطالب الصين بملكيتها أيضـا، باعتبار أنها تمثل جزءا من هضبـة التبت، وبالتالي خارج الأراضي المنخفضة التي تحدد شـبه القارة الهندية من الناحية الجغرافية، عملت الصين أيضا على توسـيع نفوذها العسكري في نيبال، وهي الدولة العازلة غير المستقرة الواقعة في الهيمالايا، والتي يسـيطر عليهـا الماويون، الأمر الذي واجهتـه الهند بإبرام اتفاقيـة هندية - نيبالية للتعاون الدفاعي. سـوف تلعب الصـين والهند «لعبة كبرى» ليس فقط هنا، ولكن أيضا في بنغلاديش وسري لانكا. إن الضغط الصيني على الهند من الشمال، والذي ساعد على إشعال حرب حدودية بين الهند والصين في العام 1962، يجب أن يستمر كوسيلة للمساعدة في إحكام قبضة بكين على التبت. ويفترض هذا أنه في بيئة الإعلام العالمي المحمومة على نحو متزايد، فإن القضية الرومانسـية للقومية التبتية لن تتبدد، بل قد تزداد حدة.

وبطبيعـة الحال، ففي وسـع المرء أن يجادل في أن امتلاكهـا حدودا مع الكثير من المناطق المضطربة سـوف يقيّد القوة الصينية، وبالتالي فإن الجغرافيا تشكل عائقا أمام الطموحات الصينية. وبعبارة أخرى، فإن الصين مُحاطة تقريبا. ولكن بالنظر إلى التوسع الاقتصادي والديموغرافي للصين خلال العقود الأخيرة، وتوقعاتها المعقولة باستمرار النمو الاقتصـادي، ولـو بمعدلات أبطأ - مـع احتمال حدوث مطبات خطيرة - في المسـتقبل المنظـور، فإن الحدود البرية المتعـددة للصين قد تعمل أيضا كمُضاعف لقوتها: فالصين هـي التي تتعدى عـلى تلك المناطق الأقل دينامية وأقل سـكانا، وليس العكس. يفسر

بعض المؤلفين الأمر بأن وجود دولة فاشلة وأخرى شبه فاشلة على حدود الصين - وهما أفغانستان وباكستان - يشكل خطرا على بكين. وقد زرت تلك الحدود بنفسي، والتي تقع عند أقصى بقاع البلاد وعلى ارتفاعات شاهقة، حيث لا يعيش سوى قليل من السكان. من الممكن أن تتلاشى باكستان تماما ولا تُلاحظ إلا بالكاد من الجانب الصيني من الحدود. بيد أن حدود الصين ليست هي المشكلة: فالمشكلة هي المجتمع الصيني، والذي، مع ازدياد ازدهاره، وفي ظل تباطؤ معدل النمو الاقتصادي في الصين، يثير شبح وقوع اضطرابات سياسية من نوع ما. ومن الممكن للاضطرابات الخطيرة أن تجعل الصين فجأة غير حصينة من جهة أطرافها العرقية.

إن منفذ الصين الأكثر فائدة لطموحاتها يقع باتجاه الدول الضعيفة نسبيا في جنوب شرق آسيا. وهنا، أيضا، تتسم جغرافية الصين بكونها غير مكتملة. سيطرت الصين على فيتنام خلال الألفية الأولى من العصر الحديث. غزت الصين تحت حكم أسرة يوان Yuan (ذوي الأصول المغولية) بورما، وسيام، وفيتنام في أواخر القرن الثالث عشر، أما الهجرة الصينية إلى تايلاند فتعود إلى قرون عديدة. كان عدم وجود سور الصين العظيم في جنوب شرقي الصين ليس ناتجا عن وجود الغابات الوعرة والمنعطفات الجبلية الشاهقة بين الصين وبورما فحسب، ولكن لأن التوسع الصيني على طول هذه الحدود بأسرها من بورما في الغرب إلى فيتنام في الشرق كان أكثر مرونة مما كان عليه في شمال الصين، وفقا للاتيمور[36]. هناك عدد قليل من العوائق الطبيعية التي تفصل الصين عن أجزاء من بورما، وعن تايلاند، ولاوس، وفيتنام. أما العاصمة المحتملة لمحيط من الرخاء على نهر الميكونغ، والتي تربط جميع بلدان الهند الصينية عبر الطرق البرية والنقل النهري، فهي مدينة كونمينغ Kunming في مقاطعة يونان Yunnan الصينية، والتي ستوفر سدودها الكهرباء التي يستهلكها التايلانديون وغيرهم في قمرة القيادة الديموغرافية العالمية هذه.

وهنا في منطقة جنوب شرق آسيا، بسكانها البالغ عددهم 568 مليون نسمة، تلتقي الصين البالغ عدد سكانها 1.3 مليار نسمة مع شبه القارة الهندية التي يبلغ عدد سكانها 1.5 مليار نسمة.

أولا وقبل كل شيء بين دول جنوب شرق آسيا، هناك بورما التي تمتلك أكبر مساحة مترامية الأطراف في المنطقة. بيد أن بورما، أيضا، مثل منغوليا والشرق الأقصى الروسي والمناطق الأخرى على الحدود البرية المصطنعة للصين، هي دولة ضعيفة تمتلك وفرة

من نفس المعــادن، والهيدروكربونات، والموارد الطبيعية الأخــرى التي تحتاجها الصين بشــدة. تبلغ المســافة أقل من خمسمائة ميل بين ســواحل بورما على المحيط الهندي - حيــث تتنافس الصين والهنــد على حقوق التنمية - ومقاطعة يونــان الصينية. ومرة أخرى، نحن نتحدث عن مستقبل لخطوط الأنابيب، وهو في هذه الحالة الغاز الطبيعي الـمُنتج من الحقول البحرية في خليج البنغال، والتي ستوســع متناول الصين إلى ما وراء حدودها القانونية، وصولا إلى تخومها الجغرافية والتاريخية الطبيعية. وســيحدث هذا في جنــوب شرق آســيا التي يمكن أن تؤدي فيهــا دولة تايلاند القوية ســابقا دورا أقل فأقل كمرســاة إقليمية وكعامل متأصل لحفظ التوازن في مواجهة الصين، وذلك بسبب المشــكلات البنيوية العميقة في السياســة التايلاندية: فدور العائلة المالكة كقوة معززة للاســتقرار، مــع ملكها المريض، يتناقص بشــكل متزايد؛ في حــين أن الجيش التايلاندي تعصــف به التحزبات، كما ينقســم المواطنون أيديولوجيا بين طبقة وســطى تعيش في المدن، وطبقة ريفية صاعدة. تبني الصين، التي تفيض بالسيولة النقدية، علاقات ثنائية عسكرية مع تايلاند وغيرها من بلدان جنوب شرق آسيا، حتى مع تناقص أهمية الوجود العسكري الأمريكي نفسه، كما يتضح من التدريبات الإقليمية السنوية مثل كوبرا غولد، بالنســبة إلى الولايات المتحدة، منذ أن وُجهــت الطاقات الأمريكية إلى الحروب الدائرة في الشرق الأوســط. (وبطبيعة الحال، فهذا الوضع يتغير الآن: إذ إن محور اهتمام إدارة أوباما يتجه نحو آســيا، مبتعدا عن الشرق الأوسط، من أجل مواجهة الصين ذات القوة العسكرية المتنامية)(37).

وإذا توغلنا أكثر في جنوب شرق آســيا، فسنجد أن ماليزيا وسنغافورة تتوجهان إلى تحولات ديموقراطية تتســم بالصعوبة في حد ذاتها، مع غياب زعيميهما اللذين اتســم كل منهــما بالبراعــة وبناء الأمة، مهاتير بن محمد ولي كــوان يو Yew. لأن كل الملاويين Malays العرقيين مســلمون، ينزع الإسلام في ماليزيا إلى التشدّد، والنتيجة هي انقسام طائفي بين المجتمعات الملاوية، والصينية، والهندية.

وقد أدى زحف الأســلمة إلى مغادرة سبعين ألف صيني ماليزيا على مدى العقدين الماضيين، على الرغم من تزايد ســقوط البلاد إلى ظل الصين اقتصاديا، حيث تأتي معظم واردات ماليزيــا من هناك. قد لا يحظى الصينيون أنفســهم بشــعبية في ماليزيا، لكن الصــين «الدولة» هي أكبر من أن تمكن مقاومتها. يظهر الخوف الهادئ من الصين بكل وضوح في تصرفات ســنغافورة، وهي دولة - مدينة تحتل موقعا استراتيجيا بالقرب من

أضيق نقطة في مضيق مالاكا. وفي سنغافورة، يهيمن العرق الصيني على العرق المالاوي بنسبة 77 في المائة إلى 14 في المائة. ومع ذلك، تخشى سنغافورة أن تصبح دولة تابعة للصين، ومن ثم فقد طوّرت علاقة طويلة الأمد للتدريبات العسكرية مع تايوان. ومن جانبه، فقد حث رئيس الوزراء الذي تقاعد أخيرا، لي كوان يو، الولايات المتحدة علنا على مواصلة ارتباطاتها العسكرية والديبلوماسية في المنطقة. إن الدرجة التي ستتمكن بها سنغافورة من الحفاظ على استقلالها المتقلقل، مثل الجهود التنموية في منغوليا، ستعمل كمؤشر على النفوذ الإقليمي لبكين. ومن جانبها، تظل إندونيسيا عالقة بين الحاجة إلى وجود البحرية الأمريكية للتحوط ضد الصين وبين الخوف من أن تبدو حليفا صريح للولايات المتحدة، مما سيغضب بقية العالم الإسلامي. إن منطقة التجارة الحرة التي دُشنت أخيرا بين الصين والآسيان ASEAN (رابطة دول جنوب شرق آسيا) توضح العلاقة الرافدية التي تتطور بين الصين وجيرانها الجنوبيين. عملت استراتيجية «فرّق تَسُد» الصينية على جعل كل بلد عضو في رابطة الآسيان يتفاوض مع الصين على حدة، بدلا من التفاوض معها كوحدة واحدة. تستخدم الصين الآسيان باعتبارها سوقا لبضائعها المصنعة ذات القيمة العالية، في حين تستورد المنتجات الزراعية المنخفضة القيمة من جنوب شرق آسيا: وهي علاقة كلاسيكية على النمط الاستعماري[38]. وقد أدى هذا إلى تحقيق فوائض تجارية لدى الصين، كما صارت دول الآسيان أشبه بمكبّ للسلع الصناعية التي تنتجها العمالة الرخيصة نسبيا في المناطق الحضرية من الصين. وفي الواقع، فإن الفجوة التجارية بين الصين والآسيان قد اتسعت بمقدار خمسة أضعاف خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وبنظرة على التاريخ الحديث، سنجد أنه خلال الفترة ما بين عامي 1998 - 2001، فإن الصادرات الماليزية والإندونيسية إلى الصين قد «تضاعفت تقريبا»، وكذلك فعلت صادرات الفلبين إلى الصين ما بين عامي 2003 - 2004. وما بين عامي 2002 و2003، نمت الصادرات المجمّعة لجميع دول جنوب شرق آسيا إلى الصين بنسبة 51.7 في المائة، وبحلول العام 2004 «أصبحت الصين الشريك التجاري الأول في المنطقة، متفوقة على الولايات المتحدة»[39]. ومع ذلك، فللهيمنة الاقتصادية الصينية فائدتها أيضا، من حيث عمل الصين كمحرك للعصرنة في جميع بلدان جنوب شرق آسيا. بيد أن العامل المسبب للتعقيد في هذا السيناريو هو فيتنام، وهي عدو تاريخي للصين وتمتلك جيشا كبيرا وقواعد بحرية تحتل موقعا استراتيجيا يؤهلها لأن تعمل سياجا محتملا ضد الصين، جنبا إلى جنب مع الهند واليابان.

ولكن حتى فيتنام، مع كل مخاوفها بشـأن جارتها الشـمالية التي هي أكبر منها بكثير، لا تمتلك خيارا سـوى التعايش معها. قد تكون الصين بعد في المراحل الأولى من توسعها القاري، وبالتالي فإن سـيطرتها على المناطق الهامشـية لاتزال حديثة العهد. أما حبكة القصة الرئيسـية خلال العقـود القليلة القادمة فقد تكون الطريقـة التي تحققها بها الصين. وإذا أمكنها تحقيق ذلك، فما نوع القوة المهيمنة الإقليمية التي ستكونها الصين؟

إن منغوليا، والشرق الأقصى الروسي، وآسـيا الوسطى، وجنوب شرق آسيا تمثل كلها مناطق طبيعية لنفوذ وتوسـع الصين، على الرغم من أن الحدود السياسـية لن تتغير. لكـن الصين تكون غير مكتملة بأقصى درجة على شـبه الجزيـرة الكورية، حيث يوجد احتمال قوي لتغيّر الحدود السياسـية - وإذا تقبلنـا الحجة القائلة بأنه في عالم مخترق بشـكل متزايد من قبل تقنية المعلومات، فإن النظام الكوري الشـمالي المنعزل لا يمتلك سوى عدد قليل من الاحتمالات الجيدة. يجعل هذا من كوريا الشمالية المحور الحقيقي لشرق آسيا، والذي يمكن أن يؤثر تفكّكه في مصير المنطقة بأسرها لعقود مقبلة. ولكونها ناتئة من منشـوريا، والتي تمثل امتدادا جغرافيا طبيعيا لها، فإن شـبه الجزيرة الكورية تتحكم في كل حركة الملاحة البحرية في شمال شرق الصين، وعلى الأخص، فهي تضم بحر بوهـاي، الذي يحـوي أكبر احتياطي نفطي بحري offshore لـدى الصين. وفي العصور القديمة، غطت مملكة غوغوريو Goguryeo جنوب منشـوريا والثلثين الشـماليين من شـبه الجزيرة الكوريـة. كانت غوغوريو تبجّـل الصين في عهـد أسرة وي، لدرجة أنها خاضت لاحقـا إحدى الحروب معها. وقد وقعت أجزاء من كوريا، خاصة في الشـمال، تحت سـيطرة أسرة هان في العصور القديمة وتحت حُكم أسرة تشـينغ في أوائل العصر الحديث. لن تُقدم الصين أبدا على ضم أي جزء من كوريا، غير أنها لاتزال تشعر بخيبة أمل بسـبب السـيادة الوطنية الكورية. وقد دعمت الصين النظام السـتاليني للرئيس الراحل كيم يونغ - أيل وابنه كيم يونغ - أون، لكنها تطمع في جغرافية كوريا الشمالية - مع منافذها الإضافية على المحيط الهادي قريبا من روسيا - بدرجة أكبر بكثير، وبالتالي فهي تمتلك خططا لشبه الجزيرة تتجاوز عهد «القائد العزيز» المتوفى وابنه، اللذين سببا لبكين قدرا لا نهاية له من الصداع. وفي نهاية المطاف، سـترغب الصين في إرسـال الآلاف الذين تؤويهم من مارقي كوريا الشـمالية لبناء قاعدة سياسـية مواتية لاسـتيلاء بكين الاقتصـادي التدريجي على منطقة نهر تومـين Tumen - حيث تتقاطع الصين، وكوريا الشـمالية، والشرق الأقصى الروسي، والتي تضم عددا مـن الموانئ الجيدة على المحيط

الهـادي المواجه اليابـان. لا بد أن هدف الصين لكوريا الشـمالية يتمثـل في أن تكون دولة فاشـية أكثر حداثة، والتي تتسم بأنها عازلة على النمط الغورباتشيفي بينها وبين ديموقراطية الطبقة الوسطى النابضة بالحياة في كوريا الجنوبية.

لكن حتى الصين لا يمكنها التحكم في مسار الأحداث في كوريا الشمالية.

وفي سـيناريوهات البلدان المنقسمة الأخرى خلال العقود الماضية - فيتنام، وألمانيا، واليمـن - نجد أن قوى الوحـدة الوطنية قد انتصرت في نهاية المطاف. لكن التوحيد لم يتحقق في أي من هذه الحالات من خلال عملية مدروسـة. وبدلا من ذلك، فقد حدث بطريقـة مفاجئة ومضطربة لم تحـترم مصالح جميع الأطراف الرئيسـية المعنية. ومع ذلك، فالأقرب احتمالا أن تسـتفيد الصين في نهايـة المطاف من إعادة توحّد الكوريتين، على الرغم من خوفها من هذه الخطوة. إن دولة كورية كبرى موحدة سـتكون واقعة تحت سـيطرة سيول بشـكل أو بآخر، والصين هي أكبر شريك تجاري لكوريا الجنوبية. ومن شـأن كوريا بعد إعادة توحيدها أن تكون كوريا ذات توجهات قومية، مع تيارات مـن العداء تجاه أكبر جيرانها، وهما الصين واليابان التي سـعت تاريخيا إلى السـيطرة عليهـا واحتلالها. لكن العداء الكوري تجاه اليابان يتسـم بأنـه أكبر من ذلك بكثير، إذ احتلـت اليابان شـبه الجزيرة ما بين عامي 1910 - 1945. (لاتـزال هناك خلافات بين سـيول وطوكيو حول جزيرتي توكدو/ تاكيشيما فيما يسـميه الكوريون البحر الشرقي، في حين يطلق عليه اليابانيون اسـم بحر اليابان). وفي الوقت نفسـه، فإن قوة الجذب الاقتصادية الصينية ستكون أقوى من تلك اليابانية. ومن شأن كوريا الموحدة التي تميل قليـلا إلى الاقـتراب من الصين والابتعـاد عن اليابان أن تكون دولة ذات أسـاس ضئيل أو منعدم لاسـتمرار وجود القوات الأمريكية، والذي سـيؤدي بدوره إلى تصعيد إعادة تسـليح اليابان. وبعبارة أخرى، فمن السـهل أن نتصور المستقبل الكوري ضمن الصين الكبرى، حتى لو كان هناك عدد أقل من القوات الأمريكية في شمال شرق آسيا.

وهكذا، ومع شق الصين طريقها إلى قلب آسيا الوسطى التي وصفها ماكيندر، فمن المرجـح أيضا أن يكون لها تأثير كبير في الأرض المركزية لسـبيكمان، والتي تمثل جنوب شرق آسيا وشبه الجزيرة الكورية جزأين منها.

وعنـد هذه المرحلة مـن التاريخ، تبدو الحدود البرية للصـين مُلوِّحة بالفرص أكثر من تهديدها بالمخاطر. يُعيد هذا إلى الأذهان إشـارة الأستاذ بجامعة شيكاغو، جون ج. ميرشـهايمر، في كتابه المعنون «مأساة سياسـات القوى العظمى»، إلى أن «الدول الأكثر

خطورة في النظام الدولي هي القوى القارية ذات الجيوش الضخمة»[40]. ومع ذلك، فإن هـذا الوصف لا ينطبق على الصين إلا بصورة جزئيـة. صحيح أن الصين تمثل بطريقتها الخاصـة قوة برية متنامية وأن عدد أفراد القوات البرية لجيش التحرير الشـعبي يبلغ نحـو 1.6 مليون جنـدي، وبالتالي فهو الأكبر في العالم، ولكن كـما أشرت إليه من قبل، فباسـتثناء شبه القارة الهندية وشبه الجزيرة الكورية، فما تفعله الصين هو مجرد ملء مسـاحات خاوية أكـثر مما يمثل صداما ضـد دول معادية. وبالإضافـة إلى ذلك، وكما أظهـرت أحداث عامـي 2008 و2009، فلن يكون لدى القـوات البرية لجيش التحرير الشـعبي الصيني قدرة على التدخل السريع لسـنوات مقبلة. وخلال السنوات الأخيرة، كان على جيش التحرير الشـعبي الصيني أن يسـتجيب لحالة الطـوارئ الناجمة عن الزلـزال الـذي ضرب منطقة سيتشـوان، وللاضطرابات العرقية في التبت وشـينجيانغ، ومواجهـة التحديات الأمنية لإقامة دورة الألعـاب الأولمبية في بكين. إن ما أثبتته هذه «التدريبات عبر الإقليمية على التحرك»، كما يسـميها الصينيـون، كان - وفقا لأبراهام دنمارك Denmark من مركز تحليل القوات البحرية - هو قدرة جيش التحرير الشعبي الصيني على تحريك القوات من إحدى النهايتين القاريتين للصين إلى الأخرى، ولكن ليس القدرة على نقل الإمدادات والمعـدات الثقيلة بالسرعة المطلوبة. إن الظروف الوحيدة التـي يمكن تصورهـا لقيام جيش التحرير الشـعبي الصيني بالعبـور إلى خارج حدود الصين سـتتم خلال عملية من سـوء تقدير، في حال نشوب حرب برية أخرى مع الهند، أو لملء الفراغ في حالة انهيار النظام في كوريا الشمالية، والتي قد تجتذب أيضا القوات الأمريكية والكورية الجنوبية فيما قد يمثل أم جميع حالات الطوارئ الإنسـانية. (يتسم سكان كوريا الشمالية بأنهم أكثر فقرا من سكان العراق، مع قدر أقل بكثير من التاريخ الحديـث للحكم الذاتي المسـؤول). وكذلك فإن حقيقة امتلاك الصـين ترف ملء فراغ السـلطة عند حدودها الشاسـعة من دون دعم من القوات البرية القادرة بالفعل على التدخل الخارجي يشـير إلى أن الصين تتسـم على الأرجح بأنها أكثر أمنا على الأرض مما كانت عليه كانت منذ عقود، أو قرون.

وقد انشـغل الديبلوماسـيون الصينيون خلال السـنوات الأخيرة بتسوية النزاعات الحدودية المتبقية مع جمهوريات آسـيا الوسطى ومع جيرانها الآخرين (مع كون الهند اسـتثناء لافتا للنظر)[41]. وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات قد لا تكون متوافقة مع شروط الصين، فإن مجرد حقيقة هذه المقاربة الشـاملة التي انتهجتها بكين تُعد مؤشرا

على توجه اســتراتيجي قوي. وقد وقّعت الصين اتفاقيات عســكرية مع كل من روسيا، وكازاخســتان، وقيرغيزستان، وطاجيكســتان. وفي هذا الســياق، كتب ياكوب جريغل: «إن اســتقرار الحدود البرية الصينية قد يكون واحدا من التغييرات الجيوسياسية الأكثر أهمية في آســيا خلال العقود القليلة الماضية»[42]. لم يعد هناك جيش ســوفييتي يهدد بالزحف على منشوريا مثلما حدث في أثناء الحرب الباردة، وهي فترة ركزت فيها الصين بقيادة ماو تسي تونغ ميزانيتها الدفاعية على جيشها، وأهملت البحار بشدة. ولا يمكن إنكار أهمية هذه الخطوة. فمنذ العصور القديمة، انشغلت الصين بالغزوات البرية من ذلك النوع أو الآخر. من الواضح أنه بُني سور الصين العظيم في القرن الثالث قبل الميلاد لمنــع دخول الغــزاة من القبائل التركية. كان الغزو المغولي من الشــمال هو ما أدى إلى نهايــة غزوات إمبراطورية مينغ في المحيط الهندي في القرن الخامس عشر. ومما يتعلق بذلك أن الوضع الحالي المواتي على الأرض، أكثر من أي متغير آخر، هو الذي سمح للصين بالبــدء في بناء قوة بحرية كبيرة وربما إعادة ترســيخ المحيطين الهــادي والهندي كجزء مــن جغرافيتها. وفي حين أن الدول المدينية الســاحلية والدول الجزريــة، الكبيرة منها والصغيرة، تســعى إلى القوة البحرية كمســألة بديهية، فإن أمة قارية انعزالية تاريخيا مثل الصين تفعل ذلك بصورة جزئية باعتباره ترفا: أي كعلامة على نشوء إمبراطورية من نوع ما. وفي الماضي، فإن الصينيين، لكونهم آمنين في الوديان الخصبة للأنهار، لم يُجبرهم الفقر على النزول إلى البحر مثل الإسكندنافيين الذين عاشوا في أراض باردة ومجدبة. لم يمنح المحيط الهادي الصينيين إلا القليل، وكان في كثير من الجوانب طريقا إلى المجهول، على عكس البحر المتوسط وبحر إيجة، الممتلئين بالجزر ضمن مجال بحري مغلق. وكان الفيلســوف الألماني الذي عاش في أوائل القرن التاســع عشر، جــورج فيلهلم فريدريش هيغــل Hegel، هو الذي أشــار إلى أن الصينيين، على عكــس الأوروبيين، يفتقرون إلى الجرأة لاستكشــاف البحر، إذ كان الصينيون مقيدين بالدورات الزراعية للســهول التي يعيشون عليها[43]. وربما لم يسمع الصينيون بفورموزا (تايوان) حتى القرن الثالث عشر، ولم يستقروا فيها حتى القرن السابع عشر، بعد أن أنشأ التجار البرتغاليون والهولنديون مخافر لهم على الجزيرة[44]. وهكذا، فبمجرد التوجه إلى البحر بالطريقة التي تقوم بها، فإن الصين تستعرض موقعها المواتي على الأرض في قلب آسيا.

تحــرض شرق آســيا الآن القوة البرية الصينيــة ضد القوة البحريــة الأمريكية، مع نقطتين رئيســيتين هما تايوان وشــبه الجزيرة الكورية. وعلى مدى عقود، كانت الصين

مشـغولة على الأرض حيث لم تكن أمريكا تشـتهي الذهاب، ولا سـيما منذ مغامرتها الطائشـة في فيتنام. لاتزال أمريكا تفتقر إلى مثل هذه الشـهية في آسـيا، خصوصا بعد المحن التي تعرضت لها في العراق وأفغانستان. لكن الصين لاتزال في المراحل الأولى من التحول إلى قوة بحرية وكذلك قوة برية: وهذا هو التغيّر الكبير في المنطقة.

مـن الناحية الجغرافية، فإن الصين محظوظة بسـواحلها وبقـرب المياه من جزئها الداخـلي القاري. تهيمن الصين على سـاحل شرق آسـيا المطل عـلى المحيط الهادي في المنطقتين المعتدلة والاستوائية، وكذلك فإن حدودها الجنوبية قريبة إلى المحيط الهندي بما فيه الكفاية للتفكير في ربطه بها خلال السـنوات المقبلة من خلال الطرق وخطوط أنابيـب الطاقة. ولكن في حين تتمتع الصين بموقف طيب عموما بطول حدودها البرية، فإنها تواجه بيئة أكثر عدائية في البحر. لا ترى البحرية الصينية سوى المتاعب والإحباطات فيما تسميه سلسـلة الجزر الأولى، والتي تضم، من الشمال إلى الجنوب، اليابان، وجزر ريوكو Ryuku، وما يسـمى نصف جزيرة شـبه الجزيرة الكورية(*)، وتايوان، والفلبين، وإندونيسيا، وأستراليا. وكل هذه الأماكن، باستثناء أستراليا، هي بؤر غير محتملة للتوتر. وتشمل السـيناريوهات المحتملة انهيار كوريا الشمالية أو اندلاع حرب بين الكوريتين، أو نشـوب صراع مع الولايات المتحدة حول تايوان، وأعـمال القرصنة أو الإرهاب التي تعوق وصول أسـطول الصين التجاري إلى مالاكا والمضائق الإندونيسية الأخرى. وهناك، أيضـا، النزاعات الإقليمية للصين على قاع المحيط المرجـح كونه غنيا بالطاقة في بحري الصين الشرقي والجنوبي. وفي الأول، تمتلك الصين واليابان مطالبات متعارضة بالسـيادة على جزر سينكاكو/ دياويو؛ وفي الأخير، تدّعي الصين وكل من وتايوان، والفلبين، وفيتنام أحقيتها في السـيادة على بعض أو كل من جزر سـبراتلي Spratly Islands، كما تتنازع مع فيتنام على جزر باراسيل. (الصين لديها أيضا صراعات إقليمية خطيرة أخرى في بحر الصين الجنوبي مع ماليزيا وبروناي). وبصفة خاصة في حالة جزر سينكاكو/ دياويو، فإن النزاع لا ينطوي على منفعة تزويد بكين برافعة لإذكاء التوجهات القومية، كلما احتاجت إلى ذلك. ولكن باسـتثناء ذلك، فهناك منظور بحري قاتم للخبراء الاستراتيجيين البحريين الصينيين. إن مرصدها من سـواحلها المطلة على المحيط الهادي إلى سلسلة الجزر هذه يشـبه نوعا من بناء «سـور الصين العظيم في الاتجاه المعاكس»، على حد تعبير أستاذي

(*) half-island of Korean Peninsula.

كلية الحرب البحرية جيمس هولمز Holmes وتوشي يوشيهارا Yoshihara: خط جيد التنظيم من حلفاء الولايات المتحدة، والذي يعادل بناء أبراج للحراسة ممتدة من اليابان إلى أستراليا، وكل منها يحتمل أن يعرقل وصول الصين إلى المحيط الأوسع. وعندما ينظر الخبراء الاستراتيجيون الصينيون إلى هذه الخريطة، فهم يستشيطون غضبا لكون بحريتهم محاصرة بهذا الشكل[45].

كان الحل الصيني عدوانيا بصورة ملحوظة. قد يكون هذا مفاجئا إلى حد ما: ففي العديد من الظروف، يمكن القول بأن القوة البحرية تكون أكثر اعتدالا من القوة البرية. يتمثل العامل المقيّد للقوات البحرية في أنه على الرغم من كل الأسلحة الموجهة بدقة، فهي لا تستطيع بنفسها أن تحتل مساحات كبيرة من الأراضي، وبالتالي يقال إنها لا تمثل خطرا على الحرية. تمتلك القوات البحرية أغراضا متعددة وراء خوضها للقتال، ومنها حماية التجارة. تتلاءم القوة البحرية مع الأمم التي لا تتحمل التعرض للخسائر الفادحة التي ينطوي عليها القتال على الأرض. إن الصين، التي ستُبرز في القرن الحادي والعشرين قوتها الصلبة من خلال قواتها البحرية في المقام الأول، ستكون، بالتالي، خيّرة على طريقة الأمم البحرية والإمبراطوريات الأخرى في التاريخ، مثل البندقية، وبريطانيا العظمى، والولايات المتحدة: بمعنى أنها يجب أن تهتم أساسا بحرية حركة التجارة والحفاظ على سلمية النظام البحري. لكن الصين لم تصل إلى تلك المرحلة من الثقة بالنفس حتى الآن. عندما يتعلق الأمر بالبحر، فهي لاتزال تفكر إقليميا، مثل قوة برية غير آمنة، في محاولة للتوسع في دوائر متحدة المركز بالطريقة التي اقترحها سبيكمان. فالتعبيرات نفسها التي تستخدمها، مثل «سلسلة الجزر الأولى» و«سلسلة الجزر الثانية»، هي مصطلحات إقليمية، والتي، في هذه الحالات، ينظر إليها على أنها توسعات أرخبيلية لمساحة اليابسة الصينية. لقد استوعب الصينيون الفلسفة العدوانية لألفريد ثاير ماهان، من دون أن يصلوا بعد إلى قوة المحيط ذي المياه الزرقاء التي من شأنها أن تجعل الصين قادرة على تطبيق نظرية ماهان.

وفي نوفمبر 2006، قامت غواصة صينية بمطاردة السفينة الحربية الأمريكية كيتي هوك USS Kitty Hawk وظهرت على السطح بصورة استفزازية ضمن مرمى طوربيداتها. وفي نوفمبر 2007، رفض الصينيون دخول المجموعة الضاربة للناقلة كيتي هوك إلى ميناء هونغ كونغ، على الرغم من ارتفاع مستوى البحر وتدهور الطقس (قامت كيتي هوك بزيارة هونغ كونغ في مطلع العام 2010). وفي مارس 2009، تحرّشت

حفنة من السفن الصينية بسفينة المراقبة الأمريكية إمبيكابل USNS Impeccable في أثناء إجراء عملياتها علنا في بحر الصين الجنوبي على بُعد اثني عشر ميلا خارج الحدود الإقليمية للصين. منعت السـفن الصينية مرور السـفينة إمبيكابل وتظاهرت بالهجوم عليها، مما اضطر إمبيكابل إلى الرد بخراطيم المياه. ليسـت هذه تصرفات قوة عظمى، مطمئنة لموقعها من السيادة والتي تُقر بأعراف الأخوّة في البحر وتتشاركها مع القوات البحرية العالمية الأخرى، لكنها تصرفات لا تنجم إلا عن قوة صاعدة ولاتزال غير ناضجة، والمهووسة بالإهانات الإقليمية التي تعرضت لها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

تعكف الصين عـلى تطوير قدرات لا متماثلـة Asymmetric متخصصة في إعاقة الوصـول، والمصممـة لحرمان الولايات المتحـدة من الدخول البحري السـهل إلى بحر الصين الشرقي والمياه السـاحلية الأخرى. وينقسم رأي المحللين حول مدى أهمية ذلك. يعتقـد روبرت س. روس Ross من كلية بوسـطن أنه «حتـى تطوّر الصين قدرتها على الوعي الظرفي situational awareness ومن ثم يمكنها تحليل تقنيات المراقبة المضادة لـدى الولايات المتحدة، فهي لا تمتلك سـوى قدر محدود مـن عمليات إعاقة الوصول الموثوقة». أما أندرو ف. كريبينيفتش Krepinevich، من مركز التقييمات الاستراتيجية وتلـك المتعلقة بالميزانية، فيعتقد أنه مهما كانـت الصعوبات التقنية التي قد تواجهها الصين في الوقت الحالي، فهي في سـبيلها إلى «فنلدة» «Finlandizing» شرق آسـيا[46]. وهكـذا، ففي حين حدثت أسـطولها من المدمرات، كما تمتلـك خططا لامتلاك لحاملة طائـرات أو اثنتين، فلم تقم الصين بشراء منصات بحرية شـاملة. وبدلا من ذلك، بنت الصـين أربع فئات جديدة من الغواصات التي تعمل بالوقود النووي والتقليدي، والتي تتسـم بأنها هجومية وحاملة للصواريخ البالسـتية. ووفقا لسيث كروبسي Cropsey، وهو النائب السـابق لوكيل وزارة البحرية، فسيكون بوسع الصين في المستقبل المنظور حشـد قوة مـن الغواصات أكبر مما تمتلكـه البحرية الأمريكية. ويضيـف أن البحرية الصينيـة تخطط لتثبيت الرادارات الماسـحة للأفـق، والأقمار الاصطناعية، وشـبكات السـونار [فائق الصوت] الماسـحة لقاع البحر، والحرب الإلكترونية في خدمة الصواريخ البالسـتية المضادة للسفن مع مركباتها الراجعة القابلة للمناورة، والتي، جنبا إلى جنب مع أسـطولها المزدهر من الغواصات، سـتمثل جزءا من جهودها لمنع الولايات المتحدة مـن الوصول بحرّية إلى أجزاء كبيرة من غرب المحيط الهادي. هذا ناهيك عن تحسّـن قـدرة الصـين في مجال حرب الألغـام، وامتلاكها المقاتلات النفاثة الروسـية من الجيل

الرابـع، من طرازي 27 - Su و30 - Su، بالإضافـة إلى 1500 صاروخ أرض - جو روسي، والمنتشرة على طول ساحل الصين.

وبالإضافة إلى ذلك، يثبـت الصينيون أنظمتهم التي تعمل بالألياف الضوئية تحت الأرض، كـما يحركون قدراتهم الدفاعية إلى عمـق الجزء الغربي من الصين، والبعيد عن مـدى الصواريخ البحرية - وفي الوقت نفسـه وضع اسـتراتيجية هجومية مصممة لكي تكون قادرة على ضرب الرمز الأعلى للثروة والقوة الأمريكيتين: حاملة الطائرات.

سـتمتلك الصين طائرات مقاتلة من الجيل الخامس مـا بين عامي 2018 و2020، حتى مع تباطؤ الولايات المتحدة أو توقفها عن إنتاج الطائرة F – 22[47]. إن الجغرافيـة الاستراتيجيـة لغـرب المحيـط الهادي تتغير بفضل مشتريات الأسلحة الصينية.

مـن المرجح ألا تكون لـدى الصين نية لمهاجمة حامـلات الطائرات الأمريكية على الإطلاق، فالصين ليست قادرة بعد على تحدي الولايات المتحدة عسكريا بصورة مباشرة. والهدف هنا هو الردع: أي حشد أكبر قدر من القدرات الهجومية والدفاعية على طول سـواحلها، بحيث تضطر البحرية الأمريكية في المستقبل إلى التفكير مرتين وثلاث مرات قبل الدخول بين سلسـلة الجزر الأولى والسـاحل الصيني. وهـذا، بطبيعة الحال، هو جوهر القوة: أن تؤثر في سلوك خصمك. وهكذا تتحقق الصين الكبرى بالمفهوم البحري. إن الصينيـين، مـن خلال حيازاتهم للأسـلحة البحرية والجويـة والصاروخية، يُظهرون نزعـة إقليمية واضحة. أما العلاقة بين الولايـات المتحدة والصين، في اعتقادي، فلن يتم تحديدها إلا عن طريق القضايـا الثنائية والعالمية مثل التجارة، والديون، وتغيّر المناخ، وحقوق الإنسان، لكنها ستتحدد بدرجة أهم بالجغرافيا المحددة للمجال المحتمل لنفوذ الصين في آسيا البحرية.

إن الأمر المحوري لمجال النفوذ هذا هو مستقبل تايوان. توضّح تايوان نقطة أساسية في السياسة العالمية؛ وهي أن المسائل الأخلاقية، التي تُوجد تحت السطح مباشرة، غالبا ما تمثل أسئلة تتعلق بالقوة. كثيرا ما تُناقش قضية تايوان على أسس أخلاقية، على الرغم من أنها دولة ذات سيادة من عدمه يحمل في طياته عواقب جيوسياسية بالغة الأهمية. تتحـدث الصين عن تايوان من حيث تعزيز الميراث الوطني، ومن ثم توحيد الصين من أجل خير جميع أفراد العرقية الصينية. وتتحدث أمريكا عن تايوان من منظور الحفاظ على ديموقراطية نموذجية. لكن تايوان هي شيء آخر: وعلى حد تعبير الجنرال في الجيش الأمريـكي، دوغلاس ماك آرثـر MacArthur، فهي «حاملة طائـرات لا يمكن إغراقها»

والتي تسيطر على النقطة المركزية للساحل المحدّب للصين، والتي يمكن من خلالها لقوة خارجية مثل الولايات المتحدة أن «تُشع» قوتها على طول المحيط الساحلي للصين، وفقا لهولمز ويوشيهارا[48]. وعلى هذا النحو، لا شيء يزعج المخططين البحريين الصينيين بقدر الاستقلال الفعلي للتايوانيين. ومن بين جميع أبراج الحراسة على طول سور الصين العظيم البحري العكسي، فإن تايوان، مجازا، هي الأطول وتحتل الموقع الأكثر مركزية. ومع عودة تايوان إلى أحضان البر الرئيسي للصين، فإن سور الصين العظيم، والقيود البحرية التي يمثلها، سوف ينقطع فجأة. إذا نجحت الصين في ضم تايوان، ليس فقط قواتها البحرية ستكون فجأة في موقع من الأفضلية الاستراتيجية في مواجهة سلسلة الجزر الأولى، بل إن طاقاتها الوطنية، وخاصة تلك العسكرية، ستُحرر بالقدر نفسه من الإثارة بحيث تتجه إلى الخارج من حيث استعراض القوة، إلى درجة ظلت حتى الآن مستحيلة. وعلى الرغم من أن صفة «متعدد الأقطاب» multipolar تُستخدم من دون تحفظ لوصف الوضع العالمي، فإن الاندماج الفعلي لتايوان مع بر الصين الرئيسي هو ما سيمثّل، بالمعنى العسكري، علامة على الظهور الحقيقي لعالم متعدد الأقطاب.

ووفقا لدراسة أجرتها مؤسسة راند RAND في العام 2009، فإن الولايات المتحدة لن تكون قادرة على الدفاع عن تايوان في مواجهة هجوم صيني بحلول العام 2020. تستعد الصين لذلك بالأسلحة الإلكترونية، وبقوات جوية تزخر بطائرات مقاتلة جديدة من الجيل الرابع، وبالصواريخ البالستية التي تُطلق من الغواصات، مع نشر آلاف الصواريخ على البر الرئيسي والتي تستهدف كلا من تايوان والطائرات التايوانية المقاتلة على الأرض. ووفقا للتقرير، سيمكن للصينيين هزيمة الولايات المتحدة مع أو من دون الطائرات F - 22S، ومع أو من دون استخدام قاعدة كادينا الجوية في اليابان، ومع أو من دون استخدام مجموعتيها من حاملات الطائرات الضاربة. ويشدد تقرير مؤسسة راند على أهمية المعركة الجوية. وعلى الرغم من ذلك، فسيتعين على الصينيين إنزال عشرات الآلاف من الجنود عن طريق البحر، كما سيكونون في مرمى غواصات الولايات المتحدة. ومع ذلك فإن التقرير، مع كل محاذيره، يلقي الضوء على اتجاه مقلق، فعلى الرغم من أن الصين لا تبعد سوى بضع مئات من الأميال، فإنه يتعين على الولايات المتحدة أن تنشر قواتها العسكرية المتمركزة على بُعد نصف العالم في بيئة ما بعد الحرب الباردة التي يمكنها أن تعتمد فيها أقل وأقل على استخدام القواعد الأجنبية. صُممت استراتيجية الصين البحرية لمنع الوصول ليس فقط لمنع دخول القوات الأمريكية

بشــكل عام، ولكن لتسهيل عملية غزو تايوان بطريقة معينة. يمكن للجيش الصيني أن يركز على تايوان بصورة أشــد كثافة مما تســتطيع أمريكا، في ضوء كل المسؤوليات التي تضطلع بها الولايات المتحدة في العالم. ولهذا السبب، كانت الورطة الأمريكية في العراق وأفغانستان تمثل أخبارا مدمرة على نحو خاص بالنسبة إلى تايوان.

وعــلى الرغم مــن أن الصين تغلّــف تايوان عســكريا، فهي تفعل ذلــك اقتصاديا واجتماعيــا. تُجري تايوان 30 في المائة من تجارتها مــع الصين، كما يذهب 40 في المائة من صادراتها إلى البر الرئيسي للصين، كما أن هناك 270 رحلة جوية تجارية في الأسبوع بين تايوان والبر الرئيسي للصين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ثلثي الشركات التايوانية، البالغ عددها نحو عشرة آلاف، قد استثمرت أموالها في الصين خلال السنوات الخمس الماضية. هنــاك روابط بريدية مباشرة بين البلدين وجهود مشــتركة لمكافحة الجريمة، مع وفود نصف مليون ســائح من البر الرئيسي إلى الجزيرة ســنويا، و750 ألــف مقيم تايواني في الصين لمدة نصف عام. وبصورة إجمالية، يمر عبر المضيق خمســة ملايين شخص سنويا. ستكون هناك حاجة متناقصة دوما إلى الغزو إذا كانت ثمة حرب اقتصادية خفية يمكنها تحقيق النتيجة نفســها. وهكذا، فقد شهدنا زوال الحركة الانفصالية التايوانية[49]. لكن في حين أن مستقبلا من التكامل الأوسع يبدو محتملا، فإن الطريقة التي سيتم بها ذلك ســتكون محورية بالنسبة إلى سياســات القوى العظمى. فإذا أقدمت الولايات المتحدة ببســاطة على التخــلي عن تايوان، فمــن الممكن أن يؤدي ذلــك إلى تقويض العلاقات الثنائيــة بين أمريكا واليابــان، وكوريا الجنوبية، والفلبين، وأســتراليا، وغيرها من الدول الحليفة في منطقة المحيط الهادي، ناهيك عن علاقاتها مع الهند وحتى بعض الدول في أفريقيا، والتي ســوف تبدأ تشك في التزامات أمريكا الثنائية الأخرى، وبالتالي تشجيعها على الاقتراب من الصين، مما يســمح بظهــور الصين الكبرى ذات الحجم الذي يصل إلى نصــف الكرة الأرضيــة بالفعل. يجب على الولايات المتحــدة وتايوان البحث عن طرق نوعيــة وغير متماثلة خاصة بهما لمواجهة الصين عســكريا. وليس الهدف هنا أن تكونا قادرتــين على هزيمة الصــين في حرب على المضيق، ولكن جعل تكلفة الحرب بالنســبة إلى الصــين باهظة لدرجة لا تُقدم معها عــلى التفكير فيها بجدية، وبالتالي جعل عملية الاســتقلال الفعلي لتايــوان طويلة بما يكفــي لأن تصبح الصين مجتمعــا أكثر ليبرالية، وبالتالي تســتطيع الولايات المتحدة الاســتمرار في الحفاظ على مصداقيتها مع حلفائها. وبهــذه الطريقة، فإن منظومة الدفاع الصاروخي الطبقــي التايوانية وملاجئها المضادة

للطائرات البالغ عددها 350، إلى جانب بيع أسـلحة بقيمة 6.4 مليار دولار إلى تايوان، في صفقة أعلنت عنها إدارة أوباما في أوائل العام 2010، تكتسب أهمية حيوية بالنسبة إلى مكانة أمريكا في أوراسـيا ككل. إن الهدف المتمثل في تغيير الصين محليا ليس مجرد أضغـاث أحـلام. تذكّر أن ملايين السـياح الصينيين الذين يأتون إلى تايوان يشـاهدون برامج النقاش السياسي الحماسية في التلفاز، كما يتسوقون في مكتباتها كُتبا ذات عناوين هدامـة. إن الصين الأكثر انفتاحا هـي بالتأكيد أقرب احتمالا من تلـك القمعية. لكن الصـين الأكـثر ديموقراطية يمكنهـا أن تكون قوة عظمى حتى أكـثر دينامية من الصين القمعيـة، من الناحيتـين الاقتصادية والثقافية، وبالتالي من الناحية العسـكرية. تحت تايوان على الخريطة يلوح بحر الصين الجنوبي، الذي تشكّله قمرة القيادة الديموغرافية للبر الرئيسي لجنوب شرق آسـيا، والفلبين، وإندونيسـيا، مع أسـتراليا على مبعدة منها. يمـر عبر تلك المنطقة ثلث جميع البضائع التجاريـة المنقولة بحرا في العالم ونصف كل احتياجات شـمال شرق آسـيا من الطاقة. وباعتباره البوابة المؤدية إلى المحيط الهندي - وهـو المنطقة الدولية للهيدروكربونات في العالم، حيث تشـارك الصين في العديد من مشروعـات تطويـر الموانئ - فلا بد مـن أن تهيمن البحرية الصينيـة فعليا على بحر الصين الجنوبي عند نقطة ما في المستقبل إذا أريد للصين الكبرى أن تتحقق بالفعل. وفي هـذه المنطقة، هناك تحديات القرصنة، والإسـلام الراديكالي، وصعود البحرية الهندية، إلى جانـب الاختناقـات الجغرافية المزدحمة في مختلف المضايق الإندونيسـية (مالاكا، وسـوندا، ولومبوك، وماكاسـار)، التي لا بد أن تمر عبرها نسبة كبيرة من ناقلات النفط والأسـطول التجاري للصين. وهناك أيضا احتياطيات كبيرة مـن النفط والغاز الطبيعي التـي تأمـل الصين في اسـتغلالها، مما يجعل من بحـر الصين الجنوبي يشـبه «الخليج العـربي الثاني» في بعض التقديرات، كما كتب الأسـتاذان بكليـة الحرب البحرية أندرو إريكسـون Erickson ولايل غولدشـتاين Goldstein[50]. وقد أشـار سبيكمان إلى أنه على مدى التاريخ، انشغلت الدول في «التوسّع المحيطي وعبر - البحري» للسيطرة على البحار المجاورة: سعت اليونان إلى السيطرة على بحر إيجة، وروما على البحر المتوسط، والولايـات المتحـدة على منطقة البحر الكاريبي، والآن، وفقـا لهذا المنطق، الصين على بحـر الصين الجنـوبي[51]. وفي الواقع أن بحر الصين الجنوبي مـع مضيق مالاكا يفتحان المحيط الهندي أمام السيطرة الصينية بنفس الطريقة التي فتحت بها منطقة الكاريبي المحيط الهادي أمام أمريكا عند قناة بنما[52]. ومثلما أطلق سبيكمان على منطقة البحر

الكاريبي الكبرى - من أجل تأكيد أهميتها - اسـم «البحر المتوسط الأمريكي»، يمكن أن نطلق على بحر الصين الجنوبي اسم البحر المتوسط الآسيوي، نظرا إلى أنه سيكون في قلب الجغرافيا السياسية خلال العقود المقبلة[53]. قد تسعى الصين إلى الهيمنة على بحر الصين الجنوبي بطريقة مشابهة للطريقة التي هيمن بها الأمريكان على منطقة البحر الكاريبي، في حين أن أمريكا، التي تلعب الآن وفقا لقواعد مختلفة، سوف تسعى مع حلفائها مثل فيتنام والفلبين للحفاظ على كونه ممرا مائيا دوليا بحق. إن الخوف من الصين - وليس الحب لأمريكا - هو الذي يدفع هانوي إلى الارتماء في أحضان واشنطن. وبالنظر إلى تاريخ حرب فيتنام، قد يبدو محيّرا أن نشهد هذه العلاقة الناشئة بين العدوين السابقين؛ لكن تدبّر في حقيقة أنها من خلال هزيمتها لأمريكا في الحرب على وجه التحديد، فهذا يعني أن فيتنام بلد واثق ولا يشعر بالمرارة، وبالتالي فهو حُر نفسيا في الدخول في تحالف غير معلن مع الولايات المتحدة.

تستخدم الصين جميع أشكال سلطتها الوطنية - السياسية، والديبلوماسية، والاقتصادية، والتجارية، والعسكرية، والديموغرافية - للتوسّع عمليا خارج حدودها البرية والبحرية القانونية من أجل اشتمال حدود الصين الإمبريالية عند أعلى نقاطها التاريخية. لكن هناك تناقضا هنا، فاسمحوا لي بشرحه.

كما أشرت من قبل، فالصين عازمة على إعاقة الوصول إلى بحارها الساحلية. وفي الواقع، فقد أشار الباحثان أندرو إريكسون وديفيد يانغ Yang إلى «احتمالية أن تكون الصين أقرب من أي وقت مضى لأن تُتقن» القدرة على ضرب هدف متحرك في البحر، مثل حاملة طائرات أمريكية، بصاروخ يُطلق من البر، كما يمكن أن تُخطط لإجراء «اختبار يُروج له استراتيجيا في وقت ما من المستقبل»[54]. لكن إعاقة الوصول من دون القدرة على حماية خطوط الاتصالات البحرية الخاصة بها يجعل هجومها على سفينة مقاتلة أمريكية (ناهيك عن خوض حرب بحرية مع الولايات المتحدة) غير ذي جدوى، حيث ستحتفظ البحرية الأمريكية بقدرتها على قطع إمدادات الطاقة الصينية عن طريق اعتراض السفن الصينية في المحيطين الهادي والهندي. وبطبيعة الحال، يسعى الصينيون إلى التأثير في السلوك الأمريكي، بدلا من محاربة الولايات المتحدة مباشرة مُطلقا. ومع ذلك، فلماذا تهتم بإعاقة الوصول إذا لم تكن تنتوي القيام به أبدا؟ وفي هذا السياق، فإن جاكلين نيوماير Newmyer، التي تترأس شركة للاستشارات الدفاعية في مدينة كامبريدج، ماساشوستس، توضح أن بكين لديها «هدف يتمثل في بناء ترتيب

للسلطة المواتية تماما لجمهورية الصين الشعبية، لدرجة أنها لن تكون في الواقع بحاجة إلى استخدام القوة لتأمين مصالحها»[55]. ولذلك، فمثلما تبني تايوان دفاعاتها من دون نية الاشتباك مع الصين، فإن الصين تفعل الشيء نفسه مع الولايات المتحدة. تسعى جميع الأطراف إلى تغيير سلوك الأطراف الأخرى مع تجنّب الحرب. إن المظاهر نفسها لمنظومات الأسلحة الجديدة (إذا كان إريكسون ويانغ على حق)، ناهيك عن إنشاء الموانئ ومراكز التنصت في المحيطين الهادي والهندي، وإضافة إلى الكميات الكبيرة من المساعدات العسكرية التي تزود بها بكين الدول الساحلية الواقعة بين الأراضي الصينية والمحيط الهندي، تمثل كلها استعراضات للقوة التي هي بطبيعتها غير سرية. ومع ذلك، هناك حد صلب ومعقد في بعض ذلك: وعلى سبيل المثال، تبني الصين قاعدة بحرية رئيسية على الطرف الجنوبي لجزيرة هاينان، في القلب تماما من بحر الصين الجنوبي، والتي تضم منشآت تحت الأرض تكفي لإيواء عشرين غواصة تعمل بالطاقة النووية، والديزل، والكهرباء. يتجاوز هذا النشاط التأثير في سلوك الطرف الآخر إلى كونه توكيدا في حد ذاته على سيادة شبيهة بمبدأ مونرو على المياه المحيطة بها. قد يبدو أن الصينيين يعكفون على بناء الصين الكبرى أولا، والتي سيكون في القلب منها بحر الصين الجنوبي وجنوب شرق آسيا، كما يمتلكون في الوقت نفسه خطة طويلة الأمد لامتلاك قوة في المياه الزرقاء، والتي ستجلب معها القدرة على حماية خطوطهم البحرية للاتصال بمنطقة الشرق الأوسط عبر المحيط الهندي، مما يجعل بالتالي التفكير في الدخول في نزاع عسكري مع الولايات المتحدة أقل معقولية من وجهة النظر الصينية. (لا تمتلك الصين دافعا لخوض حرب مع الولايات المتحدة، لكن الدوافع قد تتغير بمرور السنين والعقود، وبالتالي فمن الحصافة أن تعزز قدراتها الجوية والبحرية بدلا من ذلك). وفي الوقت نفسه، فمع انزلاق تايوان إلى الارتماء في أحضان الصين، فمن الأرجح أن يتمكن الجيش الصيني من تحويل اهتمامه إلى المحيط الهندي وحماية الممرات البحرية في نصف الكرة الأرضية الغربي. يتزايد امتلاك الصينيين لحقوق استغلال المواد الخام التي يتعين حمايتها في بلدان أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، على النهاية المقابلة للمحيط الهندي: أسواق النفط في السودان، وأنغولا، ونيجيريا؛ ومناجم خام الحديد في زامبيا والغابون؛ ومناجم النحاس والكوبالت في جمهورية الكونغو الديموقراطية، والتي جار ربطها جميعا بواسطة شبكة من الطرق والسكك الحديد الصينية الصنع، والتي ترتبط بدورها بموانئ المحيطين الأطلسي والهندي[56]. مما لا شك فيه أن السيطرة على خطوط

الاتصال البحرية والوصول إليها هو أكثر أهمية الآن مما كان عليه في عهد ماهان، كما أن التفوق الأمريكي على هذه الطرق قد لا يكون مقدرا له أن يستمر إلى الأبد.

ويعني كل هذا أن لالتزام أمريكا بإطالة أمد الاستقلال الفعلي لتايوان آثار تتجاوز الدفاع عن الجزيرة نفسها، فمستقبل تايوان وكوريا الشمالية يمثل المحاور التي يرتكز عليها توازن القوى في جزء كبير من أوراسيا.

يتسم الوضع الأمني الحالي في آسيا بأنه في الأساس أكثر تعقيدا، وبالتالي أكثر اضطرابا من ذلك الذي كان موجودا في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية. ومع انحسار أحادية القطبية unipolarity الأمريكية، مع التراجع النسبي في حجم القوات البحرية الأمريكية، وبالتزامن مع صعود الاقتصاد الصيني وقدراتها العسكرية (ولو بمعدلات أبطأ من ذي قبل)، فإن تعدد الأقطاب يصبح بصورة متزايدة من ملامح علاقات القوة الآسيوية. يبني الصينيون أحواضا تحت الأرض للغواصات في جزيرة هاينان، كما يعكفون على تطوير الصواريخ المضادة للسفن. ويزود الأمريكان تايوان بنحو 114 من صواريخ باتريوت للدفاع الجوي والعشرات من أنظمة الاتصالات العسكرية المتقدمة. وفي الوقت نفسه، تُدخل اليابان وكوريا الجنوبية تحديثا عابرا للحدود لأسطوليهما - مع التركيز بشكل خاص على الغواصات. وتبني الهند قوات بحرية ضخمة. تمثل هذه كلها أشكالا خاما للسعي إلى ضبط توازن القوى لمصلحة كل منها. ثمة سباق جارٍ للتسلح، والذي يحدث في آسيا. هذا هو العالم الذي ينتظر الولايات المتحدة عندما تكمل انسحابها من كل من العراق وأفغانستان. وفي حين لا توجد دولة واحدة في آسيا لديها أي حافز لخوض الحرب، فإن مخاطر الحوادث التي تقع في البحر والحسابات الخاطئة القاتلة بشأن ميزان القوى - والتي يسعى الجميع إلى تعديلها باستمرار - ستميل إلى التزايد بمرور الوقت ومع تعمّق تعقيد المواجهة العسكرية.

تُحرّض التوترات البحرية بفعل تلك البرية، لأنه كما رأينا، فإن الصين تملأ فراغات من شأنها أن تقودها في الوقت المناسب إلى احتكاك مضطرب مع روسيا والهند. إن المساحات الفارغة على الخريطة تصير مزدحمة بأعداد أكبر من الناس، والطرق وخطوط الأنابيب الاستراتيجية، والسفن التي تمخر عباب المياه، ناهيك عن تداخل الدوائر المتحدة المركز من الصواريخ. تتحول آسيا إلى جغرافية مغلقة، مع أزمة قادمة في «المتسع»، كما وصفها بول بيركن في العام 1999. لقد تواصلت تلك العملية، مما يعني زيادة الاحتكاك.

كيف إذن يمكن للولايات المتحدة أن تبقى متورطة عسكريا، في الوقت نفسه الذي تعمل فيه على الحفاظ على استقرار آسيا؟ كيف يمكن للولايات المتحدة حماية حلفائها، وتقليص حدود الصين الكبرى، وفي الوقت نفسه تجنّب نشوب نزاع مع الصين؟ وبالنسبة إلى الصين، فإذا تمكن اقتصادها من مواصلة النمو، فمن الممكن أن تشكّل قوة أقل تطورا من أي عدو واجهته الولايات المتحدة خلال القرن العشرين. وكذلك فإن كونها موازنا خارجيا كما يقترح البعض قد لا يكون كافيا تماما. يتطلب الحلفاء الرئيسيون مثل اليابان، والهند، وكوريا الجنوبية، وسنغافورة من القوات البحرية والجوية الأمريكية أن تعمل في «تناغم» مع قوات كل منها، كما أخبرني مسؤول هندي رفيع المستوى: أن تكون جزءا لا يتجزأ من المشهدين البري والبحري، بدلا من مجرد المراقبة والترصّد من ثمة أفق بعيد. لكن ما الشكل المحدد الذي يمكن أن يتخذه تناغم القوى في أعالي البحار وفي الأرض المركزية لأوراسيا، التي تصورها سبيكمان؟ هناك خطة جرى تداولها في البنتاغون في العام 2010، والتي ترسم مخططات الخرائط البحرية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين التي تسعى إلى «مجابهة القوة الاستراتيجية الصينية... من دون مواجهة عسكرية مباشرة». وهي تفعل ذلك في حين تتصور تقلص حجم البحرية الأمريكية من العدد الحالي البالغ 280 إلى 250 سفينة، وخفض الإنفاق على الدفاع بنسبة 15 في المائة. وضع الخطة العقيد البحري المتقاعد، بات غاريت Garrett، وهي تستحق الوصف هنا لأنها تُدخل في معادلة الأرض المحيطة لأوراسيا الأهمية الاستراتيجية لأوقيانوسيا، في وقت كان فيه الوجود العسكري الأمريكي ينمو بشكل كبير في جزيرة غوام Guam.

إن مجموعات جزر غوام، وبالاو، وماريانا الشمالية، وسولومون، ومارشال، وكارولين كلها إما أراض أمريكية، أو أعضاء في كومنولث يرتبط باتفاقيات دفاعية مع الولايات المتحدة، أو دول مستقلة قد تكون مفتوحة على مثل هذه الاتفاقيات بسبب فقرها. أتى موقع الولايات المتحدة في أوقيانوسيا Oceania بفضل غنائم الحرب الإسبانية - الأمريكية لعام 1898 ودماء مشاة البحرية التي سالت خلال الحرب العالمية الثانية، والذين حرروا هذه الجزر من اليابانيين. وستتنامى أهمية أوقيانوسيا لأنها قريبة بما فيه الكفاية من شرق آسيا، في حين تقبع إلى الخارج مباشرة من فقاعة إعاقة الوصول المتوسعة بفعل الصواريخ الصينية من طراز DF - 21، وغيرها من الصواريخ المتقدمة المضادة للسفن. بيد أن القواعد المستقبلية في أوقيانوسيا لن تكون استفزازية على نحو

غير ملائم، على عكس القواعد القائمة على «أبراج الحراسة» المتمثلة في اليابان، وكوريا الجنوبية، والفلبين (حتى تسعينيات القرن العشرين). لا تبعد غوام سوى أربع ساعات بالطائرة من كوريا الشمالية، كما لا تبعد بالباخرة عن تايوان سوى يومين. والأهم من ذلك، فباعتبارها ملكية تامة للولايات المتحدة، أو ذات اقتصادات محلية معتمدة وظيفيا على الولايات المتحدة، فبإمكان الولايات المتحدة القيام باستثمارات دفاعية هائلة في بعض هذه الأماكن من دون خوف من أن تتعرض للطرد.

وبالفعل، فإن قاعدة أندرسن الجوية في غوام هي المنصة الأهم في العالم لنشر القوة الصلبة للولايات المتحدة. ولأنها تضم 100 ألف قنبلة وصاروخ و66 مليون غالون من وقود الطائرات في أي وقت بعينه، فهي أكبر محطة استراتيجية لتزويد الطائرات الحربية بالوقود في أي مكان من العالم. وتمتلئ مدرجات الإقلاع والهبوط في القاعدة بأرتال طويلة من طائرات C - 17 غلوب ماستر، وأسراب F/A - 18 هورنتس، وما إليها. وغوام هي أيضا موطن لسرب من الغواصات الأمريكية وقاعدة بحرية متوسعة.

إن جزيرة غوام وجزر ماريانا الشمالية القريبة منها، والتابعة بدورها للولايات المتحدة، تقع تقريبا على مسافة متساوية بين اليابان ومضيق مالاكا.

ثم إن هناك الإمكانية الاستراتيجية للطرف الجنوبي الغربي من أوقيانوسيا، والتي تدل عليها المراسي البعيدة عن شواطئ جزر أشمور وكارتييه التابعة لأستراليا، والساحل المجاور لغرب أستراليا نفسها، ما بين مدينتي داروين إلى بيرث: وكلها تُطل من الأرخبيل الإندونيسي إلى المحيط الهندي، الذي تتزايد أهميته باعتباره المركز المائي للاقتصاد العالمي، حيث يُنقل النفط والغاز الطبيعي عبر عرضه من الشرق الأوسط إلى الطبقات المتوسطة المزدهرة في شرق آسيا. ستستفيد القوات البحرية والجوية الأمريكية، وفقا لخطة غاريت، من جغرافية أوقيانوسيا من أجل تشكيل «وجود إقليمي فعلي» يقع «فوق خط الأفق مباشرة» من الحدود الظاهرية للصين الكبرى وممرات الشحن الرئيسية لأوراسيا[57]. إن «الوجود الإقليمي الفعلي» هو بديل «الأسطول الفعلي» الذي تصوره خبير الاستراتيجية البحرية البريطانية جوليان كوربيت Corbett منذ مائة سنة مضت، وهو عبارة عن مجموعة متفرقة من السفن التي يمكنها أن تتجمع بسرعة لتكوّن أسطولا موحدا عند الضرورة؛ في حين تعكس عبارة «فوق خط الأفق مباشرة» التقاء الموازنة على مبعدة من الشاطئ والمشاركة في تناغم للقوى[58].

إن مفهوم تعزيز الوجود الجوي والبحري الأمريكي في أوقيانوسيا يعكس حلا وسطا بين مقاومة الصين الكبرى بأي ثمن والارتضاء إلى حد ما بالدور المستقبلي للبحرية الصينية في مراقبة سلسلة الجزر الأولى، وفي الوقت نفسه جعل الصين تدفع ثمنا باهظا لأي عدوان عسكري من قبلها على تايوان. ومن دون أن يُذكر مضمونها على الإطلاق، فهذه الرؤية تسمح للمرء بالتفكير في عالم يجري فيه تقليص حجم القواعد «التراثية» الأمريكية الواقعة على سلسلة الجزر الأولى إلى حد ما، على الرغم من تواصل دوريات السفن والطائرات الأمريكية حولها، دخولا وخروجا من فقاعة إعاقة الوصول الصينية. وفي الوقت نفسه، فإن الخطة تتصور حدوث توسع كبير في نشاط البحرية الأمريكية في المحيط الهندي. ولتحقيق ذلك، سيتعين على الولايات المتحدة امتلاك قواعد محصّنة، وفي الوقت نفسه «مواقع تشغيلية» متقشفة واتفاقيات دفاعية مع كل من سنغافورة، وبروناي، وماليزيا؛ وعلى الدول الجزرية المتناثرة حول المحيط الهندي، مثل جزر القمر، وسيشيل، وموريشيوس، والريونيون، وجزر المالديف، وجزر أندامان، والتي يُدار عدد منها بشكل مباشر أو غير مباشر من قبل فرنسا والهند، وكلتاهما من حلفاء الولايات المتحدة.

يعمل هذا على حفظ حرية الملاحة في أوراسيا، جنبا إلى جنب مع تدفق إمدادات الطاقة من دون عوائق. تقلل الخطة من أهمية القواعد الأمريكية الموجودة في اليابان وكوريا الجنوبية، وتنوّع الوجود الأمريكي حول أوقيانوسيا ليحل محل التوتر الساحق في غوام، وبالتالي الابتعاد عن القواعد «الرئيسية» التي يمكن استهدافها بسهولة. وفي عصر السيادة القومية الشائك هذا، الذي تدافع عنه وسائل الإعلام المتقلبة التوجّه، فإن تعزيز القواعد الأجنبية يجعلها غير مهضومة سياسيا بالنسبة إلى السكان المحليين. أما غوام، باعتبارها أراضي تابعة للولايات المتحدة، فهي الاستثناء الذي يثبت القاعدة.شهدت الولايات المتحدة صعوبة بالغة في استخدام قواعدها في تركيا قبل حرب العراق في العام 2003، ولفترة قصيرة في استخدام قواعدها في اليابان في العام 2010. يتسم وجود الجيش الأمريكي في كوريا الجنوبية الآن بأنه أقل جاهزية، الأمر الذي يرجع أساسا إلى أن عدد القوات المتمركزة هناك قد انخفض من 38 ألفا إلى 25 ألف جندي خلال السنوات الأخيرة، في حين ابتعد الجيش الأمريكي إلى حد كبير عن الوجود في وسط العاصمة سيول.

وعلى أي حال، فإن السيطرة الأمريكية على سلسلة الجزر الأولى قد بدأت تتداعى. يتسم السكان المحليون بأنهم أقل قبولا للقواعد الأجنبية، على الرغم من أن صعود الصين يعمل كأمر مُرعب وجذاب على حد سواء، والذي يمكن أن يعقّد العلاقات الثنائية لأمريكا مع حلفائها في المحيط الهادي. لقد حان الوقت لحدوث هذا. وللطرافة، فإن الأزمة التي اعترت العلاقات الأمريكية - اليابانية خلال عامي 2009 - 2010، في ظل حكومة يابانية جديدة عديمة الخبرة، والراغبة في إعادة كتابة قواعد العلاقة الثنائية لمصلحة طوكيو، حتى في الوقت الذي تتحدث فيه عن بناء علاقات أعمق مع الصين، كان ينبغي لها أن تحدث قبل ذلك بسنوات عديدة. إن الموقف الأمريكي المتفوق في المحيط الهادي هو إرث قديم من أيام الحرب العالمية الثانية، والتي تركت الصين، واليابان، والفلبين مدمرة: وكذلك فلا يمكن لتقسيم كوريا، وهو نتيجة لمعركة انتهت منذ ستة عقود، والتي تركت الجيش الأمريكي في وضع مهيمن في شبه الجزيرة، أن يدوم إلى الأبد.

وفي الوقت نفسه، فإن الصين الكبرى تبزغ سياسيا واقتصاديا في وسط شرق آسيا وغرب المحيط الهادي، مع بُعد بحري مُعتبر في بحري الصين الشرقي والجنوبي، بينما تشارك بكين في الوقت نفسه في مشروعات بناء الموانئ وعمليات نقل الأسلحة عبر سواحل المحيط الهندي. ولا يمكن أن يغير هذا التوجّه سوى وقوع اضطرابات سياسية واقتصادية كبرى داخل الصين.

ولكن خارج حدود هذا المجال الجديد للقوة، فمن المرجح أن يكون هناك رتل من السفن الحربية الأمريكية، والتي ربما يقع مقرها الرئيسي في كثير من الحالات في أوقيانوسيا، والتي تعمل في شراكة مع سفن حربية من الهند، واليابان، والديموقراطيات الأخرى، وجميعها لا تستطيع مقاومة الارتماء في أحضان الصينيين، لكنها مضطرة في الوقت نفسه إلى تحقيق التوازن ضدها.

وإذا مُنحت الوقت الكافي، فبوسع القوة البحرية الصينية أن تُصبح أقل إقليمية مع تنامي ثقتها في نفسها، وبالتالي تنجر إلى نفس هيكل التحالف هذا. وبالإضافة إلى ذلك، وكما يشير العالم السياسي روبرت س. روس Ross في مقال له نشر في العام 1999، والذي يتسم بأهميته الحالية كما كان آنذاك، فبسبب الطبيعة الجغرافية الخاصة لشرق آسيا، فإن الصراع بين الصين والولايات المتحدة سيبقى أكثر استقرارا من ذلك الذي دار بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. ويرجع ذلك إلى أن القوة البحرية الأمريكية

خلال الحرب الباردة لم تكن كافية لاحتواء الاتحاد السوفييتي؛ كما احتاج الأمر أيضا إلى نشر قوات برية لا يستهان بها في أوروبا. ولكن حتى في وجود كوريا كبرى مؤيدة للصين على استحياء، فلن تكون هناك حاجة مطلقا إلى وجود قوات برية حول الأرض المحورية لأوراسيا، والتي ستُحرض فيها البحرية الأمريكية ضد البحرية الصينية الأضعف[59]. (إن حجم القوات البرية الأمريكية في اليابان آخذ في التناقص، وهي على أي حال ليست موجهة إلى الصين، بل إلى كوريا الشمالية).

ومع ذلك، أعدنا حقيقة القوة الاقتصادية الصينية - التي تترافق على نحو متزايد مع القوة العسكرية - ستؤدي إلى درجة محورية من التوتر خلال السنوات المقبلة.

وإذا أعدنا صياغة حجة ميرشايمر التي ضمنها كتابه المعنون «مأساة سياسات القوى العظمى»، فإن الولايات المتحدة، بوصفها قوة إقليمية مهيمنة في نصف العالم الغربي، سوف تسعى إلى منع الصين من أن تصبح قوة إقليمية مهيمنة على جزء كبير من نصف العالم الشرقي[60]. قد تكون هذه هي الدراما المميّزة للعصر، والتي لن تفاجئ ماكيندر وسبيكمان.

12

معضلة الهند الجغرافية

«تبــذل الهند محاولات مســتميتة مــن أجــل الهــروب مــن هــذه الجغرافيا ومن هذا التاريخ»

المؤلف

مثلما أصبحــت الولايات المتحــدة والصين قوتين عظميين متنافســتين، فــإن الاتجاه الذي تميل إليه الهند يمكن أن يحدد مســار الجغرافيا السياســية في أوراســيا خــلال القــرن الحادي والعشريــن. وبعبــارة أخرى، فــإن الهند تلوح في الأفــق باعتبارها الدولة المحوريــة المطلقة. وهي، وفقا لســبيكمان، القوة الواضحة للأرض المحورية. أشار ماهان إلى أن الهند، التي تقع في وســط المحيط الهندي الساحلي، تتسم بأهمية محورية لاختراق كل من الشرق الأوسط والصين من اتجــاه البحر. ولكن عــلى الرغم من تفهم الطبقة السياســية الهندية على مستوى حميم للغايــة للوضع التاريخــي والجغــرافي الخاص أمريكا، فــإن الطبقــة السياســية الأمريكية لا تمتلــك مثل هذا الفهم للأوضــاع في الهند. ومع

ذلك، فإذا لم يتمكن الأمريكان من فهم الجغرافيا السياسية الشديدة الاضطراب في الهند، خصوصا فيما يتعلق بباكستان، وأفغانستان، والصين، فسيسيئون إدارة العلاقة بين البلدين بصورة مدمرة. إن تاريخ وجغرافية الهند منذ بدايات العصور القديمة يشكلان الشفرة الوراثية لكيف يبدو العالم من نيودلهي. وسأبدأ شرحي بوضع شبه القارة الهندية في سياق أوراسيا بشكل عام.

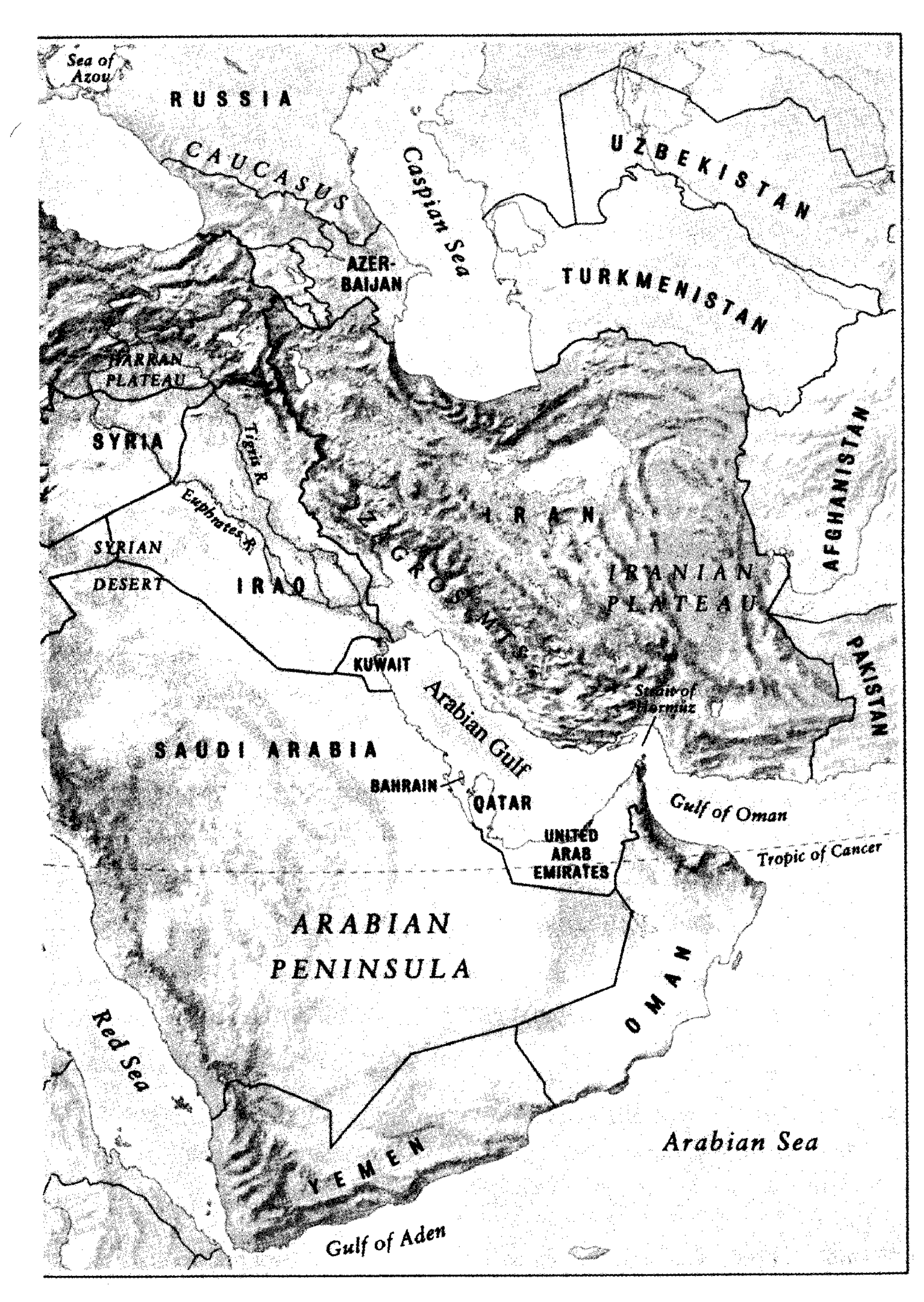
ومع سيادة روسيا على اليابسة في أوراسيا، على الرغم من كونها ذات كثافة سكانية منخفضة، فإن المراكز السكانية الأربعة الكبرى في القارة الفائقة super-continent تقع على أطرافها: أوروبا، والهند، وجنوب شرق آسيا، والصين. إن الحضارتين الصينية والأوروبية، كما كتب الجغرافي جيمس فيرغريف في العام 1917، نمت إلى الخارج بطريقة متناغمة من محاضِن nurseries وادي نهر الوي وحوض البحر المتوسط[1]. كان التطور الحضاري في جنوب شرق آسيا أكثر تطورا: مع قيام شعبي البيو Pyu والمون Mon، يليهما البورميون، والخمير، والسياميون، والفيتناميون، والملايو، وغيرهم- والذين تأثروا بدورهم بالهجرة جنوبا من الصين- بالتجمع على طول وديان الأنهار مثل الإيراوادي Irrawaddy والميكونغ، وكذلك على الجزر مثل جاوة وسومطرة. بيد أن الهند تمثل حالة مختلفة تماما. ومثل الصين، فإن الهند تمتلك قدرا من المنطق الجغرافي، كونها محاطة بالبحر العربي من جهتي الغرب والجنوب الغربي، وخليج البنغال من جهتي الشرق والجنوب الشرقي، وبأدغال بورما الجبلية من ناحية الشرق، وبجبال الهيمالايا وعقدة كاراكورام وهندو كوش من جهتي الشمال والشمال الغربي. وتتسم الهند، مثل الصين أيضا، بأنها شديدة الاتساع داخليا. لكن الهند، وبدرجة أقل من الصين، تفتقر إلى الحضانة المفردة التي توفرها منظمة ديموغرافية مثل وادي نهر الوي والنهر الأصفر السفلي، والذي يمكن من خلاله لدولة ما أن تتوسع إلى الخارج في جميع الاتجاهات.

وحتى وادي نهر الغانج لم يقدم منصة كافية لتوسع دولةٍ هنديةٍ موحدة في الجزء الجنوبي العميق، وشبه الجزيرة من شبه القارة الهندية: إذ إن مختلف أنظمة الأنهار في شبه القارة بالإضافة إلى نهر الغانج- أي أنهار براهمابوترا، ونارمادا، وتونغابهادرا، وكافيري، وجودافاري، وهلم جرا، تسبب في تقسيمها أكثر فأكثر. وعلى سبيل المثال، فإن دلتا نهر الكافير، هي جوهر حياة من يتحدثون لغات الدرافيدان Dravidian،

بقدر أهمية نهر الغانج بالنسبة إلى الشعوب الناطقة بالهندية[2]. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الهند (جنبا إلى جنب مع دول جنوب شرق آسيا) تتسم بأشد الظروف المناخية سخونة وبالمناظر الطبيعية الأكثر وفرة وترفا بين جميع المحاور السكانية لأوراسيا، وبالتالي فإن سكانها، كما يخبرنا فيرغريف، لم تكن لديهم حاجة إلى بناء هياكل سياسية لتنظيم الموارد، على الأقل بالحجم الذي فعله الصينيون والأوروبيون الذين يعيشون في المناطق المعتدلة.

وهذه النقطة الأخيرة، بطبيعة الحال، قد تبدو حتمية أكثر من اللازم، وربما عنصرية بطبيعتها في بساطتها الصارخة: وهي سمة شائعة في الحقبة التي كتب فيها فيرغريف. ومع ذلك، فكما هي الحال مع ماكيندر، الذي كان يخشى «الخطر الأصفر» الذي يُفترض أن تمثله الصين، فإن تحليل فيرغريف الأوسع للهند يتسم بصحته جوهريا، فضلا عن أنه مستبصر.

وعلى الرغم من أنه من الواضح أنها تمثل حضارة فريدة خاصة بها، فإن شبه القارة الهندية، بفعل الأسباب المذكورة أعلاه، كانت طوال فترة طويلة من تاريخها تفتقر إلى الوحدة السياسية التي امتلكتها الصين، إذ إنها كانت مفتوحة أمام سلسلة من الغزوات المركزة الآتية من شمال غرب البلاد، وهي الأقل تحديدا وحماية من بين مناطقها الحدودية، حيث تقترب الهند على نحو خطير من كل من سهوب آسيا الوسطى والهضبة الفارسية - الأفغانية، بحضاراتها الأكثر «فحولة» virile التي تنتمي إلى المناطق المعتدلة[3]. وقد شجّع وقوع هذه الغزوات على مر التاريخ وجود خصوبة مُرحِّبة يعززها هطول الأمطار بمعدلات ليست مفرطة للغاية، والتي تميز سهل البنجاب الذي يرويه نهر السند وروافده عند نفس النقطة المحددة التي تهبط فيها الهضبة الفارسية - الأفغانية إلى مستوى أرضية شبه القارة. وفي الواقع، فقد أدت الغزوات الهادرة وعمليات التسلل من غرب ووسط آسيا إلى تعطيل السعي من أجل الوحدة والاستقرار في شبه القارة الهندية حتى العصر الحديث. وكما قال ماكيندر في واحدة من محاضراته: «في الإمبراطورية البريطانية، ليس هناك سوى حدود برية واحدة ينبغي أن تكون الاستعدادات الحربية فيها جاهزة على الدوام، وهي الحدود الشمالية الغربية للهند»[4].


Sea of Azou
RUSSIA
CAUCASUS
Caspian Sea
UZBEKISTAN
AZER-BAIJAN
TURKMENISTAN
HARRAN PLATEAU
SYRIA
Tigris R.
Euphrates R.
IRAN
AFGHANISTAN
SYRIAN DESERT
IRAQ
ZAGROS MTS.
IRANIAN PLATEAU
KUWAIT
PAKISTAN
Arabian Gulf
Strait of Hormuz
SAUDI ARABIA
BAHRAIN
QATAR
Gulf of Oman
UNITED ARAB EMIRATES
Tropic of Cancer
ARABIAN PENINSULA
OMAN
Red Sea
Arabian Sea
YEMEN
Gulf of Aden


UKRAINE
Black Sea
TUNISIA
GREECE
TURKEY
ANATOLIA
Mediterranean Sea
CYPRUS
LEBANON
ISRAEL
JORDAN
LIBYA
SAHARA DESERT
EGYPT
AFRICA
0
miles
500
0
km
500

مفتاح الخريطة:

Iran	إيران
Iranian plateau	الهضبة الإيرانية
Turmenistan	تورمينستان
Bactria	باكتريا
Uzbekistan	أوزبكستان
Samarkand	سمرقند
Ferghana valley	وادي فرغانة
Afghanistan	أفغانستان
Kandahar	قندهار
Hindu Kush	هندو كوش
North west frontier	منطقة الحدود الشمالية الغربية
(Khyber Pakhtunkhwa)	(خيبر بختون خوا)
Kabul	كابول
Khyber pass	ممر خيبر
Tajikistan	طاجيكستان
Kyrgyzstan	قيرغيزستان
Karakoram range	سلسلة جبال كاراكورام
Siachen glacier	نهر سياتشن الجليدي
Kashmir	كشمير
Aksai chin	أقصاي تشين
Sindh valley	السند وادي
Srinagar Jammu	سريناغار جامو
Ladakh range	سلسلة جبال لاداخ
Indus valley	وادي السند
Baluchistan desert	صحراء بلوشستان
Indus river	نهر السند
Gilgit	جيلجيت
Peshawar	بيشاور
Taxila	تاكسيلا
Islamabad	إسلام أباد
Punjab	البنجاب
Baluchistan	بلوشستان
Himalaya	جبال الهيمالايا

Delhi	دلهي
New Delhi	نيودلهي
Gangetic Plain	سهل الغانج
Ganges r.	نهر الغانج
Thar desert	صحراء ثار
Rajasthan	راجستان
Sindh Valley	وادي السند
Gulf of Oman	خليج عُمان
Gwadar	غوادار
Makran coast	ساحل مكران
Oman	عُمان
Tropic of cancer	مدار السرطان
Karachi	كراتشي
Narmada river	نهر نارمادا
India	الهند
Arabian sea	بحر العرب
Mumbai	مومباي
Godavari river	نهر غودافاري
Eastern Ghats	غاتس الشرقية
Kalinga	كالينغا
Deccan plateau	هضبة الدكن
Western Ghats	غاتس الغربية
Karwar	كاروار
Karnataka	كارناتاكا
Kaveri river	نهر كافيري
Bangalore	بنغالور
Kaveri delta	نهر كافيري دلتا
Palk strait	مضيق بالك
Maldives	جزر المالديف
Indian ocean	المحيط الهندي
Hambantota	هامبانتوتا
Sri lanka	سري لانكا
Miles	أميال
Km	كلم

Indonesia	إندونيسيا
Malaysia	ماليزيا
Bay of Bengal	خليج البنغال
Nepal	نيبال
Ganges river	نهر الغانج
Bihar	بيهار
Kolkata	كولكاتا
Kalinga	كالينغا
Xinjiang	شينجيانغ
China	الصين
Brahmaputra river	نهر براهمابوترا
Bhutan	بوتان
Arunahal Pradesh	براديش أروناهال
Bangladesh	بنغلاديش
Chittagong	شيتاغونغ
Bay of Bengal	خليج البنغال
Thailand	تايلاند
Laos	لاوس
Burma	بورما

إن المزايا والعيوب المصاحبة لسعي الهند إلى مكانة القوى العظمى في أوائل القرن الحادي والعشرين تظل ملازمة لهذه الخصائص الجغرافية. وكما أشار إليه المؤرخ الراحل بيرتون شتاين Stein، فإن خريطة الهند حتى حقبة القرون الوسطى قد امتدت إلى أجزاء من آسيا الوسطى وإيران، وفي الوقت نفسه لم تُظهر سوى ارتباط ضعيف بين وادي السند في الشمال الغربي وبين شبه الجزيرة الهندية إلى الجنوب من نهر الغانج[5]. وكما أن الصين اليوم تمثل تتويجا مظفرا للعلاقة بين أراضي السهوب الداخلية الآسيوية وبين السهول الفيضية للأراضي المركزية الصينية، فقد تأثرت الهند بشدة طوال آلاف السنين بمناطقها الظلّيّة المرتفعة، والتي-على عكس الوضع في الصين- لم تتمكن من السيطرة عليها، وبالتالي ظلت الهند قوة أضعف.

هناك أواصر واضحة بين شـــبه القارة الهندية وجنوب شرق أفغانســـتان بسبب تجاورهما، ومع ذلك فإن العلاقات بين الهند وبين أراضي السهوب في آسيا الوسطى، وبين الهند وبين الهضبة الإيرانية تتســـم بنفس الدرجة من العمق. تشـــاركت الهند وإيران مأزق الوجود على الطرف المتلقي لغزوات المغول من آســـيا الوســـطى، على الرغـــم من أن دينامية الثقافة الإيرانية، التي حرضتها الغزوات منذ زمن الأخمينيين Achaemenids (ما بين القرنين السادس إلى الرابع قبل الميلاد)، أدى إلى أن الفارسية هي اللغة الرســـمية في الهند حتى العام 1835[6]. أما أباطرة الهند من المغول خلال القرنين الســـادس عشر والسابع عشر فقد «صاروا تجســـيدا للثقافة الفارسية»، كما أشـــار إليه المؤرخ الراحل ك.م. بانيـــكار Panikkar، وأضاف «كـــما كانوا يحتفلون بالنوروز [الســـنة الفارســـية الجديدة] باحتفـــالات تقليدية، كما عمّموا اســـتخدام التقنيات الفارسية في الفنون»[7]. وفي الوقت نفسه، فإن الأردية Urdu، وهي اللغة الرسمية في باكســـتان، وهي الدولة التي تحتل الربع الشمالي الغربي من شبه القارة الهندية -تعتمد بشـــدة على الفارســـية (وكذلك العربية) كما تُكتب بحروف عربية معدلة[8]. وبالتالي، فإن الهند هي شبه قارة وطرف حيوي للشرق الأوسط الكبير على حد ســـواء. وهذا هو المكان الذي يمكننا فيه أن نفهم حقا وجهة نظر وليام ماكنيل فيما يتعلق باختلاط وامتزاج الحضارات.

وبالتالي فإن مفتاح فهم الهند يتمثل في إدراك أنه على الرغم من أن الهند تحمل مغزى جغرافيا بارزا باعتبارها شـــبه قارة، فإن حدودها الطبيعية، مع ذلك، تتســـم بضعفها الشـــديد في بعض الأماكن. وكانت النتيجة هي ظهور العديد من الدول عبر التاريخ، والتـــي لا تتوافق مع فكرتنا المكانية عن الهند، والتي تقع في الواقع عبرها. وفي الواقـــع أن الدولة الهندية الحالية لا تتبع حدود شـــبه القارة، وهذا هو جوهر معضلتها: إن باكســـتان، وبنغلاديش، وبدرجة أقل نيبال تقع أيضا داخل شبه القارة، وتشكل تهديدات أمنية كبيرة للهند، مما يسلب الهند من طاقة سياسية حيوية كان في وسعها تسخيرها لاستعراض قوتها في أنحاء كثيرة من أوراسيا.

لا تتمثل القضية في أن الاســـتيطان البشري اعتبارا من بواكير العصور القديمة لم يلتزم بجغرافية شبه القارة؛ بل في أن جغرافية الهند هي نفسها محيّرة، ولا سيما في الشـــمال الغربي، مما يروي قصة مختلفة عما تكشفه الخريطة عند النظر إليها لأول

وهلـــة. للوهلة الأولى، فإن خريطة التضاريس تُظهر طبقة بنية من الجبال والنجود التي ترســم بدقة الحدود الفاصلة بين القفار الباردة في وســط آســيا وبين الأرضية المدارية الخضراء لشــبه القــارة الهندية على طول الحدود الحالية بين أفغانســتان وباكستان. لكن النزول من أفغانستان إلى نهر السند، الذي يتدفق طوليا عبر منتصف باكستان، يتم بشــكل تدريجي للغاية، بحيث احتلت ثقافات متشابهة طوال آلاف الســنين كلا من الهضاب العالية والأراضي المنخفضة، والسهول النهرية، سواء قبائل الهاربان Harappan، أو الكوشان Kushan ،أو تلك التركية، أو المغولية، أو الهندية - الفارســية، أو الهندية - الإســلامية، أو البشــتون، على ســبيل المثال لا الحصر. ولا يشــمل هذا ذكر الصحارى القلوية في مكران Makran وبلوشســتان، والتي توحد إيران مع شــبه القارة الهنديــة؛ أو حركة المرور البحري في العصور الوســطى التي عملت على توحيد جزيرة العرب مع الهند بفضل الرياح الموسمية التي يمكن التنبؤ بهــا. وعلى مــر التاريخ، إن «حــدود الهند Al-Hind»، كما يســميها أندريه وينك Wink، وهو باحث من جنوب آسيا- مرددا الاسم العربي للبلاد- والتي تشمل كامل المنطقة الممتدة من شرق إيران إلى غرب الهند، والتي يسيطر عليها سكان مسلمون ناطقون بالفارســية، ظلت طوال معظم فترات التاريخ تمثل كائنا حيا ثقافيا رشــيقا، ولذلك كان تعريف حدود الدولة صعبا بطبيعته[9].

أن خريطة حضارة الهاربان، وهي شبكة معقدة من العشائر التي كانت تُحكم مركزيــا ما بين أواخر الألفية الرابعة إلى منتصف الألفيــة الثانية قبل الميلاد، تُخبرنا بكثــير في هذا الخصوص. ووفقــا للبقايا الأثريــة، كانت المدينتان الرئيســتان هما مونجودارو Moenjodaro وهارابا Harappa، وكلاهما تقع على ضفاف نهر السند في الســند العليا؛ بحيث كان نهر الســند، بدلا من أن يمثل حدودا تفصل بين شــبه القارة وبين آســيا الداخلية، يشــكّل قلبا حضاريا في حد ذاته. امتدت تخوم منطقة الهاربان من شــمال شرق بلوشستان وحتى كشــمير ثم إلى الجنوب الشرقي وصولا إلى مشــارف كل من دلهي ومومباي، متجنبة صحراء ثار: أي أنها تلامســت تقريبا مع إيران وأفغانستان الحاليتين، وتضمنت جزءا كبيرا من باكستان، وامتدت إلى كل من شــمال غرب وغرب الهند. كانت هذه جغرافيا معقدة للاستيطان الذي التصق بمنطقة تدعم الري الزراعي، على الرغم من إشــارة عديد من الباحثين إلى أن شــبه

القارة الشاسـعة كانت تطوي داخلها عديدا من التقسيمات الفرعية الطبيعية. ربما تسـلل الآريون Aryans من الهضبة الإيرانية، ومن ثم فقد شكلوا - جنبا إلى جنب مع السكان الأصليين لشبه القارة - جزءا من عملية أدت إلى توحيد التنظيم السياسي لسـهل نهر الغانج في شـمال الهند نحو العام 1000 قبل الميلاد. أدى هذا إلى ظهور مجموعـات من الأنظمة الملكية ما بين القرنين الثامن والسـادس قبل الميلاد، والتي بلغـت ذروتها مع إمبراطورية ناندا Nanda Empire، التي امتدت في القرن الرابع قبل الميلاد عبر شـمال الهند وسـهل نهر الغانج من البنجاب إلى البنغال. في العام 321 قبـل الميلاد، خلع شـاندراغوبتا موريا ضانا ناندا وأسـس إمبراطورية الماوريين Mauryan Empire، التي تمكنت من تطويق جزء كبير من شـبه القارة، باسـتثناء أقاصي الجنوب، وبالتالي شـجعت للمـرة الأولى في التاريخ فكرة الهند بوصفها كيانا سياسـيا يتوافق مع جغرافية جنوب آسـيا. يشير بيرتون شـتاين إلى أن دمج عديد مـن الدول المدينية والعشـائر في نظام واحد متماسـك كان، بالإضافة إلى تشـجيع «التجارة القوية» بينها، مسـتوحى جزئيا من التهديد الذي شـكّله الإسكندر الأكبر Alexander the Great، الـذي كان عـلى وشـك غزو وادي نهـر الغانج لولا تمرد جنوده في العام 326 قبل الميلاد. وثمة عامل آخر سـاعد على تحقيق الوحدة، وهو ظهـور أيديولوجيتين جديدتين على مسـتوى شـبه القارة، وهما البوذيـة واليانية Jainism، واللتان «استحوذتا على ولاء الشعوب التجارية»، كما كتب شتاين[10].

اعتنـق ملـوك الماوريـين البوذيـة، وأداروا إمبراطوريتهـم وفقـا لممارسـات الإمبراطوريتـين اليونانيـة والرومانية التي تسربت عبر الطريـق الرئيسي للهجرة في المنطقة المعتدلة المناخ من حوض بحر إيجة وغرب آسـيا إلى الهند. ومع ذلك، فقد احتاج الأمر إلى جميع أشـكال البراعة الإنسـانية للمحافظة على تماسك إمبراطورية الماوريين. ربما كان رئيس وزراء شـاندراغوبتا هو كوتيليا Kautilya، الذي ألّف أحد الكتب السياسـية الكلاسيكية، وهو بعنوان أرثاشاسـترا Arthashastra، أو «كتاب الدولـة«، والذي يُظهر كيف يمكن لأحد الفاتحين أن ينشـئ إمبراطورية عن طريق اسـتغلال العلاقات بين مختلـف الدول المدينية: ينبغي أن تُعتـبر أي دولة مدينية تلامس دولة المرء عدوا، لأنه سـينبغي إخضاعها في سـياق بنـاء الإمبراطورية؛ لكن الدولـة المدينية البعيدة التي تجاور عدوا ينبغـي اعتبارها صديقة. ولأن المحافظة

على تماسك مثل هذه الإمبراطورية شبه القارية الشاسعة كان أمرا يتسم بالصعوبة، فقد آمن كوتيليا بأهمية شبكات التحالف المعقدة، وبالإحسان إلى الشعوب التي يجري غزوها، والتي ينبغي المحافظة على أنماط حياتها[11]. اتسمت إمبراطورية الماوريين باللامركزية، على أقل تقدير، مع وجود منطقة مركزية في السهل الشرقي لنهر الغانج وأربعة مراكز إقليمية في الوقت الذي تولى فيه الحكم أشوكا Ashoka، وهو حفيد شاندراغوبتا: تاكسيلا Taxila في شمال غرب البلاد، والواقعة على مشارف العاصمة الباكستانية إسلام آباد؛ وأوجاين Ujjain على هضبة مالوا في الجزء الغربي من وسط الهند؛ وسوفارانجيري Suvarnagiri في ولاية كارناتاكا الواقعة في جنوب الهند؛ وكالينجا Kalinga على طول خليج البنغال إلى الجنوب من كولكاتا.

كان ذلك إنجازا استثنائيا في هذه المرحلة المبكرة من التاريخ، حيث لم تكن هناك سوى وسائل بدائية للنقل والاتصالات، أن تتمكن إمبراطورية واحدة من تغطية معظم أجزاء شبه القارة الهندية. أظهر الماوريون إمكان توظيف دولة واحدة المنطق الجغرافي على مساحة شاسعة لبعض الوقت. وللأسف، فقد أدى تراجع الماوريين إلى الغزوات المألوفة من جهة الشمال الغربي، لا سيما عبر ممر خيبر: الإغريق في القرن الثاني قبل الميلاد، والسكيثيين في القرن الأول قبل الميلاد. وشجع هذا على إعادة تقسيم شبه القارة إلى أسرات حاكمة إقليمية: سونجا، وبانديان، وكونيندا، وهلم جرا. ظهرت إمبراطورية كوشان Kushan Empire في القرن الأول الميلادي في باكتريا Bactria، حيث يلتقي شمال أفغانستان مع طاجيكستان، وأوزبكستان، كما غزا حكامها الهندو- أوروبيين أراضي وادي فرغانة في القلب الديموغرافي لآسيا الوسطى، ومن ثم ضمها إلى ولاية بيهار في شمال شرق الهند. تتسم خريطة نطاق كوشانا بكونها مذهلة بمفاهيم عالمنا المعاصر، كونها متراكبة بين آسيا الوسطى السوفييتية السابقة، وأفغانستان، وباكستان، وجزء كبير من سهل نهر الغانج في شمال الهند. اتبعت إمبراطورية كوشان أودية الأنهار من ناحية، لكنها تعبر السلاسل الجبلية من ناحية أخرى، بحيث إنها تتبع الجغرافيا وتناقضها في الوقت نفسه. وهي تمثل أيضا درسا مَعْلَميًا من حيث حقيقة أن الحدود الحالية قد لا تشير بالضرورة إلى القول الفصل في التنظيم السياسي لوسط وجنوب آسيا.

أما إمبراطورية غوبتا Gupta Empire (320-550 م) فقد استعادت مظهرا

من مظاهر الوحدة عبر شـبه القارة، إذ حكمتها من نهر السـند في الغرب إلى ولاية البنغـال في الـشرق، ومن جبال الهيمالايا في الشـمال إلى هضبة الدكن في الوسـط، وإن كان معظـم الجنـوب خارج نطاق سـيطرتها، حتى عانى حـكام غوبتا غزوات فرسـان آسيا الوسـطى الذين قادوا جيادهم من الشمال الغربي إلى ولاية راجاستان والسهل الغربي لنهر الغانج. وبالإضافة إلى ذلك، كما هي الحال مع الماوريين، كانت إمبراطورية غوبتا أقل من أن تُعتبر دولة موحدة، بل كانت أشبه بمنظومة واهية من الولايات العميلة التي توحدها التجارة والإجلال لماهية نهر الغانج. كان الجنوب غير التابع لسلطان غوبتا هو مصدر الشكل التعبدي من الديانة الهندوسية الذي انتشر شمالا إلى نهر الغانج. أما جنوب شبه الجزيرة الهندية، الذي يميزه استخدام اللغات الدرافيدية بكثافة، على عكس اللغات السنسكريتية المنطوقة في الشمال، فقد كانت بالفعـل إقليـما في حد ذاتها، إذ كان يفصلها عن الشـمال هضبة الدكن، كما كانت واقعة تحت النفوذ البحري لكل من الشرق الأوسط والهند الصينية. طوال أكثر من سـتة قرون بعد انهيار مملكة غوبتا، الذي تسارع بفعل تدفق قبائل الهون Huns من آسـيا الوسـطى، ظهر تجمّع من الدول الصغيرة، والذي يدل - مرة أخرى- على أن الهند لم تكن تشـبه الصين تماما، مع ميل أكبر لدى الأخيرة إلى المركزية والوحدة السياسـية. وفي الواقـع أن الممالك التـي ظهرت بعـد زوال إمبراطورية غوبتا، على حد تعبير شـتاين، كانت «تتحدد بفعل طرق الإدارة بصورة أقل من تأثرها باللغة، والانتماءات الطائفية، والمعابد»[12]. وما بين القرنين السـابع وحتى السادس عشر، كما كتب فيرغريف، دخلت الشعوب المسلمة إلى الهند تباعا. «جاء العرب أولا، كما كان منطقيا، عن طريق البر بطول السـاحل، وعن طريق الملاحة السـاحلية بطول الشـواطئ، لكنهم لم يتركوا أي أثر دائم؛ وتلاهم الأتراك»، واستطرد قائلا: «من قبل العام 1000 للميلاد بقليل فصاعدا، ومن فوق هضبة إيران ووصولا إلى أفغانسـتان. وفي ما يزيد قليلا على قرن من الزمان، وبدرجة كبيرة بسـبب الخلافات بين الحكام الهندوس، اعتنق السهل الشـمالي بأسره بالحكم الإسلامي[13]». وفي الجنوب، كانت بلوشسـتان والسند جزءا من نفس «الحزام الصحراوي» الذي امتد حتى بلاد ما بين النهرين[14]. وفي الواقع أن شـبه القارة الهندية قد زُرعت في الشرق الأوسط الكبير. ومـن بين أبرز ملامح ذلك أن العرب العراقيين احتلـوا في أوائل القرن الثامن أجزاء

من ولايات السـند، والبنجاب وراجسـتان، وغوجارات. كما أن المحارب المملوكي ذا الأصـول التركية محمود الغزنوي Mahmud of Ghazni، والذي كانت عاصمته في شرق أفغانسـتان، ضم إلى إمبراطوريته التـي قامت في أوائل القرن الحادي عشر ما تمثله في الوقت الحاضر كردسـتان العراق، وإيران، وأفغانسـتان، وباكستان، وشمال غـرب الهند حتى دلهي، كـما أغار على ولاية غوجـارات الجنوبية المطلة على بحر العرب. واعتبارا من القرن الثالث عشر وحتى أوائل القرن السـادس عشر، سيطرت ما تسمى سلطنة دلهي Delhi Sultanate على شمال الهند وأجزاء من الجنوب من قبل أسرة تغلوق Tughluq التركية، ولودي Lodi الأفغانية، وغيرهما من السـلالات الآتية من آسيا الوسطى.

وكان اختيـار هؤلاء الغزاة لدلهي عاصمة للهنـد وظيفة جغرافية إلى حد كبير. وكما كتب فيرغريف، «إن السند ووادي نهر السند، بما في ذلك البنجاب... يمثلان ما يشبه غرفة انتظار للهند، والتي يفضي إليها ممر ضيق نسبيا لا يزيد عرضه على 150 ميـلا، بين الصحراء الهندية وجبـال الهملايا. وعند مخرج هذا الممر تقع دلهي»[15]. وإلى الخلف من دلهي يوجد العالم الإسلامي؛ وأمامها العالم الهندوسي. (بحلول ذلك الوقت، كانت البوذية قد اختفت تقريبا من الهند، أرض مولدها، لتنتقل إلى الشرق والشمال الشرقي). فرضت الجغرافيا ألا يمثل شمال غرب شبه القارة الهندية حدودا ثابتة بقدر كونه سلسـلة لا تنتهي من التدرجات التي تبدأ من إيران وأفغانسـتان، وتنتهـي في دلهـي: وهذا، مرة أخـرى، يثبت صحة فكرة ماكنيـل في تاريخه الكبير للحضارة الإنسانية.

كانـت الإمبراطوريـة المغوليـة Mughal Empire تعبيرا ثقافيا وسياسـيا عن هـذه الحقيقة. يفخر عدد قليل من الإمبراطوريـات الانتقالية eclecticism الفنية والدينية التي امتلكها المغول، الذين حكموا الهند وأجزاء من آسـيا الوسـطى بقوة من أوائل القرن السـادس عـشر إلى العام 1720 (وبعدها تراجعـت الإمبراطورية بسرعـة). والمغـول Mughal هو التعبـير العربي والفارسي مـن المنغول Mongol، والـذي أطلق على جميع المسـلمين الأجانب من الشـمال والشـمال الغربي للهند. تأسسـت الإمبراطورية المغولية التي أسسـها ظاهر الدين محمد بابر Babur، وهو تركي من قومية الشـغطاي Chaghtai، والذي ولـد في العام 1483 في وادي فرغانة

في أوزبكستان الحالية، الذي أمضى فترة شبابه الباكر في محاولة فتح سمرقند، وهي العاصمــة القديمة لتيمورلنك Tamarlane (تيمور). وبعد أن لقي هزيمة حاســمة عــلى يد محمد الشــيباني خان، وهو ســليل جنكيز خــان، توجه بابــر وأتباعه إلى الجنوب واســتولوا على كابول. وانطلاقا من كابول، نزل بابور مع جيشــه من هضبة أفغانســتان العالية لاجتياح ولاية البنجاب. وهكذا، تمكن من بدء غزوه لشبه القارة الهنديــة. كانت الإمبراطورية المغولية أو التيمورية، التي تشــكلت تحت قيادة أكبر الكبــير Akbar the Great، حفيد بابر، تضم طبقة من النبلاء تتألف من الراجبوت Rajputs، والأفغــان، والعــرب، والفرس والأوزبك، والشــغطاي الأتراك، وكذلك من الهنود الســنة، والشــيعة، والهندوس، ناهيك عن عديد مــن المجموعات المتداخلة الأخرى؛ كانت الإمبراطورية عالما عرقيا ودينيا بدأ في جنوب روسيا من جهة الشمال الغربي ومن البحر الأبيض المتوســط إلى الغرب[16]. كانت الهند تشبه كثيرا مستودعا للاتجاهات الثقافية والسياسية الجارية في منطقة الشرق الأوسط المجاورة.

مثّلــت كابول وقندهار امتدادا طبيعيا لهــذه الأسرة الجليلة المنتمية إلى دلهي، ومع ذلك فإن المنطقة ذات الأغلبية الهندوسية في جنوب الهند حول بنغالور الحالية - وهــي العاصمة الهندية لشركات التقنيــة العالية- كان أقل من ذلك بكثير في هذا الصدد. أمــا أورنجزيب Aurangzeb، أو «آسر العــالم»، وهو الحاكم الذي وصلت إمبراطورية المغول في عهده - في أواخر القرن الســابع عشر- إلى ذروة توسعها، فقد كان رجلا مســنا في العقد التاســع مــن عمره، ومع ذلك فقد واصــل قتال متمردي المهراتا Maratha في جنوب وغرب الهند. وقد توفي في العام 1707 في معســكره في هضبة الدكن Deccan، مــن دون أن يتمكن من إخضاعهم. إن هضبة الدكن، على حد تعبير بانيكار «قد مثّلت دائما الســور الأوســط الكبير للهند»، والتي لم تتمكن من إخضاعها شــعوب وادي نهر الغانج. وبالإضافــة إلى ذلك، فإن تدفق الأنهار من الغرب إلى الشرق في شبه القارة المتوجّهة من الشمال إلى الجنوب أدى، كما أوضحت تجربة أورنجزيب، إلى صعوبة تمكّن الشمال من حكم الجنوب حتى مرحلة تاريخية متأخرة نسبيا. وعلى سبيل التبسيط: هناك عدد قليل نسبيا من الوشائج الجغرافية التي تربط بين شمال وجنوب الهند[17]. وفي الواقع أن هذا التمرد الذي استمر لفترة طويلة واســتعصى على الحل في جنوب الهند هو ما قوّض التماسك والروح المعنوية

للنخبة المغولية الشمالية. أدى انشغال أورنجزيب في قتال محاربي المهراتا العظماء- مع تجاهل مشـاكل الإمبراطورية الأخرى- إلى تسـهيل مهمة شركات الهند الشرقية الهولندية، والفرنسـية، والبريطانية لكسـب موطئ قدم على السـاحل، مما أدى في النهاية إلى الحكم البريطاني للهند[18].

وللتأكيـد عـلى أهمية هذه النقطة: تمثل وضع أورنجزيـب في تمركز الحكام في دلهـي منذ مئات السـنين، وكذلك حتى الحكام الأقدم لشـبه القـارة منذ العصور القديمة. ويعني هذا أن المنطقة الشاسـعة التي تشـمل اليوم شـمال الهند وكذلك باكسـتان وجزء كبير من أفغانسـتان كانت خاضعة عادة لنظام واحد للحكم، على الرغم من كون السيادة على جنوب الهند مشكوكا فيها in doubt. وهكذا، فبالنسبة إلى النخب الهندية، كان التفكير ليس في باكسـتان وحدها، بل وفي أفغانستان أيضا، كجزء من أراضي الهند ليس طبيعيا فحسب، بل له ما يبرره تاريخيا. يقع قبر بابر في كابول، وليس في دلهي. ولا يعني هذا أن الهند لديها أطماع توسـعية في أفغانستان، بـل يعني أن نيودلهي تهتم بعمق بهوية من يحكم أفغانسـتان، وترغب في ضمان كون من يمتلكون زمام الأمور هناك يحتفظون بمشاعر ودية تجاه الهند.

كان البريطانيون، على عكس الحكام السـابقين للهنـد، يمثلون قوة بحرية أكثر بكثـير مـن كونهم قوة بريـة. فقد كانت جهـة البحر، كما تجلى ذلك في رئاسـات بومبـاي، ومدراس، وكالكوتا التي صارت نقاطـا محورية لحكمهم، هي الجهة التي تمكن البريطانيـون عبرها من غزو الهند. ونتيجة لذلـك، فقد كان البريطانيون هم الذين، بعد أكثر من ألفي سـنة من الغزوات والهجرات من الغرب والشمال الغربي، مَن اسـتعاد للهند الحقيقة الأساسـية لجغرافيتها بوصفها واقعا سياسـيا: أنها تمثل شبه قارة في الواقع. توضح خريطة الهند في العام 1901 هذه النقطة بصورة رائعة؛ فهي تُظهر مجموعة كبيرة من خطوط السـكك الحديد التي بناها البريطانيون التي تمتد بطريقة شريانية عبر كامل أجزاء شبه القارة - من الحدود الأفغانية إلى مضيق بالك قرب سـيلان في عمق الجنوب، ومن كراتشي في باكسـتان الحالية في الغرب إلى شـيتاجونج في بنغلاديش الحالية في الشرق. سـمحت التكنولوجيا للفضاء الداخلي الشاسع لشبه القارة بأن يتوحد أخيرا تحت نظام حكم واحد، بدلا من تقسيمه بين عدة أنظمة، أو أن تحكمه منظومة ضعيفة من الإمبراطوريات المتحالفة.

صحيح أن المغول (جنبا إلى جنب مع، وإلى حد أقل، مع كونفدرالية المهراتا في بواكير العصر الحديث) كانوا طلائع هذا الإنجاز، بالنظر إلى قدرتهم على إدارة معظم أجزاء شبه القارة الهندية باقتدار. لكن حكم المغول، على الرغم من تألقه، كان يعني غزوا إسلاميا آخر من الشمال الغربي، وهو أمر ظل حتى يومنا هذا موضع ازدراء من قبل القوميين الهندوس. ومع ذلك فقد مارست بريطانيا العظمى، باعتبارها قوة بحرية، دورا محايدا في الدراما التاريخية التي دارت بين الهندوس والمسلمين: وهي دراما يكمن أساسها في الجغرافيا؛ حيث يعيش الجزء الأكبر من مسلمي الهند في كل من الشمال الغربي، وهي الجهة التي أتت منها الأغلبية الساحقة من الغزوات، وفي شرق البنغال- وهي الحد الشرقي الغني زراعيا لسهل الغانج، حيث انتشر الإسلام مع الغزو المغولي- التركي في القرن الثالث عشر الذي ترافق مع إزالة الغابات[19].

ربما وحّد البريطانيون شبه القارة الهندية بواسطة البيروقراطية الحديثة ونظام السكك الحديد في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولكن بفعل الطريقة السريعة والصاخبة لمغادرتهم في العام 1947، فقد ساعدوا على إعادة تقسيمها بطريقة كانت أشد عمقا وأكثر رسمية من أي انشقاق بين الإمبراطوريات السابقة. وفي الماضي، فإن الأماكن التي التقى فيها الهنود - الإغريق Indo-Greeks مع إمبراطورية غوبتا، على سبيل المثال، أو حيث التقت إمبراطورية المغول مع كونفدرالية المهراتا، لم تكن تعني - كما تفعل الحدود اليوم - وجود أسلاك شائكة وحقول ألغام وجوازات سفر مختلفة، ووسائل إعلام دنيئة، والتي تنتمي جميعها إلى مرحلة لاحقة من التكنولوجيا. يمثل الشقاق القائم الآن إجراء قانونيا قاسيا وحضاريا في جزء منه، وأصبح بالتالي ناتجا عن العوامل الجغرافيا بدرجة أقل من كونه نتيجة لقرارات البشر.

وباختصار، فمن المنظور التاريخي للهند، تشكل باكستان أكثر بكثير حتى من عدو مسلح نوويا، أو من دولة راعية للإرهاب، أو جيش تقليدي ضخم يجثم على الحدود. إن باكستان، الواقعة على الشمال الغربي للهند، حيث تلتقي الجبال مع السهول، هي التجسيد الجغرافي والوطني لكل الغزوات الإسلامية التي اجتاحت الهند طوال تاريخها. تلوح باكستان في الجزء الشمالي الغربي من الهند، كما فعلت

جحافل قوات الفتح الإسلامي في الماضي. إن «باكستان»، كما كتب جورج فريدمان Friedman، وهو مؤسس ستراتفور- وهي شركة استخباراتية عالمية، «هي بقايا العصر الحديث للحكم الإسلامي للهند خلال القرون الوسطى»، على الرغم من أن جنوب غرب باكستان هي أول منطقة من شبه القارة يحتلها الغزاة العرب المسلمون القادمون من إيران وجنوب أفغانستان[20].

من المؤكد أن صناع القرار الهنود ليسوا مناهضين للمسلمين، فالهند موطن نحو 154 مليون مسلم، وهي ثالث أكبر جالية مسلمة في العالم بعد إندونيسيا وباكستان نفسها، كما كان للهند ثلاثة رؤساء مسلمين. لكن الهند هي دولة ديموقراطية علمانية بحكم حقيقة سعيها إلى الهروب من المناورات السياسية للدين من أجل رأب الفجوة بين الهندوس والمسلمين في دولة تقطنها أغلبية من الهندوس. أما باكستان، باعتبارها جمهورية إسلامية، ناهيك عن عناصرها الراديكالية، فتمثل بعدة طرق تحديا للأسس الليبرالية التي تقوم عليها الهند.

إن حقيقة كون خوف الهند من باكستان- والعكس بالعكس- هو أمر وجودي لا ينبغي أن تفاجئ أحدا. وبطبيعة الحال، فمن الممكن أن تهزم الهند باكستان في حرب تقليدية، ولكن في معركة نووية، أو في حرب إرهابية، ففي وسع باكستان أن تحقق تعادلا من نوع ما مع الهند. لكن الأمر أبعد من ذلك؛ فليست باكستان وحدها هي ما تمثل، بطريقة ما، تهديدا بهجوم مغولي آخر من دون استعادة المغول الكوزموبوليتية؛ بل هناك أفغانستان أيضا. وكما نعلم، فإن الحدود التي تفصل باكستان عن أفغانستان هي وهمية إلى حد كبير، سواء في الحاضر أو على مر التاريخ. إن الجروف والأخوار الموجودة في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية من باكستان (واسمها الرسمي خيبر بختون خوا Khyber Pakhtunkhwa)، على الحدود مع أفغانستان، يسهل اختراقها تماما. وفي جميع المرات التي عبرت فيها الحدود بين باكستان وأفغانستان، لم أفعل ذلك بصورة قانونية. وحتى عن نقطة حدود خيبر الرسمية، يمر عشرات الآلاف من عرقية البشتون بصفة أسبوعية من دون أن يظهروا أي أوراق ثبوتية، بينما تمر يوميا مئات من شاحنات الجنكل (jingle trucks) من دون أن تخضع للتفتيش. إن عدم وجود إجراءات رسمية يشهد ليس فقط على وجود نفس القبائل على جانبي الحدود، بل وعلى الطبيعة الواهية للدولتين

الأفغانية والباكستانية نفسهما، والذي يرجع السبب الرئيسي له إلى افتقارهما إلى التماسك الجغرافي كقلب للمتصلات الهندو- إسلامية والهندو- فارسية التي يستحيل تقريبا رسم خطوط فاصلة بينها. إن الإمبراطوريات الأخمينية، والكوشانية، والهندو - إغريقية، والغزنوية، والمغولية، وغيرها، قد اعتبرت كلا من أفغانستان وباكستان جزءا من الأراضي التابعة لها، والتي إما هددت الهند أو ضمت أجزاء منها أيضا. ثم هناك تيمور آسيا الوسطى (تيمورلنك) والتركماني نادر شاه الكبير، اللذين تمكنا في عامي 1398 و1739، على الترتيب، من هزيمة دلهي انطلاقا من قواعد إمبراطورية كل منهما الواقعة في إيران، وأفغانستان، وباكستان الحالية.

يمثل هذا تاريخا ثريا لا تعلم به سوى قلة في الغرب، في حين يحفظه أفراد من النخبة الهندية عن ظهر قلب. عندما ينظر الهنود إلى خرائطهم لشبه القارة، فهم ينظرون إلى أفغانستان وباكستان الواقعتين في شمال غرب البلاد، تماما كما ينظرون إلى نيبال وبوتان وبنغلادش في شمال شرق البلاد، باعتبار أنها تمثل جميعها جزءا من النطاق المباشر للنفوذ الهندي، مع النظر إلى إيران، والخليج العربي، والجمهوريات السوفييتية السابقة في آسيا الوسطى، وبورما باعتبارها مناطق ظلية بالغة الأهمية. أما عدم النظر إلى تلك المناطق على هذا النحو، فهو، من وجهة نظر نيودلهي، يمثل تجاهلا لدروس التاريخ والجغرافيا.

وكما يُظهر هذا السجل لتداول الإمبراطوريات جيئة وذهابا على مدار آلاف السنين، فإن أفغانستان والحرب فيها ليست مجرد مشكلة أمنية أخرى ينبغي التعامل معها بالنسبة إلى الهند. إن كون أفغانستان جزءا من آسيا الوسطى لا يوجد إلا في المنظور الغربي؛ أما بالنسبة إلى الهنود فهي جزء من شبه القارة التي ينتمون إليها[21]. إن جغرافية أفغانستان تضفي عليها أهمية محورية ليس فقط باعتبارها الطريق الرئيسي لغزو الهند، سواء بالنسبة إلى الإرهابيين في أيامنا هذه أو للجيوش في الأيام الخوالي، ولكن كقاعدة خلفية بالغة الأهمية الاستراتيجية لباكستان، وهي العدو الرئيسي في الهند.

وفي حين أن منطق الهند الجغرافي ليس مثاليا، فإن باكستان، التي تقع في زاوية قائمة على طريق الغزوات الماضية، في رأي الكثيرين، لا تمتلك أي منطق جغرافي على الإطلاق، في حين لا تمتلك منه أفغانستان سوى النذر اليسير. ويمكن النظر

إلى باكستان بوصفها قطعة اصطناعية من أحجية تمثل إقليما، يقع على جانبي الحدود بين الهضبة الإيرانية - الأفغانية والأراضي المنخفضة من شبه القارة، ويشمل النصف الغربي من ولاية البنجاب، ولكن ليس النصف الشرقي، والذي يوحّد على نحو مجنون بين جبال كاراكورام في الشمال (وهي واحدة من أعلى سلاسل الجبال في العالم) وصحراء مكران التي تبعد عنها ما يقرب من ألف كيلومتر إلى الجنوب وتطل على البحر العربي[22]. في حين ينبغي أن يمثل نهر السند حدودا من نوع ما، فإن الدولة الباكستانية تقع على كلا ضفتيه. تضم باكستان أربع مجموعات عرقية رئيسية، تُضمر كل منها العداء للأخرى وتتمركز كل منها في منطقة محددة: البنجاب في الشمال الشرقي، والسند في جنوب شرق البلاد، وبلوشستان في الجنوب الغربي، والحدود الشمالية الغربية التي يهيمن عليها البشتون. كان من المفترض أن يوفر الإسلام غراء لتوحيد الدولة، لكنه فشل بشكل بارز في هذا الصدد: فعلى الرغم من أن الجماعات الإسلامية في باكستان قد صارت أكثر راديكالية، يستمر البلوش والسنديون في النظر إلى باكستان بوصفها كيانا أجنبيا تسوده قومية البنجاب، مع انجرار البشتون في شمال غرب البلاد إلى السياسات المتأثرة بحركة طالبان في منطقة الحدود الأفغانية - الباكستانية. ومن دون الجيش الذي يسيطر عليه البنجاب، قد تزول باكستان من الوجود - حيث ستُختزل إلى بقية من البنجاب الإسلامية الكبرى، مع بلوشستان شبه الفوضوية وانجذاب السند أقرب إلى المدار الهندي.

تأسست باكستان في العام 1947 على يد محمد علي جناح، وهو مفكر عاش ما بين لندن وبومباي، وابن تاجر من ولاية غوجارات، حيث بنى باكستان على فرضية أيديولوجية هي وجود وطن للمسلمين في شبه القارة الهندية. صحيح أن أغلبية المسلمين في شبه القارة كانوا يعيشون في باكستان الغربية والشرقية (التي أصبحت بنغلاديش في العام 1971)، ومع ذلك فقد ظل عشرات الملايين من المسلمين في الهند نفسها، بحيث أدت التناقضات الجغرافية الباكستانية إلى جعل أيديولوجيتها معيبة بدرجة خطيرة. وبالفعل، فقد أصبح الملايين من المسلمين والهندوس لاجئين عند إنشاء دولة باكستان. وتتمثل الحقيقة في أن تاريخ شبه القارة المملوء بالغزوات والهجرات يمثل مزيجا عرقيا ودينيا وطائفيا مثمرا. وعلى سبيل المثال، فالهند هي مهد عديد من الديانات؛ مثل الهندوسية، والبوذية، واليانية، والسيخية. وقد عاش

الزرادشتيون واليهود والمسيحيون في الهند لمئات وآلاف السنين. تتقبل فلسفة الدولة الهندية هذا الواقع وتحتفي به؛ في حين أن فلسفة الدولة الباكستانية هي أقل اشتمالا بكثير، وهذا هو أحد أسباب كون الهند مستقرة وباكستان ليست كذلك. لكن الجغرافيا تخضع في هذه الحالة لتفسيرات مختلفة.

ومن منظور آخر، تمتلك باكستان منطقا جغرافيا مؤثرا بوصفه وسيطا حضاريا وممرا لطرق التجارة التي تربط شبه القارة بآسيا الوسطى، وقلبا للعالم الهندو-إسلامي؛ ولأنه يصعب تحديد مفهوم أندريه وينك عن «الهند» الهندو- إسلامية من منظور الحدود المعاصرة، فقد يتساءل المرء عن سبب كون باكستان أكثر اصطناعية من الهند؟ وفي نهاية المطاف، كانت لاهور في باكستان رافدا رئيسيا لنجاح حكم المغول بقدر ما كانت دلهي في الهند. إن القلب الجغرافي الحقيقي للسهل الشمالي لشبه القارة الهندية هو إقليم البنجاب، والذي ينقسم بين البلدين، مما لا يجعل أيهما كاملا من وجهة النظر التاريخية أو الجغرافية. ومثلما نما شمال الهند من الصميم الديموغرافي لنهر الغانج، فإن باكستان، كما يمكن القول، تنمو من ذلك الصميم الديموغرافي الحيوي الآخر، وهو نهر السند وروافده. وبهذا المنظور، فإن نهر السند ليس بالمفرّق، بل هو موحِّد[23]. جرى التعبير عن هذه النقطة بأفضل صورة في كتاب اعتزاز إحسان المعنون «القصة الملحمية لنهر السند وإنشاء باكستان». وباعتباره عضوا في حزب الشعب الباكستاني الذي يتخذ من إقليم السند قاعدة له، والذي أسسته الراحلة بي نظير بوتو، يؤكد إحسان أن «الخط الفاصل الحرج» على مر التاريخ في شبه القارة هو «نتوء غورداسبور- كاثياو (-Gurdaspur Kathiawar)»: الذي يمر إلى الجنوب الغربي من غورداسبور في شرق البنجاب إلى كاثياوار في ولاية غوجارات على بحر العرب، وهو الخط التقريبي للحدود الحالية بين الهند وباكستان[24].

ولكن هنا تكمن الإشكالية؛ فخلال فترات قصيرة نسبيا من التاريخ، عندما كانت تلك المناطق من الهند وباكستان موحدة - خلال حكم الماوريين، والمغول، والبريطانيين- لم تكن هناك مشكلة بشأن من يسيطر على طرق التجارة في آسيا الوسطى (أفغانستان وما وراءها). أما خلال الفترة المتبقية من التاريخ، فلم تكن هناك مشكلة أيضا، لأنه في حين أن إمبراطوريات مثل الكوشانا، ومملكة الغزنويين،

وسلطنة دلهي لم تكن تتحكم في الجانب الشرقي لنهر الغانج، فقد كانت تسيطر بالفعل على نهر السند وعلى الجانب الغربي من نهر الغانج، بحيث كانت دلهي ولاهور خاضعتين لنفس نظام الحكم، حتى عندما كانت آسيا الوسطى واقعة أيضا تحت سيطرتهم- ولذلك، مرة أخرى، لم يكن هناك أي صراع. تتسم الجغرافيا السياسية اليوم بأنها فريدة من نوعها تاريخيا، على أي حال: دولة قائمة في وادي نهر السند ودولة قوية على نهر الغانج، واللتان تتقاتلان من أجل السيطرة على الخارج القريب المستقل لآسيا الوسطى.

ولأن نهر السند وروافده، مع إقليم البنجاب في القلب، هو الجوهر الديموغرافي للمنطقة الممتدة من السند إلى جيحون، والتي تشمل باكستان وأفغانستان الحاليتين، فمن غير المناسب من الناحية التاريخية أو الجغرافية، على سبيل المثال، أن تكون مديرية الخدمات الاستخباراتية الباكستانية (ISI)، التي تهيمن عليها قومية البنجاب، ضالعة بقوة في العمليات الإرهابية والتهريبية لشبكة حقاني Haqqani، التي تعمل بدورها في جميع أرجاء منطقة السند إلى جيحون. يتمثل الاهتمام الأكبر للاستخبارات الباكستانية في السيطرة على جنوب وشرق أفغانستان؛ وهذا من شأنه أن يدع المنطقة الواقعة شمال هندو كوش تؤثر في عملية اندماج من نوع ما مع منطقة جيحون وعبر جيحون trans-Oxus في جنوب أوزبكستان وجنوب طاجيكستان – في إحياء لمنطقة باكتريا القديمة. وبالفعل، فمن الممكن لخريطة أوائل القرن الحادي والعشرين أن تبدو وكأنها خريطة قديمة.

أما بالنسبة إلى أفغانستان نفسها - والتي تمتلك أهمية محورية، كما رأينا، بالنسبة إلى حظوظ الهند الجيوسياسية على مر التاريخ - دعونا نتدبر حالتها بمزيد من التفصيل؛ فهي دولة لا يزيد فيها متوسط العمر المتوقع على 44 سنة، مع معدل للإلمام بالقراءة والكتابة يبلغ 28في المائة (وأقل من ذلك بكثير بالنسبة إلى النساء)، وحيث لا يلتحق سوى 9 في المائة من الإناث بالمدارس الثانوية، كما لا يتمتع سوى خمُس السكان بوصول المياه الصالحة للشرب. ومن أصل 182 بلدا، تحتل أفغانستان المرتبة قبل الأخيرة على مؤشر التنمية البشرية للأمم المتحدة. أما العراق، فقد احتلت المرتبة 130 عشية الغزو الأمريكي للعراق في العام 2003، لكن الإلمام بالقراءة والكتابة فيها يبلغ معدلا معقولا قدره 74 في المائة. وفي حين أن

نسبة سكان المناطق الحضرية في العراق تقف عند 77 في المائة، بحيث إن الحد من العنف في بغداد الكبرى خلال فترة زيادة عدد القوات الأمريكية في العام 2007 كان له تأثير مهدئ في البلد بأكمله، فإن نسـبة سـكان المناطق الحضرية في أفغانسـتان تقـف عنـد 30 في المائة فقط: بمعنى أن جهود مكافحة التمـرد في قرية أو منطقة بعينها قد لا يكون لها أي تأثير في الأخرى.

وفي حين أن بلاد ما بين النهرين، التي تتسم بوجود مجموعات حضرية كبيرة على طبيعة مسـطحة، توفر ظروفا مواتية لقوات الاحتلال العسـكرية؛ فإن أفغانستان، مـن الناحية الجغرافية، لا تكاد تُعد بلدا على الإطلاق، إذ تمزقها السلاسـل الجبلية الشـبيهة بالكاتدرائيات داخل أراضيها، والتي تسـاعد على تقرير الانقسـامات بين البشـتون والطاجيك وغيرهم من الأقليات، على الرغم من وجود عدد قليل نسـبيا من العوائق الطبيعية التي تفصل أفغانستان عن باكستان، أو أفغانستان عن إيران. وعند النظر إلى خريطة التضاريس، وملاحظة أن أكثر من نصف البشـتون في العالم، والبالغ عددهم 42 مليونا، يعيشـون داخل باكسـتان، يمكن للمـرء أن يتصور بلدا اسمه بشتونسـتان Pushtunistan، والذي يقع بين جبال هندو كوش ونهر السند، وبالتالي يتراكب على الدولتين الأفغانية والباكستانية.

لم تظهر أفغانسـتان فقط كبلد من نوع مـا إلا في منتصف القرن الثامن عشر، عندمـا قام أحمد خان، قائد فرقة العبدلي Abdali contingent في الجيش الفارسي للملك نادر شـاه الكبير، باقتطـاع منطقة عازلة بين بلاد فـارس وبين الإمبراطورية المغولية المتداعية في شـبه القارة الهندية، والتي تطورت لاحقا إلى منطقة عازلة بين روسـيا القيصرية والهند البريطانية. وهكذا، يمكن إقامة الحجة على أنه مع التفكك البطيء للإمبراطورية السـوفييتية السـابقة في آسيا الوسـطى، والضعف التدريجي للدولـة الباكسـتانية، فإن إعادة تنظيـم تاريخية تجري حاليـا، والتي قد يتمخض عنها اختفاء أفغانسـتان من الخريطة السياسـية: وفي المسـتقبل، على سبيل المثال، فإن هندو كـوش (وهي الحدود الشـمالية الغربية الحقيقية لشـبه القارة) يمكن أن تشـكل الحدود بين بشتونسـتان وطاجيكسـتان الكبرى. أما طالبان، وهي ثمرة القومية البشتونية، والحماسة الإسلامية، وأموال المخدرات، وأمراء الحرب الفاسدين، والكراهيـة للاحتـلال الأمريكي، فمن الممكن، على حد تعبـير الباحث المتخصص في

الشؤون الآسيوية سيليج هاريسون Harrison، أن تكون مجرد وسيلة لهذا التحول الذي هو من الاتســاع والضخامة بحيث لا يمكن بأي شكل من الأشكال منع وقوعه من خلال حملة عسكرية أجنبية يشنها مدنيون نافذو الصبر في واشنطن.

لكــن هناك حقيقة أخــرى تضاد هذه الأولى: وهي حقيقــة تتجنب مثل هذه الحتمية. إن حقيقة كون أفغانســتان أكبر حجما من العراق وأن سكانها أكثر تشتتا لا معنــى لهــا أساســا، إذ إن 65 في المائة من ســكان البلاد يعيشــون ضمن حدود خمسة وثلاثين ميلا من شبكة الطرق الرئيسية، والتي تشبه طرق القوافل القديمة في العصور الوسطى، مما يجعل 80 فقط من أصل 342 منطقة حيوية للحكم المركزي. وقد حُكمت أفغانســتان مركزيا بصورة أو بأخــرى منذ زمن أحمد خان: أما كابول، وإن لم تكــن دائما نقطة للســلطة، فقد كانت على الأقل نقطة للتحكيم. ولا ســيما بين أوائل ثلاثينيات وأوائل ســبعينيات القرن العشرين، شهدت أفغانستان حكومة معتدلة وبناءة في ظل النظام الملكي الدســتوري لظاهر شاه، وهو سليل أحمد خان. كانــت المدن الكبرى في البلاد مرتبطة ببعضها البعض من خلال منظومة من الطرق السريعة التي كانت آمنة للسفر، كما كانت البلاد على وشك القضاء على الملاريا من خلال البرامج الصحية والتنموية الجديرة بالاحترام. وقرب نهاية هذه الفترة، تجولت عبر البلاد وركبت الحافلات المحلية في أنحاء أفغانستان، فلم أشعر بالتهديد مطلقا، وكان في وســعي إرسال الكتب والملابس إلى الوطن من خلال مكاتب البريد العاملة. كانــت هنــاك أيضا هوية وطنية أفغانيــة قوية متميزة عن تلــك التابعة لإيران أو باكستان أو الاتحاد السوفييتي. ربما كانت البلاد عبارة عن شبكة هشة من القبائل، لكنها كانت تتطور أيضا لكي تصير أكثر من مجرد دولة عازلة. قد تصبح بشتونستان حقيقة واقعة، ولكن كما هي الحال في الطريقة التي تعمل بها الجنســية المزدوجة، بصورة مؤكدة للغاية في أفغانســتان. ويمكن إلقاء اللــوم في الانقلابات الثلاثة التي شــهدتها كابول في ســبعينيات القرن العشرين، والتي دفعت البلاد إلى سلســلة لا تنتهي على ما يبدو من العنف، على قوة عظمى مجاورة، هي الاتحاد الســوفييتي، وعلى الأفغان بنفــس القدر. وكجزء من عملية لتأمين خضوع البلاد بحزم لنفوذهم وتأثيرهم، عمل السوفييت من دون قصد على زعزعة الاستقرار السياسي لأفغانستان، ما أدى إلى غزوهم لها في ديســمبر 1979. إن أفغانســتان، باعتبارها حاجزا جغرافيا

بين الهضبة الإيرانية، وسهوب آسيا الوسطى، وشبه القارة الهندية، تتسم بأهميتها الاستراتيجية المذهلة، وبالتالي لم يطمع فيها الروس وحدهم، ولكن أيضا الإيرانيون والباكستانيون، حتى إن صناع القرار الهنود صاروا مهووسين بها.

إن أفغانستان التي تقع تحت سيطرة طالبان تهدد بإنشاء سلسلة من المجتمعات الإسلامية المتطرفة الممتدة من الحدود الهندية - الباكستانية إلى آسيا الوسطى. وسيمثل هذا، في الواقع، باكستان الكبرى، مما منح الاستخبارات الداخلية الباكستانية القدرة على إنشاء إمبراطورية سرية تتألف من أمثال جلال الدين حقاني، وقلب الدين حكمتيار، وعسكر طيبة: والتي تستطيع مواجهة الهند بالطريقة التي يقوم بها حزب الله وحماس بمواجهة إسرائيل. وعلى العكس من ذلك، فإن أفغانستان التي تعيش في سلام والتي تُحكم من كابول بصورة متحررة بشكل أو بآخر ستمنح نيودلهي القدرة على تخليص نفسها من عدوها التاريخي الجاثم على حدودها الشمالية الغربية، وكذلك على مواجهة باكستان على كل من حدودها الغربية والشرقية. ولهذا السبب، دعمت الهند في ثمانينيات القرن العشرين النظام العميل للسوفييت في كابول بقيادة محمد نجيب الله، والذي كان علمانيا وحتى ليبراليا بالمقارنة بذلك الذي حاول الإطاحة به بعض المجاهدين الإسلاميين الموالين لباكستان: وللسبب نفسه، تقوم الهند الآن بدعم حكومة كابول برئاسة حامد كرزاي.

إن أفغانستان المستقرة والمعتدلة على نحو معقول ستصبح حقا محورا ليس لجنوب آسيا الوسطى فحسب، بل ولأوراسيا بشكل عام. توجد الأرض المركزية التي تصورها ماكيندر من حيث «التقارب» في مصالح كل من روسيا، والصين، والهند، وإيران التي تؤيد وجود ممرات للنقل عبر آسيا الوسطى. تتمثل أقوى العوامل الموجهة إلى طرق التجارة الأوراسية في الاقتصادين الصيني والهندي. إن تقديرات التجارة البرية الهندية عبر آسيا الوسطى إلى أسواق الشرق الأوسط وتلك الأوروبية تتوقع نموا يزيد على 100 مليار دولار سنويا. لا يقتصر الأمر على أن أفغانستان لاتزال في حالة حرب ألا يوجد اتصال بينها وبين نيودلهي عن طريق الشاحنات والقطارات، والسفن العابرة لبحر قزوين إلى إسطنبول وتبليسي؛ أو إلى ألماتي وطشقند عن طريق الطرق البرية والسكك الحديد. ومع ذلك، فقد أسهمت الهند بشكل كبير في بناء

شـبكة الطرق في أفغانسـتان، جنبا إلى جنب مع إيران والمملكة العربية السعودية. يربط طريق زارانج - دِلارام السريع الذي مولت بناءه الهند غرب أفغانستان بميناء شـاه بهار الإيراني على بحر العـرب[25]. يمكن للهنود تـذوق الفوائد التي يمكن أن يجلبها لهم الهدوء في أفغانستان، على الرغم من أنها اتسمت بالعنف لأكثر من ثلاثة عقود. ومن شـأن الهدوء في أفغانستان أن يحفّز شق الطرق وبناء السكك الحديد، وإنشـاء خطوط الأنابيب ليس فقط في جميع الاتجاهات عبر أفغانسـتان، ولكن في جميع أنحاء باكسـتان، أيضا، وهنا يكمن الحل النهائي لعدم الاسـتقرار الذي تعانيه باكسـتان نفسـها. ومع ذلك، فإن حلول السلام في المنطقة سيفيد الهند أكثر من أي طرف آخر، لأن اقتصادها يتفوق بكثير على مثيله في أي دولة أخرى باستثناء الصين.

لكن هذا ليس هو الوضع السائد حاليا. ففي الوقت الحاضر، تتسم شبه القارة الهندية الكبرى بأنها من بين أقل مناطق العالم استقرارا من الناحية الجيو- سياسية. إن سـجل الإمبراطوريـات والغزوات يمثل تاريخا ينبض بالحيـاة بالنظر إلى أهميته بالنسـبة إلى الانعدام العميق للأمن وللمشـكلات السياسية السـائدة اليوم. ومن نواح كثيرة، تشـبه الهند الكبرى خريطة للمرحلة الباكـرة من أوروبا الحديثة، على الرغم من أنها أسـوأ من هذه بسـبب الأسلحة النووية. في المرحلة الأولى من ظهور أوروبا الحديثة، كانت هناك جماعات عرقية ووطنية متناحرة، والتي كانت في طور التحـول إلى دول بيروقراطية، على الرغم من انشـغالها في الترتيبات المعقدة لتوازن القوى، والتي - بسـبب احتكاكاتها المتكررة وحسـاباتها الخاطئة لاحقا - أفضت في بعـض الأحيان إلى حـرب مفتوحة. كانت القومية الحديثـة في مرحلة فتية وقوية، كـما هي الحال في جنوب آسـيا اليوم. ولكـن على عكس تعدديـة الأقطاب الذي ميّـز المراحل المبكرة من أوروبـا الحديثة، تُظهر جنوب آسـيا صراعا ثنائي القطبين بين الهند وباكسـتان، مع وجود أفغانسـتان كإحدى سـاحات القتال بينهما، ودولة كشـمير المتنازع عليها كسـاحة أخرى. وعلى أي حال، فعلى عكس الثنائية القطبية بين القوتين العظميين، لا يوجد شيء بارد، أو نزيه، أو شعائري بخصوص هذا الصراع. ليس هذا صداما أيديولوجيا لا يُضمر طرفاه المتنازعان أي كراهية دينية أو تاريخية لبعضهما البعض، واللذان تفصل بينهما مسـاحة واسـعة تبلغ نصف الكرة الأرضية وتشـمل جليد القطب الشـمالي. يمثل هذا معركة بين دولة ذات أغلبية هندوسية،

على الرغم من أنها علمانية، وبين دولة مسلمة، وكلاهما في مراحل العنفوان الكامل للقوميـــة الحديثة، واللتين تفصل بينهما حدود مشـــتركة مزدحمة، والتي يوجد على مقربة منها عدد من العواصم والمدن الكبرى. ولا يفصل ســوى أقل من مائتي ميل بين المنطقة المركزية لنهر الســند في باكســتان وبين المنطقة المركزية الشمالية لنهر الغانــج في الهنــد[26]. وبالإضافــة إلى كل شيء آخر بخصوص هــذه الجغرافيا، فهي جغرافيــة مغلقــة وخانقة، من النــوع الذي وصفه بول براكِــن Bracken جيدا في استبصاره للعصر النووي الجديد.

تبذل الهند محاولات مســتميتة من أجل الهروب من هذه الجغرافيا ومن هذا التاريخ. إن المنافســة مع الصين والاهتمام المرضي بها يشكلان اثنين من عناصر هذا الهروب. بيد أن تنافس الهند مع الصين لا يشــبه تنافسها مع باكستان على الإطلاق: فهــو أكثر تجريــدا، وأقل عاطفية، أقل تقلبا (وهو الأمر الأكــثر أهمية بكثير). وهو التنافس لا يوجد ثمة تاريخ حقيقي وراءه.

مــضى ما يقرب من نصف قرن منذ خاضت الهند حربا محدودة مع الصين على الحــدود المتنازع عليها، والتي دار القتال فيهــا على ارتفاع أربعة عشر ألف قدم في منطقة أقصاي تشــين بالقرب من كشمير في الشــمال الغربي، وفي أروناشال براديش قرب بوتان في شــمال شرق البلاد. تمثلت خلفية هذه الحرب التي اندلعت في العام 1962، وقُتل فيها أكثر من ألفي جندي وأصيب 2,744 آخرون، في انتفاضة نشــبت في العام 1959 في التبت وأدت إلى إرسال الدالاي لاما إلى المنفى في الهند، في أعقاب الغــزو الصينــي للتبت في العام 1950. إن فكرة اســتقلال التبــت أو حصولها على الحكم الذاتي، وكونها موالية للهند حتى بصورة مبهمة ستجعل الخبراء الاستراتيجيين الصينيــين عصبيين للغاية. ونظرا إلى التوترات التي انطوت عليها أزمة التبت، نظرت الصين إلى إنشــاء بؤر استيطانية هندية إلى الشمال من الخطوط الحدودية المتنازع عليها باعتباره مبررا لشن الحرب، وتمكنت خلال شهر واحد من القتال الذي دار في الخريف من دحر القوات الهندية. لم ينشر أي من الطرفين قواته البحرية أو الجوية، وبالتالي فقد اقتصر القتال على المناطق النائية التي يعيش فيها عدد قليل من الناس، مقارنة بالحدود الهندية - الباكســتانية، التي بالإضافة إلى مرورها عبر المســتنقعات والصحارى، فهي تقطع إقليم البنجاب الغني زراعيا والذي يقطنه الملايين.

لاتزال الحدود الهندية - الصينية موضع خلاف في بعض المناطق. بنى الصينيون الطـرق والمطارات في جميع أنحـاء التبت، وتقع الهنـد الآن ضمن نطاق عمليات طياري المقاتلات الصينية، على الرغم من أن سلاح الطيران الهندي هو رابع أكبر سلاح جوي في العالم، مع أكثر من 1300 طائرة منتشرة في أكثر من ستين قاعدة جوية. توفر الأقمار الاصطناعية وطائرات الاستطلاع الهندية المعلومات الاستخبارية عن تحركات القوات الصينية في التبت، ثم إن القوات البحرية تتنامى في البلدين. وقد استعرضنا صعود البحرية الصينية في الفصل السابق. ولأن الهند لا تمتلك مقابلا للبحر الأبيض المتوسـط، ولا بحارا مغلقة ومجموعات من الجزر تُغري البحارة بالرسو عليها، على الرغم من كون أراضيها دافئة ومنتجة، فقد كانت الهند حتى وقت قريب أمة برية بشكل أو بآخر، والتي تشكلت في مواجهة المحيط المفتوح. لكن ذلك كله تغيّر فجأة مـع التطورات التي تحققت في التكنولوجيا العسـكرية، والتـي ضغطت جغرافية المحيطـات، ومع تطور الاقتصاد الهندي، بحيث صار في إمكانه تمويل عمليات كبرى لبناء السـفن واقتنائها. ثمة عامل آخر عمل على دفـع الهند باتجاه البحر، ألا وهو التهديد الذي تمثله الصين نفسـها، إذ إن الطموحات البحرية الصينية توجهها إلى ما وراء منطقة غرب المحيط الهادي، وصولا إلى المحيط الهندي.

قدمت الصين يد المسـاعدة في بناء أو تطوير الموانئ في البلدان المحيطة بالهند: في كيوكبيو، بورما؛ وشيتاغونغ، بنغلاديش؛ وهامبانتوتا، سري لانكا؛ وغوادر، باكستان. وفي كل مـن هذه البلدان، قدمت الصين مسـاعدات عسـكرية واقتصادية ضخمة، إضافة إلى الدعم السياسي. إن الصين، كما نعلم، تمتلك بالفعل أسطولا تجاريا ضخما، وتتطلع إلى امتلاك قوات بحرية عاملة في المحيطات ذات المياه الزرقاء، والتي ستقوم بحماية مصالحها وحماية طرق تجارتها بين الشرق الأوسـط الغني بالنفط والساحل الصينـي المطل عـلى المحيط الهادي. يحدث هذا في نفـس الوقت الذي تمتلك فيه الهند طموحات على غرار مذهب مونرو لأن تحظى بوجود في جميع أنحاء المحيط الهندي من جنوب أفريقيا إلى أسـتراليا. إن نطاقـات المصالح البحرية المتداخلة إلى حد كبير تعمل على تعقيد القضايا الحدودية في الشمال، عند جبال الهيمالايا، والتي لاتزال عالقة. لا تفعل الصين سـوى مجرد السـعي إلى حمايـة خطوطها للاتصالات البحرية من خلال إيجاد موانئ صديقة ومتطورة على طول الطريق، في حين تشـعر

الهند بأنها محاصرة. أدى الاحتمال المستقبلي لإنشاء مركز باكستاني-صيني للعمليات البحرية بالقرب من مدخل الخليج العربي في غوادر إلى توسيع ميناء كاروار البحري الهندي على بحر العرب. أما الميناء وخطوط أنابيب الطاقة التي تقوم الصين ببنائها في منطقــة كيوكبيو Kyaukpyu في بورما، فقد دفع الهند إلى البدء في إنشــاء ميناء ومجمع للطاقة في سيتوي Sittwe، التي تقع على بُعد خمسين ميلا إلى الشمال، مع تســارع وتيرة المنافسة بين الهند والصين على الطرق والموارد في غرب الهند الصينية. ومــع ذلك، لو أردنا التكرار على ســبيل التوكيد، فإن التنافس الهندي- الصيني يمثل صراعــا جديدا مــن دون أن تكون وراءه قوة التاريخ. كانــت التفاعلات التي جرت بــين الهند والصين في الماضي مُثمرة في العادة؛ وأشــهرها انتشــار البوذية من الهند إلى الصــين في منتصــف وأواخر العصور القديمة، كما صارت البوذية دينا رســميا في عهــد أسرة تانغ. وعلى الرغم من قضية التبت، حيث يصب الحكم الذاتي للتبت أو استقلالها في المصلحة الجيوسياســية للهند في حين يضر بوضوح بمصالح الصين، فإن الأسوار العالية المتمثلة في جبال الهيمالايا تفصل سكان البلدين بعضهما عن البعض على نحو فعال. ولم يحدث إلا في العقود الأخيرة، عندما حشــدت الجيوش الوطنية في الــشرق قوات بحرية، وجوية، وصاروخية متقدمة، أن ظهرت الجغرافيا الجديدة للــصراع على النطاق الأوراسي إلى بؤرة الاهتمام بقوة. إن تبدد المســافات، وبصورة أكثر بكثير من الانقســامات الثقافية، هو ما يوهن العلاقات بين الهند والصين اليوم. وحدها النخب السياســية الهندية التي تشعر بالقلق إزاء الصين، في حين أن مشكلة باكستان تشغل البلد بأكمله، خصوصا شمال الهند. وبالإضافة إلى ذلك، تمتلك الهند والصين علاقات تجارية من بين الأكثر ديناميكية وتكاملا في العالم. وبطريقة ما، فإن التوتر بين الهند والصين يوضح مشكلات النجاح: التنمية الاقتصادية البالغة الأهمية، والتي يمكن لكل من نيودلهي وبكين اســتخدامها الآن لأغراض عســكرية، خصوصا فيــما يتعلق بالمنصــات الجوية والبحرية الباهظة التكلفة. مــن المؤكد أن التنافس الجديد بين الهند والصين يوضح بجلاء وجهة نظر براكِن القائلة بأن تقنيات الحرب وبناء الثروات تسير جنبا إلى جنب، في حين أن الحجم المحدود للأرض يعمل على نحو متزايد كقوة مســببة لعدم الاستقرار، في حين تعمل الأجهزة والبرامجيات العسكرية على اختزال المســافات على الخريطة الجيوسياسية .وللتوضيح ، فعلى مدى العقود

القليلة الأولى التي أعقبت الحرب الباردة، كانت الهند والصين تمتلكان قوات برية متدنية التقنية نسبيا، والتي كانت قانعة بمراقبة حدودها والقيام بدور حصون التضامن الوطني. وبالتالي، فلم يكن أيهما يهدد الآخر. ولكن مع دخول الطائرات، والصواريخ، والسفن الحربية إلى المخزونات العسكرية للبلدين، مع كون جيشيهما أكثر قدرة على الانتشار، صار البلدان فجأة ينظران إلى نفسيهما كطرفي نقيض من ساحة المعركة الجديدة. ولا ينطبق هذا الوضع على الهند والصين فحسب، بل وعلى الدول الواقعة عبر مساحة شاسعة من أوراسيا - إسرائيل، وسورية، وإيران، وباكستان، وكوريا الشمالية، وهلم جرا، والواقعة في أحضان الجغرافيا الجديدة والمهلكة لنطاقات الصواريخ المتداخلة.

لاحظ، إذن، شبه القارة الهندية؛ التي تحدها البحار والجبال، على الرغم من أنها لاتزال شديدة الاتساع في الداخل، كما أن افتقارها إلى الأسس الطبيعية للوحدة والتنظيم السياسي المبكرين لايزال ظاهرا، على الرغم من أن نظام الحكم في الصين يبقى أفضل تنظيما وأكثر كفاءة من نظيره الهندي، على الرغم من افتقار الصين إلى الديموقراطية. تضيف الصين سنويا إلى طرقها السريعة عددا من الأميال يزيد على إجمالي ما تمتلكه الهند منها؛ وتتسم الوزارات الهندية بالعجرفة والضعف مقارنة بتلك الصينية. من الممكن أن تصاب الصين بالدمار جراء الإضرابات والمظاهرات، لكن الهند تعصف بها حركات التمرد العنيفة؛ وخصوصا تلك التي يقوم بها الناكساليون Naxalites ذوو التوجهات الماوية في الأجزاء الوسطى والشرقية من البلاد. وفي هذا الصدد، فإن وصف فيرغريف لحضارة «أقل تقدما» بالمقارنة مع بعض الحضارات الخارجية لايزال ساريا[27].

من يجلس في دلهي، وظهره إلى آسيا الوسطى المسلمة، يجب أن يشعر بالقلق بشأن الاضطرابات الجارية على الهضاب الواقعة إلى الشمال الغربي. ستقوم الولايات المتحدة بسحب قواتها من أفغانستان، لكن الهند سينبغي عليها التعايش مع النتائج، وبالتالي ستظل مكتنفة في الأحداث هناك عن كثب؛ وهنا تواجه الهند معضلة، إذ إن مكانتها كقوة عظمى في القرن الجديد ستتعزز بفعل تنافسها السياسي والعسكري مع الصين، على الرغم من أنها لاتزال مُحاصرة بحدودها مع الدول الضعيفة وشبه الفاشلة داخل شبه القارة. لقد ناقشنا حالتي أفغانستان وباكستان، لكن هناك نيبال وبنغلاديش، أيضا، واللتين سنناقشهما بعد لحظات.

بعد إلغاء نظامها الملكي ووصول المتمردين الماويين الســابقين إلى الســلطة، فإن الحكومة النيبالية تسـيطر بالكاد على الريف حيث يعيش 85 في المائة من شـعبها. ولأنها لم تُســتعمر أبدا، فلم تــرث نيبال أي تقاليد بيروقراطيــة قوية من الإنجليز. وعلى الرغم من الهالة التي ورثوها من جبال الهيمالايا، فإن الشطر الأكبر من سكان نيبال يعيشــون في المناطق المنخفضة الباردة والرطبة عــلى طول الحدود مع الهند ، والتــي لا تــكاد تخضع للمراقبة. لقد ســافرت عبر أرجاء هــذه المنطقة؛ فوجدت أنه لا يمكن تمييزها في نواح كثيرة عن ســهل الغانــج. وإذا كانت الحكومة النيبالية لا تســتطيع زيادة قدرات الدولة، فمن الممكن أن تتلاشى الدولة نفســها تدريجيا. أمــا بنغلاديش، وهي في ذلك أكثر حتى من نيبال، فــلا تمتلك أي دفاعات جغرافية لتصنيفها كدولة: إنها نفس المشــاهد المائية المســطحة تماما لحقول الأرز والأشجار الخفيضة عــلى كلا جانبي الحدود مع الهند؛ أما النقاط الحدودية، كما اكتشــفت، فهــي متهدمة، وغير منظمة، وآيلة للســقوط. هذه البقعة التي شُــكلت على نحو مصطنــع من الأراضي- والتي تشــمل على الترتيب مناطق البنغــال، وشرق البنغال، وشرق باكســتان، وبنغلاديش- يمكن أن تتغير مرة أخــرى في خضم القوى العاصفة للمناورات السياســية الإقليمية، والتطرف الديني الإسلامي، وتغير المناخ. ومثلها في ذلك مثل باكســتان، فقد تعاقب على تاريخ بنغلاديش عدد من الأنظمة العسكرية والمدنية، والتي كان عدد قليل منها يعمل جيدا بما فيه الكفاية. عبر ملايين اللاجئين البنغاليين بالفعل الحدود إلى الهند باعتبارهم مهاجرين غير شرعيين، ومع ذلك فإن الحكومة البنغلاديشــية لاتزال تكافح، وتعمل على تحســين أدائها حتى كتابة هذه الســطور. ومع ذلــك، فمن الممكن أن تنجح كمركز لطــرق التجارة البرية وخطوط الأنابيب التي تربط بين الهند، والصين، وبورما الحرة والديموقراطية في المستقبل.

كانت شــبه القارة الهندية منذ بواكير العصور القديمة مقسّــمة سياسيا، وهذا هــو ما تعانيــه حتى الآن. دعونا الآن نلقي نظرة على أقصى الشــمال، حيث تلتقي جبــال كاراكورام بجبال الهيمالايا. ويقع هنا إقليم كشــمير، المنحشر بين باكســتان، وأفغانســتان، والهند، والصين. تقع المناطق الشــمالية من سلسلة جبال كاراكورام، بمــا في ذلــك بلدة جيلجيت Gilgit، تحت ســيطرة باكســتان وتطالــب بها الهند، كــما تطالــب بشريحة من كشــمير آزاد («الحرة») الواقعة إلى الغرب. أما سلســلة

جبـال لاداك Ladakh Range في قلب كشـمير، بما في ذلك بلدتا سريناجار وجامو، فتخضـع لـلإدارة الهندية في حـين تطالب بها باكسـتان، كما تطالـب بمنطقة نهر سياتشن الجليدي الواقعة إلى الشمال. وباتجاه أقصى الشمال والشمال الشرقي، يقع وادي شاكسـام ومنطقة أقصاي تشـين، اللذين تديرهما الصين وتطالب بهما الهند. وبالإضافـة إلى ذلك، فإن ولاية جامو وكشـمير الهندية (سلسـلة جبال لاداك) تضم أغلبية مسـلمة تصل إلى 75 في المائة، الأمر الذي سـاعد على إشعال حركات التمرد الجهادية لسـنوات. وفي تصريحاته، دان الراحل أسامة بن لادن الهيمنة الهندوسية - الهندية على كشمير. ومع ذلك، فإن جزءا كبيرا من كشمير يتكون من أراض وعرة تقع على ارتفاعات شـاهقة، مما يجعلها غير صالحة للسكنى. لكن حروبا قد دارت رحاهـا على هذه الأراضي وبسـببها، ولايزال في الإمكان نشـوب عديد منها. خاض الصينيـون حربا ضـد الهنود في العـام 1962 لأنهم أرادوا بنـاء طريق من منطقة شـينجيانغ إلى التبت عبر كشمير الشرقية؛ كما حاربت الهند الصين لاعتراض الحدود المشتركة بين الصين وباكستان.

إن كشمير، مثل فلسطين، وبسـبب تأثير الفضاء الإلكتروني (الإنترنت) ووسائل الإعلام الجديدة، لايزال في وسـعها بـث روح الكراهية بين الملايين، مما يجعل وضع حل لمشـكلاتها المتشـابكة أبعد وأبعد عن المتناول. إن التقنيات نفسها التي تُلحق الهزيمة بالجغرافيا تمتلك القدرة أيضا على تعزيز أهمية الجغرافيا. تمثل شـبه القارة الهندية واقعة جغرافية فجة، لكن تعيين حدودها سيستمر إلى ما لا نهاية.

وفي حين أن ممالك السلالات الصينية القديمة تقع جميعها تقريبا ضمن الحدود الحالية للصين، فإن السـلالات التي ورثتها الهند، وكما رأينا، ليسـت كذلك. وهكذا، تنظر الهند إلى أفغانستان ومناطقها الظلية الأخرى بقدر من الصفاء أقل مما تفعل الصين مع مناطقها الظلية. تتسـم الهند بكونها قوة إقليمية حتى الدرجة التي تقع فيهـا في شراك هذه الجغرافيـا؛ وهي قوة عظمى محتملة حتى الدرجة التي يمكنها بها أن تتحرك متجاوزة لها.

13

المحور الإيراني

«إن وجــود إيــران ديموقراطية أو شــبه ديموقراطية، وتحديدا بسبب القوة الجغرافيــة للدولة الإيرانية، يحمــل إمكان تحفيز مئات الملايين من إخوانهم المســلمين في كل من العالم العربي، وآسيا الوسطى»

المؤلف

كما يُخبرنــا الأســتاذ بجامعة شــيكاغو، وليام ماكنيــل، فإن الهند والصــين واليونان تقع جميعها «على هامش العالم المتحضر قديما»، إذ كانت تحميها الجبال والصحارى، والمســافة المحضة[1]. وبطبيعة الحــال كانت هذه حماية جزئية، لأن اليونان - كما نعلــم - دُمرت عــلى أيدي الفــرس، وكذلك الصين عــلى يد المغــول وشــعوب الســهوب التركية، كما غزت الهندَ جحافلُ الفاتحين المســلمين. ومع ذلك، فقــد قدمت الجغرافيا ما يكفــي من الحواجز لكي تترســخ ثلاث حضارات عظيمة وفريدة من نوعها. في الفضــاء الهائل بين هذه الحضــارات، كما ذكرنا في فصل ســابق، يقع ما أشــار إليه زميل ماكنيل في جامعة شــيكاغو مارشال هودجســون Hodgson باســم «الويكومين»، وهو مصطلــح إغريقي عتيق يعنــي «الربع المأهول» من العــالم: وهذا هو عالم هيرودوت، أي المنطقة الجافة المعتدلة من اليابسة

الأفرو آسيوية الممتدة من شمال أفريقيا إلى التخوم الغربية من الصين، وهو حزام من الأراضي يطلق عليه هودجسون أيضا اسم «النيل إلى جيحون» Nile - to – Oxus (*)[2].

تلتقط رؤية هودجسون ببراعة عددا من الحقائق الرئيسية والمتناقضة: أن الويكومين Oikoumen - أي الشرق الأوسط الكبير - هو منطقة يمكن تحديدها بسهولة، والتي تقع بين اليونان، والصين، والهند، والمنفصلة بكل وضوح عن كل الدول الثلاث، على الرغم من أنه كان لها تأثير محوري في كل من منها، بحيث كانت العلاقات بينها متناغمة للغاية؛ وأنه في حين يتحد الشرق الأوسط الكبير بفعل الإسلام وموروثات البداوة القائمة على الخيل والإبل - على عكس زراعة المحاصيل في الصين والهند - فهو يشهد كذلك انقسامات عميقة من الداخل بفعل الأنهار، والواحات، والمرتفعات، مع تداعيات كبيرة فيما يتعلق بالتنظيم السياسي حتى يومنا هذا.

إن التفاوت بين الشرق الأوسط والصين الكبرى، مثلا، يزودنا بمثال معبّر بصفة خاصة. وفي هذا السياق، كتب جون كينغ فيربانك Fairbank، وهو خبير الشؤون الصينية الراحل في جامعة هارفارد، ما يلي:

> إن التجانس الثقافي للصين القديمة، كما يتضح من السجل الآثاري، يتناقض بشكل ملحوظ مع تعدد وتنوع الشعوب، والدول، والثقافات في الشرق الأوسط القديم. واعتبارا من نحو العام 3000 قبل الميلاد، بدأ المصريون والسومريون والساميون والأكديون والأموريون والآشوريون، والفينيقيون، والحيثيون، والميديون والفرس، وغيرهم، يزاحمون بعضُهم بعضا ضمن تقلّب محيِّر من... الحرب والسياسة. ويتسم السجل بكونه مشحونا بالتعددية مع الانتقام. ساعد الري على ازدهار الزراعة في العديد من المراكز - مثل وديان أنهار النيل، ودجلة والفرات، والسند... ومن ثم فقد انتشرت اللغات، وأنظمة الكتابة، والأديان[3].

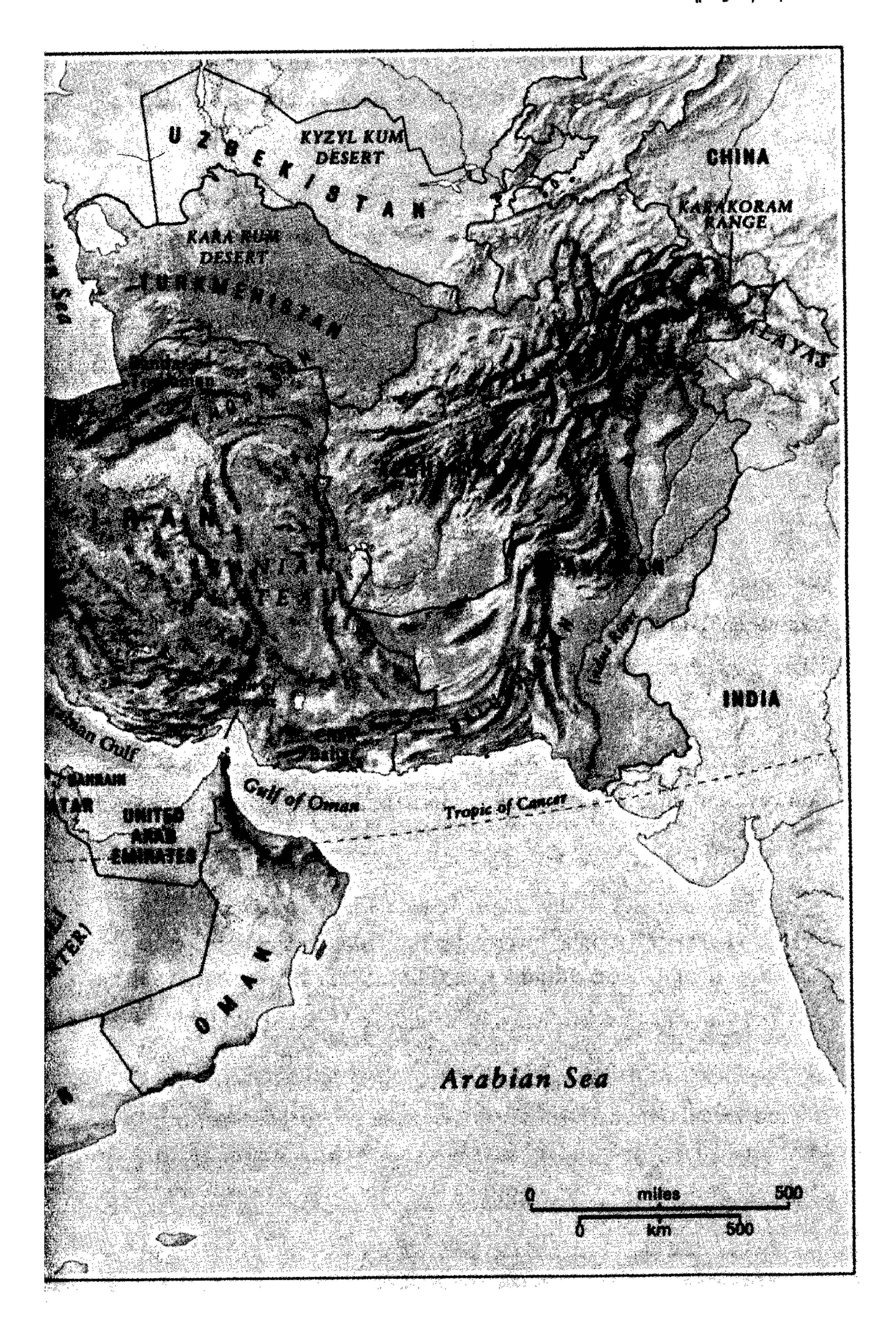
بيد أن هذا الإرث الكلاسيكي للانقسام يبقى معنا بصورة أشد عمقا عبر هوة ممتدة على مدى آلاف السنين، وبالتالي فهو أمر حاسم في السياسة المضطربة في الشرق الأوسط الكبير اليوم. وفي حين تمكنت اللغة العربية من توحيد جزء كبير من المنطقة، فإن اللغتين الفارسية والتركية هما السائدتان في مناطق الهضاب الشمالية، فضلا عن العديد من لغات آسيا الوسطى والقوقاز. وكما أوضح هودجسون، فإن العديد من دول الشرق الأوسط المنفردة، على الرغم من كونها لعملية اعتباطية لرسم الخرائط تعود إلى الحقبة الاستعمارية، تمتلك أيضا أساسا قويا يعود إلى العصور القديمة، وهو الأساس

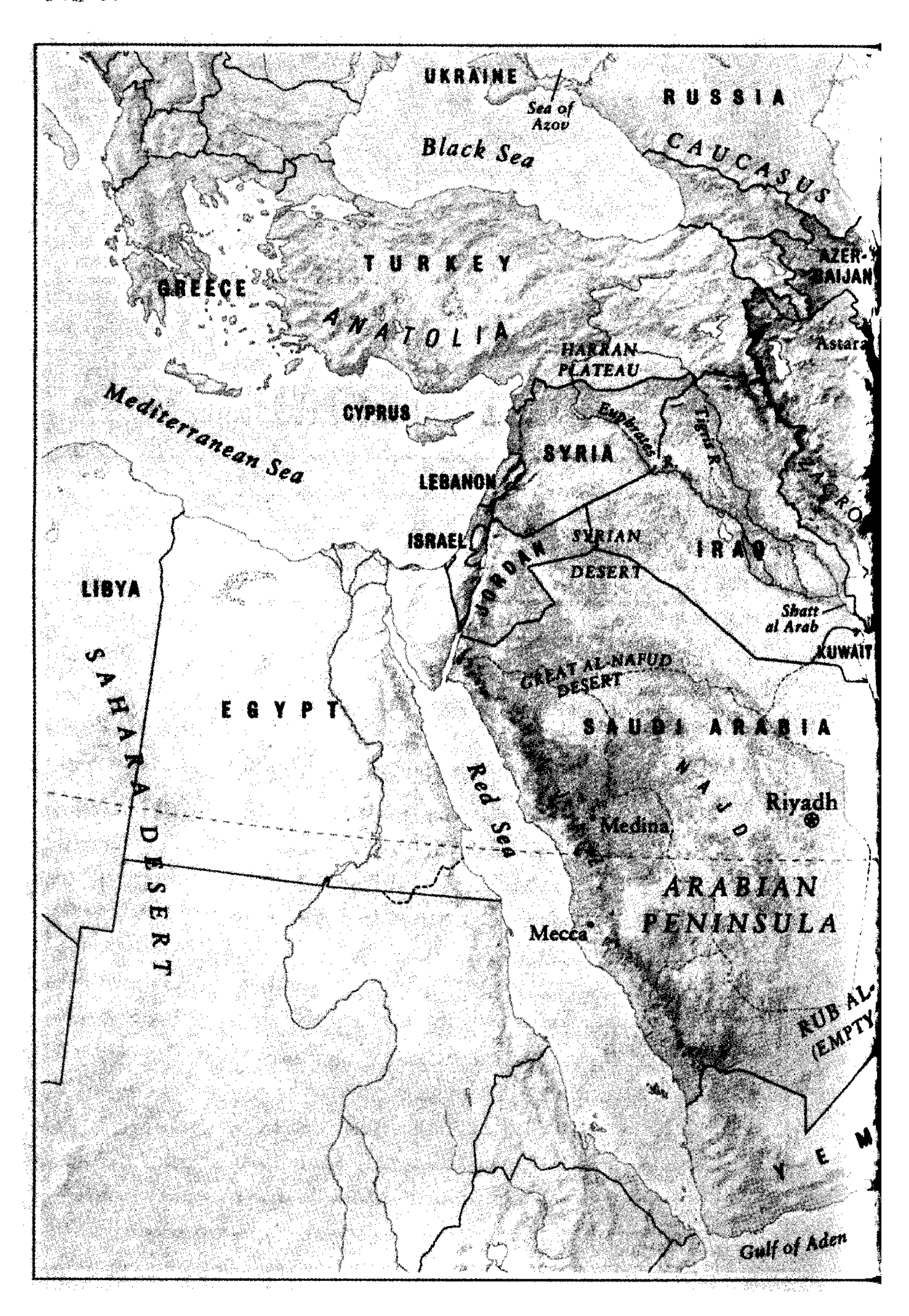
(*) Oxus: جيحون نهر قديم يسمى قسمه الغربي اليوم «آمو – دريا»، وقسمه الشرقي «واخش». يجري النهر على مسافة 2400 كيلومتر عبْر طاجكستان، وأفغانستان، وتركمانستان، وأوزبكستان. [المحرر].

الجغـــرافي. ومع ذلك، فإن تعددية هذه الدول، فضلا عن القوى الدينية والأيديولوجية والدمقرطة democratizing العاملة بداخلها، تُضفي مزيدا من التجسيد على وصفها كجـــزء مـــن الأرض المتنازع عليهـــا التي وصفها ألفريـــد ثاير ماهـــان. وفي الواقع، فإن الحقيقة العليا في السياســـة العالمية في القـــرن الحادي والعشرين تتمثل في أن المنطقة الأكثر مركزية جغرافيًّا من الأراضي الجافة هي أيضا أقلها استقرارا.

وفي الشرق الأوســـط الحالي، على حد قـــول العالمين جيفري كيمب Kemp وروبرت إ. هـــاركافي Harkavy، يوجـــد «رباعي أضلاع quadrilateral هائل المســـاحة»، حيث تتقاطع أوروبا وروســـيا وآســـيا وأفريقيا: والذي يحده البحر الأبيض المتوسط والصحراء من الغرب؛ والبحر الأســـود وجبال القوقاز وبحر قزوين والسهوب البرية لآسيا الوسطى من الشـــمال؛ وجبال الهندو كوش وشـــبه القارة الهندية من الـــشرق؛ والمحيط الهندي من الجنوب[4]. وعلى عكس الصين أو روســـيا، فإن رباعي الأضلاع هذا لا يشـــكل دولة هائلـــة واحدة؛ ولا حتى، مثل شـــبه القارة الهندية، تهيمن عليـــه دولة واحدة بأغلبية ســـاحقة، والتي قد توفر له بعض مظاهر الاتســـاق على الأقل. كـــما أنه لا يتألف، مثل أوروبـــا، من مجموعة من الدول الواقعة ضمن هيـــاكل للتحالف تحظى بدرجة عالية من التنظيم (حلف شـــمال الأطلسي والاتحـــاد الأوروبي). وبدلا من ذلك، تتميز منطقة الشرق الأوســـط بوجود مجموعة غير منتظمة من الممالك، والســـلطنات، والحكومات الدينيـــة، والديموقراطيات، والأنظمة الاســـتبدادية ذات الطراز العســـكري، والتي تبدو الحدود المشتركة بينها كأنها شُقَّت باستخدام سكين مهتزة. وكما قد يتوقع القارئ، فهذه المنطقة كلها، والتي تضم شـــمال أفريقيا ومنطقة القرن الأفريقي وآسيا الوسطى، وشبه القـــارة الهندية إلى حد ما، تشـــكل - في الواقع - محورا مكتظا بعدم الاســـتقرار، حيث تتلاقى القارات، وشبكات الطرق التاريخية، والممرات البحرية. والأكثر من ذلك أن هذه المنطقة تضم 70 في المائة من الاحتياطيات النفطية المؤكدة في العالم، و40 في المائة من احتياطيـــات الغاز الطبيعي[5]. وكذلك، كما أن هـــذه المنطقة عرضة لجميع العلل التي ذكرها الأستاذ في جامعة ييل، بول براكِن: الأيديولوجيات المتطرفة، وعلم نفس الحشود، ونطاقـــات الصواريخ المتداخلة، ووســـائل الإعـــلام الموجّهة لتحقيق الربـــح، والمخلصة لوجهـــات نظرها بنفس درجة إخلاص محطـــة فوكس نيوز Fox News لمبادئها[*]. وفي الواقع، فباستثناء شـــبه الجزيرة الكورية، فإن الانتشار النووي هو أحد العوامل المؤثرة في الشرق الأوسط أكثر من أي منطقة أخرى.

(*) عرفت المحطة بمساندتها للمحافظين، وتعتبر لسان اليمين الأمريكي. [المحرر].


UZBEKISTAN
KYZYL KUM DESERT
CHINA
KARAKORAM RANGE
KARA KUM DESERT
TURKMENISTAN
INDIA
Gulf of Oman
Tropic of Cancer
UNITED ARAB EMIRATES
OMAN
Arabian Sea
miles
500
km
500


UKRAINE
Sea of Azov
RUSSIA
Black Sea
CAUCASUS
TURKEY
AZER-BAIJAN
GREECE
ANATOLIA
Astara
HARRAN PLATEAU
Mediterranean Sea
CYPRUS
Euphrates
Tigris R.
SYRIA
LEBANON
SYRIAN DESERT
ISRAEL
JORDAN
LIBYA
Shatt al Arab
KUWAIT
GREAT AL-NAFUD DESERT
EGYPT
SAUDI ARABIA
SAHARA DESERT
Red Sea
NAJD
Riyadh
Medina
ARABIAN PENINSULA
Mecca
Gulf of Aden

مفتاح الخريطة:

Najd	نجد
Oman	عُمان
Pakistan	باكستان
Qatar	قطر
Red Sea	البحر الأحمر
Riyadh	الرياض
Rub Al-Khali (Empty Quarter)	الربع الخالي
Russia	روسيا
Sahra Desert	الصحراء الكبرى
Saudi Arabia	العربية السعودية
Sea of Azov	بحر آزوف
Shatt al Arab	شط العرب
Strait of Hormust	مضيق هرمز
Syria	سورية
Syria Desert	الصحراء السورية
Tigris R.	نهر دجلة
Tropic of Cancer	مدار السرطان
Turkmenistan	تركمانستان
Ukraine	أوكرانيا
United Arab Emirates	الإمارات العربية المتحدة
Uzbekistan	أوزبكستان
Yemen	اليمن
Zagros MTS.	جبال زاغروس
Afghanistan	أفغانستان
Anatolia	الأناضول
Arabian Gulf	الخليج العربي
Arabian Peninsula	شبه الجزيرة العربية
Arabian Sea	بحر العرب
Astara	أستارا
Azerbaijan	أذربيجان
Bahrain	البحرين
Baluchistan	بلوشستان
Bandar-e Torkman	بندر تركمان
Black Sea	البحر الأسود

Caspian Sea	بحر قزوين
Caucasus	القوقاز
Chanbahar	تشانبهار
China	الصين
Cyprus	قبرص
Egypt	مصر
Elburz MTS.	جبال البرز
Eupharates R.	نهر الفرات
Great Al-Nafud	صحراء النفود الكبرى
Greece	اليونان
Gulf of Aden	خليج عدن
Gulf of Oman	خليج عمان
Harran Plateau	هضبة حران
Hijaz	الحجاز
Himalayas	الهمالايا
Hindu Kush	هيندوكوش
India	الهند
Indus River	نهر السند
Iran	إيران
Iranian Plateau	الهضبة الإيرانية
Iraq	العراق
Israel	إسرائيل
Jordan	الأردن
Karakum Desert	صحراء قره قوم
Karakoram Range	مدى قراقم
Khorasan	خراسان
KM	كيلومتر
Kuwait	الكويت
Kyzyl Kum Desert	صحراء قيزيل قم
Lebanon	لبنان
Libya	ليبيا
Mecca	مكة
Medina	المدينة
Mediterranean Sea	البحر المتوسط
Miles	أميال

يعيــش الشرق الأوســط أيضا في خضم طفرة شــبابية، إذ إن 65 في المائة من ســكانه هم دون ســن الثلاثــين. وما بين عامي 1995 و2025، ســيكون ســكان العراق والأردن والكويت، وعُمان وســورية والضفــة الغربية وقطاع غزة واليمن قد تضاعف. إن الســكان الشــبان، كما رأينا في الربيع العربي، هم الأقرب احتمالا لفــرض الاضطــراب والتغيير. أما الجيل المقبل من حكام الشرق الأوســط، ســواء في إيــران أو في الــدول العربية، فلــن يملك ترف الحكم الاســتبدادي المطلق كما فعل أســلافهم، على الرغم من أن التجــارب الديموقراطية في المنطقة تبين أنه في حــين تنجَز الانتخابات بســهولة، فإن الأنظمة الديموقراطية المســتقرة والليبرالية هي عمليات قد يســتغرق صقلها أجيالا. وفي الشرق الأوســط، أشعلت الطفرات الشبابية وثورة الاتصالات سلسلة من سيناريوهات الفوضى على الطراز المكسيكي (أي اســتبدال دول الحــزب الواحد بأخرى أكثر فوضوية تتســم بتعدد الطوائف وبالتعددية الحزبية)، ولكن من دون بلوغ مســتوى المكسيك من إضفاء الطابع المؤســسي institutionalization، والــذي - على الرغم مــن محدوديته - لايزال متقدما على معظم بلدان الشرق الأوســط. كان التعامل مع المكسيك التي تتمتع بديموقراطية أصيلة أصعب على الولايات المتحدة من تعاملها مع المكسيك تحت الحكم الفعلي للحزب الواحد. ولكونه يعج بالأســلحة المتقدمة، فضلا عن أسلحة الدمار الشــامل، فإن الشرق الأوســط في العقود القليلة المقبلة ســيجعل الحقبة الأخــيرة من الــصراع العربي - الإسرائيلي حالةً تبدو أشــبه بفصل رومانسي، داكن من الحرب الباردة وما بعد الباردة الحرب، والذي تتســم فيه حســابات الأخلاق والتفوق الإستراتيجي بكونها واضحة نسبيا.

إن مفهــوم هودجســون عن النيل إلى جيحون يعني أساســا مصر إلى آســيا الوسطى، مع كون مصر تمثل اختزالا لكل أرجاء شمال أفريقيا. يتألف هذا المصطلح من المكون الجنوبي، الذي يشــمل صحارى وســهول الشرق الأوســط، وهو عربي، والنجد الجبلي الشــمالي، وهو غير عربي، والذي يبدأ من البحر الأسود وينتهي في شبه القارة الهندية. ويمكن أيضا أن يطلق على المنطقة الهضبة الشمالية المترامية الأطراف اســم «البوســفور إلى الســند» (Bosporus - to - Indus). وقد تأثرت منطقة البوســفور إلى الســند تأثرا كبيرا بالهجرات الآتية من آسيا الوسطى؛ وقد

تأثـرت بها منطقة النيل إلى جيحون أيضا، فضلا عن حركة المرور البحري الكثيفة في منطقة البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي. إن حقيقة كون الشرق الأوسـط يمثل نقطة لتقاطـع القارات، مع جغرافية داخليـة أكثر تعقيدا من أي منطقة باسـتثناء أوروبا، لكنه أكـبر حجما ومنتشر عبر ضعـف المناطق الزمنية لأوروبـا، تجعل من الضروري لأغراض هذه المناقشـة تفكيك المنطقة إلى الأجزاء المكونة لها. من الواضح أن الاتصالات الإلكترونية والسـفر الجوي قد تغلبت على الجغرافيا في الآونة الأخيرة، بحيث تتحدّد الأزمات من خلال التفاعلات السياسـية في المنطقة بأكملها. وعلى سـبيل المثال، فعندما اعترض الإسرائيليون قافلةً تحمل إمدادات إغاثية لغزة، اشتعلت المظاهرات الحاشدة في تركيا وإيران وجميع أنحاء العالم العربي. وعندما قام بائع للخضار والفواكه في جنوب وسـط تونس بإشـعال النار في نفسه، اندلعت مظاهرات ضد الحكم الدكتاتوري ليس في تونس وحدها، بل وفي الكثير من بلدان العالم العربي. ومع ذلك، هناك الكثير مما يمكن تمييزه من خلال دراسة الخريطة والانقسامات المتأصلة فيها.

عند النظر إلى خريطة الشرق الأوسـط، تبرز ثلاثـة معالم جغرافية فوق تلك الأخرى: شـبه الجزيرة العربية والهضبة الإيرانيـة وجسر الأناضول البري. تهيمن المملكة العربية السـعودية على شـبه الجزيرة العربية، غير أنها تضم أيضا دولا مهمة أخرى. وفي الواقع أن المملكة العربية السـعودية، التي لا يزيد سكانها على 28.7 مليون نسـمة، تضم ما يقل بكثير عن نصف إجمالي سـكان شـبه الجزيرة. لكـن معدل النمو السـنوي للسـكان في المملكة العربية السـعودية يقترب من اثنين في المائة: فإذا اسـتمر هذا المعدل المرتفع، فسـوف يتضاعف عدد سـكانها في غضون بضعة عقود، مما سـيفرض ضغطا هائلا على الموارد، نظرا إلى أن البلد يقع على سهوب برية وصحراوية شحيحة المياه. إن ما يقرب من 40 في المائة من السـعوديين هم دون الخامسة عشرة من العمر، كما أن 40 في المائة من الشباب السـعودي عاطلون عن العمل، وبالتالي فإن الضغوط السياسـية التي سيفرضها أولئك الشبان الساعون لفرص العمل والتعليم ستكون هائلة. بيد أن قوة المملكة العربية السـعودية ليسـت مسـتمدة من حجم سـكانها، والذي يمثل في الواقع مسـؤولية قانونية، ولكن من حقيقة امتلاكها لأكـبر احتياطيات نفطية في العالم،

والتـي تبلغ 262 مليار برميل، كما تحتل المرتبة الرابعة عالميا في احتياطيات الغاز الطبيعي، بمخزونها البالغ 240 تريليون قدم مكعبة.

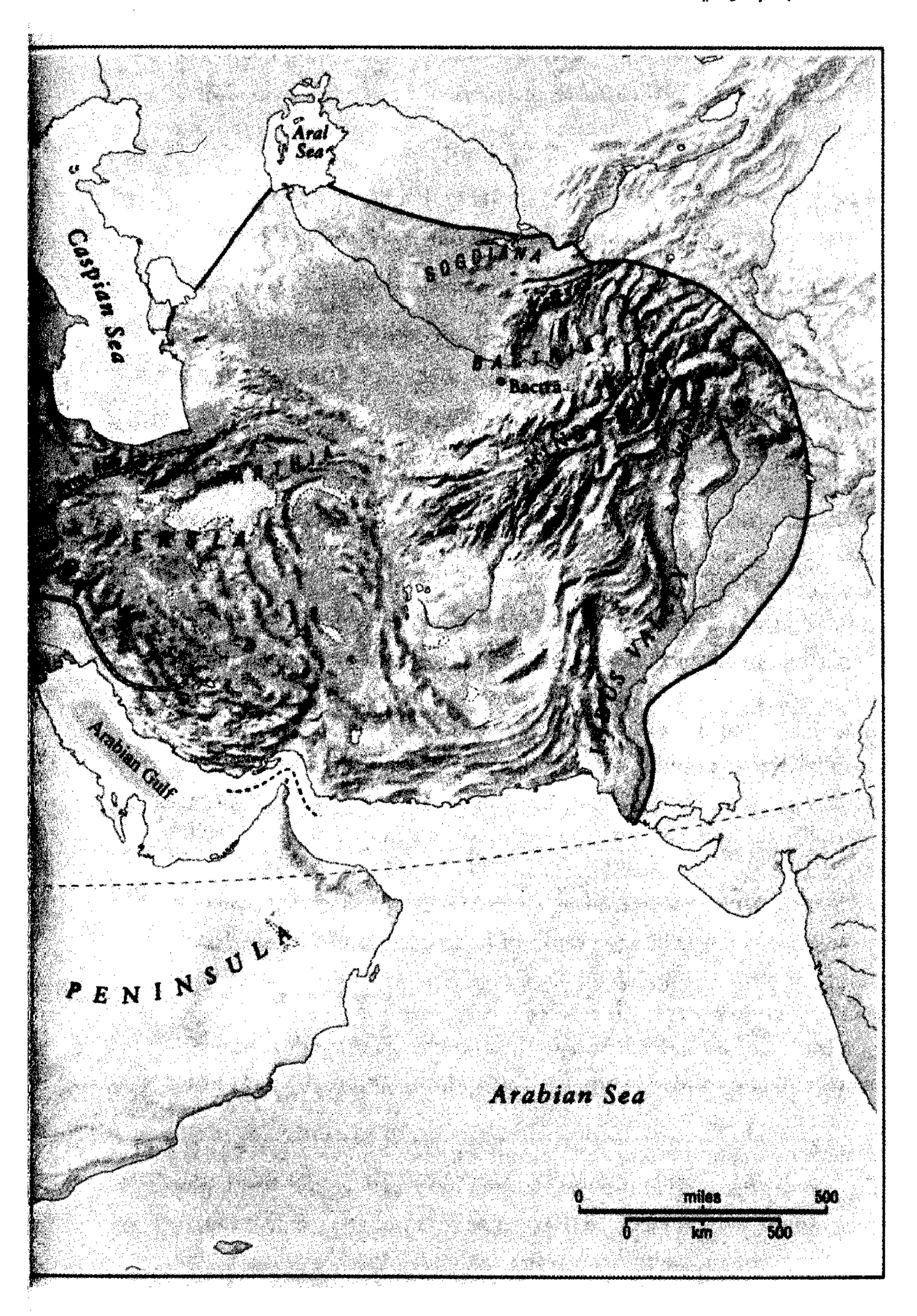
إن المهد الجغرافي للدولة السـعودية، وللحركة الدينية السنية المعروفة باسم «الوهابية»، والمرتبطة بها، هو نجد؛ وهي منطقة قاحلة في وسـط شـبه الجزيرة العربية، والتي تقع بين صحراء النفود الكبرى في الشمال والربع الخالي في الجنوب؛ أمـا إلى الـشرق منها فيوجد الشريط السـاحلي للخليج العـربي؛ كما تحدها من الغرب جبـال الحجاز. ويلاحظ أن كلمة «نجد» تعنـي منطقة مرتفعة. ويتباين ارتفاعها المتوسـط بين خمسـة آلاف قـدم في الغرب إلى مـا دون 2500 قدم في الشرق. قام المستكشف والمسـتعرب البريطاني الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر، تشارلز م. داوتي Doughty، بوصف نجد كما يلي:

> إن الصـدى الصيّاح وضجيج المياه المتدفقة هو، كما كانت عليه الحال، الصوت الحزين للأرض الشحيحة المطر في كل قرى نجد. إن خرير المياه هذا قـد لا ينقطـع ليلا أو نهارا. لا يمكن لقوة الثيران سـحب المياه بصورة ذات جـدوى من الآبار بما يزيد على ثلاث أو أربع قامات fathoms، وإن لم تكن الإبل موجودة، لظلت نجد - كما يقولون - بلا سكان[6].

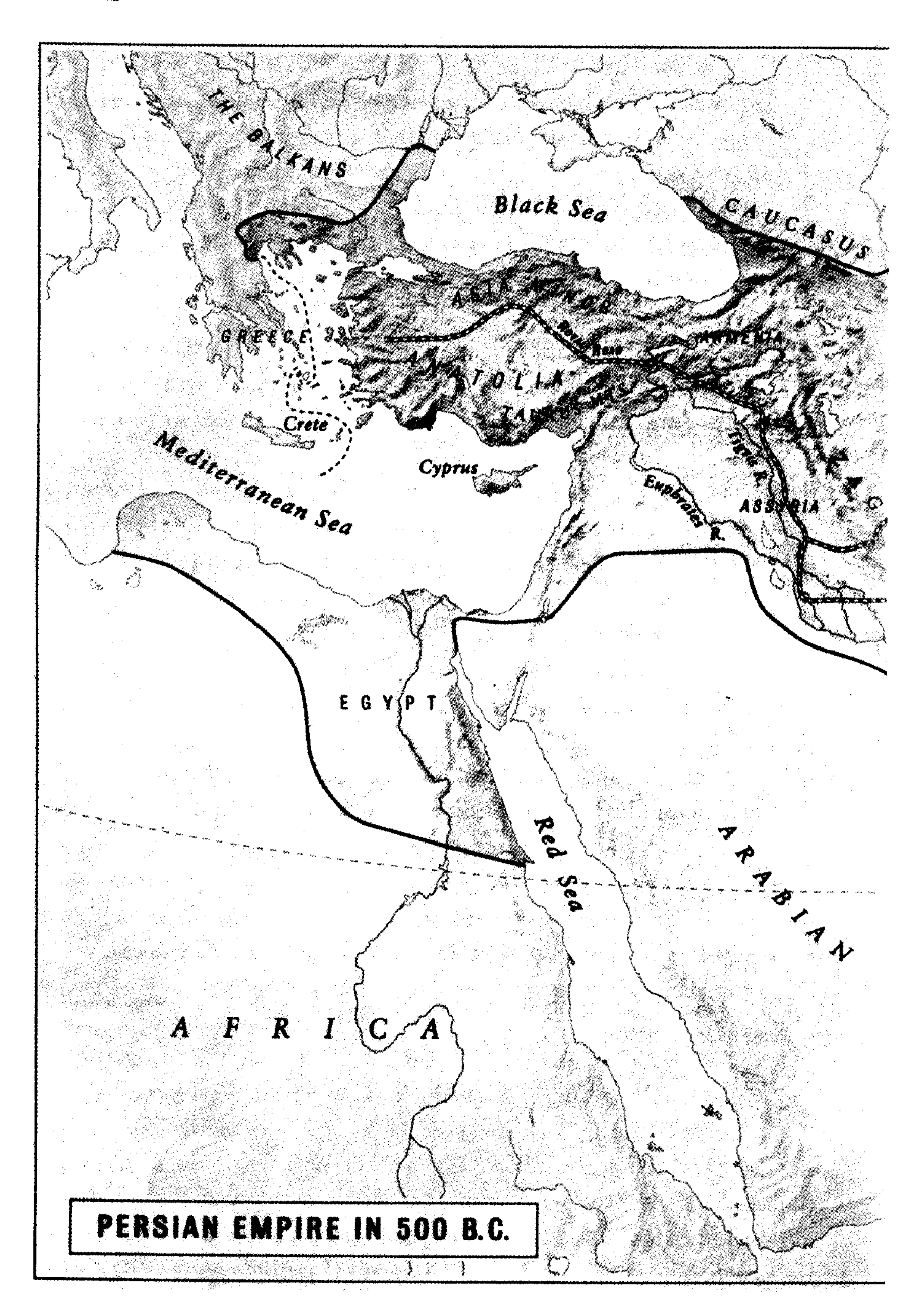
إن نجد هي بمنزلة القلب حقا لما أسـماه هودجسـون البـداوة القائمة على الإبل. ومن معاقلهم في نجد، انطلق الوهابيون في القرون الأخيرة في غاراتهم التي شملت كل الاتجاهات. وعلى الرغم من أن الحجاز، المتاخمة للبحر الأحمر، تضم المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد اعتبر النجديون الوهابيون أن الحج إلى مختلف الأماكن المقدسـة (باستثناء الحج إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة) يمثل شـكلا من أشـكال الوثنية. وفي حين أن المدينتين المقدسـتين، مكة المكرمة والمدينة المنورة، تشـيران ضمنا إلى التدين الإسلامي في العقل الغربي، فإن الحقيقة هي العكس من ذلك إلى حد ما؛ فحج المسـلمين من جميع أنحاء العالم الإسلامي هو ما يضفي كونية معينة على هاتين المدينتين المقدستين وعلى منطقة الحجاز المحيطة بهما. إن الحجاز، «بسـكانها من الشـبان المتحضرين، والمتنوعين دينيا، لم تتوافق بالكامل مطلقا مع الحكم السعودي والوهابي»، كما كتب الضابط في وكالة الاستخبارات المركزية بروس ريدل (Riedel)[7]. يتطلع شعب الحجاز إلى

البحر الأحمر، ومصر، وسـورية للحصول عـلى المعونة الثقافية، وليس إلى صحراء نجـد الكالحة بمن فيها من الوهابيين. والحقيقـة الجوهرية لهذا التاريخ هي أن الوهابيين لم يتمكنوا من السيطرة بصورة دائمة على محيط شبه الجزيرة العربية، عـلى الرغم مـن أن خصومهم لاقوا صعوبـة مماثلة في الاسـتحواذ على المنطقة المركزيـة لنجد. إن المملكة العربية السـعودية القائمة اليـوم، على الرغم من أن تسـميتها تمثل تكريمـا لرؤية ومهارات رجـل عاش في النصـف الأول من القرن العشرين، هو الملك عبد العزيز بن سـعود - النجـدي الذي غزا الحجاز في العام 1925 - تنطبـق على هذا التصميم الجغرافي[8]. تركّز الدولة على نجد وعاصمتها، الرياض، ولا تشمل إمارات ساحل الخليج العربي، ولا عُمان أو اليمن.

إن الخطر الأسـاسي على المملكة العربية السـعودية المرتكـزة على نجد هو اليمـن؛ فعلى الرغـم من أن اليمن لا تمتلك سـوى ربع مسـاحة أراضي المملكة العربية السـعودية، فإن سكانها يبلغون الحجم نفسه تقريبا؛ بحيث يقع القلب الديموغرافي البالغ الأهمية لشـبه الجزيرة العربية في الركن الجنوبي الغربي الجبلي منها، حيث الهضاب البازلتية الشاسـعة، التي تنتصب مشـكّلة تكوينات تشـبه القـلاع الرملية والفوهات البركانية، في حين تؤوي شـبكة مـن الواحات الكثيفة سـكانها منذ العصـور القديمة. وفي الحقيقـة، لم يتمكن الأتـراك العثمانيون ولا البريطانيون من السـيطرة عـلى اليمن أبدا. ومثل نيبال وأفغانسـتان، فلم يكن اليمن مستعمرة حقيقية على الإطلاق، ولذلك لم تتطور فيه مؤسسات بيروقراطية قوية. وعندما سافرت عبر أرجاء منطقة الحدود السعودية - اليمنية قبل سنوات، كانت مزدحمة بشـاحنات صغيرة مملوءة بالشبان المسلحين، الموالين لهذا الشيخ أو ذاك، حتـى أن وجود الحكومة اليمنية كان لا يكاد يُذكر. تصل تقديرات عدد الأسـلحة الناريـة داخل حدود اليمـن إلى معدلات عالية تبلـغ إلى ثمانين مليون قطعـة - أي ما يقرب من ثلاثة أسـلحة لكل يمني. لـن أنسى أبدا ما قاله لي خبير عسـكري أمريكي في العاصمة اليمنية صنعـاء: «في اليمن، هناك أكثر من عشرين مليون شخص مكافح، وذي عقلية تجارية، ومسلح تسليحا جيدا، وكل منهم يعمل بكل جد مقارنة بجيرانهم السـعوديين. إنها المستقبل، وهو ما يصيب الحكومة في الرياض بالقلق».



Aral Sea
Caspian Sea
SOGDIANA
Bactra
Arabian Gulf
PENINSULA
Arabian Sea
0 miles 500
0 km 500


THE BALKANS
Black Sea
CAUCASUS
ASIA MINOR
GREECE
ANATOLIA
Royal Road
ARMENIA
TAURUS MTS.
Crete
Mediterranean Sea
Cyprus
Euphrates R.
Tigris R.
ASSYRIA
EGYPT
Red Sea
ARABIAN
AFRICA
PERSIAN EMPIRE IN 500 B.C.

مفتاح الخريطة:

Africa	أفريقيا
Anatolia	الأناضول
Arabian Gulf	الخليج العربي
Arabian Peninsula	شبه الجزيرة العربية
Arabian Sea	بحر العرب
Aral Sea	بحر أرال
Armenia	أرمينيا
Asia Minor	آسيا الصغرى
Assyria	آشور
Bactra	بلخ
Bactria	باختر
Black Sea	البحر الأسود
Caspian Sea	بحر قزوين
Caucasus	القوقاز
Crete	كريت
Cyprus	قبرص
Egypt	مصر
Euphrates R.	نهر الفرات
Greece	اليونان
Hindu Kush	هندوكوش
Indus R.	نهر السند
Indus Valley	وادي السند
KM	كيلومتر
Mediterranean Sea	البحر المتوسط
Miles	أميال
Parthia	بارثية
Persia	فارس
Persian Empire in 500 B.C	الإمبراطورية الفارسية في العام ٥٠٠ ق. م
Red Sea	البحر الأحمر
Royal Road	الطريق الملكية
Sogdiana	سوقديانا
Taurus MTS.	جبال طوروس
The Balkans	البلقان
Tigris R.	نهر دجلة
Zagros MTS.	جبل زاغروس

تُعد المملكة العربية السعودية مرادفا لشبه الجزيرة العربية بالطريقة التي تُعد بها الهند مرادفا لشبه القارة الهندية. ولكن في حين أن كل أرجاء الهند تتسم بكثافة سكانية عالية، فإن المملكة العربية السعودية تشكل شبكة مبهمة nelbulous جغرافيًا من الواحات التي تفصل بينها مساحات شاسعة من الصحارى الجدباء. وهكذا، تمتلك الطرق السريعة والخطوط الجوية المحلية أهمية حاسمة في تحقيق تماسك المملكة العربية السعودية. وفي حين بُنيت الهند على فكرة الديموقراطية والتعددية الدينية، فقد تأسست المملكة العربية السعودية على الولاء لعائلة ممتدة. وعلى الرغم من أن الهند محاطة تقريبا بدول شبه فاشلة، تتلاشى حدود المملكة العربية السعودية إلى صحراء غير ضارة إلى الشمال، وتحميها (في معظم الأجزاء) إمارات قوية، وجيدة الحكم، ومكتفية ذاتيا إلى الشرق والجنوب الشرقي: وهي إمارات تُعد، بدورها، نتاجا لعوامل التاريخ والجغرافيا. ولأن الأراضي التي تمثل الكويت، والبحرين، وقطر، والإمارات العربية المتحدة في الوقت الحاضر تقع جميعها على طول الطريق التجارية للقوة البحرية الأكبر في القرن التاسع عشر، أي بريطانيا العظمى، وخاصة بطول الطريق إلى الهند، قامت بريطانيا بالتفاوض مع شيوخها على الصفقات التي أدت إلى استقلالها في أعقاب الحرب العالمية الثانية. أما الاحتياطيات الهائلة من النفط فتحكي بقية قصة «دول الكنوز الأسطورية» Eldorado States هذه، على حد قول المستعرب البريطاني بيتر مانسفيلد Mansfield [9].

خلاصة القول أنه في شبه الجزيرة العربية، يبقى جنوب غرب البلاد ذو الكثافة السكانية العالية هو المنطقة التي تكون المملكة العربية السعودية فيها غير حصينة بالفعل: فمن هنا تتدفق الأسلحة، والمتفجرات، والمخدرات، وأوراق القات عبر الحدود اليمنية. إن مستقبل اليمن المزدحم بسكانه، وذي الطبيعة القبلية سيمارس دورا كبيرا في تحديد مستقبل المملكة العربية السعودية، وربما كان ذلك متعلقا بالجغرافيا أكثر مما يتعلق بالأفكار.

أما الهضبة الإيرانية، من الناحية الأخرى، فتمثل مرادفا لدولة واحدة فقط، هي إيران. يبلغ عدد سكان إيران 74 مليون نسمة، وهو 2.5 ضعف سكان المملكة العربية السعودية، ويُعد الأكبر في الشرق الأوسط، جنبا إلى جنب مع تركيا ومصر.

وبالإضافـة إلى ذلك، فقد تمكنت إيران بشـكل لافت للنظر من تقليل معدل نموها السكاني، وصولا إلى أقل من واحد في المائة، في حين أن 22 في المائة فقط من سكانها هم دون سن الخامسة عشرة. وبالتالي، فإن سكان إيران لا يمثلون عبئا مثل المملكة العربية السـعودية، بل أحد الأصول المفيدة. وبوسع المرء أن يجادل بأن تركيا، على سبيل المثال، تضم عددا أكبر من السكان، مع معدل منخفض بالمثل للنمو السكاني، ومعدل أعـلى لمعرفة القراءة والكتابة. وعلاوة على ذلك، فـإن تركيا تمتلك اقتصادا زراعيا وصناعيا يتسـم بكونه أكثر اسـتقرارا من مثيله في إيران. سوف أتناول حالة تركيـا في وقت لاحق. أما الآن، فلاحظوا أن تركيا تقع إلى الشـمال الغربي من إيران، أي أقرب إلى أوروبا وأبعد بكثير عن المراكز السكانية العربية السنّية الرئيسية. تقع تركيـا أيضـا في المراتب الدنيا من منتجي النفط والغـاز؛ في حين تحتل إيران المرتبة الثالثـة في العـالم من حيث الاحتياطيات النفطية، بمخـزون يبلغ 133 مليار برميل، لكنهـا الثانية من حيث احتياطيـات الغاز الطبيعي، إذ يبلـغ حجم مخزونها 970 تريليون قدم مكعبة. ومع ذلك، فإن أفضلية إيران من حيث الموقع - حيث تقع إلى الجنـوب مباشرة من الأرض المركزية التي وصفهـا ماكيندر، وداخل الأرض المحيطة التي وصفها سبيكمان - هي التي، أكثر من أي عامل آخر، تستحق التدبر بالفعل.

تمكن الأغلبية الساحقة من مخزونات النفط والغاز الطبيعي في الشرق الأوسط الكبـير إما في الخليج العربي أو المناطق المتاخمة لبحر قزوين. مثلما تشـع ممرات الشحن من الخليج العربي، فإن خطوط الأنابيب تشع، وسوف تشع، من منطقة بحر قزوين إلى البحر المتوسـط والبحر الأسـود والصين والمحيط الهندي. بيد أن الدولة الوحيـدة التي تمتد عبر كلتا المنطقتين المنتجتـين للطاقة هي إيران، والتي تمتد من بحر قزوين إلى الخليج العربي[10]. تشير بعض التقديرات إلى أن منطقة الخليج العربي تمتلك نحو 55 في المائة من احتياطيات النفط الخام في العالم، في حين تسـيطر إيران على الخليج كله، من شـط العرب على الحـدود العراقية إلى مضيق هرمز على بُعد 615 ميلا. وبسـبب خلجانه ومداخله وخيرانه وجزره - وهي أماكن ممتازة لإخفاء القـوارب الانتحاريـة السريعة التي تصطدم بالناقلات - فإن طول الخط السـاحلي الإيراني داخل مضيق هرمز يبلغ 1356 ميلا بحريا؛ في حين أن السـاحل التالي له في الطول، والخاص بدولة الإمارات العربية المتحدة، لا يبعد عنه سوى 733 ميلا بحريا.

تمتلك إيران أيضا 300 ميل من السواحل على بحر العرب، بما في ذلك ميناء تشابهار بالقرب من الحدود الباكستانية، مما يجعل إيران بالغة الأهمية لإتاحة الوصول إلى المياه الدافئة أمام البلدان غير الساحلية في آسيا الوسطى، والتي كانت تابعة للاتحاد السوفييتي السابق. وفي الوقت نفسه، فإن الساحل الإيراني على بحر قزوين في أقصى الشمال، والذي تعلوه جبال تكسوها غابات كثيفة، فيمتد نحو 400 ميل: من أستارا في الغرب، على الحدود مع جمهورية أذربيجان السوفييتية السابقة، ثم يلتف حتى يصل إلى بندر تركمان في الشرق، على الحدود مع تركمانستان.

وعنـــد إلقاء نظرة على خريطة تضاريس أوراســـيا، ســـيتضح لنـــا أكثر من ذلك؛ فالجزء الخلفي الواســـع من جبال زاغروس يمر عبر إيران نزولا من هضبة الأناضول في الشمال الغربي إلى بلوشستان في جنوب شرق البلاد. وإلى الغرب من سلسلة جبال زاغـــروس، تكـــون كل الطرق مفتوحة إلى بلاد ما بين النهريـــن. وعندما قامت كاتبة الرحلات البريطانية المتخصصة في شـــؤون المنطقة، فريا ســـتارك Stark، باستكشاف منطقة لُرستان الإيرانية في جبال زاغروس في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، اتخذت مقرا طبيعيا لها خارج بغداد، وليس طهران[11]. وإلى الشرق والشـــمال الشرقي، فإن الطـــرق مفتوحة إلى خراســـان وصحارى قره قـــوم (الرمال الســـوداء) وقيزيل كوم (الرمال الحمراء) في تركمانســـتان وأوزبكســـتان، على الترتيب. وكـــما أن إيران تمتد عـــبر حقول الطاقة الغنيـــة في كل من الخليج العربي وبحـــر قزوين، فهي تمتد أيضا عبر الشرق الأوســـط الحقيقي وآسيا الوسطى. ولا تحظى أي دولة عربية بمثل هذه المكانـــة (تماما كـــما أنه لا توجد دولة عربية تمتد عبر المنطقتـــين المنتجتين للطاقة). والواقع أن الغزو المغولي لإيران، الذي أســـفر عن مقتل مئات الآلاف من البشر على الأقل، وتدمير منظومة قنوات الري، كان بمثل هذه الشدة على وجه التحديد بسبب التطلعات الإيرانية بالنســـبة إلى آسيا الوسطى. من المحتمل أن يكون النفوذ الإيراني في الجمهوريات الســـوفييتية الســـابقة في القوقاز وآســـيا الوسطى هائلا، على الرغم من أن هذه الجمهوريات الســـوفييتية السابقة نفسها، وبسبب وجود أبناء العرقية نفســـها في شـــمال إيران، قد تـــؤدي إلى زعزعة الدولة الإيرانيـــة نظريا. وفي حين أن أذربيجان، الواقعة على الحدود الشمالية الغربية لإيران، تضم نحو ثمانية ملايين من الأتـــراك الأذربيجانيين، يوجد ضعف هذا العدد في المحافظتين الإيرانيتين المجاورتين،

أذربيجان وطهران. كان الأذربيجانيون هم من أسسوا نظام الحكم الإيراني. كان أول شاه شيعي لإيران (إسماعيل، في العام 1501) متحدرا من أصول أذرية تركية. هناك رجال أعمال أذربيجانيين وآيات الله مهمين في إيران. وما أقصده هو أنه في حين تمتلك إيران نفوذا راسخا إلى الغرب في تركيا المجاورة وفي العالم العربي، فإن نفوذها إلى الشمال والشرق يتسم بالعمق نفسه؛ وإذا أتى المستقبل بأنظمة أقل قمعا، سواء في إيران أو في المنطقة الجنوبية المسلمة من الاتحاد السوفييتي السابق، يمكن أن يزداد النفوذ الإيراني عمقا، مع مزيد من التفاعلات الثقافية والسياسية.علاوة على ذلك، فقد كانت إيران، كما نعرف من عناوين الصحف، وعلى الأقل حتى العام 2011، في موقف سياسي تُحسد عليه بقرب البحر المتوسط: في قطاع غزة الذي تسيطر عليه حركة حماس، وجنوب لبنان الذي يسيطر عليه حزب الله، وفي سورية العلوية. ومع ذلك، فإن أحد تفسيرات التاريخ والجغرافيا يشير إلى وجود اختراق إيراني في جميع الاتجاهات. في قصر أباطرة الفرس من الأسرة الساسانية التي حكمت خلال القرن السادس، والواقع في المدائن [طيسفون: (Ctesiphon)]، إلى الجنوب من بغداد المعاصرة، كانت هناك مقاعد فارغة تحت العرش الملكي لإمبراطوري روما والصين، ولزعيم البدو الرحل في آسيا الوسطى، لاستخدامها في حال مجيء أولئك الحكام كمتوسلين إلى بلاط ملك الملوك[12]. ولم تقل طموحات الحكام الإيرانيين مع الحداثة؛ وبهذه الطريقة، فإن رجال الدين يشبهون الشاه الراحل في كثير من النواحي. وهذا هو السبب الرئيسي الذي يوجب على موسكو أن تتعامل بحذر فيما يتعلق بعلاقاتها مع إيران. منذ قرن من الزمان، كان لروسيا منطقة نفوذ في شمال إيران. وعلى الرغم من أن روسيا هي أضعف نسبيا الآن، فلايزال القرب والتواصل بين البلدين من الأهمية بمكان.

تتوافق إيران تماما تقريبا مع الهضبة الإيرانية - أو «قشتالة الشرق الأدنى»، كما وصفها مؤرخ جامعة برينستون، بيتر براون Brown - على الرغم من أن ديناميكية حضارتها تصل إلى أبعد منها بكثير. كانت إيران هي أول قوة عظمى في العالم القديم. وكما كتب براون، فإن الإمبراطورية الفارسية، حتى في الوقت الذي كانت تحاصر فيه اليونان، «قد انبسطت، مثل ذيل التنين... حتى وصلت إلى جيحون، وأفغانستان ووادي السند»[13]. ويتفق مع ذلك دبليو بارتولد Barthold، الجغرافي

الروسي العظيم الذي عاش في القرن العشرين، فيضع إيران الكبرى بين نهري الفرات والسند، ويصف الأكراد والأفغان على أنهما شعبان إيرانيان في الأساس[14].

ومن بين الشعوب القديمة في الشرق الأدنى، العبرانيون والإيرانيون وحدهم «يمتلكون نصوصا وتقاليد ثقافية بقيت حتى العصر الحديث»، كما كتب عالم اللغويات نيكولاس أوستلر Ostler[15]. لم تحل العربية محل الفارسية، مثلما حدث مع عدد كبير من اللغات الأخرى، وهي اليوم بالشكل نفسه الذي كانت عليه في القرن الحادي عشر، على الرغم من أنها اعتمدت الحروف العربية. تمتلك إيران سجلا أكثر مهابة بكثير كـ «دولة - أمة» وكحضارة راقية من معظم مناطق العالم العربي، ومن جميع أرجاء منطقة الهلال الخصيب، بما في ذلك بلاد ما بين النهرين وفلسطين. ليس هناك شيء مصطنع بخصوص إيران، وبعبارة أخرى: إن مراكز القوى الشديدة التنافس ضمن نظامها الكهنوتي تشير إلى وجود مستوى من النظام المؤسسي أعلى من أي مكان تقريبا في المنطقة، باستثناء إسرائيل وتركيا. ومثلما أن الشرق الأوسط هو رباعي الأضلاع الخاص بأوراسيا، أي الجزيرة العالمية، فإن إيران هي المحور المشترك الخاص بمنطقة الشرق الأوسط. إن محور ماكيندر، بدلا من أن يقع في أراضي السهوب في آسيا الوسطى، ينبغي أن يُنقل إلى الهضبة الإيرانية الواقعة إلى الجنوب مباشرة. وليس من المستغرب أن يزداد التودّد إلى إيران من قبل كل من الهند والصين، اللتين قد تتشاركان قواتهما البحرية عند نقطة ما من القرن الحادي والعشرين في الهيمنة، مع الولايات المتحدة، على الممرات البحرية الأوراسية. وعلى الرغم من أن إيران هي أصغر بكثير في الحجم وعدد السكان من هاتين القوتين، أو من روسيا أو أوروبا بالمناسبة؛ فإن إيران، ولأنها تحظى بالجغرافيا الرئيسية للشرق الأوسط - من حيث الموقع والسكان وموارد الطاقة - فهي، بالتالي، ذات أهمية محورية بالنسبة إلى الجغرافيا السياسية العالمية.

هناك، أيضا، ما يسميه المؤرخ البريطاني مايكل أكسوردي Axworthy «الفكرة الإيرانية»، والتي، كما يفسرها هو، تتعلق بالثقافة واللغة بقدر ما تتعلق بالعرق والأرض[16]. وهو يعني بذلك أن إيران، مثلما كانت اليونان والصين في العصور القديمة، هي عامل جذب حضاري، والذي يسحب الشعوب واللغات الأخرى إلى

مـداره اللغوي: وهـو جوهر القوة الناعمـة، بعبارة أخرى، والذي يجسـد بدرجة كبـيرة مفهوم ماكنيـل لتأثير حضارة وثقافـة بعينها على أخـرى. إن لغات الداري Dari، والطاجيكيـة Tajik، والأردية Urdu، والهندية Hindi، والبنغالية Bengali، والعربية العراقية كلها إما متفاوتات Variants من الفارسية أو أنها تأثرت بها كثيرا. ويعني هذا أنه بوسـع المرء أن يسـافر من بغـداد إلى كالكوتا ويظل ضمن المجال الثقافي الفارسي بصورة ما. إن مسحا سريعا للتاريخ الإيراني، مع التركيز على الخرائط القديمة، يوضح هذه الدينامية بصورة أكبر.

بـدأت إيران الكـبرى في العام 700 قبـل الميلاد، مع قيـام الميديين Medes، وهم شـعب إيراني قديم، بمسـاعدة السـكوثيين (الإصقوث) Scythians، بإنشاء دولة مسـتقلة في شـمال غرب إيران. وبحلول العام 600 قبل الميلاد، امتدت هذه الإمبراطورية من وسـط الأناضـول إلى جبال هندو كوش (تركيا إلى أفغانسـتان)، وكذلـك امتدت جنوبـا إلى الخليج العربي. وفي العـام 549 قبل الميلاد، قام كورش (الكبير)، وهو أمير من الأسرة الأخمينية Achaemenes الفارسـية، بالاستيلاء على عاصمـة الميديين إكبتانا (همـدان) في غرب إيران، ومن ثم انطلق إلى جولة أخرى من الغزوات. إن خريطة الإمبراطورية الأخمينية، التي كانت تُحكم من برسبوليس (قرب شيراز) في جنوب إيران، تُظهر بلاد فارس العتيقة في أوج مجدها، إذ امتدت ما بين القرنين السـادس والرابع قبل الميلاد من تراقيا Thrace ومقدونيا في شـمال غـرب البلاد، ومـن ليبيا ومصر في الجنوب الغربي، بطـول الطريق إلى البنجاب في الشرق؛ ومن القوقاز وبحر قزوين وبحر آرال في الشـمال إلى الخليج العربي وبحر العرب في الجنوب. كان هذا هو «البوسـفور إلى السـند»، بمـا في ذلك نهر النيل. لم تتمكـن أي إمبراطورية مـن مجاراتها حتى تلك النقطة مـن تاريخ العالم. وفي حـين أن حروب القرن الخامس قبـل الميلاد بين بلاد فـارس واليونان تهيمن على المواقف الغربية تجاه إيران القديمة، حيث ينحاز تعاطفنا مع الإغريق المستغربين Westernized ضد الفرس الآسـيويين، فإن الحال أيضا، كما أشار إليه هودجسون، هو أن الويكومين، في ظل السـلم والتسامح النسبي والسيادة الوطنية لبلاد فارس تحـت حكم الأخمينيـين والإمبراطوريات اللاحقـة، قد وفّر قاعـدة قوية لظهور وازدهار الديانات السماوية الكبرى[17].

كتب أكسوردذي أن «البارثيين يجسدون أفضل جوانب العبقرية الإيرانية - أي الاعتراف، والتقبل، والتسامح مع تعقيد الثقافات... التي حكموها»[18]. ومن مقرهم الرئيسي في منطقة خراسان إلى الشمال الشرقي من إيران، والمتاخمة لجبال قره قوم، كما كانوا يتحدثون إحدى اللغات الإيرانية، حكم البارثيون ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي، وامتدت مملكتهم عموما من سورية والعراق إلى وسط أفغانستان وباكستان، بما في ذلك أرمينيا وتركمانستان. وهكذا، فبدلا من أن تمتد من «البوسفور إلى السند» أو من «النيل إلى جيحون» مثل بلاد فارس في عهد الأخمينيين، فإن الإمبراطورية البارثية تشكل رؤية أكثر واقعية لإيران الكبرى في القرن الحادي والعشرين، وهذا ليس بالضرورة أمرا سيئا. كانت الإمبراطورية البارثية لامركزية للغاية، إذ كانت منطقة للنفوذ القوي بدلا من الحكم المباشر، والتي كانت لها توجهات قوية تجاه الفن، والهندسة المعمارية، والممارسات الإدارية الموروثة عن الإغريق. أما بالنسبة إلى إيران الحالية، فليس سرا أن نظام الملالي يتسم بكونه متشددا، لكن القوى الديموغرافية، والاقتصادية، والسياسية تتسم بالقدر نفسه من الدينامية، كما تعاني قطاعات رئيسية من السكان بسبب التململ.

إن سجل القرون الوسطى، من الناحيتين الخرائطية واللغوية، ينبع من ذلك القديم، وإن كان ذلك يُحتمل أنه تحقق بطرق أكثر غموضا. وفي القرن الثامن، تحوّل المركز السياسي للعالم العربي شرقا من سورية إلى بلاد ما بين النهرين: أي من الخلفاء الأمويين إلى العباسيين. حكمت الخلافة العباسية، التي بلغت أوجها في منتصف القرن التاسع للميلاد، من تونس شرقا إلى باكستان، ومن القوقاز وآسيا الوسطى جنوبا إلى الخليج العربي. وكانت عاصمتها هي المدينة الجديدة التي سميت بغداد، على مقربة من العاصمة القديمة للدولة الساسانية الفارسية في المدائن؛ أما الممارسات البيروقراطية الفارسية، التي أضافت طبقات جديدة كاملة من التسلسل الهرمي، فقد عززت أركان هذه الإمبراطورية الجديدة. أصبحت الخلافة العباسية رمزا لنظام إيراني مستبد أكثر من كونها ترمز إلى مملكة عربية. وقد وصف بعض المؤرخين الخلافة العباسية باعتبارها ما يقابل «إعادة غزو ثقافي» للشرق الأوسط من قبل الفرس المتخفين تحت غطاء الحكام العرب[19]. استسلم العباسيون للممارسات الفارسية تماما كما استسلم الأمويون، لكونهم أقرب إلى آسيا

الصغـرى، لتلك البيزنطية. وكما كتب المؤرخ فيليب ك. حتي Hitti، فقد «سـادت الألقاب الفارسـية، والنبيذ والزوجات الفارسـيات، والمحظيات الفارسيات، والأغاني الفارسـية، وكذلك الأفكار والآراء الفارسـية»[20]. وقد ساعد الفرس أيضا على تحديد العـمارة الفخمة المعتمدة على القرميد في بغداد القرون الوسـطى وعلى التصميم الدائري لأحيائها.

وكما كتب بيتر براون من جامعة برينستون، «في الخيال الغربي، تقف الإمبراطورية الإسـلامية [العباسية] كمثال على قوة شرقية. ولا يدين الإسلام بهذا التوجّه الحاسم إلى النبي محمد، ولا للفاتحين القادرين على التلاؤم في القرن السابع الميلادي، ولكن للانبعاث الهائل للتقاليد الشرقية الفارسـية خلال القرنين الثامن والتاسـع». لم يكن شـارل مارتل Martel في معركة بلاط الشـهداء Tours التـي دارت رحاها في العام 732م هو السـبب الرئيسي في «إجبار آلة الحرب العربية على التوقف»، بل إنشـاء بغداد، التي استبدلت دينامية فرسان البدو بإدارة فارسية إمبراطورية ومترفة[21].

بيـد أنه حتى الاجتيـاح المغولي لبغـداد في القرن الثالث عـشر، والذي دمّر العـراق، وبخاصة منظومة الـري فيها (كما فعل في إيران)، وهـو دمار لم يتعافَ العـراق منه بالكامل قَط، لم يتمكن من إيقاف حيوية الفنون والآداب الفارسـية. وقـد ازدهرت أشـعار كل مـن الرومي، والعراقي، وسـعدي الشـيرازي، وحافظ الشـيرازي في أعقـاب هجوم هولاكو خـان، الذي اختزل بلاد ما بـين النهرين إلى مستنقع للملاريا. وبسبب شعورهم بالحنين إلى أسلافهم الساسانيين، الذين حكموا إمبراطورية أكبر من تلك التي سادها أسلافهم البارثيون، وعلى قدم المساواة تقريبا لتلك التي حكمها الأخمينيون، قام الفنانون والعلماء الفارسـيون بزخرفة الساحة الفكرية واللغوية لسلسلة من الإمبراطوريات غير الفارسية - العباسية، والغزنوية، والسلجوقية، والمغولية، والمنغولية. كانت الفارسية هي لغة البلاط المغولي، وكذلك اللغة الديبلوماسـية للعثمانيين. وفي القرون الوسـطى، ربمـا لم يتمكن الفرس من البوسـفور إلى السند بصورة مباشرة، كما فعلوا في العصور القديمة، لكنهم هيمنوا على الحياة الأدبية بالقدر نفسه. كانت «إمبراطورية العقل الإيرانية»، كما يسميها أكسـورذي، هي الفكـرة القوية التي عملت على تضخيم موضـع إيران الجغرافي الذي تُحسـد عليه، بحيث كانت إيـران الكبرى ظاهرة طبيعيـة تاريخيا[22]. وفي

هذا السياق، يطرح أرنولد توينبي Toynbee هذه الفرضية المحيرة: إذا لم يكن تيمورلنك (تيمور) قد أدار ظهره لشمال ووسط أوراسيا وهاجم إيران في العام 1381، فمن المحتمل أن العلاقة بين بلاد ما وراء النهر Transoxiana وروسيا ستكون «معكوس» ما صارت إليه بالفعل في العصر الحديث، مع وجود دولة في حجم الاتحاد السوفييتي تقريبا، لكنها لا تُحكم من قبل الروس من موسكو، بل عن طريق إيرانيين يحكمون من سمرقند[23].

أما المذهب الشيعي فيمثل أحد العناصر المهمة لهذه الفكرة، وفي حين أن وصول المهدي المنتظر على هيئة الإمام الثاني عشر الغائب يعني نهاية الظلم، وبالتالي فهو محفز للنشاط الراديكالي، فليس هناك الكثير في المذهب الشيعي، فيما عدا ذلك، مما يدفع رجال الدين إلى ممارسة دور سياسي علني؛ وكذلك يضم المذهب الشيعي نزعة صوفية تذعن للقوى التي تستنير بالصوفية في كثير من الأحيان[24]. شاهد المثال الذي ضربه رجل الدين العراقي البارز في السنوات الأخيرة، آية الله علي السيستاني، الذي أطلق في لحظات محورية تماما نداء من أجل المصالحة السياسية من وراء الكواليس. وعلى وجه التحديد بسبب العلاقة التكافلية بين العراق وإيران على مر التاريخ، والتي يرجع أساسها إلى الجغرافيا، فمن المعقول تماما في إيران ما بعد الثورة أن يتوجّه الإيرانيون روحيا نحو المدينتين الشيعيتين المقدستين في العراق، أي النجف وكربلاء، أكثر مما يفعلون تجاه مدينتهم المقدسة، «قُم»؛ أو أن تعتمد قُم نفسها الطريقة الصوفية quietism للنجف وكربلاء.

يخبرنا الباحث الفرنسي أوليفييه روي Roy بأن التشيّع، تاريخيا، هو ظاهرة عربية جاءت متأخرا إلى إيران، لكنها أدت في نهاية المطاف إلى إنشاء التسلسل الهرمي الذي مكن رجال الدين من تولي السلطة. وقد تعزز المذهب الشيعي أكثر بفعل تقاليد الدولة القوية والبيروقراطية التي تمتعت بها إيران منذ العصور القديمة، مقارنة بتلك السائدة في العالم العربي، والذي هو، كما نعرف، يمثل جزئيا هبة للتماسك المكاني للهضبة الإيرانية. جلب الصفويون المذهب الشيعي إلى إيران في القرن السادس عشر. ويأتي اسمهم من اسم جماعتهم الصوفية المقاتلة الخاصة، الصفوية، التي كانت في الأصل تتبع المذهب السني. كان الصفويون يمثلون واحدة من عدد من الجماعات الصوفية التي كانت تتنقل على ظهور الخيل في أواخر القرن

الخامس عشر، ولها أصول مختلطة - تركية، وأذربيجانية، وجورجية، وفارسية - وهي احتلت منطقة الهضاب الجبلية بين البحر الأسود وبحر قزوين، حيث تلتقي مناطق شرق الأناضـول، والقوقاز، وشـمال غرب إيران. ومن أجل بناء دولة مسـتقرة على الهضبـة الإيرانية التي تتحدث الفارسـية، اعتنق أولئك الملـوك الجدد ذوو الأصول اللغوية والجغرافية الانتقائية مذهبَ الشـيعة الإثني عشرية باعتباره دين الدولة، الذي ينتظر عودة الإمام الثاني عشر، وهو سـليل مبـاشر للنبي محمد، وهو الإمام الـذي يعتقدون أنه لم يمت، ولكنـه في حالة غيبة[25]. وبطبيعة الحال، لم يكن تطور هـذا محتما بسـبب التاريخ أو الجغرافيـا، كما اعتمد إلى حد كبـير على مجموعة متنوعـة الشـخصيات والظروف. وعلى سـبيل المثال، فلو لم يكـن الحاكم الإلخاني Ilkhanid أولجيتو، وهو سليل خانات المغول، قد تحوّل إلى المذهب الشيعي الإثني عشري في القرن الثالث عشر، فلربما كان تطوّر المذهب الشيعي في شمال غرب إيران قـد اتخذ منحى مختلفا، ومن يدري كيف كانت الأحداث ستسـير اعتبارا من تلك النقطة. وعلى أي حال، فقد كان المذهب الشيعي يزداد قوة بين مختلف الجماعات التركية في شـمال غرب إيران، مما مهد الساحة أمام ظهور الشاه إسماعيل الصفوي، الذي فرض المذهب الشـيعي في أعقـاب غزواته، وجلب رجـال الدين العرب من جنوب لبنان والبحرين الحالية لتشكيل نواة رجال الدين التابعين للدولة[26].

امتدت الإمبراطورية الصفوية في أوج مجدها ما بين هضبة الأناضول، وسورية وبلاد ما بين النهرين، إلى وسـط أفغانستان وباكستان - فيما يمثل صورة مغايرة أخرى لإيران الكبرى عبر التاريخ. كان المذهب الشيعي عاملا مساعدا على تشكّل إيران كدولة قومية حديثة، على الرغم من أن «أيرنة» Iranianization الأقليات الشـيعية غير الفارسية في القرن السادس عشر قد ساعد أيضا في هذا الصدد[27]. ربما كانت إيران دولة وأمة كبرى منذ العصور القديمة، لكن الصفويين، بفرضهم للمذهب الشيعي على الهضبة الإيرانية، عملـوا على إعادة تنظيـم إيران وإعدادها للعصر الحديث. والواقـع أن إيران الثورية في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين تمثل تعبيرا مناسـبا عن هذا الإرث القوي والاسـتثنائي. وبطبيعة الحـال، كان صعود آيات الله حدثا كئيبا من حيث العنـف الذي أحدثـه - وأنا لا أقصد أن أبالغ - في التقاليد الحسـية، والرفيعة الثقافة، والمحفّـزة فكريا للماضي الإيراني، (بلاد فارس - أو «أرض الشـعراء والورد!»، كما تصيح

بها الفقـرة التمهيدية لكتاب جيمس ج. موريـيـه Morier المعنون «مغامرات حاجي بابـا الأصفهاني»[28]). لكن المقارنة، كما تقول الحكمة المشـهورة، هي بداية كل معرفة جادة. ومقارنة بالاضطرابات والثورات التي وقعت في العالم العربي خلال المراحل الأولى والوسـطى من الحرب الباردة، كان النظـام الذي بشرت به الثورة الإيرانية خلال عامي 1978 - 1979 لافتـا للنظر من حيـث حيويته وحداثته. والحقيقة هي، وهو أمر يعود مباشرة إلى الأخمينيين الذين عاشوا العصور القديمة، أن كل ما يتعلق بالماضي والحاضر الإيراني يتسـم بجودته العالية، سواء تمثل ذلك في دينامية إمبراطورياتها من كورش إلى محمود أحمدي نجاد، أو في الفكر السياسي وكتابات رجال الدين الشيعة؛ أو في الكفاءة المعقدة للنظام البيروقراطي وأجهزة الأمن في تضييق الخناق على المعارضين. وقد شكّل النظام الثوري في طهران هيكلا حكوميا متطورا على نحو ثري، مع تنويع مراكز السلطة: فلـم تكن قط حكومـة إجرامية فظة يديرها رجل واحد من النـوع الذي أداره صدام حسين في العراق العربي المجاور.

وفي هذا السـياق، يخبرنا أوليفييه روي بأن «أصالة» الثـورة الإيرانية تكمن في التحالف بين رجال الدين ونخبة المثقفين الإسلاميين:

> لا شك في أن رجال الدين الشيعة هم أكثر انفتاحا على مجموع النصوص غير الإسـلامية من علماء السـنة [العرب]؛ فآيات الله هم من كبار القراء (بما في ذلك قراءتهم لفكر ماركس وفيورباخ Feuerbach، ففي نفوسـهم شيء من الرهبان اليسوعيين أو الدومينيكان، وبالتالي فهم يجمعون بين التوفيق الواضح بين المعتقدات الفلسـفية وبين التقيّد الصارم بالفتاوى الدينية... تتسم الثقافة المزدوجة لرجال الدين الشـيعة بكونها لافتة للنظر: فهي متمسـكة بالتقاليد للغاية... ومع ذلك منفتحة للغاية على العالم الحديث[29].

والواقع أن هذه السـلالة المتقدمة والحداثية نسبيا هي ما يجعل من «الخيال الشـيعي»، على حد تعبير روي، «أكثر قدرة على التكيف مع فكرة الثورة بسهولة»: وهـي الفكرة التي، بدورها، تتطلب حسـا بالتاريخ والعدالـة الاجتماعية، جنبا إلى جنب مع ذلك المتعلق بالشهادة martyrdom. أما العالم العربي السني، فعلى الرغم من وجود عدد من المصلحين والمحدثين به، مثل محمد عبده ورشـيد رضا في أواخر القرن التاسـع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد افتقر ببساطة إلى فترة طويلة جدا

من التعرض للفلاسفة السياسيين الغربيين، مثل هيغل وماركس، مقارنة بالدرجة التي تعرضت بها لهم إيران، التي بنى الملالي فيها، من خلال أفكار هيغل وماركس، قاعدة تفوقهم الأخلاقي على فهم مغزى التاريخ. وعلى عكس السياسة المحافظة للمجاهدين الأفغان أو الأنظمة العسكرية الخانقة في العالم العربي، رأت إيران الثورية في ثمانينيات القرن العشرين نفسها كجزء من أخوّة شملت الساندينيين(*) في نيكاراغوا والمؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا[30]. وعلى الرغم من انحدار حكم رجال الدين في السنوات الأخيرة إلى مجرد قمع وحشي - وهي علامة على نظام مُنهك في مرحلة الانحدار، على طريقة بريجينيف - فإن الطبيعة المذهبية والمجردة للاقتتال الداخلي الذي لايزال يحدث وراء الأبواب المغلقة هي شهادة على الطبيعة الرفيعة للثقافة الإيرانية. ظلت الدولة الإيرانية أقوى وأكثر تنظيما من أي دولة في الشرق الأوسط الكبير، باستثناء تركيا وإسرائيل، كما أن الثورة الإسلامية لم تفكّك الدولة الإيرانية، ولكنها، بدلا من ذلك، ربطت نفسها بها. حافظ النظام على حق الاقتراع العام، وأسّس نظاما رئاسيا، على الرغم من إساءة استخدامه من قبل رجال الدين وأجهزة الأمن من خلال إجراء انتخابات مزورة على ما يبدو في العام 2009.

ومرة أخرى، ما جعل نظام الملالي في إيران فعالا للغاية في السعي إلى تحقيق مصالحه، من لبنان إلى أفغانستان، هو اندماجه في الدولة الإيرانية، والتي هي نفسها نتاج التاريخ والجغرافيا. أما الحركة الخضراء، التي ظهرت أثناء المظاهرات الضخمة المناهضة للنظام في أعقاب الانتخابات المتنازع عليها للعام 2009، فتشبه إلى حد كبير النظام الذي سعت إلى الإطاحة به؛ أي راقية إلى حد كبير وفقا لمعايير المنطقة (على الأقل حتى اندلاع ثورة الياسمين في تونس بعد ذلك بعامين)، وبالتالي تمثل دليلا آخر على العبقرية الإيرانية. يشكّل الخضر حركة ديموقراطية على مستوى العالم، بعد أن أتقنوا استخدام أحدث وسائل تكنولوجيا الاتصالات - مثل تويتر، والفيسبوك، والرسائل النصية - لتعزيز ثقلهم التنظيمي، كما اعتمدوا مزيجا قويا من القومية والقيم الأخلاقية العالمية للدفاع عن قضيتهم. وقد احتاج الأمر إلى استخدام كل وسائل القمع لدى الدولة الإيرانية، سواء الخفية والمعلنة، لدفع الخضر إلى العمل السري. ولو تمكن الخضر من الاستيلاء على السلطة في أي وقت كان، أو من تسهيل إحداث تغيير في فلسفة

(*) الجبهة الساندينية للتحرير الوطني: حزب سياسي حكم نيكاراغوا في الفترة من 1979 وحتى 1990. [المحرر].

نظام الملالي وسياسته الخارجية نحو الاعتدال، فإن إيران، بسبب دولتها القوية وفكرتها الديناميكية، ستمتلك الوسائل اللازمة لتحويل أسس الشرق الأوسط كله بعيدا عن التطرف؛ مما يوفر تعبيرا سياسيا عن برجوازية جديدة تحمل قيم الطبقة المتوسطة التي تنامت بهدوء في جميع أنحاء الشرق الأوسط الكبير، والتي حجبها الهوس الأمريكي بتنظيم القاعدة والتطرف، حتى أحداث الربيع العربي في العام 2011[31].

يتسم الحديث عن المصير بخطورته، لأنه ينطوي على قبول القدر والحتمية، لكن من الواضح أنه بالنظر إلى الجغرافيا والتاريخ ورأس المال البشري الإيراني، يبدو من المرجح أن الشرق الأوسط الكبير، وأوراسيا بالتبعية، سيتأثران بشدة بالتطور السياسي الداخلي في إيران، سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ. إن أفضل مؤشر على أن إيران لم تحقق مثل هذا المصير حتى الآن يكمن فيما لم يحدث بالكامل حتى الآن في آسيا الوسطى. اسمحوا لي أن أشرح ما أعنيه: إن الطبيعة الجغرافية لإيران، كما لاحظنا، تمنحها واجهة على آسيا الوسطى بالدرجة نفسها التي تطل بها على بلاد ما بين النهرين والشرق الأوسط. لكن تفكك الاتحاد السوفييتي لم يجلب سوى مكاسب محدودة لإيران، عندما نأخذ في اعتبارنا التاريخ الكامل لإيران الكبرى في المنطقة. إن لاحقة «ستان»، التي تستخدم في أسماء بلدان آسيا الوسطى، والتي تعني «مكان»، هي لفظة فارسية. كما تمثلت قنوات الأسلمة والحضارة في آسيا الوسطى في اللغة والثقافة الفارسيتين. كانت لغة المثقفين والنخب الأخرى في آسيا الوسطى حتى بداية القرن العشرين هي شكل أو آخر من الفارسية. ومع ذلك، كما يخبرنا روي وغيره من الباحثين، فبعد العام 1991، اعتمدت أذربيجان الشيعية الواقعة إلى الشمال الغربي الأبجدية اللاتينية، واتجهت إلى تركيا للوصاية عليها. أما بالنسبة إلى الجمهوريات الواقعة إلى الشمال الشرقي من إيران، فقد توجهت أوزبكستان السنية نحو أساس قومي أكثر من كونه إسلاميا للحكم، خوفا من الأصوليين المحليين: وهذا يجعلها تشعر بالحذر من إيران. أما طاجيكستان، السنية ولكن الناطقة بالفارسية، فتسعى إلى الحصول على الحماية من إيران، لكن إيران تتحفظ عن ذلك خوفا من استعداء كثير من المسلمين الناطقين باللغات التركية في المناطق الأخرى من آسيا الوسطى[32]. والأكثر من ذلك أنه بسبب كونهم من البدو الرحل وشبه الرحل، فنادرا ما كان سكان آسيا الوسطى من المسلمين الملتزمين في المقام الأول، ولم تؤد سبعة عقود من

الشيوعية إلا إلى تعزيز توجهاتهم العلمانية. وبالنظر إلى حاجتهم إلى تعلّم الإسلام من جديد، فهم يشعرون بالتثبيط والترهيب بسبب نظام الملالي في إيران.

وبالتأكيد، كانت هناك تطورات إيجابية من وجهة نظر طهران. إن إيران، كما يشهد برنامجها النووي، هي من بين البلدان الأكثر تقدما من الناحية التقنية في الشرق الأوسط (بما يتفق مع ثقافتها وسياستها)، وبالتالي فقد بنت العديد من مشروعات توليد الطاقة الكهرومائية والطرق والسكك الحديدية في بلدان آسيا الوسطى، والتي سترتبط كل منها بإيران في يوم ما - سواء مباشرة أو عن طريق أفغانستان. وعلاوة على ذلك، فهناك حاليا خط لأنابيب الغاز الطبيعي يربط جنوب شرق تركمانستان بشمال شرق إيران، ناقلا الغاز التركماني إلى منطقة بحر قزوين في إيران، وبالتالي السماح لطهران بتخصيص إنتاجها من الغاز في جنوب إيران للتصدير عبر الخليج العربي. (يترافق هذا مع وصلة السكك الحديدية التي بنيت في تسعينيات القرن العشرين، والتي تربط بين البلدين). تمتلك تركمانستان رابع أكبر احتياطيات من الغاز الطبيعي في العالم، لكنها قصرت كامل صادراتها من الغاز إلى إيران، والصين، وروسيا. ومن هنا ينشأ احتمال قيام محور أوراسي للطاقة، والذي توحّده الجغرافيا الحاسمة لثلاث قوى قارية كانت جميعها حتى العام 2011 مناهضة للديموقراطية الغربية[33]. قامت إيران وكازاخستان ببناء خط لأنابيب النفط يربط بين البلدين، حيث يُضَخ النفط الكازاخستاني إلى شمال إيران، على الرغم من أن كمية مساوية من النفط تُشحَن من جنوب إيران عبر الخليج العربي. كما سيتم ربط كازاخستان وإيران عن طريق السكك الحديدية، مما يزود كازاخستان بإمكان الوصول المباشر إلى الخليج. ويمكن أيضا أن يربط خط للسكك الحديدية بين طاجيكستان الجبلية وإيران، عبر أفغانستان. تمثل إيران أقصر الطرق التي يمكن أن تسلكها جميع هذه الدول الغنية بالموارد الطبيعية للوصول إلى الأسواق الدولية.

لنتخيل، إذن، إيران التي تقع بالعرض على مسارات خطوط أنابيب آسيا الوسطى، جنبا إلى جنب مع شبه الإمبراطورية التابعة لها في الشرق الأوسط الكبير. من الواضح أننا نتحدث هنا عن وريث في القرن القرن الحادي والعشرين لمحور الأرض المركزية لماكيندر. ولكن لاتزال هناك مشكلة. بالنظر إلى المكانة التي لا تزال تتمتع بها إيران الشيعية في بعض القطاعات في العالم العربي، فضلا القطاع الشيعي من جنوب لبنان ومن العراق - بسبب الدعم الذي لا يلين من قبل النظام للقضية الفلسطينية - فمن

المهـم ألا تنتقل هذه القدرة على جذب الجماهير خارج حدودها إلى آسـيا الوسـطى بالمثل. من بين القضايا المهمة هنا أن الجمهوريات السوفييتية السابقة تحتفظ بعلاقات ديبلوماسـية مع إسرائيل، كما تفتقر ببسـاطة إلى الكراهية تجاه الدولة اليهودية التي قد لاتزال موجودة في كل مكان من العالم العربي، على الرغم من المراحل الأولية للربيع العـربي. لكن هناك شـيئا أكبر وأعمق يجري بالفعل؛ وهو أمـر يحد من جاذبية إيران ليس فقط في آسيا الوسطى، بل وفي العالم العربي أيضا. وهذا الشيء هو استمرار الحكم الخانق لرجال الدين، والذي على الرغم من أنه مؤثر بالمعنى السـلبي - أي اسـتخدام تقاليـد الدولة الإيرانية القوية لسـحق المعارضة الديموقراطيـة بدهاء - فقد قلّل أيضا من الجاذبية اللغوية والكوزموبوليتانية التي حظيت بها على مر التاريخ إيران الكبرى، بالمعنـى الثقافي. لقد اختفت الألوان الصاخبة من المشـهد الإيراني في ظل هذا النظام، وحل محلها اللونان الأسود والأبيض.

قبل عدة سـنوات، كنت في عشـق أباد، عاصمة تركمانسـتان، التي تلوح في الأفق دائمـا، مـن موقعها الشـبيه بنقطة المراقبة، طهرانُ ومشـهدُ عبر الحدود في خراسـان الإيرانية كمركزين عالميين للتجارة والحج، في تناقض صارخ مع مشهد البداوة السائد في تركمانستان ذات الكثافة السكانية المنخفضة. ولكن في حين تسير المفاوضات السياسية حول التجارة وخطوط الأنابيب على قدم وسـاق، فإن إيران لا تحمل أي سحر حقيقي، أو أي جاذبية حقيقية لدى التركمان المسلمين، الذين هم علمانيون في معظمهم، والذين ينفّرهم الملالي. وعلى الرغم من النفوذ الواسـع الذي تحظى به إيران بسـبب تحديها المباشر لأمريكا وإسرائيل، فإنني لا أعتقد أننا سـوف نرى الجاذبية الحقيقية لإيران، في كل مجدها الثقافي، حتى يتحرر النظام. إن وجود إيران ديموقراطية أو شبه ديموقراطية، وتحديدا بسـبب القوة الجغرافية للدولة الإيرانية، يحمل إمكانية تحفيز مئات الملايين من إخوانهم المسلمين في كل من العالم العربي وآسيا الوسطى.

من الممكن مسـاعدة الليبرالية العربية السـنية الصاعدة، ليس فقط بسبب المثال الغـربي، أو بسـبب وجود عراق ديموقراطي عـلى الرغم من كونه مختـلا، ولكن أيضا بسـبب التحدي الذي تفرضه إيـران الليبرالية حديثا والشـيعية الاصطفائية eclectic تاريخيـا. وربما كان بوسـع إيـران مثل هذه أن تفعل ما فشـل في تحقيقه عقدان من الديموقراطية الغربية وتعزيز مشـاركة المجتمع المدني بعد الحرب الباردة، أي أن تؤدي إلى تخفيـف كبـير في القيود التي تفرضها الدول البوليسـية في بلدان آسـيا الوسـطى السوفييتية السابقة.

ولبعض الوقت، تمكّن النظام الشـيعي في إيران من إلهام المجموعات المهمّشة من السُّـنة المؤمنين والمضطهدين في جميع أنحاء الشرق الأوسـط للثـورة ضد حكوماتهم الفرعونيـة المنهكة، والتي سـقط بعضها بالفعل منذ ذلك الحين. ومن خلال رسـالتها المتشددة وأجهزتها الاستخباراتية الذكية، تمكنت إيران لفترة طويلة من إدارة إمبراطورية غير تقليدية، بعد حداثية، من الكيانات الإقليمية، بما في ذلك حركة حماس في فلسـطين وحـزب الله في لبنان، وجيش المهدي في جنـوب العراق. ومع ذلك فقد ازدادت بهدوء مشـاعر الكراهية للنظام الإيراني في الوطن ضمن كثير من الأوسـاط، حيث كان مفهوم الثورة الإسـلامية، الذي عايشه الإيرانيون بالفعل، يعني انقطاع التيار الكهربائي، وتدمير العملة المحلية، وسـوء الإدارة. إن المعركة على أوراسيا، كما أوضحت، تضم العديد من الجبهـات، وجميعها متشـابكة بعضها مع بعض بشـكل متزايد. لكـن الأولى بين هذه الجبهات المتساوية هي محاولة كسب قلوب وعقول الإيرانيين، الذين يشكلون، جنبا إلى جنب مع الأتراك، أكثر المجموعات السكانية تطورا في العالم الإسلامي. وهنا يلتقي صراع الأفـكار بالإملاءات التي تفرضها الجغرافيا: فهذا هو المكان الذي تلتقي فيه الإنسـانية الليبرالية التي وضعها أشعيا برلين مع شبه الحتمية التي تصورها هالفورد ماكيندر.

وكـما يبـدو أن قوى الجغرافيا لا تُقـاوم إضافة إلى كونها سـاحقة، فلا يزال هناك الكثير من الأمور المعلّقة. ولنأخذ، على سبيل المثال، قصة الفاتح الألمعي نادر شاه، الذي حكـم في القرن الثامن عشر خلال الحقبة بعد الصفوية. وعلى الرغم من أنه ذو أصول تركية Turkic، إذ يتحدر من خراسـان في شـمال شرق إيران، فقد امتدت الإمبراطورية الفارسـية لنادر شـاه من منطقة القوقاز إلى نهر السند. وقد حاصر العديد من البلدان مثـل بغداد، والبصرة، وكركوك، والموصل، وقندهار، وكابول، وهي الأماكن التي تورطت فيهـا أمريكا في أوائل القرن الحادي والعشرين، والتي نادرا ما كانت بعيدة عن الحكم الإيراني. وكما كتب مايكل أكسـورذي، لو لم يكن نادر شـاه قد صار مختل العقل خلال السـنوات الخمس الأخيرة من حياته، فلربما اسـتطاع أن يجعل إيران «دولة متعصرنة قادرة على مقاومة التدخل الاسـتعماري» لكل من البريطانيين والروس في القرن التاسع عـشر. ولكن بدلا من أن يذكره التاريـخ باعتباره بطرس الأكبر الفارسي، والذي ربما كان سـيغير بشـكل كبير من التاريخ الإيراني منذ ذلك الحين نحو الأفضل، فقد انتهى نظامه بفوضى وكارثة اقتصادية[34].

ثمة مثال آخر، وهو سـقوط الشاه في العام 1979. قال لي هنري كيسنجر ذات مرة إنه لو كانت إدارة جيمي كارتر قد تعاملت مع التمرد ضد الشـاه في أواخر سـبعينيات

القرن العشرين بصورة أكثر فعالية، فلربما كان الشـاه قد نجا، ولكانت إيران الآن مثل كوريـا الجنوبية، بامتلاكها نظاما ديناميكيا وديموقراطية متطورة على نحو غير مكتمل، والتي لديها دائما خلافات طفيفة مع الولايات المتحدة، لكنها تبقى حليفة لها في الأساس. كان نظام الشـاه، في رأيه، قادرا على الإصلاح، لاسـيما في ضوء الثورات الديموقراطية في الإمبراطورية السـوفييتية التي سـتأتي بعد عقد واحد من الزمـان. وعلى الرغم من أن إلقاء اللوم في سقوط الشاه على الرئيس كارتر قد يكون سطحيا للغاية، فإن الاحتمالات التي تثيرها حتى نتيجة مختلفة قليلا للثورة الإيرانية لاتزال مثيرة للاهتمام. من يدري؟ ما أعرفه هو أنني عندما سـافرت في جميع أنحاء إيران في تسـعينيات القرن العشرين، بعد أن جئت أخيرا من مصر، كانت الدولة الأولى أقل بكثير من حيث مناهضة الولايات المتحـدة ومعـاداة إسرائيل من تلك الأخـيرة. امتدت علاقة إيران الحميدة نسـبيا مع اليهود منذ العصور القديمة وحتى عهد الشاه الراحل. ينطوي سكان إيران على كل من الأمل والاحتمالات.

أو لنأخذ مثال الفرصة التـي أتيحت للولايات المتحدة في أعقاب هجمات الحـادي عـشر من سـبتمبر 2001، عندما دان كل من آيـة الله علي خامنئي والرئيـس محمد خاتمي إرهاب تنظيم القاعدة السـني بعبارات لا لبس فيها، كما نظّم الإيرانيون وقفات احتجاجية للترحّم على الضحايا في شـوارع طهران، على الرغم من أن حشـودا هللت ابتهاجا بالهجمات في بعض أجزاء من العالم العربي؛ أو المساعدة التي قدمتها إيران للتحالف الذي قادته الولايات المتحدة ضـد طالبان في وقت لاحق من ذلك العام، أو العرض الإيراني لاجراء محادثات مصيرية بعد سـقوط بغـداد في ربيع العام 2003. وتمثـل هذه كلها مؤشرات تـدل عـلى أن التاريـخ، حتى هذه النقطة مـن الزمن، لم يكـن في حاجة إلى أن يسـير في الاتجاه الذي سـار إليـه، فقد كانت هناك نتائـج ممكنة أخرى. تفرض الجغرافيا أن تمتلك إيران أهمية محورية لخطوط الاتجاهات السـائدة في الشرق الأوسـط الكبير وأوراسـيا، كما قد تفرض الكيفية التي سـتكون بها محورية، لكنها لا تستطيع إملاء الغرض الذي ستكون من أجله محورية، فهذا أمر يتعلق بقرارات الرجال.

أثناء كتابة هذه السـطور، ولكونها وفيةً للتقاليـد الإمبريالية المبتكرة لماضيها في العصور الوسـطى والقديمة، فقد أقامت إيران ببراعة إمبراطورية عسكرية بعد

حداثية، وهي الأولى من نوعها: واحدة من دون مستعمرات ومن بدون الدبابات، والمدرعات، وحاملات الطائرات التي تمثل المرافقات المعتادة للسلطة. وبدلا من الإمبريالية النمطية - المتمثلة في الغزو والاحتلال - فإن إيران، كما أشار إليه المؤلف والضابط الميداني السابق في وكالة الاستخبارات المركزية، روبرت باير Baer، هي قوة عظمى في منطقة الشرق الأوسط بفضل وجود «استراتيجية ذات ثلاث شعب للحرب بالوكالة، والأسلحة غير المتكافئة، واكتساب تعاطف... المضطهدين»، لاسيما جحافل الذكور من الشبان المحبطين. إن حزب الله، كما أشار إليه باير، «هو الدولة المفروضة بحكم الأمر الواقع» هناك، مع ثقل عسكري وتنظيمي أكثر، والتزام طائفي أكبر مما تمتلك السلطات الرسمية في بيروت. وفي غزة، فإن المساعدات العسكرية والمالية الشيعية الإيرانية السرية، إضافة إلى «رسالتها الفجة المناهضة للاستعمار»، قد أغرت الفلسطينيين الفقراء المحاصرين في ظروف أشبه بنظام الفصل العنصري في سويتو Soweto-like(*)، والمعزولين عن الدول العربية السنية المجاورة التي يحكمها أمثال الرئيس السابق مبارك[35]. إن إيران، التي تبعد بألف ميل إلى الشرق، شعرت بأنها أقرب إلى هؤلاء الفلسطينيين المضطهدين. كان هذا، أيضا، مثالا على العبقرية الإيرانية. وبالإضافة إلى ذلك، وعلى الأقل حتى العام 2011، كانت هناك حكومتان صديقتان في سورية والعراق، حيث تشبثت الأولى بإيران من أجل وجودها نفسه، لأنها حليفتها الحقيقية الوحيدة، أما الأخيرة فكانت مؤسستها السياسية مخترقة من قبل الاستخبارات الإيرانية، التي كان بوسعها المساعدة على تحقيق الاستقرار في البلاد أو زعزعة استقرارها، كما يحلو لها. وأخيرا، هناك الخليج العربي نفسه، حيث إيران هي القوة الرئيسية الوحيدة بسواحلها الطويلة والمتكسرة، في مقابل الإمارات العربية الصغيرة والضعيفة نسبيا، والتي تستطيع طهران بمفردها أن تهزم كل واحدة منها عسكريا، أو الإضرار بها اقتصاديا من خلال رعاية الإرهاب في مضيق هرمز.

على الرغم من كونه بغيضا ومرعبا، فهذا العنصر الأهم، مرة أخرى، والمتعلق بالتنوير، كان غائبا. وخلافا للإمبراطوريات الأخمينية، والساسانية، والصفوية، والإمبراطوريات الإيرانية الأخرى في الأيام الخوالي، التي كانت إما حميدة أو مُلهمة

(*) Soweto: اسم مركّب من أول حرفين في كلّ من الكلمات: South Western Townships، وهي منطقة مدنية من مناطق ومدينة جوهانسبرغ في جنوب أفريقيا. [المحرر].

حقا من الناحيتين الأخلاقية والثقافية على حد سواء، فإن إمبراطورية العقل الإيرانية الحاليــة هذه تحكم في الغالب بدافع الخوف والترهيب، من خلال الانتحاريين بدلا من الشعراء. ويؤدي هذا إلى تقليص قوتها وينذر بسقوطها في الوقت نفسه.

إن إيران، بثقافتها الغنية، ومســاحة أرضها الشاســعة، ومدنها المكتظة والمترامية الأطراف، على غرار الصين والهند، تمثل كَونًا في حد ذاتها، والذي ســيتحدد مســتقبله على نحو ساحق بفعل السياسات الداخلية والأوضاع الاجتماعية. ولكن إذا كان للمرء أن يستفرد محورا واحدا عند التفكير في مصير إيران، فسيكون العراق. إن العراق، كما يُخبرنا التاريخ والجغرافيا، مُكتنف في السياســة الإيرانية بدرجة لا تحظى بها أي دولة أجنبية أخرى. أدى الضريحان الشيعيان للإمام علي (ابن عم النبي وصهره) في النجف، وللإمام الحســين (حفيد النبي) في كربلاء، وكلاهما في وســط جنوب العراق، لإنشــاء مجتمعين لاهوتيين شــيعيين ينافســان مدينة قُم في إيران. ولــو تمكنت الديموقراطية العراقية من ضمان حتى الحد الأدنى من الاســتقرار، فمن الممكن لوجود مناخ فكري أكثر حرية في المدن العراقية المقدسة أن يؤثر في السياسة الإيرانية. وبمعنى أوسع، فإن وجود عراق ديموقراطي سيكون بمنزلة قوة جاذبة يمكن للإصلاحيين الإيرانيين الاستفادة منها في المســتقبل. ومع تورط الإيرانيين في السياسة العراقية بعمق أكثر، فإن التشابه بين البلدين بحدودهما الطويلة والمشــتركة يمكن أن يعمل على تقويض الأشــد قمعا من النظامين. ستزداد السياســة الإيرانية شراسة بفعل التفاعل مع المجتمع التعددي الشيعي ذي الأصول العرقية العربية. ومع استمرار تكشّف الأزمة الاقتصادية الإيرانية للعيــان، فقد ينفجر الإيرانيون العاديون غضبا على مئات الملايين من الدولارات التي تُنفق مــن قبل حكومتهم لشراء النفوذ في العراق، ولبنــان، وأماكن أخرى؛ فضلا عن كيف ســتزداد الكراهيــة للإيرانيين داخل العراق، كمقابل لـ «الأمريكيين البشــعين». ترغب إيران ببســاطة في الاســتفادة من الأحزاب الشــيعية العراقية في مواجهة تلك الســنية. لكن ذلك ليس ممكنا على الإطلاق، لأن ذلك من شــأنه تضييق الشــمولية الإســلامية الراديكاليــة التي تســعى إلى تمثيلها في عموم العالم الســنّي إلى طائفية لا جاذبية لها خارج مجتمع الشــيعة. وبالتالي، فقد تَعْلَق إيران في محاولتها للمســاعدة في صياغة تحالفات هشــة بين السنة والشيعة في العراق، وإبقائها فاعلة على الدوام، عــلى الرغم من تزايد مشــاعر الكراهية لدى العراقيين بســبب التدخل في شــؤونهم الداخلية. من دون تبرير الطريقة التي خُطط ونُفذ بها غزو العراق في العام 2003، أو

تسـويغ تريليونات الدولارات التي أُنفقت ومئات الآلاف من الأرواح التي أُزهقت في زمان ومكان هذه الحرب، قد يكون الأمر أن سـقوط صدام حسـين قد استهل عملية من شـأنها أن تؤدي إلى تحرير بلدين اثنين؛ وليس واحدة. وكما أن الجغرافيا سـهلت الاسـتعمار الإيراني الخفي للسياسـة العراقية، فمن الممكـن للجغرافيا أيضا أن تمثل عاملا محرّضا لتأثير العراق في إيران.

إن احتـمال حـدوث تغيـير - أو تطور - سـلمي في النظام الحاكـم في إيران، على الرغـم من الإخفاق المؤقت للحركة الخـضراء، لايزال الآن أكبر مما كان عليه في الاتحاد السـوفييتي خـلال معظم فترة الحـرب البـاردة. إن إيران المحـررة، إلى جانب وجود حكومات أقل اسـتبدادية في العـالم العربي - وهي حكومات سـتركز أكثر على القضايا المحلية بسبب انعدام الأمن فيها - من شأنها أن تشجّع وجود توازن أكثر تعادلا وسلاسة في القوة بين السنة والشيعة في الشرق الأوسط: الأمر الذي سيساعد على جعل المنطقة منشغلة بعصبية بنفسها، ووفقا لديناميات القوة الداخلية والإقليمية الخاصة بها، أكثر بكثير من التركيز على أمريكا وإسرائيل.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن وجود نظام أكثر ليبرالية في طهران سـيُحدث متصلا ثقافيا واسـعا جديـرا بالإمبراطوريات الفارسـية القديمة: والذي لن يكـون مقيدا بفعل قوى استجابة رجال الدين.

إن إيـران الأكثر ليبرالية، بالنظر إلى الأقليـات الكردية، والأذرية، والتركمانية الكبيرة، وغيرها، سـواء في الشـمال أو في المناطق الأخرى، قد تكون أيضا إيران المحكومة بصورة أقل مركزية، مع انجراف أطرافها العرقية بعيدا عن مدار طهران. كانت إيران في كثير من الأحيـان دولة منظمة أقل من كونها إمبراطورية غير منظمة ومتعددة الجنسـيات، كما أن حجمه الحقيقي سـيكون دائما أعظم وأصغر من أي رسم للخرائط معترف به رسميا. وفي حين أن شـمال غرب إيران اليوم يهيمن عليه الأكراد والآذريون الأتراك، فإن أجزاء من غرب أفغانسـتان وطاجيكسـتان هي متوافقة ثقافيا ولغويا مـع دولة إيرانية. إن حالة انعدام الشكل هذه، الشبيهة للغاية بمملكة بارثيا القديمة، هي ما يمكن لإيران أن تعود إليه مع انحسار موجة التطرف الإسلامي وتآكل الشرعية المتصوّرة لنظام الملالي[36].

14

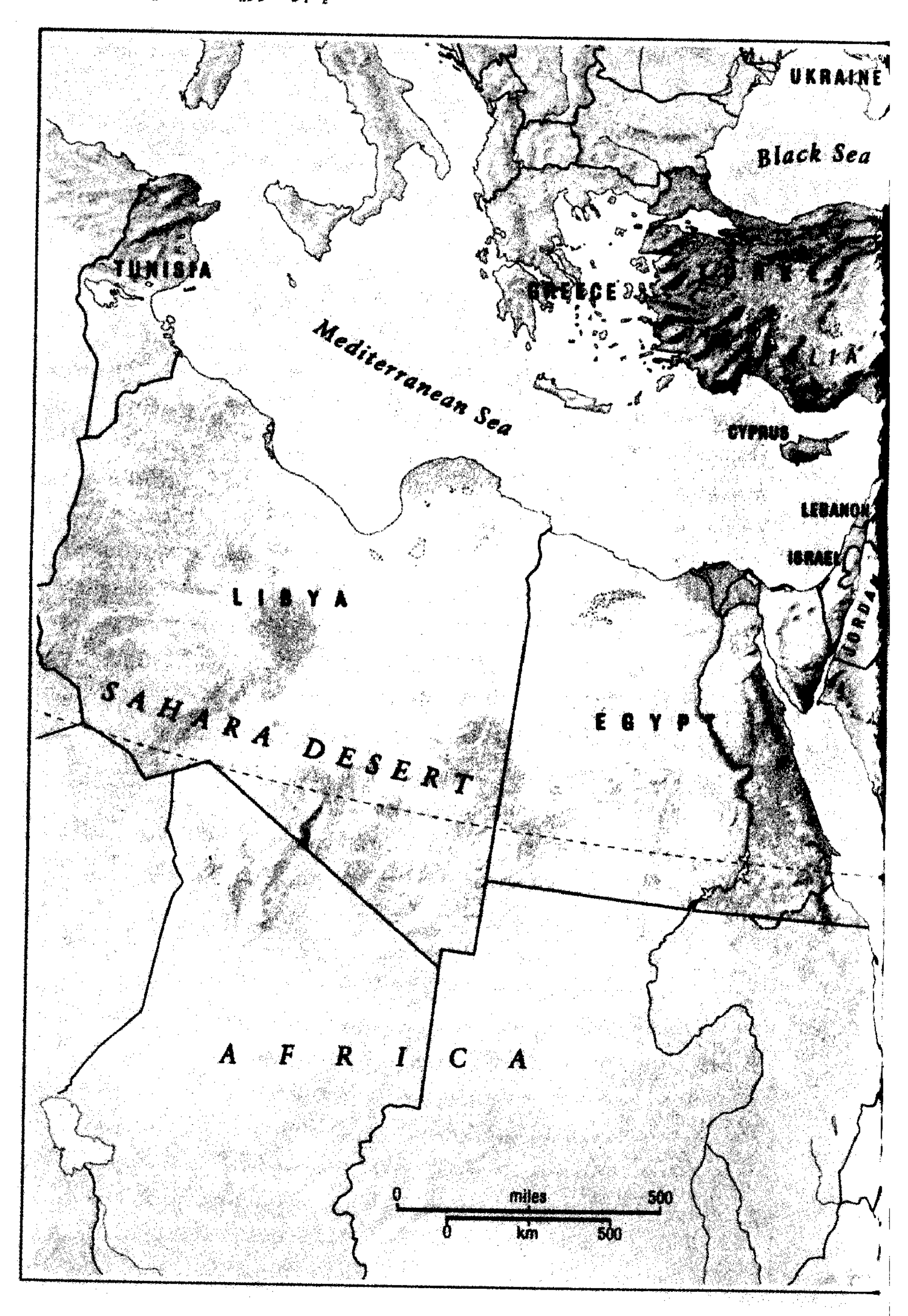
الإمبراطورية العثمانية السابقة

إذا كانت الهضبة الإيرانية تمثل الجغرافيا الأكثر محورية في الشرق الأوسط الكبير، فإن الجسر البري للأناضول، أو آسيا الصغرى، يليها في الأهمية بطبيعة الحال. وكما أن الهضبة الإيرانية مغطاة بالكامل ببلد واحد، هو إيران، فكذلك الحال مع جسر الأناضول البري، الذي تغطيه تركيا. معا، يفخر هذان البلدان، اللذان تحدهما الجبال والهضاب المطلة على الصحراء العربية من الشمال، بعدد سكان إجمالي يبلغ نحو 150 مليون نسمة، وهو ما يزيد قليلا على سكان جميع الدول العربية الاثنتي عشرة الواقعة إلى الجنوب منهما، والتي تكون منطقتي الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية. وبالتالي، ينبغي على المرء أن يضيف مصر وبقية بلدان شمال أفريقيا التي تمتد حتى المحيط الأطلسي من أجل أن يتفوق العرب ديموغرافيا على ثقل تركيا وإيران.

«طوال سنوات، كانت تركيا بنفس عزلة إسرائيل تقريبا في الشرق الأوسط»

المؤلف


RUSSIA
CAUCASUS
Caspian Sea
UZBEKISTAN
TURKMENISTAN
AZER-
BAIJAN
AFGHANISTAN
IRAQ
KUWAIT
Arabian Gulf
PAKISTAN
SAUDI ARABIA
BAHRAIN
QATAR
Gulf of Oman
UNITED
ARAB
EMIRATES
Tropic of Cancer
ARABIAN
PENINSULA
OMAN
Arabian Sea
YEMEN
Gulf of Aden



UKRAINE
Black Sea
TUNISIA
GREECE
Mediterranean Sea
CYPRUS
LEBANON
ISRAEL
LIBYA
EGYPT
SAHARA DESERT
AFRICA
0 miles 500
0 km 500

مفتاح الخريطة:

Tunisia	تونس
Mediterranean sea	البحر الأبيض المتوسط
Greece	اليونان
Ukraine	أوكرانيا
Black sea	البحر الأسود
Turkey	تركيا
Anatolia	الأناضول
Cyprus	قبرص
Lebanon	لبنان
Israel	إسرائيل
Jordan	الأردن
Egypt	مصر
Libya	ليبيا
Sahara desert	الصحراء الكبرى
Africa	أفريقيا
Miles	أميال
Km	كلم
Red sea	البحر الأحمر
Sea of Azov	بحر آزوف
Russia	روسيا
Caucasus	القوقاز
Caspian sea	بحر قزوين
Azerbaijan	أذربيجان
Harran plateau	هضبة حران
Syria	سورية
Tigris r.	نهر دجلة
Euphrates r.	نهر الفرات
Iraq	العراق
Syrian desert	الصحراء السورية
Saudi Arabia	المملكة العربية السعودية
Arabian peninsula	شبه الجزيرة العربية
Yemen	اليمن
Oman	عُمان

Gulf of Aden	خليج عدن
Arabian Sea	بحر العرب
United Arab Emirates	الإمارات العربية المتحدة
Tropic of Cancer	مدار السرطان
Gulf of Oman	خليج عمان
Qatar	قطر
Bahrain	البحرين
Persian gulf	الخليج العربي
Kuwait	الكويت
Zagros mts.	جبال زاغروس
Iran	إيران
Iranian plateau	الهضبة الإيرانية
Pakistan	باكستان
Afghanistan	أفغانستان
Turkmenistan	تركمانستان
Uzbekistan	أوزبكستان

وبالتالي، فقد عملت الخصائص الديموغرافية التركية على إبراز أهمية الجغرافيا التركية. تتسم هضبة الأناضول بأنها أبعد عن الأراضي المركزية للشرق الأوسط من الهضبة الإيرانية، كما أن الترتيب المكاني الشمالي الغربي للسكان الأتراك خلال القرون الأخيرة قد زادها بُعدا. كان التشرذم السياسي في أوروبا نفسها عاملا مُيسرا لغزوات الجيش العثماني على أوروبا الوسطى، والتي كانت لها نكهة القبائل الرحالة، والتي بلغت ذروتها في العام 1683، مع حصار فيينا. كان تركيز فرنسا، وبريطانيا العظمى، وإسبانيا منصبّا على هزيمة بعضها بعضا، وعلى مستعمراتها في العالم الجديد على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. كانت البندقية Venice عالقة في صراع طويل مع جنوة؛ كما كانت البابوية مكتنفة في أزمات أخرى؛ وانقسم السلاف في جنوب البلقان ضد أنفسهم، فيما يمثل حالة أخرى من الجغرافيا الجبلية التي تشجّع الانقسام الاجتماعي والسياسي. وأخيرا، وكما كتب المراسل الأجنبي في أوائل القرن العشرين، هربرت آدمز غيبونز Gibbons: «انطلاقا من أوروبا، يمكن غزو آسيا الصغرى وأكثر منها: أما من آسيا، فلا يمكن غزو أي جزء من أوروبا»[3]. كان

يعني بذلك أنه من أجل توحيد حقيقي للمساحات الشاسعة الجرداء في الأناضول والتوسع إلى منطقة الشرق الأوسط، احتاج الأتراك العثمانيون أولا إلى الثروة التي لا يمكن أن يوفرها سوى غزو البلقان. ومما سهّل هذا الترتيب المتناغم بين أوروبا والشرق الأوسط، كان موقع العاصمة العثمانية القسطنطينية، وهي مرفأ آمن يتيح الوصول إلى منطقة البلقان والبحر المتوسط، وشمال أفريقيا، بالإضافة إلى كونها محطة لطرق القوافل الآتية من بلاد فارس والقوقاز، وما وراءها.

وانطلاقا من هذه الجغرافيا جاءت الإمبراطورية المترامية الأطراف والمتعددة الجنسيات التي كانت تحتضر بحلول أخريات القرن التاسع عشر، مع زهوق روح السلطنة العثمانية في أعقاب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. أما مصطفى كمال أتاتورك Ataturk (أبو الترك)، وهو الجنرال العثماني الوحيد الذي لم تُهزم قواته، والذي بنى دولة عصرية في الأناضول بعد الخسائر الإمبراطورية في البلقان والشرق الأوسط، فقد كان ثوريا أصيلا: بمعنى أنه غيّر منظومة القيم لدى شعبه. وقد تكهن بأن القوى الأوروبية قد هزمت الإمبراطورية العثمانية ليس بسبب امتلاكها جيوشا أضخم بل بسبب حضارتها الأعظم، والتي أنتجت الجيوش الأكبر. ولذلك قال إن تركيا ستكون غربية من الآن فصاعدا، بحيث تتوجه ثقافيا وسياسيا نحو أوروبا. وهكذا، ألغى المحاكم الدينية الإسلامية، وحظر على الرجال ارتداء الطربوش، ومنع النساء من ارتداء الحجاب، واستبدل الحروف العربية بتلك اللاتينية. ولكن على الرغم من كون هذه الأفعال ثورية، فقد مثلت أيضا تتويجا للافتتان التركي بأوروبا، والذي يرجع إلى قرون. وعلى الرغم من أن تركيا ظلت محايدة خلال معظم فترات الحرب العالمية الثانية، فإن الكمالية Kemalism - وهي المذهب العلماني الموالي للغرب الذي وضعه كمال أتاتورك - قد وجّهت الثقافة التركية، خصوصا سياستها الخارجية، حتى نهاية العقد الأول بعد انتهاء الحرب الباردة. وفي الواقع أن تركيا ظلت سنوات تأمل في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وهو هاجس أظهره لي المسؤولون الأتراك خلال عديد من زياراتي إلى البلاد في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين. ولكن في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، صار واضحا أن تركيا قد لا تنال العضوية الكاملة في الاتحاد الأوروبي مطلقا. كان السبب فظا ومعبقا بالحتمية الجغرافية والثقافية: فعلى الرغم من أن تركيا دولة ديموقراطية وعضو في منظمة حلف شمال

الأطلسي (الناتو)، فإنها أيضا دولة مسـلمة، وبالتالي غير مرغوبة. كان الرفض صدمة للجسم السياسي التركي. والأهم من ذلك أنه اندمج مع التوجهات المجتمعية الأخرى التي كانت في خضم إصدار عملية تصحيحية كبرى في تاريخ وجغرافية تركيا.

وفي الواقـع أن التوجـه الأوروبي الذي فرضـه أتاتورك على تركيـا ينطوي على تناقض: لقد ولد أتاتورك وترعرع في سالونيك الواقعة في شمال اليونان، بين الإغريق واليهـود وغيرهما مـن الأقليات. وبعبارة أخرى، فقد كان رجـلا أوروبيا، كما كانت سـالونيك في أواخر القرن التاسـع عشر موقعـا متعدد اللغـات للكوزموبوليتانية. وبالمثـل، كان تعريف أتاتورك للجنسـية عصريا بشـكل لافت للنظـر، إذ إنه كثيرا مـا صرّح بـأن كل من يقول إنه تركي، ويتحدث التركيـة، ويعيش في تركيا فهو تركي، حتـى لو كان يهوديا أو مسـيحيا. وقد نقل العاصمة إلى أنقـرة، في قلب الأناضول، من إسـطنبول (القسطنطينية) الواقعة في تركيا الأوروبية، نظرا إلى ارتباط إسطنبول بالنظـام القديم. بيد أنه لم يبذل أي جهد لاسـتعادة المقاطعات العثمانية المفقودة في البلقـان أو في الشرق الأوسـط: وبدلا من ذلك، فقد تمثلت إسـتراتيجيته في بناء دولة تركية غير عرقية انطلاقا من قلب الأناضول، والتي سـيكون توجهها قويا نحو أوروبا والغرب. كان حامل الشـعلة الكمالية هو الجيش التركي، إذ إن الديموقراطية الأصيلة كانت شيئا لم تقترب منه الكمالية طوال حياة أتاتورك. كانت المشكلة، والتي ستسـتغرق عقودا لكي تتضح معالمها، هي أنه من خلال التركيز على الأناضول، فقد أكد من دون قصد الحضارة الإسـلامية، التي كانت متجذرة بعمق في آسيا الصغرى أكثر مما كانت عليه الحال في تركيا الأوروبية التي تضم القسـطنطينية والسـلطنة. وبالإضافـة إلى ذلك، فإن الديموقراطية، كونها تطورت في تركيا بصورة متقطعة وغير منتظمة بين انقلابات عسـكرية دورية، فقد سـلمت الامتياز الانتخابي إلى كتلة من الأتراك الورعين المنتمين إلى الطبقة العاملة في المناطق النائية للأناضول.

وعلى مدى العقود القليلة الأولى من وجود الجمهورية التركية، تركزت الثروة والسـلطة لدى الجيش ومع أفراد النخبة العلمانية المتطرفة في إسطنبول. وخلال هذه الفترة، امتلك المسـؤولون الأمريكيون ترف إعـلان الحالة الديموقراطية في تركيـا على الرغم مـن أن الجنرالات الأتراك كانوا هم المسـؤولين عن سياسـتها الخارجية الموالية للغرب. لكن ذلك بدأ يتغير في أوائل ثمانينيات القرن العشرين،

عندمـــا نفّذ رئيس الـــوزراء المنتخب حديثا، تورغوت أوزال Ozal، وهو مســـلم متدين ذو ميول صوفية ينتمي إلى وســـط الأناضول، سلسلة من الإصلاحات التي حررت الاقتصاد الدولاني statist. جرت خصخصة عدد كبير من الشركات الكبرى، كما خُففت الضوابط المفروضة على الاستيراد. أدى هذا إلى خلق طبقة متوسطة من حديثي الثراء، والمؤلفة من المســـلمين الملتزمين الذين يمتلكون سلطة سياسية حقيقية. ومع ذلك، فقد تمثلت عبقرية أوزال خلال السنوات الأخيرة من الحرب الباردة في البقاء مرتبطا من الناحية السياسية بالغرب، على الرغم من أنه خفف التوجهـات الفائقة العلمانيـــة للكمالية لإعطاء المســـلمين المتدينين دورا أكبر في النظام. أصبحت تركيا أكثر تأســـلما Islamist وأكثر ميلا إلى الأمريكيين في الوقت نفســـه. سمحت إسلاموية Islamism أوزال له بالوصول إلى الأكراد، الذين كانوا متحديـــن مع الأتراك في الدين لكنهم منقســـمون عرقيا. أمـــا الجنرالات الأتراك، الذين كانـــوا منزعجين للغاية مـــن تدين أوزال، فقد احتفظوا بســـيطرتهم على سياسة الأمن القومي، والتي لم ينازعهم فيها أوزال، لأنه والجنرالات كانوا متفقين بصـــورة عامة على وجود تركيا باعتبارها حصن حلـــف الناتو في الأرض المحورية لأوراسيا، التي تصورها سبيكمان، والذي يقف في مواجهة الاتحاد السوفييتي.

بيد أن أوزال توفي فجأة في العام 1993 عن عمر يناهز الخامســـة والستين، بعد أن قضى عشر سنوات رئيسا للوزراء ورئيسا للبلاد. وكانت لهذا تداعيات عميقة بالنسبة إلى مستقبل تركيا، وهو مثال آخر على الكيفية التي تؤثر بها حياة وموت الأفراد من الرجال والنســـاء في مصير الجغرافيا السياســـية بقدر ما تفعل الجغرافيا، والتي تحتفظ بتفوقها أساسا بسبب ديمومتها. ولأن أوزال نفسه كان يحمل عددا من التناقضات الواضحة - أي محاباة الإســـلاموية والموالاة لأمريكا - فقد حطم موته إجماعا وطنيا واهيا، على الرغم من أن هذا قد استغرق عدة سنوات لكي تتكشف ملامحه. ولمدة عشر سنوات بعد وفاة أوزال، كان قـــادة تركيا من العلمانيـــة غير الملهمين، على الرغم من أن القوة الاقتصادية والتقوى الإســـلامية قد واصلت ازدهارها في الأرض المركزية الأناضولية. وفي أواخر العام 2002، فقـــدت النخبة العلمانية التي يحتسي أفرادها الويســـكي مصداقيتها، وأســـفرت الانتخابات عن منح الأغلبية البرلمانية المطلقة لحزب العدالة والتنمية الإســـلامي بقيادة رجب طيب أردوغان Erdogan، الرئيس السابق لبلدية إسطنبول. أما إسطنبول، فعلى

الرغـم من كونها موطنا للنخبة العلمانية، فقد كانت أيضا موطنا لملايين الفقراء الأتراك المتدينين الذين هاجروا من ريف الأناضول بحثا عن فرص عمل يشقون بها طريقهم إلى صفوف الطبقة المتوسطة الدنيا؛ كان هؤلاء الملايين هم من منحوا أردوغان أصواتهم.

وعندما تولى أردوغان السلطة، منح السلطة لموجة من الإسلاموية، التي عمل أوزال على تقويتها، والتي كانت تتسـلل عائدة إلى الحياة التركية تحت شاشـة رادار الكمالية الرسـمية. في العـام 1945، كان هنـاك 20 ألف مسـجد في تركيا؛ أمـا في العام 1985، فقـد وصـل عددها إلى 72 ألفا، كما ارتفع هذا العدد بشـكل مطـرد منذ ذلك الحين، وبصورة غير متناسـبة مع الزيادة في عدد السـكان. ووفقا لبعض الدراسـات، فإن نحو ثلثـي الأتراك من الطبقة العاملة الحضرية يصلـون يوميا، فضلا على معظم الأتراك في المناطق الريفية، كما ارتفعت هذه النسـب المئوية أكثر خلال السنوات الأخيرة[4]. لقد تنافسـت النزعة الإسـلامية التي أعيد إحياؤها بشـكل جيد للغاية مع الأيديولوجيات العلمانية اليمينية (الفاشية) واليسارية (الماركسية) «باعتبارها منقذا للشباب المحبطين في المناطـق الحضرية»، والذين لم تكن الكمالية بالنسـبة إليهم بمنزلة «نظام اجتماعي - أخلاقي» يسترشـدون به في الحياة اليومية، كما كتـب المؤلف والصحافي الذي يعيش في لنـدن، ديليب هيرو Hiro. وبمجرد أن ترسـخت جذور القوميـة الطبيعية المرتبطة بالإسلام، فقدت الكمالية تدريجيا «مبررات وجودها»[5].

ومـع ذلـك، فعندما صـوت البرلمان التركي في مـارس 2003 ضد السـماح للقوات الأمريكية بالمرور عبر تركيا لغزو العراق، لم يكن حزب العدالة الإسـلامي حقا هو الذي أضعف الموقف الأمريكي، بل العلمانيون، الذين كانوا، عند هذه النقطة، قد انضموا إلى الأوروبيين في معاداتهـم للولايات المتحدة كرد فعل على الخطاب الصريح بعد أحداث الحادي عشر من سـبتمبر، وعلى تصرفـات إدارة جورج دبليو بوش Bush. وكذلك فإن النتائـج الكارثية لغزو العراق، والتي أدت إلى حـرب طائفية داخل العراق، على الرغم من عدم العثور على أسـلحة للدمار الشـامل، قد تزامنت تقريبا مع إدراك أن تركيا لن تقبـل في الاتحاد الأوروبي. وكانت نتيجة هذه الأحداث الدرامية - التي جاءت في وقت امتلكت فيه تركيا حكومة جديدة تتمتع بالشعبية، وذات جذور إسلامية عميقة - هي تحوّل البندول السـياسي والثقافي للبلاد بشـكل كبير نحو الشرق الأوسـط وبعيدا عن الغرب، وذلك لأول مرة منذ قرون بالفعل.

وبمعنى من المعاني، كما قُلْتُ، فقد حاق المكر السيئ للولايات المتحدة بها؛ فعلى مدى عقود، نادى القـادة الأمريكيون بتركيا الديموقراطية باعتبارها معقل حلف الناتو في منطقـة الشرق الأوسـط، والمؤيدة لإسرائيل، على الرغم من أنهـم كانوا يعرفون أن السياسـة الخارجية والأمنيـة التركية في يد جيشـها. وأخيرا، وفي أوائـل القرن الحادي والعشرين، بـرزت تركيا بوصفها ديموقراطية سياسـية، واقتصاديـة، وثقافية حقيقية، والتي تعكس الطابع الإسلامي لمعظم الأتراك، فيما كانت النتيجة تركيا مناهضة لأمريكا نسبيا، ومعادية لإسرائيل.

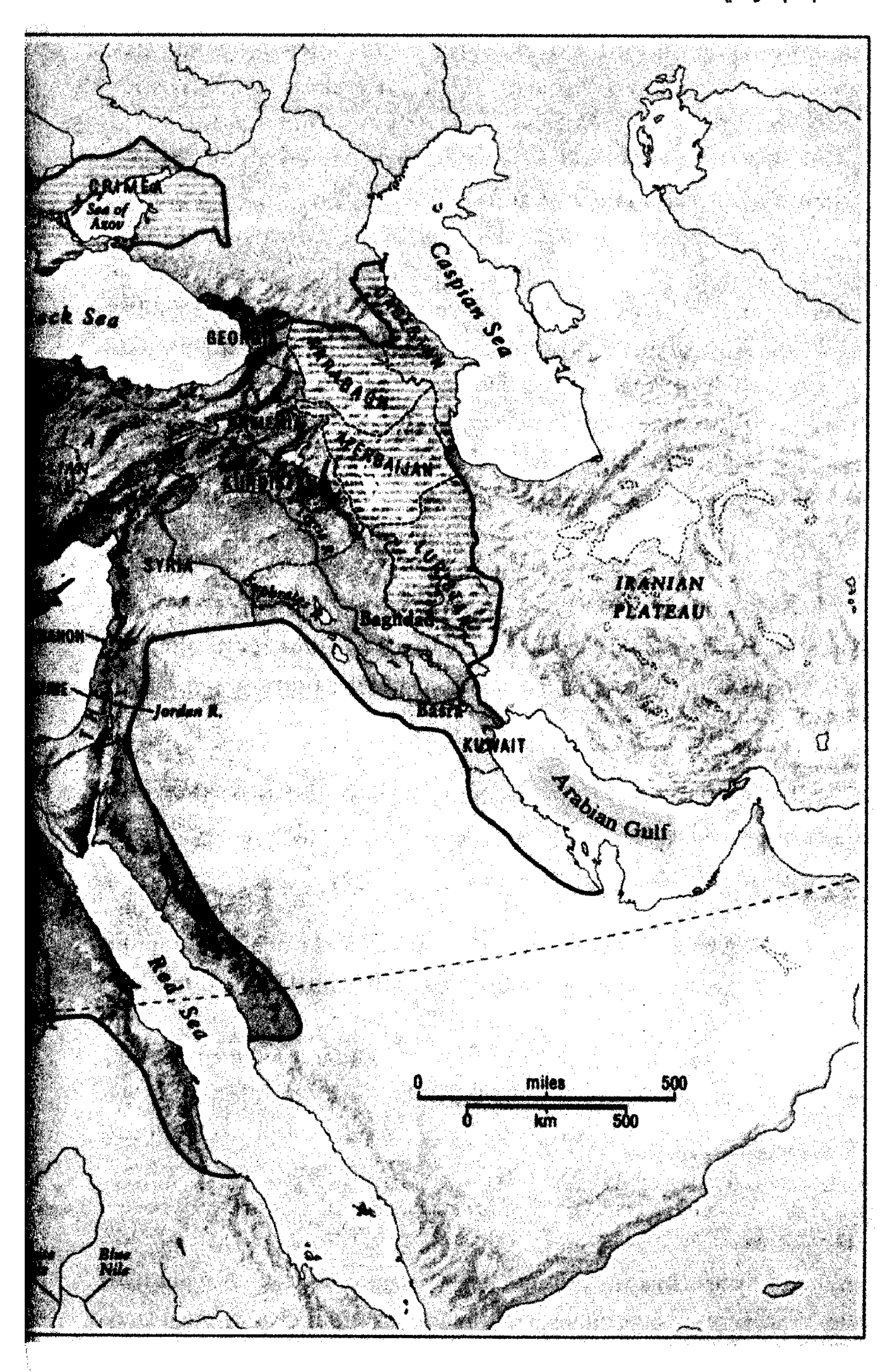
وفي خريف العام 1998، وفي مدينة قيصري Kayseri في وسـط الأناضول، أجريت مقابـلات صحافية مع أهم القادة الإسـلاميين في تركيا، بمن فيهـم عبدالله غول Gul، الرئيس التركي الحالي. كانت المناسبة هي لقاء وتجمّع لحزب الفضيلة، الذي حُل لاحقا، ومن ثم فقد أعاد تنظيم نفسه باحتباره حزب العدالة. وكان حزب الفضيلة نفسه يمثل بعثا لحزب الرفاه الإسـلامي، الذي لم تلوثه اتهامات الفسـاد وسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية التي كانت موجودة تحت الحكم الإسـلامي العثماني. وفي تقريري عن تلك الاجتماعات، الذي نشر في العام 2000، أصبت في أمر كبير، كما أخطأت في أمر جسـيم. أمـا الأمر الكبـير الذي أصبت فيه فهـو أن هؤلاء الناس، على الرغـم من كونهم حزبا للأقليـة، كانوا على وشـك أن يصبحوا أغلبية في غضون سـنوات قليلة. كان موضوعهم الأسـاسي هو الديموقراطيـة: فكلما ازدادت تركيا ديموقراطية، ازدادت قوة الإسـلاميين؛ لأنهم ربطوا بين الغرب وبين هيكل السلطة العسكرية الاستبدادي في تركيا، والذي كان مدعاة للسخرية، لكنه صحيح.

سـألني الرجل الجالس بجواري في حفل العشـاء الذي أقامه حزب الفضيلة: «متى سـتدعم الولايات المتحدة الديموقراطية في تركيا؟ لأنها لاتزال حتى الآن تدعم الجيش». وقبـل أن ينتظـر ردي، أضاف: «لقـد زرت إسرائيل، وهناك وجـدت أن الديموقراطية أكـثر تطورا مما هي عليه في تركيا»[6]. كان ذلك هو الخطأ الجسـيم الذي وقعت فيه. لأن الإسـلاميين الأتراك المعتدلين كانوا آنذاك منفتحين نسبيا فيما يتعلق بإسرائيل، فقد افترضت أنهم سيظلون هكذا دائما.

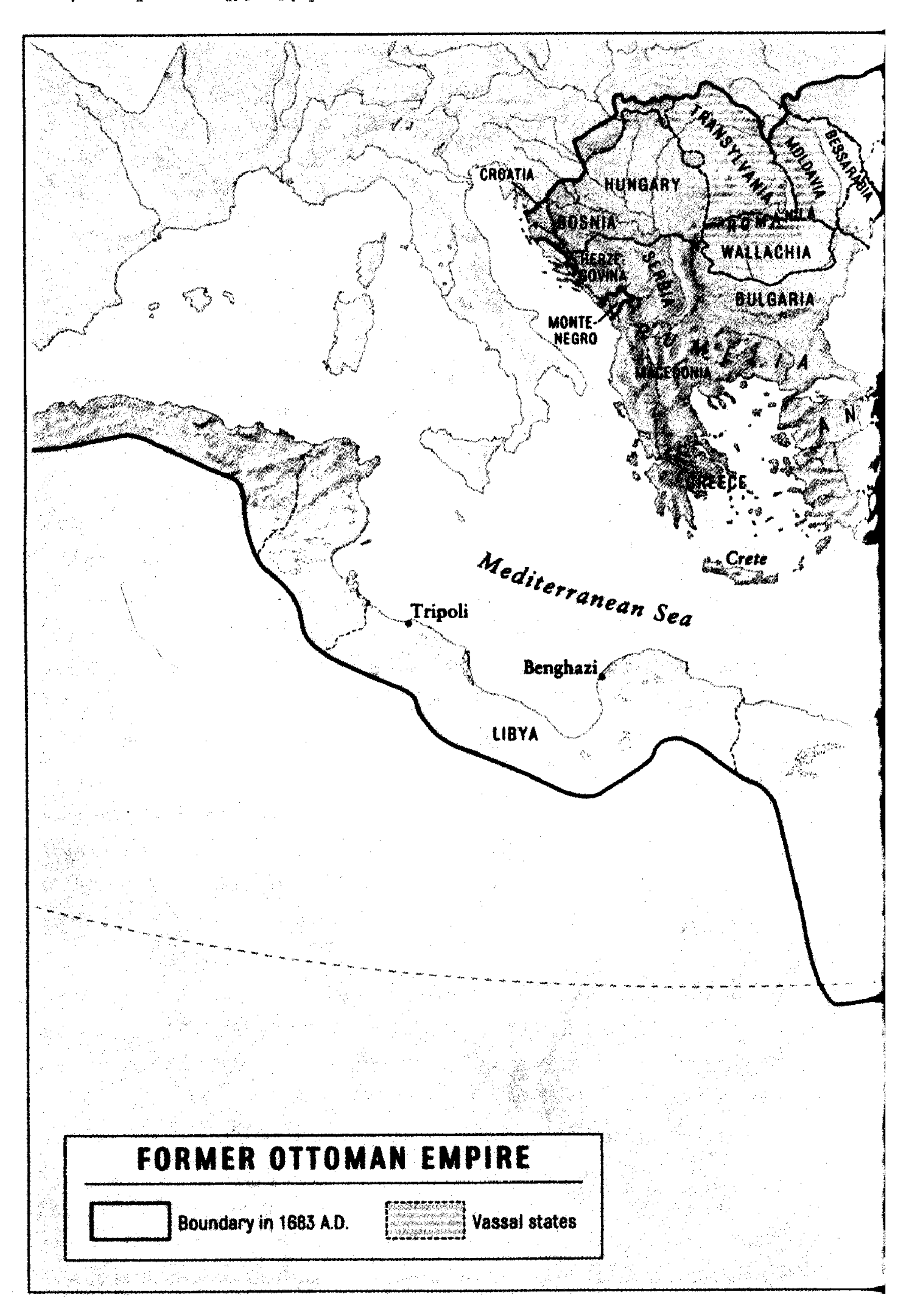
وفي الواقع أن الظروف سـتتغير بصورة دراماتيكية: نتيجة للتطور التاريخي للأتراك أنفسهم مع قيام وسائل الاتصالات الإلكترونية بتقريبهم على نحو أوثق إلى فكر الخلافة الإسـلامية (أي هزيمة الجغرافيا، بعبارة أخرى)، وبسـبب الإجراءات والأخطاء المحددة لكل من الحكومتين الأمريكية والإسرائيلية خلال السنوات التالية.

في بدايــة العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، كانت الجغرافيا التركية تعكس السياســة التركية. ولكونها تتشــارك حدودها مع اليونان في الغــرب، وإيران في الشرق، وبلغاريا في الشمال الغربي، والعراق في الجنوب الشرقي، وأذربيجان في الشمال الشرقي، وســورية في الجنوب، إضافــة إلى أن أكثر من نصف الأناضول يقع على ســواحل البحر الأســود أو البحر المتوســط، فإن تركيا تقع حقا على مسافة واحدة من أوروبا، وروسيا، والشرق الأوســط. وينطبق الشيء نفسه على سياســتها الخارجية وتلك المتعلقة بالأمن القومي. كانت تركيا لاتزال عضوا في حلف شمال الأطلسي، كما كانت تتعاون مع أجهزة الاســتخبارات الأمريكية، وكانت لها ســفارة في إسرائيل، كما ســهّلت محادثات السلام غير المباشرة بين إسرائيل وســورية. لكنها كانت تتوغل عســكريا ضد الأكراد في شــمال العراق، وكانت تساعد إيران على تجنب فرض العقوبات عليها بسبب تطويرها للأسلحة النووية، وكانت تدعم أكثر الجماعات الفلسطينية تطرفا سياسيا عاطفيا.

كانت الغارة الإسرائيلية في مايو 2010 ضد أســطول مكون من ســت ســفن كانت تنقــل الإمدادات الإنســانية من تركيا إلى قطاع غزة الذي تســيطر عليه حركة حماس، وردود الفعــل التركية الشرســة عليها، حافزا لإعلان المحــور التاريخي التركي، الممتد من الغرب إلى الشرق، على العالم. كان الأتراك ينظرون إلى النضال من أجل فلســطين ليس باعتبــاره معركة بين العرب وإسرائيــل، والتي لا يمكن للأتراك لعب أي دور فيها، ولكن بوصفهــا صراعا يؤلّب المســلمين ضد اليهود، والذي يمكن للأتــراك فيه مناصرة القضية الإســلامية .من بين التبصرات الرئيســية التــي كثيرا ما يجري تجاهلها في كتاب أســتاذ هارفــارد الراحل صموئيل هنتنغتون «صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي»، والذي تمثل فيه تركيا المثال الرئيسي، هو أن العولمة، على الرغم من عملها كقوة موحِّدة على مستوى ما، فهي قوة من أجل التوتر بين الحضارات على مستوى آخر، لأنها تقرب بين مجموعات التضامن الكبيرة والواسعة الانتشار؛ ولذلك ففي حين أن العالم الإسلامي يفتقر إلى التماســك الســياسي، فإن الوعي الإسلامي يتزايد على الرغم من ذلك جنبا إلى جنب مع العولمة. وبالتالي، فقد تنامى الجانب الإسلامي من الهوية التركية .وقد حدث هــذا في الوقت الذي صار فيه العالم غير الغربي أكثر صحة وتحضرا، وأكثر إلماما بالقراءة والكتابة، وبالتالي كان هناك صعود وارتفاع في القوة السياســية والاقتصادية لدول الفئة المتوسطة، مثل تركيا[7].



Sea of Azov
Caspian Sea
SYRIA
Baghdad
Jordan R.
KUWAIT
IRANIAN
PLATEAU
Arabian Gulf
Red Sea
0 miles 500
0 km 500
Blue Nile


CROATIA
HUNGARY
TRANSYLVANIA
MOLDAVIA
BESSARABIA
BOSNIA
WALLACHIA
HERZE-
GOVINA
SERBIA
BULGARIA
MONTE-
NEGRO
MACEDONIA
GREECE
Crete
Mediterranean Sea
Tripoli
Benghazi
LIBYA
FORMER OTTOMAN EMPIRE
Boundary in 1683 A.D.
Vassal states

مفتاح الخريطة:

Former Ottoman Empire	الإمبراطورية العثمانية السابقة
Boundary in 1683 A.D.	حدود العام 1683 م
Vassal states	الدول التابعة
Tripoli	طرابلس
Libya	ليبيا
Benghazi	بنغازي
Mediterranean sea	البحر الأبيض المتوسط
Crete	كريت
Greece	اليونان
Anatolia	الأناضول
Macedonia	مقدونيا
Rumelia	روميليا
Montenegro	الجبل الأسود
Black sea	البحر الأسود
Bulgaria	بلغاريا
Serbia	صربيا
Wallachia	واليتشيا
Herzegovina	الهرسك
Bosnia	البوسنة
Romania	رومانيا
Croatia	كرواتيا
Hungary	المجر
Transylvania	ترانسلفانيا
Moldavia	مولدافيا
Bessarabia	بيسارابيا
Anatolian plateau	هضبة الأناضول
Crimea	شبه جزيرة القرم
Sea of Azov	بحر آزوف
Taurus MTS.	جبال توروس
Cyprus	قبرص
Lebanon	لبنان
Palestine	فلسطين
Nile river	نهر النيل

Egypt	مصر
Red Sea	البحر الأحمر
White Nile	النيل الأبيض
Blue Nile	النيل الأزرق
Km	كلم
Miles	أميال
Jordan R.	نهر الأردن
The Levant	بلاد الشام
Syria	سورية
Georgia	جورجيا
Armenia	أرمينيا
Kurdistan	كردستان
Tigris R.	نهر دجلة
Euphrates R.	نهر الفرات
Baghdad	بغداد
Basra	البصرة
Kuwait	الكويت
Arabian Gulf	الخليج العربي
Luristan	لوريستان
Azerbaijan	أذربيجان
Karabagh	كاراباخ
Dagestan	داغستان
Caspian Sea	بحر قزوين
Iranian Plateau	الهضبة الإيرانية

ساعد الأتراك في قيادة «دار الإسلام» لما يقرب من 850 سنة، منذ انتصار السلاجقة الأتراك على البيزنطيين في معركة ملاذكرد في شرق الأناضول في العام 1071 وحتى هزيمة الإمبراطورية العثمانية من قبل الحلفاء الغربيين في العام 1918. ولم يحدث إلا في القرن الماضي أن كان العرب على رأس الحضارة الإسلامية حقا. وفي الواقع أنه حتى قيام الثورة الإيرانية خلال عامي 1978 - 1979، وعلى الرغم من أن مسلمي إيران البالغ عددهم في ذلك الحين خمسين مليونا كانوا غير مرئيين إلى حد كبير بالنسبة إلى الغرب؛ تماما كما كان 75 مليون مسلم في تركيا المعاصرة غير مرئيين

إلى حد كبير حتى اندلعت أزمة أسطول غزة في الوقت نفسه الذي أبرم فيه الأتراك صفقة مع إيران لقبول اليورانيوم المخصب فيها، كما صوتوا ضد فرض عقوبات على إيـران في الأمم المتحدة. فجأة، اسـتيقظت الجماهير ووسـائل الإعلام الغربية على الحقيقة الجغرافية الفظة لتركيا.

وبعد ذلـك، وفي العام 2011، جاءت الانتفاضات ضد الأنظمة الاسـتبدادية المنهكة عبر بلدان شـمال أفريقيا والشرق الأوسط، والتي كان المستفيد منها من الناحيتين التاريخية والجغرافية هو تركيا. حكمت تركيا العثمانية شـمال أفريقيا وبلاد الشـام طوال مئات السـنين في العصر الحديث. وعـلى الرغم من أن هذا الحكم كان مسـتبدا، فلم يكن قمعيا بحيث يترك ندبـة دائمة في أذهان العرب المعاصرين. تمثل تركيا نموذجا للديموقراطية الإسـلامية التي يمكن أن تصبح مثالا يحتذى بالنسبة إلى تلك الدول المتحررة حديثا، خصوصا أن ديموقراطيتها تطورت من نظام هجين تقاسـم فيه الجنرالات والسياسـيون السلطة حتى وقت قريب - وهي عملية سـتمر بها بعض الدول العربية في طريقها إلى أنظمة أكثر تحررا. وبسـكانها البالغ عددهم 75 مليون نسـمة ومعدل النمو الاقتصادي الذي كان صحيا حتى وقت قريب، فـإن تركيا تمثل أيضا قوة ماحقة ديموغرافيا واقتصاديا يمكـن أن تنتشر منه القوة الناعمة في جميع أنحاء منطقة البحر المتوسـط. إنها تمتلك، ببسـاطة، العديد من المزايا التي لا تمتلكها الدول المتوسـطية الرئيسـية الأخرى القريبة من شـمال أفريقيا - أي اليونان، وإيطاليا، وإسـبانيا. ومع ذلك، فهناك أشياء أساسية تنبغي معرفتها عن الإسلام التركي، والتي تشير إلى أن الغرب قد يجد عزاء في صعود تركيا في الشرق الأوسط.

وفي الواقع أننا لو كنا نعرف أكثر قليلا عن جلال الدين الرومي، الذي أسـس في القـرن الثالث عـشر «الطريقة» tariqat التركية التي ارتبطـت بالدراويش، لكانت دهشـتنا أقـل من معرفة توافق الإسـلام مع الديموقراطية، وربمـا لم تكن الأصولية الإسـلامية قد بدت بمثل هذا التوحّد والتهديد. نبـذ الرومي أولئك «المتعصبين غير الناضجين» الذين يحتقرون الموسيقى والشعر[8]. وحذر من أن وجود لحية أو شارب لدى رجل الدين ليس علامة على الحكمة. كان الرومي يفضل الفرد على الحشد، كما كان يتحدث باسـتمرار ضد الطغيان. ينطبـق إرث الرومي على نزعات الدقرطة في

العالم الإسلامي أكثر مما تفعل صور العظماء من العرب والإيرانيين، والمألوفين أكثر لدى الغرب. إن الطبيعة الانتقائية للإسلام التركي، كما يوضحها الرومي، تتوافق تماما مع نزعات التغريب في تركيا. إن النظام الديموقراطي في تركيا، على الرغم من عيوبه وتأثره لفترة طويلة للغاية بمؤسسة عسكرية مستبدة، قد تضمّن عناصر إسلامية تقليدية orthodox على مدى عقود. وعلى عكس عدد قليل من الدول العربية وإيران، فلم تنشأ قاعدة تركيا الصناعية وطبقتها الوسطى من العدم بفضل عائدات النفط. ومرة أخرى، فالفضل يرجع إلى الجغرافيا في المستوى المتقدم من التنمية البشرية الذي تحظى به تركيا مقارنة بمعظم الأماكن في منطقة الشرق الأوسط. إن موقع تركيا بوصفه جسرا بريا لا يربطها بأوروبا فحسب، لكنه سمح لموجة من غزوات البدو الرحل الآتين آسيا الوسطى بإنعاش حضارة الأناضول، والتي يمثل شعر الرومي مثالا عليها. وقد مارست الإمبراطورية العثمانية دورا كبيرا في التقريب الوثيق بين السياسة الأوروبية - على الأقل في صيغتها البلقانية - وبين مثيلتها في الشرق الأوسط. أدت حركات الكفاح من أجل الاستقلال الوطني التي شهدها القرن التاسع عشر في صربيا، وبلغاريا، ورومانيا، واليونان إلى تشجيع ظهور المجتمعات القومية العربية في دمشق وبيروت. وبالمثل، فقد ولد الإرهاب الحديث في بداية القرن العشرين في مقدونيا وبلغاريا، قبل أن يتسرب إلى سورية الكبرى.

وفي أوائل القرن الحادي والعشرين، كانت تركيا تفخر بوجود حركة إسلامية حيوية ومهيمنة سياسيا، وقدرة عسكرية هائلة بالمقارنة مع أي بلد في الشرق الأوسط تقريبا باستثناء إسرائيل، وباقتصاد ظل ينمو بمعدل 8 في المائة سنويا لسنوات عديدة، بل تمكنت من تحقيق نمو بنسبة 5 في المائة خلال فترة الركود في جميع أنحاء العالم، بالإضافة إلى منظومة من السدود التي جعلت تركيا قوة مائية بقدر ما تُعد إيران والمملكة العربية السعودية قوتين نفطيتين. إن هذه العوامل، سواء كانت مرئية أو غير مرئية، تسمح لتركيا بالتنافس مع إيران على موقع القيادة والشرعية الإسلامية. طوال سنوات، كانت تركيا بنفس عزلة إسرائيل تقريبا في الشرق الأوسط. إن سيادتها المطلقة في العهد العثماني هي ما أدى إلى تعقيد علاقتها مع العرب، كما كانت علاقاتها مع سورية المجاورة سافرة العداء، كما كانت تلك مع العراق البعثي وإيران الأصولية متوترة. وفي العام 1998، كانت تركيا بالفعل على

حافة الحرب مع ســورية بسبب دعم دمشــق لحزب العمال الكردستاني الراديكالي المناهــض لتركيا. وخلال هذه الفترة، احتفظت تركيا بتحالف عســكري ظاهري مع إسرائيل، مما عزز مكانتها كدولة منبوذة في الشرق الأوسط. لكن كل هذا بدأ يتغير مع تولي أردوغان وحزب العدالة لمقاليد الســلطة، والذي جاء في الوقت نفســه مع انهيار شــعبية الغرب لدى الرأي العام التركي، وذلك بســبب الرفض الفعلي لانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي وتزايد وحشية أمريكا اليمينية وإسرائيل اليمينية.

لم تنســحب تركيــا مــن منظمة حلف شــمال الأطلــسي، ولم تقطــع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل. وبدلا من ذلك، فمن خلال وزير خارجية أردوغان، أحمد داود أوغلو Davutoglu، اعتمدت تركيا سياسة «اللامشاكل» مع جيرانها المباشرين، وهــو ما يعني عــلى وجه الخصوص تقاربا تاريخيا مع ســورية، والعــراق، وإيران. وبفضل اقتصاد تركيا، الأكثر تقدما بكثير من الناحية التكنولوجية عن جيرانها، إضافة إلى كونــه ينمو بوتيرة أسرع، فقــد كان النفوذ التركي القــوي في منطقة البلقان إلى الغرب والقوقاز إلى الشرق حقيقة ثابتة بالفعل. كانت بلغاريا، وجورجيا، وأذربيجان تفيض جميعها بالأجهزة الكهربائية التركية وغيرها من السلع الاستهلاكية.

لكن النصرة التركية للفلســطينيين، والشعبية الهائلة التي تولدت تجاه الشعب الــتركي في غــزة، هي ما جعــل تركيا حقيقــة تنظيمية راســخة في العــالم العربي، وبدرجــة لم تتمتع بها منذ العصور العثمانيــة. ربما كانت العثمانية الجديدة Neo - Ottomanism اســتراتيجية محددة وضعها داود أوغلو، لكنها تشكل أيضا تطورا سياســيا طبيعيا: فهي نتيجة للمكانة الجغرافيــة والاقتصادية الرائدة لتركيا، والتي صارت فجأة بالغة الأهمية بســبب تنامي تيار الأســلمة في تركيا نفســها. استندت جاذبية العثمانية الجديــدة إلى الافتراض غير المعلن أن تركيا كانت تفتقر في حقبة العولمــة هــذه إلى كل من الســبل والإرادة لإقامة إمبراطوريــة جديدة - قديمة في الشرق الأوســط؛ وبدلا من ذلك، فقد استندت إلى تطبيع تركيا لعلاقاتها مع الدول العربية التابعة لها ســابقا، الذين كان الحكم العثماني بالنســبة إليهم بعيدا بما فيه الكفايــة، وحميدا بما فيه الكفاية، على الأقل عندما ينظر إليه على مدى فترة عقود وقرون، للترحيب بعودة تركيا إلى الجماعة، خصوصا بعد أن زاد مستوى عدائها ضد إسرائيل كثيرا.

كان ابتكار داود أوغلو الحقيقي هو الوصول إلى إيران. امتلكت حضارتا هضبة الأناضول وتلك الإيرانية، أي التركية والفارسية، على الترتيب، علاقة طويلة ومعقدة: فاللغة الفارسية، كما ذكرت، كانت هي اللغة الديبلوماسية للإمبراطورية العثمانية التركية، على الرغم من أن العثمانيين والصفويين الفرس قد انخرطوا في نزاع عسكري طويل خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر. يمكن للمرء أن يقول إن الشعبين التركي والإيراني متنافسان، على الرغم من أنهما، مع ذلك، يمتلكان ثقافتين ولغتين متشابكتين بعمق؛ فقد كتب جلال الدين الرومي أشعاره باللغة الفارسية، على الرغم من أنه قضى معظم حياته في تركيا. وبالإضافة إلى ذلك، فلم تحتل تركيا ولا إيران إحداهما الأخرى. ومن الناحية الجغرافية، تتسم مناطق نفوذهما، على الرغم من التداخل بينهما، لأنهما منفصلتان إلى درجة كبيرة، حيث تقع إيران أفقيا إلى الشرق من تركيا. وخلال عهد الشاه، كانت كل من تركيا وإيران مواليتين للغرب، وحتى عندما صارت إيران راديكالية تحت حكم رجال الدين، ظلت أنقرة حريصة على الحفاظ على علاقات طيبة مع طهران. هناك حقيقة تاريخية صادمة قليلا عن احتضان أنقرة لآيات الله، والتي لها قيمة صادمة كبيرة حتى في سياق سياسي معاصر.

تدبّر ما يلي: كانت الولايات المتحدة، بقيادة رئيس محبوب عالميا في ذلك الوقت، وهو باراك أوباما Obama، تسعى جاهدة، جنبا إلى جنب مع حلفائها الأوروبيين، لإحباط مسيرة إيران الساعية لامتلاك أسلحة نووية، وذلك لمنع إسرائيل من شن هجوم على إيران؛ فإيران النووية ستغير ميزان القوى في الشرق الأوسط بشكل كبير ضد الغرب، في حين أن عواقب أي هجوم إسرائيلي ضد إيران قد تكون أسوأ من حيث زعزعة استقرار المنطقة. ومع ذلك، ففي مايو 2010، عملت تركيا، إلى جانب البرازيل، من خلال سلسلة من المناورات الديبلوماسية المثيرة على مساعدة إيران في التهرب من العقوبات الاقتصادية، وبالتالي كسب الوقت الحرج اللازم لصنع مثل هذه القنبلة. ومن خلال الموافقة على تخصيب اليورانيوم الإيراني، حصلت تركيا على مكانة أعلى في العالم الإسلامي، والتي تتماشى مع تلك التي اكتسبتها من خلال دعم حركة حماس في غزة. وكذلك كانت إيران تمتلك القدرة «على مساعدة تركيا على تحقيق هدفها الاستراتيجي الجوهري المتمثل في أن تصبح

مركزا للطاقــة، بحيث تنقل الغاز الطبيعي والنفط [من إيران] إلى أســواق أوروبا الغربيــة»[9]. وباعتبار تركيا تمثــل همزة الوصل فيما يتعلق بنقــل الطاقة الواردة مــن إيران، فضلا عن الهيدروكربونات القادمة من بحر قزوين عبر منطقة القوقاز، وكذلــك امتلاكها القدرة عــلى تحويل ما يقرب من 90 في المائة من مدخول العراق مــن ميــاه نهر الفــرات و40 في المائة من مدخول ســورية، تنضم تركيــا إلى إيران باعتبارها قوة فائقة hyperpower في الشرق الأوســط، في وجود خطوط للأنابيب تجــري في كل الاتجاهــات محملة بالنفط والغاز الطبيعي، والمياه - والتي تشــكل الأساس الجوهري للحياة الصناعية[10].

قبل عصر النفط، كما أشرت إليه من قبل، اقتربت تركيا من البلقان وأوروبا من أجل تطوير قدرتها الاقتصادية بحيث يمكنها أن تتقدم في الشرق الأوســط أيضا. أما في عــصر النفط، فالعكس هو الصحيح؛ فمع تحوّل تركيــا إلى الممر الأوروبي للنفط الإيراني وذلك المســتخرج من بحر قزوين، فقد صــارت عاملا اقتصاديا من الأهمية بحيث لا يمكن لأوروبا أن تتجاهله. وبدلا من أن تكون مجرد جسر بري، على الرغم مــن أنه أكبر جسر بري على الكرة الأرضية، فإن تركيا - هي أحد البلدان الأعضاء في مجموعة العشرين - قد صارت منطقة محورية في حد ذاتها، والتي، جنبا إلى جنب مع إيران، تمتلــك القدرة على تحييد الهلال الخصيب العربي، الذي تعاني مجتمعاته الاضطرابات الداخلية الناتجة عن عقود من أنظمة الأمن القومي العقيمة.

وبالإضافــة إلى ذلك، فإن الخطــوة التي أقدمت عليها تركيــا والبرازيل لحماية اليورانيوم المخصب الإيراني كانت أكثر من مجرد عمل مارق ليست له نتيجة عملية تذكر لمســاعدة إيــران الأصولية في امتلاك قنبلة نوويــة؛ فهي تعكس صعود القوى المتوسطة المستوى في مختلف أنحاء العالم، مع انضمام مزيد ومزيد من الملايين من سكان البلدان النامية إلى الطبقة المتوسطة.

أما الجانب المشرق بالنســبة إلى الغرب هنــا فهو ما يلي: من دون صعود تركيا، ســتصبح إيران الثورية هي القــوة المهيمنة في الشرق الأوســط؛ ولكن مع الصعود الجامح لتركيا كقوة شرق أوســطية للمرة الأولى منــذ انهيار الإمبراطورية العثمانية، ســتجد إيران أمامها منافســة من أقرب جيرانها - إذ يمكن لتركيــا أن تكون صديقا ومنافســا لإيران في الوقت نفســه. كما يجــب ألا ننسى أن تركيا لاتــزال تنتمي إلى

منظمة حلف شـمال الأطلـسي، وأنها لاتـزال تحتفظ بعلاقات مـع إسرائيل، على الرغـم مـن أنها متوترة. وعلى الرغـم من ازدياد صعوبة تحمّـل الغرب لوجودها، فلاتزال القيادة الإسلامية في تركيا تمثل تحسنا هائلا مقارنة بعقلية الحكومة الدينية الإيرانية. لايزال في إمكان تركيا أن تعمل وسيطا بين إسرائيل والدول الإسلامية، تماما كما تمتلك إيران القدرة على تعديل سياساتها الخاصة، سواء عن طريق الاضطرابات السياسية أو بفعل عواقب طول بقاء النظام وتناقضاته الخاصة. والواضح هو أنه مع تلاشي أحداث الحرب الباردة من الذاكرة، فستتمكن كل من تركيا وإيران من إطلاق العنـان لمناطقهـما الجغرافية أكثر فأكثر من أجل أن تؤديـا أدوارا مكثفة في الشرق الأوسـط العربي. لم تعـد تركيا مرتبطة بنفس القوة بمنظمة حلف شـمال الأطلسي، عـلى الرغـم من أن حلف شـمال الأطلسي لا يعدو كونه قصبـة ضعيفة مقارنة بما كان عليه سابقا. ومع نهاية نظام صدام حسين في العراق - وهو نفسه دولة شرطية على الطراز السـوفييتي من مخلفات الحرب البـاردة - تورطت إيران في المناورات السياسـية للعـالم العربي كما لم يحدث من قبل. تـم كل ذلك بطرق خفية تماما؛ إذ تعمل تركيا بالتنسـيق مع إيران، على الرغم مـن كونها قوة موازنة مضادة لها. وفي الوقت نفسه، يظهر العراق كبديل ذي أغلبية شيعية لإيران، مهما كان مدى ضعف العراق في الوقت الراهن. ومما سـاعد تركيا وإيـران، الثورة التي تحققت في مجال الاتصـالات العالمية، والتي - في حالتيهما على الأقل - مكنت الناس من الارتقاء فوق العـرق واعتماد الدين حقا كفئة للهوية. وهكـذا، فالأتراك والإيرانيون والعرب هم جميعا من المسلمين، وكلهم متحدون ضد إسرائيل وإلى حد ما ضد الغرب. وبالتالي، فمـع العوامل الجغرافية المحسـنة لتركيا وإيران، والتي تؤثـر في العالم العربي، فإن رباعي الأضلاع الشاسـع الذي يمثله الشرق الأوسـط قد صار مترابطا على نحو أكثر تناسقا من أي وقت مضى.

وخلافـا لحالتـي تركيا وإيـران، فلم يكن للـدول العربية التي تقـع بين البحر المتوسـط والهضبـة الإيرانية أي مغزى قبـل القرن العشرين؛ فلم تكن فلسـطين، ولبنان، وسـورية، والعراق سوى مصطلحات جغرافية، كما لم يكن قد جرى التفكير في الأردن بعد. وعندما نزيل الخطوط الرسـمية من الخريطة، سـنجد لوحة بدائية مرسومة بالأصابع لتجمعات من السكان السنّة والشيعة، والتي تتعارض مع الحدود

الوطنية. داخل هذه الحدود، سنجد أن السلطات المركزية الحاكمة في كل من لبنان والعراق لا تعمل إلا بالكاد. أما النظام في سورية فهو استبدادي، لكنه واقع تحت حصار شديد من جماهيره الخاصة (وقد لا يظل في الحكم حتى نشر هذا الكتاب)، في حين أن الأردن يحكمه نظام ملكي مطلق، لكن ربما لن يكون له أي مستقبل إلا في التحول إلى الملكية الدستورية. (إن السبب الرئيسي في وجود الأردن يظل غير معلن على الدوام؛ فهو يعمل كدولة عازلة للأنظمة العربية الأخرى التي تخشى من امتلاك حدود برية مع اسرائيل). عندما أطاح الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش بالنظام الدكتاتوري في العراق، كان من المعتقد في ذلك الوقت أنه صانع للتاريخ في العالم العربي، بتكدير صفوه بدرجة أكبر مما فعلت أي شخصية غربية منذ نابليون. لكن بعد ذلك جاءت الثورات الديموقراطية في الربيع العربي، والتي كانت لها أسبابها الداخلية الخاصة التي لا علاقة لها بما فعله بوش. وعلى أي حال، فإن منظومة الدول بعد زوال الإمبراطورية العثمانية، والتي جاءت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، تخضع لضغوط أكبر من أي وقت مضى. قد لا يتبع ذلك بالضرورة ظهور ديموقراطية على النمط الغربي، ولكن يجب أن يليه في نهاية المطاف ضرب من أشكال التحرر، والذي تساعده الثورة التي نشبت في مصر، وكذلك المرحلة الانتقالية المتمثلة في الابتعاد عن الدول البوليسية العربية التي تعود إلى حقبة الحرب الباردة، وهو الأمر الذي سيجعل عملية انتقال أوروبا الوسطى والبلقان بعيدا عن الشيوعية يبدو أمرا هينا مقارنة بذلك. وفي الواقع، تتميز بلاد الشام حاليا بأنظمة استبدادية منهارة وبديموقراطيات متناثرة هنا وهناك، والتي لا يمكنها تحقيق أي شيء. إن الطاقة الجامحة التي تميّز قيادتي تركيا وإيران، والناتجة جزئيا عن الطبيعة الجغرافية للبلدين، لم تكن ظاهرة طوال عقود في أي مكان من العالم العربي تقريبا - وهو سبب آخر في أن العالم العربي قد دخل الآن مرحلة انتقالية سياسية مصيرية.

وفي الواقع أن الانتفاضات العربية التي نشبت في العام 2011، والتي أزاحت العديد من الأنظمة، كانت تتعلق بقوة تكنولوجيا الاتصالات وهزيمة الجغرافيا. ولكن بمرور الوقت، فإن جغرافيات كل من تونس، وليبيا، ومصر، واليمن، وسورية، والدول الأخرى ستُعيد تأكيد ذواتها. تمثل تونس ومصر تجمعات قديمة من الحضارات، والتي تعود نشأة دولهما إلى العصور القديمة، في حين أن ليبيا

واليمن، على سبيل المثال، ليسا سوى منطقتين جغرافيتين مبهمتين، واللتين لم تنشأ دولهما حتى القرن العشرين. إن ليبيا الغربية القريبة من طرابلس (تريبوليتانيا: Tripolitania) كانت متوجهة دائما نحو الحضارات الغنية والمتحضرة في قرطاج بتونس، في حين أن ليبيا الشرقية حول بنغازي (برقة: Cyrenaica) كانت متوجهة دائما نحو حضارة الإسكندرية في مصر. كانت اليمن غنية ومكتظة بالسكان منذ العصور القديمة فصاعدا، لكن ممالكها الجبلية العديدة كانت دائما منفصلة بعضها عن بعض. ولذلك فليس من المستغرب أن بناء دولتين عصريتين وغير استبداديتين في ليبيا واليمن يثبت أنه أكثر صعوبة مما هي الحال في تونس ومصر. لكن بلاد الشام ومنطقة الهلال الخصيب هي المكان الذي قد تتكشف فيه ملامح المرحلة المقبلة من الصراع.

إن العراق، بسبب الغزو الأمريكي في العام 2003، مكتنف بعمق في تطور سياسي لا يسعه إلا أن يؤثر في العالم العربي بأسره. ويرجع هذا إلى الاحتياطيات النفطية الهائلة في العراق (الذي يحتل المرتبة الثانية في العالم بعد المملكة العربية السعودية)؛ وعدد سكانه الكبير الذي يزيد على 31 مليون نسمة؛ وموقعه الجغرافي عند ملتقى العالمين السني والشيعي؛ والبُعد المتساوي بينه وبين إيران، وسورية، والمملكة العربية السعودية؛ وأهميته التاريخية والسياسية كعاصمة سابقة للدولة العباسية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن العراق تعذبه تركات ثلاث: ما يقرب من نصف قرن من الدكتاتورية العسكرية الوحشية في ظل عديد من الحكام، والتي بلغت ذروتها في عهد صدام حسين، ما أدى إلى انحراف ثقافته السياسية؛ وتاريخ قاتم وعنيف، سواء قديم أو حديث، الذي يمتد إلى ما هو أبعد بكثير من العقود الدكتاتورية الأخيرة، والذي شجع على ظهور طابع وطني يتسم بالقسوة والريبة (مهما بدا ذلك جوهريا essentialist)؛ والانقسامات العرقية والطائفية الحادة.

لم يُترك العراق وشأنه مُطلقا. ومرة أخرى، تقول فريا ستارك: «على الرغم من أن مصر تقع بصورة موازية وسلمية لطرق الهجرات البشرية، فقد كان العراق منذ القدم إقليما حدوديا، يقع في زاوية قائمة وبغيضة على المسارات المقدّرة سلفا لهجرات البشر»[11]. تتقاطع بلاد ما بين النهرين مع واحد من أكثر مسارات الهجرة دموية في التاريخ، والذي عمل على تأليب البشر بعضهم ضد بعض وإلى

بـث روح التشـاؤم بينهم كنتيجة لذلك. وسـواء تعرّض العـراق للهجوم من جهة الصحراء السورية في الغرب أو من هضبة عيلام الإيرانية من الشرق، فقد ظل ضحية للاحتلال باستمرار. واعتبارا من الألفية الثالثة قبل الميلاد، تحاربت الشعوب القديمة في الـشرق الأدنى من أجل السـيادة على بلاد مـا بين النهرين. وسـواء كان الملكان الأخمينيان الفارسيان داريوس Darius وأحشويروش Xerxes اللذان حكما بابل، أو قبائل المغول التي اجتاحت البلاد لاحقا، أو الحكم العثماني الطويل الذي انتهى مع الحرب العالمية الأولى، فقد شهد العراق تاريخا مأساويا من الاحتلال[12].

ومما عزّز سفك الدماء هذا أن بلاد ما بين النهرين نادرا ما كانت دولة متماسكة ديموغرافيا. إن نهري دجلة والفرات، اللذين يمران عبر العراق، قد شكلا لفترة طويلة منطقـة حدودية تقوم فيها الجماعات المختلفة، التي كثيرا ما كانت تمثل بقايا هذه الغزوات الأجنبية، بالتقاتل والتزاحم. وكما وثّقه المستشرق الفرنسي جورج رو Roux بكل اجتهاد في العراق القديم، فمنذ العصور القديمة، كان شـمال، وجنوب، ووسط البلاد في العادة محلا لمعارك ضارية. أما حكام أولى الدول المدينية، أي السـومريون الجنوبيين، فقد حاربوا الأكديين الذين عاشـوا في وسـط بلاد ما بين النهرين؛ وقاتل كلاهما الآشوريين قاطني الشمال. وفي المقابل، فقد حارب الآشوريون البابليين، فضلا عـلى الجيوب العديدة من الفرس الذين كانوا يعيشـون وسـط السـكان الأصليين لبـلاد ما بـين النهرين، مما مثّل مصـدرا آخر للنزاع[13]. ولم تتمكن سـوى الأنظمة الاسـتبدادية الأشـد قسـوة من منع وقوع التفكك التام الذي كانت هذه المنطقة الحدودية معرضة له. وكما أشـار إليه الباحث أديد داويشـا Dawisha، فقد كانت «هشاشـة النظام الاجتماعي [على مر التاريخ] متأصلة في أرض ما بين النهرين»[14]. وهـذا النظام الهش، الذي عمل على تأليب جماعـة ضد أخرى في وادٍ نهري مكتظ بالسـكان والـذي يفتقر إلى وجود حـدود واقية، هو الـذي أدى في نهاية المطاف، وبصورة حتمية على ما يبدو، إلى ظهور حكم اسـتبدادي في القرن العشرين ويبدو كأنه جاء من العصور القديمة مباشرة: وهو الطغيان الذي أفضى، بمجرد الإطاحة به، إلى سنوات عديدة من الفوضى المريعة التي تنطوي على فظائع اكتست هالة قديمة.

ولأن العـراق مثقـل بالتاريخ الحديث فضلا عن ذلـك القديم، فقد كانت بلاد ما بـين النهرين من أضعف أجـزاء الإمبراطورية العثمانية حُكـما؛ فيما يمثل حالة

أخــرى من التعبير الجغرافي الغامض - أي تجمّع فضفــاض من القبائل، والطوائف، والأعــراق التي قســمها الأتراك أكثر إلى ولايات vilayets الموصــل الكردية، وبغداد السنية، والبصرة الشيعية، مرتبة من الشمال إلى الجنوب. وعندما حاول البريطانيون «نحــت» نظام ســياسي بين نهــري دجلة والفــرات في أعقاب انهيــار الإمبراطورية التركية، بنوا توليفة شــاذة من النزعة الانفصالية الكردية، والقبلية الشيعية، والحزم الســنّي[15]. ولربط حقول النفط الكردستانية في الشمال بأحد موانئ الخليج العربي الواقعة إلى الجنوب - كجزء من إســتراتيجية برية وبحرية للدفاع عن الهند - عمل البريطانيــون على التقريب بين القوى العرقية والطائفية التي ســيكون من الصعب تهدئتها بالوسائل العادية.

وقــد أدى صعود القومية العربية بعد الحــرب العالمية الثانية إلى مزيد من الانقســامات، فقد تم تأليب الضباط والسياســيين العراقيين بعضهم ضد بعض: أولئك الذين رأوا أن أفضل حل لهوية العراق الإشكالية يتمثل في انضمامها تحت لــواء أمة عربية واحــدة تمتد من المغرب إلى بلاد ما بــين النهرين، مقابل أولئك الذين جاهدوا ضد احتمالات ثقيلة للخســارة من أجل عراق موحد، على الرغم من انتفاء منطقه الجغرافي، والذي ســيتمكن من قمع أهوائه الطائفية الخاصة. وعــلى أي حال، فإن ما يقرب من أربعة عقود من الديموقراطية الطائشــة، وغير المســتقرة، وغير الفعالة منذ العام 1921، والتي تخللها عدد من الثورات وشــبه السلطوية باسم القصر الملكي، قد انتهت بصورة مفاجئة في الرابع عشر من يوليو 1958، عندما خلع انقلاب عســكري الحكومة العراقية الموالية للغرب. وقد أجبر الملك فيصل الثاني، الذي حكم على مدى الســنوات التسع عشرة الماضية، وأفراد أسرته على الوقوف في مواجهة حائط ومن ثم إعدامهم رميا بالرصاص، كما أطلق النار على رئيس الوزراء، نوري السعيد، ودفن؛ وبعد ذلك جرى نبش قبره وإخراج جثته، ثم حرقها وتشــويهها على يد الغوغاء. لم يكن هذا عملا عشوائيا، بل فعلا يدل على العنف الوحشي والمنحرف الذي كثيرا ما ميّز الحياة السياسية العراقية. وفي الحقيقــة أن قتل كامل العائلة المالكة الهاشــمية، مثــل مقتل عائلة القيصر الــروسي نيكولاس الثــاني Nicholas II في العام 1918، كان جريمة رمزية بعمق، والتــي بشرت بعقــود من القتل والتعذيب من قبل ســلطات الدولة في العراق،

والذي سيحتاج إلى مزيد من السنوات لكي يتعافى من آثارها. بدأ خط الحكومات الاستبدادية على غرار الكتلة الشرقية بالعميد عبد الكريم قاسم، وانتهى بصدام حسين، حيث كان كل دكتاتور أكثر تطرفا من سابقه؛ فبهذه الطريقة وحدها كان من الممكن الاحتفاظ بتماسك دولة مؤلفة من مثل هذه الجماعات المتباينة والقوى السياسية المتناحرة.

ومع ذلك، كما كتب داويشا، فإن «ذاكرة التاريخ ليست خطية ولا تراكمية... وبالتالي فعلى الرغم من أنه لا شك في أن جزءا كبيرا من تاريخ العراق كان استبداديا، فقد كانت هناك أيضا أشعة من الأمل في أن تسود الديموقراطية»[16]. وفي حين يناضل العراق من أجل تجنب الانزلاق مرة أخرى سواء إلى الاستبداد أو الفوضى بفعل العبء الذي تمثله الولاءات العتيقة، يجدر بنا أن نأخذ في الاعتبار أنه ما بين العامين 1921 و1958، شهد العراق ديموقراطية فاعلة إلى حد ما. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الجغرافيا نفسها تخضع لتفسيرات مختلفة. ومع كل ميل بلاد ما بين النهرين للانقسام البشري، كما نبهنا إليه مارشال هودجسون، فإن هذه الدولة، في الواقع، ليست مصطنعة بالكامل، إذ كان لها أساس في العصور القديمة. إن الشريط الزراعي الذي خلقه نهرا دجلة والفرات يمثل واحدة من الحقائق الديموغرافية والبيئية المعلمية للشرق الأوسط. ومع ذلك، فإن أي ديموقراطية عراقية ستظهر في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين ستكون غير جديرة بالثقة، وفاسدة وغير كفؤة، وجامحة إلى حد كبير، وربما كانت الاغتيالات السياسية تمثل جزءا معتادا من حياتها اليومية. وباختصار، فإن عراقا ديموقراطيا، على الرغم من الثروات البترولية الهائلة والجيش المدرب على أيدي القوات الأمريكية، سيكون دولة ضعيفة - على الأقل في المدى القريب. وسيسعى السياسيون العراقيون المتناحرون للحصول على الدعمين المالي والسياسي من القوى المجاورة - أي إيران والمملكة العربية السعودية أساسا - ونتيجة لذلك، سيصبحون ألعوبة في أيديهما، إلى حد ما. ومن الممكن للعراق أن يصبح مرة أخرى نسخة أكبر من لبنان الذي دمرته الحرب في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. ولأن المخاطر كبيرة جدا في العراق - فسيمتلك من يمسكون بالسلطة وصولا فاسدا إلى ثروات نفطية مذهلة - وبالتالي، فإن الاقتتال الداخلي بينهم،

كما رأينا، سـيكون شديدا ومسـتمرا. يتطلب وجود قاعدة أمامية موالية للغرب في قلـب العالم العربي أن تكون الدولـة قوية من الداخل، لكن هناك القليل من الإشارات على وجودها حتى الآن.

يبـدو أن بلاد ما بين النهرين الضعيفة تمثل فرصـة لوجود محور آخر في العالم العربي، سواء لأسباب ديموغرافية أو متعلقة بالموارد الطبيعية، والذي سيمتلك الهيبة ويمسـك بزمام القيادة. لكن من الصعب أن نرى الاتجاه الذي سـيأتي منه. يتسـم السـعوديون بطبيعتهم الانفعالية، وذلك بسبب ثرواتهم النفطية الهائلة مع وجود عدد صغير نسـبيا من السـكان يتميز مع ذلك، بوجود جحافل من الذكور الشـبان الذين هم عرضة لكل من التطرف والتوق إلى الديموقراطية - وهم من الفوج نفسه الذي رأيناه يشـعل الثورات في تونس ومصر. إن حقبة ما بعد مبارك في مصر، التي تضم أكبر عدد من السـكان في العالم العربي، ستتميز بوجود حكومات، سواء كانت ديموقراطية أو لا، والتي سـتكرس طاقاتها لتعزيز السـيطرة على الأوضاع الداخلية، ومجابهة التحديات الديموغرافية المتعلقة بمنابع النيلين الأبيض والأزرق الواقعين في دولتي السـودان وفي إثيوبيا. (إن إثيوبيا، بسكانها البالغ عددهم 83 مليون نسمة، تتفوق في مصر من حيث عدد السكان، في حين يضم كل من شمال وجنوب السودان أكثر من 40 مليون نسـمة. وبالتالي، فإن الصراع على اسـتخدام المياه سـيمثل عبئا متزايـدا يُثقل كاهل كل هذه الحكومات في القـرن الحادي والعشرين). إن ضعف العالم العربي نفسـه، هو ما ستسـعى إلى الاسـتفادة منه تركيا وإيران، باستمالتهما للأمة الإسلامية الكبرى.

لا يتجـلى هذا الضعف في حالة عراق ما بعد الغزو فقط، بل في حالة سـورية، أيضـا. تمثل سـورية قطبا جغرافيا حيويا آخر في العالم العـربي - في كل من العصور الوسطى والحديثة. وفي الواقع أنها ادّعت ممارسة دور القلب النابض للعروبة خلال حقبة الحرب الباردة.

في العام 1998، غادرت جبال طوروس في اتجاه الجنوب الشرقي، ومن ثم نزلت بشـكل حاد من آسـيا الصغرى إلى السـهل السـور - الذي تتخلله أشجار الصنوبر والزيتـون، مع تلال من الحجر الجيري في بعض الأحيان - تركت ورائي مجتمعا واثقا وصناعيـا في تركيـا، التي تتعزز قوميتهـا بفعل المنطق الجغـرافي المتمثل في وجود

البحر الأسود إلى الشمال، والبحر المتوسط إلى الجنوب والغرب، والمعاقل الجبلية إلى الشرق والجنوب الشرقي. وفي هذه القلعة الطبيعية، صُنف الإسلام تحت فئة الديموقراطية rubric of democracy. لكنني دخلت الآن قطعة اصطناعية من الأراضي الواقعة في صحراء مترامية الأطراف، التي لم يكن يحفظ تماسكها سوى الفكر البعثي وعبادة الشخصيات المصاحبة له: كانت صور الرئيس حافظ الأسد المعلقة على كل نوافذ المتاجر وعلى الزجاج الأمامي للسيارات تشوه المنظر هناك. لم تحدد الجغرافيا مصير سورية - أو تركيا - لكنها كانت نقطة البداية.

تخبرنا الجغرافيا والتاريخ بأن سورية، التي يبلغ عدد سكانها عشرين مليونا، ستظل بؤرة الاضطرابات في العالم العربي. إن حلب الواقعة في شمال سورية هي مدينة تجارية تمتلك روابط تاريخية بالموصل وبغداد في العراق أكثر من ارتباطها بدمشق، وهي العاصمة السورية. وكلما انخفضت حظوظ دمشق، استعادت حلب عظمتها. وعند التجول عبر أسواق حلب، فمن المدهش أن ترى كم تبدو دمشق بعيدة وغير ذات صلة. يهيمن على أسواق حلب التجار الأكراد، والأتراك، والشركس، والمسيحيون العرب، والأرمن، وغيرهم، على عكس سوق دمشق، والذي يقترب من كونه عالما من العرب السنة. وكما هي الحال في باكستان ويوغوسلافيا السابقة، ففي سورية ترتبط كل طائفة ودين بمنطقة جغرافية محددة. وفيما بين حلب ودمشق، توجد المعاقل المتزايدة للإسلاميين السنة في حمص وحماة؛ وبين دمشق والحدود الأردنية يوجد الدروز؛ وفي المعاقل الجبلية المتاخمة للبنان يعيش العلويون، سواء من بقايا موجة التشيع التي اجتاحت سورية قبل ألف سنة، انطلاقا من بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين. أدت الانتخابات الحرة والنزيهة التي جرت في الأعوام 1947، و1949، و1954 إلى تفاقم هذه الانقسامات بفعل تقسيم الأصوات بطول الخطوط الإقليمية والطائفية والعرقية. جاء الرئيس الراحل حافظ الأسد إلى السلطة في العام 1970 بعد واحد وعشرين تغييرا في الحكومات خلال السنوات الأربع والعشرين السابقة. وعلى مدى ثلاثة عقود، كان ليونيد بريجنيف العالم العربي، بمحاولته حَجْب المستقبل من خلال فشله في بناء مجتمع مدني في الداخل. وفي حين كانت يوغوسلافيا لاتزال تمتلك طبقة مثقفة في وقت تفتتها، فلم تكن الحال في سورية كذلك، فقد كان نظام حافظ الأسد خانقا للنخاع.

خلال الحرب الباردة وبداية سنوات ما بعد الحرب الباردة، كانت النزعة العروبية الحماسية في سورية بديلا عن هويتها الضعيفة كدولة. كانت سورية الكبرى مصطلحا جغرافيا يعود إلى العهد العثماني، والذي كان يشمل المنطقة التي تحتلها في الوقت الحاضر لبنان، والأردن، وإسرائيل - فلسطين، والتي تضر بها الحدود المقتطعة للدولة السورية الحالية أيما ضرر. كان الباحث بجامعة برينستون، فيليب ك. حِتي Hitti، يصف سورية الكبرى التاريخية هذه بأنها «أكبر دولة صغيرة على الخريطة، فهي مجهرية في حجمها لكنها كونية في نفوذها»، والتي تشمل في جغرافيتها، عند التقاء أوروبا وآسيا، وأفريقيا، «تاريخ العالم المتحضر في صورة مصغرة»[17]. أمدت سورية العالم اليونان - الروماني بعدد من ألمع مفكريه، ومن بينهم الرواقيون Stoics والأفلاطونيون المحدثون Neoplatonists. كانت سورية مقر الإمبراطورية الأموية، وهي أول سلالة عربية بعد [النبي] محمد صلى الله عليه وسلم، والتي كانت أكبر من روما في أوجها، كما كانت مسرحا لما يمكن القول إنه أعظم مأساة في التاريخ بين الإسلام والغرب: الحروب الصليبية.

لكن سورية كانت في العقود الأخيرة شبحا باهتا لهذه التركة الجغرافية والتاريخية العظيمة. ويدرك السوريون ذلك على نحو لاذع؛ فكما يعلمون، فقد أدت خسارتهم لبنان إلى تقليص معظم منافذ سورية على البحر المتوسط، والتي كانت مستودعاتها الثقافية الغنية تنبض بالحياة. ومنذ أن انتزعت فرنسا لبنان من سورية في العام 1920، استماتت السوريون في استعادتها مرة أخرى. ولذلك فإن الانسحاب السوري الكامل من لبنان، والذي طالب به جورج دبليو بوش في العام 2005 في أعقاب اغتيال رئيس الوزراء اللبناني المعارض لسورية، رفيق الحريري، من شأنه أن يقوّض الأساس السياسي لنظام الأقلية العلوية في دمشق على الفور. إن العلويين، وهم أفراد طائفة شيعية مبتدعة (heterodox)، يتوزعون ديموغرافيا في كل من سورية ولبنان. وبالتالي فإن قيام دويلة للعلويين في شمال غرب سورية لن يكون أمرا مستحيلا بعد انهيار النظام العلوي في دمشق.

وفي الواقع أنه بعد العراق وأفغانستان، فإن الهدف القادم للجهاديين السنّة قد يكون سورية نفسها: ففي النظام السوري، الذي ترأسه حتى أوائل العام 2012 بشار الأسد، وجد الجهاديون عدوا يتسم بكونه «مستبدا، وعلمانيا، ومهرطقا heretical في

الوقت نفســه»[18]. كان هذا النظام العلوي مقرّبا من إيران الشـيعية، كما أنه مذنب بقتل عشرات الآلاف من الإسـلاميين السنّة في سـبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. يمتلك الجهاديون إلماما لوجسـتيا عميقا بسـورية - فمؤازرة الجهاد في العراق تسـتلزم وجود شـبكة كاملة من البيوت الآمنة داخل سـورية. وفي الواقع أن أحدا لا يعرف ما سـتؤول إليه في نهاية المطاف سـورية في مرحلة ما بعد السلطوية، وبعد سقوط نظام الأسـد. ما مدى عمق الطائفية؟ قد لا تكون عميقة على الإطلاق، ولكن بمجرد أن يبدأ القتل، يرتد الناس إلى هوياتهم الطائفية المكبوتة. قد تكون الحال أيضا أن سـورية في مرحلة ما بعد الأسـد سـتكون أفضل حالا من العراق بعد صـدام، وذلك تحديدا لأن طغيان النظام الأول كان أقل حدة مما كان عليه الأخير، مما يجعل سورية مجتمعا أقل فسـادا. كان السفر من العراق في عهد صدام إلى سورية تحت حكم الأسد، كما فعلت عدة مرات، مثل الخروج إلى هواء إنساني متحرر. ومن ناحية أخرى، كانت يوغوسلافيا طـوال الحرب الباردة مجتمعا أكثر انفتاحا من جيرانهـا في منطقة البلقان، لكن انظر كيـف قوّضت الاختلافات العرقية والدينية هذا المجتمع! لقد حافظت الأقلية العلوية على السـلام في سـورية؛ لكنه يبدو من غير المحتمل أن يقوم الجهاديون السنّة بعمل الشيء نفسـه. قد يكونون بالوحشـية نفسـها، لكنهم يفتقرون إلى المعرفة المتمرسـة بطرق الحكم، والتي اكتسبها العلويون خلال أربعين عاما من وجودهم في السلطة.

وبطبيعة الحال، فليس من الضروري أن تسير الأمور بهذه الطريقة على الإطلاق، لأنه يوجد أساس جغرافي متين من أجل السلام والنهضة السياسية في سورية. ولنتذكر مرة أخرى قول هودجسـون: إن دولا مثل سـورية والعراق تمتلك بالفعل جذورا في الأراضي الزراعية؛ ومن ثم فهي ليست اصطناعية تماما. أما سورية، وعلى الرغم من حدودهـا الحالية، فهي لاتزال تمثل قلب العالم المشرقي، وهو ما يعني عالما متعدد الهويات العرقية والدينية توحّده التجارة[19]. إن الشـاعر سـوري المولد علي أحمد سـعيد (المعروف باسمه المسـتعار «أدونيس») يمثل تعبيرا واضحا للغاية عن هذه السـورية الأخرى، بثروتها من التفاعل بين الحضارات، والتي - كما نعلم من كتابات وليام ماكنيل - تشـكّل الدراما الأساسية للتاريخ. يحضّ أدونيس مواطنيه السوريين على نبذ القومية العربية وتشكيل هوية وطنية جديدة مبنية على الانتقائية والتنوع الـذي يميّز سـورية: والتي تمثل مقابلا عمليا في القرن الحـادي والعشرين لما كانت

عليه بيروت، والإسـكندرية، وإزمير في أوائل القـرن العشرين. ينتمي أدونيس، مثل آل الأسد، إلى الطائفة العلوية، لكنه آثر بدلا من اعتناق العروبة والدولة البوليسية كـدروع لوضعه كأحد أفراد الأقلية، فقد اعتنق مبادئ الكوزموبوليتية بدلا منها[20]. وبـدلا من التطلع نحو الصحراء، يتطلع أدونيس نحو البحر المتوسـط، الذي لاتزال سـورية الحديثـة، على الرغم من خسـارتها لبنـان، تمتلك على شـواطئه كثيرا من العقارات. يمثّل البحر المتوسط بوتقة عرقية وطائفية، والتي تشكّل الأساس الفكري الوحيد لوجود ديموقراطية مستقرة في سورية. تتداخل أفكار ماكنيل، وهودجسون، وأدونيس بالفعل من حيث الوعد الذي تحمله سورية[21].

أمـا الآثار المترتبة على هذا بالنسـبة إلى بقية أجزاء سـورية الكبرى الجغرافية - أي لبنان، والأردن، وإسرائيل فتتسـم بأنها هائلة. وسـواء كانت أو لم تكن هناك ثورة جهادية في سـورية تـلي تلك الديموقراطية - في حالة عدم ترسّـخ ديموقراطية جديـرة بأفكار أدونيس - يبدو أن سـورية تتجه إلى أن تصـير أقل مركزية، وبالتالي سـتتحول إلى دولـة أضعف. كما أنها سـتكون دولة ذات تضخـم ملحوظ في عدد الشـبان؛ إذ إن 36 في المائة من السـكان يبلغون من العمر أربع عشرة سنة أو أقل. بيد أن ضعف سـورية قد يعني ظهور بيروت كعاصمة ثقافية واقتصادية لسـورية الكبرى، مع دفع دمشق إلى ثمن ابتعادها عن العالم الحديث منذ عقود طويلة، على النمط السـوفييتي. ومع ذلك، فمع استمرار الشيعيين الفقراء من أنصار حزب الله في بيروت الجنوبية في كسـب نفوذ ديموغرافي عـلى بقية أجزاء تلك المدينة، وزيادة نفوذ الإسلاميين السـّنة في دمشق، فمن الممكن أن تصبح سورية الكبرى الجغرافية أقل استقرارا بكثير مما هي عليه الآن.

ومع ذلك فقد ينجو الأردن من مثل هذا التطور، وذلك لأن السـلالة الهاشـمية (على عكس تلك العلوية) قد أمضت عقودا في بناء وعي الدولة عن طريق بناء نخبة موحـدة. تعج العاصمة الأردنية عمان بعديد من وزراء الحكومة السـابقين الموالين للعائلة المالكة الأردنية - وهم رجال لم يتعرضوا للسجن أو القتل نتيجة للتعديلات الوزارية، بل يُسـمِحَ لهم فقط بأن يصبحـوا أثرياء. ولكن، مرة أخرى، تتمثل اللعنة هنا في التركيبة السـكانية: يعيش 70 في المائة من سـكان الأردن البالغ عددهم 6.3 ملايـين في المناطق الحضرية، وثلثهم تقريبا لاجئون فلسـطينيون، الذين يتسـمون

بمعدل مواليد أعلى من السكان الأصليين للضفة الشرقية لنهر الأردن. (أما بالنسبة إلى سكان الضفة الشرقية أنفسهم، فقد توترت العلاقة التقليدية بين القبائل والنظام الملكي مع تطوّر الثقافة القبلية نفسها، حيث حلت الشاحنات الصغيرة والهواتف المحمولة محل الإبل منذ فترة طويلة). ثم إن هناك 750 ألف لاجئ عراقي في الأردن، مما يجعل نصيب الفرد الأردني من اللاجئين الأعلى في جميع أرجاء العالم.

ومرة أخرى، نعود إلى حقيقة وجود جغرافيا مغلقة وخانقة clansttrophabic، وفقا لبول براكن، والتي تتعرض جماهيرها الحضرية الفقيرة والمكتظة لمزيد من الجلد لعواطفهم من قبل وسائل الإعلام الإلكترونية، وفقا لإلياس كانيتي Canetti. وبسبب أعمال العنف في العراق وأفغانستان على مدى العقد الماضي، فقد صرنا غير مبالين بمدى عدم الاستقرار الذي يسود ما يسمى بالأجزاء المستقرة من الشرق الأوسط. وقد فعلنا ذلك على مسؤوليتنا الخاصة - كما أظهرت الثورات العربية. بدأت تلك الانتفاضات بوصفها تعبيرا عن التوق إلى المجتمع المدني وكرامة الفرد، التي سلبتها أنظمة الأمن القومي المتحجرة من الشعوب. ولكن في المستقبل، من الممكن أن يؤدي التمدن والاتصالات الإلكترونية إلى تعبيرات أقل لُطفا benign عن الغضب الجماهيري. إن الحشود النابحة على المظالم الحقيقية والمتصوّرة هي نمر ما بعد الحداثة الجديد، والذي سيكافح الجيل القادم من القادة العرب للحفاظ عليه تحت السيطرة.

لقد عبرت الحدود من الأردن إلى إسرائيل عدة مرات. يمثل وادي نهر الأردن جزءا من صدع عميق في سطح الأرض، والذي يمتد من سورية إلى مسافة 3700 كيلومتر جنوبا إلى موزمبيق. وهكذا، فإن النزول المتعرج الغارب westering إلى نهر الأردن من النجد ذي اللون البني لمدينة إربد الأردنية كان مثيرا إلى حد مذهل. كان الطريق في أواخر تسعينيات القرن العشرين مبطنا بمرائب متربة، وأكشاك متهالكة لبيع الفاكهة، ومجموعات من الشبان المتسكعين وهم يدخنون. وفي الجزء السفلي، يقع شريط من الحقول الخضراء على طول النهر، حيث ترتفع الجبال بالحدة نفسها، على الجانب الآخر - في إسرائيل. كانت نقطة الحدود ومكاتب الجمارك الأردنية عبارة عن سلسلة من حاويات البضائع القديمة الملقاة في قطعة أرض خاوية. أما النهر فهو ضيق، إذ يمكنك عبوره في حافلة خلال ثوان قليلة. وعلى الجانب الآخر، كانت هناك حديقة خضراء

تفصل بين حارات المرور: مثل الجزر المرورية الموجودة في أي مكان في الغرب، لكنها تمثل أعجوبة بعد الأماكن العامة القاتمة التي يتناثر عليها الغبار في الأردن ومعظم أجزاء العالم العربي. كانت قاعة الجوازات الإسرائيلية مثل أي مطار صغير في الولايات المتحدة. كان رجال الأمن الإسرائيليين يرتدون قمصانا من ماركة «تمبرلاند»، والمدسوسة بالكاد في سراويلهم الجينز لإفساح المجال لمسدساتهم. وبعد أن قضيت أسابيع في العالم العربي، بدا هؤلاء الشبان غير تقليديين للغاية. وبعد قاعة الجوازات، توجد أرصفة ومقاعد جديدة، ومرافق سياحية، والتي - مرة أخرى - تشبه تلك الموجودة في أي مكان في الغرب. وعلى الرغم من أنه كان فضاء عاما فارغا وغير ودي؛ فلم يكن هناك ببساطة أي متسكعين، كما هي الحال في العالم العربي، حيث كانت البطالة متوطنة. كان الإسرائيليون العاملون في الأكشاك غير ودودين بل وقحين، كما كانت روح الضيافة التقليدية في الشرق الأوسط غائبة. وعلى الرغم من أنني عشت في إسرائيل في سبعينيات القرن العشرين وخدمت في جيشها، فإن وصولي إلى هناك بهذه الطريقة قد أتاح لي أن أراها بصورة جديدة. كانت إسرائيل تبدو شاذة للغاية في الشرق الأوسط، ومع ذلك فقد كانت تمثل حقيقة واضحة وقوية.

وبالنسبة إلى العالم الإسلامي كله، الذي توحّده وتهيجه وسائل الإعلام، فإن محنة الفلسطينيين تمثل ظلما طوطميا في الشؤون البشرية. قد لا يكون الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية عاملا مرئيا في المراحل الأولى من الربيع العربي، ولكن لا ينبغي لنا أن نخدع أنفسنا. لقد صارت الحقائق، إلى حد معين، غير ذات معنى؛ فالتصورات هي كل شيء، وما يدعم كل ذلك هو الجغرافيا. وفي حين تُظهر الصهيونية قوة الأفكار، فإن المعركة الدائرة على الأرض بين الإسرائيليين والفلسطينيين - أو بين اليهود والمسلمين، كما ينظر إليها كل من الأتراك والإيرانيين - هي حالة من الحتمية الجغرافية المطلقة.

«سوف يصبح اليهود قريبا جدا أقلية في الأراضي التي يحتلونها أو يحكمونها من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط (وقد حدث هذا بالفعل وفقا لبعض الحسابات)، كما يتوقع بعض علماء الديموغرافيا أنهم سيمثلون في غضون خمسة عشر عاما ما لا يزيد على 42 في المائة من السكان في هذه المنطقة». هكذا كتب

بنيامين شوارتز Schwarz، رئيس التحرير الوطني لمجلة The Atlantic، في أحد أعداد المجلة الصادرة في العام 2005، وذلك في مقال له بعنوان «هل ستعيش إسرائيل إلى سن المائة؟» ومنذ ذلك الحين، لم يتغير شيء بدرجة تؤثر في تلك الحسابات، أو في تحليله النزيه. يتسم معدل المواليد في الأراضي العربية المحتلة بأنه أعلى بصورة مذهلة من مثيله في إسرائيل: ففي قطاع غزة، يزيد النمو السكاني بمقدار الضعف عما هو عليه في إسرائيل، حيث تلد السيدة المتوسطة أكثر من خمسة أطفال خلال حياتها البالغة. ونتيجة لذلك، ففي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ظهر توافق في الآراء داخل الأوساط السياسية، والعسكرية، والمخابراتية الإسرائيلية على أن إسرائيل يجب أن تنسحب من جميع الأراضي المحتلة تقريبا أو أن تصبح عمليا دولة للتمييز العنصري - إذا لم يكن على الفور، فمع مرور الوقت. وكانت نتيجة ذلك هي «السياج»: أي الجدار الذي بناه الإسرائيليون لعزل إسرائيل فعليا عن السكان الفلسطينيين المتنامين ديموغرافيا والفقراء اقتصاديا، والذين يعيشون في الضفة الغربية. أما أرنون سوفير Soffer، وهو جغرافي إسرائيلي، فيصف السياج بأنه «محاولة يائسة أخيرة لإنقاذ دولة إسرائيل»، لكن المستوطنات اليهودية القريبة من الخط الأخضر في الأراضي المحتلة، كما كتب شوارتز، «قد تكون لها جذور بالغة العمق، وقد تمثل جزءا لا يتجزأ جدا من الحياة اليومية لكثير من الإسرائيليين لدرجة أنه لا يمكن التخلي عنها»[22]. ثم إن هناك المبدأ والمنطلق الأساسي للفكر الفلسطيني، ألا وهو «حق العودة»؛ والذي ينطبق على 700 ألف فلسطيني جرى تهجيرهم من إسرائيل عند إنشائها، وكذلك ذريتهم، الذين قد يربو عددهم الآن على خمسة ملايين نسمة. وفي العام 2001، رفض 98.7 في المائة من اللاجئين الفلسطينيين الحصول على تعويض بدلا من حق العودة. وأخيرا، لا بد أن نأخذ في الاعتبار عرب إسرائيل: أي من يعيشون داخل حدود إسرائيل ما قبل العام 1967. وفي حين أن النمو السكاني بين اليهود الإسرائيليين هو 1.4 في المائة، فهو بين عرب إسرائيل 3.4 في المائة: وفي حين أن متوسط عمر mediam age(*) اليهود هو خمسة وثلاثين عاما، فإن مثيله بين العرب هو أربعة عشر.

(*) يشير هذا المقدار الإحصائي إلى القيمة العددية للعمر الذي إذا بلغه شخص في تجمع سكاني، يكون عدد الأشخاص الذين يكبرونه مساويا لعدد من يصغرونه. [المحرر]

وفي عـالم عقـلاني، يمكن للمـرء أن يأمـل في التوصـل إلى معاهدة سـلام بين الإسرائيليين والفلسـطينيين، والتي يتنازل فيها الإسرائيليون عن الأراضي المحتلة ومن ثم تفكيك معظم المسـتوطنات، في حين يتخلى الفلسـطينيون عن حق العودة. وفي موقف كهذا، فـإن إسرائيل الكبرى، على الأقل بوصفها مفهوما اقتصاديا، ستشـكل منطقة جذب إقليمية على البحر المتوسـط، والتي لن تتوجه نحوها الضفة الغربية وقطـاع غزة فقط، بل الأردن، وجنوب لبنان، وجنوب سـورية بما في ذلك دمشـق. لكن قلة من الشـعوب تبدو، حتى كتابة هذه السطور، متباعدة نفسيا بعضها عن بعض وشـديدة الانقسام فيما بينها - وبالتالي متجمدة سياسيا - كما هي الحال بين الإسرائيليين والفلسـطينيين. ولا يسـع المرء إلا أن يأمل في أن الزلزال السياسي الذي شـهده العالم العربي في العام 2011 وأوائل العام 2012 سيحث إسرائيل على تقديم تنازلات إقليمية محورية.

يوشـك الشرق الأوسط على التعرض لتفاعلات بشرية مصيرية، الأمر الذي يرجع في المقـام الأول إلى الجغرافيا المغلقة والمكتظة بسـكانها. لم تختف الجغرافيا خلال الثـورات الجارية في مجالات الاتصالات، والأسـلحة، بل صارت ببسـاطة أكثر قيمة، وأثمن بالنسبة إلى عدد أكبر من الناس.

وفي مثـل هذا العالم، يجب أن تكون القيم العالمية متوقفة على الظروف. نحن نصلي من أجل بقاء الأردن هاشـميا وأن تظل سـورية موحـدة في مرحلة ما بعد الأسـد، كما نصلي من أجل نهاية ديكتاتورية الملالي في إيران. وفي إيران، من المرجح أن تكـون الديموقراطية صديقنا، مما يجعل إيران الكبرى من غزة إلى أفغانسـتان قوة من أجل الخير وليس من أجل الشر، وبالتالي يمكنها تغيير الحسابات في منطقة الشرق الأوسـط بأسرها؛ وبالتالي فقد يمكن ترويض حزب الله وحماس، وتحسـين آفاق السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين. ولكن في الأردن، من الصعب أن نتصور نظامـا أكـثر اعتدالا ومـوالاة للغرب من النظـام الملكي غـير الديموقراطي الحالي. وبالمثل، فـإن الديموقراطية في المملكة العربية السـعودية يرجّـح أن تكون عدوا لنا. وفي سـورية، يجب أن تأتي الديموقراطية تدريجيا؛ لئلا يُقوض التنظيم السياسي لسـورية الكبرى على أيدي الجهاديين السـنّة، كما حدث في بلاد ما بين النهرين بين العامين 2006 و2007.

كان قادة أوروبا في القرن التاســع عــشر وبداية القرن العشرين منهمكين في ما يسمى بالمسألة الشرقية Eastern Question: أي اندلاع عدم الاستقرار والتطلعات القومية الناتجة عن تحلل الإمبراطورية العثمانية الذي بدا بلا نهاية. حُسمت المسألة الشرقية بفعل الجائحة cataclysm التي مثلتها الحرب العالمية الأولى، والتي ولدت منها منظومة الدول العربية الحديثة، والتي ســاعدت في تشكيلها المعالم الجغرافية والتجمعات السكانية القديمة التي كتب عنها مارشال هودجسون ببلاغة. ولكن على الرغم من مرور مائة سنة، فينبغي ألا ننظر إلى متانة منظومة الدول بعد العثمانية هذه في قلب الويكومين على أنها أمر مفروغ منه.

الجزء الثالث

مصير أمريكا

15

برودیل، والمکسیك، والاستراتیجیة الکبری

«لنتفكّر في كيف أن العولمة، التي تمثّل بمعنى ما أمركة العالم، تعمل على الرغم من ذلك كوسيلة لتحدي الهيمنة الأمريكية»

المؤلف

كتب مؤرخ أكسفورد الراحل هيو تريفور - روبر Trevor-Roper في العام 1972 أنه لا يوجد فريق من العلماء كان له «تأثير مخصّب» أكثر في دراسة التاريخ مما أطلق عليه اسم «مجموعة الحوليات» Annales group، التي أسسها في العام 1929 لوسيان فافر Febvre ومارك بلوخ Bloch، وسميت على اسم الدورية الصادرة في باريس، التي كانا ينشران فيها كثيرا من المقالات: أي حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي Annales d'Histoire Economique et Sociale. وفي مقدمة أولئك الباحثين الفرنسيين، كان فرنان برودیل Braudel. وفي العام 1949 نشر برودیل كتابا بعنوان «البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني»، وهو بحث مثّل فتحا جديدا في الكتابة التاريخية

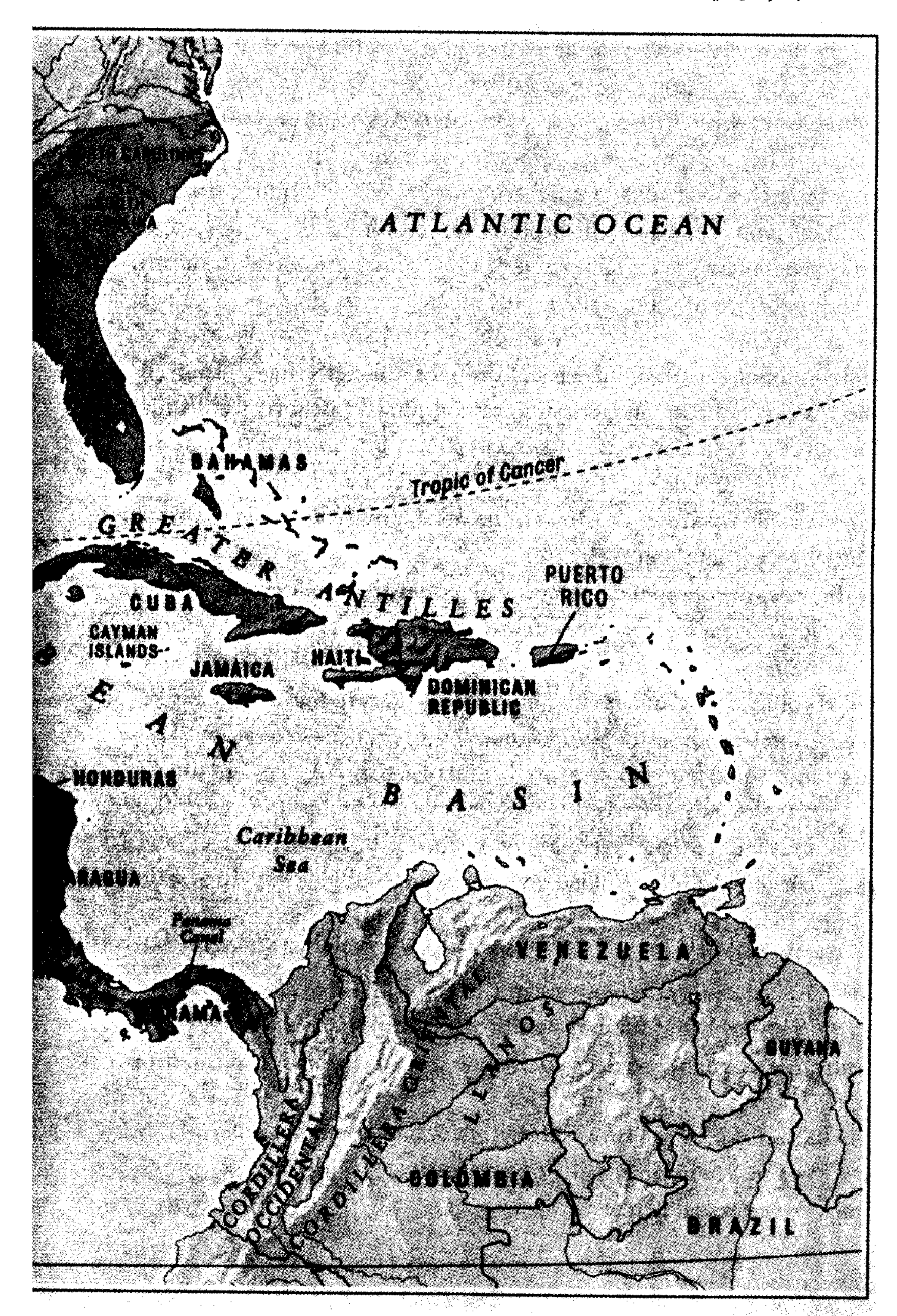
من خــلال تركيزه على الجغرافيا، والديموغرافيا، والماديــة، والبيئة[1]. جلب بروديل الطبيعــة نفســها إلى كتاب عــن التاريخ، مما عمل بالتالي على إثــراء هذا الفرع العلمي بصورة هائلة، كما ســاعد عــلى إعادة الجغرافيــا إلى مكانتها اللائقة في الأوساط الأكاديمية. إن جهده الضخم هذا، والمؤلف من مجلدين، يُعد أمرا مثيرا للإعجاب بشــكل خاص لأنه كتب معظمه وهو أســير لدى الألمان خلال الحرب العالمية الثانية. وفي نســيج بروديل السردي الهائل تــؤدي القوى البيئية الدائمة والثابتة إلى اتجاهات تاريخية ثابتة تســتمر طــوال عدة عقود وقرون، حتى إن أنماط الأحداث السياســية والحروب الإقليمية التي نشــغل أنفسنا بها تبدو أمرا حتميا تقريبا، إن لم تكن مجرد تفاصيل ثانوية.

كان بروديل هو من ســاعدنا على فهم كيف أن تربة الغابات الغنية في شــمال أوروبا، التي لا تتطلب ســوى القليل لجعــل الفلاحين الأفراد منتجين، أدت في نهاية المطاف إلى ظهور مجتمعات أكثر ديناميكية وأكثر حرية مقارنة بتلك التي نشأت على ســواحل البحر المتوسط، حيث كانت التربة الأردأ والأكثر قلقلة تعني وجود ضرورة للري، الأمر الذي أدى بدوره إلى ظهور الأوليغاركيات (حُكم الأقلية: oligarchies). إن تربــة بمثل هذا الفقر، جنبا إلى جنب مع مناخ غير متقلب يضربه الجفاف، هي التي دفعت الإغريق والرومان للســعي إلى الغزو[2]. باختصار، نحن نخدع أنفســنا بالاعتقاد بأننا قادرون تماما على التحكم في مصائرنا؛ وبدلا من ذلك، يقودنا بروديل إلى الإدراك المصاحــب بأننا كلما ازددنا وعيا بحدودنا، ازدادت قدرتنا على التأثير في النتائج الحاصلة ضمن هذه الحدود.

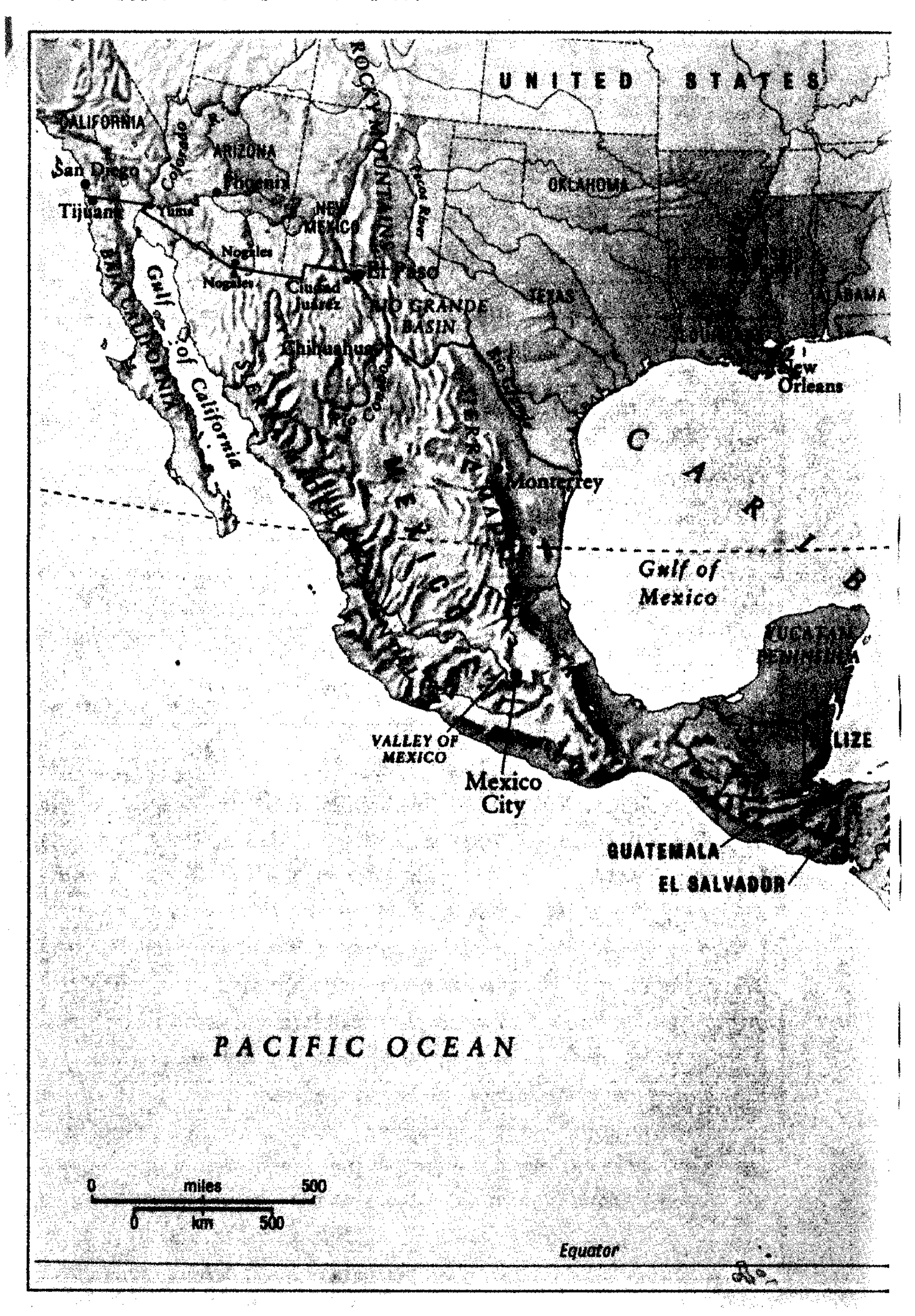
حدّدت بوصلة بروديل الجغرافية البحر المتوسط باعتباره مُجمّعا للبحار بالقرب من الصحراء الكبرى. وهكذا، أعاد إلى شــمال أفريقيا مكانتها البارزة في الدراســات المتوســطية، ومن ثم فقد أضاف سياقا إلى الهجرة الجماعية للعمال في عصرنا الحالي من شــواطئ البلدان الإسلامية الواقعة جنوب البحر المتوسط (التي غرست اللاتينية بعض الجذور عند سفوح جبالها الحجرية) إلى تلك المسيحية الواقعة في الشمال. إن قصة بروديل، برغم تركيزها على الحاكم الإســباني فيليب الثاني، ليســت في الحقيقة متعلقــة برجال أفــراد يقومون بالتغلب عــلى العقبات، بل إنها قصــة عن الرجال ومجتمعاتهم، والتي صيغت بمهارة من قبل قوى غير شــخصية وبنيوية بعمق. وفي

هذا العصر الذي يتسم بتغير المناخ، وانفتاح البحار القطبية الشمالية على الحركة التجارية بفعل ارتفاع درجات الحرارة، وارتفاع مستوى سطح البحر الذي يُنذر بوقوع كوارث في البلدان الساحلية المزدحمة في العالم الثالث الاستوائي، وبسياسة عالمية تتشكل أساسا بفعل مدى توافر النفط وغيره من السلع، قد حان وقت قراءة ملحمة بروديل عن الحتمية الجغرافية. وفي الواقع فإن بروديل، من خلال كتاباته عن منطقة البحر المتوسط، قد رسّخ المزاج-السياق الأدبي لعصر اتسم بالندرة وبأحداث موجّهة بيئيا في كوكب متزايد الازدحام والتعطش إلى الماء.

إن إنجاز بروديل وغيره من أعضاء المدرسة الحولية، كما كتب تريفور- روبر، «هو التقريب بين أفكار الجغرافيا، وعلم الاجتماع، والقانون، ضمن السياق الواسع للتاريخ، وبالتالي إنعاش، وتغذية، وتعزيز ذلك السياق». ففي نهاية المطاف، كما يستطرد تريفور- روبر: «الجغرافيا، والمناخ، والسكان هي التي تحدّد الاتصالات، والاقتصاد، والتنظيم السياسي»[3]. إن بروديل – على عكس ماكيندر، أو سبيكمان، أو ماهان - يفتقر إلى امتلاك نظرية معينة يمكننا استقصاؤها حول الجغرافيا السياسية، ومع ذلك فهو يحقق شيئا أكبر؛ لأنه أكثر من مجرد خبير جغرافي أو إستراتيجي، فهو مؤرخ يمتلك موهبة في السرد المتقن الذي يرسم كل تفاصيل الوجود البشري على لوحة مكونة من القوى الطبيعية. وإذا كانت الجغرافيا والأدب قد التقيا على الإطلاق، فقد فعلا ذلك على يدي بروديل. وبأحد المعاني، فهو يمثل محصلة لجميع المفكرين الإستراتيجيين الذين التقيناهم حتى الآن. وقد أشار عالم الآثار في جامعة أكسفورد، باري كونليف Cunliffe، إلى أن مساهمة بروديل الرئيسية في الطريقة التي يُدرك بها التاريخ ربما كانت مفهومه عن «الموجات المتفاوتة للزمن». في القاعدة توجد الفترة الطويلة longue durée: وهو الزمن الجغرافي البطيء الذي يتغير بصورة تدريجية، «للمشاهد التي تمكّن وتقيّد»؛ وفوقه، وعند طول موجي أسرع، تأتي «الدورات المتوسطة الأجل»، والتي أشار إليها بروديل نفسه باسم المراحل الحاسمة conjonctures، أي التغيرات المنهجية في التركيبة السكانية، والاقتصاد، والزراعة، والمجتمع، والسياسة. ويوضح كونليف أن هذه تمثل أساسا «قوى جماعية، غير شخصية وعادة ما تكون محدودة زمنيا بما لا يزيد على قرن من الزمان».



ATLANTIC OCEAN
BAHAMAS
Tropic of Cancer
GREATER ANTILLES
CUBA
CAYMAN ISLANDS
JAMAICA
HAITI
DOMINICAN REPUBLIC
PUERTO RICO
HONDURAS
BASIN
Caribbean Sea
Panama Canal
VENEZUELA
LLANOS
GUYANA
COLOMBIA
BRAZIL
CORDILLERA OCCIDENTAL


UNITED STATES
CALIFORNIA
ARIZONA
San Diego
Phoenix
Tijuana
Yuma
NEW MEXICO
OKLAHOMA
Nogales
Nogales
Ciudad Juárez
El Paso
RIO GRANDE BASIN
TEXAS
Gulf of California
Chihuahua
New Orleans
Monterrey
Gulf of Mexico
VALLEY OF MEXICO
Mexico City
GUATEMALA
EL SALVADOR
PACIFIC OCEAN
0 miles 500
0 km 500
Equator

مفتاح الخريطة:

California	كاليفورنيا
San Diego	سان دييغو
Tijuana	تيغوانا
Colorado	كولورادو
Arizona	أريزونا
Phoenix	فينكس
Yuma	يوما
Nogales	نوغاليس
Gulf of California	خليج كاليفورنيا
Baja California	باجا كاليفورنيا
New Mexico	نيو مكسيكو
Rocky mountains	جبال روكي
El Paso	إل باسو
Ciudad Juarez	سيوداد خواريز
Chihuahua	تشيهواهوا
Rio Conchos	ريو كونشوس
Sierra Madre Occidental	سييرا مادري الغربية
Mexico	المكسيك
Sierra Madre Oriental	سييرا مادري الشرقية
Valley of Mexico	وادي المكسيك
Mexico city	مكسيكو سيتي
Pecos river	نهر بيكوس
United states	الولايات المتحدة
Rio Grande Basin	حوض نهر ريو غراندي
Rio Grande	ريو غراندي
Monterrey	مونتيري
Caribbean Basin	حوض الكاريبي
Gulf of Mexico	خليج المكسيك
Texas	تكساس
Oklahoma	أوكلاهوما
Louisiana	لويزيانا
Mississippi	مسيسيبي

Alabama	ألاباما
Mississippi river	نهر المسيسيبي
New Orleans	نيو أورليانز
North Carolina	نورث كارولينا
South Carolina	ساوث كارولينا
Georgia	جورجيا
Florida	فلوريدا
Bahamas	جزر البهاما
Atlantic ocean	المحيط الأطلسي
Tropic of cancer	مدار السرطان
Greater Antilles	جزر الأنتيل الكبرى
Cuba	كوبا
Cayman islands	جزر كايمان
Jamaica	جامايكا
Haiti	هايتي
Puerto Rico	بورتوريكو
Dominican republic	جمهورية الدومينيكان
Caribbean sea	البحر الكاريبي
Honduras	هندوراس
Belize	بليز
Guatemala	غواتيمالا
El Salvador	السلفادور
Pacific ocean	المحيط الهادي
Miles	أميال
Km	كلم
Equator	خط الاستواء
Nicaragua	نيكاراغوا
Costa Rica	كوستاريكا
Panama cannel	قناة بنما
Panama	بنما
Cordillera Occidental	كورديليرا الغربية
Cordillera oriental	كورديليرا الشرقية
Llanos	يانوس
Colombia	كولومبيا
Venezuela	فنزويلا
Guyana	غيانا
Brazil	البرازيل

وعنـد أخذهما معا، فإن الفـترة الطويلة والمراحل الحاسـمة يوفران «الهياكل الأساسـية» الخفية في معظمها، والتي تسـتنزف الحياة البشرية. وقد جرى تصميم توضيحي لأهمية الجغرافيا بحيث يركز على هذه الهياكل الأساسـية. يطلق بروديل على الدورة القصيرة الأجل اسـم التاريخ الأحداثي **l'histoire événmentielle** – أي التقلبات اليومية للمناورات السياسـية والدبلوماسية التي تمثل العنصر الرئيسي في التغطية الإعلامية. إن القياس الذي استخدمه بروديل هو البحر: ففي أعمق أعماقه توجد الحركة البطيئة للكتل المائية التي تتحمل كل شيء؛ أما في جزئه العلوي فيوجد المـد والجزر والأمواج العاتية؛ وأخيرا على السـطح، وبعبـارة كونليف، توجد «بقع عابرة من الأمواج المتكسرة والمخفوقة، والتي تختفي في غضون دقيقة واحدة»[4].

بيد أنه من المسـتحيل التكهن بالكيفية التي سـتعمل بها الجغرافيا السياسية على مدى زمني غير إنساني في معظم تحليل بروديل، وبخاصة بالنظر إلى الجدل الدائر حول التغير المناخي وآثاره في مناطق جغرافية بعينها. وبالتالي فإن الحديث عن العلاقات بين أمريكا وأوروبا، مثلا، من مائة أو مائتي سـنة يعد أمرا مثيرا للسخرية، بسبب العوامل العديدة التي لم تظهر تفاصيلها حتى الآن. وبدلا من ذلك، لننظر إلى بروديل ببسـاطة عـلى أنه يشـجعنا على اعتماد وجهة نظر أكثر بُعدا ونزاهـة تجاه نقاط ضعفنا. وعلى سبيل المثال، فعند قراءة بروديل وفي ذهن المرء أحداث العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، فمن المسـتحيل أن نتجنب السـؤال: هل الحروب في العراق وأفغانسـتان مجـرد بقع عابرة للتصفـح فقط، أم إنها جزء من شيء أعمـق، وأبعد غورا، وذي تأثير محـوري في مصير أمريكا؟ ومـن وجهة النظر هذه، فهل كانـت الحرب العالمية الأولى وحتى الحرب العالمية الثانية، والتي شـهدت أعمال عنف على نطاق لم يشهده التاريخ مـن قبل، تنتمي ببسـاطة إلى التاريخ الأحداثي؟ إن بروديـل، وعلى وجه التحديد، لأنه يضـع الأحداث للبشريـة في مقابل ضغط القوى الطبيعية، يسـهّل التفكير من منظور الفترة الطويلة.

لقد عرضت كتابات بروديل كمقدمة للحظة استثنائية في مؤتمر عُقد في واشنطن في يونيو 2009، حيث أثير سؤال منح إلحاحا خاصا لاستفساري عن أهمية الجغرافيا بالنسبة إلى الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين. كان سؤالا من النوع الذي يُعجب بروديل، والـذي يأخذ الناس بعيدا عن هواجس اللحظة الحالية إلى منظور

أعظم وأطول أمدا. نُظم هذا الحدث برعاية من مركز الأمن الأمريكي الجديد، حيث أعمل كزميل بارز. كانت المناسبة هي حلقة نقاشية حول ماهية الخطوات القادمة التي يجب اتخاذها في أفغانستان وباكستان، مع التركيز بشكل خاص على صقل جهود مكافحة التمرد. شرع أعضاء اللجنة في طرح التفاصيل المعقدة والمضللة للقضية «الأفغانية الباكستانية»، في أثناء تناول منطقة الحدود بين أفغانستان وباكستان من قبل الخبراء في واشنطن. ثم طرح عضو آخر، وهو الأستاذ في جامعة بوسطن أندرو باسيفيتش Bacevich، تعليقا غير مهذب، والذي سأعيد - لأني كنت جالسا في الصف الأمامي - صياغته: إن مؤرخا ينظر إلى هذه اللجنة من منظور المستقبل البعيد قد يستنتج، كما خمّن باسيفيتش، أنه في حين أن الولايات المتحدة كانت تركز بعمق على أفغانستان وعلى الأجزاء الأخرى من الشرق الأوسط الكبير، فإن ثمة دولة فاشلة ضخمة كانت تنمو مباشرة على الحدود الجنوبية لأمريكا، مع آثار أكثر عمقا بكثير في كل من المستقبل القريب والبعيد بالنسبة إلى أمريكا، ومجتمعها، وللقوة الأمريكية من أي شيء يحدث على بُعد نصف العالم.

تساءل باسيفيتش: ما الذي حققناه في الشرق الأوسط بكل تدخلاتنا منذ ثمانينيات القرن العشرين؟ لماذا لا نُصلح المكسيك بدلا من ذلك؟ كم كنا سنزدهر لو وضعنا كل هذه الأموال والخبرات والابتكارات التي ذهبت إلى العراق وأفغانستان في المكسيك؟!

في تلك المسألة، المغلفة في سؤال بسيط، يكمن أبسط نقد للسياسة الخارجية الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة: وهو نقد، كما سنرى، يتجاوز كثيرا حدود المكسيك، فهو يشمل أوراسيا، ومع ذلك فهو متجذر في جغرافية أمريكا الشمالية.

سأبدأ بباسيفيتش لمجرد كون إحباطه صارخا ولأن صراحته مثيرة للإعجاب - ومؤثرة بصفة خاصة: فبالإضافة إلى أنه من خريجي أكاديمية وست بوينت العسكرية ومن قدامى محاربي فيتنام، فقد قُتل ابنه في العراق. غير أنه في حين يمكن لباسيفيتش في كتبه أن يكون مجادلا مع تجاهل ساحق لنخب الساحل الشرقي ولجميع أنواع التشابكات التي يورطون فيها أمريكا في الخارج، فهناك آخرون ممن تتوافق وجهات نظرهم بشكل كبير مع آرائه. إن تحليلاتهم، جنبا إلى جنب مع تحليل باسيفيتش، تتسم قبل كل شيء بأنها متجذرة في محاولة واعية لتجاوز

التاريخ الأحداثي إلى ذلك الطويل المدى. وعندما أفكر في ما يقلق كل أولئك المحللين حقا تتبادر إلى ذهني الفترة الطويلة التي اقترحها بروديل.

بيد أن باسيفيتش، جنبا إلى جنب مع ستيفن والت Walt، وجون ميرشايمر Mearsheimer، وبول بيلار Pillar، ومارك هيلبرن Helprin، وتيد غالين كاربنتر Carpenter، والراحل صامويل هنتنغتون Huntington ليسوا، في جميع الحالات، هم أكثر الأصوات شهرة في مجال تحليل السياسات الخارجية، كما أن إدراجهم ضمن الفئة نفسها هو في حد ذاته ضرب من التوسيع. ومع ذلك، فبالمعني المركّب نجد أنهم شككوا في التوجهات الأساسية للسياسة الخارجية الأمريكية على المدى الطويل. يعمل والت أستاذا بجامعة هارفارد وميرشايمر في جامعة شيكاغو، لكن مع كل الهيبة التي يحملها هذان المنصبان، فإن كتابهما المعنون «اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأمريكية»، والمنشور في العام 2007، قد تلقى معاملة خشنة للغاية بسبب ادعائهما بأن أنصار إسرائيل في أمريكا كانوا هم الجناة الرئيسيين وراء حرب العراق، وهي حرب كان جميع أفراد هذه المجموعة من المحللين معارضين لها بكل قوة؛ أو للكيفية التي جرى بها خوضها. أما هيلبرن، وهو روائي وجندي إسرائيلي سابق، فلديه اعتقاد راسخ بأن الصين ستكون الخصم العسكري الرئيسي لأمريكا، وهو اعتقاد يتشاركه معه أيضا ميرشايمر. وكلاهما، جنبا إلى جنب مع بيلار، وهو محلل سابق في وكالة الاستخبارات المركزية CIA، يشعرون بالغضب بسبب تحويل الموارد الأمريكية إلى حروب لا طائل منها في الشرق الأوسط، في حين تستحوذ الصين على أحدث التقنيات الدفاعية. وفي الواقع إننا حتى لو تمكّنا من تحقيق الاستقرار في أفغانستان وباكستان، فستكون الصين هي المستفيد الرئيسي، لكونها قادرة على بناء الطرق وخطوط الأنابيب في جميع أنحاء المنطقة كجزء من سعيها إلى الحصول على الطاقة والمعادن والفلزات الاستراتيجية. وفي الوقت نفسه، يحذر كاربنتر بشدة من الخطر الذي تمثله المكسيك التي يعصف بها العنف؛ كما فعل هنتنغتون في سنواته الأخيرة. إن دمج أفكارهما، فضلا عن أفكار آخرين يمكنني تسميتهم، وجميعهم ينتمي بصورة أو بأخرى إلى معسكر الواقعيين في دوائر السياسة الخارجية، يعني التوصل إلى استنتاج مفاده أن أمريكا تواجه ثلاث معضلات جيوسياسية أساسية: أرض مركزية أوراسية تعج بالفوضى في الشرق الأوسط، وقوة عظمى صينية صاعدة وحازمة، ودولة واقعة في ورطة كبيرة بالمكسيك. وكذلك

فإن التحديات التي نواجهها مع الصين والمكسيك يمكن التعامل معها بأكبر قدر من الكفاءة عن طريق الحذر من التورط في مزيد من التدخل العسكري في الشرق الأوسط؛ فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن الحفاظ بها على القوة الأمريكية نفسها لعقود قادمة، والبقاء على قيد الحياة خلال جزء من الفترة الطويلة.

وبطبيعة الحال، هناك موضوع الأمن، أي بعض العجرفة من هذا المنظور، في مثل هذا التفكير البعيد المدى. لم يقم أي من أولئك الرجال بمعالجة كافية، على سبيل المثال، لما يمكن أن يحدث في الواقع إذا انسحبنا بسرعة، مثلا، من أفغانستان. هل ستجف المعلومات الاستخباراتية التي أدت إلى الهجمات الناجحة بالطائرات من دون طيار على تنظيم القاعدة في وزيرستان؟ هل سيتمكن أيمن الظواهري وغيره من الشخصيات البارزة التي لاتزال على قيد الحياة من تنظيم القاعدة من الدخول منتصرين، أمام كاميرات تلفزيون الجزيرة، إلى مدينة جلال أباد؟ هل ستصبح أفغانستان دولة متطرفة تحكمها طالبان بوصاية من الاستخبارات الباكستانية؟ وهل الهند، وهي الدولة المحورية العالمية في القرن الحادي والعشرين، ستفقد احترامها للولايات المتحدة نتيجة لذلك؟ وهل ستضم إيران غرب أفغانستان بصورة غير رسمية؟ وماذا كان سيحدث للعراق لو انسحبنا بالكامل في العام 2006، في ذروة أعمال العنف هناك، كما كان بعض هؤلاء المحللين يتمنى من دون شك؟ هل كانت الفظائع الطائفية ستتزايد من مستوى البلقان إلى مستوى رواندا، مع سقوط مليون قتيل بدلا من مائة أو مائتي ألف؟ يجب أن يكون المرء بارد الدم بشكل خاص بحيث لا يدرك التأثير الهائل لمثل هذه النتائج المختلفة في حياة الأفراد. وبالإضافة إلى ذلك، ماذا كان يحدث في المنطقة، ولسمعة أمريكا باعتبارها قوة عظمى، لو كنا قد انسحبنا بهذه الطريقة؟ وكيف كان سيمكن تنفيذ مثل هذا الانسحاب السريع؟ لا تقل مطلقا إن الأمور لا يمكن أن تزداد سوءا بكثير عما هي عليه، لأنها يمكن أن تفعل ذلك.

وفي الواقع فإن الانسحاب المتسرّع من العراق أو أفغانستان سيكون تصرفا غير مسؤول- سواء رضينا بذلك أم لا - لأننا لمجرد قيامنا بغزو هذه الأماكن والبقاء هناك لفترة طويلة للغاية، فقد اكتسبنا حصة كبيرة من نتائج أفعالنا هذه. ومع ذلك، فإنه سيكون من الظلم أن نحكم على هؤلاء المحللين وغيرهم ممن يتفقون معهم بناء على التفاصيل المتعلقة بالعراق وأفغانستان وحدها. يتمثل منبع العاطفة المستبطنة

لمعتقداتهـم في أننـا لم يكن ينبغي أبدا أن نتدخل في هـذه البلدان في المقام الأول. وبغض النظر عما سـتؤول إليه حال العراق في نهاية المطاف، فإن عدد القتلى، سواء الأمريكيون أو العراقيون، سـيظل يخيم على مناقشات السياسة الخارجية الأمريكية طوال عقود، تماما كما فعلت فيتنام؛ فهم يمثلون أكثر من مجرد التاريخ الأحداثي.

ومـن المؤكد أن هـؤلاء المحللين غير مهتمـين بما يجب القيـام به لاحقا في أفغانستان والعراق. وبدلا من ذلك - ومرة أخرى، من خلال الدمج بين أفكارهم - فهم يسـألون أنفسـهم، ماذا كانت تكلفـة الأخطاء الفادحة التـي ارتكبناها بالفعـل؟ هل يمكن إنقاذ مكانتنا كقـوة عظمى؟ وإلى أين نوجّه قصارى جهدنا، من حيث عمليات الانتشار العسـكري والمساعدات المدنية الشديدة الانتقائية، بحيـث يمكن لأمريكا أن تسـاعد في الحفاظ على توازن القوى في أوراسـيا، وألا تغـرق على مدى العقود من قبل المكسـيكيين الفارين مـن دولتهم المضطربة؟ وكما صاغها ياكوب جريغل، فإن «العزلة الجغرافية هي نعمة إسـتراتيجية يجب ألا تُبدد بانتهاج إسـتراتيجية توسّـعية»[5]. إذن فما مقدار مـا أهدرناه بالفعل؟ يتفـق مايكل لينـد Lind، الباحث في مؤسسـة نيـو أمريكا في واشـنطن، مع باسيفيتش حول حماقة كل من حرب العراق وتصعيد الحرب في أفغانستان؛ غير أنه يختلف مع باسيفيتش بشأن ما إذا كان بوسع أمريكا تحمّل تكلفة مثل هذه الصراعات. يجادل ليند بأن جزءا قليلا نسـبيا من الدين debt الوطني هو نتيجة الإنفاق العسـكري، فضلا عن خوض حربـين في وقت واحد، وأن خفض تكاليف الرعاية الصحية أكثر محورية بكثير للملاءة المالية الأمريكية من الحماقات شـبه الإمبريالية، بقدر ما هو معارض لها[6]. وفي الواقع أن إلقاء نظرة على بعض أخطاء الإمبراطوريات الماضية يمكن أن يضفي منظورا ما على الهزيمة التي لحقت بنا في كل العراق وأفغانسـتان، سـواء من حيث تأثيرها في السياسة الخارجية للولايات المتحـدة بالفعل، أو تأثيرها في قدرتنا على التعامل مع التحديات المسـتقبلية في الشرق الأوسط، والصين، والمكسيك طوال القرن الحادي والعشرين.

في العام 1449، وفي أثناء عودته من حملة فاشـلة في منغوليا، كان جيش مينغ الصينـي محاطا بقوات المغول. ومن دون ماء، شـعر الصينيـون بالذُعر. ونظرا إلى ثقتهـم في رحمة المغول، كما كتـب جريغل، فإن «العديد ألقـوا دروعهم وركضوا

نحو خطوط العدو». ذُبح ما يصل إلى نصف مليون جندي صيني، وأصبح إمبراطور أسرة مينغ أسيرا لدى المغول. مثّلت مغامرة جيش مينغ في منغوليا بداية الانحسار الطويل لأسرة مينغ. لم يحاول جيش مينغ مواجهة المغول مرة أخرى في البادية الشمالية مطلقا، برغم أن التوتر مع المغول كان يستنزف الطاقة من قيادة أسرة مينغ. وأدى ذلك إلى تراجع الصين من آسيا البحرية، ما ساعد على تشجيع دخول القوى الأوروبية إلى الأرض المحورية[7].

لم يحدث شيء كارثي كهذا في أعقاب مغامرة أمريكا في العراق- فمكانتنا العسكرية والاقتصادية في جميع أنحاء العالم، وخاصة في شرق آسيا، تتسم بالقوة ولا تُظهر أي علامات على الخندقة retrenchment، فضلا عن التراجع. لقد فقدنا أقل من 5,000 جندي، كما أصيب 32,000 آخرون بجروح خطيرة، وهو ثمن باهظ، ولكن ليس بالنسبة إلى قوة غازية قوامها نصف مليون جندي. إن الجيش الأمريكي، الذي تحمل العبء الأكبر من القتال في العراق، يضم ما يقرب من نصف مليون منتسب في الخدمة الفعلية، وبالتحديد بسبب خبرته التي اكتسبها في الحرب غير النظامية في العراق فهو الآن أفضل تدريبا، وأكثر مرونة من الناحية العقائدية، وأكثر دهاء من الناحية الفكرية من أي وقت مضى؛ والشيء نفسه ينطبق على قوات مشاة البحرية.

إن الولايات المتحدة، لم تقع - لا في العراق ولا في أفغانستان- في هذا النوع من الخطأ المحوري الذي وقعت فيه البندقية Venice في أواخر القرون الوسطى. لم يكن الموقع الجغرافي المتميز للبندقية بين طرق التجارة في غرب وشرق البحر المتوسط، هو وحده ما أتاح لها بناء إمبراطورية بحرية؛ بل حقيقة إن البندقية كانت محمية من البر الرئيسي الإيطالي بواسطة بضعة أميال من المياه، ومحمية من الغزو من جهة البحر بواسطة حواجز رملية طويلة. ومن بين أسباب تراجع البندقية اعتبارا من القرن الخامس عشر، كان قرارها أن تصبح قوة في البر الرئيسي لإيطاليا.

ومن خلال خوض الحرب مرارا وتكرارا ضد فيرونا، وبادوا، وفلورنسا، وميلانو، واتحاد كامبراي، لم تعد البندقية بعيدة عن السياسة «القاتلة» لتوازن القوى على البر، وكان لهذا أثر سلبي في قدرتها على نشر القوة البحرية[8]. لا بد لمثال البندقية

أن يسبب قلقا لدى صناع السياسة الأمريكية إذا - فقط إذا - رغبت الولايات المتحدة في اعتياد التدخلات العسكرية البرية في الشرق الأوسط الكبير. لكن إذا تمكنت أمريكا من أن تحصر نفسها من الآن فصاعدا باعتبارها قوة جوية وبحرية، فسيمكنها بسهولة أن تتجنب مصير البندقية. إن ديمومة الحروب الصغيرة هي ما يمكنها تحطيمنا، وليس سوء التقدير الصاعق الذي يحدث مرة في كل ثُلث قرن، مهما كان حجم المأساة والرعب الناتجين عنه.

وفي ضوء ذلك، من الممكن مقارنة العراق خلال أسوأ قتال شهده بين عامي 2006 و2007 بالتمرد الهندي ضد البريطانيين خلال عامي 1857 و1858، عندما فقد المستشرقون وغيرهم من البراغماتيين في هيكل السلطة البريطانية، والذين كانوا يريدون ترك الهند التقليدية كما كانت، بعض نفوذهم للإصلاحيين الإنجيليين والنفعيين الذين كانوا يريدون تحديث وتنصير الهند - بجعلها أقرب شبها بإنجلترا. لكن محاولة جلب ثمار الحضارة الغربية إلى شبه القارة الهندية واجهها تمرد ضد السلطة الإمبراطورية. تعرّضت دلهي، ولكنو Luknow، وغيرهما من المدن للحصار والاستيلاء عليهما قبل أن تستعيدهما القوات الاستعمارية. ومع ذلك، لم تؤذن هذه الهزيمة بنهاية الإمبراطورية البريطانية، التي ازدادت توسعا طوال قرن آخر من الزمان. وبدلا من ذلك، فقد مثّلت علامة على التحوّل من إمبراطورية ذات هدف محدّد، والتي أطلقتها شهوة البروتستانتيين لفرض قيمهم إلى إمبراطورية أكثر هدوءا وواقعية، والمبنية على التجارة الدولية والتكنولوجيا[9].

وكذلك فإن التاريخ القديم يزودنا بأمثلة تلقي بظلال من الشك حول ما إذا كانت أفغانستان والعراق، في حد ذاتهما، قد حكمتا علينا بالفشل. ومن المشهور، نجد حملات صقلية التي رواها ثوكوديدس Thucydides في الكتاب السادس عن الحرب البيلوبونيسية. انقضت أربعة عشر عاما بين أولى غزوات أثينا على صقلية وكارثتها النهائية هناك، أي في معركة سيراكيوز البحرية في العام 413 قبل الميلاد، وهو نفس العدد من السنوات الذي انقضى بين الغزوات المبكرة إدارة جون ف. كينيدي Kennedy في فيتنام وبين الانسحاب النهائي للرئيس جيرالد فورد Ford بعد احتلال سايغون. أدت الحرب الصقلية إلى تقسيم الجبهة الداخلية في أثينا، كما فعلت حربا فيتنام والعراق. وبالنظر إلى شعورهم بالعجز بسبب التشاؤم

وتبادل الاتهامات، فقد مضى وقت طويل قبل أن يصبح الأثينيون على استعداد جدي لاستئناف الصراع الثنائي القطب مع إسبرطة. إن صقلية، كما اتضح لاحقا، لم تكن حاسمة تماما بالنسبة إلى بقاء ديموقراطية أثينا وإمبراطوريتها البحرية. وعلى الرغم من أنها فقدت وعانت كثيرا، فقد كانت أثينا لاتزال تمتلك الموارد اللازمة لقيادة تحالف، برغم أن مغامرتها في صقلية سيثبت أنها نقطة تحول في الحرب البيلوبونيسية، التي خسرتها أثينا.

وهناك أيضا المثال الأكبر، المتمثل في انحدار وسقوط روما، والذي وصفه بالتفصيل في العام 1976 من قبل إدوارد ن. لوتواك Luttwak في كتابه المعنون «الاستراتيجية الكبرى للإمبراطورية الرومانية: من القرن الأول إلى الثالث للميلاد». تتمثل طريقة لوتواك، بدلا من الحديث عن الانحدار بصورة عامة، في مناقشته من حيث استراتيجية روما الكبرى. يحدّد لوتواك ثلاث مراحل زمنية للإستراتيجية الرومانية الكبرى: الأولى هي النظام اليوليوسي - الكلوديوسي Julio-Claudian، أو منظومة الإمبراطورية الجمهورية، التي كانت فيها الدول العميلة التي تحيط بالقلب الإيطالي للإمبراطورية معجبة «بشمولية» القوة الرومانية بما يكفي لتنفيذ رغبات الإمبراطورية، من دون الحاجة إلى جيوش محتلة. وفي هذه المرحلة، كانت الديبلوماسية - وليس القوة العسكرية - مكوّنا نشطا من الإكراه الروماني، برغم تمركز تشكيلات ساحقة من القوات الرومانية ضمن «دائرة هائلة» حول روما. ولأنه لم تكن هناك حاجة إلى قيام هذه القوات باحتلال الدول العميلة، أو للدفاع عن أراضيها بأي معنى من المعاني، فقد كانت، على حد تعبير لوتواك، «متنقلة بطبيعتها ويمكن إعادة توزيعها بسهولة». هنا كانت القوة في أوجها، والتي تمارس بحكمة، وتُدار على أساس اقتصاد القوة. كانت القدرة على التدخل السريع متاحة بسهولة لمواجهة أي طوارئ عسكرية، وكان جميع من يعيشون في عالم البحر المتوسط على علم بذلك. لذلك، كان الجميع يخشون روما. وهنا تتبادر إلى الذهن أمريكا في عهد رونالد ريغان، مع التزايد الهائل في القوة العسكرية التي كان وزير الدفاع كاسبار واينبرغر Weinberger، على الرغم من ذلك، عاقد العزم على عدم استخدامها، وذلك لتعزيز سمعة القوة من دون الحاجة إلى خوض مغامرات محفوفة بالمخاطر. أما النظام الأنطوني Antonine،

الـــذي حكم خـــلال الفترة من منتصـــف القرن الأول إلى منتصـــف القرن الثالث للميلاد، فيعكس ما يســـميه لوتواك «أقلمة» territorialization الإمبراطورية: شعرت روما بالحاجة إلى نشر قواتها العسكرية في كل مكان، وفي الدول العميلة نفســـها، من أجل ضمان ولائها، وبالتالي فقد ضاع مبدأ اقتصاد القوة. ومع ذلك، كانت الإمبراطورية مزدهرة، وكان هناك ترويم Romanization طوعي واســـع النطاق بين القبائل البربرية، «ما أدى إلى القضاء على ما تبقى من آثار الســـخط القومي»، ولو إلى حين.

ومـــع ذلك، فهذا الترويم للإمبراطورية ســـيؤدي بمرور الوقت إلى بناء وحدة بين القبائـــل المختلفة، مـــا أدى إلى تضافر جهودها في قضيتها المشـــتركة ضد روما، لأنها كانت قد توحدت الآن ضمن ثقافة لا تنتمي إليها.

لنتفكّـــر في كيف أن العولمـــة، التي تمثّل بمعنى ما أمركـــة العالم، تعمل على الرغم من ذلك كوســـيلة لتحدي الهيمنة الأمريكية. ومن هنا جاء النظام الثالث ليشـــكل الإســـتراتيجية الكبرى لروما: ما أســـماه دقلديانوس «الدفاع في العمق»، حيث تجمّعت الشـــعوب الحدودية في اتحادات رسمية قادرة على تحدي روما، وهكـــذا كانت الدولة في موقف دفاعي في كل مكان، مع تواصل انتشـــار حالات الطـــوارئ باســـتمرار؛ وهنا فُقدت القدرة على التدخـــل السريع التي احتفظ بها حتى النظام الثاني. ومع وصول فيالقها إلى نقطة الانهيار، تناقص عدد الشـــعوب التي تخشى روما شيئا فشيئا[10].

مع الأســـف، نحن عالقون في منطقة مألوفة بشـــكل مخيف؛ فمثلما عملت القوة الرومانية على تحقيق الاســـتقرار على سواحل البحر المتوسط، فإن القوات البحرية والجوية الأمريكية تجوب المشـــاعات العالمية لمصلحة الجميع، برغم أن هذه الخدمة نفســـها - كما كانت الحال مع رومـــا - تؤخذ على أنها أمر مفروغ منـــه، في حين أن ما انكشـــف على مدى العقد المـــاضي كان الإجهاد المفرط لكل من الجيش الأمريكي ومشـــاة البحرية، المشـــغولين بمحاولة إخماد حركات التمرد في أقـــاصي الأرض. ولذلـــك، ينبغي على أمريكا أن تفكّر في ثمة اســـتراتيجية كبرى تســـعى إلى استعادة مكانتها من شيء يُشبه نظام روما الثالث إلى ذلك الثاني، أو إلى الأول. وفي حـــين أن أمريـــكا ليس لديها دول عميلـــة، فلديها حلفاء وأصدقاء

يفكرون بالعقلية نفسـها، والتي تحتاج إلى إبهارهم من أجل جعلهم أكثر فعالية في التحـرك نيابة عنها. تسـتطيع أمريكا أن تفعل ذلـك بأفضل صورة من خلال اعتماد دبلوماسية نشطة وبناء احتياطي من القوات، التي لا تستخدم إلا قليلا، وذلك لاسـتعادة قدرتهـا على التدخل السريع، من ذلك النـوع الذي تمتعت به روما في ظل النظام اليوليوسي - لكلوديوسي الأصلي. إن طول بقاء روما نفسه قد أثبت نجاح إسـتراتيجيتها الكبرى، ومع ذلك كان انحدارها وسقوطها الصاخب في أوروبا الغربية في نهاية المطاف بسـبب فشـلها في التكيف مع تشكيل تجمعات وطنية جديدة في شمالها، والتي وفرت الخطوط العريضة لظهور الدول الأوروبية الحديثة. وبسبب هذه التشـكيلات، كانت الإمبراطورية الرومانية في سبيلها إلى الانقـراض على أي حال، لكـن لم يكن من الضروري أن يحـدث ذلك مُبكرا كما وقع بالفعل، ولا بالطريقة التي حدث بها.تمثّل الفشل الحقيقي لروما في المرحلة النهائية من اسـتراتيجيتها الكبرى في أنها لم توفر آلية للتراجع المتناسـق، حتى في الوقت الذي فسـدت فيه مـن الداخل. لكن على وجـه التحديد- وعلى عكس التوقعات البديهية - من خلال التخطيط لمثل هذا الخروج البارع من هذا النوع من الهيمنة، يمكن لدولة أو إمبراطورية أن تطيل بالفعل من أمد موقفها القوي. ليس هناك شيء أفضل بالنسبة إلى أمريكا من تهيئة العالم لاحتمال زوالها، فبهذه الطريقة ستكافح من أجل هدف ما، وليس لمجرد الاستمتاع بالقوة لذاتها.

لكن، كيف يمكن أن تُعد أمريكا نفسـها لخروج طويل ومتناغم من التاريخ بوصفها قوة مهيمنة؟ ومثل بيزنطة، فبوسعها تجنّب التدخلات المكلفة، واستخدام الدبلوماسـية لتدمير الأعداء، وتوظيف أصولها الاسـتخباراتية في اسـتخدامات إستراتيجية، وما إلى ذلك[11]. وبوسعها أيضا - وهو الأمر الذي يعود بنا مرة أخرى إلى باسيفيتش- ضمان عدم التقوّض من جهة الجنوب بالطريقة التي تعرضت لها روما من الشـمال. يحدّ أمريكا محيطان من الشرق والغرب، ومن الشمال هناك القطب الشـمالي الكندي، الذي لا تسكنه سوى جماعات ضئيلة العدد من أفراد الطبقة الوسـطى على الحدود الأمريكيـة. (إن الحدود الأمريكية - الكندية هي الحدود الأكثر استثنائية في العالم لأنها طويلة، واصطناعية، ومع ذلك فقد فقدت أهميتهـا[12]. لكن الجنوب الغربي هو حيث تصبح أمريـكا عرضة للخطر؛ فهي

المنطقة الوحيدة التي تشـهد فيها الحدود الوطنية والإمبريالية الأمريكية بعض التوتر: وحيث يمكن التشـكك في اتسـاق أمريكا كوحدة متماسكة جغرافيا[13]. ولأن الأراضي الحدودية التاريخية بين أمريكا والمكسـيك تتسم بأنها واسعة وغير محدّدة المعالم، والتي تُشـبه كثيرا الجزء الشـمالي الغربي من شبه القارة الهندية، برغم أنه يكشـف ضغوطا حضارية. وكما أشـار إليه المؤرخ بجامعة سـتانفورد، ديفيـد كينيدي، فإن «الفجـوة في الدخل بين الولايات المتحدة والمكسـيك هي الأكـبر بين أي بلدين متجاوريـن في العالم»، حيث يبلـغ الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي تسعة أضعاف مثيله في المكسيك[14].

تنبع السياسة الخارجية الأمريكية من الحالة الداخلية لمجتمعها، كما أن شيئا لن يؤثر في مجتمعها أكثر من حركة درامية للتاريخ اللاتيني باتجاه الشمال. تمثّل المكسيك وأمريكا الوسطى قوة ديموغرافية متنامية، التي تمتلك الولايات المتحدة معها علاقة لا تنفصم. إن سكان المكسيك البالغ عددهم 111 مليونا، بالإضافة إلى سكان أمريكا الوسطى البالغين 40 مليونا يمثلون نصف سكان الولايات المتحدة. وبسبب النافتا NAFTA (اتفاقية التجارة الحرة لبلدان أمريكا الشمالية)، يذهب 85 في المائـة مـن جميع صادرات المكسـيك إلى الولايات المتحـدة، حتى نصف إجـمالي تجارة أمريكا الوسـطى يتم مع الولايات المتحدة. وفي حين أن متوسـط عمر median age الأمريكيين يقترب من السـابعة والثلاثين، ما يشـير إلى توجه لتشـيّخ سكان الولايات المتحدة، فإن العمر المتوسـط في المكسيك هو الخامسة والعـشرون، ويقـل عن ذلك بكثير في أمريكا الوسـطى (إذ يبلغ عشرين عاما في غواتيمالا وهندوراس، على سـبيل المثال). وبالتالي، فـإن مصير الولايات المتحدة سـيتحدد بين الشـمال والجنوب، وليس من الشرق إلى الغرب، أو من البحر إلى البحر الساطع، وهي خرافة قارية ووطنية (والتي ستتضخم بفعل التوسيع المقرر في العام 2014 لقناة بنما، والذي سـيفتح حوض الكاريبي أمام السفن العملاقة الآتية من شرق آسيا، ما سيؤدي إلى مزيد من التطوير لمدن الموانئ الواقعة على خليج المكسيك في الولايات المتحدة، من تكساس إلى فلوريدا)[15].

إن نصف طول الحدود الجنوبية لأمريكا عبارة عن خط من الحدود المصطنعة في الصحراء، والتي أنشـئت بموجب المعاهدات التي تلت الحرب المكسـيكية -

الأمريكية التي دارت رحاها بين عامي 1846 و1848. وعند عبوري هذه الحدود ذات مرة، بعد أن سافرت بالحافلة شمالا من مدينة مكسيكو سيتي، أصبت بقدر من الصدمة يشبه ما استشعرته لدى عبور الحدود الأردنية - الإسرائيلية وجدار برلين. كنت محاطا بالمتسولين على الرصيف المتكسر لمدينة نوغاليس، بولاية سونورا، وعندها حدقت في العلم الأمريكي الذي يشير إلى الحدود. كانت نقطة عبور المشاة إلى نوغاليس، أريزونا، تقع في مبنى صغير. وبمجرد لمس مقبض الباب، فقد دخلت عالما ماديا جديدا. كان المقبض المصنوع بمتانة من معدن ذي جودة عالية، والزجاج النظيف، والطريقة الدقيقة التي تم بها تركيب بلاط السيراميك في الغرفة بمنزلة إلهام بعد قضاء أسابيع وسط المباني المكسيكية الرثة. كان هناك شخصان فقط في الغرفة: مسؤول الهجرة ومسؤول الجمارك، ولم يكن أحدهما يتحدث إلى الآخر. في المرافق الحكومية بهذا الحجم في المكسيك وغيرها من دول العالم الثالث، توجد دائما حشود من المسؤولين والمتسكعين المنهمكين في محادثات صاخبة، وهم يحتسون الشاي أو القهوة. وبالنظر عبر النافذة إلى حارات السيارات، رأيت كيف أن عددا قليلا من الأفراد يقومون بحماية المحطة الحدودية، ومع ذلك لاحظت مدى الكفاءة التي تُدار بها المحطة. ولم يمض سوى وقت ضئيل، كما كانت الحال في إسرائيل، وكنت داخل بيئة قياسية تماما على الرغم من كونها باردة ومنفّرة، مع شوارع خاوية كانت شعارات المتاجر فيها مصنوعة من بوليمرات عصرية بدلا من المعادن الصدئة والبلاستيك الرخيص.

وبسبب الاضطراب وشبه الفوضى التي شهدتها لمدة أسابيع وسط أكثر من مائة مليون مكسيكي إلى الجنوب مباشرة، فقد بدت لي هذه الشوارع الهادئة عرضة للخطر، وغير طبيعية أيضا. كتب أرنولد توينبي، في إشارة إلى الشعوب البربرية وروما، أن الحدود بين مجتمعين أحدهما على درجة عالية من التطوّر والآخر أقل تطورا، عندما «تتوقف عن التقدم، فإن الميزان لا يثبُت على توازن مستقر غير أنه يميل، بمرور الوقت، إلى مصلحة المجتمع الأكثر تخلفا»[16].

ومنذ العام 1940 ازداد عدد سكان المكسيك بأكثر من خمسة أضعاف. وما بين عامي 1970 و1995 ، تضاعف عدد السكان تقريبا، كما ازداد بأكثر من الثلث ما بين عامي 1985 و2000. إن سكان المكسيك البالغ عددهم 111 مليونا الآن يزيد على ثلث

سكان الولايات المتحدة، لكنه ينمو بمعدل أسرع. ومع ذلك، لا تُظهر نخب الساحل الشرقي سوى اهتمام ضئيل نسبيا بالمكسيك. إن التحديات الفعلية، والحوادث، والأعمال التجارية اليومية والتفاعلات الثقافية بين المكسيك والولايات الحدودية - كاليفورنيا، وأريزونا، ونيو مكسيكو، وتكساس - تتسم ببعدها الجغرافي عن اهتمامات النخب في الساحل الشرقي: التي تركّز، بدلا من ذلك، على العالم الأوسع وعلى مكانة أمريكا في ذلك العالم. وبالفعل، فإن نصيب المكسيك من تفكير النخبة يقل بكثير عن حصة إسرائيل أو الصين، أو حتى الهند. ومع ذلك، من الممكن أن تؤثر المكسيك في مصير أمريكا بأكثر مما تفعل أي من تلك البلدان. إن المكسيك، جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة وكندا، تضم الأهم من بين الأقمار القارية التي تحوم حول الجزيرة العالمية التي تصورها ماكيندر.

وفي وادي المكسيك، كانت تقف في الماضي بحيرة كبيرة تضم بندقيتي Venices حضارة الأزتيك: تينوختيتلان وتلاتيلولكو: وهو الموقع نفسه الذي تحتله الآن مكسيكو سيتي. كان هذا هو «وادي النيل» بالنسبة إلى العالم الجديد، أو «مصفوفة الحضارة» لكل من أمريكا الشمالية والجنوبية، على حد تعبير المؤرخ هنري بامفورد باركس Parkes، فمنها انتشرت زراعة الذرة عبر القارتين. ولكونه يقع في منتصف المسافة بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي، كما يدمج بين أمريكا الوسطى واليابسة القارية لنصف الكرة الأرضية الغربي، فإن وادي المكسيك والبلد الذي انبثق عنه يشكّل واحدة من الأنوية الحضارية الكبرى للأرض[17].

ومع ذلك فإن المكسيك، على عكس مصر، لا تُظهر وحدة جغرافية؛ إذ تقع سلسلتان جبليتان كبيرتان، هما سييرا مادري الغربية وسييرا مادري الشرقية، على الجانبين هضبة وسطى تتسم بالوعورة. ثم إن هناك سلاسل جبلية متقاطعة أخرى، لا سيما في الجنوب: مثل سييرا مادري ديل سور، وسييرا مادري دي أواكساكا.. وهلم جرا. تعج المكسيك بالجبال لدرجة أنه إذا سُويت بالأرض فستكون بحجم قارة آسيا. إن كلا من شبه جزيرة يوكاتان وولاية باخا كاليفورنيا منفصلتان أساسا عن بقية المكسيك، التي هي في حد ذاتها منقسمة على نحو جهنمي. هذا هو السياق الذي ينبغي اتباعه لفهم التوحّد المستمر، وغير المعلن وغير المبلغ عنه إلى حد كبير، والذي

لا يمكن إنكاره لشـــمال المكسيك مع جنوب غرب الولايات المتحدة، وما يترتب على ذلك من انفصاله عن بقية أجزاء المكسيك.

لقد ازداد ســـكان شـــمال المكســـيك بأكثر من الضعف منذ توقيـــع اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشـــمالية (النافتا) في العام 1994. ويمثل الدولار الأمريكي حاليا وحدة مشـــتركة للصرف جنوبا حتى مدينة كوليـــاكان، الواقعة في منتصف الطريق إلى مكســـيكو ســـيتي. إن شمال المكسيك مســـؤول عن 87 في المائة من جميـــع الصناعات التحويلية التصديرية (المعفاة من الرســـوم الجمركية) و85 في المائـــة من إجمالي التجارة بين الولايات المتحدة والمكســـيك. أمـــا مدينة مونتري في شـــمال شرق المكســـيك، وهي واحدة من كبرى المدن في البلاد، فترتبط ارتباطا وثيقا مع قطاعات البنوك، والصناعة، والطاقة بولاية تكســـاس. إن ديفيد دانيلو Danelo، وهو جندي ســـابق في مشـــاة البحرية الأمريكيـــة الذي يعمل الآن في مصلحة الجمارك الأمريكية، والذي درس شـــمال المكســـيك بتعمّق، وارتحل عبر جميع الولايات الحدودية المكســـيكية الســـت، قد أخبرني بأنه لم يلتق أي شخص هناك يمتلك أكثر من درجة واحدة من الانفصال عن الولايات المتحدة. وكما قال لي، فإن «شـــمال المكسيك يحتفظ بإحســـاس بالقطبية الثقافية؛ فسكان الشمال norteños يعتبرون أنفسهم نقيضا [مثقفي المدينة] من سكان مكسيكو سيتي» chilangos. ومع ذلك، فإن شـــمال المكســـيك ينطوي على تقسيماته الجغرافية الخاصة. تتسم السهول والصحراء في سونورا الواقعة في الغرب باستقرارها عموما؛ أمـــا حوض نهر ريـــو غراندي في الشرق فهـــو الأكثر تطورا وتواصـــلا في الولايات المتحـــدة الأمريكية- ثقافيا واقتصاديا، وهيدرولوجيا - وبالتالي اســـتفاد أكثر من غيره مـــن اتفاقية النافتا[18]. وفي الوســـط، هناك الجبال والســـهول، التي ينعدم فيها القانون تقريبا: شـــاهد مدينة سيوداد خواريز Ciudad Juárez الحدودية، الواقعة على الجهة المقابلة لمدينة إلباســـو بولاية تكســـاس، التي دمرتها المعارك الجارية بالأســـلحة النارية ووجود الســـفاحين. إن ســـيوداد خواريز هي عاصمة الاغتيالات في المكســـيك، حيث قتل 700 شخص في الأشهر الأولى من العام 2010 وحـــده. وفي العام 2009 توفي أكثر مـــن 2600 نتيجة لأعمال العنف في مدينة لا يزيد ســـكانها على 1.2 مليـــون، كما يرجّح أن يكـــون 200.000 آخرون قد فروا

منها[19]. وفي شيواوا، وهي الولاية التي تقع فيها سيوداد خواريز، بلغ معدل جرائم القتل 143 لكل 100.000، وهو من أسوأ المعدلات في النصف الغربي من الكرة الأرضية. كانت الجبال والسهوب الشمالية دائما معقل القبائل المكسيكية: كارتلات المخدرات، والمينونايت، وهنود الياكي Yaqui، وما إليها. وكان من الصعب على الإسبان ترويض هذه الحدود القاسية. وفي وقت لاحق، وبالتحديد في ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت مخبأ لجيرونيمو وهنود الأباتشي التابعين له. وبوسع المرء أن يفكر أيضا في المرتفعات النائية الأخرى التي وفرت ملجأ للمتمردين: الشيوعيين الصينيين في شنشي Shaanxi، والثوار الكوبيين في سلسلة جبال سييرا مايسترا، وتنظيم القاعدة وحركة طالبان في وزيرستان[20]. وقد خرجت كارتلات المخدرات بدورها من رحم هذا التقليد الجغرافي.

إن حقيقة كون معظم حالات القتل المرتبطة بالمخدرات قد وقعت في ست فقط من الولايات المكسيكية الـ 32 التي يقع معظمها في الشمال، هي مؤشر آخر على مدى انعزال شمال المكسيك عن بقية البلاد (برغم وجود عنف ملحوظ أيضا في مناطق فيراكروز وميتشواكان وغيريرو). وإذا تعرضت الهجمات التي يقودها الجيش لسحق كارتلات المخدرات، التي بدأها الرئيس المحافظ فيليبي كالديرون Calderón في العام 2006 ، لفشل تام، ومن ثم عادت مكسيكو سيتي إلى إبرام الاتفاقيات مع الكارتلات، فإن العاصمة - بالمعنى الوظيفي- قد تفقد السيطرة على الشمال، مع تداعيات خطيرة بالنسبة إلى الولايات المتحدة. إن النظام الفدرالي في المكسيك - وهو نتاج مباشر لجغرافيتها الجبلية المفككة- والذي يضم وكالتين اتحاديتين للشرطة، و32 وكالة تابعة لحكومات الولايات، وأكثر من 1.500 من وكالات الشرطة البلدية، هو ما يجعل إصلاح تلك الوكالات أمرا بالغ الصعوبة. من جانبه، فإن روبرت بونر Bonner، وهو المدير السابق لإدارة مكافحة المخدرات الأمريكية، كتب أنه إذا نجحت العصابات، فإن «الولايات المتحدة ستتشارك حدودا طولها ألفا ميل مع دولة مخدرات narcostate تسيطر عليها كارتلات المخدرات الدولية القوية التي تهدد استقرار أمريكا الوسطى والجنوبية»[21].

أما الأستاذ الراحل في جامعة هارفارد صموئيل هنتنغتون، الذي صنع شهرته المهنة من الاستبصار، فقد كرّس كتابه الأخير للتحدي الذي تمثّله المكسيك بالنسبة

إلى الولايات المتحدة[22]. وفي كتابه المعنون «من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الوطنيـــة الأمريكية»، الذي نشر في العام 2004، افترض هنتنغتون أن تاريخ البلدان اللاتينيـــة يتحرك ديموغرافيا إلى الشـــمال باتجاه الولايات المتحدة، وبالتالي ســـيقوم بتغيير الطابع الأمريكي[23].

يقـــول هنتنغتـــون إن كون أمريـــكا أمة مـــن المهاجرين هو حقيقـــة جزئية، وليست حقيقة شـــاملة؛ فأمريكا هي أمة من المســـتوطنين والمهاجرين الأنجلو - بروتستانتيين على حد سواء، حيث وفّر السابقون العمود الفقري الفلسفي والثقافي للمجتمع؛ وبالتالي لا يصبح المهاجرون أمريكيين إلا من خلال تبني الثقافة الأنجلو - بروتســـتانتية. لقد صارت أمريكا إلى ما هي عليه، كما يستطرد هنتنغتون، لأنها استوطِنت من قبل البروتستانت البريطانيين، وليس من قبل الكاثوليك الفرنسيين، أو الإسبان، أو البرتغاليين. ولأن أمريكا ولدت بروتستانتية، فلم يكن عليها أن تصبح كذلـــك، كما أن الليبرالية الكلاســـيكية في أمريكا تنبع من هـــذه الحقيقة ذاتها. إن المعارضة، والنزعة الفردية، والحكم الجمهوري تنبع جميعها من البروتســـتانتية في نهاية المطاف. «في حين أن العقيدة الأمريكية تتمثل في البروتستانتية من دون الله، فإن الدين المدني الأمريكي هو المســـيحية من دون المسيح». غير أن هذه العقيدة، كـــما يعلّل هنتنغتون، قـــد تتحطم على نحو خفي بفعل تنامي مجتمع هِســـباني Hispanic ، كاثوليكي، ينتمي إلى عصر ما قبل التنوير[24]. وكما كتب هنتنغتون:

> فإن الهجرة المكسيكية تدفع باتجاه إعادة الاحتلال الديموغرافي للمناطق التي اســـتولى عليها الأمريكيون من المكسيك بالقوة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، وبالتالي مكسكتها Mexicanizing بطريقة مشابهة، على الرغـــم من كونها مختلفة، للكوبنـــة Cubanization التي حدثت في جنوب فلوريـــدا. ويـــؤدي ذلك أيضا إلى ضبابية الحدود بين المكســـيك وأمريكا، عن طريق إدخال ثقافة شديدة الاختلاف[25].

من جانبه، كتب الأســـتاذ في كلية بوســـطن، بيتر سكيري Skerry، أن واحدة من «أكثر رؤى هنتنغتون أصالة وإثارة للجدل بصورة مذهلة» هي أن الأمريكان، برغم كونهـــم رواد التنوع، فـــإن «موجة المهاجرين الحالية هـــي في الواقع أقلها تنوعا في تاريخنا، بكل تأكيد». ويواصل سكيري حديثه، مُعيدا صياغة ما كتبه هنتنغتون، «إن

المهاجرين غير اللاتينيين هم أكثر تنوعا من أي وقت مضى. غير أنه بصورة إجمالية، يمثل الخمسون في المائة من المهاجرين الذين هم من أصل إسباني فوجا أقل تنوعا بكثير من أي وقت مضى. أما بالنسبة إلى هنتنغتون، فإن تقلص التنوع هذا يجعل الاستيعاب أقل احتمالا»[26].

وكما أشار إليه ديفيد كينيدي، فإن «تنوّع وتشتّت تيار المهاجرين» قد مهّد سبيل تقدم الاستيعاب. «أما اليوم، وعلى أي حال، يتدفق أحد تيارات المهاجرين الكبرى إلى منطقة محددة من مصدر ثقافي، ولغوي، وديني، ووطني واحد: المكسيك ... إن الحقيقة الواعية هي أن الولايات المتحدة لم تُعايش أي تجربة مماثلة لما يحدث الآن في جنوبها الغربي»[27].

وبحلول العام 2050، فإن ثلث سكان الولايات المتحدة قد يكون ناطقا بالإسبانية[28].

تكمن الجغرافيا في طليعة كل هذه الحجج، فها هو هنتنغتون يكتب: «لم تقم أي مجموعة أخرى من المهاجرين في التاريخ الأمريكي بمحاولة تأكيد أو تمكنت بالفعل من تأكيد مطالبة تاريخية بأراضٍ أمريكية. بيد أن المكسيكيين والأمريكيين المكسيكيين يمكنهم، بل يقومون، بهذه المطالبة بالفعل». كانت معظم أجزاء ولايات تكساس، ونيو مكسيكو، وأريزونا، وكاليفورنيا، ونيفادا، ويوتا جزءا من المكسيك حتى حرب استقلال تكساس بين عامي 1835-1836 والحرب المكسيكية - الأمريكية ما بين عامي 1846-1848. إن المكسيك هي البلد الوحيد الذي قامت الولايات المتحدة بغزوه، واحتلت عاصمته، وضمّت قدرا كبيرا من أراضيه. وبناء على ذلك، كما يشير إليه سكيري، يصل المكسيكيون إلى الولايات المتحدة، ويقيمون في تلك المناطق من البلاد التي كانت ذات يوم جزءا من وطنهم، وهكذا «يتمتعون بشعور من الوجود على أرضهم» لا يشاركهم فيه المهاجرون الآخرون. يقوم الأمريكيون المكسيكيون حتى الجيل الثالث وما بعده بالحفاظ على كفاءتهم في لغتهم الأم لدرجة أكبر بكثير مما يفعله غيرهم من المهاجرين، الأمر الذي يرجع إلى حد كبير بسبب التركّز الجغرافي للمجتمعات الإسبانية، والذي يُظهر النفي الديموغرافي لنتائج حرب تكساس والحرب المكسيكية - الأمريكية. والأكثر من ذلك أن معدلات تجنّس المكسيكيين من بين الأدنى في جميع الجماعات المهاجرة. يشير هنتنغتون إلى أن

الأمة هي «مجتمع مُستعاد من الذاكرة»، أي المجتمع الذي يمتلك ذاكرة تاريخية عن نفسه. إن الأمريكيين من أصول مكسيكية، الذين يشكلون 12.5 في المائة من سكان الولايات المتحدة، فيما عدا اللاتينيين الآخرين، ويتركزون - بصورة أو بأخرى- في الجنوب الغربي، المجاور للمكسيك، يقومون لأول مرة في تاريخ أمريكا بتعديل ذاكرتنا التاريخية[29].

من جانبه، يتوقع الأستاذ بجامعة نيو مكسيكو، تشارلز تروكسيللو Truxillo، أنه بحلول العام 2080 ستتوحد الولايات الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة وولايات شمال المكسيك معا لتشكّل دولة جديدة، هي «لا ريبوبليكا ديل نورتي» [بالإسبانية: جمهورية الشمال La República del Norte]. وبحلول العام 2000، كانت ست من اثنتي عشرة مدينة مهمة على الجانب الأمريكي من الحدود تضم أكثر من 90 في المائة من السكان ذوي الأصول الإسبانية، في حين كانت اثنتان فقط (سان دييغو، كاليفورنيا، ويوما، أريزونا) تضمان أقل من 50 في المائة من السكان ذوي الأصول الإسبانية[30].

إن ضبابية الحدود الجنوبية الغربية لأمريكا تصير حقيقة جغرافية لدرجة أن كل الأجهزة الأمنية على الحدود الفعلية نفسها لا تستطيع إبطالها. ومع ذلك، ففي حين أنني معجب بقدرة هنتنغتون على عزل وفضح معضلة أساسية كان الآخرون في الأوساط الأكاديمية ووسائل الإعلام أكثر كياسة من تناولها، غير أنني لا أتفق تماما مع استنتاجاته. يؤمن هنتنغتون بالاعتماد القوي على القومية الأمريكية من أجل الحفاظ على ثقافتها وقيمها الأنجلو - بروتستانتية في وجه اللتننة Latinoization الجزئية لمجتمعنا. إنني أعتقد بأنه بالرغم من أن الجغرافيا لا تحدّد المستقبل بالضرورة، فإنها تعيّن ملامح ما يمكن وما لا يمكن تحقيقه. أما العلاقة العضوية بين المكسيك وأمريكا- سواء الجغرافية، والتاريخية، والديموغرافية- فهي ببساطة ساحقة لدرجة أننا لا نستطيع الافتراض، كما كان يأمل هنتنغتون، أن القومية الأمريكية يمكن أن تظل نقية كما هي. يسخر هنتنغتون، وهو محق في ذلك، من الكوزموبوليتية (والإمبريالية، أيضا) باعتبارهما من الرؤى النخبوية. لكن قدرا مُعينا من الكوزموبوليتية، بعكس رأي هنتنغتون، هو أمر لا مفر منه وبالتالي يجب عدم الاستخفاف به.

وفي اعتقادي أن أمريكا سوف تظهر في الواقع خلال القرن الحادي والعشرين باعتبارهـا حضارة بولينيزية مختلطة، متوجهة من الشـمال إلى الجنوب، أي من كندا إلى المكسـيك، بـدلا من أن تكون جزيرة عنصريـة يقطنها أصحاب البشرة الفاتحة، والمتوجهة من الشرق إلى الغرب، والتي تقع في المنطقة المعتدلة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي. سـيكون هـذا التجمّع المتعدد الأعراق مكونـا مـن دول مدينية تضم العديد مـن الضواحي المتراميـة الأطراف، والتي سـتكون من الناحية البصرية مماثلة تدريجيا لبعضها البعض، سواء كانت مدينة كاسكاديا في شمال غرب المحيط الهادي أو أوماها - لنكولن في ولاية نبراسكا، والتي تقوم كل منها برعاية علاقاتها الاقتصادية الخاصة مع المدن والشـبكات التجارية في جميـع أنحاء العالم، مع مواصلة التكنولوجيا لتقويض المسـافات. ومن وجهة نظري، سـتصبح أمريكا أبرز مناطق العالم الساخنة للمعاملات التجارية المعفاة من الرسوم الجمركية، وبالتالي ستصبح مكانا مفضلا لإقامة النخبة العالمية. وسيرا على التقاليد الرومانية، سـتواصل اسـتخدام قوانين الهجـرة الخاصة بها لتجريد العالم من أفضل وألمع الأصول، ومن ثم مواصلة تنويع السكان المهاجرين الذين، كما يخشى هنتنغتون، يتكونون في معظمهم من المكسـيكيين. ومن هذا المنظور، فإن النزعة القومية سـتكون، بالضرورة، مخففة قليـلا، لكن ليس بالدرجة التي تحرم أمريـكا من هويتها الفريدة من نوعها، أو التي تقوّض قوتها العسـكرية. وباختصار، لم تعد أمريكا جزيرة يحميها المحيطان الأطلسي والهادئ. وهي تزداد قربا من بقية أجزاء العالم، ليس فقط عن طريق التكنولوجيا، بل بفعل الضغوط الناجمة عن ديموغرافية المكسيك وأمريكا الوسطى.

لكن هذه الرؤية تتطلب أن تكون المكسيك دولة ناجحة، وليست دولة فاشلة؛ فـإذا نجح الرئيس كالديرون وخلفـاؤه في مهمة كسر ظهر كارتلات المخدرات على نحو حاسـم (وهو احتـمال بالغ الصعوبة، عـلى أقل تقدير) فسـتكون الولايات المتحدة قد حققت نصرا إسـتراتيجيا أكبر من أي نصر ممكن في الشرق الأوسط. إن المكسـيك المسـتقرة والمزدهرة، التي تعمل بالتنسيق الوثيق مع الولايات المتحدة، سـتكون مزيجا لا يضاهى في الجغرافيا السياسـية. ومن شـأن المكسيك بعد زوال الكارتلات، جنبا إلى جنب مع كولومبيا مستقرة وموالية للولايات المتحدة (وهو أمر

يقــترب من كونه حقيقة في الوقت الحــالي)، أن تدمج معا أكبر، وثالث أكبر، ورابع أكبر البلدان في نصف الكرة الأرضية الغربي من حيث عدد الســكان، ما يخفف من حدة اســتمرار هيمنة أمريكا على أمريــكا اللاتينية ومنطقة بحر الكاريبي الكبرى. باختصار، كان باسيفيتش مُحقا في استنتاجه القائل بأن إصلاح المكسيك أكثر أهمية من إصلاح أفغانستان.

مع الأسف، كما يدّعي باسيفيتش، فإن المكسيك هي كارثة محتملة، والتي أدى تركيزنا على الشرق الأوســط الكبير إلى تحويــل انتباهنا عنها؛ وإذا ظلت الأمور على هذا النحو، فســيؤدي ذلــك إلى مزيد من الهجرة، القانونيــة وخاصة غير الشرعية، التي من شــأنها خلق السيناريو الذي يتخوّف منه هنتنغتون. أدت حملة كالديرون ضــد أباطــرة المخدرات إلى مقتل 47 ألف شــخص منذ العــام 2006، مع ما يقرب مــن 4 آلاف ضحية خــلال النصف الأول من العام 2010 وحــده. وفضلا عن ذلك، طوّرت الكارتلات أسلوبها بحيث صارت تنفّذ هجمات ذات طابع عسكري، في وجود مجموعة معقدة من الفخاخ وإغلاق طرق الهروب أمامها. من جانبه، خلص خافيير كــروز أنغولــو Angulo، وهو خبير أمني مكســيكي، إلى أنهم «ينفــذون تكتيكات قتالية من النوع المســتخدم في الحروب؛ فقد تجاوزوا تلك الإســتراتيجيات المعتادة للجريمــة المنظمــة». أما تيــد غالين كاربنتر، وهو نائب الرئيس لشــؤون دراســات الدفاع والسياســة الخارجية في معهد كاتو في واشنطن، فقد كتب قائلا: «إذا استمر هذا الاتجاه فســيكون تطورا مقلقا للغاية بالنســبة إلى صحــة، وربما إمكانية بقاء، الدولة المكسيكية». تتسم الأســلحة التي تستخدمها الكارتلات عموما بتفوقها على تلك الموجودة لدى الشرطة المكســيكية وبكونها شــبيهة بتلك التي يمتلكها الجيش المكسيكي. وإلى جانب التكتيكات ذات الطراز العسكري، بوسع الكارتلات أن تنتقل، عــلى حد تعبير كاربنتر، «من كونها مجرد منظمات إجرامية إلى كونها تمردا خطيرا». لقــد جرى نشر قوات حفظ الســلام التابعة للأمم المتحدة في الأماكن التي تشــهد عنفــا أقل مما في ولايتي ســيوداد خواريز وتيخوانا. وبالفعــل، صار ضباط الشرطة والسياسيون المحليون يتخلون عن مناصبهم خوفا من الاغتيال، كما أن أفراد النخبة المكسيكية في قطاعي الأعمال والسياسة يقومون بإرسال أسرهم إلى خارج البلاد، مع تواصل فرار أفراد الطبقة المتوسطة والطبقة المتوسطة العليا إلى الولايات المتحدة[31].

تقف المكسيك الآن على مفترق طرق: فهي إما في المرحلة المبكرة من الهجوم أخيرا على الكارتلات، وإما أنها تغرق في مزيد من الفوضى؛ أو كلاهما. ولأن مستقبلها معلق، فما تفعله الولايات المتحدة قد يكون محوريا. غير أنه في أثناء حدوث ذلك انشغلت المؤسسة الأمنية الأمريكية في مجتمعات فاسدة معروفة وغير مستقرة أخرى في النصف الآخر من العالم، مثل العراق حتى العام 2011، وأفغانستان على الأقل حتى العام 2014.

وخلافا لتلك الأماكن، فإن سجل التدخل العسكري الأمريكي في منطقة الحدود المكسيكية يُظهر نجاحا معقولا. وبالرغم من أن القرب من المكسيك يهدد الولايات المتحدة ديموغرافيا، فهو مفيد من الناحية اللوجستية عند محاولة السيطرة على الحدود. وكما أشار إليه دانيلو، فخلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تمكنت الولايات المتحدة والمكسيك من تقليص اللصوصية على الحدود من خلال التعاون الثنائي بين البلدين. وبين العامين 1881 و1910، تضافرت جهود الرئيس المكسيكي بورفيريو دياز Díaz مع الرؤساء الأمريكيين في القيام بدوريات مشتركة على الحدود. كان حرس الحدود المكسيكيون يركبون مع تكساس رينجرز أثناء مطاردة هنود الكومانش Comanche. وفي ولاية أريزونا، شن جنود أمريكا والمكسيك حملات مشتركة ضد هنود الأباتشي Apaches. أما اليوم، فإن مهمة القضاء على كارتلات المخدرات عبر التضاريس الوعرة والنائية في الجبال والسهوب التي تمتد إلى الخلف حتى مدينة سيوداد خواريز هي مهمة يضطلع بها الجيش، الذي يقدم المساعدة للسلطات المكسيكية بهدوء، بيد أنه لا يوجد إطار قانوني لهذا التعاون، الأمر الذي يرجع جزئيا إلى التفسير الصارم من جانب الولايات المتحدة للقوانين المتعلقة بقوة الإقليم posse comitatus ، والتي تعود إلى القرن التاسع عشر[32]. وفي حين أننا أنفقنا مئات المليارات من الدولارات للتأثير في النتائج التاريخية في أوراسيا، فقد كنا سلبيين على نحو غريب تجاه ما يحدث في بلد نتشارك معه حدودا برية طويلة، والذي يوشك على السقوط في دوامة الفوضى، والذي يبلغ عدد سكانه ما يقارب ضعفي سكان العراق وأفغانستان مجتمعين.

من المؤكد أنه بوسع المرء أن يجادل في أنه، في ظل المهمة الهرقلية التي تتمثل في مراقبة الحدود، يمكن لأمريكا الفعالة والقومية أن تتعايش جنبا إلى جنب مع

المكسيك المحتلة والتي تعاني من الفوضى جزئيا، لكن هذا ينطبق أساسا على المدى القصير.

وعلى المدى الطويل، وبالنظر عميقا إلى القرن الحادي والعشرين وما بعده، مرة أخرى، كما أشار إليه توينبي، فإن الحدود بين مجتمع متطور للغاية ومجتمع أقل تطورا لن تحقق أي توازن، لكنه سيتقدم لمصلحة المجتمع الأكثر تخلفا. وبعبارة أخرى، فإن الحفاظ على القومية الأمريكية للدرجة التي ترضي هنتنغتون لا يمكن تحقيقه ما لم تصل المكسيك إلى مصاف دول العالم الأول. وإذا وصلت المكسيك بالفعل إلى مصاف دول العالم الأول، فقد تصبح حينئذ أقل تهديدا، ومن ثم فإن وتيرة الامتزاج بين المجتمعين ستتسارع.

وفي كلتا الحالتين، وبسبب الحقائق التي تفرضها الخريطة، فنحن نتجه نحو اتحاد بين المكسيك وأمريكا بشكل أو بآخر؛ برغم أنه، وبطبيعة الحال، يمكن لأفعال واضعي السياسات على كلا جانبي الحدود أن تحدد الشروط والظروف التي يمكن أن يحدث هذا بموجبها. ونعود هنا إلى توينبي:

> أدى بناء الحوائط limes [الرومانية] إلى تفعيل التآثر بين القوى الاجتماعية، والذي كان لزاما أن ينتهي بصورة كارثية لمن قاموا ببنائه. إن سياسة عدم التعامل مع «البرابرة» في ما وراء الأسوار كانت غير عملية تماما. وأيا كان ما تقرره الحكومة الإمبراطورية، فإن مصالح التجار والرواد، والمغامرين، وما إليها، ستجتذبهم حتما إلى ما وراء الحدود[33].

وقد كتب توينبي أيضا أن «الدولة العالمية تُفرض من قبل مؤسسيها، ويقبلها رعاياها، باعتبارها الدواء الشافي للعلل السائدة زمن الاضطرابات»، كما أنه يذكر مصر في عهد «الإمبراطورية الوسطى» والإمبراطورية البابلية الجديدة، وبلاد فارس في عهد الأخمينيين، والنظام الملكي السلوقي Seleucid، والسلام الروماني، وسلام هانيكا Pax Hanica في العالم الصيني Sinic باعتبارها جميعا أمثلة على دول عالمية أساسا، والتي تعايشت فيها الشعوب والعقائد المختلفة من أجل المنفعة المتبادلة. أما روما، على وجه الخصوص، فقد أتقنت التعامل مع هذه القضية الشائكة للولاء المزدوج، بحيث لا تتعارض المواطنة للمدينة العالمية المتمثلة في روما مع الانتماء لإقليم محلي بعينه[34]. وقد يكون الأمر، بالتالي،

أن الدولة العالمية سيثبت عند نقطة ما من المستقبل أنها الدواء الشافي لزمن الاضطرابات هذا، والذي يعصف حاليا بشمال المكسيك وجنوب غرب الولايات المتحدة في المنطقة الحدودية.

سيكون من الصعب أن نبالغ في أهمية هذا التحول الهائل في مفهوم وخرافة السيادة الوطنية، حتى في الوقت الذي يحدث فيه هذا ونحن نتحدث فيما هو، وفقا لمعايير وسائل الإعلام، الزمن الجيولوجي. عندما تجوّلت في أرجاء الولايات المتحدة في العام 1970، فقد عايشت بشكل ملموس كيف أنه لا توجد قارة أخرى أكثر ملاءمة لبناء الأمم من المنطقة المعتدلة من أمريكا الشمالية. وفرت جبال الأبالاش Appalachians حدودا غربية لمجتمع وليد من الولايات حتى نهاية القرن الثامن عشر، لكن وديان الأنهار المتقاطعة مع هذه الجبال، مثل الموهوك وأوهايو، سمحت باختراق الغرب من قبل المستوطنين. وفيما وراء جبال الأبالاش، وجد المستوطنون مساحات مسطحة من الأراضي الزراعية الغنية التي تفتقر إلى العوائق الجغرافية حيث كان بإمكانهم، في القرن التاسع عشر، بناء الثروات، مع طرح اختلافاتهم البشرية وصولا إلى صياغة الثقافة الأمريكية المميزة.

يضم حوض نهر المسيسيبي الأكبر، جنبا إلى جنب مع قناته بين الساحلية، مسافة من الأنهار الصالحة للملاحة أطول من بقية دول العالم مجتمعة، كما يُغطي أكبر قطعة من الأراضي المتجاورة الصالحة للزراعة في العالم. وبحلول الوقت الذي وصل فيه رواد الغرب إلى عوائق شاقة بالفعل - أي الصحراء الأمريكية الكبرى، على كل من الجانبين الشرقي والغربي لجبال روكي - كان خط السكك الحديدية العابر للقارة قد اكتمل بناؤه[35]. وكما أشارت إليه إحدى وثائق شركة ستراتفور، فإن «ساحل المحيط الأطلسي للولايات المتحدة يضم عددا أكبر من الموانئ الرئيسية مما تحتويه بقية بلدان نصف الكرة الأرضية الغربي مجتمعة ... لا يتسم الأمريكان بالأهمية بسبب مَن هم، بل بسبب المكان الذي يعيشون فيه»[36]. عندما قام الجغرافي أرنولد غويو Guyot بدراسة الجزء القاري من الولايات المتحدة في العام 1849، أي قبل الحرب الأهلية وانتصار الثورة الصناعية، فقد اعتبرها إليها - جنبا إلى جنب مع أوروبا وآسيا - واحدة من «الأنوية القارية» التي كان من المقدر لها أن تسيطر على العالم. لكنه اعتقد

في ذلــك الوقت أن أمريكا ســتقود الطريق متفوقة على النواتــين الأخريين. أما الأســباب فهي أن أمريكا محمية وراء «ســتار من المحيطات» على الجانبين، مما ســمح لها - برغم ذلك - بأن تتفاعل مع أوراســيا؛ كما أن تطورها كان مضمونا بفعل «التواصل البيني للأجزاء الداخلية المروية جيدا»[37]. من القارة. وكما كتب جيمس فيرغريف في العام 1917.

> «هنا، إذن، هــي الولايات المتحدة»، وهي تتبوأ مكانة في دائرة الأراضي، ممثلة «خريطــة الأرض» orbis terrarium الجديدة؛ برغم كونها تقع خارج النظــام [الأوراسي] الــذي كان الأهــم حتى ذلــك الوقــت، إذ كانت متضامة ومتماسكة، مع مستودعات هائلة من الطاقة، في حين تواجه المحيطين الأطلسي والهادئ، وتمتلك علاقات مع شرق وغرب أوروبا وآســيا، والمستعدة من خلال قناة بنما المحصنة لدفع أسطولها الموحد إلى أي المحيطين[38].

إن هــذه العظمة القارية، المؤطرة من قبل محيطين اثنين، لاتزال موجودة حتى الآن؛ لكن ثمة جغرافيا مفاهيمية أخرى بدأت في التداخل معها، وهي تلك المتعلقة برحلة كورونادو Coronado بين العامين 1540 و1542 لاستكشــاف الجزء الأوسط من غرب المكسيك شمالا عبر ولايات أريزونا، ونيو مكسيكو، وتكساس، وأوكلاهوما، وكانســاس. وفي حين أن الرحلة التي قام بها لويس وكلارك Lewis and Clark بين العامين 1804 و1806 لاستكشــاف أراضي لويزيانا وأوريغون جعلت أمريكا متصلة من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، ما عمل بالتالي على وضع الأســاس الفكري لبناء دولة قومية قارية حديثة، فإن استكشافات كورونادو - من الجنوب إلى الشمال بدلا من الشرق إلى الغرب – على الرغم من أنها جرت في وقت ســابق، كانت بعد - حداثيــة بطريقتها الخاصة: فهــي لم تكن مقيّدة بأي وعي وطني، كما وفرت توجها لإقامة دولة عالمية مستقبلية تمتد من المكسيك شبه الاستوائية إلى المناطق المعتدلة من أمريكا الشــمالية. كان فرانسيسكو فاســكيز دي كورونادو يبحث عن الذهب، والسلب والنهب، والثروة السهلة، كما كان صاحب عقلية ترجع إلى القرون الوسطى. غير أن المهاجرين الجدد من ذوي الأصول الإسبانية المتوجهين شمالا لم يكونوا منتمين إلى القرون الوسطى، فهم يبحثون عن وظائف- التي غالبا ما تستلزم القيام بأعمال يدوية مُضنية- وبالتالي فهم على استعداد للعمل بجد لتحقيق مكاسب مادية، ومن

ثم يخضعون للتحوّل بفعل أخلاقيات العمل الأنجلو - بروتستانتية في الوقت نفسه الذي يقومون فيه بتحويل ثقافة أمريكا الأنجلو - بروتستانتية.

إن جودة وسـيولة هذا التفاعل الثقافي والثنائي القومية، كما يمكن المجادلة، وأكـثر من أي ديناميـة منفردة أخرى، تحدّدان مدى جـودة تفاعل أمريكا مع الجزيرة العالمية التي وصفها ماكيندر (أوراسـيا وأفريقيا). من المرجح أن تتسم السياسة الخارجية الأمريكية بكل من الحكمة والطيش بالتناوب على مر العقود؛ لكن القوة الاقتصادية، والقوة الثقافية، والقوة المعنوية، وحتى القوة السياسية والعسـكرية الأمريكية سـتتأثر بشكل كبير بما إن كان في وسـعنا أن نتطور إلى دولة فائقة من نوع ما، والتي تتسم بكونها متماسكة وثنائية اللغة مع المكسيك وكنـدا، أو، بدلا من ذلك، أن نصبح محاصرين من قبل منطقة حدودية مختلة، وشاسـعة، وجامحة على نحو متزايد، والتي ترسّـخ التوتر الحضاري بين الثقافة الأمريكيـة الأنجلو - بروتسـتانتية التي لاتزال مهيمنة وبين نظيرتها الإسـبانية. هناك ما يبرر مخاوف هنتنغتون؛ لكن الحل الذي طرحه هو الذي يتسم بكونه خاطئا جزئيا.

لنضع في اعتبارنا، كما أخبرنا بول براكن وغيره، أن الجغرافيا السياسية للأرض تشـكل نظاما مغلقا وخانقا على نحو متزايد. أما التقاطعات الثقافية والسياسية عبر البحار فسـتصبح عضوية أكثر وأكثر. وبالتالي، إذا لم تتقارب الولايات المتحدة والمكسـيك في نهاية المطاف بالدرجة نفسـها التي تمتلكها الولايات المتحدة مع كندا بالفعل - أي إذا لم نتخذ المكسـيك حليفـا حميما وموثوقا به في المنتديات العالمية - فسـيؤثر ذلك سلبا في علاقات أمريكا الأخرى، خصوصا مع تزايد سكان المكسـيك (وأمريكا الوسـطى) بمعدلات أعلى بكثير مما لدينا، وبالتالي سـتزداد أهمية المكسـيك بمرور الوقت. إن استكشـاف بروديل للبحر المتوسط في القرن السـادس عشر يوضح الدور الذي تؤديه القوى الطبيعية مثل الجغرافيا على مر الزمن، ولهذا السـبب يجب أن تؤدي المكسـيك دورا محوريا في أي إستراتيجية كبرى نستقر عليها.

لنفكّر في مستقبل العالم على أنه يشبه تقريبا النظام الملّي millet system في الإمبراطورية العثمانية القديمة: وكما وصفه توينبي، فهو «شبكة من المجتمعات

المتداخلة جغرافيا»، وليس «خليطا مـــن ... الولايات الضيقة المعزولة»[39]. وفيه ســتؤثر كل علاقة في العلاقــات الأخرى كما لم يحدث من قبــل. وكما رأينا، فإن العقود المقبلة ستشهد قيام السكك الحديدية، والطرق، وخطوط الأنابيب بربط جميع أجزاء أوراســيا من خلال مركز يقع في آســيا الوســطى، وبصفة خاصة في أفغانســتان. ومن شأن أوراسيا المتناغمة والمتحدة أن تستلزم، من أجل موازنتها، كون أمريكا الشــمالية متناغمة ومتحدة، من القطب الشمالي الكندي إلى أدغال أمريكا الوسطى. إن عدم مواصلة تعميق الروابط مع المكسيك وأمريكا الوسطى، اللتــين تضمان مجتمعتين عددا من الســكان يماثل نصف عدد ســكان الولايات المتحدة، ســتنتج عنه رؤية المكســيك وربما بعض جيرانها الجنوبيين، وهي تنزلق إلى مدار ديبلوماسي وســياسي عدائي في عالم ستكون أوراسيا فيه أقرب مما كانت عليــه في أي وقت مــضى. يتمثل الطريق في الوقاية من فنزويــلا الموالية لإيران، وغيرهــا من الدول الراديكالية الأخرى التي قد تظهر من وقت إلى آخر في نصف الكرة الأرضية الغربي، هو إدراج منطقة الكاريبي الكبرى في منطقة للتجارة الحرة والهجرة البشرية، والتي، بالضرورة، ســتكون خاضعــة للهيمنة الأمريكية، حيث يقوم الســكان الشبان من المكسيك وأمريكا الوسطى بتوريد القوى العاملة بدلا من ســكان أمريكا الذين تداهمهم الشيخوخة. وبطبيعة الحال، فهذا ما يحدث بالفعل، غير أن شدة التبادل البشري ستزداد، كما ينبغي لها أن تفعل.

وكما كتب نيكولاس ســبيكمان، فإن «الحرب العالمية، وكذلك السلام العالمي، يعنــي أن جميع الجبهات والمناطق مترابطــة. ومهما كان مقدار تباعدها بعضها عن بعض، فإن النجاح أو الفشــل في واحدة منها ســيكون له تأثير فوري وحاسم في الأخــرى»[40]. ويصح هذا الأمــر اليوم على نحو أكثر بكثــير مما كان عليه في العام 1944، عندما نشر هذا التصريح بعد وفاته؛ كما ســيكون أكثر صحة بكثير في المســتقبل. وكما أشــار إليه روبرت شــتراوس - هوبي، فإن «تاريخ اليونان هو كفاح من أجل البقاء عــلى قيد الحياة في مواجهة الغزوات الدورية القادمة من آســيا»[41]. إذا فكّرنا في مدى قرب اليونان القديمة من بلاد فارس، فسنستشــعر مــدى قربنا نحن من أوراســيا الآن، بالنظر إلى الثورة الجارية في وســائل النقل والاتصــالات. وبالتــالي، فإن التأكد من أن إحدى القــوى في نصف الكرة الأرضية

الشرقـــي لن تصبح مهيمنة بصـــورة مفرطة، وبالتالي تهـــدد الولايات المتحدة في نصف الكرة الأرضية الغربي، ســـتكون مهمة أسهل بكثير إذا قمنا بتعزيز الوحدة في نصف الكرة الأرضية الغربي في المقام الأول.

يجـــب أن نعمل كقوة موازِنة في أوراســـيا وكقوة موحّدة في أمريكا الشـــمالية- فالقيام بالدورين معا سيكون أســـهل من القيام بدور واحد فقط. وبطبيعة الحال، لا بـــد من القيام بحفظ تـــوازن القوى لغرض معين يتجاوز حمايـــة المصالح المادية والاقتصاديـــة للولايات المتحدة. ويتمثل ذلك الغرض في اســـتخدام الاســـتقرار الذي يكفلـــه توازن القـــوى في نصف الكرة الأرضيـــة الشرقي في تعزيـــز القضية الفكرية الليبرالية لأوروبا الوسطى، ومن ثم في جميع أنحاء العالم.

وكما يؤكد ســـتيفن ديدالوس Dedalus «أهميته كحيـــوان عقلاني واع»، والتي تعني في الواقع مقاومة المصير، يجب علينا ألا نستسلم للجغرافيا مطلقا، لكن يجب أن نكون واعين بها في الأساس خلال سعينا من أجل تحقيق عالم أفضل. إن التوق إلى مفهوم أوروبا الوسطى الكوزموبوليتانية الذي ظهر في أعقاب الحرب الباردة، والذي استرشـــدت به في بداية هذه الدراســـة، هو ما وصلنا إليه في نهايتها. أما إن كان هذا الهدف قابلا للتحقيق أو لا، فهو أمر يســـتحق دائما أن نســـعى جاهدين إليه، على أمل أن تكون المكسيك إلى جانبنا. وقد استشعر ماكيندر هذا بحدسه في دعوته إلى إنشاء دول عازلة حيوية ومستقلة بين أوروبا البحرية والأرض المركزية، مشيرا إلى أن العالم المتوازن هو عالم حُر.

المؤلف في سطور

روبرت د. كابلان

- ولد في العام 1952 في مدينة نيويورك، وتخرج في العام 1973 من جامعة كونيتيكت.
- سافر ما بين عامي 1973 و 1974 في جميع أنحاء أوروبا والشرق الشيوعي وأجزاء من الشرق الأدنى؛ وفي العام 1975 غادر الولايات المتحدة، حيث عمل مراسلا صحافيا في جميع أنحاء العالم العربي ومنطقة البحر المتوسط، حيث قضى فترة 16 عاما خارج الولايات المتحدة.
- ألف خمسة عشر كتابا من أكثر الكتب مبيعا حول الشؤون الدولية والسفر، وتُرجمت إلى العديد من اللغات.
- نُشرت له مقالات في عديد من الصحف الأميركية المرموقة، وكذلك في جميع المجلات الرئيسية حول الشؤون الخارجية.
- عمل مستشارا لفوج القوات الخاصة في الجيش الأمريكي، وسلاح الجو الأمريكي، ومشاة البحرية الأمريكية.
- حاضر في كليات الحرب العسكرية، ومكتب التحقيقات الفدرالي، ووكالة الأمن القومي، وقيادة الأركان المشتركة في البنتاغون، ووكالة الاستخبارات الدفاعية، ووكالة المخابرات المركزية، وفي العديد من الجامعات الكبرى، والمنتديات التجارية العالمية.
- في العام 2009، عينه وزير الدفاع روبرت غيتس عضوا في مجلس السياسات الدفاعية في البنتاغون، والذي يقدم المشورة إلى الوزير بشأن القضايا الرئيسية، واستمرت عضويته في المجلس حتى العام 2011.
- اختارته مجلة السياسة الخارجية في عامي 2011 و 2012 واحدا من بين «أفضل مائة مفكّر عالمي».

المترجم في سطور

د. إيهاب عبدالرحيم علي

- وُلد في مصر عام 1965، ويحمل الجنسيتين المصرية والكندية.
- تخرج في كلية الطب، جامعة أسيوط (مصر)، بمرتبة الشرف عام 1988.

- حاصـل عـلى العديد من شـهادات الدبلوم والماجسـتير في الطـب والإعلام الصحي والترجمة من جامعات مختلفة.
- مترجـم معتمد وعضو لجنة اللغات الأجنبيـة بالجمعية الكندية للمترجمين بمقاطعة أونتاريـو، بالإضافـة إلى اضطلاعـه بتقييم مسـتوى المترجمين المتقدمـين لاختبارات «المترجم المعتمد إلى اللغة العربية» بكل المقاطعات الكندية.
- أشرف على ترجمة وتحرير عدد كبير من الكتب، والمعاجم، والمقالات الطبية والعلمية والاقتصادية.
- شارك في تأليف ثلاثة كتب هي : ثورات في الطب والعلوم (كتاب العربي رقم 36 - 1999)؛ والثقافة العلمية واسـتشراف المسـتقبل العربي (كتاب العربي رقـم 67 - 2007)؛ ودليل الإعلامي العلمي العربي (الرابطة العربية للإعلاميين العلميين، مصر، 2008).
- ترجـم لسلسـلة «عالم المعرفة» مجموعـة من الكتب منها: «البحـث عن حياة على المريخ» (العدد 288)، «الطاقة للجميع» (العدد 321)، «نحو شركات خضراء» (العدد 329)، «العولمة والثقافة» (العدد 354)، «يقظة الذات» (العدد 375)، «لماذا تتحارب الأمم» (العدد 403)، إلى جانب العديد من الكتب المهمة التي صدرت عن مؤسسات ثقافية عربية أخرى.

هذا الكتاب...

في هـذا الكتاب المثير، يطرح المؤلف منظـورًا جديدًا لعرض الاضطرابات العالمية، وفهم ما ينتظر القارات والبلدان في جميع أنحاء العالم في المستقبل. وفي هذا الكتاب يبني المؤلف عـلى أفكار، واكتشـافات، ونظريات كبـار الجغرافيين والمفكرين الجيوسياسـيين في الماضي القريب والبعيد، وذلك للنظر إلى الوراء حيث المحاور الحاسـمة للتاريخ، ومن ثم يستشرف مستقبل الساحة العالمية المتطوّرة دومًا.

يتتبع الكتاب تاريخ النقاط السـاخنة في العالم من خلال دراسة مناخها، وطبوغرافيتها، ومـدى تقاربها من الأراضي المحاصرة الأخرى؛ فعلى سـبيل المثال، أدى المناخ الذي لا يرحم للسـهوب الروسـية والغطاء النباتي المحـدود إلى صنع رجال يتميزون بالصلابة والقسـوة، ومصممـين على إحـداث الدمار، في حين قام خبراء الجغرافيا السياسـية النازيون بتشـويه الجغرافيا السياسية تماما، من خلال الظن بأن ثمة وطنًا ألمانيًا أكبر يمكنه ابتلاع تلك المساحة من الكرة الأرضية التي تحتلها الإمبراطورية البريطانية والاتحاد السوفييتي معًا.

وبعد ذلك، يطبّق المؤلف الدروس المسـتفادة على الأزمـات الحالية في كل من أوروبا، وروسيا، والصين، وشبه القارة الهندية، وتركيا، وإيران، والشرق الأوسط العربي. وتمثلت نتيجة ذلك في الوصول إلى تفسير شمولي للدورة المقبلة من الصراع في جميع أنحاء أوراسيا. يشرح الكتاب كيف يمكننا أن نفهم المستقبل في سياق درجة الحرارة، وتخصيص الأراضي، والثوابت المادية الأخرى. وعلى سـبيل المثال، نجد أن الصين، التي لا يمكنها إطعام سـوى 23 في المائة فقط من شعبها من الأرض التي لا تزيد نسبة الأراضي الصالحة للزراعة فيها على 7 في المائة قد سـعت إلى الحصول عـلى الطاقة والفلزات والمعادن من الأنظمة الشـديدة مثل بورما، وإيـران، وزيمبابوي، مما وضعها في صراع أخلاقي مع الولايـات المتحدة. ومن ناحية أخرى، فإن حدود أفغانستان التي يسهل اختراقها تجعل منها الطريق الرئيسي لغزو الهند، وقاعدة خلفية حيوية لباكستان، وهي العدو الرئيسي للهند. أما إيران، فستستغل ميزة كونها الدولة الوحيـدة التي تمتد عبر كل المناطق المنتجـة للطاقة في الخليج العربي وبحر قزوين. وأخيرا، يفـترض المؤلف أن الولايات المتحـدة قد تندم على التورط في الصراعات البعيدة مع العراق وأفغانستان، بدلا من أن تهتم بجارتها المباشرة، المكسيك، التي توشك على التحوّل إلى دولة شبه فاشلة، بسبب المذابح التي تقوم بها عصابات المخدرات.

يقدم الكتاب ردا متبصرا على المفكرين الذين يشيرون إلى أن العولمة ستنتصر جغرافيًا، ومـن ثم يُظهر كيف يمكن للوقائـع الخالدة والحقائق الطبيعية أن تسـاعد في منع وقوع الكوارث التي تلوح في أفق القرن الحالي.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 440 - 5
رقم الإيداع (2014/866)